صفحات من صبر العلماء

على شدائد العلم والتحصيل

بقلم

عبد الفتاح أبو غدة

ولد سنة ١٣٣٦ وتوفي سنة ١٤١٧
رحمه الله تعالى

اعتنى بإخراجه وترجم لمؤلفه

سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

دار البشائر الإسلامية
مكتب المطبوعات الإسلامية

قال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه:
سمعتُ أنْ قلَّ رجلٌ يأخُذُ كتاباً يَنْظُرُ فيه إلا استفادَ منه شيئاً.

صفحات من صبر العلماء
على شدائد العلم والتحصيل

قال الشيخ ابنُ عطاءِ الله الإسكندري رحمه الله تعالى: مَنْ لم تكن له بِدَايَةٌ مُحْرِقَة، لم تكن له نِهَايَةٌ مُشْرِقَة.

صَفَحَاتٌ مِنْ صَبْرِ العُلَمَاءِ

عَلَى شَدَائِدِ العِلْمِ وَالتَّحْصِيلِ

بقلم

عَبْدِ الفَتَّاحِ أَبُو غُدَّة

وُلِدَ سَنَة ١٣٣٦ وتُوُفِّيَ سَنَة ١٤١٧
رَحِمَهُ الله تعالى

اعتنى بإخراجه وترجم لمؤلفه

سَلْمَانُ بْنُ عَبْدِ الفَتَّاحِ أَبُو غُدَّة

مكتب المطبوعات الإسلامية

دار البشائر الإسلامية

الطبعة الأولى في بيروت سنة ١٣٩١هـ = ١٩٧١م
الطبعة الثانية في بيروت سنة ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م
الطبعة الثالثة في بيروت سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١م
وهي مَزِيدة كثيراً على الطبعة الثانية وأتمُّ منها
الطبعة الرابعة في بيروت سنة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م
الطبعة الخامسة في بيروت سنة ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م
الطبعة السادسة في بيروت سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م
الطبعة السابعة في بيروت سنة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م
الطبعة الثامنة في بيروت سنة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م
الطبعة التاسعة في بيروت سنة ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م
الطبعة التاسعة في بيروت سنة ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م
الطبعة العاشرة في لبنان ـ بيروت ١٤٣٣ = ٢٠١٢

مصححة ومدققة ومنقحة وفيها ترجمة المؤلف رحمه الله

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م
بيروت ـ لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٧٠٢٨٥٧/٠٠٩٦١١ فاكس: ٧٠٤٩٦٣/٠٠٩٦١١
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb
website: www. dar-albashaer.com

قال عبد الله بن المبارك : إن وَجدتَ على الحائط موعظةً فانظُرْ فيها تَتَّعِظ ، قيل : فالفِقهُ؟ قال : لا يَستقيمُ إلا بالسَّماع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله البرّ الجَواد، الكريم ذي الأيادِ، والصلاة والسلام على رسولنا السيد المصطفى المختار، ذي الشمائل والفضائل والمآثر والأنوار، وعلى آله وصحبه وتابعيهم وتابعي تابعيهم السادة البررة الأخيار، **أمّا بعد:**

فهذه الطبعة السابعة ــ بكرم الله ــ لهذا العِقْد النفيس، أُزجيها للأحباب الكرام مجدداً التماس الدعوات للسيد الوالد رحمه الله وللخادم الفقير، ومذكِّراً مَن اقتبس منهم مِن هذا الكتاب أو غيره من كتب الوالد رحمه الله، واستفاد من مؤلفه أن لا ينسَ الإِحالة على مَن أفاده لينال البركة والقَبول، ولا يتشبّع بما لم يُعْطَ! وإلاَّ فالله رقيبه وحسيبه، وهو الحَكَم والموعد!

وأنبّه الأحباب الكرام إلى أنَّ ترجمة الوالد رحمه الله المدرجة في أول «لسان الميزان» هي أطول وأتمّ من هذه الترجمة بخمسة أمور يجدها مَن عاد إليها.

والله الموفق والمسدد والمسهِّل والمساعد، أسأله القَبولَ والصلاةَ والسلامَ على الحبيب الشفيع ﷺ، والحمد لله ربّ العالمين.

جدة الخير
٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٤

وكتبه
الفقير إليه تعالى
سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

تقدمة الطبعة السادسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وزَّع بين الخلق الهِبَات والمواهب، وأظهر في النابغين منهم العجائب والغرائب، وأكرم السالكين والمجدِّين منهم بأعلى وأغلى الطلائب والرغائب.

أحمَده ـ لا إلٰه إلاَّ هو ـ وأشكره، وأتوب إليه ـ جلَّ جلاله ـ وأستغفره، وأسأله أن يصلي ـ سبحانه وهو الرحيم ـ ويُسلِّم، ويبارك ـ تبارك وهو العظيم ـ ويُنعِم، ويكرِّم ـ تعالى وهو الكريم ـ ويعظِّم، على حبيبه ومصطفاه، سيد الأولين والآخرين، وقرة عيون المتقين، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود العظيم، على نحو يليق بجلاله وعظمته وكرمه ورحمته.

أما بعد: ـ فهذه هي الطبعة السادسة لهذا الكتاب الماتع، الذي فتح الله به على سيدي العلامة الوالد طيب الله ثراه وأكرمه به إكراماً كبيراً، إذْ كان الفاتحَ لهذا الباب، بما آتاه الله من علوم وآداب، والمبتدئَ لهذا التصنيف، بفن وعلم وذوق وتشريف.

حتى غدا كتابُه مرجعاً أصيلاً، ومنهلاً نبيلاً، فريداً في بابه، إماماً في محرابه، طرِب به العلماء والفضلاء، وأَنِسَ به المجدُّون والنُّبهاء، وتأججت به هِمم النُّجباء والنُّبغاء، وانتفع به الكبير والصغير، والقاصي والداني، والعَوَامُّ والخَوَاصُّ، فقُرِىء في الحلقات والمدارس، والندوات والمجالس،

فكان حقاً نزهةَ الجلساء وروضةَ العقلاء:

وكَـمْ لـكَ فيـه مِـنْ أَنِيـسٍ مُسَـافِـرٍ وكَـمْ لـكَ فيـه مِـنْ جَلِيـسٍ مُسَـامِـرِ

وقد كانت لسيدي العلامة الوالد طيب الله ثراه هموم كثيرة وآمال عديدة، منها: هَمُّ شَحْذِ الهمم لطلب العلم والنبوغ فيه، ولذا ألَّف عدداً من الكتب طمعاً منه أن تنهض بهمم طلبة العلم، وعلى رأسها هذه الألماسة البراقة الخلّابة: «**صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**»، التي تضاهي تلك الياقوتة اليتيمة: «**قيمة الزمن عند العلماء**».

وقد اهتم رحمه الله بشكلها وضبطها وتصحيحها وتنقيحها ليكون الانتفاع بها أتم وآكد.

ولما صدرت طبعة الكتاب المزيدة عام **١٤١٣** سُرَّ بها أهل العلم وطالبوه ومحبوه، وكان لها في أوساطهم صدى كبيرٌ، وفي قلوبهم وحُلومهم موقعٌ أثيرٌ، فقرأوه بشغف ونَهَم، وعكفوا عليه مرات تلو كرات، يشحذون بها هممهم كلما ضعُفت أو كلَّت، ويداوون به نفوسهم كلما تعبت أو ملَّت، واعتراها الكسل والفتور أو الكِبْر والقصور.

وتلقى سيدي العلامة الوالد طيب الله ثراه من كثير منهم رسائل ومطويات الحب والود والإعجاب والسرور، وكان في بعضها تصحيحات كريمة وقف عليها أولئك الأحبة الكرام.

وقد قمتُ في هذه الطبعة بتصحيح ما اعتمده الوالد رحمه الله من تلك التصحيحات، وما صححه أو أضافه ونقحه هو بنفسه كما في الصفحات **١١** و **٥٢** و **١٥٥** و **٣٩٦** و **٥٠٢**، كما قمتُ بإدراج ترجمة موجزة له رحمه الله لتضيف للمسك عوداً وللعود عنبراً وللعنبر كافوراً.

ولأولئك الكرام أزجي عني وعن سيدي العلامة الوالد طيب الله ثراه أكرم آيات الشكر والتقدير وأطيب دعوات الفضل والإحسان، فجزاهم الله خير الجزاء،

وأكرمهم وسيدي الوالد بجنة الفردوس الأعلى، مع سيِّد العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، والمجاهدين الصابرين، والمتقين الصالحين، صلَّى الكريم عليه وعلى آله وسلَّم أجمعين، صلاةً وسلاماً دائمين طيبين إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه
الفقير إليه تعالى
سَلْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْفَتَّاحِ أَبُو غُدَّة

الرياض غرة شعبان ١٤٢٠

ترجمة مؤلف الكتاب: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

بقلم ابنه سلمان

مضى (والدي) حينَ لم يبقَ مشرقٌ ... ولا مغـربٌ إلاَّ لـه فيـه مـادحُ
ومـا كنـتُ أدري مـا فـواضـلُ كَفِّـه ... علـى النـاسِ حتـى غيَّبَتـه الصفـائـحُ
فـأصبـح فـي لحـدٍ مـن الأرض ميِّتـاً ... وكـانـت بـه حيـاً تضيـقُ الصحـاصـحُ
سأبكيك ما فاضت دموعي فإنْ تَغِضْ ... فَحسبُـك منِّـي مـا تُجِـنُّ الجـوانـحُ
فمـا أنـا مـن رزءٍ وإن جَـلَّ جـازعٌ ... ولا بسـرورٍ بعـدَ مـوتِـكَ فـارحُ
كأَنْ لَمْ يمت حَيٌّ سواك ولم تَقُمْ ... علـى أحـدٍ إلاَّ عليـك النـوائـحُ
لئنْ حَسُنَتْ فيكَ المراثي وذكرُها ... لقد حسُنَتْ من قبلُ فيك المدائحُ(١)

*** اسمه وكنيته ونسبه ونسبته:**

هو أبو زاهد وأبو الفتوح عبدُ الفتاح بنُ محمدِ بنِ بشيرِ بنِ حسنِ أبو غدة، الحلبيُّ بلداً، الحنفي مذهباً، القرشي المخزومي الخالدي نسباً، المنسوب إلى سيدِنا خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه ونفعنا بحبه، والسير على نهجه ودربه. وذلك كما جاء في شجرة النسب التي تحفظ نسب الأسرة، وكما سمعته منه مراراً وتكراراً.

*** مـيـلاده:**

وُلد رحمه الله في منتصف رجب عام ١٣٣٦هـ، الموافق ١٩١٧م، كما سمع من والدته رحمهما الله تعالى، وذلك بمدينة حلب الشَّهْبَاء.

---

(١) الأبيات للأشجع بن عمرو السُّلمي، كما في «الحماسة» لأبـي تمام ١: ٤١٣.

* أسـرتـه:

كانت أسرتُه متوسطة الحال، ذاتَ بُروزٍ في محيطها.

وكان والده وجده رحمهم الله تعالى يحترفان التجارة بصنع المنسوجات الغَزْلِيَّة، التي كانت تسمَّى (الصَّايَات) وهي قماشٌ ينسج بالنَّوْل اليدوي، تارة لُحْمَتُه وسَدَاه غَزْل، وتارة لحمته وسداه حرير.

وكانت منتوجاتُهما أعلى المنتوجات جودةً وإتقاناً ورونقاً ومتانة، فكانت تُطْلب من السوق بعينها لذاتها، ويُصدَّر منها المئات إلى تركيا في الأناضول، فكان أهل بر الأناضول رجالاً ونساءً يلبسون منها.

كان والدُه وجدُّه يتَّجران بهذه الصناعة والتجارة، وكانا يعدان من أهل اليسر المحدود لا الغنى الطافح المشهود، وكانا من أهل السِّتر والعفاف وأهل التمسك بالدين وشعائره والمواظبة على الذكر وقراءة القرآن، ونَشَّأوا أبناءهم على ذلك، فجزاهم الله عنهم خير الجزاء.

وبعد كساد صناعة (الصَّايَات) بسبب تحول اللباس عند الأتراك من الثياب إلى (البدلة) الإفرنجية، تحوَّل والده إلى متجر في سوق الزَّهْر بحلب المتفرع من شارع بَانْقُوسَا، كان يبيع فيه الأقمشة المختلفة مما يلبسه أهل الريف الحلبـي.

ومن الطريف أنه يوم وُلد والدي رحمه الله باعا (جده ووالده) ألفَ صَايَة (دَرْجَة) ففرحا كثيراً. وأطلقا على المولود اسم عبد الفتاح لما فتح الله عليهما به يوم مولده.

وقد كان أساس سُكنى العائلة بحي الجُبَيْلَة، وقد كانت هناك أرض عليها دارٌ متواضعةٌ، وهي بالأصل لآل غدة وبعض أقاربهم وِرْثَة، فأخذ جده بشير ــ وقد كان من الوجهاء العقلاء الفصحاء النبلاء الفطنين الرزينين ــ هذه الأرضَ مراضاةً، حيث أتى بكاتب شرعي من المحاكم الشرعية، وبعضِ الوجهاءِ، ثم دعا من له حصة في هذه الأرض، وأعطاهم ما طلبوا حتى أرضاهم واستملك الأرض،

ثم جَدَّد هذا البيت وعَمَره عِمَارة جميلة، فأصبح فيه سبعُ غُرَف وأربعةُ أَقْبَاء (جمع قبو وهو الغرفة التي تكون تحت مستوى الأرض)، وكان واسعاً رحباً جميلاً حتى إن بعض الناس كان يقيم الأعراس فيه لجماله ورحابته، وقد أدرك والدي عملية التملك هذه وهو بين ٦ ـ ٨ سنين.

وقد قال والدي عن جده بشير: إنه كان أبعد نظراً من ابنه محمد.

وقد توفي جده عن قرابة ٨٥ سنة، وكان عمر والدي قرابةَ عشرين سنة، وكان براً بجده يحمله إلى حيث يريد بعدما أُقعد، ولما توفي كان والدي في مبدأ طلبه العلم، وقد طلب والدي العلم متأخراً وعمره ١٩ سنة تقريباً.

وتوفي والده رحمهم الله جميعاً ليلة الامتحان وهو في المدرسة الخُسْرُوية قبل ذهابه إلى الأزهر بسنتين، وعمره قرابة ٢٥ سنة، أي سنة ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م.

وكان لجدي رحمه الله خمسة أولاد: ثلاثة أبناء وابنتان، فأما الأبناء فهم: عبد الكريم وهو أكبرهم وكان ممن قاوم الفرنسيين ودوَّخهم، ومن أولاده الدكتور عبد الستار له مؤلفات ومشاركات في العلم الشرعي، وبخاصة في قضايا المعاملات والبنوك الإسلامية.

وعبد الغني ومن أولاده الدكتور حسن صاحب كتاب «أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام» أول مؤلف في هذا الباب، وغيره من الكتب.

ووالدي رحمهم الله جميعاً.

وأما البنات فهما شريفة وزوجها الحاج محمد سالم بيرقدار رحمه الله، ونَعِيْمَة وزوجها الحاج علي خيَّاطة متعهم الله بالصحة والعافية.

* نشأته وتحصيله العلمي:

نشأ والدي في حِجْر والده الذي كان كثير تلاوة القرآن والمحافظة على قراءته في المصحف، والمحب للعلماء المتقصد لحضور مجالسهم ودروسهم، والاقتباس من علمهم وإرشادهم.

ثم لما دخل في السنة الثامنة من العمر أدخله جده رحمه الله المدرسة العربية الإسلامية الخاصة، وكانت ذات تكاليف وأقساط مرتفعة، كما كانت ذات سمت عال، وإدارة حازمة، ومتانة في التعليم والأخلاق، فكان لا يدخلها إلاَّ عِلْية القوم، ووجهاؤهم.

فدرَس فيها من الصف الأول حتى الرابع دراسة حسنة، وتعلّم فيها ما محا منه الأمية، وأكسبه صحة القراءة والكتابة مع ضعف الخط عنده.

وكان لحسن قراءته وسدادها الفِطْري يدعوه كبارُ أهل الحي ووجهاؤه إلى سهراتهم الأسبوعية الدورية ليقرأ لهم من كتاب «تاريخ فتوح الشام» المنسوب للواقدي وغيره من الكتب التي كان الناس يسمرون على قراءتها، فحظي بصحبة الكبار الوجهاء والنخبة العقلاء الفضلاء، وهو في سن العاشرة وما بعدها، يعد من صغار أولاد الحي.

فكان يجلس في مجلس سَمَر كبارهم لحسن قراءته وخِفَّة ظِلِّه (لصغر سنه)، ورفعة مقام جده ووالده في الحي.

وبعدما ترك المدرسة توجّه إلى تعلُّم الخط الحسن، فدخل مدرسة الشيخ محمد علي الخطيب بحلب، وكان شيخاً صاحب مدرسة خاصة تُعَلِّم القرآن والفقه وحُسن الخط فقط، فتحسَّن خطه بعض الشيء، لكنه لم يصبر على الاستمرار في تعلم تحسين الخط طويلاً، فترك المدرسة بعد أشهر.

فرأى جدُّه ووالدُه ــ وكان قد صَلُب عوده ــ أن يتعلم حِرْفَةً أو صَنْعَةً، وقالا له: صنعة أو حرفة في اليد أمان من الفقر. ولم يكن في ذلك الوقت فقيراً، ليسر أسرته ولله الحمد، لكن جده ووالده أرادا أن يكون بيده حرفة خشية تحول الأيام وتقلبها على الكرام، فتعلم حرفة الحِيَاكَة: النَّوْل اليدوي، ولم يكن هناك نول آلي، وأحسَن المعرفة بهذه الحرفة، وقد تعلمها أخواه عبد الكريم وعبد الغني من قَبله رحم الله الجميع، وكانت هذه الحرفة تُدِرُّ مورداً حسناً يُفْرَح به، فتعلمها رحمه الله وادَّخر بعض الليرات الذهبية العثمانية، فكانت له خاصة،

ونفقته وعيشه متكفل به أبوه تمام التكفل رحم الله الجميع، وبقي في هذه الحرفة عاملاً ناجحاً لنحو سنتين أو ثلاث.

ثم بدا لجده ووالده أن يتعلم التجارة، فاختارا له أن يتعلم التجارة والبيع والشراء عند صديقَيْهما التاجر (عبد السلام قُدُّو) التاجر في سوق الطَّيْبية قرب باب الجامع الكبير الشمالي، فجلس عنده، وكان تاجراً يبيع القمصان والملابس المصنوعة بالجملة والمُفَرَّق، وأمضى عنده نحو سنتين وزيادة عليها، وكان رجلاً ديناً مستقيماً عفيفاً يشتري من عنده النساء والرجال، فاستملح وجود والدي عنده لصغر سِنِّه، فكان والدي رحمه الله يراقب حال بعض المشترين أو المشتريات الذين يُخْشى أن تكون منهم أو منهن سرقة لما يستعرضنه للشراء.

ثم انتقل من عنده إلى تاجر آخر من أصدقاء جده ووالده وبعض أرحامه، وهو (الحاج حسن التَّبَّان) رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح الجنان، وكان تاجراً بالجملة والمفرق في متجره في (سوق الجُوخ العَرِيض) من أسواق مدينة حلب المسقوفة.

فتعلم منه ما زاده معرفة بالتجارة وعرضها للمشتري من الرجال أو النساء، وبقي عنده ثلاث سنين، ثم رأى جده ووالده أن يستقل بالتجارة وقد قارب السادسة عشرة، فأدخلاه شريكاً في العمل دون المال مع التاجر (الحاج محمد دُنْيَا) الذي كان تاجراً بسوق الزَّهْر المتفرع من شارع (بَانْقُوسَا)، فشاركه نحو سنتين، وكان يتولى عنه البيع أكثر النهار، ويقوم بشراء ما نفِد من البضاعة من متاجر الجملة من تجار المدينة في (خان الكُمْرُك) وغيره.

ثم لما بلغ والدي التاسعة عشرة، أراد طلب العلم بالدخول في المدرسة الخُسْرُويَّة التي أنشأها الوزير العثماني الصدر خُسْرُو باشا رحمه الله، والتي سميت بعدما ضَعُف شأنها: الثانوية الشرعية.

فلم يرضَ جدي في بدء الأمر، فشَفَّع والدي عنده بعض معارفه من الوجهاء، فقالوا لجدي: ينبغي أن تُشَجِّعه لشرف هذا الأمر فسمح له.

ثم إن والدي لما أراد الدخول في المدرسة الخسروية قبلوه أول الأمر ثم

رفضوه لأن عمره ١٩ سنة، فشَفَّع صهرَه الحاج محمد سالم بيرقدار رحمه الله لدى بعض أصدقائه، وكان مديرَ الأوقاف في حينه، فكلَّم المسؤولين في لجنة القَبول فقبلوه، وكان الوالد والشيخ عبد الوهاب جَذْبَة رحمهما الله يتنافسان على القَبول، فإذا قُبِل الأول بقي الآخر إلى السنة التالية، فقُبل والدي، وكان بينهما مودة، وكان الشيخ عبد الوهاب يُلَقِّب والدي بالأصمعي لما يراه من اشتغاله بعلم اللغة.

وكان هناك رجل فاضل في الحي اسمه محمود سَلْحَدَار يحرِص على إقراء القرآن في المنزل وختمه كل يوم، وتسمى (رَبْعَة) ويعطي من يفعل ذلك ليرة ذهبية، فكان والدي في أثناء دراسته في الخسروية يشارك في هذه القراءة.

وقد دَرس والدي رحمه الله في الخسروية ست سنين من سنة ١٩٣٦م إلى سنة ١٩٤٢م، وكان متفوقاً على أقرانه في تلك السنوات الست.

ثم انتقل إلى الدراسة في الأزهر الشريف فدخل كلية الشريعة في الجامع الأزهر بمصر في عام ١٩٤٤م، وتخرّج في عام ١٩٤٨م حائزاً على شهادة العالمية من كلية الشريعة.

ثم درَس في «تخصص أصول التدريس» في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر أيضاً مدّة سنتين وتخرَّج سنة ١٩٥٠م، مع حصوله على إجازة في علم النفس.

ثم عاد بعد ذلك إلى موطنه.

وقد أملق والدي بعد وفاة والده رحمهما الله تعالى، حتى مرّ به يوم وهو لا يملك إلا اللباس الذي عليه، كما أنه منع نفسه في أثناء الطلب بمصر من الفاكهة حتى يشتري بثمنها كتباً عوضاً عنها.

*** مذهبه:**

كان رحمه الله حنفياً، متقناً للمذهب الحنفي الذي نشأ عليه ودرَسه على عدد من المشايخ ولا سيما الفقيهان الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ المفتي أحمد الحجي الكردي الحنفي مفتي الأحناف في حلب، كما كانت له قراءات ومطالعات فردية كثيرة يغوص فيها في أعماق الكتب ويُوَشِّي على صفحاتها ملاحظاته وآراءه.

وكانت له مشاركة قوية واطلاع جيد على المذهب الشافعي، وهما المذهبان السائدان في بلاد الشام.

قال تلميذه الكبير الشيخ محمد عوَّامة حفظه الله في «الاثنينية»[1]: وأحفظ لفضيلته مواقف عديدة كان ينبّه فيها السائل إلى فروع دقيقة في زوايا حواشي الفقه الشافعي.

ثم إنه شارك مشاركة قوية في الفقه الإسلامي عامة، ورفد ذلك منه اشتغاله الطويل بتدريس أحاديث الأحكام، ولذلك يرى القريب منه سعةَ صدر في الأحكام، وسماحة ــ لا تساهلاً ــ في الفتوى والتطبيق، لكنه يكره تتبع الرخص، والأخذ بشواذ الأقوال. اهـ.

---

(١) ١١ : ٦٢٠. والاثنينية: نسبة إلى يوم الاثنين، حفلة تكريم يقيمها الوجيه الحجازي سعادة الشيخ عبد المقصود بن محمد سعيد خُوْجَه يوم الاثنين في قصره بمدينة جُدَّة، يكرِّم فيها علماء وأدباء وشخصيات هذه الأمة الذين لا يُحِسُّ كثير من الناس بمكانتهم إلاَّ بعد أن يصبحوا جزءاً من التاريخ، وينتقلوا إلى الدار الآخرة.

فقام الشيخ عبد المقصود أحسن الله إليه بفرض الكفاية هذا خير قيام، ثم إنه طبع وقائع حفلات الاثنينية في مجلدات أنيقة لتدوَّن في التاريخ.

وعادته في تلك الحفلة أن يرحب بالضيف المكرَّم ويعرِّف به، ثم يدعو بعض أصدقاء الضيف ومعارفه للكلام عنه وذكر معرفتهم به، ومآثره وفضائله، ثم يلقي الضيف كلمته، ثم يترك المجال للأسئلة والأجوبة.

ثم يهدي الشيخ عبد المقصود الضيف لوحة تذكارية، وهي عبارة عن قطعة على حذو كسوة الكعبة الشريفة زادها الله شرفاً ورفعة، فيكون في ذلك إكرام بعد إكرام. جزاه الله خير الجزاء وأجزله.

وقد كانت حفلة تكريم الوالد رحمه الله في ١٥/ ١١/ ١٤١٤هـ، وكانت الاثنينية الثانية والخمسين بعد المئة. وتكلم فيها عن الوالد المشايخ والأساتذة: علي الطنطاوي، مصطفى الزرقا، محمد علي الهاشمي، محمد عوَّامة، أحمد البراء الأميري، أمين عبد الله القرقوري، محمد ضياء الصابوني. وهي في الجزء الحادي عشر من مجلدات الاثنينية ص ٥٩٦، المطبوع بعد وفاة الوالد رحمه الله تعالى.

قلت: كان الوالد رحمه الله يكره تتبع الرخص والأخذ بشواذ الأقوال كما ذكر الشيخ محمد عوَّامة حفظه الله، كما أنه لم يكن حرفياً متعصباً للمذهب الحنفي، بل كان يكره ذلك جداً ويَعيبُه، وله في ذلك مواقف عديدة في خروجه عن المذهب الحنفي منها ما كان بيني وبينه، ومنها ما حصل أمامي، وقد أخرج رحمه الله في ذلك رسالتين: «رسالة الألفة بين المسلمين» لابن تيمية، و «رسالة الإمامة» لابن حزم، في موضوع الاختلافات الفقهية.

وقد سُئِل رحمه الله في «الاثنينية»[1] السؤال التالي: إن هناك دائماً خلافات بين العلماء على مسائل فقهية، وكل واحد منهم ينتمي إلى مذهب من المذاهب الأربعة، ولا يريد أن يحيد عن فتوى مذهبه إلى درجة التشبث به، مما جعل الأمور الفقهية والفتاوى فيها أكثر تعقيداً، فما رأي فضيلتكم في ذلك؟

فأجاب: أولاً التشبث بالمذاهب الفقهية والتعلق بها، هذا واجب على كل من لم يكن من أهل الاجتهاد والمعرفة التامة بحكم الشريعة وفروعها وأصولها، فهذا ما أوجبه الله عزّ وجلّ: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾، أما التشبث والتيبس في أمر المذهب الواحد، فهذا ليس بواجب في الشرع، فيسوغ لِيَ أن أتعلم هذه المسألة أو أعمل في هذه المسألة بالمذهب الحنبلي، وإذا وجدت مسألة أخرى أعمل بالمذهب الشافعي، وإذا وجدت في هذه المسألة شدة أو صعوبة في المذهب الحنبلي أن أنتقل وأعمل بها في المذهب الحنفي، كل هذا معناه أَخْذُها بهدي الله عزّ وجلّ وبهدي نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وما كان هناك افتراق بين هؤلاء الأئمة، فكل واحد من هؤلاء الأئمة حرص كل الحرص أن يكون اجتهاده أقرب إلى كلام الله وكلام رسوله ما قَدِروا على ذلك، فلذلك نجدهم إذا وصل الواحد منهم إلى حكم من الأحكام في هذا اليوم، ثم وجد الحكم بعد أيام أو شهور أو سنين، ولاح له وجه آخرُ في المسألة ووجد المسألة على وجه آخرَ،

---

(1) ١١ : ٦٣٩.

يتحول عنها ولا غَضَاضة، وإذا لم يعلمها يقول: لا أعلمها ولا غضاضة، لماذا؟ لأن الشريعة عنده أغلى من وجوده.

فالإمام مالك رضي الله عنه جاء إليه رجل من العراق بأربعين مسألة، فقدَّمَها إليه وسأله عنها، فأجابه الإمام مالك رضي الله عنه بست مسائل، فقال له الرجل: يا أبا عبد الله أنا طويت الأرض ومشيتُ الفَيَافيَ والقِفَارَ إليك وأنت عالم المدينة، أريد أن أعرف هذه المسائل كلها، فبماذا أرجع للناس وأقول لهم؟ قال: قل لهم قال مالك: لا أدري! لا يضيره أن يقال عنه: قال: لا أدري، لأن الدين عنده أغلى من أن يخجل في سبيله.

فالتمسك بالمذهب من حيث هو إذا كان على عصبية أو غيرِ معرفة، فهذا من النقص في الإنسان، ولا يصح للإنسان أن يعتقد أنه إذا كان والده حنبلياً ينبغي أن يكون حنبلياً، أو شافعياً أن يكون شافعياً، يمكن أن يكون هكذا وهكذا وهكذا، وهذا من سَعَة الإسلام، لأن اتباع أي مذهب هو اتّباع للكتاب والسنَّة، وهذا الاجتهاد ظني، فيجوز للإنسان أن يأخذ به من قول هذا العالم أو قول هذا العالم، أما التعصب والتحزب فهذا ليس من مبدأ المسلمين، ليس من مبد الإسلام وليس من مبدأ الفقه، لذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله خالفه أصحابه ودونوا خلافاتهم بوجوده ولا حرج، لأن هذا دين الله ينبغي الاجتهاد في تحصيل الأصح منه، فلذلك هذا الَّذي يقال فيه تعصب أو تحزب، أو تمسُّك ببعض المذاهب ولا يحيد الإنسان عنها، هذا من النقص النفسي، فينبغي للإنسان أن يعدِل عنه ويكون واسع الصدر، واسع الرأي، واسع القلب، يقدِّر كل إمام بفضله وكرمه وعلمه ومقامه العظيم...، فليس أحد من الأئمة أفضل من الآخر، وكلهم من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مقتبس وملتمس، والله أعلم. اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

* رحلاته:

رحل والدي رحمه الله إلى بلدان عديدة ومدن كثيرة، فبالإضافة إلى مدن

بلـده الشـام، زار الأردن، وفلسطيـن قبـل احتـلالهـا، والعـراق، والسعـوديـة، والكـويـت، وقطـر، والإمـارات، والبحـريـن، واليمـن، ومصـر، والسـودان، والصومال، وتونس، والجزائر، والمغرب، وجنوب أفريقيا، وأندونيسيا، وبروناي، والهند، وباكستان، وأفغانستان، وأُزْبَكِستان، وتركيا، وبلدان كثيرة في أوروبا وأمريكا.

ورحلاته هذه إما أن تكون علمية لرؤية المشايخ والالتقاء بالعلماء، وتحصيل العلم، وزيارة المكتبات ودور المخطوطات.

وإما دعوية لحضور المؤتمرات وإلقاء الخطب والمحاضرات والدعوة إلى الله، وكثيراً ما كان يجمع بين الأمرين، رحمه الله وغفر له.

*** وظائفه ومحاضراته ودروسه:**

بعد عودة والدي رحمه الله من مصر إلى موطنه تقدم لمسابقة اختيار مُدَرِّسي الديانة والثقافة الإسلامية في وزارة المعارف لعام ١٩٥١م، فكان الناجح الأول فيها.

فدرّس لمدة ١١ سنة في ثانويات حلب مادة التربية الإسلامية، كما درّس علـوم الشريعة المختلفة في المدرسة الشعبانية والثانويـة الشرعية التي تخرّج منها.

كما أنه زاول في تلك الفترة الخطابة في جامع الحَمَوي ثم في جامع الثانوية الشرعية بحلب، كما كان له دَرْس بعد صلاة الجمعة نحو ساعة سمّاه (جلسة التَّفَقه في الدين)، كان مهوى أفئدة الشباب المسلم واستفاد منه أمم من الناس، وكان يقصد من أطراف مدينة حلب وضواحيها، بل كان يأتيه أناس من محافظة اللاذقية التي تبعد عن مدينة حلب ١٨٠كم بطريق وعر. وكان له درس ثانٍ للفقه ليلة الاثنين، ودرس ثالث يوم الخميس في الحديث والتربية والأخلاق، هذا سوى الدروس الخاصة التي كان يقوم بها للنبهاء من طلاب العلم الشرعي.

كما كان يلقي بعض المحاضرات العامة في دار الأرقم.

ثم انتخب عضواً في المجلس النيابي بسورية في سنة ١٩٦٢م للمدة التي سمحت الظروف السياسية فيها ببقاء المجلس النيابي. وكان انتخابه نائباً عن مدينة حلب بأكثرية كبيرة، على الرغم من تآلب الخصوم عليه من كل الاتجاهات والملل.

ثم انتدب للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق في نفس السنة، ودرَّس في كلية الشريعة بجامعة دمشق لمدة ثلاث سنوات (١٩٦٢ ــ ١٩٦٤م): الفقه الحنفي وأصول الفقه والفقه المقارن بين المذاهب.

وفي سنة ١٣٨٥ تعاقد مع كلية الشريعة بالرياض التي غدت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لاحقاً، ودرّس فيها وفي المعهد العالي للقضاء، ثم درَّس نحو عشر سنوات في الدراسات العليا في كلية أصول الدين من الجامعة نفسها الحديث الشريف وعلومه، وبقي يعمل مع جامعة الإمام مدة ٢٣ سنة إلى عام ١٤٠٨، ولقي فيها من إدارة الجامعة ومنسوبيها كل تكريم وتقدير، ثم تعاقد مع جامعة الملك سعود بالرياض، فدرّس علوم الحديث في كلية التربية لمدة سنتين في السنة الأخيرة من الكلية وفي الدراسات العليا، ثم تقاعد عن التدريس في سنة ١٤١١.

وكان ينتدب للتدريس في أثناء تدريسه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فقد انتُدب أستاذاً زائراً للتدريس في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام ١٣٩٦، وأستاذاً زائراً لليمن عام ١٣٩٨، وأستاذاً زائراً عام ١٣٩٩ لجامعة ندوة العلماء في لكنو بالهند التي يرأسها سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى وغفر له.

واختير عضواً في المجلس العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود، والمجمع العلمي بالعراق، والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة

المكرمة، وشارك في مؤتمرات وندوات كثيرة جداً في سورية والعراق واليمن وقطر والسودان والصومال والمغرب والهند وباكستان وأفغانستان وتركيا وجنوب أفريقيا وفي أوروبا وأمريكا وغيرهما.

كما انتخب مراقباً عاماً (رئيساً) للإخوان المسلمين في سورية مرتين، من عام ١٩٧٢م إلى عام ١٩٧٦م، ومن عام ١٩٨٦م إلى عام ١٩٩٠م، وكان ذلك في ظروف صعبة وخاصة، فقبل الوالد رحمه الله القيام بذلك المنصب بعد إلحاح شديد ودون رغبة أو تطلع، لاجئاً إلى الاستقالة في أول فرصة ممكنة، وذلك أنَّ الوالد رحمه الله كان يؤثر العلم والبحث على أي أمر آخر، فكان أحب وقتٍ إليه وقتٌ يقضيه في تحقيق مسألة أو شرح معضلة أو مذاكرة علم رحمه الله وغفر له.

ومما درّسه والدي في كلية الشريعة مادة أصول الفقه، وقد كان متقناً تدريسه لها، مفهماً إياها لطلابه رغم صعوبتها المعروفة، يشهد له بذلك تلاميذه.

كما درّس في كلية أصول الدين لعموم الطلاب، وطلاب الدراسات العليا علوم الحديث بأنواعها، كمصطلح الحديث، والحديث التحليلي وغير ذلك.

* صفاته:

إذا كان بعض الأدباء يجعل (مفتاحاً) لكل شخصية يدرسها ويترجم لها، فإن مفتاح شخصية الوالد رحمه الله **حبُّه الكمال في كل شؤونه، والترقي من الحسن إلى الأحسن، وبخاصّة ما يلزم لرفعة المسلمين من سلوكٍ وآدابٍ وتجارةٍ وصناعةٍ وعلمٍ ومعرفةٍ، حتَّى يكون المسلم أوّلاً في كل شيء.**

فكان رحمه الله مجمع الفضائل والشمائل كريماً غاية في الكرم، يحرص على إكرام ضيفه بما يستطيع، ويبذل في ذلك جهده وغايته.

وكان رحمه الله حليماً كثيراً ما يعفو ويصفح.

وكان أديباً خلوقاً لا يؤذي أحداً بكلامه، بل يحترمه ويثني عليه، ويختار في ذلك الألفاظ الراقية.

وكان عاقلاً حصيفاً أريباً لا تخرج الكلمة منه إلَّا بوزن وفي موضعها المناسب، ولا يقوم بأمر إلَّا ويزنه بعقله، وطالما قال لي: استعمل عقلك في كل ما تقوم به.

وكان ظريفاً خفيف الروح يمازح جلساءه بالقدر المناسب، ويضفي على مجلسه العلمي والطبعي روح اللطافة والظرافة، بما يناسب مقام المجلس، ويخفف من وطأة الوقار، لكن في ظل التأدب والاحترام.

وكان ذَوَّاقةً جداً في ملبسِه ومشربِه ومسكنِه، وكُتبه ترتيباً وكتابة وتأليفاً، حتى في صَفِّه لحذائه وتنعله. وهكذا تراه في كل حركة وسَكَنَة عاقلاً ذَوَّاقاً.

وكان عفيف اللسان لا يشتم أحداً، ولا أذكر أني سمعت منه كلمة نابية إلَّا من أندر النادر، وحينما يغضب جداً، وأكثر غضبه لله سبحانه وتعالى.

وكان عفيف النفس لا يطلب من مسؤول أمراً لذاته، وإنما لأحبابه وإخوانه.

وكان صبوراً على الطاعة والابتلاء، حريصاً على الصلاة حرصاً شديداً، مؤدياً لها في أول وقتها، في الحضر والسفر، والتعب والمرض، غارساً ذلك في أولاده وأحفاده، فإذا كان نائماً أو متعباً ونُبِّه إلى الصلاة، انتفض وقام مسرعاً، وطالما ذكر قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وفاته، وقولَه: (لاَ حَظَّ في الإِسلام لمن ترك الصلاة).

وكان خِدْناً للقرآن، له ورد صباحي يومي، لا يدعه إلَّا مضطراً، مع إكثاره من الأذكار والأوراد، فلا تجده جالساً بدون عمل علمي من تأليف أو تحقيق أو تعليم أو مذاكرة أو إفتاء، إلَّا وجدته يسبح ويحمدل ويهلل ويكبر.

وكان رقيق القلب، سريع الدمعة، كثير العبرة، يفيض دمعه عند قراءة القرآن وذكر الله، وقصص السلف والصالحين، وفي المواقف الروحانية، وعلى مآسي المسلمين وآلامهم، وعندما يُمْدَح، ومن حضر حفل تكريمه عند الشيخ عبد المقصود خوجهْ المسمى «الاثنينية» رآه كيف قطع الحفل كله بالبكاء.

وكان يألم ويحترق على مآسي هذه الأمة وأحوالها، وقد فقد سمعه بأذنه اليمنى بعد أن زاره شخص وحكى له عن مآسي المسلمين في بلد من البلدان، فحزن حزناً شديداً وبات ليلته حزيناً مهموماً، وفي اليوم التالي شعر بدم يسيل من أذنه ثم ذهب سمعه.

وكم وكم أرق الليالي حزناً وتفكيراً في أحوال المسلمين.

ولقد ابتلاه الله بعد فَقْد سمعه في أذنه اليمنى بضعف بصره في عام ١٤١٠، فما رأيته شكَى أو تشكَّى، ولا ثناه ذلك عن الإنتاج العلمي، بل تجمَّل بالصبر والتسليم، والمثابرة على التأليف والتحقيق، مخافة أن يدركه الأجل، ولم يخرج ما في صدره من الكتب.

ثم في آخر حياته وقبل أربعة أشهر من وفاته أصيب بانفصال الشبكية في عينه اليمنى، وفَقَد بصره فيها، ثم أُجري لها عملية جراحية لم تكلل بالنجاح، وإنما أعقبته ألماً شديداً في عينه ورأسه، وصَفَه كرمي السِّهام، فما سمعته صرخ أو تأوَّه، وإنما كان يقول إذا اشتد الألم كثيراً جداً: يا الله! لا إلـه إلاَّ الله!

وكان جَلْداً على العلم قراءة ومطالعة وتأليفاً لا يغادره القلم والقِمَطْر في حله وسفره وصحته ومرضه، وقد ألَّفَ وأنهى بعض كتبه في أسفاره الكثيرة كما دوّن في مقدمات بعض كتبه، وقبل دخوله المستشفى بيوم كان ــ وهو يعارك الآلام ــ يضيف في كتابه الماتع «الرسول المُعَلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم»، كما كان يكثر السؤال وهو في المستشفى عن كتاب «لسان الميزان»، كما أنه كتب مقدمة «لسان الميزان» قبل عشرين يوماً من وفاته!

وكان قليل النوم يستكثر ساعات نومه مع قلتها، وكان في شبابه يواصل اليوم واليومين، كما ذكر لي عدة مرات.

وهاتان الصفتان الأخيرتان تدلان على صفة أخرى، وهي: حرصه على الوقت، فهو حريص على وقته أشد من حرصه على ماله، كما تدلُّ الأخيرة على نهمه العلمي الشديد.

وكان لا يأمر بأمر إلاَّ ويأتيه، ولا ينهى عن شيء إلاَّ ويجتنبه.

وكان رحمه الله ذكياً ألمعياً ذا حافظة قوية، وذهن متقد مع عمل بالعلم، وعبادة وتقوى وصلاح وورع، وتواضع جمٍّ لطلاّبه وتلاميذه، عوضاً عن مشايخه وعلماء الإسلام، فلا يرى نفسه في جنبهم شيئاً يذكر.

ولما مدحه شاعر طيبة الأستاذ محمد ضياء الدين الصابوني سدده الله في «الاثنينية»[1]، بقوله:

أبـو حنيفـة فـي رأي وفـي جـدلٍ   يسمـو بهمَّتـهِ لأرفـع الـرُّتـبِ

عقَّب على ذلك والدي رحمه الله بقوله: وكذلك الإخوة الَّذين تكلموا وتفضلوا بهذه الكلمات عني، فقد أغدقوا، ولكنهم أوسعوا وأرهقوا، حتى دخلت مع أبـي حنيفة رضي الله عنه بالمواجهة كما قال أخي الشاعر ضياء الدين الصابوني، فهذا شيء لا يبلغ من قدري أن أكون ذرَّة رمل أو تراب في جنب أبـي حنيفة، من أبو حنيفة؟ أبو حنيفة رحمة من رحمات الله عزّ وجلّ أهداها الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة كما أهدى الإمام مالكاً، والإمام أحمد، والإمام الشافعي رضي الله عنه والإمام ابن جرير...، فهؤلاء الأئمة... فإن صلحت أن أكون رملة صغيرة في جنب هؤلاء فهذا وسام عظيم وفضل كريم، لا أستطيع الشكر عليه، فأعتذر عن مثل هذه الكلمات التي وجهت في جنب الحديث عني، فإنها لا تستطيع نفسي سماعها ولا قَبولها، وإن صدرت من أخ محب صادق في نية حسنة، ولكن الحق أحق أن يتبع. اهـ.

---

(١) ١١: ٦٣٣ و ٦٣٦.

وكانت له نظرة في الرجال وفِرَاسة، فما رأيتُه وصف شخصاً بوصفٍ أو مَدْحٍ أو قَدْحٍ إلاَّ وجدتُه فيه ولو بعد حين.

وكذا نَظرتُه في الأمور تجدها مسددة، ولو بعد حين، وظني أنه مسدد بتقواه وعقله، كما كان يصف الإمام حسن البنا رحم الله الجميع.

وكان محبباً إلى زوجه وأولاده وأحفاده، موجِّهاً ومربِّياً لهم باللطف والذوق والحكمة والحُنْكَة، فما رحل عنهم إلاَّ وهو عزيز وغالٍ يودون لو يفدونه بأرواحهم وأولادهم وأموالهم.

وهذا حال كثير من محبيه الذين بكوه بكاء الثكالى في أنحاء المعمورة.

أسُكَّانَ بطنِ الأرضِ لو يُقبل الفِدَى فَدَينا، وأعطينا بكم ساكنَ الظَّهْرِ!

فهو كما يقال مجمع الفضائل، ويصدق عليه قول القائل:

وتُوجز في قارورة العطر روضةٌ ويُوجَز في كأس الرحيق كرومُ

* كتبه ومشاركاته العلمية:

صدر لوالدي رحمه الله ٦٧ كتاباً ما بين مؤلَّف ومحقَّق، وما بين صغير وكبير وغلاف ومجلد، ولن أطوِّل المقام بذكرها كلِّها، فهي معروفة لدى طلاب العلم ومحبي الشيخ، وهي مذكورة في آخر كل كتاب من كتبه رحمه الله وغفر له.

وإنما سأذكر أولاً بعض مؤلفاته ومشاركته العلمية المغفول عنها، ثم أذكر منهجه في الكتابة والتأليف بإيجاز.

ألَّف رحمه الله خلال تدريسه لمادة الديانة في حلب ابتداءً من عام ١٩٥١م وما بعده ستة كتب دراسية للمرحلة الثانوية، بالاشتراك مع خليله الحميم الأستاذ الشيخ أحمد عز الدين البيانوني رحمه الله تعالى.

وكذلك اشتركا رحمهما الله بتأليف كتاب لطيف الحجم، يُعدُّ من أولِّ ما ألّفه سيدي الوالد رحمه الله تعالى، سمّياه: «قَبَسات من نور النبوة»، كتباه في تلك الآونة رداً على رجل يُدعى أبو شلباية، ذكر في سياق الازدراء بالنبـي الكريم ﷺ أنه كان راعي غنم!

كما أنه أتم وأنجز كتاب «معجم فقه المحلى لابن حزم الظاهري» في أثناء انتدابه للتدريس في كلية الشريعة بدمشق، وكان قد سبقه إلى العمل فيه أستاذان ولم يتماه، فأتمه ونسّقه وأنهى خدمته على الوجه المطلوب، وطبعته جامعة دمشق ضمن مطبوعاتها في مجلدين كبيرين.

كما أنه شارك في وضع مناهج وخطط دراسية في سورية، ثم مناهج المعهد العالي للقضاء وكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم مناهج الدراسات العليا في كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية من جامعة الملك سعود.

وقد توفي رحمه الله عن عدد من الكتب في المطبعة، وكتب أخرى لم تدفع إليها، وكتب كانت في صدره ولم يقم بها كاملة، رحمه الله وأقرّ عينه بخروجها، وهو القائل: يندُر أن يموت العالم دون أن تكون في صدره حسرةٌ على كتب لم يخرجها!

أما منهجه في التأليف والتحقيق فيتمثل في عدة نقاط:

١ ــ **الغَيْـرَة علـى الكلمـة، والسعـيُ وراءهـا**: أي جـودةُ ومتـانـة التحقيـق والتأليف، فقلَّ أن تجد في ما يحقّقه أو يؤلّفه إغلاقاً لم يُحَلَّ، أو غامضاً لم يُبَيَّن، أو ضعيفاً في سنده أو في قبول معناه لم يُعَلِّق عليه.

وكم وكم أخذ تحقيق كلمة واحدة منه أوقاتاً وأزماناً، وكان ربما تذاكر فيها مع غيره من أهل العلم والاختصاص، كل ذلك برحابة صدر وسعادة وهناء، ولا عجَب فشأنه ودَيْدَنه: خدمة العلم وأهله.

٢ ــ الحرص على تشكيل وضبط الكلمات والألفاظ المُشْكِلة في عموم كتبه: مع توسُّعه في ذلك في الكتب العامة (الثقافية) أكثر من الكتب الخاصة (التخصصية)، ككتاب «صفحات من صبر العلماء» وكتاب «قيمة الزمن عند العلماء» ونحوهما، رغم أن ذلك يتعِبه ويأخذ وقته وجهده!

قال في مقدمته لهذا الكتاب اليتيم العظيم «صفحات من صبر العلماء»: «وربما يرى بعضُ الفضلاء أني قد توسَّعتُ بعضَ الشيء في شَكْلِ بعضِ الكلمات، وهذا أمر قصدتُه رعايةً لبعض القراء الذين لا يتقنون العربية، ليكون ذلك عوناً لهم على القراءة الصحيحة والضبطِ السليم للعبارة ومفرداتها، وعوناً على سرعة الفهم أيضاً».

وقال: «وضبطتُ بالشكل: أسماء الأعلام والبلدان والأماكن، وكلَّ لفظٍ قدّرتُ يمكن أن يغلط فيه غالط، أو يتردد في قراءته متردِّد، ليستمرَّ ذهن القارىء في قراءة الخبر دون تلكؤٍ في فهمِه، أو خطأ في لفظِه إن شاء الله تعالى».

٣ ــ الزيادة في كل طبعة: فالكتاب دائماً بين يديه يزيد فيه، وينقّح ويوضّح، حتى قيل: إنَّ كل طبعة لكتاب من كتبه تعد بمنزلة كتاب جديد.

إلاَّ أني أشير إلى أمر، وهو أنه في الآونة الأخيرة لما كثرت عليه الكتبُ مع ضعف الجسم وكِبر السن، صار يُصدِر بعض الكتب النافدة مما سبق خروجه تصويراً لئلا تُفقد من أيدي طلبة العلم، وإن كان الكتاب المصوَّر قد زاد عليه وأضاف ونقّح، لكنه لم يتفرغ لإخراجه مزيداً في طبعة جديدة، لانشغاله بغيره مما لم يخرج سابقاً، فهو وإن طَبع تصويراً إلاَّ أنه في حقيقة الأمر مزيد بين يديه، رحمه الله وغفر له، وسأسعى لنشر ما تركه وما كان ينوي القيام به بمشيئة الله وعونه.

٤ ــ الإفادات النادرة، واللفتات اللطيفة: فربما تجده عَلَّق على كلمة مّا بسطر، لكن هذا السطر كلّفه ثلاث ليال بل أسبوعاً من البحث والتمحيص.

كما أن هذا السطر جاء ثمرةَ مطالعةِ واطلاعِ سنين طوال، وحصيلةَ تنقيبٍ مستمر دائم.

كما يتجلى ذلك أيضاً في إيراده بعضَ النقول من غير مظانها، ومن مصادر لا يُتوقع أنها فيها.

ثم إن له ذوقاً رفيعاً وفهماً ثاقباً في انتقاء النصوص وطريقة إيرادها ومواضع تعليقها، فليس هو من هواة تكبير الكتب ونفخ الحواشي وملء الفراغات.

٥ ــ **الجمع قطرة قطرة**: وهذا يتجلى واضحاً فيما يؤلفه، فمثلاً: كتاب «صفحات من صبر العلماء» جمعه في أكثر من عشرين سنة، كلّما وجد شيئاً يناسب الموضوع كَتَبه في قُصَاصة وجمَعه، حتى غدا كتاباً جميلاً ممتعاً للقارىء والمستمع، وكذا كتاب «قيمة الزمن عند العلماء»، وهكذا سائر مؤلفاته ومحققاته.

٦ ــ **اهتمامه بالفهارس، وإتقانه لها**: وشرطه في ذلك أن تزيد صفحات الكتاب على مئة صفحة، فإن تحقق ذلك جعل للكتاب فهارس عامة تربو على خمسة فهارس وقد تزيد، وذلك ليكون الراجع إليه والباحث عن طَلِبته فيه سريعَ الوصول إلى مبتغاه منه بأيسر الطرق وأقصر الوقت، مع أن في ذلك جهداً كبيراً ومشقة عسيرة، شكى منهما الوالد رحمه الله في مقدمة فهارس كتاب «الانتقاء»، ومع كون الفهرسة غدت ضَرْباً من التأليف المستقلّ قلَّ من يخلص فيه ويتقِنُه.

٧ ــ **الإخراج الفني الجميل في الطباعة والغلاف**: ففي كل ذلك له ذوق وبصمة مميزة، وساعده في ذلك إخوة أكارم لمَّاحون ذوَّاقون كان يطبع عندهم كتبه.

ويعدُّ الوالد رحمه الله مثالاً فريداً ومدرسة مستقلة في فن الطباعة والفهرسة، وانظر في ذلك كتابَه «تصحيحُ الكتب وصنعُ الفهارس المعجمة».

٨ ــ **الذوق في كل ما سبق**: وله في كل ما ذكرت قصص أعرضت عن ذكرها لضيق المقام.

٩ ــ **توجهه للتحقيق أكثر منه للتأليف**: لتواضعه وهضمه لنفسه، ولأنه يرى أن «إتمام بناء الآباء خيرٌ مئة مرة من إنشاء البناء من الأبناء، فضلاً عن أنه جزء من الحق الذي لهم علينا والوفاء، فهم الأصل الأصيل، والنور الدليل، والفهم المستقيم، والعلْم القويم، وما تركوا في آثارهم من بقايا فجوات طفيفة، لا يقتضي منا تخطِّيهم والإعراض عن آثارهم النفيسة»، كما صرّح به في مقدمة أول كتاب أخرجه، وهو كتاب «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» للإمام اللكنوي، فهذا منهجه من أول أمره.

مع العلم أن تحقيق النصوص كثيراً ما يكون أشقَّ من التأليف المستأنف الجديد، كما ذكر في نفس المقدمة المذكورة.

ويتضح ذلك في أن له واحداً وخمسين كتاباً محقَّقاً مقابل ثلاثة عشر كتاباً مؤلَّفاً.

فلم يكن يرى التأليف استقلالاً، إلاَّ لأمر مستجَد لم يجد فيه للسابقين تصنيفاً، وإلاَّ فإنه يتجه إليه ويخرجه بدلاً من إخراجه كتاباً من تلقاء نفسه.

* تفننه في العلوم:

بدأ الوالد رحمه الله طلب العلم بهمة عالية متوثبة، ونهمة شديدة، وذهن متقد، وذكاء ألمعي، فنهل من مختلف العلوم والفنون.

وكان له في بدء الطلب اهتمام بالنحو واللغة، حتى إن بعض أقرانه كان يسميه: (الأصمعي)، وآخر كان يسميه: (قاموسٌ ناطقٌ).

كما اهتم بالفقه والأصول، والسيرة والحديث الشريف.

ثم لمّا انتقل إلى مصر درس في الأزهر الأصول والفقه والحديث وغيرَ ذلك من الفنون بتوسع، فغدا رحمه الله محدثاً فقيهاً أصولياً نحوياً لغوياً أديباً مؤرخاً رحمه الله وغفر له.

وأضرب مثالاً لعلمه بالعربية: أن الوالد أخرج ملاحظات لغوية على العلامة أبي فِهْر محمود شاكر في تعليقه على «طبقات فحول الشعراء» لابن سَلَّام، ومحمود شاكر يعد من أفراد هذا العلم في هذا العصر. رحمهما الله وغفر لهما.

وتعليقات الوالد رحمه الله المنثورة في كتبه خير شاهد على تفننه في العلوم السابقة الذكر.

* مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

بناء على ما سبق من تفننه في العلوم رحمه الله، وجودته وإتقانه في خدمة كتب العلم، مع الذوق الرفيع، والعمل والصلاح، تبوَّأ رحمه الله مكانة رفيعة عند علماء عصره، حتى عند بعض من كان يخالفه الرأي.

وسأسوق طائفة من ثناء العلماء عليه:

١ ــ قال الشيخ العلامة المتفنن المحقق الكبير مفتي الديار المصرية حسنين مخلوف رحمه الله في تقريظه للطبعة الأولى من كتاب «رسالة المسترشدين»: الأستاذ العلامة المحقق، . . .، وبعد فإني أحمد الله تعالى إليكم، إذ وفَّقكم لنشر «رسالة المسترشدين» للإمام المحاسبي، بتحقيقكم القيِّم الذي ألممتم فيه بما ينبىء عن غزير علمكم ودقيق بحثكم، وازدانت به «الرسالة» رُواءً وجمالاً، وازدادت به نفعاً وكمالاً. . .

كما وصف رحمه الله الوالد في رسالة بعث بها إليه في ٤/ جمادى الأولى/ ١٣٨٩ بأنه: أحد العلماء النابهين الصالحين.

٢ ــ ووصفه الشيخ العلامة المحدث المدقق حبيب الرحمن الأعظمي رحمه الله في رسالة أرسلها إليه: بالعلامة النحرير.

كما أنه رحمه الله نظم بيتين في مدحه، وهما:

أهلاً بِمَقْدَمِكَ الهَنِيِّ ومرحباً   يا عالمَ الشَّهْبَا إمامَ الشامِ

لـم يحـوِ علـمَ الفقـه والآثـار شـا مـي كجَمْعِـكَ بعـد ذاك الشـامـي

ويريد (بالشامي) الثاني: العلامة ابن عابدين صاحب «الحاشية»، فإن أهل الهند قاطبة يطلقون على ابن عابدين العلامة الشامي أو الشاميَّ.

كما أنه قال له ذات مرة: يا شيخُ إني أُجِلُّكَ إجلال الشيوخ (أي كما يُجِلُّ مشايخه) رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جناته.

٣ ــ وقال الشيخ العلامة الفقيه محمد أبو زهرة في رسالة أرسلها للوالد رحمهما الله: أخي العزيز الأستاذ... الأكرم.

وبعد، فإن الأيام السعيدة التي قضيتها بصحبتك الطيبة الخالصة التي رأيت فيها إخلاص المتقين وظرف المؤمنين واصطبار الأصدقاء على بلاغة الأولياء، ...، وإن هذه أيام لا أنسَ ما بدا منها فيك من طبع سليم ولطف مودة وحسن صحبة.

٤ ــ وكتب إليه العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله رسالة يثني فيها على بحث الوالد رحمه الله «من ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» وسكت عنه»، مع شيء من ملاحظاته، وصفه فيها: بالعلامة المحدث، وقال: أظهرتَ فيه (في البحث المذكور) اطلاعاً ومعرفة.

٥ ــ أما شيخه ومحبه القديم، العلامة الأفيق الفقيه المحقق الأديب المنقح الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله وبارك في أثره وعلمه، فقال في تقريظه لكتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»: أخي الأثير الحبيب، الذي له في قلبي محبةٌ أكبر من قلبي، وله في نفسي وقارٌ وإن كان أصغر مني سناً...

وقال في ترشيحه للوالد رحمه الله لجائزة سلطان بروناي حسن البَلْقِيَا العالمية في الحديث الشريف وعلومه: وقد وازنت بين هؤلاء الجديرين الذين أعرفهم، فترجّح في نظري صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل العلامة الثَّبْت المحقق

المدقق الثقة، الذي لا يجاريه في تحقيقاته ودقته فيها مُجارٍ، وهو الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. . .، وبالإضافة إلى مؤهلاته العلمية يتمتع بأخلاق إسلامية عالية المستوى، وبمكانة محترمة، وتتوافر في شخصه أخلاق العلماء من التواضع والمتانة في الدين دون تساهل. . .

وقال لما زارنا معزّياً: إنه لا يعلم له مثيلاً في هذا العصر.

٦ ــ وقال العلامة المحقق الشيخ السيد أحمد صقر رحمه الله: لو قيل للأخلاق تجسَّدي لكانت عبد الفتاح.

٧ ــ وقال الشيخ العلامة محمد الشاذلي النيفر رحمه الله، في رسالة أرسل بها معزياً: إن نبأ نعي العلامة الإمام الفقيد العزيز الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وقع علينا كالصاعقة، لما له من دين وفضل وعلم جَمٍّ. . .

وقال عنه: إنه من الأفذاذ الذين يفتخرُ بهم عصرهم.

٨ ــ وقال الأستاذ العلامة الفقيه المحقق محمد الحبيب ابن الخوجهْ نفع الله به، في رسالة أرسلها للوالد رحمه الله: سماحة الشيخ الأستاذ العلامة حافظ السنة. . .

وقال في رسالة العزاء: تلقينا بغاية الأسى والحزن نعي شيخنا الجليل الفقيه المحدث. . .

٩ ــ وقال الأستاذ العالم الرباني، والداعية المربي، الفاضل العاقل، الشيخ أبو الحسن علي الندوي الحسَني رحمه الله في تقريظه للطبعة الثانية من «صفحات من صبر العلماء»: وبعد فيسعدني أن أكتب سطوراً في انطباعي عن كتاب «صفحات. . .»، في طبعته الثانية، للعالم الرباني المربي، تذكار علماء السلف في سُمُوِّ الهمة، وعلو النظر، والتفنن في العلوم، والإتقان فيها. . .

وقال رحمه الله لأحد تلامذته ــ وهو يقدمه ويعرّفه على الوالد رحمه الله ــ: إنك في مستقبل الأيام ستذكر العلماء الذين لقيتَهم، وستعتز بهذه

اللقيا، وستقول في يوم من الأيام: لقيتُ فضيلةَ الشيخِ عبدِ الفتاح أبو غدة.

١٠ ـــ وقال الشيخ العلامة المحدث الفقيه محمد عبد الرشيد النعماني رحمه الله في رسالة أرسلها للوالد رحمه الله: الشيخ العالم البحر زين الديار الحلبية المحقق العلامة النقادة، المحدث الناقد. . .

١١ ـــ وقال الشيخ العلامة المقرىء المتقن الورع الفقيه عبد الوهاب الحافظ المشهور بعبد الوهاب دِبْسٌ وزَيْتٌ الدمشقي رحمه الله: لو كان انتخاب المفتي بالاختبار لاستحق الإفتاء الشيخ عبد الفتّاح أبو غدَّة.

١٢ ـــ ووصفه الشيخ المقرىء كريّم سعيد راجح حفظه الله شيخ القراء في دمشق، في رسالة العزاء: بالعلامة.

١٣ ـــ ووصفه علامة دمشق الشيخ أحمد نصيب المحاميد رحمه الله، في رسالة العزاء: بالعلامة المحقق المدقق المسنِد.

وقال عنه: هو عَلَمٌ من أعلام المحدِّثين والأصوليين والأدباء، لا يزال عالماً ومتعلماً ومعلِّماً، قد تخلَّق بخُلُق ابن المبارك: من المحبرة إلى المقبرة.

١٤ ـــ وقال عنه الشيخ العلامة المحدِّث المربي عبد الله بن عبد القادر التَّلِيْدي المغربي: العلامة الكبير المحدِّث المحقق المطَّلع، من محاسن العصر وأفراده ونوادره علماً واطِّلاعاً وتحقيقاً وفضلاً وصلاحاً.

١٥ ـــ ونعته الشيخ الفقيه الأصولي الدكتور عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان المكي، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، بالعلاَّمة المحدِّث الفقيه، وقال عنه: كان رحمه الله طرازاً فريداً من العلماء الذين يجمعون بين علم الحديث رواية ودرايةً وعلم الفقه تأصيلاً وتفريعاً في معاصرة واعية ومرونة ملتزمة.

١٦ ـــ وقال عنه الشيخ الفقيه عبد الفتاح بن حسين رَاوَهْ المكي رحمه الله: العلامة المحدِّث، مما يتعجَّبُ منه علماً وعملاً، وأدباً وتواضعاً، ورواية ودراية، وتحقيقاً وإتقاناً، وسمتاً وهدياً.

* **عوامل نبوغه وبروزه:**

١ ــ أسرته المتدينة.

٢ ــ استقامته وتقواه وصلاحه.

٣ ــ ذكاؤه الفطري.

٤ ــ ذوقه الفطري.

٥ ــ أدبه الفطري.

٦ ــ لطفه وظرافته.

٧ ــ خُلقه الحسن.

٨ ــ تواضعه الجمّ.

٩ ــ تعقُّله وحَصافته وعدم تعصبه.

١٠ ــ حُبُّه للعلم، ونهمه في التحصيل.

١١ ــ الهمّة العالية المتوثبة.

١٢ ــ تلقّيه ومخالطته لكبار علماء عصره في بلدان كثيرة.

١٣ ــ نباهته، وانتخابه من كل شيخ أحسن ما عنده.

١٤ ــ رحلاته الكثيرة والمتنوعة.

١٥ ــ اشتغاله بالتصنيف والتحقيق.

١٦ ــ اشتغاله بالتدريس والتعليم.

١٧ ــ اشتغاله بالدعوة، مما أعطاه صبغة محلية وعالمية.

١٨ ــ حُسن شكله ومظهره.

* **ركائز شخصيته:**

١ ــ الصلاح والتقوى.

٢ ــ الإحساس المُرْهَف بالجمال.

٣ ــ الرغبة والمحبة الشديدة للكمال.

٤ ــ الذوق.

٥ ــ الأدب والخُلُقُ الحَسَن.

٦ ــ الحرص على الوقت.

٧ ــ الشغف بالعلم تحصيلاً وقراءةً وتأليفاً.

٨ ــ الذكاء الحاد.

٩ ــ الذاكرة القوية.

١٠ ــ العقلانية المنوَّرة بنور الشرع.

١١ ــ الحس الحار النيراني.

* من أقواله:

الإسلامُ ذوقٌ.

الكتابُ لا يعطيك سرَّهُ إلاَّ إذا قرأته كلَّه.

ما جمع الله الخير كلَّه لأحد إلاَّ للنبـي صلَّى الله عليه وسلَّم.

مَزِيَّةُ العالـم أن يوقظ العقل بظل الشرع.

دِرهمُ مالٍ يحتاج قِنْطَارَ عَقْلٍ، ودِرهمُ علمٍ يحتاج قِنْطَاري عَقْلٍ.

العلم يُتَعَشَّقُ بالفهم.

* وفـاتــه:

انتقل رحمه الله إلى جوار ربه الكريم ورحمة خالقه الرحيم في سَحَر يوم الأحد ٩/ شوال/ ١٤١٧هـ بمدينة الرياض، عن إحدى وثمانين سنة وثلاثة أشهر إلاَّ ستة أيام، رحمه الله وغفر له وقدَّس روحه ونوَّر ضريحه وبرَّد مضجعه وطيّب ثراه.

وصُلِّيَ عليه يوم الاثنين بعد صلاة الظهر في مسجد الراجحي بمدينة الرياض، ثم نُقِل بالطائرة إلى المدينة المنورة، حيث صُلِّي عليه بالمسجد النبوي عقب صلاة العشاء، ثم دفن في البقيع الشريف، وكانت جنازته مشهودة حضرها

نحو ألف شخص ضاق بهم البقيع وازدحم، كلهم يثنون عليه خيراً ويبكون ويترحمون عليه.

وقد صُلِّي عليه صلاة الغائب في عدد من مساجد تركيا والهند وقطر والمغرب.

جســـدٌ لُفِّـــفَ فـــي أكفـــانـــه رحمـــةُ اللَّـــهِ علـــى ذاك الجســـدْ

وقد صحَّ في الحديث الشريف عن عائشة وأنس رضي الله عنهما مرفوعاً (ما من ميِّت تُصلِّي عليه أُمةٌ من المسلمين يبلغون مئةً، كلُّهم يشفعون له إلاَّ شُفِّعوا فيه)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً (ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلاَّ شَفَّعهم الله فيه).

* مـبـشـراتـه:

دخل الوالد رحمه الله في شبه غيبوبة قبل وفاته بأربعة أيام، لعِلَّة في بطنه سبَّبت وفاته، وقد جاء في الحديث الصحيح (المبطون شهيد)، وكان قبل دخوله أجريت له عملية غسيل كلوي، ولمَّا دخلتُ عليه بعد عملية الغسيل كان لسانه يلهج بالشهادة كثيراً دون فتور.

ثم إنه عندما فاضت روحه الشريفة إلى بارئها نطق بكلمة التوحيد مختتماً بها عمراً قضاه في خدمة الإسلام والمسلمين، و (من كان آخر كلامه لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة).

وكانت أصبُعُه السبابة مرتكزة على الوسطى، كحال المرء لما يتشهّد، وبقيت على ذلك إلى حين تغسيله ودفنه.

* خـاتـمـة:

أذكر فيها وقائع سامية حصلت منه في أواخر أيامه رحمه الله، فمن ذلك أنه قبل دخوله المستشفى بأيام زاره أحد الأدباء، وتداولا الحديث فذكر له ذلك الأديب أن هناك بحثاً عن كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، وكان الوالد رحمه الله

قد اعتنى بهذا الكتاب، لكن لم يدفعه للطبع. فطلب رحمه الله منه نسخة من ذلك البحث، وهو على فراش المرض يطارح الآلام والأسقام قدّس الله روحه.

ومن ذلك أن إحدى إخواتي وفقهن الله كانت بجانب سرير الوالد رحمه الله، وهو في مرضه الأخير الشديد، فأرادت أن تشرب، وأمسكت الكأس بيدها اليسرى من ذهولها بحاله ومرضه، فأشار إليها الوالد فلم تفهم مراده لذهولها وحزنها عليه، فأمسك بيدها وهزَّها لكونه لا يستطيع الكلام، ففهمت مراده، وأمسكت الكأس بيدها اليمنى! فللَّه درّه كم أتعب من بعده!

ومن ذلك أن من أواخر ما قرأتُه عليه ترجمة الإمام القدوة الفذِّ عبد الله بن المبارك رحمه الله من كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رحمه الله، وهو على فراش المرض في مستشفى العيون، فلما شرعتُ في أولها، ورأى طولها، أحالني على آخرها وطلب مني قراءة أبيات قالها بعضهم في رثاء ابن المبارك وتوقف عندها رحمه الله وقدّس روحه، وفي هذه الأبيات موعظة لأولي الألباب، وهي:

مررتُ بقبرِ ابنِ المبارك غُدْوَةً	فأوسعني وَعْظاً وليسَ بناطقِ
وقدْ كنتُ بالعلمِ الذي في جوانحي	غَنيّاً وبالشَّيْبِ الذي في مَفَارقي
ولكنْ أرى الذكرى تُنبِّه غافلاً	إذا هي جاءت من رجالِ الحقائقِ

نعم أيها الحبيب: تنبِّه غافلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق، رحمك الله وجعل موتك ذكرى لقلوبنا الغافلة، وجمعنا وإياك في عِلِّيين في مقعدِ صدقٍ عنده مع النبيين والصديقين! اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله! إن العين لتجود وتدمع، وإن القلب ليحزن ويُكْلَم، ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا قرة العين لمحزونون!

* * *

مقدمة الطبعة الثالثة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على تمامِ فضلِهِ وإكرامِه، وعلى سابغِ إحسانِهِ وإنعامِه، وهو الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات، وببركةِ عَوْنِهِ تتكاملُ الأعمالُ والحسنات، وهو ذو الجلالِ والإكرام، وذو الطَّوْلِ والإنعام، فله الحمدُ واجِباً، وله الدِّينُ واصِباً.

والصلاة والسلام على سَيِّدِنا وسَنَدِنا محمد، وعلى آله وأصحابه الكرام، الذين آمنوا به واتَّبعوه، وشاهَدُوه وسانَدُوه، ونقلوا لنا رسالتَه، وبلَّغونا أمانتَه، ونهضوا بنَشْرِ هذا الدين في جَنَبَاتِ الأرض، وبَذَلُوا في سبيله المالَ والمُهَج والأرواحَ والطارِفَ والتَّلِيد، وغادروا الأوطانَ، وفارقوا الوالدَ والوالدةَ والأخَ والأختَ والزوجةَ والوليد، فكانوا بحق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاس﴾.

فكانت أخبارُهم رضي الله عنهم أعطرَ الأخبار، وجاءت آثارُهم أطيبَ الآثار، وصار الحديثُ عنهم مَجْلاةً للقلوبِ من الصَّدأ والكَسَل، ومَدْعاةً لتحريكِ الهِمَّة للجِدِّ والعمل.

ثم تلاهم التابعون لهم بإحسان، والمقتفون أثرَهم باقتداءٍ وإيمان، فكانوا الصورةَ الصادقةَ عنهم، والكلمةَ الهاديةَ الباقيةَ منهم، وهكذا تَبِـعَ التابعين تابعُ التابعين، خالِفُ يَتْبَعُ سالفاً، ومقتبسٌ يَحتذي عارفاً، فاتَّسع بهم بِساطُ الإسلام، وبَرَز منهم ومن خالفيهم العلماءُ الأعلام، فكانت هذه (الصفحاتُ) المُشْرِقات، والوقائعُ البارقات، فالحديثُ عنهم يُحيـي مَوَاتَ القلوب، ويُقرِّبُ من علَّام الغيوب.

وقد سَبَق فضلُ الله تعالى عليَّ، وتَلاَهُ عونُهُ وتسديدُهُ إليَّ، فأَلَّفتُ كتابَ «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» مقتبِساً فيه نوادرَ أخبارِ أولئك

الأخيار، ومُلتقِطاً أحسنَ الآثارِ من تلك الديار، مما كنتُ أقِفُ عليه خِلالَ مطالعاتي، ولم أتصفح الكتبَ بقصدِ استخراجها وتدوينها، وقد أدرجتُ بعضَ الكلماتِ أو الحكاياتِ أو الفوائدِ العلمية استطراداً عندَ إيرادِ بعضِ الأخبار، لأهميتِها ووثيقِ صلتِها بصاحبِ الخبر، فجاء ــ بفضل الله تعالى ــ حَبِيباً لقارئيه، مَرْضِيّاً عند عارفيه.

فقد نَقلتُ فيه مَحاسِنَ ما رأيت، وخِيارَ ما جَنيت، مترسِّماً خِطَّةَ الإمامِ ابنِ الجوزي رحمه الله تعالى، التي سلكها في تأليفِ كتابه «صِفَة الصَّفْوَة»، الذي اختصرَ به كتابَ «حِلْيَة الأولياء» لأبي نُعَيم الأصبهاني عليه الرحمةُ والرضوان، فقد قال ابنِ الجوزي في آخر مقدمته لكتابه المذكور ١: ٣٨: «وإنما أَنقُلُ عن القوم مَحاسِنَ ما نُقِل، ولا أنقُلُ كلَّ ما نُقِل، إذ لكل شيء صِناعة، وصِناعَةُ العَقْلِ حُسْنُ الاختيار».

ولما قام كتاب (الصفحات) على هذه الخِطَّة، كتَبَ الله له القبولَ والرَّوَاج، فنَفِدَتْ طبعتُه الأولى ثم الثانية في زمنٍ قصير، أقلَّ مما كان يُتصوَّرُ لنَفَادهما، وذلك من فضل الله تعالى وحُسنِ توفيقِهِ سبحانه، وتُرجِمَ إلى اللغة الأُورديَّة والتركية، وطُبِعَ في الهند وتركيا عن طبعته الأولى، الصادرة سنة ١٣٩١[١].

وقد تلقَّيتُ من كثير من أولي العلم والفضلِ الثناءَ عليه، والطلبَ لإعادة طبعه ثالثةً، فاهتممتُ بذلك من أكثر من عشرة أعوام، ولم يُتَح لي تحقيقُ هذه الأُمنيَّة، وتلبيةُ هذه الرغبة إلا في هذا العام، والحمد لله على حُسن تقديره وتيسيره.

وخلالَ تلك المدة كنتُ أُضِيفُ إلى (الصفحاتِ) صفحاتٍ تُماثلها وتُحاكيها، مما أقِفُ عليه أثناءَ قراءاتي ومراجعاتي، فتَضاعَفَ حجمُ الكتاب، وزاد على طبعته الثانية زيادةً كبيرةً جداً، فَخَرج من صورة كُتَيِّب إلى كتاب، فكان ــ إن شاء الله تعالى ــ في هذه الطبعة الثالثة أَوْفَى نفعاً، وأحسَنَ جَمْعاً، وأكملَ صُنْعاً.

فأنْعِمْ به في البُعْدِ زادَ مُسَافِرٍ وأَحْسِنْ به في القُربِ تُحْفَةَ قَادِمِ

---

(١) ترجَمَهُ إلى التركية في طبعته الأولى الأستاذ الفاضل الدكتور فاروق بَشَر، أحَدُ المتمكنين من اللغة العربية، وطُبع في إصطنبول سنة ١٩٨٥، وترجَمَهُ إلى اللغة الأوردية من الطبعة الأولى أيضاً الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الستار سَلَام قاسمي، وطَبَعتهُ دارُ المؤلفين في ديوبند سنة ١٤٠٧.

وزدتُّ في هذه الطبعة الثالثة، على أبوابِ الكتاب وجوانبِهِ السابقةِ بابينِ هامَّين، وجانبينِ عظيمينِ، هما:

الجانبُ السابعُ: في تبتُّلِهِم وتركِهم الزَّوَاجَ وهو من المرغوبات، في سبيل الازدياد من العلم والانقطاعِ له، والتفرُّغِ للارتحالِ والتأليفِ والاستفاداتِ والإفادات.

الجانبُ الثامنُ: في بَذْلِهم المالَ الكثير، وبيع المملوكات والمقتَنَيَات، لتحصيل العلم والارتحالِ ولقاءِ الشيوخ، وشراءِ الكتبِ والوَرَقِ وتدوينِ المؤلَّفات.

هذا، وقد يُلِمُّ ببعض هذه الأخبار شيء من المبالغةِ حيناً، أو شيء من ضعفِ الثبوتِ حيناً آخر، فحينما يُوردُهُ المُحدِّثون أو المؤرِّخون في تراجم العلماء، يُشيرون إلى ذلك بنحو لفْظِ: قِيلَ، أو رُوي، أو حُكي، أو ذُكِرَ، أو نُقِلَ، أو يُقالُ، أو يُحكى، أو عن فلان، أو رأيتُ في بعض المجاميع، أو رأيتُ في بعض الكتب، أو قال بعضهم، وما أشبَهَ هذا من العبارات، إشعاراً منهم بوَهَاءِ ذلك الخبر، ويكونُ في هذا غَنَاءٌ عن التعليق عليه لبيانِ ضعفِهِ تصريحاً.

وربما يَرى بعضُ الفضلاء أني قد توسَّعتُ بعضَ الشيء في شَكْلِ بعضِ الكلمات، وهذا أمرٌ قصدتُه، رعايةً لبعض القراءِ الذين لا يُتقنون العربية، ليكون ذلك عَوْناً لهم على القراءة الصحيحة، والضبطِ السليم للعبارة ومُفرداتِها، وعَوْناً على سُرعة الفهم أيضاً.

وذكرتُ أسماءَ المصادر مَعَ كل نَقْل عنها ــ ولو تكرَّر ذكرُها كثيراً جداً ــ، ولم أجعلها في الحاشية مع رقم الجزء والصفحة كما يختارُهُ بعضهم، لأنَّ تسميةَ المصدر عند النقلِ منه تُعطي التقويمَ للنص والثقةَ به، إذا كان صاحبُ المصدر مشهوراً بالإمامة والضبطِ والإتقانِ والتحقيق، كالإمام ابن عبد البر والنووي والذهبي وابن حجر وأمثالِهم.

وقد تُشعِرُ تسميةُ المصدر باحتمال ضعفِ الخبرِ أو تشيرُ إلى ضعفِه، إذا كان صاحبُ المصدر معروفاً بالتساهل في تدوين الأخبار، كالحافظ ابن أبي الدنيا والمؤرِّخ المَسْعُودي وأبي نُعَيم الأصفهاني وابن عساكر وأمثالِهم.

وأثبتُّ أرقامَ الأجزاءِ والصفحات للمصدر في الحاشية، لأنها لا تَرشَحُ بشيء من

الفائدة على ذاتِ الخبر، فذكرُها مع اسم المصدر إثقالٌ على القارىءِ ونَظَرِه، وإنما تُشِيرُ إلى موضع الخبر في مصدره، فيَنظُرُ فيها مَنْ يُريدُ الرجوعَ إلى الخبر.

ورقَّمتُ الأخبار لا للتَعْدَادِ والإحصاء، بل لِتَدُلَّ الأرقامُ على بدايةِ الخبرِ ونهايةِ سابِقِه، كما رقمتُ مقاطعَ بعض الموضوعات الطويلة، التي كثُرَتْ مقاطعُها، لتَخِفَّ على القارىء، وتُشعِرَهُ بالانتقالِ من معنى إلى معنى آخر.

وحرصتُ على ذكرِ سنةِ ولادةِ صاحب الخبر، وذكرِ سنةِ وفاتِه إذا عرفتُهما، في أول موضع وَرَدَ فيه ذكرُهُ، ومن لم أَذكُر سنةَ ولادتِهِ فلِعَدَمِ معرفتي بها أثناءَ كتابةِ الخبر، ولِذكرِ سنة الولادة ــ التي يُهمِلُها الكثيرون حتى على وَجْهِ الكتاب! ــ أهمِيَّةٌ تُقارِبُ أهمية معرفةِ الوَفَاةِ أو تُماثلُها في بعض الأحوال، إذ بها تُعرَفُ طبَقَةُ الرجل.

وبمعرفةِ سَنَةِ الولادةِ وذكرِها يُعرَفُ حالُ التلميذِ عند تحمُّلِهِ عن شيخِه، فهل تحمَّلَ طفلاً بإجازة، أو تحمَّلَ صغيراً مُمَيِّزاً يصح له السماع، أو تحمَّل كبيراً مُدْرِكاً واعِياً ضابطاً، فيَختلِفُ النظرُ إليه باختلافِ حالِ تحمُّلِهِ عن الشيخ، من القصور أو التساهُلِ، أو الوَعْيِ والضبطِ، أو عَدَمِهما.

قال أبو بكر الصُّولي الأديبُ محمد بن يحيى: كاتبتُ أبا حَنِيفَةَ الدِّيْنَوَرِيَّ ــ أحَدَ نوابغ الدهرِ وبُلغاءِ البيان ــ، فأغفلتُ التاريخ، فكتَبَ إليَّ: وَصَلَ كتابُك مُبْهَمَ الأَوَان، مُظْلِمَ البَيَان، فأدَّى خَبَراً ما القُرْبُ فيه بأَوْفَى من البُعدِ منه، فإذا كتبتَ ــ أعزَّك الله ــ فلتكن كتبُك مَوْسُومةً بالتاريخ، لأعرِفَ أدْنَى آثارِك، وأقرَبَ أخبارِك[1].

وأذكُرُ لذلك مثالاً يُوضِّحُ أهميةَ معرِفة سَنَةِ الوِلادة: القاضيَ زكريا الأنصاري ــ زكريا بن محمد بن أحمد المصري الفقيه الشافعي الإمام ــ، توفي سنة ٩٢٦ رحمه الله تعالى، ويقولُ كثيراً جداً في كتابه «فتح الباقي بشرح ألفية العراقي» في مصطلح الحديث: «قال شيخنا الحافظُ ابن حجر. . .»، والحافظُ ابن حجر توفي سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى.

فكيف يتأتّى للقاضي زكريا التلقِّي الفعليُّ عنه، وقد مَضَى على وفاةِ الحافظ

---

(١) من كتاب «لباب الآداب» لأسامة بن مُنْقِذ ص ٢٠.

ابنِ حجر ٧٤ سنة؟ فإذا عرفنا أنَّ ولادةَ القاضي زكريا في سَنَةِ ٨٢٣ اتَّضح لنا صحةُ هذا التلقي وهذه التلمذةِ له على الحافظ ابن حجر، لأن القاضي زكريا كان قديمَ الولادة قبلَ وفاةِ الحافظ بتسع وعشرين سنة، وهما في بلدٍ واحد، فقد أدرك الحافظَ ابنَ حجر إدراكاً بيِّناً.

وترحَّمتُ على صاحبِ الخبرِ المذكورِ في الأصلِ أو التعليق، عند ذكر تاريخ وفاته، لئلا أدخُلَ تحت قولِ الإمام أبي محمد التميمي الحنبلي البغدادي ــ رِزقِ الله بنِ عبد الوهاب ــ، أحَدِ كبار السادة الحنابلة، المولود سنة ٣٩٦، والمتوفى سنة ٤٨٨ رحمه الله تعالى، إذْ يقول: «يَقبُحُ بكم أن تستفيدوا منا، ثم تَذكُرُونا ولا تترحَّموا علينا». رحمةُ الله تعالى عليه.

وأوردتُ الأخبارَ فيه على ترتيبِ السِّنينَ، والوَفَيَات، وهو النَّهْجُ التاريخيُّ الأفضل، الذي يَستبينُ منه المرءُ أطوارَ الحياةِ في مَسالِك العلماء، وبه يُعرَفُ تأثُّرُ اللاحقِ بالسابق، واقتداؤه به واقتفاؤه له، أو قصورُهُ عنه أو زيادتُهُ عليه، أما الترتيبُ على الحروفِ والأسماءِ فهو من نَهْجِ تصنيفِ الفهارِسِ والكتبِ المفاتيح.

وضَبطتُّ بالشَّكْل: أسماءَ الأعلام والبُلْدانِ والأماكِنِ، وكلَّ لفظٍ قدَّرتُ يُمكنُ أن يَغلَط فيه غالط، أو يَتردَّدَ في قراءتِهِ متردِّد، ليستمِرَّ ذِهنُ القارىء في قراءة الخبر دون تلكؤ في فَهْمِه، أو خطأ في لَفْظِهِ إن شاء الله تعالى.

ونبَّهتُ إلى ما وقفتُ عليه من أخطاء أو تحريفات في بعضِ مصادر الأخبار، رجاءَ الانتباهِ إليها والانتفاعِ بها، وحتى لا يُخطَّأَ الصوابُ الذي أثبتُّه بالخطأ المرفوضِ الذي وقع في ذلك المصدر، فإنَّ من الأغلاط والتحريفات في المصادر ما لا يَكشِفُهُ الذهن، وإنما تكشِفُهُ المراجعاتُ والبحث، فالإشارةُ إليه هامَّةٌ وغاليةٌ عندَ هُواةِ التحقيقِ والضبط والإتقان والمُغرَمِين بذلك.

وإنني إذْ أبذُلُ جهدي كلَّه في خدمةِ الكتابِ ــ هذا وغيرِهِ ــ على الوجهِ الأمثل، بقدر علمي واستطاعتي، أجدُ ذلك: حَقًّاً عليَّ للعلمِ أن يُضبَطَ ويُتقَنَ عند أدائِهِ ونقلِه، وحَقًّاً عليَّ للقُرَّاءِ أن أهيىءَ لهم الراحةَ واليُسرَ فيما يقرأون، من بابِ قوله تعالى: ﴿وتَعاوَنُوا على البِرِّ والتقوى﴾، وقولِهِ صلى الله عليه وسلم: «واللَّهُ في عَوْنِ العبد

ما كانَ العبدُ في عونِ أخيه». اللهم وفِّقني إلى ذلك، واجعَلْ عملي خالصاً لوجهك الكريم، يا أرحم الراحمين.

والمرجوُّ ممن يَقِفُ عليه، ويَنتفعُ بما فيه: أن يَذكُرَني بدعوةٍ صالحةٍ تعودُ عليَّ وعليه، ويقولُ له المَلَكُ الموكَّلُ به عندَ دعائِهِ بها: «آمِينَ ولك بمِثلِها». فيكونَ قد أبلَغَ بالإحسانِ إليَّ، بدُعائِهِ لي وترحُّمِهِ عليّ، واللّه المسؤولُ أن يغفِرَ لنا جميعاً زلَّاتِنا، ويَستُرَ عَوْرَاتِنا، ويُدخِلَنا في رحمتِهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيء، وهو أرحَمُ الراحمين.

* * * * *

وكنتُ تلقَّيتُ كثيراً من التقاريظ لهذا الكتاب، من الهند وباكستان والمغرب والسعودية ومصر والسودان وسورية شعراً ونثراً، فأنا أشكر جميعَ الذين قرَّظوه أو كتبوا عنه في بعضِ الصحفِ أو المجلات، على حسن اهتمامهم وكريم تقديرهم وثنائهم، فاللَّهُ يَجزيهم عني خيرَ الجزاء وأفضلَ الثناء.

وكان مما وردني من كلماتِ التشجيع وعباراتِ الثناءِ على الكتاب في طبعتِهِ الأولى والثانية ــ والفضلُ لله تعالى مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ ــ ، ثلاثُ كلماتٍ غالية، لأساتذةٍ كبارٍ أجِلَّة أعِزَّاء، لهم في نفسي منزلةٌ رفيعة، وفي قلبي محبةٌ كبيرة، رأيتُ من إرواءِ حُبِّي لهم، وتقديري لفضلِهم علي: أن أُورِدَ تلك الكلماتِ الثلاثَ في مستهلِّ هذه الطبعةِ الثالثة، ليَشرُفَ الكتابُ بهم، ويَنْبُلَ بفَضْلِ نُبْلِهم، واللَّهُ وليُّ التوفيق، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبِهِ وسلَّم، والحمدُ لله رب العالمين.

وفرغتُ من النظر في هذا الكتاب في مدينة أبو ظَبْي من الإماراتِ المتحدة، في ١٠ من رمضان المبارك لعام ١٤٠٠، على أملِ تقديمِهِ إلى المطبعة في العام المذكور.

ثم شغلتني الأعمالُ العلمية مع القيام بالواجبات التعليمية، عن تقديمه إلى المطبعة في السنةِ المذكورة، وما تيسَّر لي تقديمُه إلى المطبعة إلا في أوائل عام ١٤١١، ﴿وكلُّ شيءٍ عندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، وكنتُ أمررتُ نظري عليه للمرَّةِ الأخيرة في مدينة فانكوفر من كَنَدا، وكان خِتامُ ذلك في ١ من صَفَر لعام ١٤٠٩، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، واللَّهَ أرجو أن ينفَعَ به، ويجعلَه من الباقياتِ الصالحاتِ عنده بفضلِهِ وكرمِه، وهو أرحمُ الراحمين.

وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

كلمةُ ثناء على الكتاب
في طبعته الأولى

تفضَّل بها عَلَمٌ فَذٌّ من أعلام الإسلام، أستاذُنا العلامة المحقق الأَفِيق، فقيهُ العصر، الأديب الأريب، فضيلة الشيخ مصطفى الزرقاء، حفظه الله تعالى، وأَمتَع به[1]، في ضمن رسالة منه تضمَّنتْ أجوبةً عن أمور متعددة سألته عنها، بَعَث بها إليَّ في ١٢ من ربيعٍ الأول سنة ١٣٩٢، يقول فيها بتواضعه الجَمّ، وأدبه الرفيع:

«أخي الأثير الحبيب، الذي له في قلبي محبةٌ أكبرُ من قلبي، وله في نفسي وقارٌ وإن كان أصغرَ مني سِنّاً، الأستاذَ عبدَ الفتاح أبا غدة، حفظه الله تعالى، وزاده علماً وفضلاً ونُبلًا، . . .، السلام عليكم ورحمة الله:

قرأتُ بشَغَفٍ ووَلَهٍ كتابَك عن صبر العلماء من السلف، وما لاقَوْا من شَقَاءٍ وبَلَاءٍ ومِحَنٍ وفِتَنٍ في سبيل اكتساب العلم أو قولِ الحق، وكرَّرتُ قراءةَ كثير مما جاء فيه عن كثيرٍ منهم، فما استطعتُ أن أَحبِسَ دَمْعَتي في مواطنَ منه[2]، وأَعَرْتُهُ عَدَداً من الأصحاب، فأثَّر في نفوسهم وأعيُنِهم الأثرَ نفسَه.

وقد كان فيما التَقطتَ وجَمعتَ شاهِدُ صدق، على الجهد البالغ في الاستقصاء والتتبع، حَيَّاك الله وحَبَاك، وجعلني وإياك على طريقهم وطريقتهم. . .، . . . . . .».

---

(١) كانت فاجعة المسلمين بالشيخ الزرقا رحمه الله في ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠. «سلمان».

(٢) نعم هذا يحصل لمن قرأ أخبار أولئك العلماء بتدبُّر وتفكُّر واستحضار حالِهم، فتغلبه العَبْرة، ويجول في نفسه الأسى عليهم والتألم لما لاقوه من الشدائد والصعاب والعقبات في طريق تحصيل العلم ولقاء أهله. أما من قرأها للتسلية و (الفُرجة) فربما لا يشعر بهذا الشعور.

كلمةُ تقريظ للكتاب
في طبعته الثانية

جاد بها قَلَمُ عَلَمٍ من أكابر أعلام العصر الربَّانيين، وقُدوةٍ صالحةٍ موهوبة، من أشهر العلماء الداعين الهادين المفكرين، هو العلامة الجليل، والمجاهد النبيل، الداعية إلى الله تعالى بحاله ومقاله وفِعاله، الذي إذا كَتَب أو خَطَب، غذَّى القلوبَ والأرواح، ونوَّرَ العقولَ والأذهان، مولانا صاحبُ الفضيلة والسماحة الشيخ أبو الحسن علي الحَسَني النَّدْوي، الأمين العام لنَدْوَة العلماء في مدينة لكنو بالهند.

حفظه الله تعالى ورعاه، وأمتَع به وأولاه[1]، وأثابه على حُسن ظنِّه بالعبد الضعيف، وغَفَر لي ما أنا عليه من تقصير وخطايا وذنوب، أنا أعلمُ بها من غيري، قال ــ أعلى الله مقامه ــ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، محمدٍ وآلِه وأصحابه الطاهرين الطيبين، وعلى من تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعدُ فيُسعِدُني أن أكتب سطوراً في انطباعي عن كتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» في طبعته الثانية، للعالم الربَّاني المربِّي، تذكارِ علماءِ السلف في سُمُوِّ الهِمَّة، وعُلوِّ النظر، والتفنُّنِ في العلوم، والإتقانِ فيها، فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، لأنخَرِطَ في هذا السلك النوراني الذي يَمتَدُّ من القرون المشهود لها بالخير إلى زماننا، ومن الشرقِ إلى الغرب.

وإن فاتني ذلك الصبرُ وعُلوُّ الهِمَّةِ والجهاد في سبيل العلم، ومقاساةُ شدائده، فلا يَفُتني الإعجابُ بهذه الصفات المَرْضِيَّة، والاعترافُ بفضلِ أهلها، وعُلوِّ مكانتهم، والثناءِ على من أحيا ذِكرَهم، ونَشَرَ أخبارَهم، وقد بَشَّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم باندراج المُحِبّ في زُمرةِ من أحبَّهم، فقال: «المَرءُ مع من أَحبَّ».

---

(١) كانت فاجعة المسلمين بالشيخ أبي الحسن رحمه الله في ٢٣ رمضان ١٤٢٠. «سلمان».

لقد قَرَن الله العلم منذ خَلَقَه بالصبر، وسُمُوِّ الهمة، والإجلالِ له، والغَيرةِ عليه، وزهدٍ في الدنيا، وتقشفٍ في الحياة ــ مُدَّةَ الدراسة والتحصيل على الأقل ــ وسَهَرِ الليالي، والجِدِّ في الطلب، والدُّعاءِ والإنابة، والتنقُّلِ في سبيله، والبحثِ عن مصادره وأئمته، والتواضعِ لهم، ومعرفةِ فضلِهم، وشُكرِهم.

وكُتُبُ التراجم والسِّيَرِ في الإسلام ــ وهي أوسَعُ مكتبةٍ وأَثْرَاها في تاريخِ أُمَّة من الأمم، العِلميِّ والتأليفي ــ زاخرةٌ بهذه الأخبار التي تُثِير الهِمَم، وتُشعِلُ المواهب، وتَنفُخُ في القارىء رُوحاً جديدة وحَماساً جديداً، وتُعالِجُ الفُتورَ في الهِمَم، والقناعةَ بالدُّون، والخُمودَ في الطبائع، والاشتغالَ بسَفَاسِفِ الأمور: مُعالجةً رفِيقةً حكيمة لا يَستثقلها القارىء، ولا يَشعُرُ بمرارةِ الدواء، أو لَذْعِ آلةِ الجِراحة.

وقد اتفق علماءُ النفس والتربية على أن القِصَص والأخبار والنماذج من السِّيرة والحياةِ أكبَرُ مؤثِّر في النفس، وأقوى عامل من عوامل التربية، وقد جاء ذلك في القرآن صريحاً ومكرَّراً، فقال: ﴿فاقْصُص القَصَصَ لعلهم يتفكرون﴾، وقال: ﴿لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب﴾، وقال مخاطِباً لنبيه: ﴿ وكُـلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثبِّتُ به فُؤادَك﴾.

ومن أعظم الكتب عليَّ فضلاً في رَفْع الهِمَّة في طلب العلم، والصبر على شدائده، والانقطاع إليه، والشَّغَفِ به كتابُ «علماء السَّلَف» بالأوردية للسَّرِي الفاضل العلامة الأمير حبيب الرحمن خان الشِّيْرَواني وزيرِ الأمور الدينية في حكومة حيدرآباد سابقاً، وصاحبِ المكتبة النفيسة المشهورة[1].

وهو كتاب كُتِبَ في حالةٍ نفسية خاصة، وبإخلاصٍ كبير، وقدرةٍ فائقة في اختيار المؤثِّر المرقِّق من أخبار العلماءِ القدماء، والسَّلَفِ الصالحين في الوَلُوع بالعلم النافع، والغرامِ به، والتهالُكِ عليه، والتفاني في سبيله، وعُلوِّ هِمَّةِ المحدِّثين والفقهاءِ في الرحلة في سبيل العلم، والصبرِ على الشدائد والمكاره.

---

(١) وقد ضُمَّتْ هذه المكتبة الشخصيةُ إلى مكتبة جامعة علي كَرَه الكبيرة، وقد اطَّلَع عليها مؤلف هذا الكتاب العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهو من أعرف الناس بنفائسها ودُرَرِها.

وأنا دائماً أُوصي طلبةَ العلم بقراءة هذا الكتاب مرةً بعد مرة، لأني مَدِينٌ له في طلبي للعلم، شاهِدٌ بتأثيره، والكتابُ تُقرَأُ منه قِطعةٌ أمامَ الطلبة في جامع «النَّدْوَة» وعقِبَ صلاة العصر، كلَّ يوم في مفتتح السنة الدراسية في دار العلوم.

وقد كانت الحاجةُ ماسَّةً إلى أن يُوضَعَ كتابٌ جديد في أسلوب عصري رشيق، وتُنخَلَ كتبُ التراجم والسِّيَر والأخبار، وطبقاتُ العلماء من جديد، وتُقتَبَسَ منها حكاياتٌ مؤثِّرة، تُلائمُ الذوق، وتُساير العصر، وتَشحذُ العزم، وتَستفِزُّ الهمم، ولا يُحسِن ذلك، ولا يُؤثِّر في نفوسِ القراءِ إلا مؤلِّفٌ كان هذا حالَه، واختَلَط ذلك بلحمه ودمه، وقد ذاق حلاوتَه فلا يكون ناقلاً محضاً، أو حاملاً أجيراً للثِّقَل من مكانٍ إلى مكان.

وقد جاء كتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» لعلامة العصر وبقية السلف صاحب الفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة مِصداقاً لذلك، وأمامي الآن الطبعة الثانية من الكتاب، التي أصدرها مكتب المطبوعات الإسلامية في حلب، ووجدتُ الكتابَ أجمَعَ ما في هذا الباب، وخطيبَ المِحراب، وقد رُتِّبَ ترتيباً جميلاً مع فهارس مفصَّلة، وإيضاحٍ للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمصادر.

والاختيارُ مثلُ التأليف، أو أصعَبُ منه، فإنه يتجلَّى فيه ذَوقُ المؤلف، ودِقَّةُ نظره، ولُطفُ حِسِّه.

أرجو الله أن ينفع طلبةَ العلم الديني، الذين ابتُلُوا في العهد الأخير ــ لأسباب نفسية واجتماعية وتربوية ــ بسُقوطِ الهمة، وسُرعةِ السآمة والضجر، والكلالِ والملال، وحَسَدِ طلاب الدنيا من زملائهم وأترابهم، وقد جاء هذا الكتابُ في أوانِه ومكانِه، جَزَى الله مؤلِّفَه عن المَعْنِيِّين بالعلوم الدينية ومستقبلِها أفضلَ الجزاء، وأطال بقاءه في خدمة العلم والدين.

أبوالحسن علي الحسني النَّدْوي
دار العلوم ندوة العلماء ــ لكهنؤ
ربيع الآخر ١٣٩٨

كلمة تقريظ ثالثة :

لما زرت مدينة الجزائر الحبيبة في عام ١٤٠٢، بدعوة من وزارة الأوقاف الإسلامية فيها، للمشاركة في ملتَقى الفكر الإسلامي السادس عشر، سُعِدتُ بزيارة العلامة الجليل، والفقيه المالكي الأديب النبيل، سماحة الشيخ أحمد سحنون في منزله العامر، حفظه الله تعالى ورعاه.

فاستقبلني استقبال الغائب الوحيد، عاد إلى أمه بعدَ حينٍ بعيد، وأكرمني بضيافته وبشاشته وكرمه، والتمتع بالنظر في مكتبته العامرة، وقدَّم لي بخطه الجميل (تحية وذكرى) أربعةَ أبيات ارتجلها، ضمَّنها المَدْحَ والثناءَ على كتابِ (صفحات من صبر العلماء)، فأحببتُ أن أُسجِّلَها هنا بخطه، تذكرةً بحُبِّه وفَضْلِه، واللهَ أسأل أن يُمْتِعَ به الإسلامَ والمسلمين.

تحية وذكرى:

إلى الأخ الكريم الداعية إلى الله.

الشيخ عبد الفتاح أبي غُدَّة حفظه الله، بمناسبة زيارته لنا بمنزلنا، بحَيِّ أسامة بن زيد: (الكونكورد) بئر مرَاد رايس بالجزائر العاصمة، بتاريخ ١٧ شوال ١٤٠٢هـ:

(أبا غُدَّةٍ) قد زُرْتَنَا بَعْدَ مُدَّةٍ ... ذَكَرْناك فيها بالجميلِ من الذكرِ
على صَفَحاتٍ فَذَّةٍ قد كَتَبْتَها ... تُبيِّنُ أنَّ العِلْمَ يُدْرَكُ بالصَّبْرِ
وبالصَّبْرِ يُبنَى كلُّ مَجْدٍ ويُرْتَقى ... وبالصبر يَعْنُو كلُّ صَعْبٍ من الأَمْرِ
فحقِّقْ أَمَانِيْنَا بسِفْرٍ تَضُمُّهُ ... إلى سِفْرِكَ الماضي تَنَلْ وافِرَ الشكرِ

الجزائر ــ أسامة بن زيد ــ (الكونكورد)
١٧ شوال ١٤٠٢
(7) أوت 1982 م
أحمد سحنون

تحية وذكرى

إلى الأخ الكريم الداعية إلى الله،
الشيخ عبد الفتاح أبي غدة حفظه الله
بمناسبة زيارته لنا بمنزلنا بحي:
أسامة بن زيد: (الكونكورد) بئر مراد رايس
بالجزائر العاصمة بتاريخ ١٧ شوال ١٤٠٢هـ

(أبا غدَّةٍ) قد زُرْتَنا بَعْدَ مُدَّةٍ
ذكرناكَ فيها بالجميلِ من الذكرِ
على صَفَحاتٍ فذَّةٍ قد كتبتَها
تُبيِّن إنّ العلم يُدرَكُ بالصَّبرِ
وبالصَّبرِ يُبنى كلُّ مجدٍ ومُرتقى
وبالصَّبرِ يَعنو كلُّ صَعْبٍ من الأمرِ
فحقِّق أمانيْنا بِسِفْرٍ تضمُّه
إلى سِفْرِكَ الماضي تَنَلْ وافرَ الشُّكرِ

الجزائر - أسامة بن زيد - (الكونكورد)
١٧ شوال ١٤٠٢هـ
(٧) أوت 1982م

مقدمة الطبعة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدَ الشاكرين، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإنّ أخبار العلماء العاملين، والنبهاء الصالحين، من خير الوسائل التي تَغرِسُ الفضائلَ في النفوس، وتَدفَعُها إلى تحمُّل الشدائدِ والمكاره في سبيل الغاياتِ النبيلة والمقاصد الجليلة، وتَبعَثُها إلى التأسي بذَوِي التضحيات والعَزَمات، لتَسْمُوَ إلى أعلى الدرجات وأشرفِ المقامات.

ومن هنا قال بعض العلماء من السلف: (الحكاياتُ جُنْدٌ من جُنودِ الله تعالى، يُثَبِّتُ اللَّهُ بها قلوبَ أوليائِه). وشاهِدُه من كتاب الله تعالى قولُه سبحانه: ﴿وكُلًّا نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤادَكَ﴾[1].

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: (الحكاياتُ عن العلماءِ ومَحاسِنِهم أحَبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقه، لأنها آدابُ القوم وأخلاقُهم). وشاهِدُه من كتاب الله تعالى قولُه سبحانه: ﴿أُولئكَ الذين هَدَى اللَّهُ، فبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ﴾[2]. وقولُه سبحانه: ﴿لقد كان في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولي الألباب﴾[3]. نقَلَه الحافظُ ابنُ عبد البَرّ في «جامع بيان العلم وفضله»، والقاضي عِيَاضٌ في «ترتيب المدارك»، والحافظُ السَّخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»، والمؤرِّخ المَقَّري في «أزهار الرياض»[4].

---

(١) من سورة هود، الآية ١٢٠.

(٢) من سورة الأنعام، الآية ٩٠.

(٣) من سورة يوسف، الآية ١١١.

(٤) «جامع بيان العلم» ١: ١١٧، و«ترتيب المدارك» ١: ٢٣، و«الإعلان بالتوبيخ» ص ٢٠، و«أزهار الرياض» ١: ٢١ ــ ٢٢.

وجاء في مقدمة كتاب «اللُّقَط في حكايات الصالحين» للإمام ابن الجوزي (مخطوط)، ما يلي: «عن مالك بن دينار قال: الحكاياتُ تُحَفُ الجَنَّة. وقال الجُنَيْد: الحكاياتُ جُنْدٌ من جُنُودِ الله عزَّ وجل، يُقوِّي بها إيمانَ المُريدين، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: قولُهُ تعالى ﴿وكُلًّا نَقُصُّ عليك مِنْ أَنباءِ الرُّسُلِ ما نُثبِّتُ به فؤادَكَ﴾. وقال آخَرُ: استكثروا من الحكايات فإنها دُرَر، وربما كانَتْ فيها الدُّرَّةُ اليتيمة». انتهى.

ويَعني بالدُّرَر أنها تُغني عن الكلام الطويل، بما تضمَّنَتْهُ في الموضوع الذي تُسَاقُ فيه. ويَعني بالدُّرَّةِ اليتيمة: أنها الحكايةُ التي لا تَدَعُ زيادةً لمستزيد، في أداءِ المعنى الذي يُستشهَدُ بها فيه.

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً، في مقدمة كتابه: «المنتظَم في تاريخ الملوك والأمم»: «واعلم أن في ذِكرِ السِّيَرِ والتاريخ فوائد كثيرة، من أهمِّها أن يُطَّلَعَ بذلك على عجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القَدَر، وسماعِ الأخبار، فالنَّفْسُ تجدُ راحةً بسماع الأخبار، قال أبو عَمْرو بن العلاء: قيل لرجلٍ من بَكْر بن وائل ــ قد كَبِرَ وذَهَبَتْ منه لَذَّةُ المأكل والمشربِ والنكاح ــ: أَتُحِبُّ أن تموتَ؟ قال: لا، قيل: فما بقي من لَذَّتِكَ في الدنيا؟ قال: أستمِعُ العجائب».

ويقولُ العبد الضعيف عبدُ الفتاح أبو غدة غَفَر الله له: إنَّ خيرَ وسيلةٍ لإشعالِ العزائم، وإثارةِ الرُّوْحِ الوَثَّابة، وقَدْحِ المواهب، وإذكاءِ الهِمَم، وتقويم الأخلاق بصَمْتٍ وهُدُوء ودُونَ أَمْرٍ أو نَهْي، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفُّعِ عن سَفْسَافِها، والائتساء بالأسلافِ الأجلَّاءِ: هُوَ قراءَةُ سِيَرِ نُبَغَاءِ العلماء الصلحاء، والوقوفُ على أخبار الرجالِ العظماء، والتملِّي من اجتلاءِ مناقبِ الصالحين الربَّانِيِّين، والاقترابُ من العلماء النبهاءِ العاملين المُجدِّين.

فذلك خيرُ مِهماز لرَفْع الهِمَم، وشَدِّ العزائم، وسُمُوِّ المقاصد، وإنارةِ القلوب، وإخلاصِ النيات، وتَفجير النبوغ والطاقاتِ المدفونة، والصبرِ على اجتياز العَقَبَاتِ والصِّعَاب، واحتلالِ ذُرَى المجدِ الرفيع، وكَسبِ الذكرِ الحَسَن، واغتنام الباقيات الصالحات. ولعل قراءةَ هذا الكتابِ ــ بفضل الله تعالى ــ تُحقِّقُ قِسطاً حَسَناً من ذلك، واللهُ وليُّ كلِّ خيرٍ ورشاد.

هذا، وقد لقي هذا الكتابُ: «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» قبولاً كريماً من القراء وطَلَبةِ العلم، والفضلُ لله والحمدُ له، وتلقَّيتُ كلماتٍ كثيرةً من كبار العلماء تَخُصه بالتقدير والثناء، ونَفِدَتْ طبعتُه الأولى في وقتٍ قصير لم يكن مقدَّراً أن تَنفَد فيه.

ولمّا كَثُر الطّلَبُ عليه رأيتُ إعادةَ طبعه، وحَرَصتُ أن يَخرج في حُلّةٍ قَشِيبةٍ جميلة مُحبَّبة إلى القراء، ليَبقَى مُحافِظاً على سَمْتِه الرفيع الذي خَرَج فيه في طبعته الأولى.

وزِدتُ في هذه الطبعة الثانية زيادات كثيرةً نحوَ نصفِ الكتاب على الطبعة الأولى، وصَنعتُ له محتوىً عاماً للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمصادر، والكتب، والأعلام، والشعر، والموضوعات؛ ليَسهُلَ الرجوعُ إلى الخبر وصاحبِه بأيسرِ وقت، ورَقَّمتُ الأخبار برقم متسلسل، ليُحالَ إلى الخبر عند الحاجة برقمه، وليكونَ الرقْمُ في أوّلِ الخبر أداةَ فَصْلٍ بينه وبين سابقه، وجَوّدتُ فيه الخدمةَ والضبط ما استطعت.

واللهُ سبحانه هو وليُّ التوفيق والسّداد، وبيده الهُدَى والرشاد، وهو المسئول سبحانه أن يَنفعَ به ويَجعلَه في صحيفةِ الحسناتِ عنده، ويَنفعَني بدعواتِ المنتفعين به، ويَجعلَني وإياهم من الذين يَستمعون القولَ فيَتّبِعُون أحسنَه، وهو رَبُّنا ومولانا ونعم الرّبُّ والمولى، والحمدُ لله رب العالمين.

وكتبه

في بيروت ٢٤ من رجب سنة ١٣٩٤ — عبد الفتاح أبو غدّة

مقدمة الطبعة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله العليم الحكيم حقَّ حَمْدِه، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد رسولِه وعبدِه، وعلى من سار على نهجه القويم المبين، من الصحابة والتابعين، والعلماء العاملين، ومن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فقد كنتُ أقِفُ خِلالَ مطالعاتي ومراجعاتي، على كثير من أخبار علمائنا المتقدمين، ووقائِعِهم وشدائِدهم التي عانَوْها أيامَ التحصيل والطلب، أو خِلالَ حياتِهم العلمية المملوءة بالتقشف والخشونةِ والعَقَباتِ والمتاعب.

وكنتُ أَرى في سطور تلك الأخبار والوقائع دروساً صامتة عظيمة، يجب أن يَطّلع عليها شبابُنا المثقّف، وجيلُنا المتعلّم، واللّفِيفُ الغامطُ لتراثه العظيم، ليُدرِكوا منها منزلةَ هذه العلوم الإسلامية، التي أُلقِيَتْ بين أيديهم دانيَةَ القطوف، طيِّبَةَ الثمرات والجَنَى، فيَعرفوا قيمتَها وقيمةَ الجهود الجبّارة الهائلة التي بُذِلَتْ في تحصيلها وتدوينها، ونقلِها وضبطِها وتلقينِها.

ويتَبَدَّى لهم بالتالي من ثنايا تلك الأخبار وسِيرةِ أهلها: عظَمةُ المكتبة الإسلامية التي ملأت ما بين الخافقين، وعظَمةُ رجالها الذين شادوها بأفكارهم وأقلامهم، وأسفارهم وأعمارهم، وجُوعهم وعَطَشِهم، وصَبْرِهم وسَهَرهم، وكدِّهم ونَصَبِهم، كما يتَبدّى لهم أيضاً أن هذه المكتبة الإسلامية الزاخرة: نَسِيجُ وَحْدِها في هذا الجانب العظيم.

وقد شَدّ مني العَزْمَ على جمع هذه الصفحات: أنّ إدارة (كلية الشريعة) بالرياض، طلبَتْ مني إلقاءَ محاضرة في سلسلة محاضراتها العامة، فرأيتُها مناسبةً حسنةً لاختيار هذا الموضوع، إذ فيه عَرْضٌ لجانبٍ هامٍّ من تاريخ علوم الإسلام، وتاريخ

علمائه الأبرار، يتعَرّف منه أبناؤنا الطلبة: كيف صارت هذه العلوم الكريمة إليهم، وكيف كان آباؤهم العلماء يتَحمّلون المشاقَّ والشدائدَ في سبيلها . . . ، فيكون لهم من ذلك حافزٌ على تقدير هذا التراث العظيم، وتبصيرٌ بما عليهم من المسئوليات نحوَه، من تلقِّيهِ وخدمتِه ونشرِه والحِفاظِ عليه والدفاعِ عنه.

فكتبتُ بعضَ هذه الصفحات(١)، ثم أضفتُ إليها بعدَ ذلك من الأخبار ما يُتمِّمُ مقاصِدَها، ويَزيدُ فوائدَها. واقتصَرتُ في هذه الصفحات على إيراد الأخبار والوقائع دون تحليل أو تعليق عليها، إذ هي ناطقة بذاتها لا تحتاجُ إلى شرح وبيان، وعزوتُها إلى مصادرها ومراجعها، مع الاهتمام التامِّ في ضبطِها وتسهيل عَرْضِها، ورَتَّبْتُها على تسلسلِ الزمن في وقوعها، وبه يتبيَّنُ فضلُ السلفِ على الخلفِ حتى في هذه الجوانب.

وموضوعُ هذا الكتاب قابلٌ للزيادة والإضافةِ في جميع جوانبه، وأنا لم أقصِد استقصاءَ أخبارِ العلماء هنا، فإن ذلك متعذِّر، وإنما أردتُ تقديمَ نماذجَ من كل جانب، يَقِفُ القارىءُ وطالبُ العلم منها على طَرَفٍ من سِيرةِ الآباءِ والأجدادِ في تحصيلِ العلمِ وتدوينِه، فيُدرِكُ قَدْرَهم، ويَعرِفُ لهم فضلَهم، كما يُدرِكُ مسئوليتَهُ في الحِفاظِ على ما خَلَّفوه، من نِتاجِ عقولِهم وثِمارِ جهودِهم، فيَحْفِزُهُ ذلك إلى الجِدِّ والدأبِ والتحصيل.

وقد يَرى القارىء في هذه الصفحات بعض المصادفات العجيبة الغريبة، التي يكاد المرءُ يظنُّ أنها مصنوعةٌ غيرُ واقعة، لولا أن يتذكر أن هذا التاريخ الطويل عَبْرَ مِئاتِ السنين، وهذا العالَمَ الواسع العريض، الذي كان يموج بالعلماء موجاً في كل جانب من جوانبه، ومن مشارق الأرض إلى مغاربها: لا يُستَبعدُ أن تقع فيه ــ على طويل امتداده وتكاثُرِ أهلِه وتبايُنِ أحوالهم وأيامهم ــ لا يُستبعَدُ أن تقع فيه بعضُ الغرائب والعجائب من الموافقات والمصادفات.

والإنسانُ قد يَسْتَبْعِدُ الشيء الغريب أحياناً، إذا قاس قبولَه أو رَفْضَه بمقياس

(١) وألقيتها محاضرة في ليلة الأحد ٢٣ من المحرم سنة ١٣٩١، في قاعة المحاضرات العامة في كلية الشريعة بالرياض.

مألوفه في حياته القصيرة وقُطْرِه الصغير! وقد يَستغربُه أحياناً إذا وجده كثيراً مع غرابته، ولكن يكون مبعثُ استغرابه له في هذه الحال آتياً من كثرته التي وقف عليها دفعةً واحدة، في صعيدٍ واحد ووقتٍ واحد.

أما إذا تذكّر أن ذلك الغريب العجيب ـ بمقياس مألوفه ـ وقع في آماد مترامية من الزمن، وفي أناسٍ لا يَعلمُ عددَهم إلا الله تعالى، تقارَبَ لديه قبولُ وقوعِه، وزال منه إنكارُ حدوثه، وعَلِمَ أن مَثَله في إنكاره الأوَّل مَثلُ إنسان وقف على مقطع من البحر، ثم غاص فيه وضربَ يميناً ويساراً من جَنَبَات موقفه، فلم يشاهد في أعماق (بحره) إلا الأسماك المعتادة، والحيوانات المائية المعروفة، فأنكر ما يحكى عن البحر من عجائب المخلوقات.

وما درى أن تلك المخلوقات العجيبة الغريبة لم تُجمَع من مقطع واحد من البحر الكبير، ولا في زمن واحد، وإنما جُمِعَتْ من أطراف البحر التي تَنحسر عندها الأنظار والأفكار، وجُمعت في آماد متباعدة، ومن أماكن متباينة، وإنما وقع له: أنه حُدِّثَ عنها دَفعةً واحدة فأَنكرها، فإذا تذكّر هذه الحقيقةَ خضعَ لقبولها ولم ينكرها.

وأسوقُ إليك هنا نماذجَ يسيرةً، من حقائقِ العجائبِ والغرائبِ من المخلوقات، روى أخبارَها الرواةُ الثقات، حَمَلَةُ السُّنَّةِ النبوية، وأُمَناءُ الشريعة الأتقياء الصادقون الدُعاة، بِالسَّنَدِ المتصلِ الصحيح، المُفِيدِ للإِيقانِ والإِذعان، لصدقِ رجالِهِ وضَبْطِهم ونَبَاهَتِهم رضي الله عنهم.

١ ـ روى الإمام البخاريُّ في «صحيحه»[١]، والإمامُ مسلمٌ في «صحيحه»[٢]، واللفظُ الآتي لمسلم: «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: بَعَثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأمَّرَ علينا أبا عُبَيدة، نَتَلَقَّى عِيْراً لِقُرَيْش، وزَوَّدَنا جِراباً من تَمْر، لم يَجِد لنا غيرَهُ، فكان أبو عُبَيدة يُعطِينا تَمْرةً تَمْرة.

---

(١) ٥: ٩٢ بشرح «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، في أول كتاب الشركة، في (باب الشركةِ في الطعامِ والنِّهْد)، وفي ٨: ٦١ في كتاب المَغَازي، في (باب غزوة سِيْفِ البحر...)، وفي ٩: ٥٣١ في كتاب الذبائح والصيد، في (باب أُحِلَّ لكم صَيْدُ البَحْرِ وطعامُهُ مَتاعاً لكم).

(٢) في ١٣: ٨٤ بشرح الإمام النووي، في كتاب الأطعمة، في (باب إباحةِ مَيْتَاتِ البحر).

قال ــ الراوي عن جابر ــ : فقلتُ: كيف كنتم تَصْنَعون بها؟ قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثم نَشرَبُ عليها من الماء، فتَكفِينا يومَنا إلى الليل، وكنا نَضرِبُ بعِصِيِّنا الخَبَط ــ أي وَرَقَ الشَّجَر ــ ، ثم نَبُلُّهُ فنأكلُه.

قال: وانطلقنا على ساحِلِ البَحْر، فرُفِعَ لنا على ساحلِ البحر ــ شيءٌ ــ كهيئة الكَثِيب الضَّخْم ــ أي كصُورةِ التَّلِّ الكبير المستطِيل المحدودِب من الرَّمْل ــ ، فأتيناه فإذا هي دَابَّةٌ تُدعَى العَنْبَر، قال: قال أبو عُبَيدة: مَيْتة، ثم قال: لا، بل نحن رُسُلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله، وقد اضطُرِرتُم فكُلُوا.

قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثُ مِئَةٍ حتى سَمِنَّا، قال: ولقد رأيتُنا نَغترِفُ مِن وَقْبِ عَيْنِه ــ أي من داخِلِ عَيْنِه ونُقْرَتِها ــ بالقِلَالِ ــ أي بالجِرارِ الكبيرة ــ الدُّهْنَ، ونَقتطِعُ منه الفِدَرَ ــ أي القِطَعَ ــ كالثَّوْرِ أو قَدْرِ الثَّوْر.

فلقد أَخَذ منا أبو عُبَيدة ثلاثةَ عَشرَ رجلاً، فأَقعَدَهم في وَقْبِ عَيْنِه، وأَخَذ ضِلْعاً من أضلاعه فأقامَها، ثم رَحَل أعظمَ بعيرٍ معنا، ونَظَر إلى أطولِ رجلٍ فحمَلَه عليه، فمَرَّ من تحتِها.

وتَزَوَّدْنا من لحمه وَشَائقَ ــ جمعُ وَشِيقَة، وهي القِطعةُ من اللحم تُسْلَقُ وتُحمَلُ في السفر ــ ، فلما قَدِمنا المدينةَ أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذَكَرنا له ذلك، فقال: هو رِزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمِهِ شيءٌ فتُطعِمُونا؟ قال: فأرسَلْنا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأَكَلَ منه»(١).

---

(١) قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالى، في آخر المجلد الخامس الذي فيه (فهارس صحيح مسلم) للطبعة التي قام بخدمتها، وطُبِعَتْ بالقاهرة بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٧٥ في خمس مجلدات، ثم صُوِّرَتْ في بيروت من قِبَل (دار إحياء التراث العربي)، قال في المجلد الخامس المذكور ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦، عَقِبَ ذكرِ طَرَفٍ من هذا الحديث الشريف حديثِ جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

«صَدَق سيدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه، وصَدَقَ أصحابُ رسول الله رضي الله عنهم، وصَدَق رُوَاةُ أحاديثِ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنهم، فقد جاء نَظِيرُ هذا في هذا العصرِ القريبِ جداً. =

٢ ــ وأذكُرُ لك أُعجوبةً أخرى من عجائب المخلوقات في النَّبات والثِّمار، لا تكادُ تُصدِّقُها بالنظرِ إلى مقياس منظورِك المألوفِ منها اليومَ، وربما لو سَمِعتَ خبرَها من رجلٍ عاديّ تُنكِرُها، أو تَراها من المُبالَغاتِ التي تقعُ من بعض الناس، في أحاديثهم عن الغرائبِ والعجائب.

ولكنْ سُرْعَانَ ما يَتبَدَّدُ من خاطرك هذا الإنكارُ أو التردُّدُ في صحتِها، إذا عَلِمتَ أنَّ واصِفَ تلك الأُعجوبةِ ومُشاهِدَها ومُسَجِّلَها والمتحدِّثَ بها هو شيخُ شيوخِ

= جاء في جريدة الأهرام، في العَدَد ٢٤٤١٩، بتاريخ ١٩٥٣/٩/٢٧، ص ٢ عمود ٧:

حُوْتُ يُوْنُس

اجتازَتْ شوارعَ باريس أمسِ سَيَّارةُ نَقْلٍ طولُها ٣٠ متراً، يقال: إنها أطوَلُ سيارةِ نَقْلٍ في العالم، وكانت تُقِلُّ (يُوْنُس)، وهو حُوْتٌ ضَخْمٌ، عُمرُه ١٨ شهراً، وطُولُه ٢٠ متراً، ووَزْنُه ٨٠٠٠ كيلو جرام، وقد حنَّطَه أصحابُهُ، وقاموا بعَرْضِه على النظَّارةِ في النِّرْويج والسُّوَيد والدانِمَارْك والنّمْسا وأَلمانيا، وسيُعرَض في باريس هذا الأسبوع لِقاءَ أَجْرٍ معلوم، وقد أُضِيء باطنُهُ بالمصابيحِ الكهربائيةِ ليَتَسَنَّى للنظارةِ رُؤيةُ جَوْفِه (ر).

وجاء في جريدة الأخبار الجديدة، في العدد ٣٩٦، بتاريخ ١٩٥٣/٩/٢٧، ص ٢ عمود ١ و٢:

حُوْتٌ طولُه ٢٠ متراً، ووَزْنُه ٨ أطنان

الناس يَدخلون بَطْنَهُ، عشرةً كلَّ دَفْعَة

باريس في ٢٦ ــ ر:

دَخَلَ صباحَ اليوم «أُوْنَا» باريسَ دخولَ الفاتحين، يَحرُسُهُ عَشَراتٌ من رجال البوليس الراكبِ والراجلِ. أما «أُوْنَا» هذا فهو حُوْتٌ نِرْويجيٌّ ضَخْم مُحَنَّط، وَزْنُهُ ٨٠٠٠ كيلو، وكان محمولاً على عَشَرةِ جَرَّاراتٍ مربوطةٍ بسيَّارةِ نَقْلٍ ضخمة، وسيُعرَضُ الحوتُ لمدَّةِ شهر، ويُسمَحُ للناسِ بدخولِ كَرِشِهِ المُضَاءِ بالكهرباء، ويَستطيع عشرةُ أشخاص أن يَدخلوا بطنَهُ مَرَّة واحدة.

ولكنَّ المُشْرِفِين على مَعْرِض «أُوْنَا» وبوليس المدينة، لم يَتَّفِقُوا على المكان الذي يُوضَعُ فيه الحُوت، وهم يَخشَوْنَ وَضْعَهُ فوق مَحَطَّةِ القِطار الأرضي، خشيةَ أن يَنهارَ الشارع. وبرغم أنَّ سِنَّ هذا الحُوْتِ لا يَزِيدُ على ١٨ شَهْراً، فإنَّ طُولَهُ ٢٠ متراً، وقد صِيدَ في شهرِ سبتمبر من العام الماضي في مِياهِ النِّرْوِيج. وقد صُنِعَتْ له عَرَبةُ قِطارٍ خَاصَّةٌ لِنقلِهِ في جَوْلَةٍ عَبْرَ أوربا، ولكنها انهارَتْ تحته! فَصُنِعَتْ له سَيَّارَةُ جَرٍّ خاصَّةً، طولها ٣٠ متراً.

المحدِّثين، والرَّاوِيَةُ الصادِقُ الضابطُ الأمين، الإمامُ أبو داود سُليمان بنُ الأَشْعَث السِّجِسْتَاني، الإمامُ الوَرِعُ الناسِكُ الزاهد، الحافِظُ العَلَمُ الرحَّالَةُ، أحَدُ أئمةِ الحديثِ المُتْقِنِين، وحُفَّاظِهِ العارفين، صاحبُ كتابِ «السُّنَن» الذي هو أحَدُ كُتُبِ الإسلام، المولودُ سنة ٢٠٢، والمتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ رحمه الله تعالى.

قال في كتابه: «السُّنَن» في كتاب الزكاة، في آخِر (باب صدقة الزَّرْع) ٢ : ١٤٦ : «قال أبو داود: شَبَرْتُ قِثَّاءَةً بِمصْرَ ثلاثَةَ عَشَر شِبْراً، ورأيتُ أُتْرُجَّةً على بَعِيرٍ بِقِطعَتَيْنِ، قُطِعَتْ وصُيِّرَتْ على مِثْلِ عِدْلَيْنِ». انتهى. ونقَلَه الحافظُ الإمام الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ٢ : ٥٩٢ و «سِيَر أعلام النبلاء» ١٣ : ٢٢٠ في ترجمتِهِ.

فالمُخْبِرُ بهذِهِ الأُعجوبة إمامٌ من أئمة المسلمين، وحافظٌ كبيرٌ نَقَّادٌ من كِبارِ رُواةِ حديثِ سيد المرسلين، وما يُخبِرُ به شَهِدَه هو بنفسِهِ، وسَجَّلَهُ في كتابه، ورواه عنه رُواةُ كتابِهِ «السُّنَن»، وما أعدَلَهم! وما أتقَنَ ضبطَهم وحِفظَهم! وكلُّهم أئمةٌ أبرار، وحَفَظَةٌ أخيار، وليس أبو داود من أهل المبالغات، أو الأَخباريِّين أصحابِ الطرائف والمستغرَبات.

٣ ــ وإليك خبراً آخَرَ شَبيهَ المعنى بسابقِه، ونظيرَه في غرابتِه، ومِثلَهُ في الثقة والثبوت، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في «تذكرة الحفاظ» ٢ : ٥١٠، في ترجمة الإمام الحافظ (محمد بن رافع النيسابوري): «هو الحافظُ القُدوةُ أحَدُ الأعلام، شيخُ البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وأبي زُرْعَة. . . الثقةُ المأمون، تُوفي سنة ٢٤٥ رحمه الله تعالى.

قال أحمد بن عمر بن يزيد، حدَّثَنا محمد بن رافع النيسابوري، قال: سمعتُ عبدَ الرزاق ــ الصَّنْعَاني اليَماني ــ، قال: سمعتُ مَعْمَرَ بنَ راشدٍ البصري ثم اليَماني ــ ولد سنة ٩٥، وتوفي سنة ١٥٣ ــ يقول: رأيتُ باليَمَن عُنْقُودَ عِنَبٍ وِقْرَ بَغْلٍ تامّ». انتهى.

٤ ــ وجاء نحوُ هذا فيما أخبرَ به الفقيهُ المؤرِّخُ الأديب، العلامة كمالُ الدين الأُدْفُوِيّ المِصري، المتوفى سنة ٧٤٨ رحمه الله تعالى، قال في أول كتابه: «الطالِعُ السَّعِيد، الجامِعُ نُجَباءَ أبناءِ الصَّعِيد» ص ٢٦، وهو يتحدَّثُ عن الخيراتِ والثِّمارِ

العظيمة في بلَدِهِ (أُدْفُو):

«رأيتُ قِطْفَ عِنَب، جاءَتْ زِنَتُهُ ثمانيةَ أرطال باللَّيْثي، ووُزِنَتْ حَبَّةُ عِنَبٍ جاءَتْ زِنَتُها عَشَرَةَ دراهم، وذلك بأُدْفُو بلدِنا». انتهى.

٥ ــ وجاء في مجلة (الفيصل) التي تَصدُرُ من مدينة الرياض السعودية[١]، في العدد ٦٢ عدد شعبان سنة ١٤٠٢، في ص ١١٢ صُورةٌ لثمرةِ كُرْنُب: (ملفوف)، وَزَنَتْ ٢٢ كيلو غراماً، وبلَغَ قُطرُها متراً واحداً، وصورةٌ لبصلةٍ يابسةٍ واحدة، وزَنَتْ ٢,٣ كيلو غرام، وبلغ قُطرُها ٣٠ سم، وذكرَتْ المجلةُ عَقِبَ ذلك أن ثمرة بندورة (طماطم) واحِدة بلَغَ مُحِيطُها أكثَرَ من ٦٠ سم. وأن هذه الأشياء غير العادية نبتت في أرض المُزَارِع المكسيكي (جوزيه كارمن) ذي الخبرة الطويلة في الزراعة والعناية بالأرض، مما جعَلَهُ المُزارِعَ الأولَ في المكسيك.

فهذه نماذج من عجائب المخلوقات في الحيوان والثمار، نُقِلَتْ إلينا أخبارُها بأصحِّ الطرق وأوثَقِ الناقلين، قد تَستبعِدُها من القبولِ بمقياس حياتِك ومشهوداتِك اليومية، ولكنها الثابتةُ الواقعة، بنقل الثقات لها.

وإليك هذه الوقائعَ العجيبةَ الفَذَّة، لتَشهَدَ فيها أيضاً أنَّ هناك أفراداً في العالَم، يوجدون في الدُّهُور المتطاوِلة، يَمنحهُم الله تعالى: يَدَاً صَنَاعاً، أو جِسْماً مِطْوَاعاً، أو فِكراً مِبْدَاعاً، فتكونُ منهم عجائبُ العجائب التي لا تُصدِّقُها العقولُ لولا وقوعُها، وأجتزِىءُ هنا بسَوْقِ بِضعةِ أخبارٍ من ذلك:

١ ــ حكى المؤرِّخُ أبو الفضل عبدُ الرزاق بن الفُوَطِي البغدادي في كتابه «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة»[٢]، وعالمُ ملوكِ اليَمن الملكُ الأشرفُ أبو العباس إسماعيلُ بنُ العباس الرَّسُوليُّ اليَمَني، في كتابه «العَسْجَد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقاتِ الخلفاءِ والملوك»، في القسم المطبوع منه[٣]، في حوادث سنة ٦٣٧.

(١) أضفت هذا الخبر إلى مقدمة الطبعة الأولى، عند طبع الكتاب للمرة الثالثة.

(٢) ص ١٢٢.

(٣) ص ٤٩٠.

قالا: «وفي هذه السنة صُلِبَ إنسانٌ أعجمي خياط، كان في خدمة الأمير جَمَالِ الدين قَشْتَمُر كان قد جَرَح جاراً له بمِقَصّ فمات. وكان هذا الخياطُ قد بَرَع في صناعة الخِياطة، وعَمِلَ أشياءَ عجيبةً، منها: أنه حَبَسَ نَفْسَهُ في صُندوق، ومعه ثوبٌ غيرُ مُفَصَّل، وعُلِّقَ الصُّندوق مُقابِلَ باب جَمَالِ الدين قَشْتَمُر، من أوَّلِ الليل، ثم حُطَّ الصُّندوق وَقْتَ الصُّبْح، وفتحوه فوجدوه قد فَصَّلَ الثوبَ، وخيَّطه، وطَوَاه، ورام جماعةٌ بعدَه أن يفعلوا كذلك فعَجَزوا عنه. وكان هذا الرجلُ الخياطُ شيخاً قصيراً جداً أعرَجَ أحدَبَ، أوحَدَ عصرِهِ في الخِياطة، غيرَ محمودِ الطريقة».

٢ ـ وقال أيضاً عالمُ ملوكِ اليَمَن المَلِكُ الأشرفُ إسماعيلُ بنُ العباس، في كتابه «العَسْجَد المسبوك»[1]، في حوادث سنة ٦٤١: «وفي يوم الأحد ثاني شهرِ شوال، لَعِبَ إنسانٌ من أجنادِ زَعِيْم اللَّحْفِ ـ ناحيةٍ من نواحي بغداد ـ على حَبْلَيْنِ، نصَبَهُما عن الأَرْضِ نحوَ أَرْبَعينَ ذِراعاً، فكان يمشي عليهما مَشْياً سريعاً، مَاضِياً وَراجِعَاً إلى وراءَ، وفي رجليه قَبَاقِبُ، وعلى رأسِهِ طِفْلٌ صغير، قِيل: إنه وَلَدُه.

ثم أخَذَ سَيْفاً مشهوراً، وتركه معرضاً على الحَبْل، وقام على أمِّ رأسِه، ورَفَع رجلَيْهِ، وجَعَل يَلْبَسُ سَرَاوِيلَهُ ويَخْلَعُهُ مقلوباً، ثم أخَذَ جَرَّةً مملوءةً ماءً، وجَعَلها على رأسِه، ومَشَى بها مُهَرْوِلاً، من أوَّل الحَبْلِ إلى آخِره، وفي رجليه القَبَاقِبُ، وعلى رأسِهِ الجَرَّة، ثم رَمَاهَا وتعلَّق بالحَبْلَيْنِ بإبهامِ رِجليه، ولَعِبَ لَعِباً يُذْهِلُ العقول.

فلما فَرَغ من لَعِبِهِ ونَزَل إلى البَدْرِيَّة ـ أَحَدِ أبواب دارِ الخلافة منسوبٍ إلى بَدْرٍ مملوكِ المعتَضِد ـ، خُلِعَ عليه، وأُعطِيَ فَرَساً ومِئَتَيْ دينار، ثم مَضَى إلى بيوتِ الأمراء، فحصَّلَ ما يَزيدُ على ثلاثةِ آلافِ دينار».

٣ ـ كان الشيخ الإمام القَرَافي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس، المصري، المالكي، الفقيه الأصولي صاحبُ الكتاب العُجاب «الفروق» في الفقه، المولود سنة ٦٢٦، والمتوفى سنة ٦٨٤ رحمه الله تعالى، إلى جانب إمامتِهِ الفَذَّةِ في الفقهِ والأصولِ وجملةٍ من العلوم، أَحَدَ البارعين النَّبغَةِ النوادِرِ في العالَم في صِناعةِ السَّاعَاتِ الفَلَكِيَّة.

---

(١) ص ٥١٨.

قال في كتابه «نفائس الأصول في شرح المحصول»[١]، وهو يَبحثُ في فَصْلِ (الكلامُ في اللُّغَات)، عن الدلالة الصَّوْتِيَّة: هل مُجرَّدُ الصوتِ يَدُلُّ على صاحِبه؟ فبيَّنَ أنه لا يكفي أن نَسمعَ الصوتَ فنقولَ: إنه لا بدّ من شخصٍ صاحبٍ لهذا الصوت، لأنَّ الصوتَ يُصنَعُ في غير الإنسان.

ثم قال: «بَلَغني أن المِلكَ الكامل، صُنِعَ له شَمْعَدان ــ هو عَمودٌ طويلٌ من نُحَاس، له مَراكزُ يُوضَعُ عليها الشَّمْعُ للإنارة ــ كلَّما مَضَى من الليل ساعةٌ انفتَحَ بابٌ منه، وخَرَج منه شخصٌ يَقِفُ في خدمةِ المِلك، فإذا انقضت عَشْرُ ساعات، طَلَع الشخصُ على أعْلى الشَّمْعَدَانِ وقال: صَبَّح الله السلطانَ بالخير والسعادة، فيَعْلَمُ أنَّ الفجر قد طَلَع.

وقد عَمِلْتُ أنا ــ المتكلِّمُ القَرَافي ــ هذا الشَّمْعَدانَ، وزدتُ فيه أنَّ الشمعةَ يَتغيَّرُ لونُها في كل ساعة، وفيه أسَدٌ تتغيَّرُ عَيْنَاهُ من السَّوادِ الشديد، إلى البياضِ الشديد، إلى الحُمرةِ الشديدة، في كلِّ سَاعَةٍ لها لونٌ، وتَسْقُطُ حَصَاتانِ من طائرين، ويَدخُلُ شخصٌ ويَخرُجُ شخص غيرُه، ويُغلَقُ بابٌ ويُفتَحُ باب، فإذا طَلَع الفجرُ، طَلَع الشَّخْصُ على أعْلَى الشمعدان، وإصبَعُهُ على أُذُنِهِ يُشيرُ إلى الأذان، ولكني عَجَزْتُ عن صَنْعَةِ الكلام، ثم صَنعتُ صُورةَ حَيَوانٍ يَمْشي ويَلْتَفِتُ يميناً ويَساراً، ويُصَفِّرُ ولا يَتكلَّمُ». انتهى.

وهذا ذكاءٌ خارقٌ عجيبٌ فريد من الإمام القَرَافي، في اليَدِ الصَّنَاع، والذِّهْنِ المِبْدَاع، مع الإمامةِ في أصعبِ العلوم: الأصولِ والفقه، رحمةُ الله تعالى عليه[٢].

٤ ــ وحدثني شيخنا وأستاذنا العلامة الكبير، والفقيهُ النابغ الألمعي الشيخ

---

(١) في الجزء ١:١٠٨ من النسخة المخطوطة، المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

(٢) وقد حكى هذه الواقعةَ الأستاذُ أحمدُ تيمور باشا رحمه الله تعالى، في كتابه: «التصوير عند العرب» ص ٧٩ و١٠٤، عن ابن طولون الدمشقي في رسالته «قَطَرات الدَّمْع فيما ورد في الشَّمْع» ناقلاً لها عن القرافي، وللأستاذ عبد المجيد وافي مقالٌ بعنوان «علماء فَنَّانون: الإمامُ القَرَافي»، في «مجلة الوعي الإسلامي» الصادرة في الكويت، في عددها ٤٠ من سنتها الرابعة سنة ١٣٨٨ = ١٩٦٨، ص ٥٤ ــ ٥٩، نَقَل فيه خبرَ الإمام القرافي أيضاً عن كتابه المذكور المحفوظ بدار الكتب المصرية، وقد سبقت الإشارةُ إليه.

مصطفى الزرقاء أكثَرَ من مرة بخبر من عجائب الأخبار أسجله هنا، قال حفظه الله تعالى ورعاه وأمتَعَ به: إنه سَمِعَ من والده العلامة الفقيه الأديب والمحقق الكبير، شيخِنا أحمد الزرقاء رحمه الله تعالى، ما شاهَدَهُ بأُمِّ عَيْنَيْهِ في مدينة حلب التي هي بلده، وفيها منشأه ومَوْلِدُه، وهو ما يلي:

قال الشيخ أحمد: شاهدتُ رجلاً يمشي في الأسواق، ويُنادي بصَوْتِهِ أنه يستطيع أن يُمسِكَ البُرْغُوث ــ الحيوانَ الصغيرَ القارصَ، الذي هو بحَجْمِ السِّمْسِمَة ــ بإصبعَيْ يد، والشعرةَ بإصبعَيْ يد، ويَقلِبَ يديه إلى خلفِهِ وراءَ ظهره، ويعقِدَ الشعرةَ على البرغوث، ثم يُعيدَ يديه إلى الأمام، وفي إحداهما بين إصبعيه رأسُ الشعرة، وفي أسفلِ الشعرةِ البُرغوثُ مقيَّداً يَنُطُّ، وكذلك يمكن أن يَفُكَّهُ هكذا.

قال الشيخ الدَّرَّاكة الواعية الجليل: فأَخرج الرجلُ من قِنِّينَةٍ معه بُرغوثاً، وأمسكه بإصبعَيْ يدِهِ: السبَّابةِ والإبهام، ثم جاء بشعرة طويلة وأمسكها بإصبعَيْ يدِهِ الأخرى، ولَوَى يديه خَلْفَ ظهرِهِ فَتْرَةً مَّا، وعَقَد الشعرةَ على البُرغوث، ثم أعاد يَدَيْهِ إلى الأمام، ورأسُ الشعرةِ بين إصبعيه وهي مدلاَّةٌ، والبُرغوثُ معلَّقٌ فيها مربوطاً يَنُطّ، وجعَلَ الرجلُ يلعَبُ به والناسُ يَشهدونه مجتمعين عليه، ويَعجبون من مهارتِهِ وحَذاقتِهِ الخارقة. انتهى.

وقد وقع لي في أوَّل حياة الدراسة والطلب، أنني كنتُ أقف في كتب فقهائنا المتأخرين رحمهم الله تعالى، على فروع فقهية، بيَّنوا فيها الأحكامَ لصُوَر من الغرائب الخَلْقِيّة، التي تقع لبني الإنسان على مرور الزمان، وحكوا فيها بعضَ الأشكال الغريبة النادرة، فكان يُساورني رَدُّها والعَتْبُ على ذاكريها، وكنت أحكمُ عليهم أنهم أوغلوا في الخيال والتصوُّر والإغراب إلى ما لا يُتصوَّرُ وقوعُه.

وكنتُ أثناءَ الطلب جمعتُ طائفةً منها، من كتب فقه السادة الحنفية والشافعية والمالكية، ثم وقفتُ عن جَمْعِها، لمَّا تبيَّنَ لي أن ما يذكره الفقهاءُ من ذلك، إنما وقع نادراً ومتفرقاً، وفي عهودٍ وأزمانٍ متباعدة، وأماكنَ متباينة، ولكن نحن وقفنا عليه قريباً بعضُهُ من بعض، فكان في نظرنا كثيراً وغريباً، مستبعَدَ الحدوث والوقوع.

ولمَّا وقفتُ على كتاب «عجائب المخلوقات» لجرجي زيدان، فرأيتُ فيه الصُّوَرَ

لتلك المخلوقات الإنسانية العجيبة، التي سجَّلَتها عَدَسَةُ التصوير فألَزَمَتْ بقبولِها وتصديقِها، وفيها ما هو أعظَمُ وأدهَشُ مما ذكره فقهاؤنا عليهم الرحمة والرضوان: زال من خاطري العَتْبُ عليهم، وخلَفَه الإذعانُ والتقديرُ لهم.

وتفتّحَ أمامي أن الفقيه في القُطْر قد تُعرَضُ عليه الحادثة الغريبة، تقَعُ في الناس بين الأزمان والأزمان، فيُسجِّلُها ويُبينُّ حكمها، فإذا جمَعَ جامع بين تلك الغرائب في تلك الكتب، التي دُوِّنت على مرور الأجيال، ونظرَ إليها نظرة واحدة قاصرة، وغَفَـلَ عن الأزمان والأجيال التي وقعت فيها، قام في نفسه الاستبعادُ لها، والميلُ عن قبولها بدافع عَدَمِ الإلفِ وانتفاءِ المُشاهَدةِ لها، وإنما أُتي من غَفْلَتِهِ وقِصَرِ نَظْرَتِه.

وليس معنى هذا: أنه يَلزَمُ الإنسانَ أن يُصدِّق بكل ما يُنقل أو يقال، لا، وإنما عليه أن يقيس الأمور إذا استغربها بمقياسها الزمني البشري الكبير، لا بمقياسه الفردي الإنساني الصغير[1].

(١) ومن لطيف ما وقفتُ عليه من أخبار الغرائب في الخِلقة، والعجائب في كثرة الأولاد في البطن الواحد، ما حكاه الحافظ المحدث المعمَّر أبو طاهر السِّلَفِي (أحمد بن محمد)، المولود بأصبهان سنة ٤٧٢، والمتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦، في كتابه: «معجَم السفَر»، فقد جاء في القسم الذي استخرجه منه الدكتور إحسان عباس، وطُبع في بيروت سنة ١٩٦٣ بعنوان «أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجَم السفَر للسِّلَفِي»:

جاء في هذا القسم المذكور في ص ٥٩ قولُ الحافظ السِّلَفِي رحمه الله تعالى: «سمعتُ أبا محمد عبد الله بن تويت بن الوران اللَّمْتُوني بالثغر ــ يعني بالإسكندرية حيث كان يُقيم السِّلَفي ــ يقول ــ وجرَّبتُه وكان ثقةً يتحرَّى الصدق ــ : سمعتُ أخي الأمير أبا يعقوب ينتان بن تويت الفقيه وغيرَه من المرابطين الثقات بالمغرب يقولون:

وُلِدَ في بني نورت ــ بطن من الملثَّمين ــ جِسمان كاملان برأس واحد، فعاشا زماناً، ثم مات أحدهما وثَقُل الآخر، فراموا قطعه منه، فشاوروا الفقهاء، فقيل لهم: يَصْبِرُ أياماً، فلم يمض قليلٌ حتى مات الآخر.

قال أبو محمد: ووُلِدَ بالأندلس في أيامنا مولودٌ برأسين، وكان ابنُ غَلَّاب السُّوسي حاضراً، فقال: الذي بَلَغنا أنه وُلِدَ بالمغرب مولود برأسٍ واحدٍ له وجهان.

قال أبو محمد: وقد رأيت بحمصِ الأندلس امرأةً ولَدَتْ أول ولادتها: ولداً، ثم في المرة =

وإنما فَرَض بعضُ الفقهاء تلك الصُّوَرَ والفروعَ الغرائب، جرياً على عادتهم في ذكر ما يمكن أن يقع عقلاً ــ وإن كان لا يقع عادةً أو لا يجوزُ أن يقع شرعاً ــ للتفقيه بالتفريع للمتفقِّه، ولمعرفة حكمِ ما قد يقع، وإن كان ما افترضوه وتخيلوه من الحوادث النادرة قد وقع فعلاً عَبْرَ العصور والأزمان، فرحمهم الله تعالى وجزاهم عن العلم وأهله خيراً.

هذا، وقد قسمتُ هذه الصفحات إلى ستة جوانب من حياة العلماء:

الجانبُ الأول: في أخبارهم في التعب والنصَب والرحلةِ في طلب العلم وقطع المسافات.

الجانبُ الثاني: في أخبارهم في هجر النوم والراحةِ والدَّعةِ وسائرِ اللّذَاذات.

الجانبُ الثالث: في أخبارهم في الصبر على شَظَف العيش ومَرارة الفقر وبيعِ الملبوسات أو المفروشات.

الجانبُ الرابع: في أخبارهم في الجوع أو العطش في الهواجر الأيامَ والساعات.

الجانبُ الخامس: في أخبارهم في العُرْي الدائم ونَفادِ المال والنفقات في الغُرُبات.

= الثانية: ولدين، وفي الثالثة: ثلاثة، وفي الرابعة: أربعة، وفي الخامسة: خمسة، وفي السادسة: ستة، وفي المرةِ السابعة: سبعةً في بطن واحد! وآيست من رُوحها! وأشرَفَتْ على الهلاك، ثم امتنعت عن زوجها وأبت أن تطاوعه، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس. وأبو محمد هذا: رجلٌ صالح من أمراء المرابطين». انتهى.

فتكون هذه المرأة قد ولدت ٢٨ ولداً في سبعة بطون، وإنها لمن العجائب، ولكن ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاء﴾. سبحانه.

وجاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٧:١٩٣، في ترجمة التابعي الجليل، والعابد الفقيه المحدِّث النبيل، الإمام (محمد بن سِيرين) البصري، المولود سنة ٣٣، والمتوفى سنة ١١٠ رحمه الله تعالى: «أخبرنا بكارُ بن محمد، قال: وُلِدَ لمحمد بن سيرين ثلاثون ولداً من امرأةٍ واحدة، لم يبق منهم غيرُ عبدِ الله». انتهى. وحكى القاضي ابن خلكان هذا الخبرَ في «الوَفَيَات» ١ :٤٥٣، في ترجمة (محمد بن سيرين)، وجاء نَصُّهُ هكذا: «ووُلِدَ له ثلاثون ولداً من امرأةٍ وإحْدَى عَشْرَةَ بِنْتاً، ولم يَبْقَ منهم غيرُ عبد الله».

الجانبُ السادس: في أخبارهم في فَقْد الكتب أو المُصَابِ بها أو بيعِها والخروجِ عنها أو نحوِ ذلك عند المُلِمّات.

خاتمة: استخلَصتُ فيها ما يُستفاد من هذه الصفحات، من الحقائق والنصائح والعِظاتِ البالغات.

وهناك جانب هام جداً كان ينبغي أن يُدخل في هذه الصفحات، ولكني لم أُدخله فيها لأنه تاريخ مستقل بنفسه، وهو جانب الشدائد التي لحِقَتْ العلماء من الحكام الظُّلاَّم، فآلَتْ بهم إلى غياهب السجون، وحَجْز الحريات والنفوس، وهو جانب هام واسع، جدير أن تَستقِلَّ به صفحاتٌ ضافية، بل إنَّ أخبارَهم المشرِّفة في هذا الجانب تَخرُجُ في مجلّدٍ ضخم كبيرٍ لمن تتبّعها.

وهذا التقسيم الذي أشرتُ إليه، إنما هو تقريبي تنظيمي، فإننا سنرى أن أخبارهم في هذه الجوانب يَتَداخَلُ بعضُها في بعض، ويَجتمعُ في الخبر الواحد الذي أُوردُه مثلاً (في أخبارهم في نَفَادِ النفقة)، يَجتمعُ فيه إلى نفادِ النفقة: العُرْيُ والجوعُ والصبرُ على خشونة الحياة. . . ، وهكذا سنرى كلَّ جانب معه جوانبُ أخرى، لأن حياة الإنسان متشابكة الأطراف، فالعِلّةُ إذا نزَلَتْ في جانب من جسمه، أصابت جانباً آخر بآثارها ومخلَّفاتها ولا ريب.

وفي الختام: أسأل الله أن يتقبل هذه الصفحات وينفعَ بها، وهو وليُّ الهداية والتوفيق.

وكتبه

في بيروت ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١ عبدالفتاح أبو غُدّة

الجانب الأول
في أخبارهم في التعب والنّصَبِ والرحلةِ في طلبِ العلم وقطعِ المسافات

وأَستهلُّه بما جاء عن سيدنا آدم أبي البَشَرِ عليه الصلاة والسلام، من سَعْيِهِ في طلبِ العلمِ وتحصيلِهِ ما أُمِرَ بتعلُّمِهِ من الملائكة الكرام.

ثم أُتبِعُهُ بما جاء عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في هذا الجانب.

ثم أُتبِعُه بما جاء عن بعض الصحابة فيه أيضاً.

ثم أُتبِعُه بما جاء عن العلماء الأجلاء.

١ ــ رَوَى الإمامُ البخاريُّ رحمه الله تعالى في «صحيحه»(١)، والإمامُ مسلمٌ رحمه الله تعالى في «صحيحه»(٢)، واللفظُ له: «عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خَلَقَ الله عَزَّ وجَلَّ آدَمَ على صُوْرَتِه(٣)، طُولُهُ سِتُّون ذِرَاعاً(٤)، فلمَّا خلَقَهُ، قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئك النَّفَر، وهم نَفَرٌ من الملائكةِ

---

(١) ٦: ٣٦٢ بشرح «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، في كتاب أحاديث الأنبياء (باب خَلْقِ آدَمَ وذُرِّيَّته)، وفي ١١: ٣، في كتاب الاستئذان (باب بَدْءِ السَّلَام).

(٢) ١٧: ١٧٨ بشرح الإمام النووي، في كتاب الجنة وصِفَةِ نعيمِها وأهلِها. ولم يُبوِّب عليه النووي في شرحه، واكتَفَى بعنوان الكتاب فيه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٦: ٣٦٦: «هذه الرواية تؤيِّدُ قولَ مَنْ قال: إنَّ الضميرَ ــ في قولِهِ صلى الله عليه وسلم: على صُورَتِهِ ــ لآدَمَ، والمعنى أن الله تعالى أَوجَد آدمَ على الهيئةِ التي خلَقَهُ عليها، لم يَنتَقِل في النَّشْأَةِ أحوالاً، ولا تردَّدَ في الأرحامِ أطواراً كذُرِّيَّتِه، بل خَلَقَهُ الله رجلاً كاملاً سَوِيّاً، من أوَّلِ ما نَفَخَ فيه الرُّوحَ، ثم عقَّبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (وطُولُهُ سِتُّون ذِرَاعاً)، فعاد الضميرُ أيضاً على آدم».

(٤) أي بذِرَاعِ نفسِه، في عَرْضِ سَبْعَةِ أذْرُع. كما سيأتي نقلُه تعليقاً في حديثِ أبي هريرة عن «مسند الإمام أحمد».

جُلُوسٌ، فاستَمِعْ ما يُحَيُّونك[١]، فإنها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتِك، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليك ورحمةُ الله، فزادوه: ورَحْمَةُ الله، فكلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنةَ على صُورَةِ آدم[٢]، فلم يَزَل الخَلْقُ يَنْقُصُ بعدَهُ حتى الآنَ»[٣].

قال العلماء في شرح هذا الحديث: قوله: (اذهَبْ فسَلِّم على أولئك النَّفَرِ، فاستَمِعْ ما يُحَيُّونك)، فيه إشعارٌ بأنهم كانوا على بُعْدٍ من آدم عليه السلام، وفيه دليلٌ على استحبابِ السَّعْيِ لطلبِ العلم، وأنَّ آدم عليه السلام أوَّلُ من سَعَى لطلب العِلم بمقتَضى هذا الحديثِ الشريف[٤].

---

(١) هكذا الرواية في «صحيح البخاري» في الموضعين، وهكذا هي في «صحيح مسلم» كما ضَبَطَها الحافظُ ابن حجر في «فتح الباري» ١١: ٤. وجاءت في النسخة المطبوعة من «صحيح مسلم»: (ما يُجِيبُونك) بكسر الجيم وسكون التحتانية، بعدَها موحَّدة، من الجواب، وهي روايةٌ صحيحةٌ لأحَدِ الرواة، وروايةُ الأكثر: (ما يُحَيُّونك) من التحيَّة.

(٢) قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١٧: ١٧٨: «وفي هذا الحديث أن آدَمَ عليه السلام خُلِقَ في أولِ نشأتِهِ على صُورتِهِ التي كان عليها في الأرض وتُوفِّيَ عليها، وهي طُولُهُ ستون ذراعاً، وكانت صُورَتُهُ في الجنة هي صُورَتَهُ في الأرض، لم تتغيَّر». انتهى. وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٦: ٣٦٧: «قولُهُ: يَدْخُلُ الجنةَ على صُورةِ آدم، أي على صِفَةِ آدم في الحُسنِ والجمالِ والطُّول، ولا يَدخُلها على صورته وما قد يكون فيها من العاهات، وهذا يَدُلُّ على أنَّ صِفاتِ النقصِ والعيوبِ من سَوَادٍ وعَرَجٍ وعَمىً وغيرِها، تنتفي عند دخولِ الجنة». انتهى بزيادة يسيرة.

قال عبد الفتاح: ومن أدلَّةِ ذلك الكثيرة ما رواه الإمامُ أحمد في «المسند» ٢: ٢٩٥، بسندٍ حسن «عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يَدخُلُ أهلُ الجنَّةِ: الجنَّةَ جُرْداً، مُرْداً، بِيْضاً، جِعَاداً، مُكَحَّلِين، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثين، على خَلْقِ آدم، سِتُّون ذِرَاعاً في عَرْضِ سَبْعِ أذْرُع».

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٦: ٣٦٧: «أي إنَّ كلَّ قَرْنٍ يكون نَشْأتُهُ في الطُّولِ أقصرَ من القَرْنِ الذي قبلَه، فانتهى تناقُصُ الطُّولِ إلى هذه الأمة، واستقرَّ الأمرُ على ذلك. وقال ابنُ التِّيْن: قولُه: فلم يَزَل الخَلْقُ يَنقُص، أي كما يَزِيدُ الشخصُ شيئاً فشيئاً، ولا يَتبيَّنُ ذلك فيما بين الساعتين ولا اليومين، حتى إذا كَثُرَت الأيامُ تبيَّنَ، فكذلك هذا الحكمُ في النقص».

(٤) وفي هذا الحديث أيضاً أن الوارد على قومٍ جلوسٍ يُسلِّمُ عليهم مُبتَدِئاً لهم، وفيه أن =

٢ ـ قال الإمام أبو عبد الله البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم[1]، بابُ

= هذه الصيغة: (السلامُ عليكم) هي المشروعةُ لابتداءِ السلام، لقوله: (فهي تحيتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتِك)، وفيه الأمرُ بتعلُّم العلم من أهله، لقوله: (فاستمِعْ ما يُحيُّونك). وفيه أن رَدَّ السلام يُستَحبُّ أن يكونَ فيه زيادةٌ على الابتداء، وفيه أن رَدَّ السلام واجب، وإنما كان واجباً لأنَّ السَّلامَ معنَاه: الأمان، فإذا ابتدأ به المُسْلِمُ أخاه فلم يُجبه، فإنه يَتوهَّمُ منه الشرَّ، فيجبُ عليه دفعُ ذلك التوهُّمِ عنه، وفيه دليل على فضيلة آدم عليه السلام، حيث تولَّى الله تأديبَهُ، وعلى أن السَّلامَ أدَبٌ قديمٌ مشروعٌ منذ خَلَقَ الله آدمَ في الجنة.

(١) ١:١٥٣. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١:١٥٣، تعليقاً على قول البخاري: (بابُ ما ذُكِرَ في ذهاب موسى في البحرِ إلى الخضر):

«وظاهرُ التبويب أن موسى عليه السلام رَكِبَ البحر لما توجَّه في طلب الخضر، وفيه نظر، لأن الذي ثَبَت عند المصنِّف ــ البخاري ــ وغيره أن موسى خرج في البر، وفي بعض روايات البخاري وأحمد: (فخَرَجَا ــ أي موسى وفتاه ــ يمشيان حتى أتيَا الصخرة).

وقال الحافظ ابنُ رُشَيْد: يُحتَملُ أن يكون ثَبَتَ عند البخاري أن موسى توجَّه في البحر لما طَلَب الخضرَ. قلتُ ــ القائل ابن حجر ــ: ويؤيد هذا الاحتمالَ ما جاء عن أبي العاليةِ وغيره، فرَوَى عبد بن حُمَيد عن أبي العالية: أن موسى التقى بالخضر في جزيرة من جزائر البحر. والتوصُّلُ إلى جزيرة في البحر، لا يقع إلا بسلوك البحر غالباً.

وعند عبد بن حُميد أيضاً من طريق الربيع بن أنس، قال: آنجابَ الماءُ عن مَسْلَكِ الحُوت، فصار طاقةً مفتوحة، فدخلها موسى على أثر الحوت حتى انتهى إلى الخضر. فهذا يوضِّحُ أن موسى عليه الصلاة والسلام ركب البحرَ إلى الخضر. وهذان الأثران الموقوفان رجالهما ثقات». انتهى كلام الحافظ ابن حجر ملخصاً.

وقال المفسِّر القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ١١:١٢، «وجمهورُ المفسرين أنَّ الحُوتَ بَقِيَ موضعُ سُلوكِه ــ في البحر ــ فارغاً، وأنَّ موسى مَشَى عليه متَّبِعاً للحُوت، حتى أَفضى به الطريقُ إلى جزيرة في البحر، وفيها وجَدَ الخضرَ». انتهى.

وخلاصةُ ما تقدم: أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ركب البرَّ والبحرَ من أجل طلب العلم ولقاءِ أهلِه، فقد احتَمَل في سبيل ذلك المشقَّاتِ والنَّصَبَ الشديد، وهو النبي الكريم، والرسولُ الكليم، فما بالُك بغيره من سائر الناس أمثالِنا؟ فلا بد من احتمال المشقة في طلب العلم وتحصيله، بل في طلبِ الاستكثارِ منه.

ما ذُكِرَ في ذهاب موسى في البحر إلى الخَضِر عليهما السلام، وقولِهِ تعالى: ﴿هل أَتّبِعُك على أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمتَ رُشْداً﴾[١].

ثم رَوى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما «أنه تَمارى ـ أي اختَلَف ـ هو والحُرُّ بن قَيْس الفَزاري في صاحبِ موسى عليه السلام ـ من هو؟ ـ فقال ابنُ عباس: هو خَضِر[٢].

فمَرَّ بهما أُبَيّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيِّه، هل سمعتَ النبيّ صلى الله عليه وسلم يذكر شأنَه؟ قال: نعم، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل، جاءه رجل فقال: هل تَعلَمُ أحداً أعلمَ منك؟ قال موسى: لا، فأَوحَى الله إلى موسى: بل عَبْدُنا الخَضِرُ[٣]، فسأل موسى السبيلَ إليه، فجعل الله له الحُوتَ آيةً، وقيل له: إذا فَقَدتَ الحُوتَ فارجع فإنك ستلقاه.

وكان يَتْبَعُ أثرَ الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: ﴿أَرأيتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصخْرةِ فإني نَسِيتُ الحُوتَ وما أَنسانِيهُ إلا الشيطانُ أن أَذْكُرَه واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَباً. قال: ذلِكَ ما كُنّا نَبْـغِ فارتَدَّا على آثارهما قَصَصاً﴾[٤]، فوجَدَا خَضِراً، فكان مِن شأنهما الذي قَصّ الله عز وجل في كتابه».

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[٥] عند شرحه لهذا الحديث: «هذا البابُ معقودٌ للترغيب في احتمالِ المشقّة في طلب العلم، لأنّ ما يُغتَبَطُ به تُحتَملُ المشقةُ فيه،

---

(١) من سورة الكهف، الآية ٦٦.

(٢) يقال فيه: خَضِرٌ، بفتح الخاء وكسر الضاد، ويقال أيضاً: خِضْر، بكسر الخاء وإسكان الضاد، كما جاءت بهما الرواية، ويقال فيه أيضاً: الخَضِر بإثبات الألف واللام في الوجهين، كما في «فتح الباري» ١ : ١٥٤.

(٣) هكذا في رواية، وفي رواية أخرى: (بَلَى عبدُنا خَضِر).

(٤) من سورة الكهف، الآيتان ٦٣ و ٦٤.

(٥) ١ : ١٥٣ في كتاب العلم، في (باب ما ذُكِرَ في ذهابِ موسى في البحر إلى الخَضِر)، و ١ : ١٥٨ في (باب الخروج في طلب العلم).

ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يَمنعه بلوغُهُ من السِّيَادَةِ: المَحَلَّ الأعلى، مِن طَلَبِ العِلم ورُكوبِ البرِّ والبحرِ لأجلِه.

وفي الحديث: ركوبُ البحر في طلبِ العلم، بل في طلب الاستكثار منه، ومشروعيةُ حَمْلِ الزادِ في السَّفَر، ولزومُ التواضع في كل حال، وخضوعُ الكبيرِ لمن يَتعلَّمُ منه، ولهذا حَرَصَ موسى على الالتقاءِ بالخَضِرِ عليهما السلام، وطلَبَ التعلُّمَ منه، تعليماً لقومه أن يتأدَّبوا بأَدَبِه، وتنبيهاً لمن زكَّى نَفْسَهُ أن يَسلُكَ مَسلكَ التواضع، وفيه فَضْلُ الازدياد من العلم ولو مع المشقةِ والنَّصَبِ بالسَّفَر». انتهى.

قال الحافظ الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث»[١]، عقِبَ هذا الحديث: «قال بعضُ أهل العلم: إنَّ فيما عاناه موسى من الدّأَب والسّفَر، وصَبَر عليه من التواضعِ والخضوعِ للخضر، بعد مُعاناة قصدِه مع محلِّ موسى من الله عز وجل، وموضِعه من كرامتِه وشَرَفِ نُبوّتِه: دلالةً على ارتفاع قَدْرِ العلم وعلوِّ منزلةِ أهلِهِ، وحُسنِ التواضع لمن يُلتَمَسُ منه ويؤخَذُ عنه.

ولو ارتَفَع عن التواضع لمخلوقٍ أحَدٌ، بارتفاعِ درجةٍ وسُموِّ منزلةٍ، لسَبَق إلى ذلك موسى. فلما أَظهَرَ الجِدَّ والاجتهادَ والانزعاجَ عن الوطن والحِرصَ على الاستفادة منه، مع الاعترافِ بالحاجة إلى أن يَصِلَ من العلم إلى ما هو غائب عنه: دَلَّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحالِ ولا يَكبُرُ عنها». انتهى.

وقال الحافظ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «مفتاح دار السعادة»[٢]، وهو يُعدِّدُ فضائلَ شرفِ العِلم وأهلِه: «الوجهُ الرابعُ والثلاثون: أن الله سبحانه أخبرنا عن صَفِيِّه وكَلِيمِه، الذي كتَبَ له التوراةَ بيده، وكلَّمه منهُ إليهِ: أنه رَحَل إلى رجلٍ عالم يَتعلَّمُ منه، ويَزدَادُ عِلماً إلى علمه، فقال:

﴿وإذْ قال موسى لِفَتَاهُ لا أَبرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَع البَحْرَينِ أو أَمضِيَ حُقُباً﴾[٣].

---

(١) ص ١٠٦.

(٢) ١: ٥٥.

(٣) من سورة الكهف، الآية ٦٠.

حِرصاً منه على لقاءِ هذا العالِم، وعلى التعلُّم منه. فلما لَقِيَه سَلَك معه مَسْلَكَ المتعلِّم مع مُعَلِّمه، وقال له: ﴿هل أَتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَنِي مما عُلِّمتَ رُشْداً﴾[١].

فبدأه بعدَ السلام بالاستئذان على متابعتِه، وأنه لا يَتْبَعُه إلا بإذنه، وقال: ﴿على أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمتَ رُشْداً﴾. فلم يَجِيء ممتحِناً ولا مُتَعنِّتاً، وإنما جاء متعلِّماً مستزيداً علماً إلى علمه.

وكَفَى بهذا فضلاً وشَرَفاً للعلم، فإنَّ نَبِيَّ الله وكليمَه سافر ورَحَل حتى لقي النَّصَب من سفره، في تعلُّم ثلاثِ مسائل من رجل عالِم، ولمَّا سَمِع به لم يَقِرَّ له قرار حتى لَقِيه وطلَبَ منه متابعتَه وتعليمَه، وفي قِصتهما عِبَرٌ وآياتٌ وحِكم، ليس هذا موضعَ ذكرها». انتهى. وقال ابنُ القيم نحوَه في كتابه «مدارج السالكين»[٢].

وأُورِدُ بعدَ هذا بعضَ ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، في صَدَدِ الرحلةِ في طلب العلم، إذْ هم القُدوةُ والأُسوةُ لنا بعدَ الأنبياءِ الكرام، صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين[٣].

---

(١) من سورة الكهف، الآية ٦٦.

(٢) ٢ : ٤٧١.

(٣) والصحابةُ الأجِلَّة، البُدُورُ الأدِلَّة، هم مُقْتَدانا في الدِّينِ بعدَ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، فعلينا الاقتداءُ بهم، والتوقيرُ لهم، والاستمساك بهَدْيِهم، قال الصحابي الجليلُ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه:

«من كان منكم مُتأسِّياً فلْيَتَأسَّ بأصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا أَبَرَّ هذه الأُمَّةِ قُلوباً، وأعمَقَها عِلْماً، وأقلَّها تكلُّفاً، وأقومَها هَدْياً، وأحسَنَها حالاً، قَوْمٌ اختارهم الله لِصُحبةِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وإقامةِ دينِه، فاعرِفوا لهم فَضْلَهم، واتَّبِعُوهم في آثارِهم، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقِهم وسِيَرِهم، فإنهم كانوا على الهَدْيِ المستقيم».

رواه الحافظُ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضلِه» ٢ : ٩٧، في (باب ما يُكرَهُ فيه المناظرةُ والجِدالُ والمِراءُ)، من طريق «سُنَيْد، قال: حدثنا مُعْتَمِر، عن سَلَّام بن مِسكين، عن قتادة، قال: قال ابن مسعود. . .». انتهى. وقتادَةُ لم يُدرِك ابنَ مسعود، فالخَبَرُ فيه انقطاع.

وأورده ابن الأثير رحمه الله تعالى في «جامع الأصول» ١ : ٢٩٢، في (باب الاستمساك بالكتاب والسنة)، وقال: «وهذا حديث وجدتُه في كتاب رَزِين، ولم أجده في الأصول». انتهى. =

٣ ــ رَوى البخاري في «صحيحه» في كتاب المناقب، في (باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه)[١]، وفي (باب قصة زمزم) أيضاً[٢]، وفي (باب إسلام

ولفظُه عنده: «من كان مُسْتَنّاً فليَسْتَنَّ بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضلَ هذه الأمَّة، أبَرَّها قلوباً. . . .».

وبنحو لفظِ ابن الأثير أورده شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله تعالى، في آخر الرسالة «التَّدْمُريَّة»، وجَزَم بنسبته إلى ابن مسعود، وكذلك أورده الأَذْرَعِيُّ في «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٣٧٠، وقد جمعتُ بين رواياتهم في السياقة المذكورة. والمتأسِّي والمستنّ هو المقتدي المتَّبع.

وقد أشار الإمامُ ابنُ حزم إلى تعريف الصحابي، وفضلِ الصحابة، وما يجبُ علينا حِيالَهم، بأوجز عبارة، فقال رحمه الله تعالى في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» ٥ : ٨٩، في (باب تسمية الصحابةِ الفقهاء)، وفي «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» ٤ : ٢٠١، في مبحث (شُنَع المعتزلة):

«فأمَّا الصحابةُ رضي الله عنهم، فهم كلُّ من جالَسَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولو ساعةً، وسَمِعَ منه ولو كلمةً فما فوقها، أو شاهَدَ منه عليه السلام أمراً يَعِيه، ولم يكن من المنافقين الذين اتَّصل نِفَاقُهم واشتَهَر حتى ماتوا على ذلك.

وكُلُّهم عَدْلٌ إمامٌ فاضلٌ رِضاً، فَرْضٌ علينا توقيرُهم وتعظيمُهم، وأن نستغفرَ لهم ونُحِبَّهم. وتَمْرةٌ يَتصدَّقُ بها أحدُهم أفضَلُ من صدقةِ أَحَدِنا بما يَملِك، وجَلسةٌ من الواحِدِ منهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أفضَلُ من عبادةِ أَحَدِنا دَهرَهُ كلَّه، ولو عُمِّر أحدُنا الدهرَ كلَّهُ في طاعاتٍ متصلة، ما وَازَى عَمَلَ امرِىءٍ صَحِبَ النبي صلى الله عليه وسلم ساعةً واحدةً فما فوقَها، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: دَعُوا لي أصحابي، فلو كان لأحدِكم مثلُ أُحُدٍ ذهباً فأنفقَه في سبيل الله، ما بَلَغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه، فمتى يَطمَعُ ذو عقل أن يُدرِكَ أحَداً من الصحابة، مع هذا البَوْنِ الممتنِعِ إدراكُهُ قطعاً». انتهى.

وقال الإمامُ تقيُّ الدين السُّبْكيُّ رحمه الله تعالى: «أبو بكر وعُمَرُ رضي الله عنهما بل وَسَائرُ الصحابةِ لا يَصِلُ أحَدٌ ممن بَعْدَهم إلى مرتبتِهم». كما في «شرح الإحياء» للزَّبِيدِي ١ : ١٧٦ ــ ١٧٧.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «إنَّ المعانيَ المستحسَنَة تُحَبُّ أكثرَ من الصُّوَر، ولهذا نُحِبُّ أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً رضي الله عنهم، لمَعَانِيهم لا لِصُوَرِهم». انتهى من «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي ٢ : ٢٠٤.

(١) ٦ : ٤٠٠.

(٢) ٦ : ٤٠٠.

أبي ذر الغِفاري رضي الله عنه)[١]، ورَوى مسلم في «صحيحه» في (فضائل أبي ذر رضي الله عنه)[٢] واللفظُ له، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لمّا بلَغ أبا ذر مبعثُ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، قال لأخيه ــ أُنَيْس ــ : اركَبْ إلى هذا الوادي، فاعْلَمْ لي عِلْمَ هذا الرجل، الذي يَزعُمُ أنه يأتيه الخبَرُ من السماء، فاسْمَعْ مِن قولِه ثم ائتني.

فانطلق ــ أُنَيْس ــ حتى قَدِمَ مكة وسَمِعَ من قولِه، ثم رَجَع إلى أبي ذر فقال: رأيتُه يأمُرُ بمكارم الأخلاق، و ــ سمعتُه يقول ــ كلاماً ما هو بالشعر، فقال أبو ذر: ما شَفيتَني فيما أردتُ!

فتزوَّدَ ــ أبو ذر ــ وحمَلَ شَنّةً له فيها ماء[٣]، حتى قَدِمَ مكة، فأتَى المسجدَ، فالتمَسَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يَعرفه، وكَرِهَ أن يَسأل عنه، حتى أدركه الليلُ فاضطجع، فرآه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فعَرَف أنه غريب، ودعاه إلى منزله فتَبِعَه، فلم يَسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيء حتى أَصبَح.

ثم احتَمَلَ قِرْبَتَه وزاده إلى المسجد، وظَلَّ ذلك اليوم ولا يَرَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حتى أَمْسَى، فعاد إلى مضجعه، فمَرَّ به عليٌّ فقال: ما آن للرجل أن يَعلمَ منزلَه؟ فأقامه فذهَبَ به معه، ولا يَسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيء، حتى إذا كان يومُ الثالثِ فعَلَ مثلَ ذلك، فأقامه عليٌّ معه. ثم قال له: ألا تُحدثني ما الذي أَقدَمَك؟ قال: إنْ أعطيتَني عهداً وميثاقاً لَتُرْشِدَنِّي فعلتُ، ففعل، فأخبَرَه، فقال: فإنه حقٌّ، وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا أصبحتَ فاتّبِعني، فإن رأيتُ شيئاً أخاف عليكَ قمتُ كأني أُرِيقُ الماءَ، فإن مَضَيْتُ فاتَّبِعني حتى تَدخُلَ مَدْخَلي، ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودَخَل معه، فسَمِعَ من قولِهِ وأسلَمَ مكانَهُ، الحديث.

---

(١) ١٣٢:٧.

(٢) ٣٢:١٦.

(٣) الشَّنَّةُ هي القِرْبةُ الباليةُ العتيقة.

٤ ــ وهناك رواية أخرى في حادثةِ إسلام أبي ذر، رواها عنه ابنُ أخيه عبدُ الله بن الصامت الغفاري، وقد رواها مسلم أيضاً في «صحيحه»[١]، من طريق عبد الله بن الصامِت الغفاري ابن أخي أبي ذر، وملخَّصُها: قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غِفَار، وكانوا يُحِلُّون الشهرَ الحرام، فخرجتُ أنا وأخي أُنَيْس وأُمُّنا، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرةِ مكة.

فقال أُنَيس: إنَّ لي حاجة بمكة فاكْفِني[٢]، فانطلق أُنَيس حتى أتى مكة فراثَ عليَّ ــ أي أبطأ ــ، ثم جاء، فقلت: ما صنعتَ؟ قال: لقيتُ رجلاً بمكة يزعم أنَّ الله أرسله، قلت: فما يقُول الناسُ؟ قال: يقولون: شاعر كاهن ساحر، ــ وكان أُنَيس أحَدَ الشعراء ــ قال أُنَيس: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنَة، فما هو بقولهم، ولقد وَضَعْتُ قولَهُ على أقْرَاءِ الشعر ــ أي طُرُقِه ــ فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

قال أبو ذر: قلتُ: فاكْفِني حتى أذهبَ فأنظر، قال: فأتيتُ مكة، فتضَعَّفْتُ رجلاً منهم ــ يعني نظرتُ إلى أضعفِهم فسألته، لأن الضعيف يكون مأمونَ الغائلةِ غالباً ــ. فقلتُ له: أين هذا الذي تَدْعُونه الصابىءَ؟ فأشار إليَّ فقال: الصابىء! فمالَ عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرةٍ وعَظْم، حتى خَرَرْتُ مَغْشِيًّاً عليَّ، فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمَرُ ــ يعني من كثرةِ الدماء التي سالت منه، صار كالنُّصُبِ وهو الحَجَرٌ الذي كان أهل الجاهلية ينصبونه ويذبحون عنده فيَحمَرُّ بالدم ــ.

قال: فأتيتُ زمزم فغَسلتُ عني الدماء، وشَربتُ من مائها، ولقد لَبِثتُ يا ابنَ أخي ثلاثين بين ليلةٍ ويوم، ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزم، فسَمِنْتُ حتى تكَسَّرَتْ عُكَنُ

---

(١) ١٦: ٢٧ في (فضائل أبي ذر رضي الله عنه).

(٢) وقع في «صحيح مسلم» المطبوعِ معه «شَرْحُ النووي» ١٦: ٢٧ هنا وفيما يأتي بلفظ (فأَكفني) بهمزة فوق الألف وعليها فتحة. وهو تحريف وصوابه (فاكْفِني) بدون همزة، فعلاً ثلاثياً كما أثبتُّه. ولم أجد في كتب اللغة التي رجعت إليها: (أكفني) فعلاً رباعياً، ولو كان مروياً بهذا لضَبَطه شراح «صحيح مسلم» مثل النووي والأُبِّي والسَّنُوسي، وعَدَمُ تعرُّضِهم لضبطه يفيد أنه جاء على الجادَّة ثلاثياً، فيُصحَّحُ ما وقع في «صحيح مسلم».

بطني[١]، وما وجدتُ على كَبِدِي سُخْفَةَ جُوع ــ يعني أثَرَ الجوعِ وضَعْفَه ــ .

قال: فبينا أهلُ مكة في ليلةٍ قمراءَ إذ ضُرِبَ على أسْمِخَتِهم ــ أي آذانهم بالنوم ــ فما يَطُوفُ بالبيت أحد، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، حتى استَلَم الحَجَر وطاف بالبيت هو وصاحبُه، ثم صَلَّى، فلما قَضَى صلاتَهُ قلتُ: السلامُ عليك يا رسول الله، فقال: وعليك ورحمةُ الله.

ثم قال: مَنْ أنت؟ قلت: من غِفَار، قال: فأَهوَى بيدِهِ فوضَعَ أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كرِهَ أنْ انتَمَيْتُ إلى غِفار، فذهبتُ آخُذُ بيده، فقَدَعَني ــ أي كَفَّني ــ صاحبُهُ وكان أعلَمَ به مني. ــ يعني فَعَلَ هذا لدفعِ السُّوءِ عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ .

ثم رفَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأسَه ثم قال: متى كنتَ ها هنا؟ قالَ: قلتُ: قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلةٍ ويوم، قال: فمن كان يُطعمك؟ قالَ: قلتُ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزم، فَسَمِنْتُ حتى تكسّرَتْ عُكَنُ بطني، وما أجِدُ على كبِدي سُخْفَةَ جُوع، قال: إنها مُباركَةٌ، إنها طَعامُ طُعْم، وشِفاءُ سُقْم[٢].

---

(١) العُكَن جمع عُكْنة، وهي ما انطوى وتَثنّى من لحم البطنِ سِمَناً. وهذا من بركةِ ماء زمزم.

(٢) أي هي تُشبعُ شاربَها كما يُشبِعُه الطعام، وتَشفِيه من الأسقام والأمراض كما يَشفيه الدواء، بما أَودَع الله تعالى فيها من البركة والخواص.

وجملةُ (وشِفاءُ سُقْم) ليست في رواية «صحيح مسلم»، وقد جاءت في رواية الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة والبزَّار في «مسنده». قال الحافظ الهيثمي: رجالُ البزَّار رجال الصحيح. كما في «الجامع الصغير» للسيوطي وشرحه: «فيض القدير» للمُنَاوي ٤: ٦٤.

قال المناوي فيه: «ومعنى (طَعَامُ طُعْم)، أي فيها قُوَّةُ الاغتذاءِ الأيامَ الكثيرة، لكن مع الصِّدْق كما وقع لأبي ذر، بل كَثُرَ لحمُهُ، وزادَ سِمَنُهُ، يقال: هذا الطعامُ طُعْم، أي يُشبعُ مَنْ أَكَلَه، والمعنى أنه خيرُ طعامٍ وأجودُه. ذكره الزمخشري.

وشِفَاءُ سُقْم، أي حِسيٍّ أو معنوي، مع قوةِ اليقين وكمالِ التصديق، ولهذا سُنَّ لكل أحَدٍ شَرِبَ ماءَ زمزم أن يَقصِدَ به نيلَ مَطالِبِهِ الدنيويةِ والأخروية».

فقال أبو بكر: يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلة، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وانطلقتُ معهما، ففتح أبو بكر باباً فجعل يَقبض لنا من زَبيب الطائف، وكان ذلك أوَّلَ طعام أكلتُه بمكة، الحديث[١].

٥ ــ وقال البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم في (باب التناوب في العلم)[٢]، وفي كتاب النكاح في (باب موعظة الرجلِ ابنتَه)[٣]، «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار[٤]، في بني أُمَيَّة بن زَيْد ــ أي ناحِيَة بني أمية ــ، وهي من عَوَالي المدينة[٥]، وكنا نتناوَبُ النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يَنزِل يوماً وأنزِلُ يوماً، فإذا نَزلتُ جئتُه بخبرِ ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نَزَل فعَلَ مثل ذلك». انتهى[٦].

وأُتبِعُ خبرَ عمر بن الخطاب هذا خبرَ جابر بن عبد الله رضي الله عنهم، وهو أطيَبُ وأعجَب.

٦ ــ قال الإمام أبو عبد الله البخاري في «صحيحه» في كتاب العلم (باب

---

(١) وقد سعى الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٧: ١٣٢، في التوفيق بين هاتين الروايتين في إسلام أبي ذر: رواية ابن عباس ورواية عبد الله بن الصامت الغفاري.

(٢) ١: ١٦٧.

(٣) ٩: ٢٤٤.

(٤) هو أَوْسُ بنُ خَوَلِيّ الأنصاريُّ، لا غيرُ، كما حقَّقه الحافظ ابن حجر في الموضع الثاني: كتابِ النكاح ٩: ٢٤٤.

(٥) عَوَالي المدينة: قُرَىً بقُرْبِ المدينة المنورة مما يلي المشرق.

(٦) ومن رِحْلَةِ بعضِ الصحابةِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب العلم، ما رواه البخاري في «صحيحه» ١: ١٨٤، في كتاب العلم في (باب الرِّحْلَةِ في المسألةِ النازلة): «عن عُقْبَةَ بنِ الحارث أنه تَزَوَّجَ ابنةً لأبي إهاب بنِ عَزِيز، فأَتَتْهُ امرأةٌ ــ أَمَةٌ سَوْدَاء ــ فقالت: إني قد أرضعتُ عُقبةَ والتي تَزَوَّجَ، فقال لها عُقبةُ: ما أعلَمُ أنكِ أرضعتِني، ولا أخبرتِني.

فركِبَ ــ من مكة دارِ إقامتِهِ ــ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فسأله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف وقد قِيل؟ ففارَقَها عُقبَةُ، ونَكَحَتْ زوجاً غيرَه.

الخروج في طلب العلم)[١]: «ورَحَلَ جابر بن عبد الله مَسِيرةَ شهرٍ إلى عبدِ الله بن أُنَيس في حديثٍ واحد».

يشير البخاري بهذا إلى الحديث الذي رواه في كتابه: «الأدَب المُفْرَد» في باب المعانقة[٢]، من طريق عبد الله بن محمد بن عَقِيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: «بلَغَني عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حديثٌ سَمِعَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتريتُ بعيراً ثم شَدَدْتُ رَحْلي، فسِرتُ إليه شَهْراً حتى قَدِمتُ الشام، فإذا عبدُ الله بنُ أُنَيْس، فقلتُ للبوَّاب: قل له: جابرٌ على الباب، فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم.

فخرج عبدُ الله بن أُنَيس فاعتنقني، فقلتُ: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخَشِيتُ أن أموتَ أو تموتَ قبلَ أن أَسمَعَه، فقال: سَمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: يَحشُرُ اللَّهُ الناسَ يوم القيامة عُراةً غُرْلاً[٣] بُهْماً، قلنا: ما بُهْماً؟ قال: ليس معهم شيء.

فيناديهم بصوت يَسمَعُه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُب: أنا المَلِكُ ـ أنا الدَّيَّانُ ـ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة يَدخُلُ الجنة، وأحَدٌ من أهل النار يَطْلُبُهُ بمَظْلَمَة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار يَدْخُلُ النار، وأحدٌ من أهل الجنة يَطلُبُهُ بمَظْلَمَة ـ يعني لا يَدخُلُ أهلُ الجنة: الجنةَ، وأهلُ النار: النارَ إلا بعدَ تصفيةِ الحساب ـ قلتُ: وكيف؟ وإنما نأتي الله عُرَاةً بُهماً؟ قال: بالحسناتِ والسيئاتِ». يعني أنَّ القِصَاصَ يكونُ بالحسنات والسيئات. انتهى.

وقد ساق الحافظ الخطيب البغدادي خبر جابر هذا في كتابه «الرحلة في طلب الحديث»[٤]، من طرق كثيرة، ورَوَى غيرَهُ من أخبار الصحابة الذين رحلوا في طلبِ الحديثِ الواحد. وكتابُ «الرحلة» للخطيب كتابٌ نافعٌ مِهْمازٌ للمتخلِّفين عن الرحلة، فاقرأه لعلك تَرحَلُ؟

---

(١) ١: ١٥٨.

(٢) ص ٣٣٧.

(٣) جمع أَغْرَل، وهو الذي لم يُختَن. أي يُحشَرُون على حالتهم قبلَ الخِتان.

(٤) ص ١١٠ ـ ١١٨.

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»(١)، بعدَ أن أورد حديثَ جابر هذا في رحلته إلى عبد الله بن أُنَيس: «وفي هذا الحديث ما كان عليه الصحابة من الحِرص على تحصيلِ السنن النبوية»(٢).

ثم قال الحافظ ابن حجر: «قيل لأحمد بن حنبل: رجلٌ يَطلبُ العلمَ يَلزَمُ رجلاً عنده عِلْمٌ كثير أو يَرحَلُ؟ قال: يَرحَلُ، يكتُبُ عن علماءِ الأمصار، فيُشامُّ الناسَ ويتَعلَّم منهم». انتهى(٣).

---

(١) ١: ١٥٩.

(٢) وقال الحاكم النيسابوري في كتابه «معرفة علوم الحديث» ص ٩، في (النوع الأول من أنواع علوم الحديث): «هذا جابرُ بن عبد الله، على كثرة حديثه وملازمته، رَحَل إلى من هو مثلُهُ أو دُونَهُ مَسافَةً بعيدةً في طلبِ حديثٍ واحد».

(٣) ووقع هذا الخبر في كتاب «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي ص ٤٧، من طبعة مصر سنة ١٣٨٩، عن الإمام أحمد، بلفظ «... قال: يَرحَلُ، يَكتُبُ عن الكوفيين والبصريين وأهلِ المدينة ومكة، يُشافِهُ الناسَ لِيَسمَعَ منهم». انتهى.

وهذه الرواية وقعت في إحدى المخطوطتين المنشورِ عنهما الكتابُ المذكور، ولكنها رواية ضعيفة لا يُلتَفَتُ إليها. ولفظُ (يُشافِهُ الناسَ...) فيها، من (المُشَافَهَة)، وهي أن يُكلِّم كلُّ واحدٍ صاحبَه مُدْنِياً شفتَه من شَفَتِه، أي يُحادِثُه بقُرْبٍ تامٍّ ودُنوٍّ شديد. وهذا المعنى أجنبي بعيدٌ عن المقام هنا. والصوابُ في هذا اللفظ: (يُشَامُّ الناسَ يَسْمَعُ منهم)، كما جاء في النسخة الثانية من المخطوطتين، وكما أُثْبِتَ في ص ٨٨ من طبعةِ دمشق سنة ١٣٩٥ من كتاب «الرحلة في طلب الحديث».

ووقع في طبعةٍ من «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ٢: ٢٨٢ بلفظ (... يَشِيمُ الناسَ ليَسمَعَ منهم)، وفي طبعةٍ أخرى منه ٢: ٢٢٤ بلفظ (... يشامِ الناس يَسمَعُ منهم). وفُسِّر المعنى من قِبَلِ كلٍّ واحدٍ من المحقِّقِين بما لا علاقة له بالكلمة! وبعضُهم ضبَطَه في «الرحلة في طلب الحديث»: (يَشامُّ) بتشديد الميم على الصحة، ثم كَبَا قلمُه فجعَلَ هذا الفعل من (شَامَ يَشِيمُ مثل باعَ يَبِيعُ)، ثم فسَّره بمدلول (شامَ يَشِيمُ)! وهو خطأ أيضاً!

وهذا الفعلُ من (المُشَامَّةِ)، قال ابن الأثير في «النهاية»: «يقال: شَامَمْتُ فلاناً إذا قارَبْتَهُ وتَعرَّفتَ ما عنده بالاختبارِ والكشف، وهي مُفاعَلَةٌ من الشَّمّ، كأنك تَشَمُّ ما عنده ويَشَمُّ ما عندك، لتَعمَلا بمقتَضَى ذلك». انتهى. =

. . . .

= وتعبيرُ (يُشامُّ) هذا، هو الشائعُ الواردُ في مثل هذا المقام، في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وفي كلام مَنْ بعدَهُ إلى أواخرِ القرن الثالث بحسب ما وقفتُ عليه، وقد خَفَّ استعمالُه فيما بعدَ ذلك أو انقطع. وأسوقُ هنا بعضَ الشواهد على استعمال هذا اللفظ، تنويراً للمقام، وتأكيداً للتصويب، وتعريفاً بأسلوبِ استعمالِهِ، فإنه لفظٌ بليغٌ جميلُ الأداءِ في النَّفْس.

١ ــ رَوَى الطبراني في «الأوسط»، من حديث سيدنا علي رضي الله عنه، أن الخليفة عمر رضي الله عنه، قال له: «أسألُك: الرجلُ يُحِبُّ الرجلَ ولم يَرَ منه خَيْراً، والرجلُ يُبغِضُ الرجلَ ولم يَرَ منه شَرّاً، هل عندك منه علم؟

قال: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الأرواحَ في الهَوَاءِ أجنادٌ مُجَنَّدة، تلتقي فتَشَامُّ، فما تَعَارَفَ منها ائتَلَف، وما تَناكَرَ منها اختَلَف، . . .». ذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١ :١٦٢، وذَكَر في أحَدِ رواته كلاماً، ثم قال: «وهذا الحديث يُعرَفُ عن عليّ موقوفاً».

٢ ــ ورَوَى الطبراني في «الكبير»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدة، تلتقي فتَتَشامُّ كما تَشَامُّ الخَيْل، فما تَعَارَفَ منها ائتَلَف، وما تَناكَرَ منها اختَلَف، . . .». ذكره الحافظُ السخاويُّ في «المقاصد الحسنة» ص ٥١ عن «الأمثال» للعسكري، والحافظُ الزَّبِيديُّ في «شرح إحياء علوم الدين» ٦ :١٨٢ عن الطبراني.

٣ ــ وجاء في «إعلام الموقِّعين» لابن القيم ١ :١٦، قولُ التابعي الجليل مسروقِ بنِ الأجْدَع رضي الله عنه: «شَامَمْتُ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدتُ عِلمَهم انتهَى إلى سِتَّةٍ. . . ، ثم شَامَمتُ السِّتَّةَ فوَجَدْتُ علمَهم انتَهَى إلى عليٍّ وعبدِ الله بن مسعود». انتهى. ورواه الطبراني بهذا اللفظ، كما في «مجمع الزوائد» للحافظ الهيثمي ٩ :١٦٠، وقال الهيثمي: «رجالُه رجالُ الصحيح غير القاسم بن مَعْن، وهو ثقة».

٤ ــ وجاء في «طبقات الفقهاء» لأبي إسحاق الشيرازي ص ٤٥ : «قال حَمَّاد: لَقِيتُ عطاءً وطاووساً ومُجاهِداً، وشَامَمْتُ القومَ، فوجدتُ أعلمَهم مُجاهِداً».

وعُرِف مِن هذه النصوص أنَّ لفظ (يُشَامُّ الناسَ)، كان دارِجَ الاستعمالِ في القرن الأول وما قَرُب منه، ثم خَمَلَ فيما بَعْدَ القرنِ الثالث كما أسلفتُ، وهذا مما سبَّبَ فيه التحريفَ إلى (يُشافِهُ)، وإلى غيرِهِ، فقد وقع محرَّفاً في «تدريب الراوي» للسيوطي في طبعتيه اللتين حقَّقهما الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف رحمه الله تعالى، في (النوع ٢٨) ص ٣٤٦ من الطبعة الأولى، و ٢ :١٤٣ من الطبعة الثانية، بلفظ «. . . قال: يَرحَلُ، يكتبُ عن الكوفيين والبصريين، وأهلِ المدينة ومكة، يسأم الناسَ لسماعِهِ منهم». !!

٧ ــ وفي «شرح الألفية» للحافظ العراقي[(١)]، و«فتح المغيث» للحافظ السخاوي[(٢)]: «سأل عبدُ الله بن أحمد بن حنبل أباه: هل تَرى لطالب العلم أن يَلزمَ رجلاً عنده علمٌ فيَكتبَ عنه؟ أو يَرحلَ إلى المواضع التي فيها العلماء فيَسمَعَ منهم؟ قال: يرحَلُ ويكتبُ عن الكوفيين والبصريين وأهلِ المدينة ومكة، يُشامُّ الناسَ يَسمَعُ منهم.

وقال يحيى بن مَعِين: أربعةٌ لا تُؤنِسُ منهم رُشداً، وذكَرَ منهم: رجلاً يَكتبُ في بلدِه ولا يَرحَلُ في طلب الحديث.

وقيل لأحمد بن حنبل: أيَرحَلُ الرجلُ في طلب العلم؟ فقال: بلى والله شديداً، لقد كان علقمةُ بن قيس النَّخَعِي، والأسودُ بن يزيد النخعي، ــ وهما من أهل الكوفة بالعراق ــ، يَبلغُهما الحديثُ عن عُمَر، فلا يُقنعهما حتى يَخرُجا إليه ــ إلى المدينة المنورة ــ، فيَسمعانِه منه».

٨ ــ قال القاضي الفقيه والعلامة الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أستاذ علمِ الاجتماع، المولود سنة ٧٣٢، والمتوفى سنة ٨٠٨ رحمه الله تعالى، في «مقدمته»[(٣)]: «إنَّ الرحلة في طلبِ العلوم ولقاء المَشْيَخة: مَزِيدُ كمال في التعليم. والسببُ في ذلك أن البَشَر يأخذون معارفَهم وأخلاقهم وما يَتحلّون به من المذاهب والفضائل، تارةً: علماً وتعليماً ولقاءً. وتارةً: مُحاكاةً وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول المَلَكات عن المباشرة والتلقين، أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قَدْر كثرةِ الشيوخ يكُون حصولُ الملكاتِ ورسوخُها ــ وتَفَتُّحُها ــ.

والاصطلاحاتُ أيضاً في تعليم العلوم مخلِّطةٌ على المتعلِّم، حتى لقد يَظُنُّ كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يَدفع عنه ذلك إلا مباشرتُه لاختلاف الطرق فيها من المعلِّمين.

فلقاءُ أهل العلوم، وتَعدُّدُ المشايخ: يُفيده تمييزَ الاصطلاحات بما يراه من

(١) ٢: ٢٢٦.
(٢) ص ٣٢١.
(٣) ص ٢٧٩.

اختلاف طُرقهم فيها، فيُجرِّدُ العلمَ عنها، ويَعلمُ أنها أنحاءُ تعليم وطُرقُ توصيل، وتَنهضُ قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المَلَكات، ويُصحِّحُ معارفَه ويُميِّزُها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين، وكثرتِها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسّر الله عليه طُرقَ العلم والهداية.

فالرِّحلةُ لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال، بلقاء المشايخ ومباشرةِ الرجال، ﴿واللَّهُ يَهدِي من يَشاءُ إلى صراط مستقيم﴾[1]. انتهى.

٩ ـ وقال الإمام ابن جَماعة في كتابه النافع البديع: «تذكرة السامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم»[2]، وهو يتحدَّثُ عن آداب المتعلِّم في نفسه:

«الثالثُ: أن يُبادِرَ شَبابَهُ وأوقاتَ عُمُره إلى التحصيل، ولا يَغْتَرَّ بخُدَعِ التسويف والتأميل، فإنَّ كل ساعة تمضي من عُمُرِهِ لا بَدَلَ لها ولا عِوَضَ عنها، ويَقطَعَ ما يَقدِرُ عليه من العلائقِ الشاغلةِ، والعوائقِ المانعةِ عن تمامِ الطلب، وبذلِ الاجتهاد، وقوَّةِ الجِدّ في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق.

ولذلك استَحبَّ السلفُ التغرُّبَ عن الأهل، والبُعدَ عن الوطن، لأن الفكرة إذا توزَّعَتْ قَصُرَتْ عن دَرْكِ الحقائق وغموضِ الدقائق، ولذلك يقالُ: العلمُ لا يُعطِيك بعضَه حتى تُعطِيَه كلَّك». انتهى.

١٠ ـ وما أجملَ قولَ الشاعرِ العالمِ الرحّالِ ـ الذي طَوَى البلادَ والأرضَ حتى طَوَتْه! ـ أبي إسحاق الغَزِّي (إبراهيم بن عثمان)، المولود بغَزَّة من بلاد فلسطين عام ٤٤١، والمتوفى ما بين مَرْوَ وبَلْخ من بلاد خُراسان، ونُقِلَ إلى بلخ ودُفن بها سنة ٥٢٤ رحمه الله تعالى وأكرم مثواه، ما أجملَ قولَه في الحضِّ على الرحلة والتطواف، وفضلِ الرحيل عن الأرض التي تُجهَلُ أو تَضِيعُ فيها الأكابرُ والأشراف:

لا تَعْجَبَنَّ لمن أغناه عن أَدَبٍ ... جَهْلٌ! فإنَّ العَمَى يُغني عن السُّرُجِ
أخفاك مُكثُك في أرضٍ نشأتَ بها ... وليس يُعرَفُ قَدْرُ الدُّرِّ في اللُّجَجِ

---

(١) من سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٢) ص ٧٠.

وقال الإمامُ الحافظ المُحدِّثُ ابنُ رُشَيْد المغربي السَّبْتي، المولود سنة ٦٥٧، المتوفى سنة ٧٢١ رحمه الله تعالى في مدح السفرِ والاغترابِ لطلبِ العلم:

فغَرِّبْ ولا تَحْفِلْ بفُرقةِ مَوْطِنٍ تَفُزْ بالمُنَى في كلِّ ما شئتَ من حَاجِ
فلولا اغترابُ المِسْكِ ما حَلَّ مَفْرِقاً ولولا اغترابُ الدُّرِّ ما حَلَّ في التَّاجِ

١١ ـ أنتقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الجانب، عن العلماء التابعين ومن بعدَهم من أئمة المسلمين، فأستهله بما جاء عن التابعي الجليل العابد الفقيه (مسروق بن الأجدع الهَمْداني) اليمني الكوفي، المتوفى سنة ٦٣ رحمه الله تعالى، صاحبِ عبد الله بن مسعود، والذي قال فيه الشَّعْبِيُّ: ما رأيتُ أطلَبَ للعلم منه، حكى الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»[١]، «أنَّ مسروقاً رحَلَ في حَرْف ـ أي من أجل كلمة واحدة ـ وأن أبا سعيد ـ لعله الحسن البصري ـ رحَلَ في حَرْف» أيضاً[٢].

---

(١) ١: ٩٤.

(٢) وليس هذا الحِرصُ الشديدُ على حَرْفٍ من العلم، والرحلةُ فيه من أجل كلمةٍ واحدة: قاصراً على علماء ذلك الزمان، بل كان في حُكَّامِهم وأمرائِهم، جاء في كتاب «شَرْح ما يقَعُ فيه التصحيفُ والتحريفُ» للإمام أبي أحمد العسكري (الحسن بن عبد الله) ص ٣ ـ ٤، ما يلي:

«أخبرني أبو العباس بن عمَّار: سمعتُ سليمانَ بنَ أبي شَيْخ يحكي: أنَّ الأصمعيَّ ذَكر يوماً بني أمية ـ أو قال: بني مَرْوَان، أنا أشُكُّ ـ، وشَغَفَهم بالعلم فقال: كانوا ربما اختلفوا، وهُمْ بالشام، في بيتٍ من الشعر، أو خَبَرٍ، أو يومٍ من أيام العرب، فيُبْرِدون فيه بَريداً إلى العراق.

وأخبرني أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد، أخبرنا أبو عثمان، عن التَّوَّزِي، عن أبي عُبَيدة، قال: ما كنا نَفْقِدُ في كلِّ يوم راكباً من ناحيةِ بني أمية، يُنِيخُ على بابِ قتادة ـ بالبصرة ـ، يَسأَلُهُ عن خَبَرٍ أو نَسَبٍ أو شِعْر، وكان قتادَةُ أجمعَ الناس.

قال أبو بكر: وأخبرني ابنُ أخي الأصمعي، عن محمد بن سَلَّام الجُمَحي، حدثني عامر بنُ عبد الملك المِسْمَعي، قال: لقد كان الرجلانِ من بني مروان، يختلفان في بيتِ شِعر، فيُرسلان راكباً إلى قَتَادة يسأله.

قال: ولقد قَدِم عليه رجلٌ من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان، فقال لقتادة: من قَتَل عَمْراً وعامراً التَّغْلِبيَّيْنِ يومَ قِضَّة ـ بكسر القاف وتُشدَّد ضَادُه وتخفف، يومٌ من أيام العرب بين =

١٢ ــ وساق الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية في علم الرواية»[١]، عن التابعي الجليل (أبي العالية) رُفَيْع بن مِهْران الرِّيَاحي البَصْري، المتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى، «قال أبو العالية: كنا نَسمَعُ الروايةَ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالبصرة، فما نرضى حتى نركبَ إلى المدينة فنَسمَعَهَا من أفواههم».

١٣ ــ وقال الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»[٢]، في ترجمة سيد التابعين (سعيد بن المسيَّب) عالم المدينة المنورة، المولود سنة ١٣، والمتوفى سنة ٩٤ رحمه الله تعالى ورضي عنه: «قال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب، قال: كنتُ أرحَلُ الأيامَ والليالِيَ في طلب الحديثِ الواحد.

١٤ ــ ورَوى الحافظ الرامَهُرْمُزِي في كتابه «المحدِّث الفاصِل بين الراوي والواعي»[٣]، عن الشعبي التابعي الجليل: (عامر بن شَرَاحِيل) الكوفي الهَمْداني، المولود سنة ١٩ والمتوفى سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى «أنه خرج ــ من الكوفة ــ إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذُكِرَتْ له، فقال: لعلي ألقى رجلاً لقي النبيَّ صلى الله عليه وسلم، أو: من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم».

١٥ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٤]، في ترجمة الإمام الشعبي (عامر بن شَرَاحِيلَ الكوفي الهَمْداني) أيضاً:

«قال ابن شُبْرُمة: سمعتُ الشعبيَّ يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي

= بكر وتغلِب ــ؟ فقال: قتَلَها جَحْدَرُ بنُ ضُبَيْعَة بن قيس بن ثعلبة، قال: فشَخَصَ بها.

ثم عاد إليه ــ من الشام ــ فقال: أجَلْ قتَلَها جَحْدَرٌ، ولكن كيف قتَلَهما جميعاً؟ فقال: اعتوَرَاه ــ تعاوَنَا عليه بالضَّرْبِ واحِداً بعدَ واحد ــ، فطَعَن هذا بالسِّنان وهذا بالزُّجّ، فعادَى بينهما ــ أي صَرَعَهُما واحداً بعدَ الآخر ــ».

(١) ص ٤٠٣.

(٢) ٩: ١٠٠.

(٣) ص ٢٢٤.

(٤) ١: ٨١ و ٨٤.

هذا، ولا حدَّثني رجل بحديث قط إلا حفظتُه، ولا أحببتُ أن يعيده علي، ولقد نسيتُ من العلم ما لو حفظه أحد لكان به عالماً.

وعن وَادِعِ الراسِبي عن الشعبي قال: ما أروي شيئاً أقلَّ من الشعر، ولو شئتُ لأنشدتكم شهراً لا أُعيد.

قال ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلمُ كلُّه؟ قال: بنَفْي الاعتماد[١]، والسَّيْرِ في البلاد، وصَبْرٍ كصَبْرِ الحِمار[٢]، وبُكور كبكور الغُراب»[٣].

١٦ ـ وروى الحافظ الدَّارِميُّ في «سننه»[٤]، والخطيبُ البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث»[٥]، بسندهما إلى التابعي الجليل أبي قِلَابة (عبد الله بن زيد) الجَرْمي البصري أحد الأعلام، المتوفى سنة ١٠٤ رحمه الله تعالى، أنه قال: «أقمتُ في المدينة ثلاثة أيام، ما لي بها حاجةٌ إلا قُدومُ رجلٍ بلغني عنه الحديث، فبلَغَني أنه يَقدَم، فأقمتُ حتى قَدِم فحدَّثني به».

---

(١) وقع في «سِيَر أعلام النبلاء» ٤: ٣٠٠ (بترك الاغتمام)، و(الاغتمام) تحريف، والصواب: (بتركِ الاعتماد)، يقال: اعتمَد على الشيء: توكَّأ عليه، واعتمَد على الشيء: اتَّكَلَ عليه. أي نِلتُ ذلك بنفي الاعتمادِ على غيري.

(٢) هكذا الصواب (كصَبْر الحِمَار)، ووقع في «تذكرة الحفاظ»: (كصبر الجماد)، وفي «سِيَر أعلام النبلاء»: (كصبر الحَمَام). وكلاهما تحريف! ويُضرَبُ المَثَلُ بصَبْر الحِمَار، جاء في «مجمع الأمثال» للميداني ص ٣٨٣، في آخِرِ (الباب الرابع عشر فيما أَوَّلُهُ صاد): «أَصْبَرُ مِن حِمَار».

وجاء في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للثعالبي ص ٣٧١، في (الباب الخامس والعشرين في الحمير): «صَبْرُ الحِمَار، قيل لبُزُرْجمْهر: بمَ أدركتَ ما أدركتَ؟ قال: ببُكُورٍ كبُكُور الغُراب، وصَبْرٍ كصَبر الحِمَار. وإنما ضُرِبَ المثلُ في الصَّبْر بالحِمار لصبره على الخَسْفِ ـ أي الذُّلّ ـ وقِلَّةِ التَّفَقُّد». أي لا أَحد يتفقده ويهتم به، ومع هذا يصبر على ذلك.

(٣) روى الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢: ١٨٣، «عن حماد الراويةِ قال: كانت العرب تقول: تَعَجَّبْنا من أربعة أشياءَ: من الغُراب، والخِنزير، والكلبِ، والسِّنَّوْرِ، فأمَّا الغُرَابُ فسُرعَةُ بكُورِه وسُرعَةُ إيابِهِ قَبْلَ الليل. وأما الكلبُ...».

(٤) ١: ١٣٦.

(٥) ص ١٤٤.

١٧ ــ وقال الحافظ في «تاريخ الإسلام»(١)، و «تذكرة الحفاظِ»(٢)، في ترجمة الإمام التابعي الجليل (مكحول الشامي) إمام أهل الشام وفقيههم، المولود في بلدة كابُل من أفغانستان، والمتوفى بدمشق من بلاد الشام سنة ١١٢ رحمه الله تعالى:

«مكحولُ أبو عبد الله بن أبي مسلم الهُذَلي، الفقيهُ الحافظ، عالمُ أهلِ الشام، مولى امرأةٍ من هُذَيل. قال عبدُ الله بن العلاء: سمعتُ مكحولاً يقول: كنتُ عبداً لسعيد بن العاص، فوَهَبني لامرأةٍ من هُذَيلٍ بمصر، فأنعَمَ الله بها علي ــ يعني بمصر ــ.

قال يحيى بن حمزة، عن أبي وهب الكَلاَعِي عبدِ الله بن عُبَيد، عن مكحول، قال: أُعتِقتُ بمصر، فلم أدَعْ بها عِلْماً إلا حَوَيْتُه فيما أُرَى. ثم أتيتُ العراق، فلم أدَعْ بها عِلماً إلا حَويتُ عليه فيما أُرَى، ثم أتيتُ المدينة فكذلك. ثم أتيتُ الشامَ فغَرْبَلْتُها. كلُّ ذلك أسأل عن النَّفَل(٣).

وقال يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاق، قال: سمعتُ مكحولاً يقول: طُفْتُ الأرضَ كلَّها في طلب العلم. وقال سعيد بن عبد العزيز: قال مكحول: ما سمعتُ شيئاً فاستَودعتُه صدري، إلا وجدتُه حينَ أُريدُه».

١٨ ــ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض(٤)، و «معالم الإيمان» و «تكملته» لابن ناجي(٥)، في ترجمة (الإمام عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي القيرواني) المولود بالأندلس سنة ١١٥، والمتوفى بمصر سنة ١٧٦ رحمه الله تعالى، وهو أحَدُ أصحاب مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم، «قال: لما أتيتُ الكوفة، وأكثَرُ أَمَلي السماعُ من سليمان بن مِهْران: الأعمش، فسألت عنه فقيل لي: غَضِبَ على أصحاب الحديث، فحلَفَ أن لا يُسمعهم مُدَّة.

---

(١) ٥: ٤. (٢) ١: ١٠٨.

(٣) النَّفَلُ بفتح النون والفاء جميعاً: ما يعطاه المجاهدُ أو السَّرِيَّةُ عطيةً زائدة على حصتها من المَغْنَم.

(٤) ٣: ١١٠ من طبعة المغرب. (٥) ١: ٢٤١.

فكنت أختلِفُ إلى باب داره لعلي أصِلُ إليه؟ فلم أقدر على ذلك! فجلستُ يوماً على بابه وأنا متفكّر في غُربتي وما حُرِمْتُهُ من السماع منه! إذْ فَتَحَتْ جاريةٌ بابَه يوماً وخرجَتْ منه ، فقالت لي : ما بالُك على بابنا ؟! فقلتُ: أنا رجلٌ غريب، وأعلمتُها بخبري .

قالت: وأين بلدُكم؟ قلت: إفريقية، فانشرَحَتْ إليَّ وقالت: تَعرف القيروان؟ قلت: أنا من أهلها، قالت: تعرف دارَ ابنِ فَرُّوخ؟ قلت: أنا هو، فتأمَّلَتْني ثم قالت: عبدُ الله؟ قلت: نعم، وإذا هي جاريةٌ كانت لنا بِعناها صغيرةً، فسارعتْ إلى الأعمش وقالت له: إنَّ مولاي الذي كنتُ أُخبرك بخبره بالباب، فأمَرها بإدخالي فدَخلتُ، وأسكنني بيتاً قُبَالَةَ بيتِه، فسمعتُ منه وحدَّثني، وقد حَرَم سائرَ الناس، إلى أن قضيتُ أربي منه .

وذكَرَ المالكيُّ عنه أنه رَحَل قديماً، فلقي الشيوخ والفقهاء، وسَمِع من أبي حنيفة مسائلَ كثيرة غيرَ مدوَّنة، يقال: إنها عشرةُ آلافِ مسألة. وذكَرَ أنه قال: سَقَطَتْ آجُرَّةٌ من أعلى دار أبي حنيفة ــ وأنا عنده ــ على رأسي فأُدْمِيَ! فقال: اختَرْ: الأَرْشَ ــ أي الدِّيَةَ ــ أم ثلاثَ مئةِ حديث؟ قلتُ: الحديثَ، فحدَّثَني».

وأنتقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الصَّدَد، عن سيد المحدثين وإمام أهل السنّة ورافعِ لوائها، وشيخ الزهاد والعُبَّاد الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، المولود سنة ١٦٤ ، والمتوفى سنة ٢٤١ رضي الله عنه .

١٩ ــ جاء في «المنهج الأحمد» لأبي اليُمن العُلَيمي الحنبلي[١]، وقد استَهَلَّ كتابه هذا بترجمة الإمام أحمد فقال: «طَلَبَ الإمامُ أحمدُ الحديثَ وهو ابن ست عشرة سنة، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاثٍ وثمانين ومِئة، وهو أوَّلُ سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفيان بن عُيَينة إلى مكة سنة سبع وثمانين، وهي أوَّلُ سنة حجَّ فيها الإمام أحمد، وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاءِ اليمن سنة سبع وتسعين، ورافق يحيى بنَ معين ــ في رحلته إليه ــ» .

---

(١) ١ :٨ .

٢٠ ــ وقال الحافظ ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»(١)، والفقيهُ أحمد بن حَمْدان الحنبلي في كتابه «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي»(٢)، والحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنهاية»(٣)، قال الإمام أحمد: رَحلتُ في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقينِ جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عُدتُ إلى بغداد.

وخرجتُ إلى الكوفة، فكنتُ في بيتٍ تحتَ رأسي لَبِنَةٌ! فحُمِمْتُ! فرجعتُ إلى أُمِّي رحمها الله ولم أكن استأذنتُها، ولو كان عندي تسعون درهماً كنتُ رحلتُ إلى جرير بن عبد الحميد إلى الرَّيّ ــ ويقالُ هو مدينةُ طِهْران الآن ــ، وخَرَج بعضُ أصحابنا ولم يمكني الخروج، لأنه لم يكن عندي شيء!».

٢١ ــ وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر(٤)، في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل: «قال أحمد: حججتُ خمسَ حِجَج، منها ثلاثُ حجج راجلاً ــ ولا يغيبُ عنك أن بلَدَه: بغداد ــ، أنفقتُ في إحدى هذه الحِجَج ثلاثين درهماً».
وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»(٥): «طاف الإمامُ أحمدُ بن حنبل الدنيا مرَّتين حتى جَمَع المُسْنَد».

٢٢ ــ وهذا الحافظ الإمام الفقيه المحدِّث (أبو يعقوب إسحاقُ بن منصور الكَوْسَجُ المَرْوَزي)، المتوفى سنة ٢٥١ رحمه الله تعالى، تلميذُ الإمام أحمد وراوي (المسائل) في الفقه عنه، كان قَدِمَ من مَرْوَ إلى بغداد، وتلقّى عن الإمام أحمد الفقه والحديث، ثم رجع إلى خراسان واستقر في نيسابور.

ثم بلَغَه أن الإمام أحمد رجع عن (المسائل) التي تلقّاها منه، فمشى على قدميه من نيسابور إلى بغداد، ليَتَثبَّتَ من رأي الإمام أحمد في تلك (المسائل) التي كتبها عنه.

---

(١) ص ٢٥ و ٢٦.
(٢) ص ٧٨.
(٣) ١٠ : ٣٣٦.
(٤) ١ : ٧٣.
(٥) في ص ٢٤٦، في الفصل ١٧٥.

قال ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة»[١]، والذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢]، والعُلَيمي في «المنهج الأحمد»[٣]:

«كان إسحاق بن منصور الكَوْسَج فقيهاً عالماً، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد (المسائل) في الفقه، قال حسّان بن محمد: سمعتُ مشايخنا يذكرون أن إسحاق بن منصور، بلَغَه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك (المسائل) التي علّقها عنه، فجَمَع إسحاقُ بن منصور تلك (المسائل) في جِراب، وحَمَلَها على ظهره، وخَرَج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره، وعرَضَ خُطوطَ أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها، فأقَرَّ له بها ثانياً، وأُعجِبَ أحمدُ بذلك من شأنِه»[٤].

٢٣ ــ وهذا خبر آخر من أعجب الأخبار وأغربها، وقع لعالم أندلسي ممن رحلوا من الأندلس إلى المشرق، وقد رحل هذا العالم الأندلسي إلى المشرق على قدميه، ليلقى إماماً من أئمته فيأخذ عنه العلم، ولكنه حين وصل إليه وجده محبوساً ممنوعاً عن الناس، فتلطَّفَ وتحيَّلَ حتى لقِيَهُ فأخَذَ العلمَ عنه، بصورةٍ لا تَخْطُرُ على البال لولا وقوعُها. والتاريخُ أبو العجائب والغرائب. ذلكم العالمُ هو الإمامُ بَقِيُّ بنُ مَخْلَد الأندلسي.

جاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[٥]، و«المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» للعُلَيمي[٦]، وفي «اختصار النابلسي لطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى»[٧]، في ترجمة الإمام (بَقِيِّ بن مَخْلَد الأندلسي): «هو أبو عبد الرحمن بَقِيُّ بن مَخْلَد الأندلسي الحافظ، ولد سنة ٢٠١، وتوفي سنة ٢٧٦ رحمه الله تعالى، ورحل إلى بغداد ــ على قدميه وسِنُّهُ نحوُ عشرين سنة ــ، وكان جُلُّ بغيته ملاقاةَ الإمام أحمد بن حنبل والأخذَ عنه.

---

(١) ١: ١١٤.

(٢) ٢: ٥٢٤.

(٣) ١: ١٢٣.

(٤) في المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة مخطوطة من (مسائله) التي دَوَّنها عن الإمام أحمد.

(٥) ١٣: ٢٩٢.

(٦) ١: ١٧٧.

(٧) ص ٧٩.

حُكي عنه أنه قال: لما قَرُبتُ من بغداد اتصل بي خبرُ المِحنة التي دارت على أحمد بن حنبل، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماعِ منه، فاغتممتُ بذلك غماً شديداً، فاحتَللتُ الموضع، فلم أُعَرِّج على شيء بعد إنزالِ متاعي في بيت اكتريتُه في بعض الفنادق، أن أتيتُ المسجدَ الجامعَ الكبير، وأنا أريد أن أجلس إلى الحِلَق وأسمع ما يتذاكرونه.

فدُفِعتُ إلى حَلْقَةٍ نبيلة، فإذا برجل يَكشِفُ عن الرجال، فيُضعِّفُ ويُقوِّي، فقلتُ: من هذا؟ لمن كان قُرْبِي، فقال: هذا يحيـى بن معين، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قُرْبَه، فقمت إليه فقلت له: يا أبا زكريا رحمك الله، رجلٌ غريبٌ نائي الدار، أردتُ السؤالَ فلا تَستخفّني[1]، فقال لي: قُلْ، فسألته عن بعض من لقيتُ من أهل الحديث، فبعضاً زكّى، وبعضاً جرَّح.

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عَمّار، وكنتُ قد أكثرت من الأخذ منه، فقال: أبو الوليد هشامُ بن عمار: صاحِبُ صلاة، دمشقيٌّ ثقةٌ وفوقَ الثقة، لو كان تحتَ رِدائِهِ كِبْرٌ أو تَقلَّدَ كِبْراً ما ضَرَّهُ شيئاً لخيرِه وفضلِه، فصاح أهلُ الحَلْقَة: يكفيك رحمةُ الله عليك، غيرُك له سؤال.

فقلت وأنا واقف على قَدَمَيَّ[2]: أَكْشِفُك عن رجل واحد[3]: أحمدَ بنِ حنبل؟

---

(١) هكذا في المصدرين المنقول منهما، وفي «سِيَر أعلام النبلاء» ١٣: ٢٩٣ (فلا تَسْتَجْفِنِي) بالجيم. أي لا تَعُدَّني جافِياً.

(٢) جاء في المصادر الثلاثة (وأنا واقف على قَدَم).

(٣) هذا التعبيرُ وقفتُ عليه في كلام علماء الأندلس، ولم أقف عليه في «المعاجم» ولا في كلام العلماءِ المشارقة، وهو بمعنى: أسألُك عن رجلٍ لأعرِفَ حالَهُ.

١ ــ ففي كتاب «قُضاة قُرْطُبة» للخُشَني ص ٣٤، في ترجمة (معاوية بن صالح الحضرمي): «. . . فدخل زيادُ بنُ عبد الرحمن ومعاوية بنُ صالح على مالكِ بن أنس، فسألَهُ معاويةُ بن صالح عن نحوِ مِئتَيْ مسألة، فأجابه مالكٌ عن جميعها، فكَشَف زيادُ بنُ عبد الرحمن مالكاً وقال له: يا أبا عبد الله، كيف رأيتَ معاويةَ بن صالح؟ فقال له مالك: ما سأَلَني أحدٌ قطُّ مِثلَ معاوية بنِ صالح، ثم كَشَف زيادٌ معاويةَ عن مالك؟ فقال له معاويةُ: ما سألتُ أحداً مِثلَ مالك».

٢ ــ وفيه أيضاً ص ٩٠، في ترجمة (القاضي محمد بن زياد اللَّخْمِي): «كان ابنُ أخي =

فنظر إليَّ يحيى بن معين كالمتعجِّب وقال لي: ومثلُنا نحن يَكشِفُ عن أحمد بن حنبل؟! إنَّ ذاك إمامُ المسلمين وخيرُهم وفاضلُهم.

ثم خرجتُ أستدل على منزل أحمد بن حنبل، فدُلِلتُ عليه، فقرعتُ بابَهُ، فخرج إليَّ وفتَح الباب، فنَظَرَ إلى رجلٍ لم يَعرفه، فقلتُ: يا أبا عبد الله، رجلٌ غريبُ الدار، هذا أوَّلُ دخولي هذا البلد، وأنا طالبُ حديث ومُقَيِّدُ سُنّة ــ أي جامعُ سُنّة ــ، ولم تكن رحلتي إلا إليك، فقال لي: ادخُلِ الأُسطوانَ ــ يعني به المَمَرَّ إلى داخل الدار ــ ولا تقع عليك عين.

فقال لي: وأين موضعُك؟ قلت: المغربُ الأقصى، فقال لي: إفريقية؟ فقلت: أبعَدُ من ذلك ــ أجُوْزُ من بلدي البحرَ إلى إفريقية ــ الأَنْدَلُسُ، فقال لي: إنَّ موضعك لبعيد، وما كان شيء أحبَّ إليَّ من أن أُحسِنَ عَوْنَ مثلِك على مطلبه، غيرَ أني في حيني هذا ممتحَن بما لعله قد بلغك. فقلت له: بلى قد بلغني وأنا قريب من بلدِك مقبِلٌ نحوَك.

فقلت له: أبا عبد الله، هذا أوَّلُ دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أَذِنتَ لي أن آتيَ في كل يوم في زِيّ السُّؤَّال، فأقولَ عند باب الدار ما يقولونه، فتَخرُجَ إلى هذا

= عَجَبَ ــ حظيَّةِ الأمير عبد الرحمن الأُمَوي الداخل ــ، شُهِدَ عليه بلفظٍ نَطَق به مُتَعَبِّثاً في يوم عَبَثٍ، فأمَرَ الأميرُ بحبسه، فأَبْرَمَتْهُ ــ أي ألحت عليه كثيراً ــ عَجَبُ عَمَّتُه في إطلاقه، وكانت مُدِلَّةً عليه لمكانِها من أبيه، فقال لها: نكشِفُ أهلَ العلم عما يجبُ عليه في لفظِهِ، ثم يكونُ الفصلُ في أمرِه».

٣ ــ وفي «تاريخ قُضَاة الأندلس» المسمَّى: «المَرْقَبَة العُلْيَا فيمن يَستحِقُّ القضاءَ والفُتْيَا» لأبي الحسن النُّبَاهِي الأندلسي ص ٤٥، في ترجمة (القاضي يحيى بن مَعْمَر): «وكان إذا أَشْكَل عليه أمرٌ من أحكامِه، كَتَب فيه إلى أَصْبَغَ بنِ الفَرَج ونُظَرائِهِ بمصر، فكَشَفهم عن وَجْهِ ما يُريدُ علمَه».

٤ ــ وفيه أيضاً في ص ٤٧، في ترجمة (القاضي محمد بن بشير المَعَافري): «نُقِلَ عن عُبَيد الله بن يحيى، عن أبيه، أنه قال لمحمدِ بنِ بشير: إنَّ الحالاتِ تتغيَّرُ ولا تَثْبُت، فإذا عُدِّل عندك الرجلُ بحُكمِ شهادتِه، ثم تطاوَلَ أمرُه، وشَهِدَ عندك ثانيةً، فكَلِّفْهُ التعديلَ، وأَخِّرْ فيه الكَشْفَ، فاعمَلْ بحسَبِ الذي يبدو لك».

الموضع، فلو لم تُحَدِّثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية، فقال لي: نعم، على شرطِ أن لا تَظهَرَ في الحِلَق ولا عند أصحاب الحديث، فقلتُ: لك شَرْطُك.

فكنتُ آخذ عُوْداً بيدي، وأَلُفُّ رأسي بخِرْقة، وأجعَلُ كاغِدي ــ أي وَرَقي ــ ودَوَاتي في كُمِّي، ثم آتي بابَهُ فأصِيحُ: الأَجْرَ رحمكم الله. والسُّؤَّالُ هنالك كذلك، فيَخرجُ إليَّ ويُغلِقُ بابَ الدار، ويُحدِّثني بالحديثِين والثلاثةِ والأكثرِ، حتى اجتَمَع لي نحوٌ من ثلاثِ مِئةِ حديث[1].

فالتَزَمتُ ذلك حتى مات المُمتَحِنُ له، ووَلِيَ بعده من كان على مذهب السُّنّة، فظهر أحمدُ بن حنبل، وسَمَا ذكرُه، وعَظُمَ في عيون الناس، وعَلَتْ إمامتُه، وكانت تُضرَب إليه آباطُ الإبل، فكان يَعرِفُ لي حقَّ صبري.

فكنتُ إذا أتيتُ حَلْقَتَهُ فسَحَ لي وأدناني من نفسه، ويقول لأصحاب الحديث: هذا يقَعُ عليه اسمُ طالبِ العلم، ثم يَقُصُّ عليهم قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولةً، ويقرؤه عليّ، وأقرؤه عليه.

فاعتَلَلْتُ عِلّةً أَشْفَيْتُ منها، ففَقَدني من مجلسِهِ فسألَ عني، فأُعلِمَ بعِلّتي، فقام من فوره مقبلاً إليَّ عائداً لي بمن معه، وأنا مضطجع في البيت الذي كنتُ اكتريتُ، ولِبْدي تحتي، وكِسائي عليّ، وكُتُبِي عند رأسي.

فسمعتُ الفندقَ قد آرتَجَّ بأهله وأنا أَسمعُهم ــ يقولون ــ: هو ذاك، أَبصِروه،

---

(١) أشار الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» في ترجمة (بَقِيّ بن مَخْلَد) إلى طَرَفٍ من هذا الخبر، وذكَرَ فيها قولَ بقي بن مخلد: «. . . فكان يُحدِّثني بالحديثِ والحديثِ في زِيِّ السُّؤَّال ونحن في خَلْوَة، حتى اجتَمَع لي نحوٌ من ثلاث مئة حديث». انتهى. فزدتُ هذه الجملةَ الأخيرةَ منه، كما ذكَرَ الذهبيُّ فيها قولَه: «وقد فتَّشتُ في «مُسْنَدِ بَقِيّ»، لأظفَرَ له بحديثٍ عن أحمد بن حنبل، فلم أجد ذلك». انتهى.

وانظر كتابَ «بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ القرطبيُّ ومقدِّمَةُ مُسْنَدِه» للدكتور أكرم العمري ص ٣٩ ــ ٤١، حولَ نَفْيِ الذهبيِّ لحديثِ أحمد في «مسند بَقِي». وحَكَمَ الحافظُ الذهبيُّ في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٣: ٢٩٤، على حكايةِ بقيّ بن مَخْلَد هذه بأنها منكرة، ونَقَدَ صحتَها، وردَّ ذلك الدكتور أكرم العُمَري في كتابه المذكور ص ٣٩ ــ ٤١، وأجاد.

هذا إمامُ المسلمين مُقبِلاً، فبدَرَ إليَّ صاحبُ الفندق مسرعاً فقال لي: يا أبا عبد الرحمن، هذا أبو عبد الله أحمدُ بنُ حنبل إمامُ المسلمين مقبلاً إليك عائداً لك.

فدَخَل فجَلَس عند رأسي وقد احتَشَى البيتُ من أصحابه فلم يَسعهم، حتى صارَتْ فِرقةٌ منهم في الدار وقوفاً وأقلامُهم بأيديهم، فما زادني على هذه الكلماتِ فقال لي: يا أبا عبد الرحمن أَبشِرْ بثواب الله، أيامُ الصحةِ لا سَقَمَ فيها(١)، وأيامُ السَّقَمِ لا صِحَّةَ فيها(٢)، أعلاك الله إلى العافية، ومَسَحَ عنك بيمينِهِ الشافية، فرأيتُ الأقلام تكتُبُ لَفْظَهُ(٣).

ثم خرج عني، فأتاني أهلُ الفندق يَلطُفون بي، ويَخْدُمونني ديانةً وحِسبةً، فواحدٌ

---

(١) يعني أنَّ أيامَ الصِّحَّةِ لا يَعرِضُ المَرَضُ فيها بالبال، فتَقْوَى عزائمُ الإنسان وتكثُرُ آمالُه، ويَشتَدُّ طُموحُه. . . ، إذْ شَبَحُ السَّقَمِ والمَرَضِ بعيدٌ عن خاطِره.

(٢) يعني أنَّ أيامَ المَرَضِ الشديدِ لا تَعرِضُ الصِّحةُ فيها بالبال، فيُخيِّمُ على النفس ضَعْفُ الأمَل، وانقباضُ الهِمَّة، وسُلطانُ اليأس، إذْ ثَوْبُ الصحة منزوعٌ عن جسم الإنسان، فلا تَخطُرُ له العافِيَة! وكلامُ الإمام أحمد رضي الله عنه مأخوذٌ من قوله تعالى، في أوائل سورة هُود: ﴿ولَئِنْ أذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثم نَزَعْناها مِنْهُ إنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ. ولَئِن أذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إنَّه لَفَرِحٌ فَخُورٌ. إلا الذين صَبَرُوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئك لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كبيرٌ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣: ٥٤٠: «يُخبِرُ الله تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفاتِ الذميمة إلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ من عبادِهِ المؤمنين: أنه إذا أصابَتْهُ شِدَّةٌ بعدَ نِعمةٍ حَصَل له يَأْسٌ وقُنُوطٌ من الخير بالنسبةِ إلى المستقبل، وكُفرٌ وجُحودٌ لماضِي الحال، كأنه لم يَرَ خيراً، ولم يَرْجُ فَرَجاً.

وهكذا إن أصابَتْهُ نعمةٌ بعدَ نِقمةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي﴾، أي يقول: ما يَنالُني بعدَ هذا ضَيْمٌ ولا سُوءٌ ﴿إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أي فَرِحٌ بما في يدِه، بَطِرٌ فَخُورٌ على غيرِه، قال الله تعالى: ﴿إلا الذين صَبَرُوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئك لهم مغفرةٌ وأَجْرٌ كبير﴾ ».

(٣) في هذا قُدْوةٌ لما عليه بعضُ العلماء في الهند وباكستان، إذ يَكْتُبُون في مجالس شيوخهم الكبار: ألفاظَهم وكلماتِهم كلَّها، لتكونَ لديهم يَرجِعُون إليها إذا شاؤا، ويُسمُّونها: (ملفوظاتِ الشيخ) أو (الملفوظات).

يأتي بفراش، وآخَرُ بلِحافٍ وبأطايبَ من الأغذية، وكانوا في تمريضي أكثرَ من تمريض أهلي لو كنتُ بين أظهرهم، لعِيَادةِ الرجلِ الصالح لي. وتوفي بقي بن مخلد سنة ٢٧٦ بالأندلس رحمه الله تعالى».

٢٤ ــ وقال الدكتور محمد فؤاد سزكين في كتابه «تاريخ التراث العربي»(١)، في ترجمة (بَقِيّ بن مَخْلَد): «وقام بقيُّ بن مَخْلَد القرطبي برحلتين، إلى مصرَ والشامِ والحجازِ وبغداد، طلباً للعلم، امتدَّتْ الرحلةُ الأولى أربعةَ عَشَر عاماً، والثانية عشرين عاماً». انتهى. ولا تَنْسَى أنَّ ارتحالَهُ كلَّهُ كان من الأندلس، وعلى قدميه، كما صرَّح هو بذلك، قال رحمه الله تعالى: «كل من رحلتُ إليه فماشياً على قَدَميَّ، وكلُّ من سمعت منه في البلدان ماشياً على قَدَميَّ، قال تلميذه أبو عبد الملك أحمد بن محمد القرطبي: كان بَقِيٌّ طُوَالاً، قوياً جَلْداً على المشي، لم يُرَ راكباً دابةً قطُّ، متواضعاً ملازماً لحضور الجنائز»(٢). فللَّهِ دَرُّهُ وصَبْرُهُ وشوقُهُ للعلم، وللَّهِ بَذْلُهُ حياتَهُ في تحصيلِهِ وجَمْعِه.

لولا عَجَائبُ صُنْعِ اللَّهِ ما نَبَتَتْ تلك الفضائلُ في لَحْمٍ ولا عَصَبِ

٢٥ ــ وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه «تقدمة الجرح والتعديل»(٣)، في ترجمة والده (الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي) المولود سنة ١٩٥ والمتوفى سنة ٢٧٧، عند ذكر رحلته في طلب العلم «سمعتُ أبي يقول: أوَّلَ ما خَرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبعَ سنين، أحصيتُ ما مَشَيتُ على قدمَيَّ زيادةً على ألفِ فرسخ(٤)، لم أزل أُحصي حتى لما زاد على ألفِ فرسخٍ تركتُه.

وأما ما كنتُ سِرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أُحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجتُ من البحر من قُرْب مدينة سَلاَ ــ وذلك في المغرب

(١) ١: ٢٣٨.

(٢) من «تذكرة الحفاظ» ٢: ٦٣٠ و «السِّيَر» ١٣: ٢٩١.

(٣) ص ٣٥٩.

(٤) الفرسخ بمشي القدم: نحو ساعة ونصف، وهو ثلاثة أميال، نحو خمسةِ كيلومترات، كما يستفاد من «معجم لاروس» العربي، في مادة (المِيل) و (الباع)، وقدَّرَهُ بعضُهم بأكثر من خمسة كيلومترات، كما بَسَط ذلك الأستاذ أحمد الحسيني في كتابه «دليل المسافر» ص ٧ ــ ٢٢.

الأقصى ـــ إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملةِ إلى طَبرِيّة، ومن طبريَّة إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكِيَة، ومن أنطاكِيَة إلى طَرَسُوس.

ثم رجعت من طَرَسُوس إلى حمص، وكان بَقِيَ عليَّ شيء من حديث أبي اليَمان فسمعتُه، ثم خرجتُ من حمص إلى بَيْسَان، ومن بَيْسَان إلى الرَّقَّة، ومن الرَّقَّة ركبتُ الفُراتَ إلى بغداد، وخرجتُ قبلَ خروجي إلى الشام من واسِط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كلُّ ذلك ماشياً، هذا في سفري الأوَّل وأنا ابنُ عشرين سنة، أجولُ سبعَ سنين، خرجتُ من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعتُ سنة ٢٢١.

وخرجتُ المرة الثانية سنةَ اثنتين وأربعين، ورجعتُ سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين، ـــ وكانت سِنِّي في هذه الرحلة ٤٧ سنة ـــ.

٢٦ ـــ وجاء في «تهذيب التهذيب»[١]، في ترجمة الحافظ الجوَّال (يعقوب بن سفيان الفارسي) الفَسَوِيّ، المولود قبلَ سنة ٢٠٠، والمتوفى سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى: «قال أبو عبد الرحمن النهاوندي: سمعتُ يعقوب بن سفيان يقول: كتبتُ عن ألفِ شيخٍ وكَسْر، كلُّهم ثقات. وقال ابن حمزة: قال لي يعقوب بن سفيان: أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنة». وسيأتي خَبَرُ إملاقِهِ في رحلتِهِ وفَقْدِهِ بصرَه[٢].

٢٧ ـــ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي[٣]، في ترجمة (الفضل الشَّعْراني): «الحافظُ الإمام الجَوَّال الفضل بن محمد بن المسيب البيهقي الشَّعْراني، المتوفى سنة ٢٨٢ رحمه الله تعالى، قال ابنُ المؤمّل: كنا نقول: ما بقي بلَدٌ لم يَدخله الفضلُ الشَّعْرانيُّ في طلبِ الحديث إلا الأندلس».

٢٨ ـــ وجاء في «الأنساب» للحافظ السمعاني[٤]، و«تذكرة الحفاظ»[٥]، في

(١) ١١: ٣٨٧.
(٢) في الخبر ٢٣٨.
(٣) ٢: ٦٢٧.
(٤) ١: ١٦٩.
(٥) ٢: ٧٨٩.

ترجمة (الحافظ الأَرغِيَاني): «هو الحافظُ البارعُ الجَوَّالُ الزاهدُ القدوة محمد بن المسيَّب بن إسحاق الأرغيـاني، المولود سنة ٢٢٣، والمتوفى سنة ٣١٥ رحمه الله تعالى، قال الإمامُ الحاكم أبو عبد الله: كان من العُبّاد المجتهدين، ومن الجَوَّالين في طلب الحديث، على الصدقِ والوَرَع، سمعتُ غيرَ واحد من مشايخنا يذكرون أنه قال: ما أعلَمُ مِنْبراً من منابر الإسلام، بقي عليَّ لم أدخله لسماع الحديث.

وحكى أبو علي الحافظ ــ النيسابوري: الحسينُ بن علي، الإمامُ، محدِّثُ الإسلام، وباقِعَةُ الحِفْظِ، وواحِدُ عصرِهِ في الضبط والإتقانِ والوَرَعِ والمذاكرةِ والتصنيف ــ قال: كان محمد بن المُسَيَّبِ الأَرْغِيانيُّ يمشي بمصر، وفي كُمِّه مِئةُ ألف حديث، فقيل لأبي علي: فكيف كان يمكنُ هذا؟ قال: كانت أجزاؤه صِغَاراً بخطٍّ دقيق، في كل جزء ألفُ حديثٍ معدودة، وكان يَحمِلُ معه مِئةَ جزء، فصار هذا كالمشهور من شأنِه.

وكان إذا قرأ الحديثَ وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بكَى حتى نَرحَمَه! وعَمِيَ من كثرةِ البكاء! رضوانُ الله تعالى عليه».

٢٩ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[(١)]، في ترجمة الإمام محدِّث الشام (أبي الحسن خَيْثَمة بن سُليمان بن حَيْدرة القرشي الطرابلسي) المولود سنة ٢٥٠، والمتوفى سنة ٣٤٣ رحمه الله تعالى، : «قال ابنُ أبي كامل: سمعتُ خيثمةَ يقول:

رَكبتُ البحر، وقَصَدتُ جَبَلَة[(٢)]، لأسمعَ من يوسف بن بحر، ثم خرجتُ إلى أنطاكِيَة، فلَقِيَنا مركبٌ فقاتلناهم، ثم تَسلَّمَ مركبَنا قومٌ من مُقدَّمِه، فأخذوني ثم ضربوني، وكتبوا أسماءَنا، فقالوا: ما اسمُك؟ قلت: خَيْثَمَة، فقال: اكتُبْ: حِمارُ ابنُ حِمار!

---

(١) ٣: ٨٥٨.

(٢) جَبَلَة بَلْدَةٌ بساحلِ بحر الشام قُرْبَ اللاّذِقِيَّة، وهي بفتح الجيم والباء معاً، كما ضبطها ياقوت في «معجم البلدان» ٢: ١٠٤ وصاحبُ «القاموس» وشارحُه وغيرُهم. والناسُ اليومَ في بلاد الشام ينطقونها: جَبْلَة بسكون الباء. وقد كان فيها مُحَدِّثون، منهم يوسفُ بن بَحْرٍ الجَبَليُّ وغيرُه، ذكرَهُم وترجَمَ لهم ياقوت في «معجم البلدان» ٢: ١٠٥ ــ ١٠٦.

ولما ضُرِبتُ سَكِرتُ ــ يعني أصابَتْه غَشْيَة من شدةِ أَلَمِ الضَّرْب ــ ونِمْتُ، فرأيتُ كأني أنظرُ إلى الجنة، وعلى بابها جماعةٌ من الحُورِ العِين، فقالت إحداهن: يا شَقِيُّ، أَيْشٍ فاتَك؟ قالت أخرى: أَيْشٍ فاتَه؟ قالت: لو قُتِلَ كان في الجنة مع الحُور العِين، فقالت لها: لأن يَرزقه الله الشهادة في عزٍّ من الإسلام وذُلٍّ من الشِّركِ خيرٌ له، ثم انتبَهتُ.

قال: ورأيتُ كأنَّ من يقول لي: اقرأ (سُورةَ براءة)، فقرأتُ إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا في الأرض أربعةَ أشهر﴾[1]. قال: فعددتُ من ليلةِ الرؤيا أربعةَ أشهر، ففَكَّ الله أَسْرِي».

٣٠ ــ وقال ياقوت الحَمَوي في «معجم الأدباء»[2]، والذهبي في «العِبَر»[3]، و«تذكرة الحفاظ»[4]، في ترجمة (أبي الحسن القطان القَزْويني):

«هو الحافظ الإمام العلامة الجامع القُدْوَةُ، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سَلَمَة بن بَحْر القَزْوِيني، مُحدِّثُ قَزْوين وعالِمُها، ولد سنة ٢٥٤، ومات سنة ٣٤٥ رحمه الله تعالى، فعاش ٩١ سنة، وارتحل في هذا الشأن، وكَتَبَ كثيراً عن خلائق من الشيوخ في البُلْدان، وهو الذي رَوَى عن ابن ماجه «سُنَنَهُ»، ورَوَى عنه من العلماء من لا يُحصَوْن كثرةً، ومنهم أبو الحُسَين أحمدُ بن فارس اللغويُّ القَزْوِيني.

قال أبو يَعْلَى الخليلي في كتاب «الإرشاد في طبقات البلاد»: أبو الحسن علي بن إبراهيم عالمٌ بجميع العلوم والتفسير والنحو واللغة والفقه، لم يكن له نظيرٌ: دِيناً ودِيانةً وعِبادة، سَمِع أبا حاتم الرازي ارتَحَل إليه ثلاثَ سنين، وسَمِعَ خلقاً كثيراً من القزوينيين والرازيين والبغداديين والكوفةِ ومكةَ وصنعاءِ اليمن وهَمَذان وحُلوانَ ونهاوَنْدَ، وعُمِّر حتى أدركه الأَحْداثُ.

(١) من سورة براءة، الآية ٢.
(٢) ١٢: ٢١٩ ــ ٢٢٠.
(٣) ٢: ٢٦٨.
(٤) ٣: ٨٥٦.

سَمِعتُ جماعةً من شيوخ قَزْوين يقولون: لم يَرَ أبو الحسن مثلَ نفسِهِ في الفضلِ والزهد، أدام الصيامَ ثلاثين سنة، وكان يُفطِرُ على الخبز والمِلْح!

وقال ابن فارس في «أماليه»: سمعتُ أبا الحسن القطان، بعدما عَلَتْ سِنُّه وضَعُفَ يقول: كنتُ حين خرَجتُ إلى الرِّحلة أحفَظُ مِئةَ ألفِ حديث، وأنا اليوم لا أقومُ على حفظِ مئةِ حديث! وسمعتُه يقول: أُصِبتُ ببصري! وأظنُّ أني عُوقبتُ بكثرةِ بُكاءِ أُمِّي أيامَ فِراقي لها[1]، في الرحلة في طلب الحديث والعلم. وفضائلُه أكثَرُ من أن تُعدَّ رحمه الله تعالى».

٣١ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[2] في ترجمة (ابن المُقْرِىء) محمد بن إبراهيم الأصبهاني المتوفى سنة ٣٨١ رحمه الله تعالى[3] «الإمامُ الرحّال الحافظ الثقة، قال أبو طاهر أحمد بن محمود: سمعتُ ابنَ المقرىء يقول: طُفتُ الشرقَ والغربَ أربعَ مرَّات!».

ثم قال الحافظ الذهبي: «ورَوى اثنانِ عن ابن المُقْرِىء أنه قال: مَشَيتُ بسبب نُسخةِ (المُفَضَّلِ بن فَضَالة المصري) سبعين مَرْحَلَة[4]، ولو عُرِضَتْ على خبّازٍ برغيفٍ لم يَقبلها! ودَخلتُ بيتَ المقدس عشرَ مرات». ولا تَنْسَ أنَّ بلده أصبهان.

٣٢ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[5]، في ترجمة الحافظ الجَوَّال صاحبِ التصانيفِ أبي عبد الله بن مَنْدَهْ (محمد بن إسحاق): «وُلِدَ أبو عبد الله سنة ٣١٠، وتوفي سنة ٣٩٥ رحمه الله تعالى، وعِدَّةُ شيوخِه الذين سَمِعَ منهم وأخَذَ عنهم: ألفُ وسَبْعُ مئةِ شيخ[6]، وكَتَبَ بيده عِدَّةَ أحمال.

---

(١) وقع في هذه الجملة في «تذكرة الحفاظ» تحريف، وهذا الذي أثبتُه هنا صوابُه.

(٢) ٣: ٩٧٣. (٣) الآتي خبره برقم ٢١٧.

(٤) يُطلق المحدِّثون اسمَ (النسخة) على مجموعةٍ من الأحاديث يرويها الشيخ، وتُعرَف وتَشتَهِرُ بروايته.

(٥) ٣: ١٠٣٢.

(٦) قال الحافظ العراقي في «شرح ألفيته» ٢: ٢٣٣ في شرح أبيات (آداب طالب الحديث): «وقد وُصِفَ بالإكثار من الشيوخ: سفيانُ الثوري، وأبو داود الطيالسي، ويونُس بن محمد المؤدِّب، ومحمدُ بن يونُس الكُدَيْمي، وأبو عبد الله بن منده، والقاسمُ بن داود البغدادي، روينا عنه قال: كتبتُ عن سِتَّةِ آلافِ شيخ».

ولما رجع من الرحلة الطويلة، كانت كتبُه عِدَّةَ أحمال، حتى قيل: إنها كانت أربعين حِمْلاً، وما بلَغَنا أنَّ أحداً من هذه الأمة سَمِعَ ما سَمِعَ ولا جَمَعَ ما جَمَع، وكان ختامَ الرحّالين وفَرْدَ المكثرين، مع الحفظِ والمعرفةِ والصدقِ وكثرةِ التصانيف. قال جعفر المستغفري: سألتُه كم تكون سَماعاتُ الشيخ؟ قال: تكون خمسَةَ آلافِ صَنٍّ. قلتُ ـ القائل الذهبي ـ: والصَّنُّ يجيءُ عَشَرَةَ أجزاءٍ كبار(١).

وأوَّلُ ارتحاله كان قبل سنة ٣٣٠ إلى نيسابور، قال الحاكم: التقينا ببُخارى سنة ٣٦١ وقد زاد زيادة ظاهرة، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمس وسبعين ذاهباً إلى وطنه. ـ فرَحلَ وعُمُرُه عشرون سنة، ورَجَع وعُمُرُه خمسٌ وستون سنة، وكانت رِحْلَتُهُ ٤٥ سنة، ثم عاد إلى وطنه شيخاً فتزوَّج ـ وهو ابنُ ٦٥ سنة ـ ورُزِقَ الأولادَ، وحدَّثَ بالكثير.

قال ابن مَنْدَه: طُفتُ الشرقَ والغربَ مرَّتين، وقال أبو زكريا بن مَنْدَه: كنتُ مع عمي عُبَيد الله في طريق نيسابور، فلما بلَغْنا بئرَ مَجَّة، حَكى لي عمي قال: كنتُ قافلاً عن خراسان مع أبي، فلما وصلنا إلى هنا، إذْ نحن بأربعين وِقْراً من الأحمال، فظننا أن ذلك ثياب، فإذا خَيْمَةٌ صغيرة فيها شيخ، وإذا هو والِدُك!

---

(١) هكذا الصواب: (صَنّ) بالصاد كما جاء في «الوافي بالوفَيات» للصفدي ٢: ١٩٠، في ترجمة ابن منده، وعبارتُه فيه: «. . . فقال: يكونُ خمسةَ آلاف صِنّ. والصِّنُّ بكسر الصاد: السَّلَّةُ المُطَبَّقَة». انتهى.

وجاء في «القاموس» في (صَنّ): «الصِّنُّ: شِبهُ السَّلَّةِ المُطَبَّقَة، يُجعَلُ فيها الطعامُ والخبز». انتهى. قال شارحُه الزَّبيدي: «ظاهرُ سياقه أنه بكسر الصاد، والصوابُ بفتحها». انتهى.

ووقع في «تذكرة الحفاظ» بلفظ «. . . تكونُ خمسةَ آلاف مَنّ، قلتُ: والمَنُّ يجيءُ عشرةَ أجزاءٍ كبار». انتهى.

قال عبد الفتاح: وهو تحريف، فإن (المَنّ) بالميم مقياس وَزْني، لا حَجْمي، والمَقامُ هنا للحَجْمي، قال في «القاموس» في (مَنَّ): «المَنُّ: كيلٌ معروف، أو مِيزان، أو هو رِطلان، جمعُه أمنان». انتهى. وفي «تهذيب اللغة» للأزهري و«مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني: «المَنُّ: ما يُوزَنُ به». انتهى. ومثلُهُ في «تاج العروس» ٩: ٣٥٠. =

فسأله بعضُنا: ما هذه الأحمال؟ فقال: هذا مَتاعٌ قَلَّ من يَرغَبُ فيه في هذا الزمان، هذا حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكَرَ لي عمي بعدَ ذلك فقال: كنتُ قافلاً عن خراسان، ومعي عِشْرون وِقْراً من الكتب، فنزلتُ فيها عند البئر، اقتداءً بالوالد».

٣٣ ــ وحكى الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[1]، عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري (محمد بن عبد الله الضَّبِّي المعروف بابن البَيِّع)، صاحب «المستدرك على الصحيحين»، المولود سنة ٣٢١، والمتوفى سنة ٤٠٥ رحمه الله تعالى، في ترجمة شيخِهِ الحافظِ الإمام الزاهدِ القُدوةِ شيخ الإسلام (ابن مِهْران) أبي مُسْلم عبدِ الرحمن بن محمد البغدادي، ثم البخاري، ثم المكي، المتوفى سنة ٣٧٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الحاكم: دَخلتُ مَرْوَ وما وراءَ النهر ولم أَلْقَه! وفي سنةِ خمس وستين في الحج، طَلَبتُه في القوافل فأَخْفَى نفسَه، وكان يَجهَدُ ألَّا يَظْهَر لحديثٍ ولا لغيرِهِ، فحججتُ سنةَ سبع وستين، وعندي أنه بمكة، فقالوا: هو ببغداد! فاستَوْحَشْتُ من ذلك.

وتطلَّبتُه فلم أظفَر به، ثم قال لي أبو نصر المَلاَحِمي ببغداد: هنا شيخٌ من الأبدال تشتهي أن تَراه؟ قلتُ: بلى، فذَهَب فأَدخلني خانَ الصبَّاغين، فقالوا: خَرَج، فقال أبو نصر: تَجلِسُ في هذا المسجد فإنه يجيء، فقَعَدْنا، وأبو نصر لم يَذكر لي مَنْ الشيخُ.

فأقبل أبو نصر ومعه شيخٌ نَحِيفٌ ضعيف برِدَاءٍ، فسلَّم عليَّ، فاتَّهمتُ ــ يعني: فظننتُ ــ أنه أبو مُسْلِم الحافظ، فبينا نحن نُحدِّثه قلتُ له: وَجَد الشيخُ هاهنا من أقاربه أحداً؟ قال: الذين أردتُ لقاءَهم انقرضوا! فقلتُ: هل خَلَّف إبراهيمُ ولداً؟ أعني أخاه إبراهيمَ الحافظ؟ فقال: ومن أين عرفتَ أخي؟ فسكتُّ.

فقال لأبي نصر: مَنْ هذا الكَهْلُ؟ قال: أبو فلان، فقام إليَّ وقُمتُ إليه وشَكَا

= ووقع في هذا اللفظ تحريف آخر في «ميزان الاعتدال» ٣: ٤٧٩، أشَدُّ مما وقع في «تذكرة الحفاظ»! فجاء بلفظ: «... يكونُ خمسةَ آلاف مرَّة». انتهى. وهو تحريف ظاهر.

(١) ٣: ٩٦٩.

شَوْقَه وشكوتُ مِثلَه، فاشْتَفَيْنا من المذاكرة، وجالستُه مِراراً، ثم ودَّعتُه يومَ خروجي، فقال: يَجمعُنا الموسِمُ، فإنَّ عليَّ أن أُجاوِرَ بمكة، ثم حَجَّ سنة ثمان وستين، وجاوَرَ إلى أن مات».

٣٤ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»(١)، في ترجمة (أبي نصر السِّجْزِي): «هو الحافظُ الإمامُ علَمُ السُّنّة، عُبَيد الله بن سعيد بن حاتم، أبو نصر السِّجْزِي المتوفى بمكة سنة ٤٤٤ رحمه الله تعالى، من أحفظِ أهلِ زمانه للحديث، طَوَّفَ الآفاقَ في طلب الحديث.

قال الحافظ أبو إسحاق الحبّال: كنتُ يوماً عند أبي نصر السِّجزي، فدُقَّ الباب، فقُمتُ ففتحتُه، فدخلت امرأة وأخرَجتْ كيساً فيه ألفُ دينار، فوضعَتْه بين يدي الشيخ وقالت: أنفِقْها كما ترى. قال: ما المقصود؟ قالت: تتزوَّجُني، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك، فأمَرَها بأخذ الكيس وأن تنصرف.

فلما انصرفَتْ قال: خرجتُ من سِجِسْتان بِنيّةِ طلب العلم، ومتى تزوَّجتُ سقَطَ عني هذا الاسمُ، وما أُوثِرُ على ثواب طلب العلم شيئاً».

٣٥ ـ وهذا الحافظ الفقيه أبو سَعْد السمّان الرازي، المتوفى سنة ٤٤٥، أحَدُ المحدِّثين النسّابين الفقهاء القراء العلماء الأفذاذ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها على قدميه، فكان له من الشيوخ ٣٦٠٠ شيخ، رحمه الله تعالى.

قال الحافظ القرشي في «الجواهر المضية في طبقات الحنفية»(٢)، في ترجمته: «أبو سَعْد السمّان إسماعيل بن علي بن الحسين بن زَنْجُوْيه الرازي، الحافظ الزاهد المعتزِلي، شيخُ العَدْلِيّة ـ أي المعتزلة ـ وعالِمُهم، وفقيهُهم ومتكلِّمُهم ومُحَدِّثُهم، كان إماماً بلا مدافعة في القراءات والحديث ومعرفةِ الرجالِ والأنسابِ والفرائضِ والحسابِ والشُّرُوطِ والمُقَدَّرات.

---

(١) ٣: ١١١٩.

(٢) ١: ١٥٦.

وكان إماماً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابِه، وفي معرفة الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما، وفي فقه الزيدية، وفي الكلام. وكان قد حجَّ وزار قبرَ النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل العراق ــ وبَلَدُهُ الرَيُّ في خراسان من أقصى الشرق ــ، وطاف الشام والحجاز وبلاد المغرب، وشاهَدَ الرجالَ والشيوخ، وقرأ على ثلاثةِ آلافٍ وستٍّ مِئةِ رجلٍ من شيوخ زمانِه، وقَصَد أصبهانَ لطلبِ الحديث في آخِرِ عُمُرِه، وكان يقول: من لم يَكْتُبْ الحديثَ لم يَتَغَرْغَرْ بحَلاَوَةِ الإسلام.

وكان يقال في مدحه: إنه ما شاهد مِثلَ نفسه، وكان مع هذه الخصالِ الحميدة زاهداً ورِعاً قوَّاماً، مجتهداً صوَّاماً، قانعاً راضياً، أتى عليه أربعٌ وسبعون سنة لم يُدخِل إصبعَه في قَصْعَةِ إنسان، ولم يكن لأحدٍ عليه مِنّةٌ ولا يَدٌ في حَضَرِهِ ولا سَفَرِه.

خلَّفَ ما جمعه طولَ عمره من الكتب وَقْفاً على المسلمين، كان تاريخَ الزمان، وبقيةَ السلفِ والخلف، وصنَّفَ كتباً كثيرة، ومات ولم يتأهَّلْ قط، وَمَضَى لسبيله وهو يتبسَّم كالغائبِ يَقدَم على أهله، وكالمملوكِ يَرجعُ إلى مالِكِهِ، مات بالرَّيِّ ــ مسقطِ رأسِه ــ سنة ٤٤٥ رحمه الله تعالى».

٣٦ ــ وهذا أحَدُ أئمة الدنيا في العلم والزهد والورع، يقَعُ في الأَسْر، في طريق سَفَرِهِ إلى بلدِ الله الحرام مكَّةَ المكرمة، للقاءِ العلماء والشيوخ وحَجِّ بيتِ الله تعالى، ويُستخدَمُ راعياً للجِمَال، لعَرَبِ البادية، وهو شيخُ علماءِ خراسان!

جاء في «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[(١)]، في ترجمة (أبي المظفَّر ابنِ السَّمْعاني: منصور بن محمد) المفسِّر المحدِّث الفقيه الأديب، المَرْوَزي الحنفي ثم الشافعي، المولودِ سنة ٤٢٦، والمتوفى سنة ٤٨٩ رحمه الله تعالى، المعروفِ بابن السَّمْعاني، الذي يقول فيه السبكي: «أحَدُ من طَبَّق الدنيا ذِكرُه، وعَبَّقَ الكونَ نَشْرُه. وهو جَدُّ أبي سعد (السمعاني) صاحبِ كتاب «الأنساب» الآتي ذكره[(٢)].

«خرج من مَرْوَ، ودخل بغداد سنة ٤٦١، وناظَرَ الفقهاء، ثم خَرَج منها إلى

---

(١) ٤ : ٢١.
(٢) في الخبر ٤٣.

الحجاز على غيرِ الطريقِ المعتاد، فإنَّ الطريق كان قد انقطع بسبب استيلاءِ العَرَب، فقُطِعَ عليه وعلَى رفيقِهِ الطريق، وأُسِرَ، واستَمَرَّ أبو المظفر مأسوراً في أيدي عَرَبِ البادية، صابراً إلى أن خَلَّصَه الله تعالى.

فحَكى أنه لما دَخَل البادية وأخذَتْه العرب، كان يَخرجُ مع جِمَالِهم إلى الرَّعْي، قال: ولم أقل لهم: إني أعرِفُ شيئاً من العلم، فاتَّفَق أنَّ مُقدَّمَ العرب أراد أن يَتزوَّج، فقال: نَخرُجُ إلى بعض البلاد، ليَعقِدَ هذا العقدَ بعضُ الفقهاء، فقال أحَدُ الأَسْرَى: هذا الرجلُ الذي يَخرجُ مع جِمَالكم إلى الصحراءِ فَقِيهُ خُراسان، فاستَدْعَوْني وسألوني عن أشياءَ فأجبتُهم وكلَّمتُهم بالعربية، فخَجِلوا واعتذروا، وعَقَدتُ لهم العَقْدَ، ففَرِحُوا، وسألوني أن أَقبَلَ منهم شيئاً فامتنعتُ، وسألتُهم فحَمَلوني إلى مكة في وَسَطِ السَّنَة، وبَقِيتُ بها مُجاوِراً، وصَحِبتُ في تلك المدة سَعْداً الزَّنْجاني.

قال الحسن بن أحمد المَرْوَزِي الصوفي، رفيقُ أبي المظفر إلى الحجّ: اكترينا حِماراً ركبه الإمامُ أبو المظفَّر من مَرْوَ إلى خَرَق، وهي على ثلاثة فراسخ من مَرْو، فنزلنا بها، وقلتُ: ما مَعَنا إلا إبريقٌ من خَزَف، فلو اشترينا آخر، فأخرَجَ من جيبه خمسةَ دراهم، وقال: يا حسن، ليس معي إلا هذه، خُذْ واشترِ ما شِئتَ، ولا تطلُبْ مني بعدَ هذاشيئاً.

قال: فخرجنا على التجريد، وفَتَحَ الله لنا، فكلَّما دخلنا بلدةً نَزَل على الصُّوفيَّة، وطلَبَ الحديثَ من المَشْيَخة، فلما دخلنا مكة، نَزَل على أحمد بن علي بن أَسَد الكَرْخي، ودَخَل في صُحبةِ سَعْدٍ الزَّنجاني، ولم يَزل معه حتى صار ببركتِهِ من أصحاب الحديث.

ثم لما قَضَى أبو المظفَّر حَجَّهُ وأتمَّ نُسُكَهُ بمكة، عاد إلى خراسان، ودخل مَرْوَ في سنة ٤٦٨، وأَلقَى بها عَصَا التَّسْيار رحمه الله تعالى». انتهى. فكانت رحلتُه هذه سبعَ سنين.

٣٧ ــ وقال القِفْطِي في «إنباه الرواة»[١]، وابنُ خَلِّكان في «وفَيات الأعيان»[٢]،

---

(١) ٤: ٢٢.

(٢) ٢: ٢٣٣.

وياقوت في «معجم الأدباء»[١]، والذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء»[٢]، في ترجمة أبي زكريا (يحيـى بن علي التِّبْرِيزي) المعروف بالخطيب التِّبْرِيزي، المولود سنة ٤٢١، والمتوفى سنة ٥٠٢ رحمه الله تعالى ببغداد، قال: «كان له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما، قرأ على أبي العلاء المَعَرِّي وغيره من أهل الأدب.

وكان سبَبُ توجهه إلى أبي العلاء المعري ـ من تِبريز إلى المَعَرَّةِ قُرْبَ مدينة حَلَب ـ، أنه حصلت له نسخة من كتاب «التهذيب» في اللغة تأليف أبي منصور الأزهري، في عدة مجلداتٍ لِطاف[٣]، وأرادَ تحقيقَ ما فيها وأخْذَها عن رجل عالم باللغة، فدُلَّ على المعري، فجعل الكتاب في مِخْلاة، وحَمَلَها على كتفه من تبريز إلى المَعَرَّة، ولم يكن له ما يَستأجِرُ به مركوباً! فنَفَذَ العَرَقُ من ظهرِهِ إليها، فأثَّرَ فيها البَلَلَ، وهي ببعض المكتباتِ الموقوفةِ ببغداد، وإذا رآها من لا يَعرف صُورةَ الحال فيها، ظَنَّ أنها غريقة، وليس بها سِوَى عَرَقِ الخطيبِ التبريزي، رحمه الله، ورَعَى له اجتهادَهُ في طلب العلم».

٣٨ ـ وجاء في «الأنساب» للسمعاني[٤]، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي[٥]، في ترجمة أبي الفِتيان (عُمَر بن عبد الكريم بن سَعْدُوْيَه الدِّهِسْتَاني الرَّوَّاسيّ)، الحافظ الجوَّال، المولود سنة ٤٢٨، والمتوفى سنة ٥٠٣ رحمه الله تعالى:

«أحَدُ حفاظ عصره، وكان ممن رَحَل وجَمَع وكَتَب بخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر والجزيرة. وقيل له: الرَّوَّاسيّ، لأن والده كان يَبيعُ الرُّؤوسَ بدِهِسْتان، فاتّفَقَ دخولُ أبـي مسعود أحمد بن محمد بن عبد الله البَجَلي الرازي دِهِسْتانَ، واشترى من والده أبي الحسن رَأْساً ليأكلَه، فقال له أبو الحسن: أَراكَ رجلاً من أهل العلم، ويَقْبُحُ أن تَجلِسَ في دُكَّاني، فادْخُل المسجدَ حتى يَجيئك الرأسُ.

---

(١) ٢٠ : ٢٥.

(٢) ١٩ : ٢٦٩.

(٣) وهو مطبوع بالقاهرة في خمسة عشر مجلداً ضخماً، ومُسْتَدرَكُهُ في مجلد.

(٤) ٦ : ١٧٩ في نسبة (الرَّوَّاسِـي).

(٥) ٤ : ١٢٣٧.

فلما قَعَد في المسجد نفَّذ إليه رأساً حَسَناً مشوياً، مع الخبزِ النظيفِ والخَلِّ والبَقْل، على يد ابنِهِ عُمَر، وكان صبياً صغيراً، فنَظَر أبو مسعود إلى تلك الحالة فاستَحسَن من الرَّوَّاس ذلك، فلما فَرَغ من الأكل شَكَر الروَّاس، وقال: أحسنتَ إليَّ، وليس معي شيء أُكافئك! فهل لك في أن تُسَلِّمَ ابنَك إليَّ حتى أُسْمِعَه حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففرِحَ أبوه بذلك، وحَمَل أبو مسعود عمرَ معه إلى شيوخ دِهِسْتان، وسَمَّعَه الحديثَ، وأسمَعَه من نفسِه أيضاً شيئاً، وانفتَحَ عليه، وطابَتْ له هذه الصَّنْعَةُ، ورَحَل بنفسِهِ بعدَ ذلك، وأكثَرَ من الحديث، حتى سَمِعَ ما لم يَسمع أقرانُه.

قال ابنُ نُقْطَة: سَمِعتُ من غير واحد من أهل العلم: أنَّ أبا الفِتيان سَمِعَ من ثلاثةِ آلافِ شيخ وستِ مئة. وقال خُزَيمة بن علي المَرْوَزِيُّ الأَديب: سَقَطَتْ أصابعُ عُمَر الرَّوَّاسيِّ في الرحلةِ من شِدَّةِ البَرْدِ[1]!

قال الحافظ أبو جعفر محمد بن علي الهَمَذاني: ما رأيتُ في تلك الديار أحفَظَ من أبي الفتيان، لا بل في الدنيا كلِّها، كان كِتَاباً جَوَّالاً[2]، دارَ الدنيا في طلب الحديث، لقيتُه بمكة، ورأيتُ الشيوخ يُثنون عليه ويُحسِنون القولَ فيه، ثم لَقِيتُه بجُرْجَان وصار من إخواننا.

---

(١) اقرَأْ ما ترى وتفكَّر، كيف تجشَّم وتحمَّل وصَبَر، كأنَّ العلم عنده أغلى مما فَقَد، فالله يُعوِّضه ذلك في جنةِ عَدْن، مع النبيين والصديقين والشهداء، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

(٢) وقد سُئل الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، كما في ترجمته في «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ١٢: ٤٠٦، عن دَواءٍ لقوة الحفظ، فأجاب بما يلي:

«قال محمدُ بن أبي حاتم ورَّاقُ البخاري: بلَغَني أن أبا عبد الله شَرِبَ دواءً للحفظِ يقال له: بَلاَذُر، فقلتُ له يوماً خَلْوَةً: هل من دَوَاءٍ يَشربُهُ الرجلُ فينتفِعَ به للحفظ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبَلَ عليَّ وقالَ: لا أعلَمُ شيئاً أنفعَ للحفظِ من نَهْمَةِ الرجل، ومُداوَمةِ النظر». أي شِدَّةِ وَلَعِهِ بالعلم، وإدمانِ نظرِهِ في الكتب.

ويُستَفَادُ من هذا الجواب أن أبا عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، كان يَحفَظُ بالنظر، وهذه مِنحةٌ نادرة، يَخُصُّ الله بها بعضَ عبادِه، ولا تكونُ لكل ناظر.

وكان إماماً مبرِّزاً في هذا الفن، حتى رَوَى عنه شيخُه أبو بكر الخطيبُ البغدادي، وأبو حامد الغَزَاليُّ، وصَحَّحَ عليه «الصحيحين»، وأبو حفص عمر بن محمد الجُرْجاني، وخلقٌ كثير من أكابر المحدثين والفقهاءِ.

قال ابن ماكُوْلا: كَتَبَ الرَّوَّاسيُّ عني وكتبتُ عنه، ووجدتُه ذكياً. قال السمعاني: سمعت أحمد بن محمد السَّرَخْسِي يقول: لما قَدِمَ عُمَرُ الرَّوَّاسيُّ سَرَخْسَ حدَّث بها وأملَى، فحضره جماعةٌ كثيرة، فقال: أنا أكتبُ أسماءَ الجماعة على الأصل بخطي، وفي المجلس الثاني إذا حَضرَتْ الجماعةُ فأُثبِتُ أسماءَهم كلَّهم عن ظهرِ قلب[1]، وما أحتاجُ أن أسألَهم، وقيل: كانوا نحواً من سبعين نفساً.

قال عبد الغافر بن إسماعيل: عُمَرُ الرَّوَّاسيُّ مشهورٌ عارفٌ بطرق الحديث، كتَبَ الكثير، وجَمَع الأبوابَ، وصَنَّف، وكان سريعَ الكتابة، وكان على سيرة السلف مُقِلاً مُعْيِلاً، خَرَج من نيسابور إلى طُوْس، فأكرمه الغَزَاليُّ وأنزلَهُ عنده، وقَرَأَ عليه «الصحيح»، ثم سَرَّحَهُ. قال الدقَّاقُ في رسالته: إنَّ عمر حَدَّث بطُوْسَ «بصحيح مسلم» من غير أصلِه، وهذا أقبَحُ شيءٍ عند المحدثين.

ثم خَرَج من طُوْسَ إلى مَرْوَ، لزيارةِ الإمام أبي بكر السَّمْعاني ــ والدِ صاحب الأنساب ــ، وقد كان استدعاه ليأخذَ عنه ويَستفيدَ منه، فسار إليه، وقال: أُريدُ أن أَخرُجَ إلى مَرْو، وسَرَخْسُ على طريقي، وقد قيل: إنها مَقْبَرَةُ العلم! فلا أدري كيف يكون حالي بها، فأدركته مَنِيَّتُه بسَرَخْس، في ربيعٍ الآخِر سنة ثلاث وخمس مئة، كما هو مؤرَّخ على بَلاَطَةِ قبره رحمه الله تعالى»[2].

---

(١) وحفظُ الأسماء من أصعب المحفوظات، لعدم الترابط بينها، فللَّه درُّهُ ما أقوى حافظتَهُ!.

(٢) قلت: محلُّ الشاهد في هذا الخبر الطويل، هو سقوطُ أصابع عمر الرَّوَّاسيّ من شدة البرد في الرحلة لطلب العلم. وإنما استوعبتُ ترجمته بأطرافها هنا، لأنها حَوَتْ فوائدَ وفرائد:

١ ــ ففيها: قصةُ دخولِهِ في طلب العلم، وهي قصة طريفة، نشأت وكانت جزاءَ إحسانِ والدِهِ الروَّاسي وتكريمِهِ للعالمِ المحدِّث أبي مسعود البَجَلي، الذي جاء ليأكُلَ عنده رأساً في دُكَّانِه على الطريق، فأبَى له ذلك تكريماً لعلمه، وأكرمه بما قدَّمه إليه على أحسن وجه.

٣٩ ــ قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة الحافظ المُجَوِّد

= ٢ ــ وفيها: كثرةُ طوافِ الحافظ عمر الرَّوَّاسيّ في الأرض لتلقِّي العلم، بل قال أبو جعفر الهَمَذَاني: دَارَ الدنيا في طلبِ الحديث. وهو فقير كما تعلم، إذ كان والدُهُ رَوَّاساً يبيعُ الرُّؤُوس.

٣ ــ وفيها: كثرةُ عَدَدِ شيوخه، حتى بلغوا ٣٦٠٠ شيخ. وهذا عددٌ ضخم جداً، يُصوِّر لنا هذا الإنسانَ كيف كان كالنحلة الدائبة تطير إلى كل زهرة تَسْتَحْسِنُها، وكيف كان يَطُوفُ على أولئك الشيوخ في بِقاع الأرض، فكأنه أَلِفَ الاغترابَ والارتحال، حتى صارَتْ الغُربَةُ له وطناً، والنُّقلَةُ له مَسْكَناً، كما قيل:

وَمُشَتَّتِ العَزَماتِ لا يأوِي إلى سَكَنٍ ولا أَهْلٍ ولا جِيرانِ
أَلِفَ النَّوَى حتى كأنَّ رَحِيلَهُ للبَيْنِ رِحلَتُهُ إلى الأوطانِ

٤ ــ وفيها: روايةُ جملةٍ من أكابر شيوخه عنه، وهذا عنوانُ رفعتِهِ في المعرفة وشَرَفِ مَقامِهِ في التحصيل، حتى احتاج إلى علمِهِ شيوخُه الفحول، كالخطيب البغدادي وابنِ مَاكُوْلا.

٥ ــ وفيها: وَصْفُ لِقُوَّةِ حفظِهِ العجيب، حتى قيل فيه: كِتَابٌ جَوَّال، وحتى إنه حَفِظَ أسماءَ الطلبة الحاضرين لسماعِهِ من مرةٍ واحدة، وكانوا نحواً من سبعين طالباً.

٦ ــ وفيها من الفرائد: سَمَاعُ الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى «الصحيحين» عليه، وهو غيرُ سماعِهِ «صحيحَ البخاري» من أبي سَهْل الحَفْصي. وهي لُمْعَةٌ غالية في حياة الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى.

٧ ــ وفيها: إكرامُ الغزالي الصوفي للمحدِّث السِّلَفِي، وبيانُ ما كان بينهما من تسامُحٍ ومُكارَمَةٍ وتقدير.

٨ ــ وفيها أنَّ عُمَر الرَّوَّاسيَّ كان فقيراً مُقِلاًّ مُعْيِلاً ذا عِيالٍ وأُسْرةٍ كبيرة على سُنَّة علماء السلف.

٩ ــ وفيها: أنَّ المحدِّثين يَستنكرون أن يُحدِّث الحافظُ المحدِّثُ من نسخةِ كتابٍ غيرِ النسخة التي قَرَأَ ذلك الكتابَ فيها وسَمِعَه بها. وهذا عنوانُ زيادةِ الضبطِ عندهم.

١٠ ــ وفيها: التَّأْريخُ للوفاةِ وكتابتُهُ على بَلاَطَةِ القَبْرِ من القرنِ الخامس للهجرة.

١١ ــ وفيها: سُقوطُ أصابعِهِ من البرد في سبيل تحصيل العلم! فما أشدَّ هذا الشوقَ العلميَّ في قلبه! اللَّهُ هذا الشَّوْقُ كيف يُطاقُ؟! وسيأتي في الخبر ٤١ ذهابُ رِجْلِ الزمخشري من البرد.

وصَدَق ابنُ الرومي إذ يقول:

لولا عَجَائبُ صُنعِ اللَّهِ ما نَبَتَتْ تلك الفضائلُ في لَحْمٍ ولا عَصَبِ

(١) ٤: ١٢٨٧.

اليُوْنَارْتي (أبي نصر الحسن بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني)، المولود سنة ٤٦٦، والمتوفى سنة ٥٢٧ رحمه الله تعالى:

«قال السمعاني: سألتُ إسماعيلَ الحافظ ــ أبا القاسم إسماعيلَ بنَ محمد التَّيْمي الأصبهانيَّ الملقَّبَ بقِوَام السُّنَّة ــ عن اليُوْنارْتي؟ فقال: رَحَل إلى ابنِ خَلَف الشيرازي، وكان آخِرَ من رَحَل إليه، ثم رَحَل بعدَهُ عبدُ الرحمن بن أحمد الباغْبَاني مع أبيه، فقال: دخلتُ نيسابور وأنا أَعدُو إلى بيت أحمد بن خَلَف! فلَقِيتُ اليُوْنَارْتي فعاتَبَني وقال: تعالَ، أُطْعِمُك أوَّلاً، فقدَّمَ طعاماً، وأَكَلْنا، وأَخرَج لي مسموعاتِه من ابنِ خَلَف، وقال: مات ودَفنتُه! قال عبدُ الرحمن: فكادَتْ مَرارَتي تنشقُّ!!». انتهى.

قال عبد الفتاح: رحم الله السالفين، ما أشدَّ حِرصَهم على لقاء الشيوخ؟! وما أشدَّ حُزنَ قلوبهم على فواتِ لقائهم!! وقد صاحَبَتْهم هذه الحسراتُ إلى القبور! وما أصدَقَ ما قيل، في هذا السبيل:

ولم يَتَّفِق حتى مَضَى لِسَبِيلِهِ وكم حَسَراتٍ في بُطونِ المَقَابرِ!

٤٠ ــ وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة»[1]، في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري البزَّاز) البغدادي الحافظ المعمَّر، المعروف بقاضي المارستان، المولود سنة ٤٤٢، والمتوفى سنة ٥٣٥ رحمه الله تعالى:

«قال ابنُ السمعاني ــ تلميذُهُ فيه ــ: عارفٌ بالعلوم، متفنن، حسَنُ الكلام، حُلوُ المنطق، مليحُ المُحاوَرَة، ما رأيتُ أجمعَ للفنون منه، نَظَر في كل علم، وكان سريعَ النَّسْخ، حسَنَ القراءةِ للحديث، سَمِعتُه يقول: ما ضيَّعتُ ساعةً من عُمري في لهوٍ أو لَعِب.

وسمعتُهُ يقول: أسَرَتْـني الروم ــ وكان في سَفَر ــ، وبَقِيتُ في الأَسْر سَنَةً ونصفاً، وكان خمسةَ أشهرٍ الغُلُّ في عُنُقي، والسلاسِلُ على يديَّ ورِجْليَّ، وكانوا يقولون لي: قُلْ: المَسِيحُ ابنُ الله، حتى نَفعَل ونَصنَعَ في حقك، فامتنعتُ وما قلتُ. ووَقْتَ أن

---

(١) ١: ١٩٣.

حُبِستُ كان ثَمَّ مُعَلِّمٌ يُعلِّم الصبيان الخطَّ بالرومية، فتعلَّمتُ في الحَبْسِ الخطَّ الروميّ».

٤١ ــ وقال القاضي ابن خلكان في «وفيات الأعيان»(١)، في ترجمة إمام العربية وعلومها (محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري) المولود سنة ٤٦٧، والمتوفى سنة ٥٣٨ رحمه الله تعالى:

«سمعتُ من بعض المشايخ أنَّ إحدى رجليه ــ أي الزمخشري ــ كانت ساقطة، وأنَّه كان يمشي في جَارِنِ خَشَبٍ، وكان سَبَبُ سُقوطِها، أنه كان في بعضِ أسفارِهِ ببلاد خُوارَزْمَ أصابه ثَلْجٌ كثير وبَرْدٌ شديدٌ في الطريق، فسَقَطَتْ منه رِجلُهُ، وأنه كان بيده مَحْضَرٌ فيه شهادةُ خلقٍ كثيرٍ ممن اطَّلعوا على حقيقةِ ذلك، خوفاً من أن يَظنَّ مَنْ لم يَعلم صُورةَ الحال، أنها قُطِعَتْ لِريبةٍ.

والثَّلْجُ والبَرْدُ كثيراً ما يُؤثِّرُ في الأطرافِ في تلك البلاد فتَسقُط! خصوصاً خُوارزمَ فإنها في غايةِ البَرْد، ولقد شاهَدتُ خلقاً كثيراً ممن سَقطت أطرافُهم بهذا السبب، فلا يَستبعدُهُ من لا يَعرفه»(٢). انتهى. ثم ذكَر ابنُ خلكان سبباً آخَرَ لانقطاعِ رجل الزمخشري.

٤٢ ــ وقال الحافظ الذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء»(٣)، في ترجمة الإمام أبي الوَقْت السِّجْزِي: «الشيخُ الإمامُ الزاهدُ الخيِّرُ الصُّوفيُّ، شيخُ الإسلام، مُسنِدُ الآفاق، أبو الوقت عبدُ الأوَّلِ بنُ الشيخ المحدِّث المعمَّرِ أبي عبد الله عيسى بن شُعَيب بن إبراهيم السِّجْزِي، ثم الهَرَوي المَالِيني.

---

(١) ٢: ٨٢.

(٢) وتقدم في الخبر ٣٨ أن الحافظ أبا الفتيان الدِّهِسْتَاني الرَّوَّاسي، سَقَطَتْ أصابعُهُ في الرحلة من شِدَّةِ البَرْد. وسمعتُ من العلامة المجاهد الشيخ محمد أمين الحُسَيني مفتي فلسطين رحمه الله تعالى، أنه كان في موسكو وقت الشتاء، فشاهَدَ رجلاً يَمسَحُ أُذُنَيْهِ، فخرَجَتا في يَدِهِ من شِدَّةِ البَرْد!

(٣) ٢٠: ٣٠٣ ــ ٣٠٩.

ولد في سنة ٤٥٨، وسَمِعَ في سنة خمس وستين وأربع مئة، فكان له من العمر سَبْعُ سنين، سَمِعَ من جمال الإسلام أبي الحسن عبدِ الرحمن بن محمد الداووديّ «الصحيحَ»، وكتابَ الدارِمي، و«منتخبَ مسند عبد بن حُمَيد» ببُوْشَنْج، وسَمِعَ من الجم الغفير من كبار محدثي زمانه. . .

وحدَّث بخراسان، وأصبهان، وكِرْمان، وهَمَذان، وبغداد، وتكاثَرَ عليه الطلبة، واشتهر حديثُه، وبَعُدَ صِيتُه، وانتهى إليه عُلوُّ الإسناد.

وحدَّث عنه ابنُ عساكر، والسمعاني، وابنُ الجوزي، ويوسفُ بن أحمد الشِّيرَازِيّ، وارتَحَل إليه إلى كِرمان، وسفيانُ بن إبراهيم بن مَنْدَهْ، وأبو ذَرّ سُهَيل بن محمد البُوْشَنْجي، وخلائقُ لا يُحصَون، . . . ـ ذَكَر الذهبي جملةً كبيرةً منهم بأسمائهم ـ .

قال زَكيُّ الدين البِرْزالي: طاف أبو الوقت العراقَ وخُوزسْتان، وحدَّث بهَرَاةَ ومالِين وبُوشَنْج وكِرْمان ويَزْدَ وأصبهان والكَرْج وفارسَ وهمَذان، وقعَدَ بين يديه الحُفَّاظُ والوزراء، وكان عنده كتبٌ وأجزاء ـ كانت معه أصولُهُ فحدَّث منها ـ ، سَمِعَ عليه من لا يُحصَى ولا يُحصَر.

قال السمعاني تلميذُه: شيخٌ صالح، حسَنُ السَّمْتِ والأخلاق، متودِّدٌ متواضع، سليمُ الجانب، استَسْعَدَ بصحبة الإمام عبدِ الله الأنصاري ببُوشَنْج، وخدَمَه مدةً، وسافر إلى العراق وخُوزسْتَان والبصرة، نَزَل بغدادَ برِباط البِسْطامِي فيما حكاهُ لي، وسَمِعتُ منه بهَرَاة ومالِين. وكان صَبُوراً على القراءة، محباً للرواية، حدَّث بـ «الصحيح»، و«مسند عبد بن حُمَيد»، و«الدارِميّ»: عِدَّةَ نُوَب.

وقال ابن الجوزي تلميذُهُ: كان صَبُوراً على القراءة، وكان صالحاً كثيرَ الذكر والتهجد والبكاء، على سَمْتِ السَّلَف، وعَزَم عامَ موتِهِ على الحج، وهيَّأ ما يَحتاجُ إليه، فمات.

وقال يوسفُ بن أحمد الشيرازيُّ تلميذُه، في كتابه «أربعين البلدان»: لمَّا رَحَلتُ إلى شيخنا رُحْلَةِ الدنيا ومُسنِد العصر أبي الوقت، قدَّرَ الله لي الوصولَ إليه في آخِرِ بلاد كِرْمان، فسلَّمتُ عليه، وقبَّلتُه، وجَلَستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدَمَك هذه البلادَ؟

قلتُ: كان قصدي إليك، ومُعَوَّلي بعدَ اللَّهِ عليك، وقد كتبتُ ما وقع إليَّ من حديثِك بقلمي، وسَعيتُ إليك بقَدَمي، لأُدرِكَ بركةَ أنفاسِك، وأَحظى بعُلوِّ إسنادِك.

فقال: وفَّقَك الله وإيانا لمرضاته، وجعَلَ سَعْيَنا له، وقَصْدَنا إليه، لو كنتَ عَرَفتني حقَّ معرفتي، لَمَا سلَّمتَ عليَّ، ولا جَلَستَ بين يدَيَّ، ثم بَكَى بُكاءً طويلاً، وأبكَى من حضره، ثم قال: اللهمَّ استُرنا بسِتْرِك الجميل، واجعَلْ تحت السِّتر ما تَرضَى به عَنَّا.

يا ولدي، تعلَمُ أني رحلتُ أيضاً لسماع «الصحيح» ماشياً مع والدي، من هَراةَ إلى الداوودِيِّ ببُوْشَنْج، ولي من العُمُر دون عَشْرِ سنين، فكان والدي يَضَعُ على يَدَيَّ حجَرَين، ويقول: احمِلْهما. فكنتُ من خَوْفِهِ أحفَظُهما بيدَيَّ، وأمشِي وهو يتأمَّلُني، فإذا رآني قد عَيِيتُ أمَرَني أن أُلقِيَ حجراً واحداً، فأُلقِي، ويَخِفُّ عني، فأمشِي إلى أن يتبيَّنَ له تَعَبي، فيقولَ لي: هل عَيِيتَ؟ فأخافُهُ وأقولُ: لا، فيقول: لِمَ تُقصِّرُ في المشي؟ فأُسرِعُ بين يديه ساعةً، ثم أَعجِزُ، فيأخُذُ الحجَرَ الآخَرَ فيُلقِيه، فأمشي حتى أعطَب، فحينئذٍ كان يأخذُني ويَحمِلُني[(١)].

وكنا نلتقي جماعةَ الفلَّاحين وغيرَهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفَعْ إلينا هذا الطِّفلَ نُركِبُه وإياك إلى بُوْشَنْج، فيقول والدي: معاذَ الله أن نَرْكَبَ في طلب أحاديثِ

(١) قال عبد الفتاح ــ غفر الله له، وأحسَن عمَلَه، وختَم له بالصالحات أجَلَه ــ: ما هذا الاشتعالُ بحُبِّ الحديث، وطَلَبِهِ والرغبةِ في تحصيلِهِ، وإسماعِهِ للطفل ابن سبع سنين؟! وما هذه الحِيلةُ النادرةُ، والوسيلةُ العجيبة: تحميلُهُ الحجَرَينِ ثم إلقاؤهما عنه واحداً بعدَ واحد، في تهوينِ المَشَقَّة عليه، وتنشيطِ العَزْمِ منه، وشَدِّ القُوَّةِ والدَّأْبِ فيه، على السَّيْرِ وقَطْعِ المسافات الطويلة؟! وهَمُّ أمثالِهِ اللَّعِبُ واللَّهْوُ بالمُلْهِيَات، وأكلُ الحلاوة والسُّكَّرات!!

وبمثل هذه الأشواقِ المُحرِقة، عاشَتْ السُّنَّةُ المطهرةُ في صدور هؤلاء المسلمين العَجَم في تلك البلاد، التي ليسَتْ لُغَتُها اللغةَ العربية، ولكنْ في قلوبِ أهلِها وعقولِ بَنِيها حُبُّ العربية وحُبُّ السُّنَّةِ النبوية، ورحم الله تعالى أستاذنا العلامة المحدِّث الفقيه الشيخ محمد بَدْر عَالَم الميرتهي الهندي، الذي كان يقول: التكلُّمُ بالعربية عبادة. فلذلك وظَّفوا نبوغَهم وعبقريتَهم ومَهارتَهم ومكتسبَاتِ حضارتِهم في حفظِ العربية، وخدمةِ السنة النبوية، وبهذا صارت تلك البلادُ عُشَّ المُحدِّثين، ومُتَوَجَّهَ كبار المُسنِدِين، ومَجْمَعَ الشيوخِ الناقدين، ومَنْبَعَ الأئمةِ الكبار اللغويين، ومَنبِتَ الأُدَباءِ والبلاغيين. ذلك الفضلُ من الله.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل نمشي، وإذا عجَزَ أركبتُه على رأسي إجلالاً لحديث رسولِ الله ورجاءَ ثوابِهِ. فكان ثمرةُ ذلك من حُسْنِ نِيَّتِهِ أني انتَفَعتُ بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبقَ من أقراني أحَدٌ سِوَاي، حتى صارَتْ الوفودُ ترحَلُ إليَّ من الأمصار.

ثم أشار إلى صاحبنا عبدِ الباقي بن عبد الجبار الهَرَوي أن يُقدِّمَ لي حَلْواءَ، فقلتُ: يا سَيِّدي، قِراءتي لجُزءِ أبي الجَهْم أحبُّ إليَّ من أكلِ الحلواء، فتبسَّم، وقال: إذا دَخَل الطعام، خَرَجَ الكلام، وقدَّم لنا صَحْناً فيه حلواءُ الفَانِيذ، فأكلنا، وأخرجتُ الجزء، وسألتُه إحضارَ الأصل فأحضَرهُ، فقرأتُ الجزء، وسُرِرتُ به، ويسَّر اللَّهُ سَمَاعَ «الصحيح» وغيره مِراراً. ولم أزل في صُحبتِهِ وخدمتِهِ إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء سادسَ ذي القَعْدَة سنة ٥٥٣، ودفناه بالشُّونِيزِيَّة، قال لي: تَدفِنُني تحت أقدامِ مشايخنا بالشُّونِيزِيَّة.

ولما احتُضِرَ سَنَدْتُه إلى صدري، وكان مُستَهْتَراً بالذكر ــ أي لَهِجاً مُنْهَمِكاً بالذكر ــ، فدَخَل عليه محمد بنُ القاسم الصُّوفي، وأكبَّ عليه، وقال: يا سيدي، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «من كان آخِرَ كلامِهِ لا إلَه إلا الله دَخَل الجنة»، فرَفَعَ طَرْفَهُ إليه وتَلَا: ﴿يا لَيْتَ قومي يَعْلَمون بما غَفَر لي رَبِّي وجَعَلَني من المُكْرَمِين﴾[1]. فدُهِشَ إليه هو ــ محمدُ بن القاسم ــ ومن حَضَرَ من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى خَتَم السورة وقال: الله الله الله، وتوفي وهو جالسٌ على السجَّادة رحمه الله تعالى».

٤٣ ــ وممن طوَّف البلدان والآفاق، ودَوَّخ الدنيا في طلب العلم وهو مشتاق: الإمامُ أبو سَعْد السمعاني ــ وأبو سَعِيد بالياء أيضاً كما ذكره ابنُ خَلِّكان ــ (عبد الكريم بن محمد المروزي)، النبيلُ الأصيل، سليلُ بيتِ العلم والعلماء، وتاجُ أُسرتِه حَفَظَةِ الكتاب والسنة وشيوخ الفقهاء، المولود سنة ٥٠٦ في مَرْو، والمتوفَّى فيها سنة ٥٦٢ عن ٥٦ سنة رحمه الله تعالى.

قد بلَغَ من التطواف والارتحال، ما لا يَخْطُرُ على بال، فكأنَّ أخبار ارتحالِهِ من الأساطير، ولكنها أصدقُ من الصُّبح المنير، نَهَض برِحلاتٍ قاربَتْ ٢٠ سنة، لا يَعرِفُ

---

(١) من سورة يس، الآيتان ٢٦ ــ ٢٧.

المَلَل ولا الكَلَل، ولا يَشبَعُ من النَّهَل والعَلَل، ولا يرتاحُ إلا بتوسيع الطوافِ واقتناص الفوائد، والازديادِ من الشيوخِ واكتساب الفرائد، حتى صار عَلَماً فريداً، وتاريخاً جديداً.

وأنا أسوق هنا جملاً مقطوفةً منتخَبَةً من ترجمتِهِ الوارفة الظلال، من أربعة كتب هي «طبقاتُ الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[١]، و«تذكرةُ الحفاظ» للذهبي[٢]، ومقدمةُ المحققة منيرة ناجي سالم لكتابه «التحبير في المعجم الكبير»[٣]، ومقدمة العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن المُعَلِّمي لكتاب «الأنساب»[٤].

قال التاج السبكي: «هو: عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، الحافظ أبو سَعْد بن الإمام أبي بكر بن الإمام أبي المظفر بن الإمام أبي منصور بن السمعاني. تاجُ الإسلام بن تاج الإسلام، مُحدِّثُ المشرِق، وصاحبُ التصانيفِ المفيدة المُمْتِعَة، والرياسةِ والسُّؤدَد والأصالة.

قال محمود الخُوارَزْمي: بيتُه أرفَعُ بيتٍ في بلاد الإسلام، وأعظَمُه وأقدَمُهُ في العلوم الشرعية والأمور الدينية. قال: وأسلافُ هذا البيتِ وأخلافُهُ قُدوةُ العلماء، وأُسوةُ الفضلاء، الإمامةُ مدفوعةٌ إليهم، والرياسةُ موقوفةٌ عليهم، تقدَّموا على أئمةِ زمانهم في الآفاق بالاستحقاق، وترأَّسُوا عليهم بالفضل والفقه، لا بالبذل والوقاحة. انتهى.

وُلد في الحادي والعشرين من شعبان سنة ست وخمس مئة بمَرْو. وحَمَلهُ والدُه الإمامُ أبو بكرٍ إلى نيسابور سنة تسع، وأحضَره السماعَ ــ وهو في السنة الرابعة ــ على عبد الغفار الشِّيرُوي، وأبي العلاء عُبَيدِ بن محمد القُشَيري، وجماعةٍ. وكان قد أحضره بمَرْو على أبي منصور محمد بن علي الكُرَاعي، وغيرِه.

---

(١) ٧: ١٨٠.

(٢) ٤: ١٣١٦.

(٣) ١: ١٩ ــ ٢٨.

(٤) ١٣ ــ ١٧ و ٢٤ ــ ٢٨.

ثم مات أبوه سنَةَ عشر، وأوصى ــ به ــ إلى الإمام إبراهيم المَرُّوذِي صاحب «التعليقة»، فتفقَّهَ أبو سعد عليه، وتهذَّب بأخلاقه، وتربّى بين أعمامِه وأهلِه. فلما راهَقَ أقبلَ على القرآنِ والفقه، وعُنِيَ بالحديث والسماع، واتسعَتْ رِحلتُه، فعمَّتْ بلادَ خُراسانَ وأصبهانَ وما وراءَ النهر، والعراقَ والحجازَ والشامَ وطَبَرِسْتان، وزارَ بيتَ المقدس وهو بأيدي النصارى، وحَجَّ مرتين.

سَمِعَ بنفسه من الفُرَاوِي، وزاهِرٍ الشَّحَّامي، وهِبَةِ الله السَّيِّدِي، وتميم الجُرْجَاني، وعبد الجبار الخُوَارِيّ، وإسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ، وعبد المنعم بن القُشَيري، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وعبد الرحمن بن محمد الشيباني القزَّاز، وخلائقَ يَطُولُ سَرْدُهم. قال ابن النجار: سمعتُ من يذكر أنَّ عَدَدَ شيوخه سبعةُ آلاف شيخ، وهذا شيء لم يَبلغه أحد.

وألَّف «معجم البلدانِ» التي سَمِعَ بها، وعاد إلى وطنه بمَرْوَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين، فتزوَّجَ، ووُلِدَ له أبو المظفَّر عبدُ الرحيم، فرَحَل به إلى نيسابور ونواحيها، وهَراةَ ونواحِيها، وبَلْخَ، وسَمَرْقَنْدَ، وبُخَارى، وخرَّج له «مُعْجَماً»، ثم عَادَ به إلى مَرْو، وألقى عَصَا السَّفَر بعدَما شَقَّ الأرضَ شَقّاً، وأقبَلَ على التصنيفِ والإملاءِ والوعظِ والتدريس.

سَمِعَ منه جماعةٌ من مشايخِهِ وأقرانِهِ، ورَوَى عنه الحافظُ الأكبر أبو القاسم بن عساكر، وابنُه القاسمُ بن عساكر، وأبو أحمد بن سُكَيْنَة، وعبد العزيز بن مَنِيْنَا، وأبو رَوْح عبد المُعِزِّ الهَرَوِي، وابنُه أبو المظفر عبدُ الرحيم بن السمعاني، ويوسفُ بن المبارك الخَفَّاف، وآخَرُون.

عاد بعدَ ما دَوَّخ الأرضَ سَفَراً، إلى بلدِهِ مَرْو، وأقام مشتغلاً بالجمع والتصنيف، والتحديثِ والتدريس، بالمدرسة العَمِيديَّة، ونَشَر العلمَ إلى أن تُوفِّيَ إماماً من أئمةِ المسلمين في كثيرٍ من العلوم، أَمَسُّها به الحديثُ على اختلافِ فنونه.

وذكره صاحبُه ورفيقُه الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر ــ في تاريخ دمشق ــ، وأَثنَى عليه، وقال: هو الآن شيخُ خُراسان غيرَ مدافَع، عن صدقٍ ومعرفةٍ وكثرةِ سماعٍ للأجزاء، وكُتُبٍ مصنَّفة، واللَّهُ يُبقِيهِ لنَشْر السُّنَّة، ويُوفقُهُ لأعمالِ أهلِ الجنَّة.

توفي الحافظ أبو سَعْد في الثُلث الأخير من ليلة غُرَّة ربيعٍ الأول، سنةَ اثنتين وستين وخمسٍ مئة بمدينة مَرْو، ودُفِنَ بسنجدان مقبرةِ مرو، رحمه الله تعالى». انتهى.

وقال الحافظ الذهبي بعدَ أن أثنى عليه، ووَصَفَه بالألقابِ الرفيعة: «وكان ذكيّاً فَهِماً، سريعَ الكتابة مليحَها، دَرَّسَ وأَفْتَى، ووَعَظ وأملَى، وكتَبَ عمن هَبَّ ودَرَج، وكان ثقةً، حافظاً، حُجَّة، واسعَ الرحلة، عَدْلاً، ديِّناً، جميلَ السيرة، حَسَن الصُّحبة، كثيرَ المحفوظ.

قال ابنُ النجار ــ الحافظُ الإمامُ مؤرِّخُ عصره محمد بن محمود البغدادي[١] ــ: سَمِعتُ من يَذكُر أنَّ عَدَدَ شيوخِهِ سبعةُ آلافِ شيخ، وهذا شيء لم يَبلغه أحد، وكان مليحَ التصانيف، كثيرَ النِّشْوَار والأناشيد[٢]، لطيفَ المِزاح، ظريفاً، حافظاً، واسعَ الرحلة، ثقةً صدوقاً، ديِّناً، سَمِعَ منه مشايخُه وأقرانُه، وحدَّثَنا عنه جماعة». انتهى.

وجاء في المقدمة، التي كتَبَتْها الأستاذة منيرة ناجي سالم، من العراق، لكتابه «التحبير في المعجم الكبير» ما قَطفتُ منه ما يلي مع شيء من الإضافة والتعديل:

«وُلِدَ الإمامُ الحافظ أبو سَعْد السمعاني التميميُّ المَرْوَزِيُّ الشافعي، في مدينة مَرْو من مُدنِ خراسان، ونَشَأ في أُسرةٍ كلُّ أفرادِها ما بين عالمٍ، وحافظٍ، ومحدِّثٍ،

---

(١) ستأتي ترجمتُه الحافلة وخبرُه في طُولِ رحلته ٢٧ سنة، في الخبر الآتي ٤٧.

(٢) في «الصحاح» للجوهري في (نشر): «النِّشْوَارُ ما تُبقيه الدابَّةُ من العَلَف. فارسي مُعرَّب». انتهى. ومثله في «لسان العرب» و«القاموس» و«تاج العروس» و«معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة» لأدّي شِير ص ١٥٣. فلعله يعني بهذا أنه كان كثيرَ المحادثةِ بالفوائدِ والمُلَحِ مع أصحابِه، كما يستفاد من السياق، والله أعلم.

والقاضي أبو علي المُحَسِّنُ بنُ علي التنوخي الأديب، المتوفى سنة ٣٨٤، سَمَّى كتاباً له في الأخبار والحكايات والطرائف والمستملحات: «نِشْوَار المحاضرة».

قال محقِّقُه العلامة المحامي الأستاذ عَبُّود الشالَجي في مقدمته للكتاب ص ٥ «وقدَّمَ المؤلِّفُ كتابَه النِّشوارَ للقراء، بأنه «كتاب يشتملُ على ما تناثَرَ من أفواهِ الرجال، وما دَارَ بينهم في المجالس. وقال: إنه سَمَّاه: (نِشْوَار المحاضرة)، لأن النشوار ما يَظهَرُ من كلامٍ حسن، يقال: إنَّ لفلانٍ نِشْواراً حَسَناً أي كلاماً حسناً». انتهى.

وفقيهٍ، وأديبٍ، وواعظٍ، وخطيب، فغُذِّي بالعلم من مناهلِهِ الثَّرَّة، وأُدرِجَ في مَدَارج الفقهاءِ والعلماءِ في مُقْتَبَل شبابِه.

وقد اعتَنَى به والدُه عناية كبيرة، فبكَّر بإسماعِهِ من أجلَّةِ مشايخ مَرْو، ثم رَحَل به إلى نيسابور بَلَدِ الحديثِ والمحدثين، في سنة ٥٠٩، وكانت سِنُّه آنذاك بلغَتْ الثالثةَ والنصفَ من العمر، فكان والده في مَرْوَ وفي نيسابور يُحضِرُه مجالسَ المحدثين، ويكتُبُ له ما أَمْلَوْه، أو ما قُرِىء عليهم في تلك المجالس وهو حاضر، ويُثبِتُ ذلكَ ويُصحِّحُه، ليكون أصلاً يَرجعُ إليه ولدُه، ويَروِي منه إذا كَبِرَ، وكان يأخذُ له الإِجازاتِ منهم، وبهذا حَصَل لولدِهِ عُلوُّ الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإِجازاتُ والسماعاتُ والمقروءاتُ أساسَ مادَّتِهِ العلميةِ الأُولى.

أما شيوخُه فتَلقَّى أبو سَعْد علومَ الحديث، وشَتَّى ألوانِ المعرفةِ على عَدَدٍ كبيرٍ من المشايخ، وكان من بين مشايخه: المحدِّثون، والحُفَّاظ، والفقهاء، والمناظرون، والمفسرون، والمقرؤون، والوعَّاظ، والأدباء، والشعراء، والنَّحْوِيُّون. قال ابنُ النجار: سَمِعتُ من يَذكُرُ أن عدَدَ شيوخِهِ سبعةُ آلاف شيخ، وهذا شيء لم يَبلغه أحد.

وقد تطلَّبَ لقاؤه هذا العَدَدَ الكبيرَ من العلماء: جُهْداً كبيراً، واستطاع أبو سعد أن يَتحملَ المشاقَّ المُضْنِيَة، ويُذلِّلَ العَقَباتِ التي كانت تُواجهُهُ في لِقاءِ المشايخ، ولم يكتفِ بلقاءِ مشايخ المدينة التي كان يَرْحَلُ إليها، بل كان يَلْقَى مشايخَ القُرَى والمَحَالِّ، ويَنْتَقِلُ من قريةٍ إلى أخرى، ومن مَحَلَّةٍ إلى أخرى، وكذلك كان يَتَنَقَّلُ في الدُّرُوبِ، والسِّككِ، والأبوابِ، والدكاكين، وحتى في طريقِ الرحلةِ كان يَسمعُ ويُذاكرُ العلماءَ.

وقد رحل أبو سعد إلى أكثر من مئةِ مدينة، سأسوقُ أسماءَها فيما بعد، وكان له رحلاتٌ كثيرة أهمُّها ثلاثُ رِحَل.

الرِّحلة الأولى، وكانت مُدَّتها نحوَ عشر سنوات، وكانت من خراسان شرقاً إلى الشام غرباً، ومن العراق شِمالاً إلى الحجاز جَنُوباً، وامتدَّتْ من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٨.

قال عبد الفتاح: وأدَعُ العلامةَ الشيخَ عبدَ الرحمن المُعلِّمي، يُحدِّثُنا عن طَرَفٍ من رحلته هذه، فأنقلُ كلامَه، قال رحمه الله تعالى:

«توفي والدُ أبي سعد السمعاني وعُمرُ وَلَدِهِ نحوُ ثلاثِ سنين ونصف، فكفَلَ أبا سعد وَصِيُّهُ وعَمَّاه، وكلُّهم من خيار العلماء، فاعتَنَوْا به خيرَ عناية، وحَفِظَ القرآن، وتعلَّم الفقهَ، والعربيةَ، والأدبَ، وصار يسمع الحديثَ مع عمَّيهِ، ثم بعد أن قارَبَ العشرين من عمره، صار يَسمَعُ بنفسِهِ، غير أنهم لم يَسمحوا له بالرحلة إلّا بأَخَرةٍ.

وقد ألحَّ عليهم أبو سعد أن يأذنوا له بالرحلة إلى نيسابور، ليَسمعِ «صحيح مسلم» من المتفرِّدِ به، المُعمَّرِ الثقةِ الفاضل أبي عبد الله محمد بن الفَضْل الفُراوي[1]، الذي طال عُمره ــ وُلِد سنة ٤٤١، وتوفي سنة ٥٣٠ ــ وأصبح يُتوَقَّعُ كلَّ يوم موتُه، وكان مع جلالته في العلم قد تَفرَّدَ بـ «صحيح مسلم» بسندٍ عالٍ جليل، ولم يكن بينه وبين مسلم إلا ثلاثةٌ، مع أنَّ بين وَفَاتَيْهِما نحوَ مئتين وسبعين سنة، وإذا مات ولم يَسمع منه أبو سعد، كانت حسرةً في قلبه لا تندمل، فلم يأذنوا له حتى جاوز عُمرُهُ الثانيةَ والعشرين من السنين، ولم يَسمحوا له بالسفر وَحْدَه، بل سافَرَ معه عمُّه أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني.

وضاق صَدْرُ أبي سَعْد بتلك العناية الحبيبة الكريهة، فلما أتمَّ سماعَ «صحيح مسلم» في نيسابور على الفُراوي، أراد عمُّه أن يَرجع به إلى وطنِهِ، فلم يَسع أبا سعد إلا أن يَختبِىء! أملاً أن يَملَّ عَمُّهُ الانتظارَ فيَذهبَ ويَدعَهُ يَطُوفُ في مراكزِ العلم كما يُحبُّ، لكنَّ العمَّ كان أصبَرَ منه، لَزِمَ نيسابور حتى مَلَّ أبو سعد الاختباءَ، فظهَرَ وطاوَعَ عَمَّهُ في الرجوع معه.

وكأنه بقي يُحاجُّ عمَّه ويُوضِّحُ له أنه مضطر إلى الرحلة، وأنه لا داعي لِمَنْعِهِ من الغُربةِ وحدَه، ويمكن أن يكون كاتَبَ عَمَّهُ الآخَرَ والوصيَّ، فعاد جوابُهما بالإذنِ له. نعم أَذِنَ له عَمُّهُ وهما بطُوْس.

---

(١) قال عبد الفتاح: انظر ترجمته المُشْرِقة العظيمة الرفيعة في مقدمة «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم» ١: ٧ ــ ٨. ومن العجيب جداً أن الحافظ الذهبي لم يترجم له في «تذكرة الحفاظ»!

فرَجَع أبو سَعْد إلى نيسابور، وأقام بها سنةً، ثم ذَهَب يَطوفُ في مراكز العلم في الدنيا عِدَّةَ سنوات، واتَّسَعَتْ رحلتُه، ومات عمَّاهُ والوصيُّ عليه بمَرْوَ، وهو في الرحلة. وأسوقُ هنا ما قاله هو في رَسْم (السَّمْعاني) من كتابه «الأنساب»، وهو يتحدث عن (البيتِ السمعاني) آبائِه وجُدودِه وأعمامِهِ:

«... وعمِّي الآخَرُ الأصغَرُ: أستاذي ومن أَخذتُ عنه الفقهَ، وعلَّقتُ عليه الخلافَ وبعضَ المذهب، أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني، كان إماماً فاضلاً عالماً مناظراً، مفتياً واعظاً، مليحَ الوعظ، شاعراً حَسنَ الشعر، له فضائلُ جَمَّة، ومناقبُ كثيرة، وكان حَيِيّاً وَقُوراً، ثابتاً، حَمُولاً صَبُوراً.

انتَخَبْتُ عليه أوراقاً، وقرأتُ عليه عن شيوخه، وخَرَجْتُ معه إلى سَرَخْس، وانصرفنا إلى مَرْو، وخرجنا في شَوَّالٍ سنةَ تسع وعشرين إلى نيسابور، وكان خُروجُهُ بسببي، لأني رَغبتُ في الرحلةِ لسماع «حديث» مسلم بن الحجاج القشيري، فسَمِعَ معي «الصحيح».

وعزَمَ على الرجوع إلى الوطن، وتأخَّرتُ عنه مُخْتَفِياً لأُقيم بنيسابور بعدَ خروجه! فصَبَر إلى أن ظَهَرْتُ، ورجعتُ معه إلى طُوس، وانصرفتُ بإذنه إلى نيسابور، ورجَعَ هو إلى مَرْوَ، وأقمتُ بنيسابور سنةً، وخرجتُ منها إلى أصبهان، ولم أره بعدَ ذلك، وتُوفِّيَ في سنة ٥٣٤، وَصَل إليَّ نَعْيُه وأنا ببغداد! وعَقَدْنا له العَزَاءَ بها». انتهى كلام المُعلِّمي.

والرحلةُ الثانيةُ، وكانت مدتها سِتَّ سنوات، من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٥٤٦، وقد اقتَصَر فيها على زيارتِهِ أغلبَ مُدنِ خراسان كنيسابور، وسَرَخْس، ومَرْوِ الرُّوْذ، وهَرَاة، وبَلْخ، ونَسَا.

واصطحب معه في رحلتِهِ هذه ولَدَه أبا المظفَّر عبدَ الرحيم، المولود بنيسابور في آخر سنة ٥٣٧، وكان له من العمر نحوُ ثلاثِ سنوات، فطاف به بلادَ خراسان وما وراءَ النهر، وأحضَرَه مجالسَ سماع الحديث هناك، وحَصَّلَ له النُّسَخَ من الكتب والأجزاء التي أُحضِرَ مجالسَ سَمَاعِها، وجَمَع له «مُعْجَماً» لمشايخه في ثمانيةَ عَشَرَ جُزءاً، و «عَوَالِي» من الأحاديث التي أُسمِعَها في مجلدين ضخمين.

والرحلةُ الثالثةُ، وكانت مُدَّتُها أربعَ سنوات، كانت في سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٢، إلى بِلاد ما وراءَ النهر، فزار فيها سَمَرْقَنْدَ، وبُخارى، ونَسَفَ، وغيرَها، وفي طريق عودته إلى مَرْو زار مدينةَ خُوَارَزْمَ. ثم استقرَّ في وطنِهِ إلى آخر حياتِهِ في سنة ٥٦٢ رحمه الله تعالى. فكانت مُدَّةُ رحلاتِه الثلاث نحوَ عشرين سنة؛ وكان تنقُّلُهُ فيها كما قيل:

يَوْمٌ بحُزْوَى ويومٌ بالعقِيقِ ويَوْ مٌ بالعُذَيْبِ ويومٌ بالخُلَيْصاءِ

وإليك أسماءَ أشهرِ المُدُنِ والقُرَى التي رَحَلَ إليها، مرتبةً على حروفِ المعجم:

(أ) أَبِيْوَرْد[١]، أَرْغِيَان، أَسْتَراباذ، أَسَدَاباذ، إِسْفَرايِين، أَشْفُورقان، أَصْبَهان، آمُل طَبَرِسْتان، آمُل خُوارَزْم، الأَنْبار، أَوَانا.

(ب) باذَغِيْس، بَاشِينَان، بالِس، بالُوز، بُخَارى، بَذَش، بَذِيْخون، البَرَّانِيَّة، بَرْسُخان، بَرُوجِرْد، بِسْطام، البَصْرة، بَغْداد، بَغْشُور، بَلْخ، بَنْج دية، بُوْشَنْج، بيتُ المقدس، بَيْسان، بَيْهَق، بُشْتَنْقَان.

(ت) تِرْمِذ، تِكْرِيْت، تَلّ أبي حفص، تَلّ عَقْرَقُوف، تَلّ يَعْفَر، تُوْث.

(ج) جابِر، جَرْباذَقان، جُرجَان، جُرْوَاءان، جَلُولَتَيْن، جورقان، جُوزْجان، جُوزْدَان، جَوْسَقان، جَيّ.

(ح) حِطِّين، الحَفَر، حَلَب، حُلوان، حَمَاة، حِمْص.

(خ) خابَرَان، خاخَسْر، خالَبْرْزن، خَرْجَان، خَرْجِرْد، خُوَار الرَّيّ، خُوارَزْم، خُوْجان.

(د) دارَيَّا، دامِغان، دَبِير، دَرْزِيْجان، دَرْغَم، الدَّزَق العُلْيا، دِمَشق، دِمِمَا، دَوْنَق، دَيْر الحافِر، دِيْوَانْجَة.

---

(١) لم تكن هذه الأسماء مضبوطة بالشكل في مقدمة المحقِّقَة الأستاذة منيرة ناجي، وضبطتُها وصححتُ تحريفَ ما ظننتُه محرَّفاً فيها، بالاعتماد على كتاب «مراصد الاطِّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لعبد المؤمن البغدادي. وبقِيَتْ خمسةُ أسماءٍ لم أرها فيه، فأبقيتُها كما كُتِبَتْ ولم أضبطها، وهي: «البرانيه، جاغرق، شتنقان، فندون، نيزب».

(ر) الرَّافِقَة، راوَنير، الرَّبَذَة، رَبَيْنَحن، رَقَّة بغداد، رَقَّة الجزيرة، رُنَان، رُوذْبَار، الرَّيّ.

(ز) زُبَالة، زَمَخْشَر، زَمْلَكان، زَنْدَخان، زَنْدَرزن.

(س) سارِية، ساوَة، سَرَخْس، سَكَجْكَث، سِمْنَان، سِنْجار، سِنْجَبَسْت، السِّيْن.

(ش) شُلاَنْجِرْد، شَوْكَان.

(ص) صاغَرْج ويقال: ساغرج، صَالِحان، صَرْصَر، صَرِيفِين، صَنْعاء دمشق، صُوْر.

(ط) طابَران، طاسَبَنْدَى، طالَقَان، طَبَرِسْتان، طَمِيْسَة، طُوْرِين، طُوْسَن، طِهْران.

(ع) عَسْقَلاَن، العَقْر، عَكَّا، عُكْبَرا.

(ف) فَاز، فُراوَة، فَرْخوْرذِيزَة، فَلْخار، فَمُ الصِّلْح، فُنْدِين، فَيْد.

(ق) قَشَان، قَرْمِيْسِين، قَسَامِل، قُسْطانَة، قَصْران، قَصْر كِنْكِوَر، قِنَّسْرِين، قُوْمِس، قَيْسَارِيَّة.

(ك) كَار، كازيَّاركاه، الكَرَج، كَرْمِيْنِيَة، الكُوفَة.

(م) مَاربانَان، مَالِيْن هَرَاة، ما وَراءَ النَّهْر، مَجْدآباذ، مَرْو الرُّوْذ، المَوْصِل، مِيْهَنَة.

(ن) نابُلُس، نامِش، نَسَا، نَسَف، نَصْرَاباذ، النُّعمانِيَّة، نُوْقان، نَهاوَنْد، النَّهْرَوان، نَيْرَب، نَيْسَابُور.

(و) واسِط العراق، واسِط طُوْس، وَخْشُهان، وَذَار، وَرْكَان، وَيْذَاباذ.

(هـ) هَراة، هَمَذَان»[١].

---

(١) هذه أشهر المُدُن والقُرى التي زارها أبو سعد السمعاني في رحلاته لتحصيل العلم، وهي شيء عُجَاب حقاً، ولكنه ليس فريداً به رحمه الله تعالى، بل له أشباه وأمثال، ومنهم: الإمامُ =

أما مؤلَّفاتُه النفيسة الغالية، وهي في علوم الحديث، والرجال، والتاريخ، والأنساب، والفقه، والأصول، والخلاف، والتفسير، والأخلاق، وغيرها، فقد بلغَتْ ٦٨ مصنَّفاً، كما ذكَرَتْ ذلك العالمة منيرة ناجي سالم في مقدمتها لكتاب «التحبير في المعجم الكبير»(١)، وأشارت إلى أنها ساقتها في قسم (الدراسة لكتاب التحبير)، ولم يكن هذا الكتاب بين يدي الآن، فأسوقُ أسماءَ أهَمِّها وجُلِّها من مقدمة المعلِّمي لكتاب «الأنساب»(٢) كما ذكرها هناك.

قال: «نَقَل ابنُ النجار أسماءَ مؤلفات أبي سَعْد ومَقَاديرَها، عن خَطِّ أبي سَعْد، فنسوقُها على ترتيبه:

١ ــ ذيل تاريخ بغداد للخطيب. أربعُ مِئَةِ طَاقَة. ــ قال الحافظ الذهبي: يقع

= الحافظ المفيد الرحَّال الدقَّاق (محمد بن عبد الواحد الأصبهاني) المتوفَّى قبلَه؛ في سنة ٥١٦ رحمه الله تعالى.

قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ٤: ١٢٥٦، في ترجمته: «وكان الدقَّاقُ صالحاً، فقيراً متعفِّفاً، صاحبَ سُنَّةٍ واتِّباع، وكان يقول: أوَّلُ ما أَمليتُ بسَرَخْس في سنة أربع وسبعين ــ أي وأربع مئة ــ، ودَخلتُ لطلب الحديث طُوس، وهَراةَ، وبَلْخَ، ومَرْوَ، وبُخَارى، وسَمَرْقَنْدَ، وكَرْمانَ، وجُرْجَانَ، ونيسابور». ثم قال الذهبي: «فما زال يَعُدُّ حتى سَمَّى **مِئةً وعشرين مكاناً**. ثم قال: فأما الذين كتبتُ عنهم بأصبهانَ فأكثرُ من ألفٍ إن شاء الله، والذين في الرحلةِ فأكثرُ من ألفٍ أخرى». انتهى.

قال القاضي ابنُ خَلِّكان في «الوَفَيات» ١: ٣٠١، في ترجمة أبي سعد السمعاني: «وقال في بعض «أماليه»: ووَدَّعَني عبدُ الله بنُ محمد بن غالب أبو محمد الجِيْلِيُّ الفقيهُ، نزيلُ الأنبار وبَكَى! وأنشدني:

ولمَّا بَرَزْنا لِتَوْدِيعِهِمْ ... بَكَوْا لُؤْلُؤاً وبَكَيْنا عَقِيقَا
أَدَارُوا علينا كُؤُوسَ الفِراقِ ... وهَيْهَاتَ مِن سُكْرِهَا أن نُفِيقَا
تولَّوْا فأَتْبَعْتُهم أدْمُعِي ... فصاحُوا الغَرِيقَ وصِحْتُ الحَرِيقَا!

(١) ١: ١٩.

(٢) ١: ٢٤ ــ ٢٨.

لي أنَّ الطاقَةَ نِصفُ كُرَّاس». نقله الزركلي في «الأعلام»(١)، وقال ابنُ خَلِّكان: نحوُ خمسةَ عشرَ مجلداً(٢).

٢ ــ تاريخ مَرْو. خمسُ مِئَةِ طاقة. وقال ابنُ خَلِّكان: يزيد على عشرين مجلَّداً.

٣ ــ طِراز الذَّهَب في أدَبِ الطَّلَب. مِئةٌ وخمسون طاقة.

٤ ــ الإسفار عن الأسفار. خمسٌ وعشرون طاقة.

٥ ــ الإملاء والاستملاء. خمسون طاقة. وهو مطبوع في ليدن. ومصور عنها في بيروت.

٦ ــ التذكرة والتبصرة. مئة وخمسون طاقة.

٧ ــ معجم البلدان. خمسون طاقة.

٨ ــ معجم الشيوخ. ثمانون طاقة.

٩ ــ تُحفة المسافر. مئة وخمسون طاقة.

١٠ ــ التُحَف والهدايا. خمس وعشرون طاقة.

١١ ــ عِزُّ العُزْلة. سبعون طاقة.

١٢ ــ الأدب في استعمال الحَسَب. خمس طاقات.

١٣ ــ المناسك. ستون طاقة.

١٤ ــ الدعوات الكبير. أربعون طاقة.

١٥ ــ الدعوات المَرْوِيَّة عن الحضرة النَّبَوِيَّة. خمس عشرة طاقة.

١٦ ــ الحثُّ على غسل اليدين. خمس طاقات.

١٧ ــ أفانين البساتين. خمس عشرة طاقة.

---

(١) ٤ : ١٧٩.

(٢) قال ابن خَلِّكان في «الوفَيَات» ٢ : ٢٣٠، في ترجمة (أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي): «عن أبي حَمْدون الطيِّب، قال: شَهِدتُ ابنَ أبي العتاهِيَة وقد كتَبَ عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألفِ مجلَّدٍ عن أبي عَمْرو بن العلاء خاصَّةً، فيكون ذلك عشرةَ آلافِ ورقة، لأنَّ تقديرَ المجلَّد عَشْرُ ورقات». انتهى كلامُ ابن خلكان.

وقال ابن النديم في كتابه «الفهرست» ص ٢٢٧ «فإذا قلنا: إنَّ شِعْرَ فلان عَشْرُ وَرَقات، فإنما عَنَيْنا بالوَرَقَةِ أن تكون سُلَيْمانية، ومقدارُ ما فيها عِشرون سَطْراً، أعني في صَفْحةِ الورقة».

١٨ــ دخول الحمَّام. خمس عشرة طاقة.

١٩ــ فضائلُ صلاة التسبيح. عشر طاقات.

٢٠ــ التحايا والهدايا. ست طاقات.

٢١ــ تُحفة العِيد، في الطبقات «العيدين». ثلاثون طاقة.

٢٢ــ فضل الديك. خمس طاقات.

٢٣ــ الرسائل والوسائل. خمس عشرة طاقة.

٢٤ــ صوم الأيام البِيض. خمس عشرة طاقة.

٢٥ــ سَلْوَةُ الأحباب ورحمة الأصحاب. خمس طاقات.

٢٦ــ التحبير في المعجم الكبير. ثلاث مئة طاقة. وقد طُبِعَ فَبَلَغَ مع التحقيق مجلدين ضخمين.

٢٧ــ فَرْطُ الغرام إلى ساكني الشام. خمس عشرة طاقة.

٢٨ــ مقام العلماء بين يدي الأمراء. إحدى عشرة طاقة.

٢٩ــ المساواة والمصافحة. ثلاث عشرة طاقة.

٣٠ــ ذكرى حبيب رَحَل، وبُشرى مَشِيب نَزَل. عشرون طاقة.

٣١ــ الأمالي الخمس مئة. مئتا طاقة.

٣٢ــ فوائد الموائد. مئتا طاقة.

٣٣ــ فضلُ الهِرَّة. ثلاث طاقات.

٣٤ــ الأخطار في ركوب البحار. سبع طاقات.

٣٥ــ الهديَّة. ثلاث طاقات.

٣٦ــ تاريخ الوفاة، للمتأخرين من الرواة. خمس عشرة طاقة.

٣٧ــ الأنساب. ثلاث مئة وخمسون طاقة.

٣٨ــ الأمالي. ستون طاقة.

٣٩ــ بُخَارُ بَخُورِ بُخَارَى. عشرون طاقة.

٤٠ــ تقديم الجِفان إلى الضيفان. سبعون طاقة.

٤١ــ صلاة الضحى. عشر طاقات.

٤٢ــ الصِّدْقُ في الصداقة.

٤٣ـ الرِّبحُ والخسارة في الكسب والتجارة.
٤٤ـ رفعُ الارتياب عن كتابة الكِتاب. أربع طاقات.
٤٥ـ النزوع إلى الأوطان، والنِزاع إلى الإخوان. خمس وثلاثون طاقة.
٤٦ـ حَثُّ الإمام على تخفيف الصلاة مع الإتمام. في طاقتين.
٤٧ـ لفتة المشتاق إلى ساكنِ العراق. أربع طاقات.
٤٨ـ السَّعْد والعَدّ لمن اكتَنَى بأبي سَعْد. ثلاثون طاقة.
٤٩ـ فضائل الشام. في طاقتين.
٥٠ـ فضل يس. في طاقتين.
٥١ـ كتاب الحلاوة.
٥٢ـ المعجم الذي ألَّفه لابنه أبي المظفر. في ثمانية عشر جزءاً.
٥٣ـ عوالي ابنِهِ أبي المظفر. خرَّجها أبو سعد لابنه. في مجلدين». انتهى كلامُ المُعلِّمي رحمه الله تعالى.

هذه أكثر مؤلفات أبي سعد السمعاني، وبقي منها ١٥ مصنَّفاً، وقد ألَّفها جميعَها في مدة لا تتجاوز عَشْرَ سنوات، بعد عودته من الرحلة الأخيرة، واستقرارِهِ في بلدِهِ مَرْو، من سنة ٥٥٢ إلى سنة ٥٦٢ التي توفي فيها رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وأكرمه في عِلِّيين.

وتلك البلادُ التي رَحَل إليها، وطافَها على قدميه ــ أو على الدابة ــ ، قَبْلَ نحوِ تسع مئةِ سنة، إذ لا سيَّارةَ ولا طيَّارة، ولا باخِرَة ولا قِطار، وإنما وسيلةُ الارتحالِ والانتقالِ هي (القَدَمُ) وحدَها عند المُمْلِقين، والدَّابةُ المُضْنِيةُ عند المُوْسِرين، وما أقلَّهم في أهلِ العلم.

ولم أذكر أسماءَ شيوخه الذين لَقِيهم وأخَذَ عنهم، فإنَّ ذلك يبلغ كتاباً مستقلاً برأسه إذْ ذكروا أنهم يَبلغون سبعةَ آلاف كما تقدم ذكره، وقد ألَّف هو فيهم خاصةً: كتباً كباراً بلغت المجلدات.

فقل لي بربِّك: أيُّ شوقٍ للعلم كان في قَلْبِ هذا العالِمِ الإنسان؟ الذي طاف تلك البلاد، ولقي أولئك الأقوام، على وسائلَ ضعيفةٍ مُضْنِية إن تيسَّرَتْ، وألَّفَ هذه

الكتبَ التي يَهولُك سماعُ أسمائها وتعدُّدُ أجزائها، كتَبَها وحدَه بقلمه، وجمعَ مادَّتَها بنفسه، وألَّفها وحقَّقها، فللَّه دَرُّه على ما تحمَّل من تَعَبٍ ونَصَب، وعلى ما بَذَل من جهود فائقة، وطاقاتٍ خارقة، في خدمةِ العلم وتحصيله، واللَّهُ المرجوُّ أن يَجزيه عن الإسلام وعلومِه خيرَ الجزاء.

ومعذرةً من هذه الإطالة البالغة في هذه الترجمة، فإني أردتها أن تكون ــ في ذاتها ــ حافزةً لمن قرأها، دافعةً لمن سَمِعَها من طلبة العلم وأهلِهِ: أن يَخرج من كسَلِه وتوانِيه، إلى نشاطِهِ في العلم وتفانيه، فإن قراءة مثل هذه الترجمة ــ على وجازتها بالنظر إلى مقام أبي سعد السمعاني ــ تُحرِّكُ عزائمَ القلوب، وتشوِّقُ إلى الذَّوَبان في العلم المحبوب، وإلى إبقاءِ الذكرِ الحسنِ المرغوب، والله ولي التوفيق.

٤٤ ــ وهذا أحَدُ العلماء الرحَّالين، والمعمَّرين الجامعين، الذي مَلأ ذكرُه آفاقَ الدنيا في عصرِه، ودَخَل في تاريخ العلماء الذين جاؤوا بعدَه من مِصرِه وغيرِ مِصرِه، الإمامُ الحافظ السِّلَفِي، الذي طَبَّقَتْ شُهرتُه الشرقَ والغرب، وأصبح تاريخاً بنَفْسِه، أنقُلُ جُمَلاً من ترجمته من «تذكرة الحفاظ»(١)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي(٢)، ممزوجاً بينهما، مع شيء من التصرُّف، غيرَ مقتصرٍ فيها على مواضع رحلتِه، وذلك لما في جوانب ترجمته من كبير الاتصال بجوانب هذا الكتاب.

هو الحافظُ العلامة، شيخُ الإسلام، عِمادُ الدين، أبو طاهر، أحمد بن محمد بن أحمد، السِّلَفِي، الأصبهاني، ثم الإسكندريُّ، المُعَمَّرُ، أحفظُ الحُفَّاظ، وشيخُ العلمِ والحديثِ مِئَةَ سَنَة، المحدِّثُ الجِهْبِذ، المُقرِىء، الأديب، المؤرِّخ، اللغوي، الناقد الضابطُ المتقِن، وُلِدَ بأصبهان سنة ٤٧٢ أو بعدَها.

واشتَهَرَ بالسِّلَفي، نسبةً إلى لَقَبِ جدِّه أحمد، فقد كان يُلقَّبُ: سِلَفَة، بكسر السين وفتح اللام، وهو لفظ أعجمي معناه: ثلاثُ شِفَاه، لأنَّ شَفَتَهُ كانت مشقوقة، فصار كأنَّ له ثلاثَ شِفَاهٍ. ويُخطِىء بعضُ الناسِ فيه فيقوله: (السَّلَفِي) بفتح السين، ظناً منه أنه منسوبٌ إلى السَّلَف، وهو خطأ، لما عَلِمتَ من نِسْبَتِهِ.

---

(١) ٤: ١٢٩٨ ــ ١٣٠٤.

(٢) ٦: ٣٢ ــ ٤١.

نشأ هذا الإمامُ من صِباه فَذّاً في الذكاءِ والنباهة والحفظِ وتحصيلِ العلم وجمعِه، ثم تعليمِه ونشرِه، حَدَّث عن نفسه فقال: كتبوا عني بأصبهان ـ بلدِهِ ـ في أول سنة ٤٩٢، وأنا ابنُ ١٧ سنة أو نحوها، وليس في وجهي شَعْر.

ثم غادَرَ أصبهان بعدَ أن أخَذَ عن شيوخ بلده، ورَحَل إلى بغداد سنة ٤٩٣، ثم إلى غيرها من بلدان الإسلام، فطلَبَ الحديثَ، وكتَبَ الأجزاء، وقرأ القرآن بالروايات، وأخَذَ الفقهَ واللغةَ والأدبَ عن أركانِ العلم في عصره، وغدا إماماً وأقرانُهُ ما يزالون في الطلب والتحصيل.

فسَمِع الحديثَ في بغداد من الحافظ أبي الخطَّاب نصرِ بن أحمد بن البَطِر، وكان يَخشَى أن يموت قبل أن يُدركَهُ، فأدركه وسَمِعَ منه وفَرِحَ بلقائه، قال حَمَّادُ بن هبةِ الله: سمعتُ السِّلَفيَّ يقول: دخلتُ بغدادَ في شَوَّال سنة ٤٩٣، فساعَةَ دخولي لم يكن لي هَمٌّ إلا ابنُ البَطِر، فذهبتُ إليه وكان شيخاً عَسِراً ـ أي شَرِسَ الخُلُق ـ فقلت له: قد جئتُ من أصبهان لأجلك، فقال: اقرأ، فقرأتُ عليه وأنا متكىء من دَماميلَ بي! فقال: أَبْصِرْ ذا الكلبَ! فاعتَذرتُ له بالدماميل، وبكيتُ من قولِهِ! وقرأتُ عليه سبعةَ عشَرَ حديثاً وخَرجتُ، ثم قرأتُ عليه نحواً من خمسةٍ وعشرين جزءاً.

وسَمِعَ في بغداد أيضاً من أبي بكر الطُّوسي، والحسين بن علي ابن البُسري، وطبقتِهم، واشتغل على إِلْكِيَا أبي الحسن الهَرَّاسيّ في الفقه[1]، وعلى الخطيب التبريزي اللغوي في اللغة. قال ابنُ ناصر: كان السِلَفيُّ ببغداد كأنه شُعلةُ نار في التحصيل.

وسَمِعَ في الكوفة من أبي البقاء الحبَّال، وبمكة من الحسين بن علي الطَّبَري، وبالمدينة من أبي الفرج القزويني، وبالبصرة من محمد بن جعفر العسكري، وبزَنْجان من أبي بكر أحمد بن محمد بن زَنْجويه، وبهمَذان من أبي غالب أحمد بن محمد العَدْل، وبالرَّيِّ من صاحب البحر أبي المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الشافعي، وبقَزْوِين من إسماعيل بن عبد الجبار المالكي، وبمَراغة من سعد بن علي المصري، وبدمشق من أبي طاهر الحِنَّائي، وبنَهاوَنْد من أبي منصور محمد بن عبد الرحمن بن غَزْو، وبأَبْهَر من

---

(٢) إِلْكِيَا كلمة فارسية، معناها: الكبيرُ القَدْرِ المقدَّمُ بين القوم. قاله ابنُ خَلِّكان.

أبي سعيد عبد الرحمن بن مَلْكان الشافعي، وبواسط من أبي نعيم بن زيزب، وبسَلَماس من محمد بن سَعَادة الهلالي، وبالحِلَّة من محمد بن الحسن بن فدويه الكوفي، وبشَهْرِسْتان من أبي الفتح أحمد بن محمد بن رشيد الأَدَمِي، وبالإسكندرية من أبي القاسم بن الفحّام الصِّقِلِّي.

وسَمِع بالدِّيْنَور، وسَاوَةَ، ونهاوَنْدَ، وطاف بلادَ أَذْرَبيجانَ إلى دَرْبَنْدَ، وسَمِعَ بخِلَاط، ونَصِيبِين، والرَّحْبَة، وغيرها، وبقي في الرحلةِ بِضعَ عَشْرَةَ سَنة، وسَمِعَ ما لا يُوصَفُ كثرةً، ونَسَخ بخطه الصَحيح السريع، وكان مُتْقِناً متثبتاً دَيِّناً خيِّراً حافظاً ناقداً، مجموعَ الفضائل، انتهى إليه علوُّ الإسناد، ورَوَى الحُفَّاظُ الكبارُ عنه في حياته.

وله ثلاثةُ معاجم، دَوَّن فيها تراجمَ شيوخِهِ الذين أَخَذ عنهم العلم في بلده وفي رحلاته، فله «معجم مَشْيَخَةِ أصبهان» في مجلد، ويكونون أزيدَ من ست مئة شيخ، و«معجم مَشْيَخَةِ بغداد» وهو كبير، و«معجم السَّفَر» لشيوخه في باقي البلاد، وله تصانيف كثيرة.

وركب البحرَ من صُوْر ــ في لبنان الآن ــ إلى الإسكندرية في سنة ٥١١، فاستوطَنَها ٦٥ سنةً إلى أن مات، ما خَرَج منها سوى خَرْجَتِهِ إلى القاهرة سنة ٥١٧ للسماع من أبي الصادق مُرشِدِ بنِ يحيـى المَدِيني وطبقتِه.

قال الأَوْقِيُّ: سمعتُه يقول: لي ستون سنة ما رأيتُ مَنارةَ الإسكندرية ــ وكانت من أعاجيب الدنيا السَّبعَة ــ إلا من هذه الطاقة، يعني طاقَةَ حُجْرتِهِ في المدرسة.

قال الحافظ عبد القادر الرُّهَاوي: بلغني أنه في مدة مُقامِه بالإسكندرية، ما خَرَج إلى بُستانٍ ولا فُرْجَةٍ غيرَ مرةٍ واحدة، بل كان عامَّةَ دهرِه ملازماً مدرستَه، وما كنا نَدخُلُ عليه إلا نراهُ مُطالعاً في شيء. وقال الحافظ عبد العظيم المنذري: كان السِّلَفِي مُغرًى بجَمْع الكتب، وما حَصَل له من المال يُخرِجُه في ثمنها، وكان عنده خزائنُ كتبٍ لا يَتفرَّغُ للنظر فيها، فعَفَّنَتْ وتَلَصَّقَتْ لِنداوةِ البلد! فكانوا يُخلِّصونها بالفأس! فتَلِفَ أكثرُها!

وأَخَذ عنه من الأئمةِ والعلماءِ والأدباءِ وغيرهم، في الحديث والفقه والتفسير

والقراءات والتاريخ والأدب واللغة والشعر خلائقُ لا يُحصَون، نظراً إلى طول عمره المديد، وارتفاعِ أسانيدِه، وسُمُوِّ مَقامِه في العلم، والإتقانِ، وسَعَة الاطلاع، وكثرةِ الشيوخ، وطَوَافِ البلدان، وتفنُّنِهِ في العلوم. فكان مقصِدَ الطالبين، ومَحَجَّةَ العلماءِ العارفين، من مشارق الأرض ومغاربها، واستجازه من لم يَستطع الوصولَ إليه تشرُّفاً بعُلُوِّ سَنَدِه، ورَفِيع قَدْرِهِ في العلم.

قال العِمَادُ الأصبهاني في «الخَرِيْدَة» وغيرُه: طَوَّفَ السِّلَفيُّ البلاد، وشُدَّتْ إليه الرِّحال، وتَبرَّكَ به الملوكُ والأَقْيَال، وكان آمِراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، أزال من جِوَارِهِ منكراتٍ كثيرة، وكان له عند ملوك مصر العُبَيديِّين: الجاهُ والكلمةُ النافِذَة، مع مخالفتِهِ لهم في المذهب، وبَنَى له العادلُ عليُّ بن إسحاق بن السَّلَّار أميرُ مصر ــ وكان سُنيّاً ــ مدرستَهُ بثَغْرِ الإسكندرية، ووَقَف عليها أوقافاً. قال الرُّهاوي: بلَغَني أن سلطان مصر حَضَرَ عنده لسماع الحديث، فجعَلَ يتَحدَّثُ مع أخيه، فزَجَرَهما الشيخُ وقال: أَيْشٍ هذا؟! نحن نقرأُ الحديثَ وأنتما تتحدثان!

ولم يكن في آخر عُمرهِ في عصرِهِ مِثلُه، قال الحافظ الذهبي: لا أعلمُ أحداً في الدنيا حدَّث نَيِّفاً وثمانين سَنَةً سوى الحافظِ السِّلَفِي. وكان حليماً، متحمِّلاً، كِفَاءَ الغرباء ــ أي يتحملهم ويقومُ بكفايتِهم ــ، وكان تَزوَّجَ بالإسكندرية امرأةً ذاتَ يسار، وحصَلَتْ له ثروةٌ بعدَ فَقْر، وكان لا تبدو منه جَفوةٌ لأحد، ويَجلِس للحديث وإسماعِهِ فلا يَشرَبُ ماءً، ولا يَبصُقُ، ولا يَتورَّكُ، ولا تبدو منه قَدَمٌ، وقد جاوَزَ المئة.

قال الإمام عَلَمُ الدين السَّخَاوي: سمعتُ أبا طاهرٍ السِّلَفيَّ يوماً يُنشِدُ لنفسه شعراً قاله قديماً، وهو:

أنا من أهلِ الحديثِ وهُمُ خيرُ فِئَهْ
جُزْتُ تِسعينَ وأرجُو أنْ أجُوزَنَّ المِئَهْ

فقيل له: قد حقَّق الله رجاءَك، فعلمتُ أنه جاوَزَ المئة، وذلك في سنة ٥٧٢، ولم يَزل يُقرَأُ عليه الحديثُ حتى آخِرِ يومٍ من حياتِه إلى أن غَرَبَتْ الشمسُ من ليلةِ وفاتِه، وهو ــ في هذه السِّن الكبيرة ــ يَرُدُّ على القارىء اللحنَ الخفيَّ، وصلَّى الصبحَ عند انفجار الفجر من يوم الجمعة خامسِ ربيعٍ الأوَّلِ من سنة ٥٧٦ أو قبلَها، وتوفي

عَقِبَه فجأةً، ودُفِن بثَغْرِ الإسكندرية، فكان تاريخاً من تاريخها، رحمه الله تعالى ورضي عنه وأكرَمَ مَثْوَاه.

٤٥ ــ ورحم الله الإمام أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المولود سنة ٥٠٨، والمتوفى سنة ٥٩٧، إذ يَصِف انهماكَهُ في طلب العلم، وإنفاقَهُ شبابَهُ في تحصيله، ويَذكُرُ مَلاذَّ ذلك الانهماكِ والإنفاق، في زمنِ الاكتهالِ والاكتمال، فيقول في كتابه «صيد الخاطر»[(١)]:

«من أنفق عَصْرَ الشباب في العلم، فإنه في زمنِ الشيخوخة يَحمَدُ جَنْيَ ما غَرَس، ويَلتَذُّ بتصنيف ما جَمَع، ولا يَرى ما يَفقِدُ من لذَّاتِ البدن شيئاً بالإضافةِ إلى ما يَنالُه من لذَّاتِ العلم، هذا مع وجودِ لذَّاتِهِ في الطلب الذي كان تأمَّل به إدراكَ المطلوب، وربما كانت تلك الأعمالُ أطيبَ مما نِيلَ منها، كما قال الشاعر:

أهتَزُّ عند تَمنِّي وَصْلِها طَرَباً ... ورُبَّ أُمْنِيّةٍ أحلى من الظَّفَرِ

ولقد تأمّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأَنفَقْتُ زمَن الصبوةِ والشباب في طلب العلم، فرأيتُني لم يَفُتني مما نالوه إلا ما لو حَصَل لي نَدِمتُ عليه، ثم تأمّلتُ حالي فإذا عَيْشِي في الدنيا أجوَدُ من عَيْشِهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نِلتُه من معرفةِ العلم لا يُقَوَّم.

فقال لي إبليس: ونَسِيتَ تَعَبَك وسَهَرَك؟! فقلت له: أيها الجاهل، تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له ــ أي لا يُذكَر وليس بشيء ــ عند رُؤيةِ (يوسف)، وما طالَتْ طريق أدَّتْ إلى صديق:

جَزَى اللّهُ المَسيرَ إليهِ خيراً ... وإن تَرَكَ المَطَايا كالمَزَادِ»[(٢)].

---

(١) ٢: ٣٢٩ من طبعة الأستاذ الجليل الشيخ علي الطنطاوي.

(٢) المطايا جمع مطية، والمراد بها هنا: الناقةُ التي أضناها السير، حتى تركَها جِلْداً على عَظْم من شدة تَعَبِها وضَنَاها، فصارت كالمَزَادَةِ، ويُريدُ بها هنا القِرْبَةَ من جِلدٍ إذا كانت خاليةً من الماء، فإنها تكون لا قُوَّةَ فيها ولا قِوَام لها.

٤٦ ــ وحكى الحافظ أبو عبد الله محمد بن رُشَيْد الأندلسي رحمه الله تعالى، في كتابه «إفادة النَّصِيح في التعريف بسند الجامع الصحيح»[١]، أنَّ الحافظ أبا مروان الباجي (محمد بن أحمد)، المولود سنة ٥٦٤، والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٥ رحمه الله تعالى:

«رَحَل من سَبْتَةَ في البحر، في المحرَّم في يوم الأربعاءِ السابعِ منه من عام ٦٣٤، ووَصَل مَرْسَى عَكًّا في عَشِيٍّ يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان من العام المذكور، ــ أي بَقِيَ في رحلته هذه إلى الشرق أكثَرَ من سبعةِ أشهُرٍ في البحر ــ ، وتوجَّهَ منها إلى دمشق، فوافاها في سابع شهر رمضان من العام المذكور، فسَمِعَ بها على أبي عَمْرو بن الصلاح كتابَ علوم الحديث، وعلى غيرِه، وسُمِعَ عليه بها وبغيرِها من بلاد المشرق، وأجَلَّهُ أهلُها وبالغوا في مَبرَّتِه وإكرامِه».

٤٧ ــ ومن الذين طوَّفوا الأرض وذَرَعُوها في الارتحالِ لطلب العلم السِّنِينَ الطِّوالَ سبعاً وعشرين سَنَةً: الحافظُ المحدِّثُ المقرىءُ المؤرِّخُ الرحَّالُ الإمام ابن النجَّار البغدادي (محمد بن محمود)، المولود سنة ٥٧٨، والمتوفى سنة ٦٤٣ رحمه الله تعالى، قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢]، في ترجمته:

«الحافظُ الإمامُ البارع، مؤرِّخُ العصر، مفيدُ العراق، مُحِبُّ الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هِبةِ الله بن مَحَاسن ابن النجار، البغداديُّ، صاحبُ التصانيف.

سَمِعَ يحيى بن بُوْش، وعبد المنعم بن كُلَيب، وذاكِرَ بن كامل، والمباركَ بن المَعْطُوش، وابنَ الجوزي، وطبقتَهم.

وأوَّلُ شيء سَمِعَ وله عشرُ سنين، وأوَّلُ عنايتِهِ بالطلب وهو ابنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. وتَلَا بالرواياتِ الكثيرةِ على أحمد بن أبي سُكَيْنَة وغيرِه.

---

(١) ص ١٠٣.

(٢) ٤: ١٤٢٨.

وسَمِعَ بأصبهان من عَيْنِ الشمسِ الثقفيَّة، وجماعةٍ، وبنيسابور من المؤيَّد، وزَيْنَب، وبهَرَاة من أبي روح، وبدمشق من الكِنْدِي، وبمصر من الحافظ ابن المُفَضَّل، وخلائق.

وجمَعَ فأوعَى، وكَتَب العاليَ والنازل، وخَرَّجَ لغير واحد، وجَمَع تاريخَ مدينة السَّلَام، وذيَّل به، واستَدرَك على الخطيب، وهو ثلاثُ مئةِ جزء. وكان من أعيان الحُفَّاظِ الثقاتِ، مع الدينِ والصِّيانةِ والنُّسُك والفهمِ وسَعَةِ الرواية.

حدَّثَ عنه أبو حامد بن الصابوني، وأبو العباس الفَارُوْثِي، وأبو بكر الشَّرِيْشِي، وأبو الحسن الغَرَّافي، وأبو الحسن بن بَلَبَان، وأبو عبد الله بن القَزَّاز الحُدَّاني، وآخرون، وبالإجازة أبو العباس بن الظاهري، وتقي الدين الحنبلي، وأبو المعالي بن البَالِسِي.

قال ابنُ الساعي ــ تلميذُه ــ: كانت رِحلةُ ابنِ النجار سَبْعاً وعشرين سنة، واشْتَمَلَت مَشْيَخَتُه على ثلاثةِ آلافِ شيخ. ألَّفَ:

١ ــ كتاب القمر المنير في المسنَد الكبير. ذكَرَ كلَّ صحابي ومالَهُ من الحديث.

٢ ــ وكتاب كنز الإمام في السُّنَن والأحكام.

٣ ــ وكتاب المؤتلِف والمختلِف. ذيَّل به على ابن ماكُوْلَا.

٤ ــ وكتاب المتفِق والمفترق.

٥ ــ وكتاب أنساب المحدِّثين إلى الآباء والبُلْدان.

٦ ــ وكتاب العوالي.

٧ ــ وكتاب المُعْجَم.

٨ ــ وكتاب جَنَّةُ الناظرين في معرفة التابعين.

٩ ــ وكتاب العِقْدِ الفائقي.

١٠ــ وكتاب الكمال في الرجال.

١١ــ وقرأتُ عليه: ذيل التاريخ، عَمِلَه في ستة عشر مجلداً.

١٢ــ وله كتابُ الدُّرَر الثمينة في أخبار المدينة.

١٣ــ وكتاب روضة الأولياء في مسجد إِيْلِيَاء.

١٤ــ وكتاب نزهة الـوَرَى في ذكرِ أُمِّ القُرَى.
١٥ــ وكتاب الأزهـار في أنواع الأشعار.
١٦ــ وكتاب عيون الفوائد. ستة أسفار.
١٧ــ وكتاب مناقب الشافعي.

وأَوصَى إليَّ، ووَقَف كتبَه بالنِّظَامِيَّة، وتُوفي في خامسِ شعبان سنةَ ثلاثٍ وأربعين وست مئة، ورثاه جماعة، وكان رحمه الله تعالى من مَحاسن الدنيا». انتهى. وفي مثله قال القائل:

نفسي فِداؤُك مِن مَيْتٍ ومِن بَدَنٍ ... ما أطيبَ الذكرَ والأخلاقَ والجسَـدَا!

٤٨ ــ وجاء في «العِبَر» للذهبي[١]، و «البداية والنهاية» لابن كثير[٢]، و «نكت الهِمْيَان في نُكَتِ العُمْيَان» للصفدي[٣]، و «فوات الوفَيَات» لابن شاكر[٤]، في ترجمة (ابن عبد الدائم المَقْدِسي) ما يلي:

هو زينُ الدين أبو العباس أحمدُ بن عبد الدائم بن نِعمة المقدسي الحنبلي المُعَمَّر، ولد بفُنْدُقِ الشيوخ من أرضِ نابُلُس سنة ٥٧٥، وتوفي بدمشق سنة ٦٦٨، فعاش ٩٣ سنة.

رَحَل إلى بغداد، وتلقَّى عن مشايخ عصره، وقرأ بنفسِه، وتفرَّدَ بالإسنادِ والروايةِ عن جملةٍ من شيوخِه، وغدا مُسنِدَ الوقتِ في زمنِه، وانتَهَى إليه عُلُوُّ الإسناد، وكانت الرِّحلة إليه من أقطار البلاد.

رَوَى عنه الأئمةُ الكبارُ والحفاظُ المتقدِّمون كالضياءِ المقدسي والبِرْزَالي وابنِ الحاجب وغيرهم، والمتأخرون كالنوويِّ، وابنِ دَقِيقِ العِيْد وابنِ تيمية والدِّمْيَاطِي وابنِ الخَبَّاز، وخلائقُ كثيرون.

---

(١) ٥ : ٢٨٨.
(٢) ١٣ : ٢٥٧.
(٣) ص ٩٩ ــ ١٠٠.
(٤) ١ : ٤٦.

وكان محدِّثاً مُسنِداً، ونسَّاخاً عَجَباً، كتَبَ بخطِّهِ السريعِ المليحِ ما لا يَدخُلُ تحتَ الحَصْر، لنفسِه وبالأُجْرة، وكان يكتُبُ بسُرْعَة، ولذا يُوجَدُ الغَلَطُ فيما كتبه كثيراً، حتى كان يكتُبُ في اليوم تِسعَ كراريس أو أكثَرَ إذا تفرَّغ، ويكتبُ الكُرَّاسَيْنِ والثلاثةَ مع اشتغالِهِ في يومٍ وليلة، وكتَبَ «مختَصَرَ الخِرَقي» ــ وهو في مجلَّد كبير ــ في ليلةٍ واحدة. وخطُّهُ حسَنٌ قَوِيٌّ، لكنْ لا نَقْطَ ولا ضَبْط.

وقد كتَبَ «تاريخ دمشق» لابن عساكر ــ وهو في ثمانين مجلَّدةً ضَخْمةً جداً ــ مرَّتين، قال الحافظ الذهبي: وإحدى هاتين النسختينِ كانت في وَقْفِ أبي المَوَاهب بنِ صَصْرَى، واختَصَره لنفسِهِ.

ولازَمَ النَّسْخَ خمسين سنة، وكتَبَ بيده ألفَيْ مجلَّدة، وأُضِرَّ بآخِرِ عُمُرِهِ أربعَ سنين، وكتَبَ «المُغْنِي» لشيخِهِ الموفَّق بن قُدَامَة المقدسي ــ وهو عَشْرُ مجلدات كبار ــ مرَّات، ورَوَى الحديثَ ستين سَنَةً. ومن شِعره ــ وقد أدركَتْهُ الشيخوخةُ وغلَبَهُ الضَّعْفُ، فوَقَف عن الاشتغالِ والكتابة ــ قولُه:

عَجَزْتُ عن حَمْلِ قِرْطاسٍ وعن قَلَمِ ... من بَعْدِ إلْفِيَ بالقِرطاسِ والقَلَمِ
كتبتُ ألْفاً وألْفاً من مُجلَّدةٍ ... فيها عُلومُ الوَرَى من غيرِ مَا أَلَمِ
ما العِلمُ فَخْرَ آمرِىء إلا لِعَامِلِهِ ... إنْ لم يكن عَمَلٌ فالعلمُ كالعَدَمِ
العلمُ زَيْنٌ وتشريفٌ لصاحبِهِ ... فاعمَلْ به فهْوَ للطُّلَّاب كالعَلَمِ
ما زِلتُ أطلبُهُ دَهْري وأكتُبُهُ ... حتى ابتُلِيتُ بضَعْفِ الجِسمِ والهَرَمِ.

٤٩ ــ وسيأتي في (الخبر الجامع) الثاني في أواخر الكتاب خَبَرُ (الحافظِ محمدِ بنِ طاهر المقدسي) المتوفى سنة ٥٠٧ رحمه الله تعالى[١] أنه بال الدَّمَ في طلب الحديث مرتين، إذْ كان يَقطعُ المسافاتِ الطوالَ في الهواجر وشِدَّة القَيْظِ، فناله من ذلك ما ناله! ولا شك أن صبرهم على هذه المشاق الفادحة أعقبهم الله به كريمَ الأجر وجميلَ الذكر.

(١) في الخبر ٣٣٧.

٥٠ ــ وحَسْبُك أن تَعلمَ أنَّ هؤلاء الذين أسلفتُ لك الحديثَ عنهم، قد اشتَهى الخليفةُ العباسيُّ أبو جعفر المنصور (عبدُ الله بن محمد) المتوفى سنة ١٥٨ رحمه الله تعالى ــ وهو مَلِكُ دنيا الإسلام في عصره ــ أن يكون واحداً منهم متصفاً بصفتهم، وهم العلماء الذين حَفِيَتْ أقدامُهم من السَّيْر في طلب العلم، وذَبَلتْ أجسامُهم من الصبر على مَشاقِّ الأسفار فيه، قال الحافظ السيوطي في «تاريخ الخلفاء»[١] في ترجمة أبي جعفر المنصور:

«أخرج ابن عساكر، عن محمد بن سَلَّام الجُمَحي قال: قيل للمنصور: هل بَقِيَ من لَذَّات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بَقِيَتْ خَصْلة: أن أَقعُدَ في مِصْطبة، وحَوْلي أصحابُ الحديث، يقول المستملي: مَن ذَكَرْتَ رَحِمَك الله؟ ــ يعني: فأقول: حدَّثنا فلان، قال: حدَّثنا فلان، قال: حدثنا فلان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ــ.

قال: فغَدَا ــ أي بكَّرَ ــ عليه النُّدمَاءُ وأبناءُ الوزراءِ بالمحابر والدفاتر، فقال لهم: لستُم بهم! ــ أي لستم بأصحاب الحديث الذين أعنيهم ــ إنما هم الدَّنِسَةُ ثيابُهم[٣]، المُشَقَّقةُ أرجُلُهم، الطويلةُ شُعورُهم، بُرُدُ الآفاق ــ أي جوَّابو البُلدانِ والمسافاتِ البعيدة ــ ونَقَلَةُ الحديث». انتهى[٤].

---

(١) ص ١٧٧.

(٢) جاء في «تهذيب التهذيب» ١١: ١٨٣، في ترجمة (يحيى بن أكثَم بن محمدٍ التَّميمي الأُسَيِّدي) أبي محمد المَرْوَزي، القاضي الفقيه، وقد وَلِيَ قضاءَ البصرة وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة، المولود سنة ١٦٠، والمتوفى سنة ٢٤٣ رحمه الله تعالى، ما يلي: «قال عبدُ الله بنُ محمود المَرْوَزي: سمعتُ يحيى بنَ أكثم يقول: كنتُ قاضياً، وأميراً، ووزيراً، ما وَلَج في سَمْعِي أحلَى من قول المُسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَضيَ اللَّهُ عنك».

(٣) وذلك لكثرة أسفارهم، لا يفرغون لغَسْلها فتبقى دَنِسةً بسبب ذلك.

(٤) وقد جاء وَصْفُ مجالسِ أصحابِ المَحابِرِ من المحدِّثين وشيوخِهم، في خبرٍ حكاه الحافظُ ابنُ بَشْكُوَال الأندلسي في كتابه المسمَّى «الصِّلَة» ٢: ٣٦١، في ترجمة أبي مَرْوان الطُّبْني (عبدِ الملك بن زِيادَةِ الله التَّمِيْمي الأندلسي القرطبي)، العالِم المحدِّث اللغوي، الإمام، الشاعرِ الأديب، تلميذِ ابنِ حزم، المولود سنة ٣٩٦، والمتوفى سنة ٤٥٧ رحمه الله تعالى، قال ابنُ بَشْكُوَال: =

٥١ ــ وقد اشتَهَى ذلك الوصفَ المنيفَ أيضاً حفيدُ أبي جعفر المنصور من بعدِه: الخليفةُ المأمونُ العباسيُّ أبو العباس (عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور) المتوفى سنة ٢١٨ رحمه الله تعالى، وهو سابعُ الخلفاء العباسيين، وأحَدُ أعاظم ملوكِ الدنيا في سِيرتِهِ وعِلمِهِ وسَعةِ مملكتِه، رَوَى الحافظ الرَّامَهُرْمُزِيُّ في كتابه «المحدِّث الفاصِل بين الراوي والواعي»[١]، والحافظُ الخطيبُ البغدادي: في «شرف أصحاب الحديث»[٢]، واللفظُ مجموعٌ من روايتيهما، رَوَيا بالسَّنِد:

أنَّ «إبراهيمَ بنَ سَعِيد الجوهريَّ، قال: لما فَتَح المأمونُ مصر، قام إليه فَرَجٌ النُّوبيُّ الأسودُ أبو حَرْمَلة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، الحمدُ لله الذي كَفَاكَ أمْرَ عَدُوِّك، وأدَانَ لك

= «رَوَى بقرطبة عن القاضي يونس بن عبد الله، وأبي المُطَرِّف القنازعي، . . . وأبي محمد بن حزم، وغيرهم، وكانت له رحلتان إلى المشرق، كَتَب فيهما عن جماعةٍ كثيرة من أهل العلم بمكة، ومصر، والقَيْرَوان، ولمَّا رجع إلى قرطبة أَمْلَى الحديثَ، فاجتَمَع إليه في مجلسِ الإملاءِ خلقٌ كثير، فلمَّا رأى كثرتَهم أَنشدَ:

إني إذا احتَوَشَتْني أَلْفُ مَحْبَرَةٍ   يكتُبْنَ: حَدَّثَني طَوْراً وأَخبَرَني
نَادَتْ بحَضْرَتِيَ الأقلامُ مُعْلِنَةً:   «هَذِي المَفاخِرُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنِ».

انتهى. ووقع في الكتاب المذكور تحريفُ لفظ (بحَضْرَتِيَ) إلى (بعقوتي) وفي نسخة (بعقرتي)، وكلاهما تحريف.

ويشير بالشطر الأخير من البيتين إلى بيتِ الشاعر أبي الصَّلْتِ بن أبي ربيعة الثقفي الطائفي، أو ابنِه: أُمَيَّةَ بنِ أبي الصلت، من قصيدتِهِ التي يَمدحُ بها أهلَ فَارِسَ وقائدَهم وَهْرِزَ، حين جاؤوا إلى اليَمَن، وأَخرَجُوا منها الحَبَشَةَ الذين استَولَوْا عليها، وقَتَلوا مَسْرُوقَ بنَ أَبْرَهَةَ الحَبَشيَّ مَلِكَ اليَمَنِ يومَئِذٍ، فيقولُ في آخرها:

تِلكَ المَكارمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ   شِيْبَا بمَاءٍ فعَادَا بَعْدُ أبوالاَ!

ومعنى هذا البيت الذي يُخاطِبُ به وَهْرَزَ القائدَ: ما فَعَلْتَهُ هو المكارمُ والمآثِرُ الباقية، إذْ بَلَغْتَ من عَدُوِّك ما بَلَغْتَ، وأَعَدْتَ لليَمَنِ ما أَعَدْتَ، أما ما يَتمدَّحُ به المُتمدِّحون من بَذْلِ شَرْبةِ لبنٍ، يُمْزَجُ بماءٍ في قَعْبٍ أي قَدَحٍ من خَشَب، أو قَعْبَينِ إلى ضَيْف، فيَشرَبُها ثم يَصِيرانِ بعدُ أبوالاً! فليس بمَكْرُمَةٍ تُذكَر.

(١) ص ١٨٠.

(٢) ص ٩٨.

العِراقَيْن والحَرَمين، والشَّامَاتِ والجزيرةَ ومصرَ، والثُّغُورَ والعَوَاصمَ، وأنت العالِمُ بالله، وابنُ عَمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

فقال له: ويلَك يا فَرَج، أو قال: وَيْحَك! قد بَقِيَتْ لي خَلَّة ــ أي حاجَةٌ ــ، قال: وما هي يا أميرَ المؤمنين؟ قال: جُلُوسِيْ في عَسْكَر ــ يعني به المكانَ المرتفِعَ يَجتمعُ حَوْلَه أصحابُ الحديث وطَلَبَةُ السُّنَّةِ النبويَّة ــ، ومُسْتَمْلٍ تَحْتِي يقول: من ذَكرتَ رَضِيَ الله عنك؟ فأقولُ:

حدَّثنا ــ فلان ــ، قال: حدَّثنا الحَمَّادَانِ: حَمَّادُ بنُ سَلَمَةِ بنِ دِينار، وحَمَّادُ بنُ زيدِ بنِ دِرْهَم، قالا: حدَّثنا ثابتٌ البُنَانيُّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عَالَ ابنتَيْنِ أو ثلاثاً، أو أُختَيْنِ أو ثلاثاً، حتى يَمُتْنَ أو يَمُوتَ عنهنَّ، كنتُ أنا وهو في الجَنَّةِ كهاتين، وأشار بالمُسبِّحَةِ والوُسْطَى». انتهى[1].

---

(١) والخليفةُ المأمون كان من العلماء، على عادةِ أبناءِ الملوكِ في العهد القديم، طلَبَ العلمَ في صِغَرِه، وقرأ الأدبَ والأخبار، وتفقَّهَ وسَمِعَ الحديثَ الشريفَ في بلدِه وغيرِ بلده، وأسمَعَهُ ورَوَاه، وكان ذا حافظة متينة، كما تراه مشروحاً في ترجمته في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٠ : ٢٧٢ ــ ٢٨٠، وكما سيأتي في خبره مع النَّضْر بن شُمَيل برقم ١٦٩.

وجاء في ترجمته في «السِّيَر» ١٠ : ٢٧٦، وفي «تذكرة الحفاظ» ١ : ٢٨١، في ترجمة (عيسى بن يونس السَّبِيعي) حفيدِ أبي إسحاق السَّبِيعي، ما يلي:

«لما حَجَّ الرشيدُ دَخَلَ الكوفة، فقال لأبي يوسف ــ القاضي ــ: قُلْ للمحدِّثين يأتونا يُحدِّثون، فلم يتخلَّف إلا عبدُ الله بنُ إدريس وعيسى بنُ يونس، فركب الأمينُ والمأمون إلى ابن إدريس، فحدَّثهما بمِئَةِ حديث، فقال المأمون: يا عم، أتأذَنُ لي أن أُعيدَ من حِفظي؟ فقال: افعَلْ، فأعادها، فعَجِبَ من حفظِه.

ثم صارَا إلى عيسى بن يونُس، فحدَّثهما، فأمَرَ المأمونُ له بعشرةِ آلافِ درهم، فأبَى أن يَقبَلَها، وقال: ولا شَرْبَةَ ماءٍ على حديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وجاء في «فوات الوَفَيات» لابن شاكر الكتبي ٢ : ٢٣٥، في ترجمة (المأمون) ما يلي: «قرأ العلمَ في صِغَرِه، وسَمِعَ الحديثَ من هُشَيم، وعَبَّاد بن العوام، ويوسف بن عطيَّة، وأبي مُعاوية الضرير، وطَبَقَتِهم، ورَوَى عنه يحيى بنُ أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، والأميرُ عبد الله بن طاهر، وبَرَعَ في الفقهِ والعربيةِ وأيامِ الناس، يُعَدُّ من كبار العلماء. ولمَّا كَبِرَ عُنِيَ بعلوم =

٥٢ ــ وهؤلاء المغبوطون الذين بَذَلُوا حياتَهم لخدمةِ السُّنَّةِ المطهرة وما بَخِلُوا، والذين تَمَنَّى أعاظمُ ملوكِ الأرضِ الاتصافَ بصفاتِهم، والتحلِّيَ بسِمَاتِهم، والجلوسَ في مَنازِلِهم وعَتَباتِهم، هم الذين قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري فيهم، في كتابه «معرفة علوم الحديث»[1]، وهو يَذكر فضلَ أصحابِ الحديثِ وطُلاَّبه: «هم قومٌ سَلكوا مَحَجّةَ الصالحين، واتَّبعوا آثارَ السلفِ من الماضين، ودَمَغوا أهلَ البِدَع والمخالِفين، بسُنَنِ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

آثَروا قَطْعَ المَفاوِزِ والقِفار، على التنعُّم في الدِّمَن والأوطار، وتَنعَّموا بالبُؤس في الأسفار، مع مُساكَنةِ أهل العلم والأخبار، وقَنِعُوا عند جَمْع الأحاديث والآثار، بوجودِ الكِسَر والأطمار.

= الأوائل ومَهَرَ في الفلسفة، فجَرَّهُ ذلك إلى القولِ بخَلْقِ القرآن!

وكان من رجالِ بني العباس حَزْماً وعَزْماً، وعِلماً وحِلماً، ورَأْياً ودَهَاءً، وشجاعةً، وسُؤدَداً وسَماحةً، وكان يَختِمُ كلَّ رمضان ثلاثين خَتْمَة.

قال يحيى بنُ أكثم: قال المأمونُ: أُرِيدُ أن أُحَدِّث، فقلتُ: ومن أولَى بهذا من أميرِ المؤمنين؟ فقال: ضَعُوا لي مِنبراً، ثم صَعِدَ فأوَّلُ ما حَدَّثنَا: حدَّثَنا هُشَيم، عن أبي الجَهْم، عن الزهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة رَفَع الحديثَ، قال: امرُؤُ القَيْسِ صاحِبُ لواءِ الشعراء إلى النار. ثم حَدَّث بنحوِ ثلاثين حديثاً، ثم نَزَل.

فقال لي: كيف رأيتَ يا يحيى مَجلِسَنا؟ فقلتُ: أجَلَّ مجلِس، يُفَقِّهُ الخاصَّةَ والعامَّة، قال: ما رأيتُ لكم حَلاَوَة، وإنما المجلِسُ لأصحابِ الخُلْقَانِ ــ أي الثيابِ الضعيفةِ الباليةِ ــ والمَحابِر.

وتقدَّمَ إلى المأمون رجلٌ غريبٌ بيدِهِ مَحْبَرَة، وقال: يا أمير المؤمنين، رجلٌ من أهلِ الحديث مُنْقَطَعٌ به، فقال: ما تَحفظُ في بابِ كذا؟ فلم يَذكُر فيه شيئاً، فما زال المأمونُ يقول: حدَّثَنا هُشَيم، وحدَّثَنا يحيى، وحدَّثَنا حَجَّاج بن محمد، حتى ذَكَر البابَ. ثم سأله عن بابٍ آخر، فلم يَذكُر فيه شيئاً، فقال المأمون: حدَّثَنا فلان، وحدَّثَنا فلان. ثم قال لأصحابه: يَطلُبُ أحدُهم الحديثَ ثلاثةَ أيام، ثم يقولُ: أَعْطُوني أنا من أهل الحديث! أعطُوهُ ثلاثةَ دراهم». انتهى.

(١) ص ٢ ــ ٣.

جعَلُوا المساجدَ بُيوتَهم، وأساطِينَها تَكاياهم(١)، وبَوارِيَها فُرُشَهم(٢)، نَبذوا الدنيا بأسْرِها وراءَهم، وجعلوا غِذاءَهم الكتابة، وسَمَرَهم المُعارَضة(٣)، واستِرواحَهم المذاكرة، وخَلُوقَهم المِداد(٤)، ونَوْمَهم السُّهَاد، واصطِلاءَهم الضِّيَاء، وتوسُّدَهم الحَصَى.

فالشدائدُ مع وجود الأسانيد العالية عندَهم رَخاء، ووجودُ الرخاء مع فَقْد ما طلبوه عندهم بُؤْس! فعُقولُهم بلَذاذَةِ السُّنّة غامِرة، وقلوبُهم بالرضاءِ في الأحوال عامرة، تعلُّمُ السُّنَنِ سُرورُهم، ومَجالسُ العلم حبُورُهم، وأهلُ السنةِ قاطبةً إخوانُهم، وأهلُ الإلحادِ والبِدَعِ بأسْرِها أعداؤهم»(٥).

---

(١) الأساطين جمعُ أُسْطُوانة، وهي سارِيةُ المسجد التي يَرتكزُ عليها سَقْفُه. وتكاياهم، يَقصِدُ بها: متكآتِهم التي يُسنِدُون ظهورَهم وجُنوبَهم عليها.

(٢) البواري جمعُ بُورِيَّة وبارِيَّة، وهي الحصيرةُ المنسوجةُ التي تُبسَطُ ويُجلَسُ عليها.

(٣) أي مقابلةَ الكتابِ الذي كتبوه بالكتابِ الذي سَمِعُوه أو نقلوا منه.

(٤) الخَلُوقُ: الطِّيْبُ. والمِدادُ: الحِبْرُ. أي تتلطَّخُ ثيابُهم بالحِبر لكثرةِ مُزاولتِهم كتابةَ الحديث، فيكون الحِبرُ لهم بمثابة الطيب عند غيرهم من المُرَفَّهين.

(٥) وهؤلاء المحدِّثون الفضلاء، حَرَص أن يُسلَك في عِقدِهم، ويُذكَرَ في سَنَدِهم: نِظامُ المُلْك (أبو علي الحَسَنُ بنُ علي الطُّوسي) الوزيرُ العالمُ الحازمُ المشهور، المولود سنة ٤٠٨، والمتوفى سنة ٤٨٥ رحمه الله تعالى، منشيءُ المدارس الكبرى (النِّظامِيَّات: الجامعات) في أشهر مُدُنِ الإسلام: بغداد، والبصرة، ومَرْو، وهَرَاة، وبَلْخ، وأصبهان، ونيسابور، وطُوس، وغيرها.

سَمِعَ الحديثَ الكثير، ورواه وأملاه، وتفقَّهَ للشافعي، وتعلَّمَ الآداب، ورَغَّبَ في العلم، وأدَرَّ على الطلبة الصِّلَات، وكرَّمَ العلماءَ والصالحين، وأكثَرَ الوقوفَ للخيرات، وكان على تواضع شديدٍ للعلماء، وكانت أيامُه دَولةَ أهلِ العلم.

حكى التاجُ السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» ٤ :٣١٨، في ترجمة الوزير نِظام المُلك، «عن شقيقِهِ عبدِ الله بن علي أنه قال: كان أخي نِظامُ المُلك يُملي الحديثَ بالرَّيّ، فلما فَرَغ قال: إني لأعلَمُ أني لستُ أهلاً لما أتولَّاه من هذا الإملاء، لكني أُريدُ أن أربطَ نَفْسِي على قِطَارِ نَقَلَةِ حديثِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم».

٥٣ ــ ونَقَل الحافظ القاضي الحَسَنُ بنُ عبد الرحمن الرَّامَهُرْمُزِي، في كتابه «المحدِّث الفاصِل بين الراوي والواعي»[1]، كلمةً جامعةً في وصفِ حالهم، وما لَقُوا في تحصيلِ الحديث من المشقاتِ والمَتَاعِبِ وركوب المَخاوِفِ والأهوال! مما فيه عِبَرٌ بالغةٌ لطلاب العلم والعلماءِ في زمننا هذا! ساق فيه بسنده إلى المحدِّثِ (منصور بن عَمَّار الخراساني)، الواعظِ المشهورِ، الآخِذِ وعظُهُ بالقلوب والألباب، المتوفَّى أواخر القرنِ الثاني للهجرة، ساق فيه من طريق ابنِهِ «سُلَيم بن منصور بن عَمَّار، قال:

كان أبي يَصِفُ أهلَ القرآنِ وأصحابَ الحديثِ في مجلسٍ فيقول: الحمدُ للَّهِ المنعِمِ المنَّان، مُظهرِ الإسلامِ على كلِّ الأديان، وحافِظِ القرآنِ من الزيادةِ والنقصان، ومانعِهِ من مَكايِدِ الشيطان، وتحريفِ أهلِ الزيغِ والكُفران، ــ وذكَر كلاماً طويلاً في ذكر القرآن، ثم قال ــ :

ووكَّلَ بالآثارِ المُفَسِّرةِ للقرآن، والسُّننِ القَوِيَّةِ الأركان، عِصَابَةً مُنتَخَبَة، وفَّقَهم لِطِلَابها وكِتابها، وقَوَّاهم على رعايتِها وحِراستِها، وحَبَّب إليهم قراءتَها ودراستَها، وهوَّنَ عليهم الدأَبَ والكَلَال، والحَلَّ والتَّرحال، وبَذْلَ النفسِ مع الأموال، وركوبَ المَخاوِفِ من الأهوال.

فهم يَرحَلُون من بلادٍ إلى بلاد، خائِضِين في العلم كلَّ واد، شُعْثَ الرؤوس، خُلْقَانَ الثياب، خُمْصَ البُطون، ذُبْلَ الشِّفَاه، شُحْبَ الألوان، نُحَّلَ الأبدان، قد جَعَلُوا لهم هَمًّا واحداً، ورَضُوْا بالعلمِ دليلاً ورائداً، لا يَقطعُهم عنه جُوعٌ ولا ظَمَاء، ولا يُمِلُّهم منه صَيْفٌ ولا شِتَاء.

مَائِزِين الأَثَرَ: صحيحَهُ من سَقِيمِه، وقَوِيَّهُ من ضعيفِه، بألبابٍ حازمة، وآراءٍ ثاقِبَة، وقلوبٍ للحقِّ واعِية، فأَمِنْتَ تمويهَ المموِّهين، واختراعَ المُلحِدِين، وافتراءَ الكاذبين.

فلو رأيتَهم في ليلهم، وقد انتَصَبُوا النَّسْخ ما سَمِعوا، وتصحيحَ ما جَمَعُوا، هاجرين الفَرْشَ الوَطِيّ، والمَضْجَعَ الشَّهِيّ، غَشِيَهُم النُّعاسُ فأَنامَهم، وتساقَطَتْ من

(١) ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.

أكُفِّهم أقلامُهم، فانتبهوا مذعورين! قد أَوجَع الكَدُّ أصلابَهم، وتَيَّهَ السَّهَرُ ألبابَهم، فتمَطَّوْا ليُريحوا الأبدان، وتحوَّلوا ــ عن مَرْقَدِهم ــ ليَفْقِدُوا النومَ من مكانٍ إلى مكان، ودَلَكُوا بأيَديهم عيونَهم، ثم عادوا إلى الكتابةِ حِرْصاً عليها، ومَيْلاً بأهوائِهم إليها: لَعَلِمْتَ أنهم حُرَّاسُ الإسلام، وخُزَّانُ المَلِكِ العلَّام.

فإذا قَضَوْا من بعضٍ ما رامُوا أوطارَهم، انصرفوا قاصِدين ديارَهم، فلزموا المساجد، وعَمَّروا المشاهد، لابسين ثوبَ الخضوع، مُسالِمين ومُسَلِّمين، يَمْشُون على الأرضِ هَوْناً، لا يُؤْذُون جاراً، ولا يُقارِفون عاراً، حتى إذا زاغ زائغ، أو مَرَقَ في الدين مارق، خرجوا خروجَ الأُسْدِ من الآجام، يُناضِلون عن مَعَالِم الإسلام ــ في كلامٍ غيرِ هذا في ذكرِهم يَطُوْل». انتهى.

٥٤ ــ وقال الحافظ الرَّامَهُرْمُزِيُّ قَبْلَ هذا في كتابه «المحدِّث الفاصِل» أيضاً[١]، في بيان فوائد الرحلة في طلب العلم والمُتَعِ الحاصلةِ بها، رداً على من كرِهَ الرحلةَ وعابَها، ما يلي:

«ولو عَرَف الطاعنُ على أهل الرحلة مقدارَ لَذَّةِ الراحلِ في رِحلتِه، ونشاطَهَ عند فُصُولِهِ من وَطَنِهِ، واستلذاذَ جميع جوارحِهِ عند تصرُّفِ لَحَظاتِهِ في المناهلِ والمنازِل، والبُطْنَانِ والظواهر، والنظرِ إلى دَسَاكِرِ الأقطار وغِياضِها، وحدائقِها ورياضِها، وتصفُّح الوجوه، واستماعِ النَّغَم، ومُشاهدةِ ما لم يرَ من عجائب البلدان، واختلافِ الألسنة والألوان، والاستراحةِ في أفياء الحِيطان، وظِلالِ الغِيْطان، والأكلِ في المساجد، والشربِ من الأوْدِيَة، والنومِ حيث يُدركُه الليل، واستصحابِ من يُحبُّ في ذات الله بسُقوطِ الحِشمة، وتركِ التصنُّع، وكُنهِ ما يَصِلُ إلى قلبِهِ من السرورِ عن ظَفَرِهِ ببغيتِهِ، ووُصُولِهِ إلى مقصدِهِ، وهُجومِهِ على المجلسِ الذي شَمَّر له، وقَطَعَ الشُّقَّةَ إليه.

لَعَلِمَ أنَّ لَذَّاتِ الدنيا مجموعةٌ في مَحاسِنِ تلك المشاهِد، وحَلَاوةِ تلك المناظر، واقتِنَاصِ تلك الفوائد، التي هي عند أهلها أبهَى من زهر الربيع، وأحلَى من صوتِ المزامير، وأنفَسُ من ذخائرِ العِقْيَان ــ أي الذهب ــ، من حيثُ حُرِمَها الطاعِنُ وأشباهُهُ...». انتهى.

---

(١) ص ٢١٨.

كلمةٌ حولَ الرِّحْلةِ والرحَّالين في طلب العلم

٥٥ ــ تقدَّمَ في هذا الجانب كثيرٌ من أخبار الراحلين والرحَّالين في طلب العلم، وسيأتي في الجوانب التالية من أخبارهم الكثير أيضاً. ويَحسُنُ أن تَعلمَ أنَّ (الرِّحْلة) كانت في نفوسِ العلماء السابقين، مَقْصِداً أساسياً، للازدياد من العلم، وتفتيحِه، وتلوينِه، وتنويعِه، وتعميقِه، فلا يتَخلَّفُ عنها إلا من أَقعَدَه ضعفُ الجسم، أو كثرةُ العيال، أو فقدُ الدُّرَيهِمات، أو رعايةُ حق الوالدة أو الوالد.

٥٦ ــ ذلك لأنهم جَعَلُوا (الرِّحلةَ) مَناطَ الثقةِ بالعالِم، فقالوا كلمتَهم المشهورة: (من لم يَرحَل فلا ثِقةَ بعلمِه). وقديماً قال الإمام يحيى بنُ معين: «أربعةٌ لا تُؤنِسُ منهم رُشداً أي لا تُبصِرُ منهم خيراً ولا نفعاً، وذكَرَ الثلاثة، ثم قال: «ورَجُلٌ يَكتُبُ في بلَدِهِ ولا يَرحَلُ في طلبِ الحديث»[1].

ومن هذا قال الحافظ ابن الصلاح: «وإذا فَرَغ ــ الطالبُ ــ من سَماعِ العَوَالي والمُهِمَّات التي ببلدِه، فلْيَرْحَلْ إلى غيره». نعم: فليرحَلْ بصيغة الأمر، وذلك لما لَمَسُوه من فوائدِ الرِّحلة وآثارِها النافعَة، في تكوينِ المواهب الشخصية، وتنميةِ المَدارك العلمية، وتوسِعَةِ الآفاق الفِكرية، والتطاعم بين العقول والمعارف وأهلِها، فلذا أَقاموها مُقامَ الحاجةِ الضرورية لمن سَلَكَ طريقَ العلم والتحصيل، واعتبروها شرْطاً لتوثيقِ العالِم والثقةِ بعلمِه.

٥٧ ــ فنَشَأ من ذلك هذه الرِّحلاتُ الواسعة، والأسفارُ الشاسعة، والسنواتُ الطِّوالُ تُقضَى من أعمارِ هؤلاء الراحلين، بعيدين عن الأهل والوَلَد، والزوجةِ والبَلَد، متفرغين لتلقِّي العلم ولقاءِ العلماء، ومُشافَهَتِهم ومُشَامَّتِهم وتعرُّفِ ما عندهم، والانتساب إليهم، والاغترافِ من مَعِينهم. . .

٥٨ ــ وقد صارت هذه الرِّحلاتُ لدى العلماء السابقين جزءاً أصيلاً من حياتِهم العلمية، وَرَحَلَ العلماءُ من أهلِ كلِّ علم، فرَحَل المفسِّرُ والمحدِّثُ، والفقيهُ

---

(١) أورده الحافظ ابن الصلاح في كتابه «معرفة أنواع عِلْم الحديث» ص ٢١٠، في (النوع الثامن والعشرين: معرفة آداب طالب الحديث).

والأصوليُّ، واللغويُّ، والنَّحْوِي، والأديبُ، والمؤرِّخ، والزاهدُ، والعابد، والشابُّ، والشيخ، والكبيرُ، والصغيرُ، والوَليد! رَحَلُوا ورحَّلوا مَعَهم الوليدَ الذي دُون أربع سنين أو ما فوقها، كما تراه في تراجم كثير من العلماء الكبار، ومنهم الإمامُ أبو سَعْد السَّمْعاني المتقدِّمُ خبرُهُ(١).

٥٩ ــ وقد لَقِي الرحَّالون في أسفارهم متاعبَ ومصاعب، وأَلاقِيَّ وشدائدَ لا تُحصَى، دُوِّنَ عنهم بعضُها، وذَهَب بعضُها دون تدوين، فهذا الذي تراه في كتب التراجم من أخبارِهم في الرِّحَل بعضُ ما كان، وليس كلُّ ما كان.

٦٠ ــ وكانت الرحلةُ تأخذ من عُمُر صاحِبها السنتين والأربع، والخمسَ والعشر، وكثيرٌ منهم من أَخذَتْ الرحلةُ من عمره العشرين سنة، أو الثلاثين سنة، أو الأربعين سنة، وبعضُهم أَخذَتْ رِحلتُه ٤٥ سنةً من عمره، كالإمام أبي عبد الله بن مَنْدَهْ، المتقدِّم خبرُه(٢).

٦١ ــ فإذا نَظَر المتبصِّرُ في هذه الرحلات التي كانوا يقومون بها، وهم كما عرفنا من الفقر، وشَظَفِ العيش، وصُعُوبةِ وسائلِ السفرِ والارتحال. . . ، أَدرَك عُلُوَّ هِمِمهم في الصَّبْرِ والتحمُّل، وعَلِمَ غَلاءَ العلمِ لديهم وعلى قلوبهم، إذْ رَكِبُوا في تحصيله الصَّعْبَ والذَّلُول، وقَطَعوا البرارِيَ والقِفَار، وامتَطَوْا من أجلِهِ المَخاطِرَ والبحار، ولَقُوا ما لَقُوا من الشدائد والأهوالِ ما اللَّهُ به عليم، وحسبُك من ذلك قِصةُ الإمام أبي حاتم الرازي، الآتية فيما بعد(٣).

٦٢ ــ ولقد كانت هذه الرِّحَلُ في ذاتِها دُروساً لهم داخلَ دُرُوس، عَركتهم في ذَوَاتِهم عَرْكاً، وصَقَلَتْهم في أنفسِهم صَقْلاً، وعرَّفَتْهم بغَلاءِ العلمِ وعِزَّته، وأشعَرَتْهم بحلاوَةِ التحصيلِ ولذَّته، فانغمروا في تحصيلِ العلم انغماراً، واشتغلوا واشتَغَلُوا به ليلاً ونهاراً، وقَطَعوا علاقاتِهم بسواه من الأهلِ والزوجةِ والولدِ والبلَد، فخرجوا أئمةً

(١) في الخبر ٤٣.

(٢) في الخبر ٣٢.

(٣) في الخبر ٢٣٧.

أحباراً، وسادةً أبراراً، يُقدِّسُهم الناسُ بجدارةٍ وحُبّ، ويلتفُّون حولَهم لقداستِهم وصلاحِهم وغزيرِ علمهم وفضلِهم، ولبَصَارةِ عقولهم، وعظيمِ نفعِهم.

٦٣ ـ فالرِّحلَةُ التي أَخذَتْ من عُمرِ صاحِبها عَشْرَ سنين، أو عشرين سنة، أو ثلاثين سنة، أو أكثرَ من ذلك أو أقلَّ، وقد كانت كلُّها في تحصيل العلم ولقاءِ العلماء، وحضورِ مَجالِسهم واستماعِ دروسهم، والاستفاداتِ من تقريراتهم، والاستناراتِ من مُناقشاتِهم ومُحاكماتِهم، وسَبَقَها تحصيلُ الراحل في بلدِهِ مُدَّةً لا تَقِلُّ عن عَشْرِ سنواتٍ غالباً، هي: التي أَخرجَتْ الأئمةَ الفحولَ في كل علم من علوم الشريعةِ والعربيةِ وسائرِ العلوم الإسلامية.

٦٤ ـ فوَازِنْ ـ رعاك الله ـ بين الدراسةِ التي أثمرتها هذه الرحلاتُ التي عركَتْ الطُّلَّابَ الراحِلِين عَرْكاً طويلاً، وبين دِرَاسَةِ طُلَّابِ جامعاتنا اليوم! يَدْرسُون فيها أربعَ سنوات، وأغلبُهم يَدْرُسون دِراسةً صَحَفِيَّة فَرْدِيَّة، لا حُضُورَ ولا سَماع، ولا مناقشةَ ولا اقتناع، ولا تَطَاعُمَ في الأخلاق ولا تأسِّي، ولا تصحيحَ لأخطائِهم، ولا تصويبَ ولا تَشْذِيبَ لمسالكهم، ويتسقَّطُون المباحثَ المظنونةَ السُّؤالِ من مُقرَّراتهم (المختصرة)، ثم يَسعَوْن إلى تلخيصِ تلك (المقرَّرات)، ثم يَسعَوْن إلى إسقاطِ البحوثِ غير الهامَّةِ من (المقروءات)، بتلطُّفهم وتملُّقهم لبعضِ الأساتذة، فيجدون لدى بعضِهم ما يَسُرُّهم، وإن كان يَضرُّهم، وبذلك يَفرحون!

٦٥ ـ وبعدَ ذلك يَتعالَوْن بضخامةِ الألقاب، مع فَراغ الوِطاب، ويُوسِعُون الدعاوِيَ العريضة، ويُجهِّلُون العُلَماءَ الأَصَلاءَ بآرائهم الهشَّة البتراء، وينصرون الأقوالَ الشاذَّةَ لتجانُسِها مع علمِهم وفهمِهم، ويناهضون القواعدَ المستقِرَّة، والأصولَ الراسخةَ المتوارَثَة، ولم يَقْعُدوا مقاعدَ العلم والعلماء، ولم يتذوَّقوا بَصَارةَ التحصيلِ عند القدماء! ولكنهم عند أنفسهم أعلمُ من السابقين!!

٦٦ ـ ويشهَدُ المراقبُ للحال العلمية اليوم: كثرةً متزايدةً في الجامعيين والجامِعَات، وفقراً متزايداً في العلم وأهله، وضحالةً في الفهم والمعرفة، ونقصاً كبيراً مشهوداً في العَمَلِ بالعلم! وهذه مصيبة من أدهى المصائب! واللَّهُ المرجوُّ أن يُلهِمَ

المنوطَ بهم أمورُ التعليم في البلاد الإسلامية، أن يتبصَّروا بالأمر، ويتداركوا هذا الخَطَر قبل تأصُّله وإزمانِه، واستفحالِ آثارِه.

٦٧ ــ ولا أتحدَّثُ طويلاً عن المبتَعَثِين والراحلين اليومَ من شبابنا، إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداءِ للإسلامِ وأهلِه، فإنَّ الناجيَ من بَراثِنِ مَكايِدِهم الخفيَّةِ والظاهرةِ في العقيدةِ والخُلُقِ والتفكيرِ والسلوك: قليل، وكم من أبنائِنا وشبابنا من وَقَع في حَبائِلِهم، وذَهَب في سُبُلِهم، ورَضِيَهم قادةً وسادة، ونَزَع ــ بالتالي ــ من ديار الإسلام إليهم! وتوطَّن بلادَهم مسكناً وداراً، واختارهم على أهله أهلاً وجاراً، وهو يَظنُّ بنفسِهِ أنه يُحسِنُ صُنعاً! نعوذُ بالله من الحَوْرِ بعدَ الكَوْر، ومن الكفر بعد الإيمان!

٦٨ ــ وهناك غيرُ واحدٍ من أبنائنا وشبابنا المتعلم، من تأثَّر بهم تأثراً كلياً أو جزئياً! ورَجَع إلى بلده وهو يُريدُهم أن يكونوا في أفكارهم وعاداتِهم سادةً عليه، وقادةً له ولولدِهِ ولبلده! وأما تحصيلُ العلم منهم على وجهِهِ الأمثَل، فما أقلَّه في كثيرٍ من المبتعَثِين؟! وما أكيدَ الغربيين والشرقيين للدارسين المسلمين، يُعطونهم مبتورَ العلم مع كبيرِ الألقاب، فيَعُودون لديارِهم بمعلومات ضَحْلَة! فالأمرُ لله من قبلُ ومن بعد، والله وليُّ المؤمنين.

هذه كلمةٌ صدرَتْ من قَلْبِ مُحبٍّ غيور، يَغارُ على دينِه وأبنائِه وبلادِه، فالله المسئول أن يُعيد للمسلمين مجدَهم ومكانتَهم وسيادتَهم وقيادتَهم في العلم وسواه، وهو على كل شيء قدير.

أعودُ بعدَ هذا إلى الدخول في الجانب التالي لهذا الجانب، وهو:

الجانب الثاني
في أخبارهم في هجر النوم والراحة والدعة وسائر اللذاذات

٦٩ ــ من المعلوم لدى البصراء: أنه لا بُدَّ لنيلِ كل مرغوبٍ محبوب، من تنازلٍ عن مرغوبٍ محبوبٍ دُونَه، والعلمُ مرغوبٌ سامٍ، ومحبوب غالٍ، وشَرَفٌ رفيع، ومَطلَبٌ صَعْبُ المسالك، كثيرُ العَقَبات، لا يُمكنُ بُلوغُهُ إلَّا بتنازُلَاتٍ كثيرة، وتضحياتٍ كبيرة، في المالِ، والوقتِ، والراحةِ، وأُنسِ الأهلِ والأصحاب، وسائرِ المُتَع المشروعة، ولهذا قيل قديماً: العلمُ لا يُعطِيك بعضَهُ إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّك. وقال الإمام يحيى بنُ أبي كثير: لا يُستطاعُ العِلْم، براحَةِ الجِسْم. رواه مسلم في «صحيحه» في (باب أوقات الصلوات الخمس)[١].

٧٠ ــ نَقَل الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»[٢]، عن أبي أحمد نصر بن أحمد العِيَاضي الفقيه السمرقندي: «لا يَنالُ هذا العلمَ إلا من عَطَّل دُكَّانَه، وخَرَّبَ بُستانَه، وهَجَرَ إخوانَهُ، ومات أقرَبُ أهلِهِ إليه فلم يَشْهَدْ جنازتَه».

٧١ ــ قال القاضي بدر الدين بن جماعة رحمه الله تعالى، في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم بآداب العالم والمتعلِّم»[٣]، بعدَ نقلِهِ ما حكاه الخطيب: «وهذا كلُّه وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصودُ به أنه لا بُدَّ فيه من جَمْعِ القلب، واجتماع الفِكْر. وقيل: أمَرَ بعضُ المشايخ طالِباً له، بنحوِ ما رواه الخطيب، فكان آخِرَ ما أمَرَه به أن قال: آصْبُغْ ثوبَك كيلا يَشغَلَك فِكْرُ غَسْلِهِ». انتهى.

---

(١) ٥: ١١٣.

(٢) ٢: ١٧٤.

(٣) ص ٧١.

٧٢ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»(١)، في ترجمة الإمام شعبة بن الحجاج الواسطي البصري، أحدِ أوعيةِ العلم، «قال أبو قَطَنٍ ــ تلميذُه ــ : كانت ثيابُ شعبة لونُها كالتُّراب». انتهى. وذلك لاشتغالِهِ بالعلم، وعدمِ تفرُّغِهِ بسبب ذلك لغَسْلِها!

وأخبارُ العلماء في هَجْرِ الدَّعَةِ واللذاذات، والانهماكِ في العلم، والترامي على أبواب الشيوخ، ومُلازمتِهم، والصبرِ على تبايُنِ طبائعِهم، والتأدُّبِ معهم، ورعايةِ راحتهم، لنيل المطلوبِ العزيز الغالي منهم: (العلم) كثيرةٌ لا تُحْصَى.

وأستهِلُّها بما جاء عن حَبْرِ الأُمَّةِ، وإمامِ الأئمة، الصحابي الجليل عبدِ الله بن عباس، المولود سنة ٣ قَبْلَ الهجرة، والمتوفى سنة ٦٧ رضي الله عنه.

٧٣ ــ روى الحاكم في «المستدرك على الصحيحين»(٢)، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»(٣)، والحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنهاية»(٤)، في ترجمةِ الإمام (ابن عباس): «عن عكرمة قال، قال ابنُ عباس: لمَّا قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأنا شابٌّ، قلتُ لشابٍّ من الأنصار: هلُمَّ فلْنسألْ أصحابَ رسول الله، ولْنَتَعلَّمْ منهم، فإنهم اليومَ كثيرٌ، فقال: يا عَجَباً لك يا ابنَ عباس؟! أتُرى الناسَ يَحتاجون إليك، وفي الناسِ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم؟(٥).

قال: فتَرك ذاك، وأقبلتُ أنا على المسألةِ وتتبُّعِ أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كنتُ لآتي الرجلَ في الحديث، يَبلُغُني أنه سَمِعَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجِدُهُ قائلاً ــ أي نائماً في منتصَفِ النهار ــ ، فأتوسّدُ رِدائي على

---

(١) ١:١٩٤.

(٢) ١:١٠٦.

(٣) ١:٨٥.

(٤) ٨:٢٩٨.

(٥) يعني: في الناس كثرةٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين عاشروه وسمعوا منه، فلا يَحتاجُ الناسُ إلى مثلِك مع وجود أولئك الأصحاب، فطلبُك للعلم لا يَنتفعُ به الناس، لاستغنائهم عنك بالعلماء الكبار.

بابِه، تَسفِي الريحُ على وجهي التُّرَابَ حتى يَخْرُجَ فإذا خَرَجَ قال: يا ابنَ عم رسول الله ما جاء بك؟ هَلاَّ أرسلتَ إليَّ فآتيَك؟ فأقولُ: لا، أنا أحقُّ أن آتيَك، بَلَغَني حديثٌ عنك أنك تُحدِّثُه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحببتُ أن أسمعَه منك.

فكان الرجلُ بعدَ ذلك يَراني ــ وقد ذهب أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمَعَ حولي الناسُ يَسألُوني ــ فيقولُ: هذا الفتى كان أعقلَ مني[1]. قال الحاكم عقِبَ هذا الخبر: «هذا الحديثُ أصلٌ في طلَبِ الحديثِ وتوقيرِ المحدِّث».

٧٤ ــ وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: حدّثنا محمد بن عَمْرو بن علقمة، حدَّثنا أبو سَلَمة، عن ابن عباس قال: «وجدتُ عامَّةَ عِلمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحيّ من الأنصار، إنْ كنتُ لأَقِيلُ ببابِ أحدِهم، ولو شِئتُ أن يُؤذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي، ولكن أبتغي بذلك طِيبَ نفسِه»[2].

٧٥ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»[3]، في ترجمة التابعي الجليل (عُروة بن الزبير) المولود سنة ٢٢، والمتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى: «قال عروة: لقد كان يَبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديثُ، فآتِيهِ فأجِدُه قد قالَ ــ أي نام أو استراح وقتَ القيلولة في منزله ــ، فأجلِسُ على بابِه، فأسألُه عنه، يعني إذا خَرَج».

٧٦ ــ ورَوَى الدارمي في «سننه»[4]، عن التابعي الجليل (سعيد بن جُبَير) المولود سنة ٤٥، والمتوفى سنة ٩٥ رحمه الله تعالى: «قال: كنتُ أسِيرُ مع ابن عباس في طريق مكة ليلاً، وكان يُحدِّثُني بالحديث، فأكتبُه في واسِطةِ الرَّحْل، حتى أُصبحَ فأكتُبَه».

---

(١) وكان عبدُ الله بن عباس رضي الله عنه لا يَفْتُرُ عن كتابةِ العلمِ وتحصيلِه، حَدَّثَ الفضلُ بن محمد، عن أبيه، عن جده، قال: قيل لعبد الله بن عباس: كَمْ تكتُبُ العلمَ؟! قال: إذا نَشِطتُ فهو لَذَّتي، وإذا اغتَمَمْتُ فهو سَلْوَتي. رواه المؤرِّخُ ابنُ العَدِيم الحلبي في «تاريخ حلب»، في ترجمة (نِظَام المُلْك).

(٢) ورواه أبو خَيْثَمة النسائي في «كتاب العلم» ص ١٤١.

(٣) ٤: ٣٢.

(٤) ١: ١٠٥.

٧٧ ــ وجاء في «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي[١]، في ترجمة التابعي الجليل، الفقيه النبيل (عطاء بن أبي رَبَاح اليماني ثم المكي)، المولود بالجَنَدِ من اليَمَن سنة ٢٧، والمتوفى بمكة المكرمة سنة ١١٥ رحمه الله تعالى، وكان من ساداتِ التابعين فِقهاً وعلماً، وورعاً وفضلاً وإتقاناً:

«قال ابن جُرَيج: كان المسجدُ فِراشَ عطاءٍ عشرين سنة! وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاءٌ يُطيل الصمت، فإذا تكلَّم خُيِّلَ إلينا أنه مؤيَّد ــ أي تُمِدُّه الملائكةُ بما يقول ــ. وكان أسوَدَ، أعوَرَ، أفطَسَ، أشَلَّ، أعرَجَ، ثم عَمِيَ! ــ ففي جِسمِهِ ستةُ عيوب، ولكنه كان رُكناً من أركان العلم والدين والصلاح والقُدْوَة ــ. وكان ثِقةً فقيهاً، حَجَّ نَيِّفاً ــ أي زيادةً ــ على سبعين حجَّة».

٧٨ ــ قال الدارمي في «سننه»[٢]، في (باب مذاكرة العلم): «أخبرنا مروانُ بن محمد، قال: سمعتُ الليثَ بن سَعْدٍ يقول: تذاكر محمد بن شهاب الزهريُّ ــ الحافظ المحدِّث الفقيهُ التابعيُّ الجليلُ عالمُ الحجاز، المولود سنة ٥٨، والمتوفى سنة ١٢٤ رحمه الله تعالى ــ ليلةً بعدَ العِشاءِ حديثاً، وهو جالسٌ متوضىء، فما زال ذلك مجلسُهُ حتى أصبح، قال مَرْوَانُ: جَعَل يَتذاكَرُ الحديث».

٧٩ ــ وجاء في «تاريخ الإسلام» و«تذكرة الحفاظ»[٣]، في ترجمة (مُغيرة بن مِقْسَم الضبِّي): «الفقيهُ الحافظُ أحَدُ الأعلام، أبو هشام مُغيرةُ بن مِقْسَم الضَّبِّي الكوفي، الأعمى، مات سنة ١٣٣. تفقَّه بإبراهيم النَّخَعي وبالشَّعْبي ورَوَى عنهما وعن غيرهما. قال فُضَيْل بن غَزْوان: كنا نجلِسُ أنا ومغيرةُ ــ وعَدَّدَ ناساً ــ نتذاكرُ الفقه، فربما لم نَقُم حتى نَسمَعَ النداءَ بصلاةِ الفجر».

٨٠ ــ وروى الحافظ أبو خَيْثَمة النَّسائي في «كتاب العلم»[٤]، والدارميُّ في

---

(١) ٤ : ٢٧٩.
(٢) ١ : ١٢١.
(٣) في «تاريخ الإسلام» ٥ : ٣٠٢، و«تذكرة الحفاظ» ١ : ١٤٣.
(٤) ص ١٣٥.

«سننه» في (باب مذاكرة العلم)[١]، والحافظُ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»[٢]، في ترجمة (عبد الله بن شُبْرُمَة) القاضي الفقيه الكوفي التابعي، المولود سنة ٧٢، والمتوفى سنة ١٤٤ رحمه الله تعالى:

«عن الفُضَيل بن غَزْوان الضَّبِّي الكوفي قال: كنا نَجلِسُ ـ أنا وعبدُ الله بن شُبْرُمَة والحارثُ بن يزيدَ العُكْلِي والمغيرةُ بنُ مِقسَم الضَّبِّي والقَعْقَاعُ بنُ يزيدَ ـ بالليل، نتذاكرُ الفقه، فربما لم نقم حتى نَسمَعَ النداءَ لصلاة الفجر. وفي رواية: فلم يُفرِّق بينهم إلا أذانُ الصبح».

٨١ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٣]، و«ميزان الاعتدال»[٤]، في ترجمة العالم العابد (إسماعيل بن عَيّاش الحمصي) المولود سنة ١٠٦، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى: «قال أبو اليَمان ـ هو عامرُ بن عبد الله الحمصي ـ: كان إسماعيلُ جارَنا، منزلُهُ إلى جنب منزلي، فكان يُحْيِـي الليل، وربما قرأ ثم قَطَع ثم رَجَع.

فسألته يوماً عن ذلك؟ فقال: وما سؤالك؟ قلتُ: أُريدُ أن أعرِفَ، قال: إني أُصلِّ فأقرأ، فأَذكُرُ الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتُها، فأقطَعُ الصلاة ـ أي أُمسِكُ عنها ـ فأكتُبُه، ثم أرجعُ إلى صلاتي»

٨٢ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٥]، في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك، المولود سنة ١١٨، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى: «قال علي بن الحسن بن شقيق: قُمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة، ليَخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديثٍ وذاكرتُه، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذِّن فأذَّن للفجر».

٨٣ ـ وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[٦]، في ترجمة (عبد الرحمن بن

---

(١) ١ : ١٢٠.

(٢) ٥ : ٢٥٠ و ٨ : ٢٩٧.

(٣) ١ : ٢٥٣.

(٤) ١ : ٢٤٠.

(٥) ١ : ٢٧٧.

(٦) ٣ : ٢٥٠.

قاسم العُتَقي المصري)، أحدِ أصحاب مالك والليث وغيرهما، المولود سنة ١٣٢ والمتوفى بمصر سنة ١٩١ رحمه الله تعالى: «قال ابن القاسم: كنتُ آتي مالكاً غَلَساً فأسأله عن مسألتين، ثلاثةٍ، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدر، فكنتُ آتي كلَّ سحر.

فتوسّدتُ مرّةً عَتَبَتَهُ، فغلبتني عيني فنِمت، وخرَجَ مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جاريةٌ سوداء له برِجْلِها، وقالت لي: إنَّ مولاكَ قد خَرَج، ليس يَغفُلُ كما تَغفُلُ أنت، اليومَ له تِسعٌ وأربعون سنة، قلَّما صلَّى الصبحَ إلا بوضوء العتَمَة ـ ظنَّتْ السوداءُ أنه مولاه من كثرةِ اختلافِهِ إليه ـ.

قال ابن القاسم: وأنختُ بباب مالك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً، ما بعتُ فيها ولا اشتريتُ شيئاً، قال: فبينما أنا عنده، إذ أقبَلَ حاجُّ مصر، فإذا شابٌّ متلثّم دخل علينا، فسلّم على مالك، فقال: أفيكم ابنُ القاسم؟ فأُشيرَ إليّ، فأقبل يُقَبِّلُ عينيَّ، ووجدتُ منه ريحاً طيبة، فإذا هي رائحةُ الوَلَد، وإذا هو ابني، وكان ابنُ القاسم تَرَك أُمَّهُ حامِلاً به، وكانت ابنةَ عَمِّه، وقد خيَّرها عند سفره لطولِ إقامته، فاختارت البقاء».

٨٤ ـ وجاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي[1]، و«تاريخ الإسلام» للذهبي[2]، و«طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[3]، في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل: «قال قتيبة بن سعيد: كان وكيعُ ـ بنُ الجراح المولود سنة ١٢٩، والمتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى ـ إذا صلّى العَتَمَة ينصرف معَهُ أحمد بن حنبل، فيقف على الباب فيذاكره وكيع. ـ ووكيعٌ من شيوخ أحمد ـ.

فأخَذَ وكيعٌ ليلةً بعِضَادَتَيْ الباب، ثم قال: يا أبا عبد الله، أُريد أن أُلقِيَ عليك حديثَ سفيان، قال: هاتِ، قال: تَحفَظُ عن سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل كذا وكذا؟

---

(١) ص ٦١.

(٢) في ترجمة الإمام أحمد المنقولة عن «تاريخ الإسلام» في أول «المسند» له، بتحقيق شيخنا أحمد شاكر رحمه الله تعالى ص ٦٣.

(٣) ٢ : ٢٨ من الطبعة المحققة.

قال: نعم، حدثنا يحيى. . . ، فيقول ــ أي وكيعٌ: تَحفظُ عن ــ سلمة: كذا وكذا؟ فيقول: حدثنا عبد الرحمن. . . ، فيقول ــ أي وكيعٌ ــ: عن سَلَمة كذا وكذا؟ فيقول: أنت حدثتنا، حتى يَفرُغَ من سَلَمَة.

ثم يقول أحمد: فتَحفَظُ عن سَلَمة كذا وكذا؟ فيقول وكيع: لا، فلا يزال يُلقي عليه ويقول وكيعٌ: لا، ثم يأخُذُ في حديثِ شيخٍ شيخ.

قال: فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية، فقالت: قد طَلَع الكوكب، أو قالت: الزُّهَرَة».

٨٥ ــ وقال العلامة الشيخ محمد مخلوف المالكي رحمه الله تعالى، في «شجرة النور الزكيَّة في طبقات المالكية»(١)، في ترجمة الإمام الهُمَام (أَسَد بن الفُرَات)، النيسابوريِّ الأصل والنِّجَار، المولودِ بحَرّان سنة ١٤٢، والمتوفى شهيداً مجاهداً في جزيرة صِقِلِّيَّةَ من إيطاليا سنة ٢١٣ رحمه الله تعالى، العالِمِ الرحَّال بين المشرق والمغرب، الفقيهِ المحدِّث النبيل، القاضي الغازي الجليل، ما يلي:

«رَحَل به والدُهُ وعُمرُه عامانِ، مع الجُنْدِ العربيّ بقيادةِ ابنِ الأشعث، ودَخَل معه القَيْرَوَان سنة ١٤٦، ثم دخل تونس وانقطع لقراءةِ القرآنِ وعلومِه، ورَوَى «المُوَطَّأ» عن ابن زياد، وفي الثامن عَشَر من عمره رَحَل للمشرق، وأقام بالمدينة مدةً، وأعاد روايةَ «الموطَّأ» على مالك.

ثم رَحَل للعراق ولَقِيَ أعلاماً من أصحاب أبي حنيفة، منهم الإمامانِ: أبو يوسف ومحمدُ بن الحسن، وأَخَذ عنهما عِلْماً غزيراً، ثم رَحَل لمصر ولَقِي جماعةً من أعيان العلماء، منهم الإمامُ عبدُ الرحمن بن القاسم فلَزِمَه مدةً، وهناك أَلَّفَ «الأَسَدِيَّة».

ثم قَفَل راجعاً إلى القيروان، وبها انتَشَر ذكرُه وظَهَر علمُه وارتفع قَدْرُه، وفي سنة ٢١٢ جَمَع الأميرُ زيادةُ اللَّهِ الأغلَبيُّ جُيُوشَهُ وأُسْطُولَهُ لغَزْوِ صِقِلِّيَّة، وكان أميرُ الجيش وقاضِيهِ أَسَدَ بن الفُرَات المذكور، فخَرَج في حَفْلٍ عظيم وجَمْعٍ فَخِيْم، من أهلِ العلم ووجوهِ الناسِ لمُشَايَعَتِه.

---

(١) ص ٦٢ من الكتاب وص ١١٩ من التتمة في آخره.

ولمَّا رأى أسَدُ الناسَ خاصَّتَهم وعامَّتَهم بين يديه وخَلْفَهُ، قال لهم بعدَ حَمْدِ الله: لا إله إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، يا معشرَ الناس، واللَّهِ ما وَلِيَ لي أبٌ ولا جَدٌّ وِلايَةً قَطُّ، ولا أحَدٌ من سَلَفي رَأَى هذا قَطُّ، وما رأيتُ ما تَرَوْن إلَّا بالأَقْلَام ـ يعني بتعلُّم العِلْم وتحصيلِه وكتابتِه وخِدْمتِه ـ، فأَجْهِدُوا أنفسَكم، وأَتْعِبُوا أبدانَكم في طَلَبِ العلم وتدوينِهِ، واصْبِرُوا على شِدَّتِهِ، فإنكم تنالون به خيرَيْ الدنيا والآخرة.

وهذا الاحتفالُ انتهى بمَرْسَى سُوْسَة، ومنها أَقلَع الأُسطولُ قاصِداً صِقِلِّيَّة، ودَخَلها بعدَ مُكابَدةِ مَشَاقٍّ! وحَصَل له فَتْحٌ عظيمٌ بها، ومات إِثْرَ جِراحَاتٍ في حِصَارِ سَرْقُوسَة، ودُفِنَ بذلك الموضعِ رحمه الله تعالى».

قال عبد الفتاح: أنا أدعو كلَّ طالبِ علمٍ نبيلٍ هُمَامٍ وهَمَّام، وأرجو منه أن يَقرأ ترجمةَ الإمامِ (أَسَدِ بن الفُرَات) هذا[1]، ففيها يقفُ على مآثِرَ متنوِّعةٍ له ولشيوخِه، في العلم، والنُّبلِ، والكياسةِ، والأدب، والجهادِ، والشجاعةِ، والاستبسالِ، والاستشهاد، والتقوى، والتواضع، وتحمُّل المشاقِّ في تحصيل العلم والمَكارم، فهي ترجمةٌ نابِضَةٌ حافِزةٌ، لا يَشبَعُ من قرأها من قِراءتِها.

٨٦ ـ وقال شيخنا الإمام الكوثري رحمه الله تعالى، في كتابه «بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني»[2].

«كان أَسَدُ بن الفُرات، ـ قاضي القيروان وتلميذُ الإمام مالك ومُدوِّنُ مذهبِه، وأحَدُ القادةِ الفاتحين، فتَحَ صِقِلِّيَّةَ واستُشهدَ بها سنة ٢١٣ ـ كان قد خَرَج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢، فسَمِعَ «الموطَّأ» على مالك بالمدينة، ثم رَحَل إلى العراق، فسَمِعَ من أصحاب أبي حنيفة وتفقَّه عليهم، وكان أكثَرُ اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيباني.

---

(١) في كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣: ٢٩١ ـ ٣٠٩ من طبعة المغرب، أو ٢: ٤٦٥ ـ ٤٨٠ من طبعة بيروت، أو «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي ١: ١٧٢ ـ ١٨٩، أو غيرِها من المصادر الواسعةِ التي تَرْجَمَتْ له رحمه الله تعالى.

(٢) ص ١٥.

ولما حضَرَ عنده قال له: إني غريب قليلُ النفقة، والسماعُ منك نَزْر، والطلبةُ عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: اسمَعْ مع العراقِيِّين بالنهار، وقد جعلتُ لك الليلَ وحدَك، فتَبِيتُ عندي وأُسمِعُك، قال أسد: وكنتُ أبِيتُ عنده ويَنزلُ إليّ، ويَجعلُ بين يديه قَدَحاً فيه الماء، ثم يأخذُ في القراءة، فإذا طال الليلُ ونَعَسْتُ، ملأ يَدَهُ ونَضَح وجهي بالماء فأَنْتَبِهُ، فكان ذلك دأبَه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أُريدُ من السماعِ عليه.

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نَفِدَتْ، وأعطاه مَرةً ثمانين ديناراً حين رآه يَشرَبُ من ماءِ السبيل، وأمَدَّه بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق». انتهى بتصرف يسير.

٨٧ ــ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[١]، في ترجمة الإمام (عبد الملك بن حبيب الأندلسي القرطبي) عالِم الأندلس، المولود سنة ١٧٤، والمتوفى سنة ٢٣٨ رحمه الله تعالى:

«قال أبو عُمَرَ يوسف بن يحيى المَغَامِي ــ تلميذُه ــ: طَرَقتُ عبدَ الملك بن حبيب يوماً بغَلَس، حِرْصاً على الاقتباس منه، واستأذنتُ عليه، فأذِنَ لي ودَخلتُ، فإذا به جالسٌ في مجلسه، عاكفٌ على الكتب، قد أحاطَتْ به يَنظُرُ فيها، والشمعةُ بين يديه تَقِدُ، وطَوِيلةٌ عليه ــ أي على رأسِهِ قَلَنْسُوَة طويلة ــ.

فسلَّمتُ فرَدَّ عليَّ وقال لي: يا يوسف، أَوَقد انسلَخَ الليلُ؟ قلتُ: نعم وقد صلَّينا، فقام إلى صلاةِ الصبح فصلاَّها، ثم رجع إلى مقعده، وقال: يا يوسف، ما صلَّيتُ هذه الصلاةَ إلا بوضوءِ العشاءِ الآخِرة».

٨٨ ــ وجاء في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم[٢]، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض[٣]، في ترجمة (قُتَيْبَة بن سعيد الثَّقَفِي البَغْلاَني)، شيخِ البخاري ومسلم وشيوخِهما، المولود سنة ١٤٨، والمتوفى سنة ٢٤٠ رحمه الله تعالى، ما يلي:

---

(١) ٣ : ٤٤.

(٢) ٣/٢ : ١٤٠.

(٣) ٣ : ٣٦١.

«قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعتُ أبي يقول: حَضَرتُ قتيبةَ بن سعيد ببغداد، وقد جاءه أحمدُ بن حنبل، فسأله عن أحاديث، فحدَّثه بها، ثم جاءه أبو بكر بنُ أبي شيبة وابنُ نُمَير بالكوفةِ ليلةً، وحَضَرتُ معهما، فلم يزالا يَنْتَخِبَانِ عليه وأَنتخِبُ معهما إلى الصُّبح»(١).

٨٩ ــ وجاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي(٢)، «قال عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل: سمعتُ أبي يقول: كنتُ ربما أردتُ البُكورَ في الحديث، فتأخُذُ أُمِّي بثيابي وتقولُ: حتى يُؤذِّنَ الناسُ أو حتى يُصبِحوا، وكنتُ ربما بكَّرتُ إلى مجلسِ أبي بكر بن عَيَّاش وغيرِهِ».

٩٠ ــ وقال ابن الجوزي أيضاً(٣): «قال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجلٌ مع أبي مَحْبَرة، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنت إمامُ المسلمين! ــ يعني: ومَعَك المَحْبَرَة تحمِلُها؟! ــ فقال: مَعَ المَحْبَرَة، إلى المَقْبَرَة. وقال عبدُ الله بن محمد البغوي: سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلبُ العلمَ إلى أن أُدخَل القَبْر».

٩١ ــ وقال ابن الجوزي أيضاً(٤): «قال محمد بن إسماعيل الصائغ، كنتُ في

---

(١) ومعنى قوله: (يَنتَخِبَانِ عليه وأَنتخِبُ معهما)، أي نَخْتارُ وننتقي من أحاديثِهِ ما نُرِيدُ أن يُحدِّثَنا به، وإنما يكون الانتخابُ من حديثِ المحدِّث ــ على الغالب ــ لضيقِ وقتِ الطلبةِ عن استيعاب كلِّ حديثِهِ كتابةً وسَمَاعاً، أو لاختيارِ سماعِ الأحاديثِ التي عنده وليسَتْ عند غيره، فيَحرِصُ الطالبُ على سماعِها منه، ويَترُكُ ما هو مسموعٌ له من غيرِهِ من الشيوخ، كما تراه مشروحاً في «معرفة أنواع علم الحديث» لابن الصلاح، في (النوع ٢٨). ووقعَتْ عبارةُ (يَنْتَخِبَانِ...) في «ترتيب المدارك» محرَّفةً تحريفاً عَجباً: (فما زالا يُلِحَّان عليه وأُلِحُّ معهما)! وصُحِّحَتْ تصحيحاً أعجب!!

(٢) ص ٢٦.

(٣) ص ٣١ وهذا الخَبرُ والخبرانِ اللذانِ بعده ليسَتْ من أخبار هذا (الجانب الثاني)، وإنما أوردتُها هنا استطراداً واستكمالاً لبيان عُلوِّ هِمَّةِ الإمام أحمد في طلب العلم، رضي الله عنه.

(٤) ص ٣٢.

إحدى سَفَرَاتي ببغداد، فمَرَّ بنا أحمدُ بنُ حنبل وهو يَعْدُو، ونَعْلاَهُ في يَدِه، فأَخَذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟ إلى متى تَعْدُو مع هؤلاءِ الصِّبيان؟! قال: إلى الموت».

٩٢ ــ وقال ابن الجوزي أيضاً(١): «قال أحمد بن محمد بن ياسين: سمعتُ أحمدَ بن مَنِيع ــ بن عبد الرحمن البَغَوِي ثم البغدادي ــ يقول: سَمعتُ جَدِّي يقول: مَرَّ أحمدُ بنُ حنبل جائياً من الكوفة، وبيدِهِ خَرِيطة ــ هي الكِيسُ له خَيْطٌ يُحِيطُ بفَمِهِ يُشَدُّ فيُغلَق ــ فيها كُتُب، فأَخذتُ بيدِهِ فقلتُ: مرَّةً إلى الكوفة! ومرَّةً إلى البصرة!

إذا كتَبَ الرجلُ ثلاثين ألفَ حديث لم يكفِه؟ فسكَتَ، ثم قلتُ: ستين ألفاً؟ فسكَتَ، فقلتُ: مِئَةَ ألفٍ؟ فقال: حينئذ يَعرِفُ شيئاً(٢). قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمدُ كتَبَ ثلاثَ مئةِ ألف، عن بَهْز بن أَسَد وعَفَّان ــ بن مسلم ــ، وأظنُّه قال: ورَوْحِ بن عُبَادَة».

٩٣ ــ وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»(٣)، في ترجمة الإمام (البخاري) محمد بن إسماعيل المولود سنة ١٩٤، والمتوفى سنة ٢٥٦ رحمه الله تعالى، أمير المؤمنين في الحديث(٤)، وصاحبِ الفضل على الناس، إلى يوم الناس: «رحَلَ إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنَتْه الرحلةُ إليها، وكتَبَ عن أكثر من ألف شيخ، قال الفِرَبْرِي: سَمِعَ «الصحيحَ» من البخاري معي نحوٌ من سبعين ألفاً، لم يبق منهم أحدٌ غيري».

---

(١) ص ٢٨.

(٢) قلتُ: هذا جوابُ الإمام أحمد لسائله عبد الرحمن البغوي: «فقلتُ: إذا كتَبَ الرجلُ ثلاثين ألفَ حديث لم يكفِهِ؟ فسكت، ثم قلتُ ستين ألفاً؟ فسكت، فقلتُ: مئةَ ألفٍ؟ فقال: حينئذٍ يَعرِفُ شيئاً!». فما قولك فيمن قرأ بعضَ أحاديثَ من «سُبُل السلام»، لا تبلُغُ في السنواتِ الدراسية الأربع ٢٠٠ أو ٣٠٠ حديث، ثم خرج يقول: إنه تخرَّج من قسم الحديث! فماذا يَعرِفُ هذا؟ وما أكثر المحدِّثين المتخرِّجين على هذا المنوال في هذا الزمان!!

(٣) ١١: ٢٥.

(٤) هذا اللقبُ أعلى الألقاب الرفيعة في مراتب حفظِ الحديثِ وروايتِهِ عند المحدِّثين، وقد لُقِّبَ به الإمامُ البخاري رحمه الله تعالى. والذين لُقِّبوا بهذا اللقب قبلَ البخاري وبعدَهُ إلى القرن =

ثم قال الحافظ ابن كثير: «وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيُوقِدُ السراجَ ويكتب الفائدة تَمُرُّ بخاطره، ثم يُطفىءُ سِراجَه، ثم يقوم مرةً أخرى وأخرى، حتى كان يتعدَّدُ منه ذلك قريباً من عشرين مرة».

٩٤ ــ وجاء في «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي[١]، و«طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[٢]، في ترجمة الإمام البخاري أيضاً: «قال محمد بن يوسف: كنتُ عند محمد بن إسماعيل ــ البخاري ــ بمنزله ذاتَ ليلة، فأحصيتُ عليه أنه قام وأَسرَج ــ ليَستذكرَ أشياءَ يُعلِّقُها في ليلِه ــ ثمانَ عَشْرَةَ مرَّةً.

وقال محمد بن أبي حاتم ورَّاقُ البخاري: كان أبو عبد الله ــ البخاري ــ إذا كنتُ معه في سفر، يَجمعُنا بَيْتٌ واحد إلا في القيظِ أحياناً، فكنت أراه يقوم في ليلةٍ واحدة خَمْسَ عَشْرَةَ مرَّةً إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذُ القَدَّاحة، فيُورِي ناراً ويُسرِج[٣]، ثم يُخْرِج أحاديثَ فيُعلِّمُ عليها، ثم يَضَعُ رأسَهُ، وكان يصلي وقتَ السحر ثلاثَ عَشْرَةَ ركعةً، وكان لا يُوقظني، في كل ما يقوم، فقلت له: إنك تَحمِلُ على نفسِك في كل هذا ولا تُوقظني، قال: أنت شابٌّ، ولا أُحِبُّ أن أُفسِدَ عليك نومَك.

ورأيتُه استَلْقَى على قَفاهُ يوماً ونحن بفِرَبْر، في تصنيفِ «كتاب التفسير» وكان أَتعَبَ نفسَه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله سمعتك تقول: إنّي ما أَتيتُ شيئاً بغير علم قط منذ عَقَلت، فأيُّ علم في هذا الاستلقاء؟

= الثاني عشر، جمعتُ أسماءَهم فبلغوا ٢٦، دَوَّنتُها مع ما يتصل بهذا اللقب ونحوه من مباحث حديثية هامة، في رسالة سمَّيتُها «أمراء المؤمنين في الحديث» في نحو ٤٠ صفحة، وهي ورسالةُ «جوابُ الحافظ المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل» التي اعتنيتُ بها وعلَّقتُ عليها، طُبِعَتا في مجلد واحد ببيروت سنة ١٤١١.

(١) ١ : ٧٥.

(٢) ٢ : ٢٢٠ و ٢٢٦.

(٣) أين هذا التَّعَنِّي المتكرِّرُ والصبرُ الطويلُ في شأنِ الإضاءةِ والنور، من حالِنا اليومَ معشرَ طُلَّابِ العلم؟ فنُوقِدُ المصباحَ بسرعةِ الضوء وقتَ نشاءُ، ودُونَ عَناء، وعلى أحسنِ إنارة وضياء، ودُونَ رائحةٍ مزعجة أو دُخَانٍ مُضـايِق، فللَّهِ دَرُّهم كم جُهِدُوا في تحصيل العلم؟ وكم صَبَرُوا؟

قال: أَتعبنا أنفسَنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْرٌ من الثغور، خشيتُ أن يَحدُثَ حَدَثٌ من أمر العَدُوّ، فأحببتُ أن أَستريح، وآخُذَ أُهبةً لذلك، فإن غافَصَنا العدوُّ ـ أي فاجَأَنا على غِرَّة ـ ، كان بنا حَرَاكٌ ـ أي قُوَّة ـ .

وكان يَركبُ إلى الرَّمْي، فما أعلمُ أني رأيته في طُولِ ما صحبتُه أخطأَ سَهْمُه الهدفَ إلا مرَّتين، وكان لا يُسبَق».

٩٥ ـ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[1]، في ترجمة الفقيه المالكي المحدِّث الإمام (محمد بن سحنون القَيْرَواني)، المولود سنة ٢٠٢، والمتوفى سنة ٢٥٦ رحمه الله تعالى: «قال المالكي: كانت لمحمد بن سحنون سُرِّيَّة ـ أي أَمَةٌ مملوكة ـ يقال لها: أُمُّ مُدَام، فكان عندها يوماً، وقد شُغِل في تأليف كتابٍ إلى الليل، فحَضَرَ الطعامُ، فأستأذَنَتْهُ ليأكُلَ فقال لها: أنا مشغولٌ الساعةَ.

فلما طال عليها، جَعَلَتْ تُلَقِّمُه الطعامَ حتى أتَتْ عليه، وتمادَى هو على ما هو فيه، إلى أن أُذِّنَ لصلاةِ الصبح، فقال: شُغِلنا عنكِ الليلةَ يا أُمَّ مُدَام، هاتِ ما عندكِ، فقالت: قَدْ واللَّهِ يا سَيِّدي أَلقمتُهُ لك، فقال لها: ما شَعَرتُ بذلكِ!»[2].

٩٦ ـ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي[3]، و«تهذيب الكمال» للحافظ المِزِّي[4]، في ترجمة الإمام الذُّهْلي (أبي عبد الله محمد بن يحيى الذُّهْلي النيسابوري)، أميرِ المؤمنين في الحديث وشيخِ البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، المولودِ سنة ١٧٢، والمتوفى سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى:

«قال الحاكم أبو عبد الله: سمعتُ أبا علي أحمدَ بنَ زيد المعدَّل يقول، سمعتُ

---

(١) ٣: ١١٤.

(٢) هذا نموذج من نماذج ذُهولِ العلماء قديماً، واستغراقِهم وفنائِهم في العلم! ووقع ذهولٌ نحوُه للإمام مسلم بن الحجاج القُشَيري النيسابوري، صاحبِ «الصحيح»، الآتي خبرُه برقم ٩٨، فكان سبَبَ وفاتِهِ رحمه الله تعالى. ومنه ذهولُ قَتَادة بنِ دِعامة السَّدُوسي التابعي الجليل، قال قتادة: ما نسيتُ شيئاً قط، ثم قال: يا غلامُ ناوِلني نعلي، قال: نعلُك في رجلك!

(٣) ٣: ٤١٩.

(٤) ٣: ١٢٨٧.

أبا زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى يقول: دخلتُ على أبي: محمدِ بنِ يحيى الذهلي في الصيف الصائفِ وَقْتَ القائِلَة، وهو في بَيْتِ كُتُبِه، وبين يديه السِّراجُ ـ لظُلمة الحُجْرةِ التي هو فيها في وَسَطِ النهار! ـ، فقلتُ: يا أَبَةُ، هذا وقتُ الصيف، ودُخانُ هذا السِّراجِ بالنهار ـ يَضرُّك ـ! فلو نَفَّستَ عن نَفْسِك؟ فقال لي: يا بُنَيَّ تقولُ لي هذا؟! وأنا مَعَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَعَ أصحابِه والتابعين؟!»[١].

مَجَالِسُهم مِثلُ الرياضِ أَنِيقةٌ ... لقد طاب منها الرِّيحُ واللَّونُ والطَّعْمُ

٩٧ ـ وجاء في «ترتيب المدارك» و«الإلماع» للقاضي عياض[٢]، في ترجمة (محمد بن إبراهيم بن عَبْدُوس القَيْرَواني) الفقيه المالكي الإمام، المولودِ سنة ٢٠٢، والمتوفَّى سنة ٢٦٠ رحمه الله تعالى:

«ذَكَر أبو بكر محمد بنُ اللَّبَّاد أنَّ محمدَ بنَ عَبْدُوس صلَّى الصبحَ بوضوء العَتَمة ثلاثين سنة، خمسَ عَشْرةَ سنةً من دِرَاسَة، وخمسَ عَشْرةَ سنةً من عِبادة»[٣].

٩٨ ـ وقال الحافظ أبو عَمْرو بن الصلاح في كتابه «صيانةُ صحيح مسلم من الإخلالِ والغَلَط، وحمايتُهُ من الإسقاطِ والسَّقَط»[٤]، وهو يترجم للإمام مسلم بن

---

(١) هكذا تكون المَحَبَّةُ للعلم، وهكذا يكون العشقُ لَهُ من الطالب المجدّ، لا حَرٌّ يَمنعه منه، ولا دُخَانَ يُبعِدُه عنه. وسيأتي خبرُ الإمام الذهلي هذا في بذلِهِ مئةً وخمسين ألفَ درهم في تحصيل العلم في (الجانب الثامن) في الخبر ٣١٣.

(٢) في «ترتيب المدارك» ٣:١٢٢، و«الإلماع» ص ٢٣٥.

(٣) ومن غريب ما وقع للمؤرخ المحقق البحَّاثة خيرالدين الزركلي رحمه الله تعالى في «الأعلام» ٦:١٨٣ أنه قال في ترجمةِ هذا الفقيه (محمد بن عبدوس): «ولد سنة ٢٠٢، وتوفي سنة ٢٦٠، فقيهٌ زاهد، من أكابر التابِعين». انتهى. فقد أَرَّخَ هو ولادتَهُ سنة ٢٠٢، ووفاتَهُ سنة ٢٦٠. وكيف يكون من وُلِدَ سنة ٢٠٢ من أكابر التابعين؟! ولكنها الغفلة التي لا يَخلو عنها الإنسان.

وإنما وقع له الغلط فيه بسبب ما جاء في ترجمته، وفيها «قال أحمد بن زياد: ما أظنُّ كان في التابعين مِثلُه؟». قال القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ٣:١٢٠، في ترجمتِهِ بعدَ ذكرِهِ هذه الكلمة: «يعني في الفضلِ والزهد. وهذا غُلُوّ». انتهى.

(٤) في ص ٦٤. واسمُ كتاب ابن الصلاح هذا، فيه طولٌ كبير، ويُشبه في طولِهِ بعضَ =

الحَجَّاج القُشَيري النيسابوري، صاحب «الصحيح»، المولود سنة ٢٠٤، والمتوفى سنة ٢٦١ رحمه الله تعالى:

«وكان لموتِهِ سببٌ غريب، نَشَأ من غَمْرةٍ فكريةٍ عِلميَّة، فقرأتُ بنيسابور حَرَسها الله وسائرَ ديارِ الإسلام وأهلَه، فيما انتخبتُه من «تاريخها» ــ للحاكم النيسابوري ــ، على الشيخ الزكيِّ أبي الفتح منصور بن عبد المنعم حفيد الفُرَاوي، وعلى الشَّيْخَةِ أمِّ المؤيَّد زينب ابنةِ أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسن الجُرْجاني رحمهما الله وإيانا، عن. . .، قال الحاكمُ أبو عبد الله الحافظ:

سمعتُ أبا عبد الله محمد بن يعقوب، سمعتُ أحمد بن سَلَمة ــ رفيقَ مسلمٍ في الرحلةِ ــ يقول: عُقِدَ لأبي الحُسَين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ لم يَعرفه، فانصرف إلى منزلِهِ وأَوقَدَ السِّرَاج، وقال لمن في الدار: لا يَدْخُلَنَّ أحدٌ منكم هذا البيت.

فقيل له: أُهدِيَتْ لنا سَلَّةٌ فيها تَمْر، فقال: قَدِّموها إليَّ، فقدَّموها إليه، فكان يَطلُبُ الحديثَ ويأخذُ تمرةً تمرةً يَمْضَغُها، فأَصبحَ وقد فَنِيَ التمرُ! ووَجَدَ الحديثَ. قال الحاكم: زادني الثقةُ من أصحابنا أنه منها مَرِضَ ومات!

قلت ــ القائل ابنُ الصلاح ــ: قد زُرتُ قبرَه بنيسابور، وسَمِعْنا عنده خاتمةَ كتابِهِ «الصحيح» وغيرَ ذلك، رضي الله عنه وعنا، ونَفَعَنا بكتابه وبسائرِ العلمِ آمِين آمِين»(١).

= عناوين كتب ساداتنا العلماء المغاربة، مثلِ كتاب «سِراج المريدين، في سبيل المهتدين، كاستنارة الأسماء والصفات، في المقامات والحالات، الدينية والدنيوية، بالأدلة العقلية والشرعية، القرآنية والسُّنِّية» للإمام أبي بكر ابن العربي المَعَافري المتوفى سنة ٥٤٣ رحمه الله تعالى.

(١) قلت: وهذا الذُّهولُ الذي أصاب الإمامَ مسلماً، ومُعاصِرَهُ الفقيهَ المغربيَّ محمدَ بنَ سحنون القَيْرَواني، السابقَ في الخبر ٩٥، يُشبهه ذُهولُ أبي العباس الأصَمّ: محمد بن يعقوب بن يوسف بن مَعْقِل بن سِنَان، الذي قال السمعاني في «الأنساب» ١: ٢٩٧، والذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٥: ٤٥٢ في ترجمته: «الإمامُ المحدِّثُ مُسنِدُ العصر، رُحْلَةُ الوقت، أبو العباس السِّنَانيُّ المَعْقِليُّ النيسابوريُّ الأصَمُّ، ولد سنة ٢٤٧، وحَدَّث في الإسلام ٧٦ سنة، وتوفي سنة ٣٤٦ رحمه الله تعالى. =

٩٩ ــ وجاء عن أحَدِ كبار المُحدِّثين وأعيانِهم (جعفر بن دُرُسْتُوْيَه) الفَسَوِي، المتوفى بعد سنة ٢٨٥[١]، تلميذ الإمام علي بن المديني البصري إمام المحدثين المتوفى سنة ٢٣٤ خبرٌ عجيب في التزاحم على العلم والتسابق إلى تحصيله من أعجبِ الأخبار، ولكنه ليس فريداً وحيداً بل له أمثالٌ كثيرة ليس هذا موضعَ إيرادِها، وذلك ما حكاه الحافظ الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»[٢]، والإمام ابنُ مفلح الحنبلي في «الآداب الشرعية والمِنَح المرعيَّة»[٣]:

«عن جعفر بن دُرُسْتُوْيَه قال: كنا نأخُذُ المجلسَ في مجلسِ عليٍّ بن المديني وقتَ العصر، اليومَ لمجلسِ غَدٍ، فنقعُدُ طُولَ الليل، مَخافةَ أنْ لا نَلحقَ من الغَدِ موضعاً

= قال الحاكم ــ تلميذُه ــ: حضرتُ أبا العباس يوماً في مسجده ــ بنيسابور ــ، فخرج ليؤذِّنَ لصلاة العصر، فوقف موضعَ المئذنة، ثم قال بصوتٍ عال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان، أخبرنا الشافعيُّ ــ وكان قد حَدَّثَ بكتابِ «الأُمّ» للشافعي عن الربيع ــ، ثم ضَحِكَ وضَحِك الناسُ ثم أَذَّن». انتهى. وقد صَدَق من قال:

إذا تَغَلْغَلَ فِكرُ المَرْءِ في طَرَفٍ   من عِلمِهِ غَرِقَتْ فيه خَواطِرُهُ

(١) بحثت طويلاً وكثيراً جداً عن تاريخ وفاة (جعفر بن درستويه)، فلم أعثر عليه، وقد دخل بغداد، فكان حق الخطيب البغدادي أن يترجم له في «تاريخ بغداد»، ولكنه لم يُترجَم له فيه في المطبوع، وذَكَره بالثناء والإكبار عَرَضاً في ترجمة ابنه (عبد الله بن جعفر بن درستويه) ٩: ٤٢٩. وترجم له الحافظ ابن ماكولا في «الإكمال» ٣: ٣٢٢، وذكر شيئاً عنه، ولكنه لم يذكر تاريخ وفاته. وقد استفدت هذا التحديد التقريبي في تاريخ وفاته، مما كتبه الأستاذ عبد الله الجُبُوري، العراقي، في كتابه «ابن درستويه عبد الله بن جعفر» ص ٢٠، المطبوع ببغداد سنة ١٩٧٤.

و «دُرُسْتُوِيَهْ» ضُبِطَ بضبطين، أصَحُّهَا ضمُّ الدال والراء، والوَجْهُ الآخَرُ فَتْحُها، وأما التاءُ التي قبلَ الواو، فالمحدِّثون يضمونها، واللغويون يفتحونها، خِطَّتين معروفتين في هذا التركيب. ومعنى (درستويه): الكامِلُ أو التامُّ أو نحوُ هذا المعنى، كما ذكره الأستاذ الجُبُوري في كتابه المذكور ص ١٤ ــ ١٥.

(٢) ٢: ١٣٨.

(٣) ٢: ١٤٨.

نَسمَعُ فيه، فرأيتُ شيخاً في المجلسِ يَبُولُ في طَيْلَسانِه! ويُدرِجُ الطَّيْلَسانَ، مَخافةَ أن يُؤخَذَ مكانُه إنْ قام للبول!»[١].

١٠٠ ــ وحكى الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢]، في ترجمة (عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي)، المولود سنة ٢٤٠، والمتوفى سنة ٣٢٧ رحمه الله تعالى، صاحبِ كتاب «الجرح والتعديل» و «التفسير» المعروفِ باسم «تفسير ابن أبي حاتم»، قال: «قال ابن أبي حاتم: رحَلَ بي أبي ــ من الرَيّ في خراسان ــ سنة خمس وخمسين ومئتين، وما احتَلَمْتُ بعدُ، فلما بلغنا ذا الحُلَيفة ــ ميقاتَ أهلِ المدينة المنورة ــ احتَلَمْتُ فسُرَّ أبي حيث أدركتُ حِجّةَ الإسلام».

ثم قال الذهبي: «قال علي بن أحمد الخوارزمي: قال ابنُ أبي حاتم: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقةً، نهارَنا نَدُورُ على الشيوخ، وبالليل نَنسخُ ونُقابِل، فأتينا يوماً أنا ورفيقٌ لي شيخاً فقالوا: هو عليل، فرأيت سَمَكةً أَعْجَبَتْنا فاشتريناها، فلما صِرنا إلى البيت حَضَرَ وَقْتُ مجلسِ بعض الشيوخ فمَضَيْنا، فلم تزل السمكةُ ثلاثةَ أيام، وكادت أن تُنتِن! فأكلناها نِيئةً لم نتفرغ نَشْوِيها! ثم قال: لا يُستطاعُ العِلمُ براحَةِ الجَسد!».

١٠١ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[٣]، في ترجمة أبي النضر الإمام الحافظ شيخ الإسلام (محمد بن محمد الطُّوسي)، شيخِ الشافعية، وأحَدِ الأعلام، المتوفى سنة ٣٤٤ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الحاكم ــ تلميذُه ــ: سمعتُ أحمد بن منصور يقول: أبو النضر يُفتي الناسَ من سبعين سنةً أو نحوِها، ما أُخِذَ عليه في فتوى قط. قال الحاكم: رَحلتُ إليه مرَّتين، وسألتُه: متى يَفرُغُ للتصنيفِ مع هذه الفتاوى؟ فقال: جَزَّأتُ الليلَ، فثُلُثَهُ أصنِّف، وثُلُثَهُ أقرأُ القرآن، وثُلُثَهُ للنوم.

---

(١) سيأتي بيان معنى (الطيلسان) في خبر داود بن علي، الخبر ١٨٥. وهو زينةُ العلماء.
(٢) ٣: ٨٣٠.
(٣) ٣: ٨٩٣.

قال الحاكم: وكان إماماً عابداً بارعَ الأدب، وما رأيتُ في مشايخنا أحسنَ صلاةً منه، وكان يصومُ الدهرَ، ويقومُ الليلَ، ويتصدَّقُ بما فَضَل من قُوتِه، ويأمرُ بالمعروف ويَنهى عن المنكر».

١٠٢ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»(١)، في ترجمة (الإمام الطبراني): «هو الحافظُ الإمام العلامة الحجة بقيَّةُ الحفاظ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللَّخْمي الشامي الطبراني، مُسْنِدُ الدنيا، وُلِدَ سنة ستين ومِئتين، ومات سنة ستين وثلاثِ مئة، فاستكمَلَ مِئةَ عام وعَشَرَةَ أشهر، وحديثُه قد ملأ البلاد، زادَتْ مؤلَّفاته عن ٧٥ مؤلفاً، قال الذَّكْوَاني: سُئل الطبراني عن كثرةِ حديثه فقال: كنتُ أنامُ على البَوَارِي ــ أي الحُصُرِ ــ ثلاثين سنة!».

١٠٣ ــ وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطي(٢)، في ترجمة (عبد الله بن حَمُّود الزُّبَيْدي الأندلسي) صاحبِ أبي علي الفارسي، المتوفى غريقاً في طريق عودتِهِ إلى الأندلس سنة ٣٧٢ رحمه الله تعالى:

«كان عبد الله هذا قد صَحِبَ أبا علي القاليَّ بالأندلس، وأخَذَ عنه، ثم رَحَل إلى المشرق، فصَحِبَ أبا سعيد السِّيرافيَّ إلى أن مات، وصَحِبَ أبا علي الفارسيَّ في مُقَامِهِ وسَفَرِهِ إلى فارِسَ وغيرِها، وأخَذَ عنه وأكثَرَ وبَرَع.

ومن خَبرِهِ مع أبي علي الفارسي: أنَّ أبا علي غلَّسَ يوماً إلى الصلاة في المسجد، فقام إليه عبدُ الله بن حَمُّود هذا من مِذْوَدٍ ــ بَيْتِ العَلَفِ ــ وكان لِدَابَّةِ أبي عليّ خارجَ دارِه، وكان عبدُ الله قد بات فيه، ليُدْلِجَ إليه قَبْلَ الطَّلَبة طَلَباً للسَّبْقِ والأَخْذِ عنه، فارتَاعَ منه أبو عليّ وقال له: وَيْحَك! من تكونُ؟ قال: أنا عبدُ الله الأندلسيُّ، فقال: إلى كم تَتْبَعُنِي؟! واللّهِ إنْ ــ أي ما ــ على وَجْهِ الأرضِ أَنْحَى منك».

زاد أحمد بن مكتوم(٣): «حدَّثني شيخُنا أبو حيان الأندلسي ــ أبقاه الله ــ أنَّ

---

(١) ٣: ٩١٢ و ٩١٥.

(٢) ٢: ١١٩.

(٣) في «تلخيصه كتاب إنباه الرواة» كما في حاشية «إنباه الرواة».

عبدَ الله هذا رَحَل ــ أي رَجَع ــ إلى الأندلس، وحين بقي بينه وبين بلدِهِ مَسَافَةُ يومٍ أو يومين، غَرِقَتْ المركبُ! وهلَكَ كلٌّ من فيها، ومن جملتهم عبدُ الله المذكور! وذهَبَ معه علمٌ كثير كان قد جَلَبه من العراق، رحمةُ الله تعالى عليه».

١٠٤ ــ وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطي أيضاً[١]، في ترجمة (ابن جَنْدَل القرطبي): أبي نصر هارون بن موسى بن صالح بن جَنْدَل القَيْسي، الأديب النَّحْويّ القرطبي، المتوفى سنة ٤٠١ رحمه الله تعالى:

«قال أبو نصر هارون بن موسى: كنا نختلِفُ إلى أبي علي ــ القَاليِّ ــ البغدادي رحمه الله، وقتَ إملائِه «النوادر» بجامعِ الزهراء ــ في قُرْطُبَة ــ، ونحن في فَصْلِ الربيع.

فبينما أنا ذاتَ يومٍ في بعض الطريق، إذ أخَذَتْني سَحَابةٌ، فما وَصَلْتُ إلى مجلسِهِ رحمه الله إلا وقد ابتَلَّتْ ثيابي كلُّها! وحواليْ أبي عليٍّ أعلامُ أهلِ قرطبة، فأمَرَني بالدُّنوِّ منه، وقال لي: مَهْلاً يا أبا نَصْر، لا تأسَفْ على ما عَرَضَ لك، فذا شيءٌ يَضْمَحِلُّ عنك بسُرْعَةٍ بثيابٍ غيرِها تُبدِّلُها.

وقال أبو علي: قد عَرَض لي ما أَبقَى بجسمي نُدُوباً تَدخُلُ مَعِيَ القبرَ! ثم قال: أنا كنتُ أختلِفُ إلى ابنِ مُجاهِد رحمه الله، فادَّلَجْتُ إليه ــ أي ذهبتُ إليه من آخِرِ الليل قبلَ الفجر ــ لأتقرَّبَ منه.

فلما انتهيتُ إلى الدَّرْبِ الذي كنتُ أَخرُجُ منه إلى مجلِسه، ألفيتُه مُغْلَقاً وعَسُرَ عليَّ فتحُهُ، فقلتُ: سبحان الله! أبكِّرُ هذا البكورَ، وأُغلَبُ على القُربِ منه!!

فنظرتُ إلى سَرَبٍ ــ حَفِيرٍ تحتَ الأرض ــ بجَنْبِ الدار فاقْتَحَمْتُه، فلما توسَّطتُه ضاقَ بي ولم أَقْدِر على الخروج! ولا على النهوض! فاقتحمتُه أشدَّ اقتحام، حتى نَفَذْتُ بعد أن تخرَّقَتْ ثيابي! وأثَّر السَّرَبُ في لحمي حتى انكشَفَ العظمُ! ومَنَّ الله عليَّ بالخروج، فوافيتُ مجلسَ الشيخ على هذه الحال، فأين أنت مما عَرَض لي؟! وأنشَدَنا[٢]:

---

(١) ٣:٣٦٢.

(٢) وهي أبيات لبعض العرب، كما في «الأمالي» لأبي علي القالي ١:١١٣.

دَبَبْتُ للمَجْدِ والسَّاعون قد بلَغُوا جُهْدَ النفوسِ وألقَوْا دُونَه الأُزُرَا
وكابَدُوا المجدَ حتى مَلَّ أكثرُهم وعانَقَ المجدَ مَنْ أوفَى ومَنْ صَبَرا
لا تَحسَبِ المجدَ تَمْراً أنتَ آكِلُه لن تَبلُغَ المجدَ حتى تَلعَقَ الصَّبِرا[1]

قال أبو نصر: فكتبناها قبل أن يأتيَ موضعُها في «نوادره»، وسَلَّاني بما حكاه، وهان عندي ما عَرَض لي من بَلَلِ الثياب، واستكثرتُ من الاختلافِ إليه، ولم أفارقه حتى مات رحمه الله تعالى».

١٠٥ ـ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[2]، في ترجمة (أبي عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي) المعروف بابن المَكْوِيّ القرطبي شيخِ فقهاء الأندلس في وقتِه، المولود سنة ٣٢٤، والمتوفى سنة ٤٠١ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«كان قد حُبِّب إليه الدَّرْسُ مُدَّةَ عُمُرِه، لا يَفتُرُ عنه ليلَه ونهارَه، وجُعِلَتْ فيه لَذَّتُه.

ذُكِرَ أنَّ صديقاً له قصَدَهُ في عِيدٍ زائراً له، فأصابه داخلَ دارِه، ودَرْبُهُ مفتوح، فجَلَس ينتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو يَنظُرُ في كتاب، فلم يَشعُر بصديقه حتى عَثَر فيه، لاشتغالِ بالِهِ بالكتاب، فتنبَّه حينئذ له وسلَّمَ عليه، واعتَذَر له من احتباسِهِ بشُغله بمسألةٍ عويصةٍ، لم يُمكنه تركُها حتى فَتَحها الله عليه.

فقال له الرجل: في أيامِ عيدٍ، ووَقْتِ راحةٍ مَسْنُونة؟ فقال: إذا عَلَتْ هذه النفسُ، انصبَّتْ إلى هذه المعرفة، واللَّهِ ما لي راحةٌ ولا لَذَّةٌ في غيرِ النظرِ والقراءة.

قال ابنُ عفيف: إليه انتهَتْ رئاسةُ العلم بالأندلس، حتى صار بمثابةِ يحيى بن

---

(١) الصَّبِرُ بكسر الباء: دواءٌ مُرُّ المذاقِ جداً، يُضرَبُ المَثَلُ بشدةِ مرارته، يُباعُ عند العطارين، قال الشاعر:

الصَّبْرُ يُوجَدُ إنْ باءٌ له كُسِرَتْ لكنه بسُكونِ الباءِ مفقودُ!

(٢) ٤: ٦٣٦.

يحيى الليثي في زمانِه، واعتَلَى على جميع الفقهاء، ونُفِّذَتْ الأحكامُ برأيه، فحكَمَ على الحاكم، وبَعُدَ صِيتُه بالأندلس، وحازَ رِئاسَةً أحادِيثُها مشهورة».

١٠٦ ــ وقال القاضي ابن خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان»[١]، في ترجمة الرئيس أبي علي بن سِيْنَا (الحسين بن عبد الله بن سِيْنَا)، العالم المتفنن الفيلسوفِ والطبيبِ المشهور، المولود سنة ٣٧٠، والمتوفى سنة ٤٢٨:

«ولما بَلَغَ عَشْرَ سنين من عمره، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب، وحَفِظَ أشياءَ من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة، ثم أَحكَمَ عِلمَ المنطق وأُقْليدِس والمِجَسْطي، وفاق شيخَهُ: (الحكيمَ أبا عبد الله النَّاتِلِي) أضعافاً كثيرة، وكان مع ذلك يَختلِفُ في الفقه إلى إسماعيل الزاهد، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلَهي، وفَتَح الله عليه أبوابَ العلوم.

ثم رَغِبَ بعدَ ذلك في علم الطب، وتأمَّلَ الكتبَ المصنفة فيه، وعالَجَ تأدُّباً ــ أي تعلُّماً وتعليماً ــ لا تكسُّباً، وعَلِمَ الطِّبَّ حتى فاق فيه الأوائلَ والأواخر في أقلِّ مدة، وأصبَحَ فيه عديمَ النظير فَقِيدَ المِثْل، واختَلَف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعَه والمعالجاتِ المقتبسةَ من التجربة، وسِنُّهُ إذ ذاك نحوُ سِتَّ عَشْرَةَ سنة!

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلةً واحدةً بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألةٌ توضَّأ وقَصَد المسجد الجامعِ، وصلى ودعا الله عز وجل أن يُسهِّلَها عليه ويَفتحَ مُغْلَقَها له، وكان نادرةَ عصرِهِ في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنَّفَ ما يُقاربُ مِئَةَ مصنَّف، ما بين مطوَّلٍ ومختصرٍ ورسالةٍ في فنون شتى».

١٠٧ ــ وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي[٢]، في ترجمة العلامة الفَلَكي الرياضي الفَذّ، المؤرِّخ اللُّغَوي الأديب الأريب، الجامِع لأشتات العلوم

---

(١) ١: ١٥٢.

(٢) ١٧: ١٨١ ــ ١٨٢.

أبي الرَّيحَانِ البَيْرُوني (محمد بن أحمد الخوارزمي)، المولود سنة ٣٦٢، والمتوفى سنة ٤٤٠ رحمه الله تعالى:

«كان أبو الرَّيْحَان مَعَ الفُسْحَةِ في التعمير ـ فقد عاش ٧٨ سنة ـ ، وجلالةِ الحالِ في عامَّةِ الأمور، مُكِبّاً على تحصيل العلوم، مُنْصَبّاً إلى تصنيف الكتب، يَفتَحُ أبوابها، ويُحيطُ بشواكِلِها وأقرابها ـ يعني بغَوَامِضِها وجليَّاتِها ـ ، ولا يكادُ يُفارِقُ يدَهُ القلمُ، وعينَهُ النظرُ، وقلبَهُ الفِكْرُ، إلا فيما تَمَسُّ إليه الحاجةُ في المعاش، من بُلغةِ الطعام، وعُلْقَةِ الرِّيَاش.

ثم هِجِّيرَاهُ ـ أي دَيْدَنُهُ ودَوَامُ حالِهِ ـ في سائر الأيام من السنة: عِلمٌ يُسفِرُ عن وجهِهِ قِنَاعَ الإشكال، ويَحْسُرُ عن ذِراعَيْهِ كِمَامَ الإغلاق.

حدَّث الفقيهُ أبو الحسن عليُّ بن عيسى الوَلْوَالِجِيُّ، قال: دخلتُ على أبي الرَّيحان وهو يَجُودُ بنَفْسِهِ ـ أي وهو في نَزْعِ الرُّوح قارَبَ الموتَ ـ ، قد حَشْرَجَ نَفَسُهُ! وضاق به صدرُه! فقال لي في تلك الحال: كيف قلتَ لي يوماً: حِسابَ الجَدَّاتِ الفاسدة ـ أي في المِيراث، وهي التي تكونُ من قِبَلِ الأُمِّ ـ ؟

فقلتُ له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالةِ؟! قال لي: يا هذا، أُودِّعُ الدنيا وأنا عالمٌ بهذه المسألةِ، ألا يكونُ خيراً من أن أُخَلِّيَها وأنا جاهلٌ بها؟! فأَعدْتُ ذلك عليه، وحَفِظَ وعَلَّمني ما وَعَدَ، وخَرجتُ من عندِهِ وأنا في الطريق فسَمِعتُ الصُّرَاخ!»[١].

---

(١) قال عبد الفتاح: هذا التعلُّقُ الشديدُ بالعلم، من مِثلِ أبي الرَّيحانِ البَيْرُوني، عند النَّزْعِ وساعةِ الوفاة! قد تكرَّر وقوعُهُ من غير واحد من كبار العلماءِ قبلَهُ وبعدَهُ، وجديرٌ أن تُجمَعَ شواهدُهُ وواقعاتُه، فيكونَ جانباً من جانبِ حياتهم. وأذكُرُ هنا نموذجاً آخَرَ من ذلك، وقع للإمام القاضي أبي يوسف تلميذِ الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، الآتي ذكرُهُ في الخبر ١٦٧ و ١٦٨.

جاء في «مناقبِ أبي حنيفة» للموفَّق المكي[١]، و «مناقبِهِ» أيضاً للكَرْدَري[٢]، و «فضائلِ =

. . . .

(١) ١ : ٤٨١.

(٢) ٢ : ٤٠٥.

١٠٨ ـ وجاء في «تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» للحافظ ابن عساكر[1]، و«طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[2]، في ترجمة إمام الحرمين (الإمامِ أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجُوَيْني)، النيسابوري

= أبي حنيفة وأصحابِه» لابن أبي العَوَّام (مخطوط)، و«الجواهر المضية في طبقات الحنفية» للحافظ القرشي[1]، في ترجمة القاضي (إبراهيم بن الجرَّاح التميمي) المازني الكوفي، ثم المصري، المتوفى بمصر سنة ٢١٧ رحمه الله تعالى، تلميذِ الإمام أبي يوسف ما يلي:

«قال إبراهيمُ بن الجراح: مَرِضَ أبو يوسف فأتيتُهُ أعودُهُ، فوجدتُهُ مُغْمَىً عليه، فلما أفاق قال لي: ما تقولُ في مسألةٍ؟ قلتُ: في مثلِ هذه الحالة؟! قال: لا بأسَ بذلك، نَدْرُسُ، لعلَّهُ يَنْجُو به ناجٍ.

ثم قال: يا إبراهيم، أيُّما أفضَلُ في رَمْيِ الجمارِ ـ أي في مناسك الحج ـ أن يَرمِيَها الرجلُ ماشياً أو راكباً؟ قلتُ: راكباً، قال: أخطأتَ، قلتُ: ماشياً، قال: أخطأتَ، قلتُ: قُلْ فيها يَرضَى الله عنك.

قال: أمَّا ما كان يُوقَفُ عنده للدعاء، فالأفضَلُ أن يرميَهُ ماشياً، وأمَّا ما كان لا يُوقَفُ عنده، فالأفضلُ أن يرميَهُ راكباً، ثم قمتُ من عنده، فما بلغتُ بابَ داره حتى سَمِعتُ الصُّراخَ عليه! وإذا هو قد مات رحمةُ الله عليه!». انتهى.

قال عبد الفتاح: هكذا كانوا! الموتُ جاثِمٌ على رأسِ أَحَدِهم بكُرَبِهِ وغُصَصِهِ، والحَشْرَجَةُ تَشتَدُّ في نَفَسِهِ وصَدْره، والإغماءُ والغَشَيَانُ مُحِيطٌ به، فإذا صَحَا أو أفاق من غشيتِهِ لَحَظاتٍ، تساءَلَ عن بعض مسائلِ العلم الفرعيَّةِ أو المندوبة، ليَتعلَّمَها أو ليُعلِّمَها وهو في تلك الحالِ التي أخَذَ فيها الموتُ منه بالأنفاسِ والتلابيب!

يا الله؟! ما أغلَى العلمَ على قلوبهم، وما أشغَلَ خواطِرَهم وعقولَهم به؟ حتى في ساعةِ النَّزْعِ والموت! لم يتذكروا فيها زوجةً أو ولداً أو قريباً عزيزاً، وإنما تذكَّروا العلم، فرَحَماتُ الله تعالى عليهم، وبهذا صاروا أئمةً في العلم والدين.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

(١) ص ٢٧٨ ـ ٢٨٣.
(٢) ٥: ١٧٤ ـ ١٨٠.

. . . .

(١) ١: ٧٦.

الشافعي الفقيهِ الأصولي المتكلم النظّار المِحجاج، شيخ الإمام الغزالي، المولود سنة ٤١٩، والمتوفى سنة ٤٧٨ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الحافظُ المحدِّثُ الأديب أبو الحسن عبدُ الغافِر بن إسماعيل الفارسي تلميذُه فيه، في كتابِه «السِّيَاق» في تاريخ نيسابور: إمامُ الأئمة على الإطلاق، حَبرُ الشريعة المجمعُ على إمامتِه شَرْقاً وغرباً، المُقِرُّ بفضلِهِ السُّرَاةُ والحُدَاةُ عُجْماً وعُرْباً، من لم تَرَ العيونُ مثلَه قبلَهُ ولا تَرَى بعدَهُ.

رُزِقَ من التوسُّعِ في العِبارَة وعُلوِّها ما لم يُعهَد من غيره، حتى أَنسىَ ذِكْرَ سَحبان، وفاق فيها الأقران، وحَمَلَ القرآنَ، وأعجزَ الفصحاءَ اللُّدَّ، وجاوَزَ الوَصْفَ والحَدّ. وكلُّ من سَمِعَ خبَرَهُ، أو رأى أثَرَهُ، إذا شاهَدَه أَقَرَّ بأنَّ خُبْرَه يَزِيدُ كثيراً على الخَبَر، ويُبِرُّ على ما عُهِدَ من الأَثر.

وكان يَذْكُرُ دُروساً يقَعُ كلُّ واحد منها في أطباقٍ وأوراق، لا يتلعثم في كلمة، ولا يَحتاجُ إلى استدراكِ عَثرة، مَرّاً فيها كالبَرْقِ الخاطِف، بصَوْتٍ مُطابِقٍ كالرَّعْدِ القاصِف، يَنزِفُ فيه المُبرِّزون، ولا يُدرِكُ شأوَه المتشدِّقون المتعمِّقون، وما يُوجَدُ منه في كتبه من العباراتِ البالغةِ كُنْهَ الفَصَاحَة: غَيْضٌ من فَيْضِ ما كان على لِسانِه، وغَرْفَةٌ من أمواجِ ما كان يُعهَدُ من بَيَانِه.

ولمَّا تُوفي أبوه الإمامُ أبو محمد الجُوَيني، كانت سِنُّهُ دون العشرين أو قريباً منه، فأُقعِدَ مكانَهُ للتدريس، فكان يُقيمُ الرَّسْمَ في دَرْسِه، ويَقُومُ منه ويَخرُجُ إلى مدرسةِ البيهقي، حتى حصَّل الأصولَ وأصولَ الفقه، على الأستاذ الإمام أبي القاسم الإسكافِ الإسْفِرَايِني، وكان يُواظِبُ على مجلسِه. وقد سمعتُهُ يقول في أثناءِ كلامه: كنتُ علَّقتُ عليه في الأصولِ أجزاءً معدودة، وطالعتُ في نفسي مِئةَ مجلَّدة.

وكان يَصِلُ الليلَ بالنهار في التحصيل حتى فَرَغ منه، ويبكِّرُ كلَّ يوم قبلَ الاشتغالِ بدَرْسِ نفسِه، إلى مجلسِ الأستاذ أبي عبد الله الخَبَّازيِّ يَقرأُ عليه القرآن، ويَقتبسُ من كل نوع من العلوم ما يُمْكِنُه مع مواظبتِهِ على التدريس.

ولمَّا عاد من إقامتِهِ ومُجاورته بمكة المكرمة أربعَ سنين يُدرِّسُ فيها ويُفتي، بُنِيَتْ له

المدرسةُ النِّظَامِيَّةُ في نَيْسَابُور، وأُقعِدَ للتدريس فيها، وبَقِيَ على ذلك قريباً من ثلاثين سنة، غيرَ مُزاحَم ولا مُدافَع، مُسلَّم له المِحرابُ والمِنبرُ والخِطابةُ والتدريسُ ومجلسُ التذكيرِ يومَ الجمعةِ والمُناظَرةُ، وهُجِرَتْ له المَجالسُ، وحَضَرَ دَرْسَه الأكابرُ والجَمُّ العظيمُ من الطلبة، وكان يَقعُدُ بين يديه كلَّ يوم نحوٌ من ثلاثِ مِئةِ رجلٍ من الأئمةِ ومن الطلبة.

وسمعتُه في أثناء كلامٍ يقول: أنا لا أنامُ ولا آكلُ عادةً، وإنما أنامُ إذا غلَبَني النومُ، ليلاً كان أو نهاراً، وآكلُ الطعامَ إذا اشتهيتُ الطعامَ أيَّ وقتٍ كان. وكانَ لَذَّتُه ولَهْوُهُ ونُزهتُهُ في مُذاكرةِ العلم، وطلبِ الفائدةِ من أيِّ نوع كان.

وقَدِمَ إلى نيسابور ــ بلد إمامِ الحرمين في سنة ٤٦٩ ــ الشيخُ أبو الحسن علي بن فَضَّال بن علي المُجاشِعي ــ القَيْرواني ــ النَّحْوِيُّ، فقابَلَه إمامُ الحرمين بالإكرام، وأَخَذَ في قراءةِ النحو عليه والتلمذةِ له ــ وقد بَلَغَتْ سِنُّ إمام الحرمين آنذاك نحوَ الخمسين سنة، وغدا إمامَ وَقْتِه وعَصْرِه ــ، وكان يَحمِلُه كلَّ يوم إلى داره، ويَقرأُ عليه كتابَ «إكسير الذَّهَب، في صِناعة الأدب» من تصنيفِه، فكان أبو الحسن المُجاشِعي يحكي ويقولُ: ما رأيتُ عاشِقاً للعلم مِثلَ هذا الإمام، فإنه يَطلبُ العلم للعلم، وكان كذلك».

١٠٩ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة الحافظ الحُمَيدي (محمد بن فَتُّوح) الأندلسي ثم البغدادي، تلميذِ الإمامِ ابنِ حزمٍ وتلميذِ الحافِظِ الخطيبِ البغدادي، المولودِ بالأندلس سنة ٤٢٠، والمتوفَّى ببغداد سنة ٤٨٨ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الأميرُ ابنُ مَاكُوْلَا: لم أر مثلَ صديقِنا الحُمَيديِّ في نزاهتِهِ وعِفَّتِهِ ووَرَعِه، وتشاغُلِهِ بالعلم، صنَّفَ «تاريخ الأندلس». وقال إبراهيم السَّلَمَاسِي: لم تَرَ عيناي مِثلَ الحُمَيدي في فضلِهِ ونُبلِه، وغزارةِ علمه، وحِرْصِه على نَشْرِ العلم. وقال يحيى ابنُ البنَّاء: كان الحُميديُّ من اجتهادِهِ: يَنسَخُ باللَّيل في الحَرِّ، فكان يَجْلِسُ في إجَّانَةِ ماءٍ! ــ وهي إناءٌ يُغسَلُ فيه الثيابُ ــ، يَتبرَّدُ به!». انتهى.

---

(١) ٤: ١٢١٩.

ورحم الله تعالى القائل: ولا خَيْرَ فيمن عاقَهُ الحَرُّ والبَرْدُ.

١١٠ ــ جاء في «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي رحمه الله تعالى[١]، في ترجمة الإمام أبي الفتح ابنِ بَرْهان (أحمد بن علي) البغدادي، الأصولي الحنبلي ثم الشافعي، المولود سنة ٤٧٩، والمتوفى سنة ٥١٨ رحمه الله تعالى:

«كان حنبليَّ المذهب أولاً، ثم انتَقل ــ إلى المذهب الشافعي ــ وتفقَّهَ على الشاشي، والغزالي، وإِلْكِيَا ــ الهَرَّاسِي ــ .

وكان حاذِقَ الذهن، عجيبَ الفِطرة، لا يكاد يَسمَعُ شيئاً إلا حَفِظَه وتعلَّقَ بذهنِه، ولم يَزَل مواظباً على العلم حتى ضُرِبَ المَثَلُ باسمِه.

وكانت الرِّحلةُ قد انتهت إليه، وتزاحَمَتْ الطُّلَّابُ على بابِه، حتى انتَهَى حالُه إلى أن صار جميعُ نهارِهِ وقِطْعَةٌ من ليلِهِ مُستَوْعَباً في الاشتغال، يَجلِسُ من وقتِ السَّحَر إلى وقتِ العِشاءِ الآخِرة، ويتأخَّرُ أيضاً بعدَها.

وحُكي أنَّ جماعةً سألوه أن يَذْكُرَ لهم ــ أي يُدَرِّسَ لهم ــ دَرْساً من كتابِ «الإحياء» للغزالي، فقال: لا أجِدُ لكم وقتاً، فكانوا يُعيِّنون الوقتَ، فيقولُ: في هذا الوقتِ أذكُرُ الدَّرْسَ الفلانيَّ، إلى أن قرَّروا مَعَه أن يَذكُرَ لهم دَرْساً من «الإحياء» نِصفَ الليل»[٢].

---

(١) ٦: ٣٠.

(٢) وهذا يفيد أنه كان قد نَظَّم أوقاتَهُ للعبادةِ والطعامِ والمَنَام، وللمطالعةِ والحفظِ، والتدريسِ والقراءةِ عليه، وهذا شيء هامٌّ جداً، يَتمكَّنُ بِه العالِمُ وطالبُ العلم من بلوغ مرغوباتِهِ العلمية جميعاً، بحيث لا يَطْغَى مرغوبٌ على مرغوبٍ فيُحرَمَ منه.

وقد تعرَّض لبيان هذا التنظيم وفضلِه وآدابِه علماؤنا في كتب أصول التعلُّم والتعليم، كالخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، وابنِ جَماعة الحَمَوي ثم المصري في «تذكرة السامع والمتكلم في أدَبِ العالم والمتعلِّم»، والزَّرْنُوجيِّ في «تعليم المتعلم طريق التعلم»، والعَلْمَوي في «المُعِيد في أدبِ المفيد والمستفيد»، وسِواهم.

ورأيتُ كلمةً حسنة في هذا الصَّدَد للإمام ابن الجوزي، تحدَّث فيها عن لزوم تنظيمِ أوقات طالبِ العلم بين الحفظِ والنَّسْخِ والمطالعةِ والتصنيفِ وراحةِ البدن، ولزومِ تقديمِ الفاضلِ على =

= المفضولِ من العلم، قالها في كتابه «صيد الخاطر» ص ٢٠٥، في الفصل ١٤٦، قال رحمه الله تعالى:

«ينبغي لطالب العلم أن يكون جُلُّ هِمَّتِه مصروفاً إلى الحفظِ والإعادة، فلو صَحَّ صَرْفُ الزمانِ إلى ذلك كان الأَولى، غيرَ أنَّ البَدَنَ مَطِيَّة، وإجهادُ السَّيرِ مَظِنَّةُ الانقطاع.

ولمَّا كانت القُوَى تَكِلُّ فتَحتاجُ إلى تجديد، وكان النَّسْخُ والمُطالعةُ والتصنيفُ لا بُدَّ منه، مع أنَّ المُهِمَّ الحفظُ، وَجَب تقسيمُ الزمانِ على الأمرين، فيكون الحفظُ في طَرَفي النهار وطَرَفي الليل، ويُوزَّعُ الباقي بين عملِ النسخِ والمطالعة، وبين راحةِ البدنِ وأخذِهِ لِحَظِّهِ.

ولا ينبغي أن يقَعَ الغَبْنُ بين الشركاء، فإنه متى أَخَذ أحدُهم فوق حَقِّه، أثَّرَ الغَبْنُ وبانَ أثرُه، وإنَّ النَّفْسَ لَتَهْرُبُ إلى النَّسْخ والمطالعةِ والتصنيفِ عن الإعادةِ والتكرار، لأنَّ ذلك أشهَى وأخَفُّ عليها.

ومع العَدْلِ والإنصافِ يَتأتَّى كلُّ مُراد، ومن انحرَفَ عن الجادَّةِ طالَتْ طريقُه، ومن طَوَى مَنازِلَ في مَنْزِلٍ، أَوْشَكَ أن يَفُوتَهُ ما جَدَّ لأجلِهِ، على أنَّ الإنسانَ إلى التحريضِ أحوَجُ، لأنَّ الفُتُورَ ألصَقُ به من الجِدّ.

وبعدُ، فاللازمُ في العلم طَلَبُ المُهِمِّ، فرُبَّ صاحِبِ حديثٍ حَفِظَ مثلاً لحديثِ «من أتَى الجمعةَ فلْيَغْتَسِلْ» عِشرين طريقاً، والحديثُ قد ثَبَتَ من طريق واحد، فشَغَله ذلك عن معرفةِ آدابِ الغُسل! والعُمرُ أقصرُ وأنفَسُ من أن يُفرَّطَ منه في نَفَسٍ، وكفَى بالعقلِ مُرشِداً إلى الصواب، وبالله التوفيق». انتهى.

وتعرَّض الإمامُ ابنُ جَماعة في كتابه «تذكِرة السامع والمتكلِّم» ص ٧٢، إلى آداب المتعلم في تنظيم الوَقْتِ وشَغْلِه بأفضلِ ما يلائمه، فقال رحمه الله تعالى: «الخامس في آداب المتعلم في نفسه: أن يُقَسِّمَ أوقاتَ ليلِهِ ونهاره، ويغتنمَ ما بقي من عمره، فإنَّ بقيَّةَ العمر لا قيمةَ له ــ أي لا يُقوَّمُ بشيء لنفاسَتِه وعِزَّتِه ــ!

وأجودُ الأوقاتِ للحفظ: الأسحارُ، وللبحثِ: الأَبكارُ ــ جَمْعُ الجَمْعِ لبُكْرَةٍ وهي أوَّلُ النهار ــ، وللكتابةِ وسَطُ النهار، وللمطالعةِ والمذاكرة: الليل.

وقال الخطيبُ ــ البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه» ٢: ١٠٣ ــ ١٠٤ ــ: أجوَدُ أوقاتِ الحفظ: الأسحارُ، ثم وسَطُ النهار، ثم الغَداةُ. قال: وحِفظُ الليل أنفَعُ من حفظِ النهار، ووقتُ الجُوعِ أنفعُ من وقتِ الشِّبَع.

قال: وأجودَ أماكنِ الحِفظ: الغُرَفُ ــ أي الحُجَرُ العالِيَةُ المرتفِعَةُ ــ وكلُّ موضع بعيدٍ عن =

١١١ ــ قال عبد الفتاح: فانظر ــ رعاك الله تعالى وتولّاك ــ إلى هذا الصبر العجيب من هذا الشيخ الإمام (ابنِ بَرْهان)، على بَثِّ العلمِ ونشرِه، والاحتسابِ في أدائِه ونقلِه، وانظر أيضاً إلى هذا الشوق المُقْلِق، والحِرصِ المُحرِق، من أولئك الطلبةِ المحترقين بالعلم، الذين لم يجدوا عند الشيخ وَقْتاً ليقرأوا عليه إلا نِصفَ الليل، فأتَوْه فيه مسرورين مبتهجين، ووجدوا أنفسَهم فيه محظوظين مُكْرَمين.

فللّه دَرُّ أولئك الآباءِ طَلَبةً وشيوخاً! وما أشَدَّ حُبَّ أولئك الطلبةِ للعلم! وما أقوَى حِرصَهم على تحصيلِهِ من الشيوخ ليُتقِنوه ويفهموه، وما أصبرَ أولئك الشيوخَ على إشاعةِ العلم وإيصالِه للمتعلِّمين، أَدَاءً للأمانة، ووفاءً بالعُهْدة.

وإنا لله من طلبة هذا العصر، الذين يَستعجلون قَرْعَ (الجَرَس)! ليخرجوا من الدرس المؤقَّتِ بخمسين دقيقة! في ألينِ الأوقات راحةً، وأفضلِها نشاطاً، وأجمعِها ذهناً، من قاعاتٍ مبرَّدةٍ صيفاً، ومدفَّأةٍ شتاءً، فيَخرجون من قاعةِ العلم يَزحَمُ بعضُهم بعضاً! كأنهم يفرون من حَرِيق، أو ينطلقون من سِجنِ ظالمٍ قَتَّال!

ومن لطيفِ ما يُنشَدُ في هذا المقام ما أورده الإمامُ أبو سَعْد السَّمعاني في كتابه

= المُلْهِيَاتِ، وليس بمحمودٍ الحِفظُ بحضرةِ النَّبات والخُضْرةِ والأنهارِ وقَوَارعِ الطُّرُق وضَجيجِ الأصوات، لأنها تَمنعُ من خُلُوِّ القلبِ غالباً». انتهى كلامُ ابن جماعة. وكان الإمامُ الخليلُ بن أحمدَ الفَراهيديُّ أحَدُ عقلاءِ البشر يقول: أصفَى ما يكون ذِهنُ الإنسانِ في وَقْتِ السَّحَر. كما في ترجمته من «وفَيَات الأعيان» لابن خلكان ١: ١٧٣.

ويشير الخطيبُ بقوله: (لأنها تَمنعُ من خُلُوِّ القلب غالباً)، إلى أن بعض العلماء ــ في القليل غير الغالب ــ يَجُودُ ذِهنُه، وتَصْفُو نَفْسُه وقريحتُه عند الأشجارِ والأنهار، فقد قال القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان» ٢: ٧٧، في ترجمة الفيلسوف الحكيم الأُعجوبة: أبي نصر الفارابي (محمد بن طَرْخَان)، المتوفى سنة ٣٣٩، الذي قال عن نفسِهِ: «إنه يُحسِنُ أكثرَ من سبعين لِساناً»:

«كان أزهَدَ الناس في الدنيا، لا يَحتفِلُ بأمرِ مَكْسَبٍ ولا مسكن، وكان منفرداً بنفسِهِ لا يُجالِسُ الناسَ، وكان مُدَّةَ مُقامِهِ بدمشق، لا يكونُ غالباً إلا عندَ مُجتَمَع ماء، أو مُشتَبَكِ رِياض، ويُؤلِّفُ هناك كتبَه، ويَتناوَبُهُ المشتغلون عليه، ولم يَزل على ذلك إلى أن توفي بدمشق وقد ناهز الثمانين سنة رحمه الله تعالى».

«الأنساب» في رسم (الصَّنْعاني)[١] «لأبي عبد الله الفقيه المَراغي الشافعي رحمه الله تعالى:

إذا رأيتَ شَبَابَ الحيِّ قد نَشَأوا | لا يَنقُلُون قِلَالَ الحِبْرِ والوَرَقا
ولا تَراهم لَدَى الأشياخِ في حِلَقٍ | يَعُوْنَ من صالحِ الأخبارِ ما اتَّسَقَا
فذَرْهُمُ عنك واعلَمْ أنَّهُمْ هَمَجٌ | قد بَدَّلوا بعُلُوِّ الهِمَّةِ الحُمُقَا».

١١٢ ــ وما أجمل قولَ علامةِ العربية ورئيسِ أهل اللسان فيها أبي القاسم الزمخشري، يحكي تلذُّذَ العلماء بإيقاظِ ليلِهم وطولِ سَهَرِهم:

سَهَري لتنقيحِ العلومِ أَلَذُّ لي | مِن وَصْلِ غانِيَةٍ وطِيبِ عِناقِ
وتمايُلي طَرَباً لِحَلِّ عَوِيصَةٍ | أشْهَى وأَحْلَى من مُدامَةِ سَاقِ
وصَرِيرُ أقلامي على أوراقِها | أحْلَى مِن الدُّوكَاهِ[٢] والعُشَّاقِ
وأَلذُّ مِن نَقْرِ الفَتَاةِ لدُفِّها | نَقْرِي لأُلقِي الرَّمْلَ عن أوراقي
يا مَنْ يُحاوِلُ بالأمَانِيْ رُتْبَتِي | كم بَيْنَ مُسْتَفِلٍ وآخَرَ راقي
أأبِيتُ سهرانَ الدُّجَى وتَبِيتُهُ | نَوْماً وتَبغِي بَعْدَ ذاكَ لَحَاقي؟![٣]

---

(١) ٨: ٩٧.

(٢) الدُّوْكَاهُ: نوعٌ من أنواع النَّغَم المُطْرِب عندهم.

(٣) هذه الأبيات وجدتها معزوَّةً للزمخشري، في الترجمة المذكورة له في آخر تفسيره «الكَشَّاف» التي كتبها الشيخ إبراهيم بن عبد الغفار الدُّسُوقي رئيس المصححين بدار الطباعة المِيرية (البولاقية) في مصر، المتوفى سنة ١٣٠٠ رحمه الله تعالى، في طبعة «الكَشَّاف» البولاقية سنة ١٢٨١، ثم نُقِلَتْ عنه في الطبعات التي تَلَتْها، ولم أقف عليها في مصادر ترجمته التي رجعتُ إليها.

وذَكَر هذه الأبيات العلامة الآلوسي المفسِّر المتوفى سنة ١٢٧٠ في كتابه «غرائب الاغتراب» ص ٦١، في سياق كلام له قائلاً «... يَحِقُّ لي أن أقولَ...» ثم أوردَها وجاء فيها عنده البيتُ الخامس، ولم يَرِد في سِياقةِ الترجمةِ المذكورة. ولا شكَّ أنه تمثَّل بها، فقد ذكَرَ العلامة الفقيه أحمد الطَّحْطَاوِي الحنفي المتوفى سنة ١٢٣١، في حاشيته على «الدر المختار» ١: ٢٢، الأبيات الأربعة الأولى، وعزاها إلى التَّاج السبكي، وتابعه العلامة الفقيه ابن عابدين في حاشيته «رد المحتار على الدر المختار» ١: ٢٣، ولعل التاج السبكي تمثَّل بها، فهي بشعر الزمخشري وأُسلوبِهِ أشبَهُ، والله تعالى أعلم.

عُلُوُّ الهِمَّة عند السابقين

١١٣ ــ رأيتَ في الأخبارِ الماضية، وستَرَى في الأخبارِ الآتية، والوقائعِ المذكورةِ في هذا الكتاب: عَزَائِمَ خارقة، وهِمَماً سامِقَة، لا يَبْلُغُ الخَيَالُ ــ عند بعضِ الناس ــ إلى ما بلغَتْهُ حقيقةً، من احتلالِ ذِروةِ الفضلِ والمجد وارتقاء سَنامِ العلم والمكانةِ الرفيعة، وحِيَازةِ الذِّكرِ العَطِر الدائم، والأجرِ الباقي المستمرِ، وغيرِ ذلك من الفضائلِ والمآثِر.

وأصحابُ تلك العزائم لا يختلفون عَنَّا في طبيعتهم الإنسانية وقُدَرِهم الخِلْقية، وإنما يختلفون عَنَّا في عُلوِّ الهِمَّة، ودَأَبِ العزيمة، وتجشُّمِ الصِّعَاب، وامتطاءِ العَقَبات، فما كان فَوْزُهم بما فازَوُا به: ناشئاً عن شيء ليس في وُسْعِنا الوصولُ إليه، أو الحصولُ عليه، أو ناشئاً عن مُعْجزاتٍ سَماويَّةٍ أُكرِمُوا بها، أو خوارقِ عاداتٍ أُوتُوها، وحُرِمْنَا منها نحن ولم نُؤتَها، بل إنَّ بُلُوغَهم ما بَلَغُوه، وفَوزَهُمْ بما نالوه، إنما يَعتمِدُ على (عُلوِّ الهمة)، ومَضَاءِ العزيمة، وتَزَايُدِ الصبرِ والدأَب، حتى إدراك الأُمْنِيَّةِ والطَّلَب.

١١٤ ــ وللإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧، في كتابه النافع العُجَاب «صيد الخاطر» كلماتٌ قالها في (عُلُوِّ الهِمَّة)، تَحدَّثَ بها عن نفسِه في علوِّ هِمَّتِه، استَحْسَنْتُ أن أَجمعَ جُمَلاً منها، وأُورِدَها في هذه (الصَّفَحات)، لعلَّها تَحفِزُ هِمَم طَلَبةِ العلم إلى أعالي المَعَالي، وتأخُذُ بعزَمَاتِهم إلى بلوغِ الأماني، فإنَّ العزائم يَشحَذُ بعضُها بعضاً. قال رحمه الله تعالى(١)، ما يلي:

١١٥ ــ «من علامةِ كمالِ العقل: عُلُوُّ الهِمَّة، والراضِي بالدُّونِ دَنِيّ! قال الشاعر:

إذا ما عَلاَ المرءُ رَامَ العُلَى ... ويَقنَعُ بالدُّونِ من كان دُوْنا!

وما ابتُلِيَ الإنسانُ قطُّ بأعظمَ من عُلُوِّ هِمَّتِهِ، فإنَّ من عَلَتْ هِمَّتُهُ يَختارُ المعالي، وربما لا يُساعِدُ الزمانُ، وقد تَضعُفُ الآلَةُ، فيَبقَى في عذاب، وإني أُعطِيتُ من عُلوِّ الهِمَّةِ

---

(١) في كتابه المذكور ص ١٥ و ١٧٥ ــ ١٧٦ و٢٣٨ ــ ٢٤٠ و ٢٥٠ ــ ٢٥١ و ٣٠٠ و ٤٥٦ ــ ٤٥٧.

طَرَفاً، فأَنَا به في عذاب! ولا أقولُ: لَيْتَهُ لم يكن، فإنه إنما يحلو العيشُ بقَدْرِ عَدَمِ العقل! والعاقِلُ لا يَختارُ زيادةَ اللذَّةِ بنُقصانِ العقل!

ومن رُزِقَ هِمَّةً عاليةً يُعذَّبُ بمقدارِ عُلوِّها، كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوسُ كباراً تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

١١٦ ــ وبيانُ هذا أنَّ من عَلَتْ هِمَّته، طَلَبَ العلومَ كلَّها ولم يقتصِر على بعضِها، وطَلَبَ من كل علم نهايتَه، وهذا ما لا يَحتمِلُهُ البَدَن.

ثم يَرَى أنَّ المرادَ العمَلُ، فيَجتهدُ في قيامِ الليل وصَوْمِ النهار. والجمعُ بين ذلك وبين العلمِ صَعْب، ثم يرى تَرْكَ الدنيا، ويَحتاجُ إلى ما لا بُدَّ منه، ويُحبُّ الإيثارَ، ولا يَقدِرُ على البُخْل، ويتقاضَاهُ الكَرَمُ البَذْلَ، ويَمنعُهُ عِزُّ النَّفْس عن الكَسْبِ من وجوهِ التبذُّل.

فإنْ هو جَرَى على طبعِهِ من الكَرَم احتَاجَ وافتَقَر، وتأَثَّر بَدَنُه وعائِلَتُهُ[1]، وإن أَمسَك فطَبْعُهُ يأبَى ذلك. وفي الجملةِ: يَحتاجُ إلى مُعَانَاةٍ وإلى جَمْعِ الأضداد، فهو أبداً في نَصَبٍ لا يَنقضِي، وتَعَبٍ لا يَفرُغ، ثم إنْ حَقَّقَ الإخلاصَ في الأعمال زاد تَعبُهُ، وقَوِيَ وَصَبُهُ!

فأين هو ممن دَنَتْ هِمَّتُه؟ إن كان فقيهاً فسُئِلَ عن حديثٍ قال: لا أعرِفُه، وإن كان مُحدِّثاً فسُئِلَ عن مسألةٍ فقهيَّة قال: ما أَدْرِي، ولا يُبالي إن قِيل عنه مُقصِّر!

١١٧ ــ والعالي الهِمَّةِ يَرَى التقصيرَ في بعض العلوم فَضِيحةً، قد كَشَفَتْ عيبَه، وقد أَرَتْ الناسَ عَوْرَتَه، والقَصِيرُ الهِمَّةِ لا يُبالِي بمِنَنِ الناس! ولا يَستقبحُ سُؤالَهم!

---

(١) يستفاد من هذا النص أنَّ لفظ (عائلة) بمعنى (الأُسْرَة) استعمالٌ قديمٌ من القرنِ السادس. وأذكر أني رأيته في كلام الإمام الغزالي في «المستصفى من علم الأصول»، فهو معروف الاستعمال في القرن الخامس، وسيأتي أيضاً في كلام ابن الخاضبة، المتوفى سنة ٤٨٩، في الخبر ٢٠٤، كما جاء أيضاً في كلام الأمير أسامة بن منقذ، المتوفى سنة ٥٨٤، في كتابه «الاعتبار» ص ١٧٤.

ولا يَأْنَفُ من رَدٍّ! والعالِي الهِمَّةِ لا يَحمِلُ ذلك، ولكنْ تعَبُ عالي الهمةِ رَاحةٌ في المَعْنَى، ورَاحَةُ قصيرِ الهِمَّةِ تَعَبٌ وشَيْنٌ إن كان ثَمَّ فَهْم! والدنيا دارُ سِبَاقٍ إلى أعالي المَعالِي، فينبغي لذِي الهِمَّةِ العالِيَة أن لا يُقصِّرَ في شَوْطِه، فإن سَبَق فهو المقصودُ، وإن كَبَا جَوادُهُ مع اجتهادِهِ لم يُلَم.

١١٨ ـ وخُلِقَتْ لي هِمَّةٌ عالِيَةٌ تَطلُبُ الغايات، بَلَغْتُ السِّتين وما بلَغْتُ ما أمَّلْتُ فأَخَذْتُ أسألُ الله تطويلَ العُمُر ـ وقد عاش ٨٩ سنة ـ، وتَقْوِيَةَ البَدَن، وبُلُوغَ الآمال، فأَنكَرَتْ عليَّ العَادَاتُ وقالَتْ: ما جَرَتْ العادَةُ بما تَطلُب، فقلتُ: إنما أطلُبُ من قَادِرٍ على تجاوُزِ العَادَات.

ونَظَرْتُ إلى عُلُوِّ هِمَّتي فرأيتُه عَجَباً! وذلك أنني أَرُومُ من العلم ما أَتَيَقَّنُ أني لا أصِلُ إليه، لأنني أُحِبُّ نيلَ كلِّ العلوم على اختلافِ فُنُونِها، وأُريدُ استقصاءَ كلِّ فن، وهذا أمْرٌ يَعجِزُ العُمرُ عن بعضِه، فإن عَرَضَ لي ذو هِمَّةٍ في فَنٍّ قد بلَغَ منتهاه، رأيتُه ناقِصاً في غيره، فلا أعُدُّ هِمَّتَهُ تامَّةً، مِثْلُ المُحَدِّثِ فاتَهُ الفِقهُ، والفقيهِ فاتَهُ عِلْمُ الحديث، فلا أَرى الرِّضَا بنُقْصانٍ من العلوم إلا حادِثاً عن نَقْصِ الهِمَّة!

١١٩ ـ ثم إني أَرُومُ نهايةَ العَمَلِ بالعلم، فأتُوقُ إلى وَرَعِ بِشْرٍ الحافي، وزَهَادةِ معروفٍ الكَرْخي. وهذا مع مُطالَعَةِ التصانيفِ، وإفادةِ الخَلْقِ، ومُعاشرتِهم: بعيدٌ!

ثم إني أَرُومُ الغِنَى عن الخَلْق، وأستشرِفُ الإفضالَ عليهم. والاشْتغالُ بالعلم مانعٌ من الكَسْب، وقبولُ المِنَن مما تأباه الهِمَّةُ العالية.

ثم إني أَتُوقُ إلى طَلَب الأولاد، كما أَتُوقُ إلى تحقيقِ التصانيف، لِيَبقَى الخَلَفانِ نائبينِ عني بَعْدَ التَّلَف، وفي طلَبِ ذلك ما فيه من شَغْلِ القلبِ المُحبِّ للتفرُّد.

ثم إني أَرُومُ الاستمتاعَ بالمستحسَنات، وفي ذلك آمتناعٌ من جهةِ قِلَّةِ المال، ثم لو حَصَلَ فرَّقَ جَمْعَ الهِمَّة!

وكذلك أطلُبُ لبدني ما يُصلِحُهُ من المَطَاعِم والمَشَارِب، فإنه مُتَعَوِّدٌ للترفُّهِ واللُّطْف، وفي قِلَّةِ المالِ مانع، وكلُّ ذلك جَمْعٌ بين أضداد!

١٢٠ ـ ولقد رأيت أقواماً يَصِفُون عُلوَّ هِمَمِهم، فتأملتُها فإذا بها في فَنٍّ واحد، ولا يُبالُون بالنقصِ فيما هو أهمُّ، قال الرَّضِيُّ:

ولِكُلِّ جِسْمٍ في النُّحولِ بَلِيَّةٌ وبَلاءُ جِسْمي من تَفاوُتِ هِمَّتي

فنظرتُ فإذا غايةُ أمَلِهِ الإمَارة!

وكان أبو مُسْلِم الخُراسانيُّ في حالِ شَبِيْبَتِهِ لا يكادُ يَنامُ، فقِيلَ له في ذلك، فقال: ذِهنٌ صَافٍ، وهَمٌّ بعيدٌ، ونَفْسٌ تَتُوقُ إلى مَعَالِي الأمور، مع عَيْشٍ كعَيْش الهَمَجِ الرَّعَاع!

قيل: فما الذي يُبرِدُ غَلِيلَك؟ قال: الظَّفَرُ بالمُلْك، قيل: فاطْلُبْه، قال: لا يُطلَبُ إلا بالأهوال! قيل: فارْكَبْ الأهوالَ، قال: العَقْلُ مانِعٌ! قيل: فما تَصنعُ؟ قال: سأَجعَلُ من عَقْلي جَهْلاً، وأحاوِلُ به خَطَراً لا يُنَالُ إلا بالجَهْلِ! وأُدبِّرُ بالعقلِ ما لا يُحفَظُ إلا به، فإنَّ الخُمولَ أَخُو العَدَم.

١٢١ ــ فنظرتُ إلى حال هذا المسكين، فإذا هو قد ضَيَّعَ أهَمَّ المُهِمَّاتِ، وهو جانبُ الآخِرة، وانتَصَبَ في طَلَبِ الوِلايات، فكم فَتَك وقَتَل؟! حتى نالَ بعضَ مُرادِهِ من لذَّات الدنيا، ثم لم يَتنعَّم في ذلك غيرَ ثَمَانِ سِنِين! ثم اغْتِيلَ ونَسِيَ تدبيرَ العقل! فقُتِلَ ومَضَى إلى الآخرةِ على أقبح حال!

١٢٢ ــ فأين أنا وما وَصَفْتُه من حَالٍ من كانت غايَةُ هِمَّتِه الدنيا؟ وأنا لا أُحبُّ أن يَخدِشَ حُصولُ شيءٍ من الدنيا وَجْهَ دِيْنِي بسَبَب، ولا أن يوثِّرَ في عِلْمي ولا في عَمَلي.

فوَاقَلَقي من طَلَبِ قيامِ الليل، وتحقيقِ الوَرَع، مَعَ إعادةِ العلم، وشَغْلِ القلبِ بالتصانيف، وتحصيلِ ما يُلائمُ البدنَ من المَطاعم! ووَاأَسَفِي على ما يَفُوتني من المُناجاةِ في الخَلْوةِ مع مُلاقاةِ الناس وتعليمِهم! ويا كَدَرَ الوَرَعِ مع طلبِ ما لا بُدَّ منه للعائِلَة!

غيرَ أني قد استَسلمتُ لتعذيبي، ولعلَّ تهذيبي في تعذيبي، ، لأَنَّ عُلوَّ الهِمَّةِ إنما هو لطَلَبِ المعالي المُقرِّبةِ إلى الحقِّ عزَّ وجل، وربما كانت الحَيْرَةُ في الطَّلَبِ دليلاً إلى المقصود، وها أنا أحفَظُ أنفاسِي من أن يَضيعَ منها نَفَسٌ في غير فائدة، فإن بَلَغ هَمِّي مُرادَهُ، وإلا فنِيَّةُ المؤمنِ أبلَغُ من عَمَلِه.

١٢٣ ــ واللَّذَّاتُ كلُّها حاصلةٌ بين حِسِيّ وعَقْليّ، فنِهايَةُ اللَّذاتِ الحِسيَّةِ

وأعلاها: النكاحُ، وغايةُ اللذاتِ العقليةِ: العِلْم. فمن حَصَلَتْ له الغايتانِ في الدنيا فقد نالَ النهاية.

وأنا أُرشِدُ الطالبَ إلى أعلى المطلوبَيْن، غيرَ أنَّ للطالب المَرْزُوقِ علامَةً، وهو أن يكون مرزوقاً عُلُوَّ الهِمَّة، وهذه الهِمَّةُ تُولَدُ مع الطِّفْل، فتَراهُ من زمنِ طُفولتِهِ يَطلُبُ مَعَالِيَ الأمور، كما يُروَى في الحديث أنه كان لعبد المُطَّلِبِ مَفْرَشٌ في الحِجْرِ ــ بجوار الكعبة المعظَّمة ــ، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يأتي وهو طِفْلٌ فيَجلِسُ عليه، فيقول عبد المطلب: إنَّ لابني هذا شأناً.

١٢٤ ــ فإنْ قال قائل: فإذا كانت لي هِمَّةٌ، ولم أُرْزَق ما أطلُب فما الحِيلةُ؟ فالجوابُ أنه إذا امتَنَع الرِّزْقُ من نَوْعٍ لم يَمتَنِع من نوعٍ آخرَ. ثم من البعيدِ أن يَرزُقَك هِمَّةً ولا يُعِينَك، فانظُرْ في حالِك، فلَعلَّه أعطاك شيئاً ما شَكَرْتَه! أو ابتَلاك بشيء من الهَوَى ما صَبرتَ عنه!

واعلم أنه ربما زَوَى عنك من لذَّاتِ الدنيا كثيراً، لِيُؤثِرَك بلذَّاتِ العلم، فإنك ضعيف ربما لا تَقْوَى على الجَمْع، فهو أعلَمُ بما يُصلِحُك.

١٢٥ ــ وأمَّا ما أردتُ شَرْحَه لك، فإنَّ الشَّابَّ المبتدِىءَ طَلَبَ العِلْمِ، ينبغي له أن يأخُذَ من كلِّ عِلْمٍ طَرَفاً، ويَجعَلَ عِلمَ الفقه: الأهمَّ، ولا يُقصرِّ في معرفةِ النَّقْل ــ أي المنقولات من الأحاديث والسِّيَرِ والأخبار ــ، فبه يَتبيَّنُ سِيَرَ الكاملين، وإذا رُزِقَ فَصَاحةً من حيث الوَضْعُ ــ يعني اللغة والنطق ــ، ثم أُضِيفَ إليها معرفةُ اللغةِ والنحو، فقد شُحِذَتْ شَفرةُ لِسَانِهِ على أجْوَدِ مِسَنّ.

ومتى أَدَّى العِلْمُ لمعرفةِ الحقِّ، وخِدمةِ الله عز وجل فُتِحَتْ له أبوابٌ لا تُفتَح لغيره. وقد غَمَّني في هذا الزمان ــ القَرْنِ السادس ــ أن العلماء لتقصيرِهم في العلم صاروا كالعَامَّة! وإذا مَرَّ بهم حديثٌ موضوع قالوا: قد رُوِي!!

والبكاءُ ينبغي أن يكونَ على خَسَاسَةِ الهِمَم!! ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم». انتهى.

وأنتقلُ بعد هذا إلى الجانب الثالث:

الجانب الثالث
في أخبارهم في الصبر على الفقر وشَظَفِ العيش ومَرَارتِهِ وبَيْعِ الملبوساتِ أو المفروشات

وهذا الجانب يُعَدُّ أوسعَ الجوانب في هذه الصفحات، إذْ كان الفقرُ شِعارَ العلماء ودِثارَهم على الغالب، فيما مَضَى من الزمن وفيما يأتي(١).

١٢٦ ــ وقد عقد العلامة الفيلسوف المؤرخ، والقاضي الفقيه، والعالم الاجتماعي الأديب، الشيخُ ابن خلدون المتقدم ذكره(٢)، في «مقدمته» باباً كبيراً تحدَّثَ فيه عن طُرُقِ تحصيلِ المعاش ووجوهِ الكسبِ والصنائع، وما يكونُ منها له المَوْرِدُ العظيمُ والثروةُ الكبيرة، وما لا يكون منه ذلك، ثم عقَدَ في ذلك الباب فصلاً خاصاً بيّن فيه سببَ قِلّةِ المال في أيدي العلماء، فقال رحمه الله تعالى:

«الفصل السابع: في أنَّ القائمين بأمور الدين من القضاء والفُتيا والتدريس والإمامةِ والخِطابةِ والأذانِ ونحوِ ذلك لا تَعظُمُ ثَرْوَتُهم في الغالب.

والسببُ لذلك: أنَّ الكسبَ هو قيمةُ الأعمال البشرية، وهي متفاوتةٌ بحسب الحاجةِ إليها، فإذا كانت الأعمالُ ضروريةً في العُمرانِ عامّةَ البلوى به، كانت قيمتُها أعظم، وكانت الحاجةُ إليها أشد.

وأهلُ هذه الصنائعِ الدينيةِ لا تُضطَرُّ إليهم عامَّةُ الخلق، وإنما يَحتاج إلى ما عندهم الخَوَاصُّ ممن أقبَلَ على دِينه، وإن احتِيج إلى الفُتيا والقضاءِ في الخصومات، فليس على وجهِ الاضطرارِ والعموم، فيقع الاستغناءُ عن هؤلاء في الأكثر.

وإنما يَهتمُّ بإقامةِ مراسِمِهم صاحبُ الدولة بما له من النظر في المصالح، فيَقسِمُ لهم حظاً من الرزق على نسبةِ الحاجةِ إليهم، على النحوِ الذي قرَّرناه، لا يُساويهم بأهلِ

---

(١) قال شعبة بن الحجّاج رحمه الله تعالى: إذا رأيت المَحْبَرَةَ في بيت إنسان فارْحَمْهُ، فإن كان في كُمِّكَ شيءٌ فأَطْعِمْه.

(٢) في الخبر ٨.

الشوكةِ ولا بأهلِ الصنائع، من حيث الدِّيْنُ والمَراسِمُ الشرعية، لكنه يَقْسِمُ بحسبِ عُمومِ الحاجةِ وضرورةِ أهلِ العُمْران، فلا يَصحُّ في قِسمهم إلا القليل.

وهم أيضاً لشَرَفِ بضائعهم أعزَّةٌ على الخَلْقِ وعندَ نُفوسِهم، فلا يَخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يَستدِرُّون به الرزق، بل ولا تَفرُغُ أوقاتُهم لذلك، لما هم فيه من الشُّغلِ بهذه البضائعِ الشريفة المشتملةِ على إعمال الفِكر والبَدَن، بل ولا يَسعُهم ابتذالُ أنفسهم لأهل الدنيا، لشرفِ بضائعهم، فهم بمعزِلٍ عن ذلك، فلذلك لا تَعظُمُ ثروتُهم في الغالب.

ولقد باحثتُ بعضَ الفضلاء ــ في هذا المعنى ــ فأنكَر ذلك عليَّ، فوقَعَ بيدي أوراق مُخَزَّقةٌ من حساباتِ الدواوين بدار المأمون، تَشتمِلُ على كثيرٍ من الدَّخْل والخَرْج، وكان فيما طالعتُ فيه أرزاق القُضاةِ والأئمةِ والمؤذنين، فوَقَفتُه عليه، وعَلِمَ منه صِحةَ ما قلتُه ورَجَع إليه، وقَضَيْنا العَجَبَ من أسرارِ الله في خَلْقِهِ وحكمتِهِ في عوالمه، واللهُ الخالِقُ القادرُ لا رَبَّ سواه». انتهى.

١٢٧ ــ قال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في المقدمة الحافلة لكتابه العظيم «المجموع»(١)، في (باب آداب المتعلم): «قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يَطلُبُ أحَدٌ هذا العلمَ بالمُلْكِ وعِزِّ النفس فيُفلِح، ولكنْ مَنْ طلَبَهُ بذُلِّ النفس، وضِيق العيش، وخِدمةِ العلماء أفلح. وقال أيضاً: لا يُدْرَكُ العلمُ إلا بالصبر على الذُّلّ، وقال أيضاً: لا يَصْلُح طلَبُ العلم إلا لمُفْلِس، فقيل: ولا الغنيِّ المَكْفِيِّ؟ قال: ولا الغنيِّ المكفيّ(٢).

وقال مالكُ بنُ أنس رحمه الله تعالى: لا يَبلُغُ أحدٌ من هذا العلم ما يريد حتى يُضِرَّ به الفقرُ، ويُؤْثِرَهُ على كل شيء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: يُستعانُ على الفِقهِ بجَمْع الهَمّ، ويُستعانُ على حَذْفِ العلائق بأخذِ اليسيرِ عند الحاجة، ولا تَزِدْ. وقال إبراهيم الآجُرِّي: من طلب العلم بالفاقَةِ وَرِثَ الفَهْم». انتهى.

---

(١) ١: ٦٤. من طبعة الشيخ محمد نجيب المطيعي رحمه الله تعالى.

(٢) هذه بعض أقوال الإمام الشافعي في شأن الفقر، وسيأتي جُمَل أخرى من أقواله فيه أيضاً، في الخبر ١٣٢ و ١٣٥ و ١٣٩، وسيأتي ذكر ولادته ووفاته عند ترجمته في الخبر ١٧٠.

١٢٨ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[(١)]، في ترجمة الإمام (النَّضْر بن شُمَيْل) المازني البصري اللغوي، عالِم أهل مَرْو، وأنهض تلامذةِ الخليل بنِ أحمد الفراهيدي، الآتي ذكره[(٢)]: «قال داوودُ بنُ مِخْراق: سَمعتُ النضر بن شُمَيل يقول: لا يَجِدُ الرجلُ لذة العلم حتى يجوعَ ويَنْسَى جُوعَهُ!».

١٢٩ ــ قال ياقوت الحَمَوِيُّ في «معجم الأدباء»[(٣)]، في ترجمة الإمام الحافظ الفقيه المجتهد المتفنِّن (ابن حزم: علي بن أحمد) الأندلسي القرطبي، المولود سنة ٣٨٤، والمتوفى سنة ٤٥٦ رحمه الله تعالى: «ذُكِرَ أنَّ ابنَ حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خَلَف الباجي صاحبِ التواليفِ الكثيرة، وجرَتْ بينهما مناظرة ــ في سنة ٤٤٠ ــ فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد الباجي لابن حزم: تَعذُرُني فإن أكثر مطالعاتي كانت على سُرُجِ الحُرَّاس، قال ابن حزم: وتَعذُرُني أيضاً فإنَّ أكثر مطالعاتي كانت على مَنائِرِ الذهبِ والفضة. ــ أي على المصابيح المصنوعة من الذهب والفضة ــ[(٤)].

قال ياقوت الحَمَوِيُّ: أراد أنَّ الغِنَى أضيَعُ لطلبِ العلم من الفقر!».

١٣٠ ــ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[(٥)]، في ترجمة الإمام الحافظ الفقيه المحدِّث المتفنِّن أبي الوليد الباجي (سليمان بن خلف) الأندلسي القرطبي، ــ المتقدم ذكره قريباً مع ابن حزم ــ المولود سنة ٤٠٣، والمتوفى سنة ٤٧٤ رحمه الله تعالى:

«كان أصلُه من بَطَلْيَوْس، ثم انتَقل إلى باجَةِ الأندلس، وكان أوَّلَ وُرُودِهِ الأندلسَ مُقِلاًّ من دنياه، حتى احتاج في سفره إلى القَصْدِ بشِعره! وآجَرَ نَفْسَه مدَّة مُقامِه

(١) ١ : ٣١٤.

(٢) في الخبر ١٦٩.

(٣) ١٢ : ٢٣٩.

(٤) والخبر بنحو هذا المعنى في «نفح الطيب» ١ : ٣٥٨. وقد وقع قوله (على منائر الذهب) محرفاً إلى (منابر الذهب) في «نفح الطيب» و«معجم الأدباء» وكتاب «ابن حزم» لأبي زهرة ص ٥٦.

(٥) ٤ : ٨٠٤ من طبعة بيروت، و ٨ : ١١٧ من طبعة المغرب.

ببغداد ــ فيما سَمِعتُه مُستَفِيضاً ــ لحِراسةِ دَرْب، فكان يستعين بإجارتِهِ على نفقتِهِ، وبضَوْئِهِ على مُطالعتِه.

ثم ورَدَ الأندلسَ وحالُه ضيِّقة، فكان يَتولّى ضَرْبَ وَرَق الذَّهَب للغَزْل والإِنْزَال(١)، ويَعقِدُ الوثائق، فلقد حدَّثني ثقةٌ من أصحابه ــ والخبرُ في ذلك مشهور ــ أنه كان حينئذ يَخرجُ إلينا للقراءةِ عليه، وفي يديه أَثَرُ المِطرقةِ وصَدَأُ العَمَل.

إلى أن فَشَا علمُه وعُرِف، ونَوَّهَتْ الدُّنيا به، وشُهِرَتْ تَوالِيفُه، فعُرِفَ حقُّه، وجاءته الدنيا، وعَظُمَ جاهُه، وأُجزلَتْ صِلاتُه، فاتّسعَتْ حالُه، وتوفّر كَسْبُه، حتى مات عن مالٍ وافرٍ خطير.

وجَرَتْ له مجالسُ ومناظراتٌ مع ابن حزم، كانت سَبَبَ فضِيحةِ ابنِ حزم وخروجِهِ من مَيُوْرْقَة، وقد كان رأسَ أهلِها، ثم لم يَزل أمرُهُ في سِفَالٍ فيما بَعْدُ». انتهى. ونحوه في «نفح الطيب»(٢)، و«الديباج المُذْهَب»(٣).

١٣١ ــ يقول العلامة الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في كتابه «ابن حزم»(٤)، بعدَ ذكرِهِ خبرَ اعتذارِ كلّ من الباجي وابنِ حزم لصاحبه، بالحالِ التي نشأ عليها من الفقرِ المُدْقِع أو الغِنى المُفْطِع: «يَرى ابن حزم أنَّ كثرةَ المالِ وطِيبَ العيشِ تَسُدُّ مسالكَ العلم إلى النفوس، فلا تتجهُ إلى العِلم، فإنَّ الجِدَة قد تُسهِّلُ اللهو، وتَفتحُ بابَه، وإذا انفتح بابُ اللهو سُدَّ بابُ النور والمعرفة، فلذائذُ الحياةِ وكثرتُها تَطمِسُ نُورَ القلب، وتُعمِي البصيرة، وتَذهَبُ بحِدَّة الإدراك.

أما الفقيرُ، وإن شَغَله طلَبُ القُوت، قد سُدَّت عليه أبوابُ اللهو، فأَشرقَتْ النفسُ، وانبثق نورُ الهداية، هذا نظرُ ابن حزم.

---

(١) الإنزال بكسر الهمزة، ووقع في طبعة بيروت (الأَنزال) بإثبات الهمزة من فوق، وهو خطأ! وأُغْفِلَت الهمزةُ من الإثبات في طبعة المغرب، والصواب: الإنزال بإثباتها، أي إنزالِ ورق الذهب بعد دقه وجعله خيوطاً ليكون في النسيج والقماش.

(٢) ١: ٣٥٨.

(٣) ص ١٢٠.

(٤) ص ٥٦.

أمَّا نَظرُ الباجي فإنه متجه إلى الأسبابِ المادية، من حيث تسهيل الحياةِ المادية، من غير نظرٍ إلى الأسباب النفسية، التي تتضمن أن الغِنى يكونُ في كثيرٍ من الأحوال معه الانصرافُ عن العلم إلى اللهو، وقد توفرت ذرائعُه». انتهى.

١٣٢ ـ قال عبد الفتاح: والذي أراه أقربَ إلى الصواب هو اعتذارُ الباجي، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه وقولُه القولُ الفَصْل: «لا تستشِرْ من ليس في بيتِهِ دقيق، لأنه مُدَلَّهُ العَقْل»(١).

والحقيقة أن الفقرَ له حالان:

حالٌ تتبلبلُ فيها الخواطرُ من الهمِّ والغمِّ وكثرةِ العِيال وانكسارِ النفسِ الناشيءِ عن ذلك، وما إلى هذا من عِلَلِ الفقرِ التي تأخُذُ بالأنفاسِ والتلابيب، ولنعبِّر عن هذا بالفقرِ الأسود كما يقال، وهو الذي يُبدِّدُ الذهنَ، ويَقتُلُ النبوغ، ويَذوِي صاحبُه كما تذوي الشجرةُ الخضراءُ إذا انقطع عنها الماء، ومن هذا النوعِ فَقْرُ (من ليس في بيتِهِ دقيق!)، ومنه أيضاً الفقرُ الذي لَحِقَ إبراهيمَ النَّظَّام، كما سيأتي في خبره(٢).

وحالٌ ثانية يكونُ الإنسانُ فيها فقيراً، ولكنه يكون خفيفَ المَؤُونة، راسخَ الطمأنينةِ بالله، لا يُؤثِّر الفقرُ إلا على سَطْح جَسَدِه، ومَظْهَرِ لِباسِه، وأما خاطرُهُ فمستقِرٌّ

---

(١) هكذا جاء هذا اللفظ: (مُدَلَّه) بالدال المهملة في «مناقب الإمام الشافعي» للبيهقي ٢ : ٢١٣. وفي «القاموس»: «الدَّلَهُ: ذهابُ الفؤاد من هَمٍّ ونحوِه». وجاء هذا اللفظ في «الانتقاء» لابن عبد البر ص ٨٧: «مُوَلَّه» بالواو بَدَلَ الدال. وفي «القاموس»: «الوَلَهُ: الحُزْنُ أو ذهابُ العقلِ حُزْناً». والروايةُ الأولى أولى بالسِّياق هنا، والله تعالى أعلم.

وتُروَى جملةُ: «لا تُشاوِرْ من ليس في بيتِهِ دقيق» للإمام التابعي محمد بن شهاب الزهري، المتوفى سنة ١٢٤، قبلَ ولادةِ الإمام الشافعي بدَهرٍ، فإنه ولد سنة ١٥٠، حكاها الحافظُ الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٣ : ١١٠، في ترجمة (عُبَيد الله بن ضِرَار).

وقال إبراهيم النّظّام: «إذا كان في جيرانك جَنازةٌ، وليس في بيتك دقيق، فلا تَحضُر الجنازة، فإنَّ المُصِيبة عندك أكثَرُ منها عندَ القوم، وبيتُك أولى بالمأتم!» من «سَرْح العيون» لابن نُباتة المصري ص ٢٣٠. وانظر خبرَ إملاقِ إبراهيم النَّظَّام الآتي برقم ٢١٥.

(٢) في الخبر ٢١٥.

مُشْرِق، ثابتٌ منجَمِع، ولنُسمِّ هذا بالفقرِ الأبيض كما يقال، وهو نعمةٌ بالنظر إلى طالبِ العلم في أوَّلِ حياته، حتى لا تَشُدَّهُ الدنيا إلى مَشاغِلِها وغَمَراتِها ومَفاتِنِها، فإنَّ التقلُّلَ من الدنيا أمكَنُ لحفظِ العلم وتحصيله.

١٣٣ ـ ولعلَّ هذا النوعَ هو الذي شَرَّفَه وفضَّلَه الإمامُ أحمد بن حنبل على الغِنَى، وقد كان ـ رضي الله عنه ـ يُؤثِرُ الفقرَ على سواه، ويأنَسُ به، ويرتاحُ له، قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»[١] في ترجمة الإمام أحمد: «قال أحمد: الصَّبْرُ على الفقرِ مرتبةٌ لا يَنالُها إلا الأكابِر، والفقرُ أشرَفُ من الغِنَى، فإنَّ الصبرَ عليه مَرارَةٌ، وانزعاجَهُ أعظمُ حالاً من الشكر، ولا أَعْدِلُ بفضلِ الفقرِ شيئاً. وكان أحمد يُحِبُّ التخفُّفَ من الدنيا، لأجل خِفَّةِ الحساب».

١٣٤ ـ قال الحافظ ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»[٢]، والعلامة ابن مفلح الحنبلي في «الآداب الشرعية»[٣]: قال أبو بكر المَرُّوْذِي: سَمِعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: ما أَعْدِلُ بالفَقْرِ شيئاً، ما أَعْدِلُ بالفَقْرِ شيئاً، أنا أفْرَحُ إذا لم يكن عندي شيء. وكان يُحِبُّ الفقراء، لم أرَ الفقيرَ في مجلسِ أحَدٍ أعزَّ منه في مجلسِه.

وذكرتُ له رجلاً صَبُوراً على الفقر في أَطمار، فكان يَسألُني عنه ويقول: اذْهَبْ حتى تأتيَني بخَبَرِهِ، سبحان الله، الصَّبْرُ على الفقر، الصَّبْرُ على الفقر، ما أَعدِلُ بالصَّبرِ على الفقرِ شيئاً، تَدْرِي الصبرَ على الفقر أيُّ شيء هو؟! وقال: كم بين من يُعطَى من الدنيا ليُفتَتَن، إلى آخرَ تُزْوَى عنه؟!

أتدري إذا سألك أهلُك حاجَةً لا تَقدِرُ عليها، أيُّ شيءٍ لك من الأجر؟! أَسَرُّ أيامِي إليَّ: يومٌ أُصبحُ فيه وليس عندي شيء ما قلَّ من الدنيا كان أَقلَّ للحساب، إنما هو

---

(١) ١٠: ٣٣٠.
(٢) من الباب ٣١ و ٤٤ و ٥١.
(٣) ٢: ٢٣ و ٢٦١ و ٢٦٢، بزيادة وإدراجِ قولِ ابن أدهم.

طَعَامٌ دُونَ طعام، ولِباسٌ دُونَ لباس، وإنها أيامٌ قلائل ــ وكان إبراهيمُ بن أدهم يُنشِدُ:

وما هي إلا جَوْعَةٌ قد سَدَدْتُها وكلُّ طَعَامٍ بَيْنَ جَنْبَيَّ واحِدُ ــ

وكان أحمَدُ رحمه الله تعالى يقول: الغِنَى من العافِيَة، والدُّنوُّ من المُتْرَفِين فِتْنَة! والجلوسُ معهم فِتْنَة! وإنَّ لكل شيء كَرَماً، وكرَمُ القلبِ: الرِّضَا عن الله تعالى.

وكان يقولُ لبعض أصحابه: كم يَعيشُ أحدُنا؟ خمسين سنة؟ ستين سنة؟ كأنك بنا ــ قد مِتْنا ــ ! ما شَبَّهتُ الشبابَ إلا بشيءٍ كان في كُمِّيْ فسَقَط!.

١٣٥ ــ ولعلَّ هذا النوع من الفقر، هو الذي مدَحَه أيضاً الإمامُ الشافعيُّ ــ رضي الله عنه ــ ، وأَنِسَ به، ورآه زِينةَ العلماء، فقال فيما رَوَى البيهقي عنه(١):

«عن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لي الشافعيُّ رضي الله عنه: يا أبا موسى، قد أَنِستُ بالفقرِ حتى لا أَسْتَوْحِشُ منه.

وقال لي: يا أبا موسى، أَزْيَنُ شيءٍ بالعلماءِ الفَقْرُ مع القَنَاعة، والرِّضَا بهما، وسمعتُه يقول: فَقْرُ العلماء فَقْرُ اختيار، وفقرُ الجُهَّالِ فَقْرُ اضطرار. وقال ابنُ عبد الحكم: سمعتُ الشافعيَّ يقول: سمعتُ محمدَ بنَ الحسن يقول(٢): لا يَصلُحُ في هذا الشأنِ ــ يعني العلم ــ إلا من أَقرَحَ البُنُّ قَلْبَهُ»(٣). انتهى.

---

(١) في «مناقب الشافعي» ٢: ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٢) هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذُ الإمام أبي حنيفة، وشيخُ الإمام الشافعي رضي الله عنهم جميعاً. وهذه الكلمة رواها الخطيب البغدادي أيضاً، في كتاب «الجامع» ١: ٣٩.

(٣) البُنُّ بضمّ الباء وتشديد النون كما في «القاموس» وشرحه ٩: ١٤٥، قال: «وهو شيء يُتّخذ كالمُرِّي». قال الشارح: «قال ابنُ السَّمعاني ــ في الأنساب ــ: شيء من الكَوَاميخ». انتهى.

قال الإمام البيهقي في «مناقب الشافعي» ٢: ١٥٠، وراءَ هذا الخبر: البُنُّ كامَخٌ أي إدامٌ، يُصنَعُ بالشَّامَاتِ ومِصْرَ، من عَكَرِ المُرِّيِّ أي من رَدِيء الإدامِ وأَسْوَئِهِ، يَتأَدَّمُ به الغُرَباءُ، لفقرِهم. انتهى بزيادةِ إيضاح مني. =

والإمامُ الشافعي رضي الله عنه هو القائلُ أيضاً: «لا يَصلُحُ طَلَبُ العلم إلا لِمُفْلِس»[١].

وهو القائلُ أيضاً: «لا يَطلُبُ هذا العلمَ من يَطلُبُه بالتَّمَلُّلِ ــ أي بالتبرُّمِ وتقلُّبِ العَزْمِ ــ وغِنَى النَّفْسِ فيُفلِحَ، ولكن من طَلَبَهُ بذِلَّةِ النفس، وضِيقِ العيش، وخِدمةِ العِلْم أفلَح»[٢]. انتهى.

١٣٦ ــ وهذا النوع يَشهد له خبرُ فقرِ أبي هريرة، الذي يأتي في (الجانب الرابع)[٣]، فقد دعاه فقرُه إلى ملازمةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم على طمأنينةٍ وخِفةِ مسئولية، فكان فقره في مآلِهِ حَسنَةً عليه وعلى الناس، إذ كان يَلزم مجلسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لِشبَع بطنِه، وكان في طيّ ذلك حِفظُهُ السُّنّةَ للمسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو كان صاحبَ تجارة أو نخيل، كالذين عناهم

= وقوله: (أَقرَحَ قلبَهُ...) أي جعَل فيه قَرْحةً أي جُرحاً، لملازمتِهِ ذلك الإدامَ الواحِدَ الرديءَ.

وهكذا جاءت (أقرَحَ) في كلمةِ الإمام محمد بن الحسن، في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ١: ٣٩، وهي الصواب. ووقعت في «مناقب الشافعي» ٢: ١٥٠ «إلا من أَحرَق قلبَهُ البُنُّ». انتهى. ولعل (أحرق) روايةٌ ثانية في الكلمة؟ أو هي مقلوبة محرَّفةٌ عن (أقرح)، وهو الأقرب.

ولفظ (البُنّ) هنا، هو الصوابُ لا غير في هذا المقام. قد جاء في كتاب «المحدِّث الفاصل» للرامَهُرْمُزي ص ٢٠٣، قولُ أبي عَقِيل الثقفي ــ عبدِ الله بن عقيل أحدِ أتباع التابعين الرُّواةِ للحديث ــ: «إنما نَحفَظُ الحديثَ لأنَّ أجوافَنا قد أقرَحَها البُنُّ». وخطَّأ محقِّقُه (البُنّ)! وصوَّب فيه (البُرّ)! وقال: «البُرُّ بضم الباء والراء، وهو الصحيح، قاله مُريداً به الخُبز، وبذلك يَتِمُّ معنى العبارة، وهو أنَّ أَكْلَهُم الخُبزَ من غير إدام أَقرَح أجوافَهم». انتهى.

وتابَعه على ذلك الخطأ والتخطئةِ محققُ كتاب «الجامع» للخطيب! وخطَّأ كلمةَ (البُنّ) أيضاً! وحكَم عليها بالتصحيف، وأنَّ صحتها (البُرّ). وكلُّ هذا خطأ وغلط!!

(١) من «الجامع» للخطيب البغدادي ١: ٣٩.

(٢) من «تدريب الراوي» للسيوطي ص ٣٤٥، من أول النوع ٢٨.

(٣) في الخبر ٢١٣.

ـ في حديثه الآتي[1] ـ من المهاجرين والأنصار، لشَغَله ما شغَلَهم عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٣٧ ـ ولهذا يَنصحُ الإمامُ ابنُ هشام النَّحْوي المصري، صاحبُ كتاب «القطر» و«المغني» وغيرهما: (أبو محمد جمالُ الدين عبدُ الله بن يوسف) المولود سنة ٧٠٨، والمتوفى سنة ٧٦١ رحمه الله تعالى، يَنصحُ طَلَبَةَ العلمِ بالصبر على مَشَاقِّ العلم والتحصيلِ ومنها الفقرُ، إذ الصَّبْرُ شَرْطٌ في نيل كلِّ عزيزٍ غالٍ، فيقول:

ومن يَصطبِرْ للعِلم يَظفَرْ بنَيْلِهِ ... ومن يَخطُبِ الحسناءَ يَصبِرْ على البَذْلِ
ومن لم يُذِلَّ النَّفْسَ في طلب العُلا ... يَسِيراً يَعِشْ دَهْراً طويلاً أخا ذُلِّ

١٣٨ ـ وقد حفَلَتْ كتبُ الأدب والتاريخ والتراجم والأخلاق، بأقوالِ كثيرٍ من العلماء في فَقْرِهم وجُوعِهم وغُربتِهم وصَبْرِهم على شدائدهم الخانِقَة، واستهانتِهم بها وعَدَمِ اكتراثهم لها، تمسُّكاً منهم بمثوبةِ الصبر، المحتسَبِ فيه الأجر، والذي كانوا فيه من الفائزين.

كما حَفَلَتْ أيضاً بتبرُّمِ كثيرٍ من العلماء من الفقر، وتململِهم منه، وذمِّهم له، وقد كَثُرَتْ أشعارُهم في هذا كثرةً بالغة.

فمما قاله قائلُهم يَتصبَّرُ على الفقر والعُدْم، ويستعلي على الجُوعِ والسَّغَب، ما رأيتُه مكتوباً على وَجْهِ كتاب مخطوط[2]:

الجوعُ يُدفَعُ بالرَّغِيفِ اليَابِسِ ... فعَلامَ أُكثِرُ حَسْرَتي ووَساوسي؟!
والموتُ أنصَفَ حين ساوَى حُكمَهُ ... بين الخليفةِ والفقيرِ البائِسِ

١٣٩ ـ وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يَستهينُ بسَطْوَةِ الفاقةِ عليه، ويكسِرُ جبروتَها بصبرِهِ الذي غلَبَها وفاقَ عليها، فيقول فيما نُسِبَ إليه رضي الله عنه:

---

(١) في الخبر ٢١٣.

(٢) هو كتاب «المنهج السَّوِيّ، والمنهل الرَّوِيّ، في الطب النَّبوِيّ» للسيوطي، رأيتُه في مكتبة رامبور في الهند، في رحلتي إليها عام ١٣٨٢، ورقمه في المكتبة المذكورة ٧٩٩ في علم الحديث الشريف.

أمطِري لُؤلؤاً سَماءَ سَرَنْدِيـــبَ وفيضِي آبارَ تُكْرُورَ تِبْرا[١]
أنا إن عِشتُ لَستُ أعدَمُ قُوْتاً   وإذا مِتُّ لستُ أعدَمُ قَبْرا
هِمَّتي هِمَّةُ المُلُوكِ، ونفسِي   نَفْسُ حُرّ ترى المَذَلَّةَ كُفْرا
وإذا ما قَنِعْتُ بالقُوتِ عُمْرِي   فلماذا أَزُورُ زَيْداً وعَمْرا؟

١٤٠ ــ وهذا القاضي الأديب الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجُرْجاني، الآتي ذكرُه[٢]، يقتدي بالإمام الشافعي فيقول[٣]:

وقالوا: تَوَصَّلْ بالخُضُوعِ إلى الغِنَى   وما عَلِموا أنَّ الخُضُوعَ هو الفَقْرُ
وبيني وبينَ المالِ شيئانِ حَرَّمَا   عليَّ الغِنَى: نفسِي الأبيَّةُ والدَّهْرُ
إذا قيل: هذا اليُسْرُ، أَبصَرْتُ دُونَهُ   مَواقِفَ، خيرٌ من وقوفي بها العُسْرُ!
فإن لم يكن عندَ الزمانِ سِوى الذي   أَضِيقُ به ذَرْعاً فعِندي له الصَّبْرُ

١٤١ ــ وهذا آخَرُ من العلماء يَشمَخُ بأنفِهِ عن العَلْيَاءِ إذا كانت من طريق السُّؤالِ ومَدِّ اليد، فينهَى عن طَلَبِها إذا كان فيه مَذَلَّة، ويرَى مَدَّ اليَدِ بانكسارٍ ــ ولو لنيل العَلْياء ــ ضَعَةً للعالِمِ وذِلَّة، إذ لا يليقُ بالعالمِ مَدُّ يدِهِ إلى أحَدٍ من الناس، لأنه في عَلْياءِ الدَّعوةِ للحق، وفي مَدِّ يدِهِ إليهم إسقاطُ نفسِه، فيقولُ ذلك الشامِخُ الأبيُّ ما سَمِعَه أستاذُنا العلامة الفقيه الشيخ أحمد الزرقاء رحمه الله تعالى، من بعضِ السُّؤَّالِ الشَّحَّاذِين يقولُه:

وَلا تَمُدَّنَّ للعَلْيَاءِ منك يَداً   حتى تَقُولَ لك العَلْيَاءُ هاتِ يَدَكْ

١٤٢ ــ وآخَرُ منهم يُصابِرُ الخطوبَ والأحداثَ فيَصْبُرُها، وتَتنكَّرُ له الأيامُ فيتغلَّبُ عليها، وعلى لسانِهِ يقول الشاعرُ أبو المظفَّر الأَبِيْوَرْدِي (محمد بن أحمد)[٤]:

---

(١) سَرَنْدِيب: جزيرة كبيرة في أقصَى بلادِ الهند بالجنوب، وتُكرور: اسمُ بلاد بأقصى جَنُوبِ المغرب.

(٢) عند ذكر قصيدة العصماء في عِزّ العلم والعلماء، بأواخر الكتاب برقم ٣٤٣.

(٣) كما في «وَفَيَات الأعيان» لابن خلكان ١ : ٣٢٥.

(٤) كما في ترجمته في «وَفَيَات الأعيان» ٢ : ١٣، و «الوافي بالوفَيَات» للصَّفَدي ٢ : ٩٢.

تنكَّرَ لي دَهْرِي ولم يَدْرِ أنني   أَعِزٌّ وأَحْداثُ الزَّمانِ تَهُونُ
فباتَ يُريني الدهرُ كيفَ اعتداؤه   وبِتُّ أُرِيهِ الصَّبرَ كيف يكونُ

١٤٣ ـ وآخَرُ منهم يُغالِبُ الفقرَ وآلامَهُ وهجَمَاتِه، ويُنازِلُ الشدائدَ بصَبْرِهِ وعَزَماتِه، بل يُنازِلُ الصبرَ ويُقاوِمُه، فيَغلِبُ الصبرَ ويَهزِمُهُ، فيقولُ في ذلك مُخْبِراً عن قُوَّةِ نفسِهِ ومتانةِ شكيمتِه:

صابَرَ الصَّبْرَ فاستَغَاثَ به الصَّبْـــ   ـــرُ فقال الصَّبُورُ: يا صَبْرُ صَبْرَا

١٤٤ ـ وآخَرُ يتململُ ويَضْعُفُ عن مُنازَلةِ الفقر، ويَرى الصَّبْرَ معدوماً غيرَ موجود، وعلى لسانه يقول أبو العلاء المَعَرِّي، مشيراً إلى وجود (الصَّبِر) بكسر الباء: الدواءِ المُرّ، وإلى فَقْد الصَّبْر المعهود:

الصَّبْرُ يُوجَدُ إنْ باءُ له كُسِرَتْ   لكنه بسكونِ الباءِ مفقودُ!

١٤٥ ـ ويقف آخَرُ من الشدائد يَمدَحُها ويُقرِّظُها، لا حُبّاً بها واستدامةً لظلِّها، ولكنْ لأنها كَشَفَتْ له العَدُوَّ من الصَّدِيق، والدَّعِيَّ من الوَفِيّ، فيقول:

جَزَى اللّٰهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ   وإن كانت تُغَصِّصُني بريْقِي
وما مَدْحِي لها شُكراً ولكنْ   عَرَفتُ بها عَدُوِّي من صَدِيقي

١٤٦ ـ وهذا العلامةُ الأريبُ الأديبُ القاضي (أحمد بن عمر المُزَجَّد الزَّبِيدي اليمني)، المتوفى سنة ٩٣٠ رحمه الله تعالى، يقولُ[١] مُسائلاً الفقرَ عن مسكنِه ومنزلِه ليَعرِفَهُ فيَجتَنِبَه، فيُخبِرُه الفقرُ بأنه جليسُه وأنيسُه، وخَدِينُه وقَرِينُه، لا يُبارِحُهُ ولا يُفارِقُه! وهو مُؤاخِيه ومُصادِقُه! وما أكرَهَ هذهِ المؤاخاة عنده!

قُلتُ للفقْرِ: أين أنتَ مُقيمٌ؟   قال لي: في عَمَائِم الفقهاءِ[٢]
إنَّ بيني وبينهم لإِخاءً   وعزيزٌ عليَّ قَطْعُ الإخاءِ!

(١) كما في ترجمته الحافلةِ المطوَّلةِ جدًا في «النُّور السافر» للعيدروس ص ١٤٠.
(٢) الفقهاء في لغة أهل اليمن يعنون بهم العلماء، وفيهم الفقهاء.

١٤٧ ــ وآخَرُ من العلماء يَجعلُ الفقيهَ هو الفقيرَ بعينِه، وإنما استدارَتْ راءُ الفقير فصارت هاءً، فيقولُ مشيراً إلى التلازُمِ بين الفَقِيهِ والفَقِير:

إنَّ الفَقِيهَ هو الفَقِيرُ وإنما ... رَاءُ الفقيرِ تجمَّعَتْ أطرافُها

١٤٨ ــ وآخَرُ من العلماء يكشِفُ عن اختلاف مُعاملةِ أقربِ الناس إليه حين كان مُوسِراً، وعن مُعامَلَتِهم له حين صَارَ مُعْسِراً! فقد كان يُسْرُه مَدْعاةَ تَرحيبٍ وتكريمٍ له وتَحَبُّبٍ منه، ثم كان الفقرُ مَدْعَاةَ الهِجرانِ والتجاهلِ له من بني عَمِّه وأعزِّ الناسِ لديه، وأحبِّهم إليه، فيقول:

وكان بَنُو عَمِّي يقولون: مَرْحَباً ... فلما رَأَوْني مُعْسِراً مَاتَ مَرْحَبُ!

١٤٩ ــ وآخَرُ من القائلين يَذكُرُ أنَّ الفَقْرَ يُظهِرُ العُيوبَ، ويُقلِّلُ الأصدقاء، فيقول:

إذا قلَّ مَالُ المرءِ قلَّ صَدِيقُهُ ... وأَوْمَتْ إليه بالعُيوبِ الأصابعُ

وهذا المعنى نفسُهُ أيضاً ذكره العلاَّمةُ الفقيهُ الأديبُ الأريبُ الوزير يحيـى بن هُبَيرة الحنبلي، المولود سنة ٤٩٩، والمتوفى سنة ٥٦٠، شيخُ الإمام ابن الجوزي رحمهما الله تعالى، وصاغَهُ على وجهٍ أفضلَ وأجملَ بقوله(١):

إذا قلَّ مَالُ المرءِ قلَّ صَدِيقُهُ ... وقُبِّحَ منه كلُّ ما كان يَجْمُلُ

١٥٠ ــ وهذا آخَرُ يُبيِّنُ أن الفضائل الرفيعة، والمَحاسِنَ النادرة، إذا اجتمعَتْ للرجل وكان مُمْلِقاً فقيراً، هُضِمَتْ ولم يُعطَ صاحبُها قَدْرَه!

فَصَاحةُ سَحْبانٍ وخَطُّ ابنِ مُقْلةٍ ... وحِكمةُ لُقْمانٍ وعِفَّةُ مَرْيَمِ
إذا اجتَمَعتْ في المَرءِ والمرءُ مُفْلِسٌ ... ونُودِيْ عليه لا يُباعُ بدرِهمِ!

---

(١) كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي ٢:٢٥٨، وهو من أبيات لطيفةٍ له، ذكرها ابن رجب الحنبلي في ترجمته الحافلة في «ذيل طبقات الحنابلة» ١:٢٨١، ولم يذكر منها هذا البيت.

١٥١ ــ ويشير القائل ــ وهو محمدُ بن أبي شَحَّاذ الضَّبِّي، وقال ابنُ السِّكِّيت: هو راشدُ بن دِرْوَاس ــ إلى أنَّ الفقر يَعُوقُ النابغَ عن بلوغِ غاياتِهِ السامقة، ويَنزِلُ به إلى الرِّضا بالدُّونِ من الأمور، فيقول:

وقد يَقْصُرُ القُلُّ الفَتَى دُونَ هَمِّهِ وقد كان لولا القُلُّ طَلَّاعَ أنْجُدِ

والقُلُّ: الفَقْر، وطَلَّاعُ الأنجُدِ هو الذي يَؤُمُّ مَعَاليَ الأمور(١).

١٥٢ ــ وهذا إمامُ عصرِهِ في علوم اللغة والعربية، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزُّبَيدي الإشبيلي القرطبي، المولود سنة ٣١٦، والمتوفى سنة ٣٧٩ رحمه الله تعالى، وكان في دُنْيَا عريضة، وعلى نِعمةٍ ضَخْمةٍ من الثَّراءِ والغِنَى، لَبِسَها بَنُوهُ من بعدِهِ زماناً طويلاً، يُقرِّرُ أنَّ الفقر غُرْبةٌ ووَحْشة! وأنَّ الغِنَى وَطَنٌ وراحة، فيقول(٢):

الفقرُ في أوطاننا غُربةٌ! والمالُ في الغُربةِ أوطانُ
والأرضُ شيءٌ كلُّها واحِدٌ والنَّاسُ إخوانٌ وجِيرانُ

١٥٣ ــ وهذا الإمام اللغوي النَّحْوِيُّ الفقيه الأصولي ابنُ فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي) المولود سنة ٣٢٩، والمتوفى سنة ٣٩٥ رحمه الله تعالى، يتشكَّى الفقرَ والعَوَزَ والدُّيونَ أثناءَ إقامتِهِ في مدينة هَمَذَان! إذ يقول(٣):

سَقَى همَذَانَ الغَيْثُ لَسْتُ بقائلٍ سِوى ذا، وفي الأَحْشاءِ نارٌ تَضَرَّمُ
وماليَ لا أُصْفِي الدُّعاءَ لبلدةٍ أَفَدْتُ بها نِسيانَ ما كنتُ أعلَمُ!
نَسِيتُ الذي أحسنتُه غيرَ أنني مَدِينٌ وما في جَوْفِ بَيْتِيَ دِرْهَمُ!

وهو الذي ينصحُ المُستَشِيرَ له والمسترشِدَ به، بالبُعدِ عن العلم والأدب، إذ هما يَجلبانِ لصاحبهما الفقرَ والعَوَزَ، فيقول:

وصَاحِبٍ لي أتاني يَستشيرُ وقد أرادَ في جَنَباتِ الأرضِ مُضْطَرَبا
قلتُ: اطَّلِبْ أيَّ شيءٍ شِئتَ واسْعَ ورِدْ منه المَوارِدَ إلا العِلْمَ والأَدَبا!

---

(١) من «تاج العروس» للزبيدي ٥: ٤٤١.

(٢) كما في ترجمته في «وفيات الأعيان» ١: ٥١٤.

(٣) كما في ترجمته في «إنباه الرواة» للقِفْطِي ١: ٩٣.

١٥٤ ــ ومما جاء في رسالة العلامة الأديب الأريب المؤرخ الجغرافي ياقوت الحَمَوي، المولود سنة ٥٧٤، والمتوفى سنة ٦٢٦، إلى صَدِيقِهِ الوزير جمالِ الدين علي بن يوسف القِفْطي الحلبي رحمهما الله تعالى، التي أَورَدَها القاضي ابنُ خَلِّكان[١]، قولُه الذي يُفضِّلُ فيه الموتَ على الفقر! فيقول:

وَقَفْتُ وُقوفَ الشَّكِّ ثم استَمرَّ لي ... يَقِيني بأنَّ الموتَ خيرٌ من الفَقْرِ
فوُدِّعْتُ مِن أَهْلِي وبالقَلْبِ مَا بِهِ ... وسِرْتُ عن الأوطانِ في طَلَبِ اليُسرِ
وباكيةٍ للبَيْنِ قلتُ لها: آصبِري ... فلَلْمَوْتُ خيرٌ من حَيَاةٍ على عُسْرِ
سأَكْسِبُ مالاً أو أموتُ ببلدةٍ ... يَقِلُّ بها فَيْضُ الدموعِ على قبري

١٥٥ ــ وكثيراً ما كان أولئك العلماءُ المُمْلِقون إذا عَضَّهم الفقرُ بنابه، يُنشِدُون قولَ الأديب الوزير المُهَلَّبي (الحسن بن محمد الأزدي) المولود سنة ٢٩١، والمتوفى سنة ٣٥٢ رحمه الله تعالى، الآتي ذكرُهُ وشرحُ حالِهِ بَعْدُ[٢]، وكان قَد حلَّ به الإِملاقُ وأقام عنده طويلاً:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشترِيْهِ ... فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيهِ
ألا مَوْتٌ لَذِيذُ الطَّعْمِ يأتي ... يُخَلِّصُني من العَيْشِ الكَرِيهِ
إذا أَبصرتُ قَبْراً من بعيدٍ ... وَدِدتُ لو آنّني مما يَلِيهِ
ألا رَحِمَ المُهيمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصدَّقَ بالوفاةِ على أخِيهِ

وقولَهُ أيضاً رحمه الله تعالى وقد اشتَدَّتْ به الإِضاقةُ[٣]:

ولو أني استَزَدتُك فوقَ ما بي ... من البَلْوَى لأعوزَك المَزِيدُ
ولو عُرِضَتْ على الموتى حَيَاةٌ ... بعَيْشٍ مِثلِ عَيْشِي لم يُريدوا!

١٥٦ ــ وأختم ما قالوه في هذا الباب بقولِ الشاعر أبي إسحاق الغَزِّي، المتقدِم ذكرُهُ[٤]، على لسان هؤلاء الأعلام الأماجد الصابرين، وقد أحسن فيه كلَّ الإِحسان

(١) في «وفيات الأعيان» ٢ : ٢١٢ في ترجمة (ياقوت بن عبد الله الحَمَوي).
(٢) في الخبر ١٩٥.
(٣) كما في ترجمته في «وفَيَات الأعيان» ١ : ١٤٢.
(٤) في الخبر ١٠.

إذ قال بلسان حالهم:

حَمَلْنا من الأيامِ ما لا نُطِيقُه ... كما حَمَلَ العَظْمُ الكَسِيرُ العَصَائبَا[1]

وبقولِ القائل الذي عانَقَه الفقرُ الأسودُ ولم يُفارقْه! وأخَذَ منه بخِناقِه وأنفاسِهِ وصادَقَه ولم يُصادِقْه! وصاحَبَه مع دوام تَقَلْقُلِه في الأسفار، وقَطْعِه البرارِيَ والقِفَار، فقال معبِّراً بلسانِ شكواه، عن بيان فَقْرِهِ وبَلْوَاه!:

وبَدْرٍ أضاءَ الأرض شَرْقاً ومَغرِباً ... ومَوضِعُ رَحْلي منه أسْوَدُ مُظلِمُ[2]!

١٥٧ ــ وقال إمامُ العربية محمود بن عمر الزمخشري المتقدم ذكره[3]، وقد شرَّقَتْ تآليفُه وغرَّبتْ، متذمِّراً من الفقرِ والإملاق، من قصيدةٍ طويلة له:

خليليَّ هل تُجدِي عليَّ فضائلي ... إذا أنا لم أُرفَعْ على كلِّ جاهِلِ
ومن لي بحقِّي بعدَما وَفَّرتْ على ... أراذِلِها الدنيا حقوقَ الأماثلِ
كذا الدهرُ كم شَوْهَاءَ في الحَلْيِ جِيدُها ... وكم جِيْدِ حَسْناءِ المُقَلَّدِ عاطِلِ
ومما شَجَاني أنَّ غُرَّ مَنَاقِبِي ... تَغنَّى بها الرُّكبانُ بين القَوَافلِ
وطارَتْ إلى أقصَى البلادِ قصائدي ... وسَارَتْ مَسِيرَ النيِّرات رسائلي

---

(١) وأبو أسحاق الغَزِّي هذا، هو القائلُ رحمه الله تعالى:

قالوا: تركتَ الشعرَ قلتُ ضَرُورَةً ... بابُ البَوَاعِثِ والدَّواعِي مُغْلَقُ
خَلَت الديارُ فلا كريمٌ يُرتَجى ... منه النَّوالُ ولا مَلِيحٌ يُعْشَقُ
ومن العجائبِ أنه لا يُشْتَرَى ... ويُخانُ فيه مَعَ الكَسَادِ ويُسرَقُ!

(٢) جاء هذا البيت من قصيدة للبحتري في «ديوانه» ٣: ١٩٨٠، من طبعة دار المعارف بالقاهرة المطبوعةِ سنة ١٩٦٤. وجاء لفظُهُ في الديوان: (وموضعُ رِجْلي) بالجيم وكسر الراء قبلَها.

وجاء بلفظِ (وموضعُ رَحْلي) بالحاء المهملة وفتح الراء: في «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني ١: ٢٦٧، و«الإيضاح» للقَزْويني ص ٢٠٣، في مبحث الاستعارة.

وجاء أيضاً بالحاء وفتح الراء منسوباً إلى أبي تَمَام في «غُرَر الخصائص الواضحة» للوَطْوَاط ص ٢٢٣، و«معاهد التنصيص» للعباسي ص ١٨٥. وأوَّلَ ما وقفتُ عليه في وَجْهِ كتابٍ مخطوط، في المكتبة السُّلَيْمَانيَّة بإصطنبول، وجاء فيه: (ومَوْضِعُ رَحْلِي)، أي بالحاء، فأثبتُّهُ بها.

(٣) في الخبر ١٠٦.

وكم من أَمَالٍ لي وكم من مُصَنَّفٍ ... أصاب به ذِهْني مَحَزَّ المَفاصِلِ
غَنِيٌّ من الآدابِ لكنني إذا ... نَظرتُ فما في الكَفِّ غيرُ الأنامل!
فيا ليتني أصبحتُ مستغنِياً ولم ... أكن فَخْرَ خُوْرَزْمٍ ورأْسَ الأفاضل!

وله أيضاً:

أشكو الزمانَ ولا أرى لِيَ مُشكِياً ... ممن يَرى شَعَثِي ورِقَّةَ حالي
يا حَسْرَتَا مَنْ لي بصَفْقَةِ رابحٍ ... في مَتْجَرٍ والفضلُ رأْسُ المالِ
يا ويحَ أهلِ العلم كيف تأخَّروا ... والسَّبْقُ كلُّ السَّبْقِ للجُهَّالِ
في ذمَّةِ الأيَّام لي دَينٌ مَتَى ... أستَقْضِه لاقَيْتُ طُولَ مِطالِ
فإلى إلَهي المُشْتكَى، وبصُنْعِهِ ... دُونَ الأنامِ مَنُوطةٌ آمَالي

١٥٨ ـــ ومع هذا التبرُّمِ الشديد كلِّه من الفقر، من أولئك العلماء الذين سمعتَ بعض أقوالهم فيه، فقد ذهب غيرُ واحدٍ من الفقهاء والمحدثين إلى تفضيل الفقر على الغِنَى، ومنهم الإمامُ الفقيه المحدِّثُ أبو جعفر الترمذيُّ (محمدُ بنُ أحمد بن نصر)، شيخُ الشافعية بالعراق قبلَ ابن سُرَيج، المولودُ سنة ٢٠١، والمتوفى سنة ٢٩٥ رحمه الله تعالى، قال التاج السبكي في ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»[١]: «بالَغَ في الردِّ على من فَضَّلَ الغِنَى على الفقر».

ومنهم المحدِّثُ الفقيهُ الشافعيُّ (عبدُ الله بنُ أحمد بنِ زَبْر) قاضي مصر، المولودُ سنة ٢٥٦، والمتوفى سنة ٣٢٩ رحمه الله تعالى، فقد ذهَبَ إلى تفضيل الإملاق على اليَسار، فألَّف «كتابَ تشريف الفقر على الغِنَى»[٢]، ولم يكن القاضي ابنُ زَبْر من الفقراء، كما يُعلَم من ترجمته في «رفع الإصر عن قضاة مصر» للحافظ ابن حجر.

١٥٩ ـــ وكذلك ألَّف الإمام الحافظ أبو سعيد بن الأعرابي (أحمد بن محمد)، أحَدُ رواةِ «سنن أبي داود» عنه، المولود سنة ٢٤٦، والمتوفى سنة ٣٤٠ رحمه الله تعالى،

---

(١) ٢: ١٨٨.

(٢) ذكره الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»، في حوادث سنة ٣٢٩ (مخطوط)، والحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» ٣: ٢٥٤.

كتاباً سمَّاه «تشريف الفَقِير على الغَنيّ»، رَدَّ به على كتابِ أبي بكر بن المنذر، الذي سمَّاه «تشريف الغَنيّ على الفقير»[١]، وتقدَّمَ نقلُ كلام الأئمةِ المتبوعين: الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد، في تفضيل الفقرِ على الغِنَى أيضاً[٢].

وللإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى، كلمةٌ وجيزةٌ ماحِصَةٌ في تحقيق التفضيلِ بين الغنيِّ الشاكر والفقيرِ الصابر، تراها في كتابه «مدارج السالكين»[٣].

١٦٠ ــ وقد قيل في تفضيل الفقر على الغِنَى، الشيءُ الكثيرُ من الشعر، قال الأديب الثعالبيُّ في كتابه «تحسين القبيح وتقبيح الحسن»[٤]: «ومن أحسنِ ما قيل في تحسينِ الفقرِ قولُ أبي العَتَاهِيَة:

أَلم تَرَ أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغِنَى ... وأنَّ الغِنَى يُخشَى عليه من الفقرِ!

وقولُ محمودٍ الورَّاق:

يا عائِبَ الفَقْرِ أمَا تنزجِرْ ... عَيْبُ الغِنَى أكبَرُ لو تعتبِرْ
مِن شَرَفِ الفَقْرِ ومن فَضْلِهِ ... على الغِنَى لو صَحَّ منك النَّظَرْ
أنك تَعصِي اللَّهَ تَبغِي الغِنَى ... ولستَ تَعصِي اللَّهَ كي تَفتقِرْ

وقال غيرُهُ أيضاً في الموازنةِ بين الغِنَى والفقر، وتفضيلِ الفقرِ على الغِنَى:

شُغِلْنا بكَسْبِ العِلْمِ عن مكسَبِ الغِنَى ... كما شُغِلُوا عن مكسَبِ العلم بالوَفْرِ
وصار لهم حَظٌّ من الجَهْلِ والغِنَى ... وصار لنا حَظٌّ من العِلْمِ والفَقْرِ

١٦١ ــ قال عبد الفتاح: والخيرُ الأمثَل، والمسلَكُ الأعْدَل، هو: الكَفَافُ ــ وهو ما كَفَّ عن الناس وأغنَى ــ ، فلا هو بفقرٍ يكاد يكونُ كُفراً، ولا هو بغِنىً مُبْطِرٍ يُولِّدُ نُكْراً. ومن لطيفِ ما قيل في هذا: أبياتٌ سمعتُها من بعض علماءِ صنعاء، في أثناءِ زيارتي للِيَمَن أستاذاً زائراً في شعبانِ سنة ١٣٩٨، قالها الإمامُ محمد بن إبراهيم

---

(١) كما في ترجمة ابن المنذر في «لسان الميزان» ٥: ٢٨.

(٢) في الخبر ١٢٧ و ١٣٢ ــ ١٣٥.

(٣) ٢: ٤٤٢ ــ ٤٤٣.

(٤) ص ٤٠.

ابن الوزير، صاحبُ «إيثار الحق على الخلق» وغيرِهِ من الكتب النفيسة المفيدة، المولودُ سنة ٧٧٥، والمتوفى بصنعاء سنة ٨٤٠ رحمه الله تعالى، وذلك قولُه:

لك الحمدُ لم تَشغَلْ بفَقْرٍ يَشُقُّ بي ... ولا بغِنىً يُطغِي فؤادِي ويُلهِيني
وفرَّغتَني للعلمِ والحَمْدِ والثَّنا ... وأَصلَحتَ لي قلبي وما زِلتَ تَهدِيني
وأغنَيتَ قلبي بالقَنَاعَةِ والرِّضا ... وبالمالِ قَدْراً كافياً ليس يُلهيني
فلا أنا مَهْمُومٌ ولا أنا سَائِلٌ ... ولا أنا مشغولٌ بما ليس يَعنيني

١٦٢ ــ وقد عَقَد الحافظُ الدَّلَجِيُّ أحمدُ بنُ علي المِصري، المولود نحوَ سنةِ ٧٧٠، والمتوفى سنة ٨٣٧ رحمه الله تعالى، في كتابه «الفَلَاكَةُ والمفلوكون»[1] أي الفَقْرُ والفقراء[2]، فصلاً خاصاً بذكرِ الآفاتِ التي تَنشأُ عن الفاقةِ والفقر، وتستلزِمُها وتقتضيها، وأطال في ذلك شرحاً وتعليلاً بما يَزيدُ على عشرين صفحة، فرأيتُ قَطْفَ جُمَلٍ منه كالعناوين لطُولِهِ، وتلخيصَ أهمِّ ما ذكره، مع التصرف بعبارته.

قال: «هي أكثَرُ من أن تُحصَى أو يَحمِلَها قلم: فمنها: ضِيقُ العَطَنِ أي الصَدْر، والنزقُ، والانكماشُ عن الناس، لأنَّ طبيعةَ الفَرَح والسُّرورِ يَنشأ منها سَعَةُ الخُلُقِ والصدر، وطبيعةَ الكَمَد يَنشَأُ منها ضِيقُ النَّفْسِ والانقباضُ عن الخَلْق.

ومنها: القَهْرُ الذي يُلازمُ الفقيرَ المُمْلِقَ، ويُحدِثُ فيه أخلاقاً رديئةً كالكذبِ والتملُّقِ والنفاقِ ونحوِها. ومنها: الحسَدُ لذوي النِّعْمَة، وحُبُّ زوالِها عنهم، مُساواةً لهم

(١) ص ١٤ ــ ٣٦.

(٢) قال الحافظ الدَّلَجِيُّ في كتابه المذكور ص ٣ ــ ٤، في بيان معنى (الفلَاكَةِ) و(المفلوك): «هذه اللفظةُ: (المَفْلُوكُ)، تلقَّيناها من أفاضل العجم ــ أي الفُرس ــ، ويُريدون بها بشهادةِ مواقع الاستعمال: الرَّجُلَ غيرَ المحظوظِ، المُهْمَلَ في الناس، لإملاقِهِ وفقره، وليس في «صحاح الجوهري»، ولا في «القاموس المحيط»، في مادة (فلك) ما يَصلُحُ لهذا المعنى.

وأطلقوا عليه هذا الوصفَ، على معنى أنَّ الفَلَكَ ــ تجوُّزاً ــ يُعارِضُهُ في مُرادِه، ويُدافِعُه عن بلوغ آمالِه. ووَجْهُ اختيارِ لفظِ (الفَلَاكة) على لفظِ الفاقةِ، أو الفقرِ، أو الإملاقِ، ونحوِها: أنَّ هذه الألفاظَ الثلاثةَ ونحوَها نصٌّ صريحٌ في مدلولها، بخلاف لفظِ (الفَلَاكةِ) و(المفلوك)، فإنهما يتولَّدُ منهما بمعونةِ القرائن مَعانٍ لائقةٍ بالمقاماتِ على كثرتِها وتفاوتِها».

بحالِ الفقيرِ البائس، وتشفِّياً منهم بانتقامِ الزمانِ له منهم. ومنها: رُؤيةُ الفقيرِ نفسَهُ أنه أحقُّ بتلك النِّعَم من أولئك المُنعَّمِين.

ومنها: الوقوعُ في أعراضِ الناسِ، والغَضُّ منهم، والغِيبةُ لهم، لأنَّ من وَجَد غيرَهُ أعلى منه وعَجَز عن مُجاراتِه، بَحَث عن مَساوِيهِ وعَوْرَاتِه، استعلاءً عليه بدعوى سلامتِهِ هو منها فيما يَعتقِدُ أو يَتوهَّم، أو اختَرَع له نقائصَ وصَفَهُ بها، وأَشعَرَ أنه هو متصفٌ بنقائِضِها الكَمالِيَّة، وذلك بُغية صَرْفِ الناس عن تقديرِ الفاضل ومحبتِه، أو تلذُّذاً وتشفياً بالطعن فيه.

ومنها: أنَّ الفقرَ يُخمِلُ الإنسان، ويَغُلُّ اللسان، ويُضعِفُ البيان، فإنَّ الغِنَى يُنطِقُ، والعُدْمَ يُخْرِس، وكثيراً ما يَختلِفُ النظرُ أو الحكم على الكلمةِ بعينِها أو الفعلِ الواحد، يقولُها الفقيرُ فتُرفَض، ويقولها الغنيُّ فتُقبَل، لميلِ النفوس إلى الغَنِيِّ، وتباعُدِها من الفقير.

ومنها: القَلَقُ النفسي الذي يَلْبَسُ الفقيرَ في حالِهِ ومستقبلِهِ، فتراه دائماً يَحمِلُ الهمَّ والغَمَّ في نفسِه، وخاصَّةً إذا كان ذا عِيالٍ أو أَسْقَامٍ مُزْمِنَة. ومنها: تحمُّلُ النَّصَبِ والتَّعَبِ، وارتكابُ المُخاطَرَةِ بالنفوس والأرواحِ في الأسفارِ، عند ضِيقِ الرزق في الديار، مع ما في ذلك من العذاب، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «السَّفَرُ قِطعةٌ من العذاب». وقال القائل:

يقيمُ الرجالُ المُوْسِرُون بأرضِهم وتَرْمِي النَّوَى بالمُقْتِرِين المَرَامِيَا».

١٦٣ ــ وأعودُ بعد هذا إلى ذكر طائفةٍ من أخبار العلماء في هذا الجانب، فأستهلُّها بإمامِ الفقهِ والحديث، وبسيِّدِ أهلِ زمانِه في علوم الدين والتقوى، الإمامِ سفيانَ الثوريِّ الكوفي، المولود سنة ٩٧، والمتوفى سنة ١٦١ رحمه الله تعالى، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء»[1]، في ترجمته الحافلة ما يلي:

«حدَّث سفيان بنُ عيينة، قال: جاع سفيانُ الثوري جُوعاً شديداً، مكَثَ ثلاثةَ أيام لا يأكُلُ شيئاً، فمرَّ بدارٍ فيها عُرْس، فدَعَتْهُ نفسُهُ إلى أن يَدخُلَ، فعَصَمه الله،

---

(١) ٦: ٣٧٣.

ومَضَى إلى منزلِ ابنتِهِ، فأتَتْه بقُرْصٍ فأكلَه، وشَرِبَ ماءً فتجشَّى، ثم قال:

سيَكفِيكَ عما أُغلِقَ البابُ دُونَهُ وضَنَّ به الأقوامُ مِلْحٌ وجَرْدَقُ(١)
وتَشْرَبُ من مَاءٍ فُراتٍ وتَغْتَدِي تُعارِضُ أصحابَ الثَّرِيدِ المُلَبَّقِ(٢)
تَجَشَّى إذا ما هُمْ تَجَشَّوْا كأَنَّما ظَلِلتَ بأنواعِ الخَبِيصِ تَفَتَّقُ»(٣).

---

(١) الجَرْدَق: الرغيفُ من الخبز.

(٢) المُلَبَّق: المُلَيَّن بالدَّسَم. وفي البيتِ إقواء، وهو مخالفةُ القافية برفع بيتٍ وجرِّ آخَر.

(٣) الخَبِيصُ: حَلْواءُ يُخلَطُ فيها التمرُ بالسَّمْن، ومنه الخَبِيصَة. وتَفَتَّقُ أي تَتَّسِعُ خواصِرُك من كثرةِ شِبَعِك منه.

هذا، وذكَّرَني هذا الذي وقع للإمام سفيان الثوري، من جوعِهِ ثم إبائِهِ أن يأكُلَ من طعامِ العُرْس، بما سَمِعتُه من أحَدِ شيوخي في بلدنا حلب رحمه الله تعالى، أنَّ الشيخ إبراهيم الهِلالي الحلبي العالم الصالح الجليل، ذهب إلى الجامع الأزهر يَطلبُ العلم، وأثناءَ طلبِهِ للعلم أملَق وافتقر إلى النفقة، ومَضَى عليه أكثَرُ من يوم وهو لا يجدُ ما يأكل، وجاع جُوعاً شديداً، فخرج من غرفته في الأزهر ليَسأل اللُّقمةَ والطعامَ، فشاهَدَ باباً مفتوحاً، وشَمَّ منه رائحةَ الطعام الزكية.

فدخل البابَ إلى المطبخ فلم يَجِد أحَداً، ووَجَد طعاماً شهياً، فأخَذَ المِلْعَقَةَ وغَمَسها فيه، ثم لما رَفَعها إلى فمِهِ انقبَضَتْ نَفْسُه عن تناوُلِها، إذْ لم يُؤذَنْ له بتناوله، فتركها! وخَرَج بجُوعِه وسَغَبِه إلى غرفتِهِ في رُواق الأزهر.

ولم يَمضِ عليه نحوُ ساعة إلا وأحَدُ شيوخِهِ ومَعَهُ رجلٌ يَدخلانِ عليه غرفتَه، ويقولُ له الشيخ: هذا الرجلُ الفاضلُ، جاءني يُريدُ طالِبَ علم صالح، أختارُه لابنتِهِ زَوْجاً، وقد اختَرتُك له، فقُمْ بنا إلى بيتِه ليَتِمَّ العَقْدُ بينكما، وتكونَ من أهلِ بيتِه، فتحامَلَ الشيخُ إبراهيم على نفسِه ممتثلًا أمرَ شيخه، وقام معهما، وإذا هما يذهبانِ به إلى البيت الذي دَخَله وغَمَس المِلعقةَ في طعامه!

ولما جَلَس عَقَد له والدُها عليها وبادَرَ بالطعام، فكان الطعامَ الذي غَمَس الملعقةَ فيه ثم تركها، فأَكل منه قائلًا في نفسه: امتنعتُ عنه بغير إذنٍ لله، فأطعمنيه اللَّهُ بإذنه مكرَّماً معززاً زَوْجاً. ثم قدمَتْ معه تلك المرأةُ الصالحة إلى حلب بعدَ انتهائه من التحصيل، وكانت أمَّ أبنائه الصالحين.

فسبحان من أغنَى بالحلال عن الحرام، وقَسَم لكل مخلوق رِزْقَه وطعامَه وشرابَه، فلا بُدَّ أنه آكلُه ونائلُه، وصَدَق القائل: ما قُدِّرَ لماضِغَيْكَ أن يَمْضَغَاهُ، لا بُدَّ أن يَمْضَغاه، فويحَكَ كُلْهُ بعِزٍّ ولا تأكُلْهُ بذُلّ.

ثم رأيت أستاذنا العلامةَ المحدِّث المؤرِّخ الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى، ذكَرَ =

١٦٤ ــ ثم أُثنِّي بإمامِ العربيَّة ومُدوِّنِها الخليلِ بنِ أحمد الفَراهيدي البصري، المولود سنة ١٠٠، والمتوفى سنة ١٧٠ رحمه الله تعالى، وهو الذي قال فيه الإمامُ سفيانُ الثوري: من أحبَّ أن يَنظُرَ إلى رجلٍ خُلِقَ من الذَّهَبِ والمِسْكِ، فلْيَنْظُر إلى الخليلِ بنِ أحمد.

جاء في «وَفَيات الأعيان» لابن خَلِّكان[1]، و«سِيَرِ أعلام النبلاء» للذهبي[2]، في ترجمته: «الإمامُ صاحبُ العربية، ومنشئُ عِلم العَرُوض، أبو عبد الرحمن الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي، أحَدُ الأعلام. ولد سنة ١٠٠، وكان مُفْرِطَ الذكاء.

حَدَّثَ عن أيوب السَّخْتِياني، وعاصمٍ الأحول، والعَوَّامِ بن حَوْشَب، وغالبٍ القطان، وسِواهم ــ من المحدِّثين الكبار ــ.

وأَخَذ عنه سيبويهِ: النحوَ، والنَّضْرُ بن شُمَيل، وهارونُ بنُ موسى النَّحْوِي، ووهبُ بنُ جرير، والأصمعيُّ، وآخرون كثيرون[3].

وكان رأساً في لسانِ العرب، دَيِّناً، وَرِعاً، قانِعاً، متواضعاً، كبيرَ الشأن، وله كتابُ العين، مات ولم يُتِمَّهُ ولا هَذَّبَهُ، ولكنَّ العلماءَ يَغرفون من بَحْرِه.

قال النَّضْرُ بنُ شُمَيْل: أقام الخليلُ في خُصٍّ ــ بيتٍ من شجر أو قَصَب ــ لَهُ بالبصرة، لا يَقْدِرُ على فَلْسَيْنْ! وتلامذَتُهُ يَكسِبُون بعلمِهِ الأموال! وكان يقول: إني لأُغلِقُ عليَّ بابي، فما يُجاوِزُهُ هَمِّي.

= هذه الواقعة بنحو ما ذكرتُه في تاريخه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ٧: ٢٣١، في ترجمة الشيخ إبراهيم الهلالي المذكور، وقد تَرجَم له فيه ترجمةً حافلة، وذكَرَ أنه ولد سنة ١١٥٥، وتوفي سنة ١٢٣٨ رحمه الله تعالى.

(١) ٢: ٢٢٤.

(٢) ٧: ٤٢٩.

(٣) ذكرتُ هذا المقطعَ ليُعرَف منه أنه كان له يَدٌ في رواية الحديث وأدائِه، على شأن غالب العلماء المتقدمين.

قال أيوب بن المتوكل: كان الخليلُ إذا أفادَ إنساناً شيئاً، لم يُرِهِ بأنَّه أفاده، وإن استفاد من أحَدٍ شيئاً، أَراهُ بأنَّه استفادَهُ منه.

قال الحافظُ الذهبيُّ رحمه الله تعالى عَقِبَ هذا الكلام: «قلتُ: صَارَ طوائفُ في زمانِنا بالعكس!».

وكان له راتبٌ على سليمانَ بنِ حبيب بن أبي صُفْرَة الأزدي، وكان واليَ فارسَ والأهواز، فكتَبَ إلى الخليلِ يستدعيه، فكتَبَ الخليلُ جوابَهُ:

أبلِغْ سُلَيْمانَ أنِّي عنه في سَعَةٍ ... وفي غِنىً غيرَ أني لَسْتُ ذا مالِ
شُحّاً بنفسيَ، أنِّي لا أَرَى أحَداً ... يَمُوتُ هُزْلاً ولا يَبْقَى على حَالِ
الرِّزْقُ عن قَدَرٍ، لا الضَّعْفُ يَنْقُصُهُ ... ولا يَزِيدُكَ فيهِ حَوْلُ مُحتالِ
والفَقْرُ في النفسِ لا في المالِ نَعْرِفُهُ ... ومِثْلُ ذاكَ الغِنَى في النَّفْسِ لا المالِ

فقَطَع عنه سُليمانُ الراتبَ، فقال الخليل:

إنَّ الذي شَقَّ فَمِيْ ضامِنٌ ... لِلرِّزْقِ حتى يَتوفَّاني
حَرَمْتَنِي خيراً قليلاً فَمَا ... زادَكَ في مالِكَ حِرْماني

فبلَغتْ سليمانَ فأقامَتْهُ وأقعَدَتْهُ! وكتَبَ إلى الخليل يَعتذرُ إليه، وأَضعَفَ راتبَهُ.

وكان سبَبُ موتِهِ أنه قال: أُريدُ أن أقَرِّبَ نوعاً من الحِساب، تَمْضِي الجاريةُ إلى البيَّاعِ فلا يُمكِنُهُ ظُلمُها، ودَخَل المسجدَ وهو يُعمِلُ فِكرَهُ في ذلك، فصَدَمَتْهُ ساريةٌ وهو غافلٌ عنها بفِكره! فانقَلَب على ظهره، فكانت سَبَبَ موته رحمه الله تعالى[1].

---

(١) وهذا الإمامُ الحصيفُ الحكيم والصَّبُورُ الشكورُ العليم (الخليلُ بن أحمد)، له كلماتٌ مأثورة، تَفِيضُ حِكمةً وسَداداً وتعليماً وإرشاداً، فأذكرُ كلمةً منها هنا، مما يَتَّصلُ بشأنِ الطلب والتحصيل، ليَسترشد بها المحصِّلُون في كل العلوم، وإن كان هو قالَها بشأنِ تحصيل (النحو) خاصَّةً، فإنها كلمةٌ حكيمة شاملة عامَّة، قد عَبَّر فيها عن حقيقةٍ من الحقائق العِلْميةِ الغالية، قال رحمه الله تعالى:

«لا يَصِلُ أحَدٌ من النَّحْو إلى ما يَحتاجُ إليه، إلا بَعْدَ معرفةِ ما لا يَحتاجُ إليه». نقَلَه المؤرِّخُ صلاحُ الدين الصَّفَدي في مقدمة تاريخه الحافل العظيم «الوافي بالوَفَيَات» ١: ٦، ثم قال الصَّفَدي: =

١٦٥ ـ روى الحافظ الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»[١]، في ترجمة القاضي أبي عبد الله شَرِيك بن عبد الله النَّخَعي الكوفي، العلامة الحافظ الفقيه أحَدِ الأئمةِ الأعلام، المولود سنة ٩٥ ببُخَارَى، والمتوفى سنة ١٧٧ في الكوفة رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال يحيى بن يزيد: مَرَّ شريكٌ القاضي بالمُستنِير بن عَمْرو النَّخَعي، فجلَسَ إليه، فقال له المستنير: يا أبا عبد الله، من أدَّبَك؟ قال: أدَّبَتْني نَفْسِي واللَّهِ تعالى، وُلِدتُ بخراسان ببُخَارَى، فحَمَلني ابنُ عم لنا حتى طرَحَني عند بني عم لي بنَهْر صَرْصَر[٢].

فكنتُ أجلسُ إلى مُعَلِّم لهم، فعَلِقَ بقلبي تعلُّمُ القرآن، فجئتُ إلى شيخهم، فقلت: يا عَمَّاه، الذي كنتَ تُجرِي عليَّ ها هنا، أجْرِهِ عليَّ بالكوفة أعرِفُ بها السُّنَّةَ وقَوْمِي، ففَعَل.

= «وهكذا كلُّ علم، لا يَبلُغُ الإنسانُ إتقانَه إلا بعدَ تحصيل ما لم يَفتقِر إليه». انتهى.

قال عبد الفتاح: وهذا الذي قاله الإمامُ الخليل والمؤرِّخ الصفدي، كما هو صادِقٌ بشأنِ كَسْبِ العلوم ومعرفتِها، صادقٌ أيضاً بشأنِ اقتناءِ كتبِ تلك العلوم وآلاتِها، فلا تَغْفُلْ، ولا تَبْخَلْ إذا اتَّسَعَ عندك المكانُ والمالُ وطاقةُ الصبرِ والمعرفةِ لها، والله يتولَّاك ويَرعاك.

وكان الإمام الخليل يقول أيضاً: أكمَلُ ما يكون الإنسان عَقْلاً وذِهناً إذا بَلَغ أربعين سَنَةً، وهي السِّنُّ التي بَعَثَ الله تعالى فيها محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم يَتغيَّرُ ويَنْقُصُ، إذا بَلَغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السِنُّ التي قُبِضَ فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. وأصْفَى ما يكونُ ذِهنُ الإنسانِ في وقتِ السَّحَر. حكاه ابن خلكان في «الوفيات» ١:١٧٣، في ترجمة الخليل رحمه الله تعالى.

قال الخليلُ بنُ أحمد هذا، وهو قد عاش ٧٠ سنة، فهو يُخبِرُ إخبارَ العارف، الذائق الواثق، وقد صَدقَ رحمةُ الله تعالى عليه.

(١) ٩: ٢٨٠.

(٢) صَرْصَرُ قريةٌ من سَوَاد بغداد، على ضِفَّةِ نهر عيسى، وربما أضِيفَ إليها نهرُ عيسى فقيل: نَهْرُ صَرْصَر، كما في «معجم البلدان» ٣: ٤٠١ في (صرصر).

قال: فكنتُ بالكوفة أضرِبُ اللَّبِنَ وأبيعُهُ، وأشتري دفاترَ وطُرُوساً، فأكتبُ فيها العِلمَ والحديث، ثم طَلبتُ الفقه، فبَلَغْتُ ما تَرى. فقال المستنيرُ بنُ عَمْرو لوُلْدِه: سَمِعتُم قولَ ابنِ عمكم؟ وقد أكثرتُ عليكم في الأَدَب ولا أراكم تُفلحون فيه، فليُؤدِّبْ كلُّ رجلٍ منكم نفسَه، فمن أحسَنَ فلها، ومن أساءَ فعليها».

١٦٦ ـ وهذا الإمامُ مالكُ إمامُ دارِ الهجرة النبوية، المولود سنة ٩٥، والمتوفى سنة ١٧٩ رضي الله عنه، ألمَّ به الفقرُ حتى باع خشَبَ سَقْفِ بيتِه، قال القاضي عياض شيخُ المالكية في عصره في كتابه «ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك» في (باب ابتداءِ طلبِ مالك للعلم وصَبْرِه عليه)[1]:

«قال ابنُ القاسم: أفضَى بمالكٍ طلَبُ العلم إلى أن نَقَضَ سَقْفَ بيته فباع خشَبَه! ثم مالَتْ عليه الدنيا بعدُ». ثم نَقَل القاضي عياض[2]: «قال مالك: لا يُنالُ هذا الأمرُ ـ يعني العِلمَ ـ حتى يُذاقَ فيه طَعْمُ الفقر».

١٦٧ ـ وحكى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»[3]، والموفَّقُ الخوارزمي في «مناقب أبي حنيفة»[4]، في ترجمة القاضي الإمام أبي يوسف (يعقوب بن إبراهيم) الكوفي البغدادي، تلميذِ أبي حنيفة المولود سنة ١١٣، والمتوفى سنة ١٨٢: «قال أبو يوسف كنتُ أطلبُ الحديثَ والفقهَ وأنا مُقِلٌّ رَثُّ الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفتُ معه، فقال: يا بُنَيَّ لا تَمُدَّنَّ رِجلَك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خُبزُهُ مَشْويّ. وأنت تَحتاجُ إلى المعاش، فقَصَّرتُ عن كثيرٍ من الطلب، وآثرتُ طاعةَ أبي.

فتفقَّدني أبو حنيفة وسألَ عني، فجَعلتُ أتعاهَدُ مجلسَه، فلما كان أوَّلُ يوم أتيتُه بعدَ تأخري عنه، قال لي: ما شَغَلَك عنا؟ قلت: الشُّغلُ بالمعاش وطاعةُ والدي،

---

(١) ١: ١٣٠.

(٢) ٢: ٦٨.

(٣) ١٤: ٢٤٤.

(٤) ١: ٤٦٩.

فجَلَستُ، فلما انصرف الناسُ دفَعَ إليَّ صُرَّةً وقال: استَمْتِعْ بهذه، فنظرتُ فإذا فيها مِئةُ درهم، فقال لي: الزَمْ الحَلْقة، وإذا نَفِدَتْ هذه فأَعلِمْني.

فلَزِمتُ الحَلْقَة، فلما مضَتْ مدةٌ يسيرةٌ دَفَع إليَّ مِئةً أخرى، ثم كان يَتعاهَدُني، وما أعلمتُه بخَلَّةٍ قط، ولا أخبرته بنَفَادِ شيءٍ مَّا، وكان كأنه يُخبَرُ بنَفادِها حتى استغنيتُ وتموَّلت، فلَزِمتُ مجلسَهُ ــ ٢٩ سنة، أو ١٧ سنة ــ حتى بلغتُ حاجتي، وفَتَح الله لي ببركتِهِ وحُسنِ نيَّتِهِ ما فَتَح من العلم والمال، فأحسَنَ اللَّهُ عني مكافأتَهُ وغفَر له».

١٦٨ ــ وهناك رواية ثانية في نشأة الإمام أبي يوسف، حكاها الخطيب البغدادي أيضاً في «تاريخ بغداد»(١)، بعدَ هذه الرواية، مشيراً إلى ضعفِها بلفظِ (وحُكي)، قال رحمه الله تعالى: «وحُكِيَ أن والد أبي يوسف مات وخلَّف أبا يوسف طفلاً صغيراً، وأنَّ أُمَّهُ هي التي أنكرت عليه حضور حلقةِ أبي حنيفة، كذلك أخبرني الحسَنُ بنُ أبي بكر، قال: ذكر محمدُ بنُ الحسن النَّقَّاش، أنَّ محمد بن عبد الرحمن السَّامِي أخبرهم بهَرَاةَ، قال: أخبرنا عليُّ بن الجَعْد، أخبرني يعقوبُ بنُ إبراهيم أبو يوسف القاضي:

قال: تُوفِّي أبي: إبراهيمُ بن حبيب، وخلَّفني صغيراً في حِجْر أُمِّي، فأَسلَمَتْني إلى قَصَّار أخدِمُه، فكنتُ أَدَعُ القَصَّارَ وأَمُرُّ إلى حَلْقَةِ أبي حنيفة، فأجلِسُ أستمع، فكانت أمي تجيءُ خَلْفِي إلى الحَلْقَة، فتأخذُ بيدي وتَذهبُ بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يُعنَى بي لما يَرَى من حضوري وحِرصِي على التعلُّم.

فلما كثُرَ ذلك على أمي وطال عليها هَرَبي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبيِّ فَسَادٌ غيرُك! هذا صَبِيٌّ يتيمٌ لا شيءَ له، وإنما أُطعِمُهُ من مِغزَلي! وآمُلُ أن يَكسِبَ دانقاً يَعودُ به على نفسه(٢)، فقال لها أبو حنيفة: مُرِّي يا رَعْنَاء، هو ذا يَتعلَّمُ أَكْلَ الفالُوذَج بدُهنِ الفُسْتُق(٣). فانصرفَتْ عنه وقالت له: أنت شيخٌ قد خَرِفتَ وذهَبَ عقلك!

---

(١) ١٤: ٢٤٤.

(٢) الدانِقُ: لفظٌ فارسي مُعرَّب، معناه: سُدُسُ الدرهم.

(٣) الفالُوذَجُ: لفظ فارسي معرَّب وهو نوعٌ من الحَلْوَى الفارسية المركَّبة من طحينٍ وسُكَّرٍ وليمون. =

قال أبو يوسف: ثم لَزِمتُ أبا حنيفة وكان يَتعاهَدُني بمالِه، فما تَرَكَ لي خَلَّة، فنفعني الله بالعلم ورَفَعني حتى تقلَّدتُ القضاء، وكنتُ أُجالسُ هارون الرشيد، وآكُلُ معه على مائدتِه، فلما كان في بعض الأيام قُدِّم إلى هارون الرشيد فَالُوذَج، فقال لي هارون: يا يعقوب، كُلْ منه فليس يُعمَلُ لنا مثلُه كلَّ يوم.

فقلت: وما هذا يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: هذا فالُوذَج بدُهْنِ الفُسْتق، فضَحِكتُ، فقال لي: مم ضَحِكتَ؟ فقلت: خيراً أَبقَى اللَّهُ أميرَ المؤمنين، قال: لَتُخْبِرَنِّي ــ وألحَّ علي ــ فأخبرتُهُ بالقصة من أولها إلى آخرها، فعَجِبَ من ذلك وقال: لَعَمْرِي: إنَّ العلم لَيرفَعُ وينفعُ دِيناً ودُنيا، وترحَّمَ على أبي حنيفة وقال: كان يَنظرُ بعَيْنِ عَقْلِه فيرَى ما لا يَراه بعَيْنِ رأسِه»(١)

= وكنتُ سمعتُ هذه الحكاية من والدي رحمه الله تعالى، ولم يكن من العلماء ولكن كان من مُلازِميهم والمستمعين لهم، وجاءت فيها هذه الجملةُ كما يلي: (هو ذا يتعلَّمُ أكلَ الفالُوذَج، بإناءِ الفَيْرُوزَج). انتهى. «والفَيْرُوزَجُ من الأحجار الكريمة، أجوَدُ ألوانِهِ أزرَقُ سَماويّ، يَكثُرُ في إيران، ويُوجَدُ منه في تركية والهند». انتهى من «المعجم الذهبي: فارسي عربي» للدكتور محمد أَلْتُونجِي ص ٤٣٧.

والقِصَّةُ ــ بهذه الرواية الثانية على كل حال ــ غيرُ صحيحة كما ستقفُ عليه تعليقاً في آخرها بعد قليل، عن شيخنا العلامة الكوثري رحمه الله تعالى، لوجود كذَّابٍ وضَّاعٍ في إسنادها، وإنما ذكرتُها في كتابي هذا، لأُنبِّهَ على بُطلانِها، لأنها شائعةٌ هكذا على كثير من الألسنة، ومذكورةٌ كذلك في بعضِ الكتب، والله أعلم.

(١) قال شيخنا العلامة المحقق الكوثري رحمه الله تعالى، في كتابه «حُسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي» ص ٩: «هذه حكايةٌ لا أصلَ لها، وقد انفرد بروايتها محمدُ بن الحسن بن زياد النَّقَّاش المُقرِىء، صاحبُ كتاب «شِفاء الصدور» في التفسير، وهو كذَّاب مشهور. وثناءُ أبي عَمْروٍ الداني ــ الأندلسي ــ عليه من عَدَمِ علمِهِ بأحواله، لبعد داره عن الشرق. والتعويل على الرواية السابقة، حيثُ لا مأخَذَ في رجالِ سندها.

وقد تضافَرَتْ الرواياتُ على أن صاحب القصة هو والدُ أبي يوسف لا أُمُّهُ، كما يظهر من روايةِ الحسن بن أبي مالك وعبد الحميد الحِمّاني، أيضاً عن أبي يوسف، عند الحارثي ــ في «جامع المسانيد» ــ وغيره، راجع كتابَ «مناقب أبي حنيفة» للموفَّق الخَوارَزْمِي ١: ٤٦٩ ــ ٤٧٢، وأسانيدَهُ في تلك الروايات».

١٦٩ ــ وهذا إمام النحو واللغة والشعر والأدب والحديث (النَّضْر بن شُمَيْل المازني)، المولود سنة ١٢٢ والمتوفى سنة ٢٠٣ رحمه الله تعالى، قال القاضي ابنُ خَلِّكان في «وَفَيَات الأعيان»(١) في ترجمته: «ذكره أبو عُبَيدة في كتاب «مَثالِب البصرة» فقال: ضاقَتْ المعيشةُ على النَّضْر بن شُمَيل البصري بالبصرة، فخرج يريد خراسان! فشيَّعَهُ من أهل البصرة نحوٌ من ثلاثةِ آلافِ رجل، ما فيهم إلا مُحَدِّثٌ أو نَحْوِيٌّ أو لُغَوِيٌّ أو عَرُوضيٌّ أو أَخْبَارِيّ.

فلما صار بالمِرْبَد(٢)، جَلَسَ وقال: يا أهلَ البصرة يَعَزُّ عليَّ فراقُكم! واللَّهِ لو وجدتُ كلَّ يوم كَيْلَجةَ باقِلَّى ما فارقتكم(٣). قال: فلم يكن أحدٌ فيهم يتكلّفُ له ذلك، فسار حتى وصل خراسان، فأفاد بها مالاً عظيماً، وكانت إقامته بمَرْو.

وجَرَى له مع المأمونِ بن هارون الرشيد، لمّا كان مقيماً بمَرْوَ حكاياتٌ ونوادر، قال النضر: كنتُ أُدخَلُ على المأمون في سَمَرِه، فدَخلتُ ذاتَ ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع، فقال: يا نَضْرُ، ما هذا التقشُّفُ حتى تَدخُلَ على أمير المؤمنين في هذه الخُلْقان؟ ــ أي الثيابِ البالِيَة ــ قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنا شيخٌ ضعيف، وحَرُّ مَرْوَ شديد، فأتبرَّدُ بهذه الخُلْقان، قال: لا، ولكنك رجل متقَشِّفٌ.

ثم أجرينا الحديث، فأجرى هو ذِكرَ النساء فقال: حدثنا هُشَيم، عن مُجَالد، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ٢: ١٦١.

(٢) المِرْبَدُ بكسر الميم كمِنْبَر كما في «القاموس»: وهو هنا موقفُ الإبل ومَحْبِسُها، وبه سُمِّي مِرْبَدُ البصرة، كان سُوقاً للإبل، وكان الشعراءُ يجتمعون فيه. والمِرْبَدُ أيضاً: المكانُ الذي يُجَفَّفُ فيه التَّمْر، والمِرْبَدُ للتَّمْر كالبَيْدَرِ للحِنطة. قال ياقوت في «معجم البلدان» ٥: ٩٨: «ومِرْبَدُ البصرة من أشهر محالِّها، وكان يكونُ سُوقُ الإبل فيه قديماً، ثم صار محلَّةً عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مُفاخراتُ الشعراء ومَجالِسُ الخطباء، وهو الآن ــ في زمن ياقوت ــ خراب».

(٣) الكَيْلَجَةُ: كَيْلٌ معروفٌ لأهل العراق. ولعله دون (الكيلو) في زمننا، والباقِلَّى: الفُول.

«إذا تَزوَّجَ الرجلُ المرأةَ لِدِينِها وجَمَالِها كان فيه سِدَادٌ من عَوَز»[١]. فأورده بفتح السين (سَدادٌ مِن عَوَز). . فقلتُ: صَدَقَ ــ يا أميرَ المؤمنين ــ هُشَيم، حدَّثنا عوفُ بن أبي جَميلة، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تَزوَّج الرجلُ المرأةَ لدِينها وجَمَالِها كان فيها سِدادٌ مِن عَوَز».

قال: وكان المأمون متكأً، فاستوى جالساً وقال: يا نضرُ، كيف قلتَ: سِدَادٌ؟ قلتُ: لأنَّ (السَّدَاد) ها هنا لحن، قال: أو تُلحِّنُني؟ قلتُ: إنما لَحَنَ هُشَيم وكان لحَّانة، فتَبعَ أميرُ المؤمنين لَفْظَه، قال: فما الفرقُ بينهما؟ قلتُ: السَّدادُ: بالفتح: القَصْدُ ــ أي الاعتدالُ ــ في الدِّينِ والسَّبيل، والسِّدَادُ بالكسر: البُلْغةُ وكلُّ ما سَددتَ به شيئاً فهو سِداد، قال: أوَتَعرِفُ العربُ ذلك؟ قلت: نعم، هذا العَرْجيُّ يقول:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ليوم ِ كريهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ

فقال المأمون: قبَّحَ اللَّهُ من لا أدَبَ له! وأطرق مَليّاً ثم قال: مالك يا نضر؟ قلت: أُرَيضَة بمَرْوَ أتَصَابُّها وأتمَزَّزُها[٢]، قال: أفلا نُفيدك مالاً معها؟ قلتُ: إني إلى ذلك لمحتاج، فأخذ القِرطاسَ وأنا لا أدري ما يَكتُب، ثم قال لخادمه: تَبْلُغُ معه إلى الفضل بن سَهْل، فلما قرأ الفضلُ القِرطاسَ، قال: يا نَضْرُ، إنَّ أميرَ المؤمنين قد أمَرَ لك بخمسين ألفَ درهم، فما كان السببُ فيه؟ فأخبرتُه ولم أكْذِبه، فأمَرَ لي بثلاثين ألفَ درهم، فأخذتُ ثمانين ألفَ درهم بحرفٍ استُفِيدَ مني»[٣].

---

(١) رواه بهذا اللفظ عن ابن عباس ٍ وعليّ رضي الله عنهما الشيرازيُّ في «الألقاب والكُنَى» وهو حديثٌ ضعيف. أمَّا حديثُ: «تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالِها، ولحَسَبها، ولجَمَالِها، ولِدِينها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاكَ»، فهو حديثٌ صحيح، رواه البخَاري ومسلم وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أُرَيْضَة: أرضٌ صغيرة. وأتَصابُّها: أنالُ منها قليلاً قليلاً. وأتمَزَّزُها: أتمَصَّصُها وأعيشُ منها على قِلَّة.

(٣) في هذا الخبر حِرصُ الخليفةِ المأمونِ على العلم، وغلاؤُه عنده، وتشجيعُه عليه، وتقدَّمَ في الخبر ٥١ وفي ما علَّقته عليه نهوضُهُ بتحصيلِ العلم وروايةِ الحديث.

١٧٠ ــ وروى الحافظ ابن عبد البر في كتابه «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء»(١)، بسنده إلى الإمام الشافعي (محمد بن إدريس) المولود سنة ١٥٠، والمتوفى سنة ٢٠٤ رضي الله عنه قال:

«لم يكن لي مال، وكنتُ أطلب العلم في الحداثة ــ أي في مُستَهَلِّ عُمُرِه، وكانت سِنُّهُ أقلَّ من ثلاثَ عَشْرَةَ سنة ــ وكنتُ أذهبُ إلى الديوان أستوهِبُ الظُّهورَ ــ أي ظُهورَ الأوراقِ المكتوبِ عليها ــ فأكتُبُ فيها».

١٧١ ــ وجاء في «مناقب الشافعي» للبيهقي(٢)، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض(٣)، و«معجم الأدباء» لياقوت(٤)، في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه، في ذكر (ابتداءِ طلبِه وحِفظِه) ما يلي:

«قال الشافعي: كنتُ وأنا في الكُتَّاب، أسمَعُ المُعَلِّم يُلقِّنُ الصبيَّ، فأحفَظُ ما يقول. ولم يكن عند أُمِّي ما تُعطِي المعلِّم، وكنتُ يتيماً، فكان المُعَلِّمُ يَرضَى مني بأن أَخْلُفَهُ إذا قام، ولقد كانوا يكتُبُون، وقبلَ أن يَفرُغَ المعلِّمُ من الإملاء ــ أكونُ ــ حَفِظتُ جميعَ ما كتبتُ، فقالَ لي ذاتَ يوم: ما يَحِلُّ لي أن آخُذَ منك.

ثم لمَّا خرجتُ من الكُتَّاب، كنتُ ألتقِطُ الخَزَفَ وكَرَبَ النَّخْل وأَكْتَافَ الجِمَال، فأكتبُ فيها الحديثَ، وأجيءُ إلى الدَّوَاوين، فأستَوْهِبُ الظُّهورَ وأكتُبُ فيها، حتى مَلأتُ حِبَاباً كانت لأمِّي من ذلك»(٥).

---

(١) ص ٧٠.

(٢) ١: ٩٥.

(٣) ٣: ١٧٥ من طبعة المغرب، و ١: ٣٨٣ من طبعة بيروت.

(٤) ١٨: ٢٨٤.

(٥) الحِباب: بكسر الحاء المهملة، جمع (حُبّ) بضم الحاء المهملة، وهو الجَرَّة الكبيرةُ الضخمة. وسيأتي في الخبر ١٧٢ قولُ الشافعي: (فإذا امتلأ ــ العظمُ ــ طَرحتُه في جَرَّةٍ كانت لنا قديماً). انتهى. وكانوا يحفظون في (الحِباب): الكُتُبَ والدفاترَ والأوراق، ووَقَع هذا اللفظُ: (الحِبَابُ) في الطبعتين من «ترتيب المدارك» محرَّفاً إلى (جباب) أي بالجيم!! وانظر الكلام على (الحِبَاب) بالحاء المهملة، تعليقاً على خَبَرِ الإمام يحيى بن معين الآتي برقم ١٧٧.

١٧٢ ـ وحكى الحافظ ابن عبد البر، في كتابه النافع العظيم «جامع بيان العلم وفضلِه، وما ينبغي في روايتِهِ وحَمْلِه»[١]، في (باب الحضِّ على استدامةِ الطَّلَب، والصَّبْرِ على الَّلأْواءِ والنَّصَب) عن الإمام الشافعي أيضاً: «قال: كنتُ يتيماً في حِجْر أُمِّي، فدفَعْتني في الكُتَّاب، ولم يكن عندها ما تُعطي المعلِّم، فكان المُعَلِّمُ قد رَضِيَ مني أن أَخلُفَه إذا قام.

فلما ختَمتُ القرآن، دَخلتُ المسجد فكنتُ أُجالِسُ العلماء، وكنت أَسمَعُ الحديثَ أو المسألةَ فأحفظُها، ولم يكن عندَ أُمِّي ما تُعطيني أشتري به قراطيسَ، فكنتُ إذا رأيتُ عَظْماً يَلُوحُ ـ أي يَلمعُ لبياضِهِ ـ آخذُهُ فأكتبُ فيه، فإذا امتلأ طَرَحتُه في جَرَّةٍ كانت لنا قديماً.

ثم قَدِمَ والٍ على اليَمَن، فكلَّمه لي بعضُ القرشيين أن أَصحَبَه، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أتَجمَّلُ به، فرهَنَتْ رِداءَها بستة عَشَر دِيناراً[٢]، فأعطَتْني فتجمَّلتُ بها معه. . .».

١٧٣ ـ وقال المسعودي في «مروج الذهب»[٣]، والقاضي عياض في «ترتيب المدارك»[٤]، وياقوت الحَمَويُّ في «معجم الأدباء»[٥]، في ترجمة عالم المَغازي والسِّيَر (محمد بن عُمَر الواقدي) المَدَني ثم البغدادي، المولود سنة ١٣٠، والمتوفى سنة ٢٠٧ رحمه الله تعالى: «قال محمد بن سعد: رآني الواقديُّ مغتمّاً فقال لي: لا تَغتمّ، فإنَّ الرزقَ يأتي من حيث لا تَحتسِب، أَملَقْتُ مرةً حتى بِعْتُ بِرْذَوْني[٦]! فاستبطأني يحيى بنُ خالد[٧]، فاعتذرتُ إليه، فوَقَفَ على حالي فأمَرَ لي بخمسِ مِئةِ دينار، فصِرتُ بها إلى

(١) ١: ٩٨.

(٢) كذا جاء في كتاب ابن عبد البر: (ديناراً)، وأخشى أن يكون الصوابُ فيه (بستَّةَ عشَرَ دِرْهماً)، فإني أستكثرُ المبلغَ المذكور، والله تعالى أعلم.

(٣) ٧: ٧٣ ـ ٧٥.

(٤) ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٥) ١٨ : ٢٨٠.

(٦) هو نوع من الخيل غير العربية، وتسميه العامة عندنا في بلاد الشام: الكَدِيش.

(٧) هو يحيى بن خالد البرمكي وزيرُ هارون الرشيد، الوزيرُ السَّرِيُّ الجَوَادُ، ولد سنة =

البيت، فأنا في تصريفها في قضاءِ الدين والعِيال، إذ طَرَقني رجلٌ من أهل المدينة قد قُطِعَ عليه الطريق، من وَلَدِ أبي بكر رضي الله عنه، فشكا إليَّ حالَهُ، فدَفعتُ إليه ما فَضَل، ولم أشترِ بِرْذَوناً.

فاستبطأني يحيى بنُ خالد، فأخبرتُه الخبر، فوجَّه إلى البكريِّ فسأله؟ فقال: نعم أَخذتُ الدنانيرَ منه، فلما صِرتُ بها في البيتِ جاءني فلان الأنصاري، فشكا إليَّ حالَهُ فدفعتُها إليه.

فوجّه يحيى إلى الأنصاري يسأله هل وجّه البكري إليه المال؟ فأخبره الخبر، فتعجَّب يحيى بنُ خالد من الكَرَم، ثم أمَرَ لي بألفِ دينار، وللبكري بمثلِها، وللأنصاري بمثلِها، ولزوجتي بخمسِ مِئةٍ لغَمِّها حين دَفَعتُ الدنانيرَ إلى البكري.

قال الواقدي: وكان لي صديقان، أحدُهما هاشمي، وكُنّا كنَفْسٍ واحدة، فنالَتْني ضِيقَةٌ شديدةٌ وحَضَرَ العِيدُ!، فقالَتْ ليَ آمرأتي: أمَّا نحن في أنفسنا فنصبِرُ على البُؤْسِ والشدة، وأما صِبيانُنا فقد قَطَّعوا قلبي رَحْمةً لهم، لأنهم يَرون صِبيانَ الجيرانِ قد تزيَّنوا في عِيدِهم، وأصلحوا ثيابَهم، وهم على هذه الحالِ من الثياب الرَّثّة! فلو احتَلتَ بشيء تَصرِفه في كِسْوَتِهم!

فكتبتُ إلى صديقي الهاشمي أسألُهُ التوسعةَ عليَّ بما حضره، فوجّه إليَّ كِيْساً مختوماً، ذكَرَ أنَّ فيه ألفَ درهم، فما استَقرَّ قَرارِي حتى كتَبَ إليَّ الصديقُ الآخَر: يَشكو مِثلَ شكوايَ إلى صاحبي، فوجَّهتُ إليه الكيسَ بحالِه، وخرجتُ إلى المسجدِ فأقمتُ فيه ليلِي مستحيياً من امرأتي، ثم رَجعْتُ، فلما دَخلتُ عليها استحسنَتْ ما كان مني ولم تَعنِّفني عليه.

= ١٢٠، ومات سنة ١٩٠ رحمه الله تعالى، كان من العقلاء الكرماء البلغاء، وكان يقول: ثلاثةُ أشياءَ تدلُّ على عقول أصحابها: الهديَّةُ، والكتابُ ــ أي الرسالة ــ، والرسولُ. وكان يقول لبنيه: اكتبوا أحسَنَ ما تسمعون، واحفظوا أحسَنَ ما تكتبون، وتحدَّثوا بأحسنِ ما تحفظون. من ترجمته في «وفَيات الأعيان» ٦: ٢٢١.

فبينا أنا كذلك، إذ وافاني صديقي الهاشميُّ ومعه الكِيسُ كهيئتِهِ، فقال لي: آصْدُقْني عما فعلتَهُ فيما وَجَّهتُ إليك، فعرَّفته الخبرَ على جهته.

فقال: إنك وَجَّهتَ إليَّ تسألُني العونَ وما أملِكُ إلا ما بَعثتُ به إليك، وكتبتُ إلى صديقنا أسألُهُ المواساةَ، فوجَّه إليَّ كِيسي بخاتمي، قال الواقدي: فتواسَيْنا الألفَ، وقَسَمْناها بيننا أثلاثاً، بعد أن أخرجنا للمرأةِ مِئةَ درهم، ونُمِيَ الخبرُ إلى المأمون، فدعاني فشَرَحْتُ له الأمر، فأمَرَ لنا بسبعةِ آلاف دينار، لكل واحد منا ألْفَا دينار، وللمرأةِ ألفُ دينار»[1].

١٧٤ ــ وجاء في «الأنساب» للسمعاني[2]، في ترجمة الرجل الصالح المحدِّث (أبي عامر قَبِيْصَةَ بنِ عُقْبَة السُّوَائي الكوفي)، شيخِ الإمام أحمد والبخاري وغيرِهما، المتوفى سنة ٢١٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«حُكِيَ أنَّ دُلَفَ بنَ أبي دُلَفَ العِجْلِي ــ وهو ابنُ مَلِكٍ كما سيأتي في هذا الخبر ــ ، جاء إلى باب قَبيصَة بنِ عُقْبَة، ومعه الخَدَمُ والغِلْمانُ لكتابةِ الحديث، فدَقَّ عليه البابَ، فأبطأ قَبِيصَةُ بالخروج، فعاوَدَهُ الخَدَمُ ــ بالدَّقّ ــ ، وقيل له: إنَّ ابنَ مَلِكِ الجَبَل[3] على

(١) قال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٣:٣ ــ ٤ و٢٠، وياقوت الحموي في «معجم الأدباء» ١٨: ٢٧٩، في ترجمة الواقدي (محمد بن عمر): «كان الواقديُّ من أهلِ المدينة، وكان جَوَاداً كريماً مشهوراً بالسخاء، قَدِمَ بغداد في سنة ١٨٠ في دَيْنٍ لَحِقَهُ، فولاَّه الرشيدُ قضاءَ الجانب الشرقيِّ فيها، ثم ولاَّه المأمونُ القضاءَ في عَسْكَرِ المَهْدِي: المحلَّةِ المعروفةِ بالرُّصافةِ من بغداد، فلم يَزَلْ قاضياً حتى مات. وكان المأمون يُكرِمُ جانبَهُ ويُبالِغُ في رعايتِه.

قال الحسنُ بنُ شَاذَان: قال الواقديُّ صار إليَّ من السلطانِ سِتُّ مئةِ ألفِ درهم ــ يعني في عَطَاءاتٍ متكرِّرة ــ ، ما وجَبَتْ عليَّ فيها الزكاةُ. قال عبَّاسٌ الدُّوريُّ: مات الواقديُّ وهو على القضاء، وليس له كَفَنٌ فبَعَث المأمونُ بأكفانِه!». رحمةُ الله تعالى عليه.

أحاديثُ لو صِيْغَتْ لألْهَتْ بحُسْنِها عن الوَشْيِ أو شُمَّتْ لأغْنَتْ عن المِسْكِ

(٢) ٧: ٢٨٩.

(٣) مَلِكُ الجَبَل هو أبو دُلَفَ القاسمُ بن عيسى العِجْلي، ترجم له القاضي ابن خَلِّكان ترجمةً حافلةً في «الوفَيَات» ١: ٤٢٣ ــ ٤٢٥، وقال في آخرها: «مات ببغداد سنة ٢٢٦. والجَبَلُ: إقليمٌ =

الباب وأنت لا تَخْرُجُ إليه، فخَرَج وفي طَرَفِ إزارِهِ كِسَرٌ من الخُبْز، فقال لهم: رَجُلٌ قد رَضِيَ من الدنيا بهذا، ما يَصنعُ بابنِ مَلِكِ الجَبَل؟! واللَّهِ لا أُحدِّثُه! فلم يُحدِّثه».

١٧٥ ــ وقال الأمير الصنعاني في «توضيح الأفكار»[(١)]: «ومن العلماء من رَخَّص في أخذ الأُجرة على التحديث، منهم أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن المولود سنة ١٣٠، والمتوفى سنة ٢١٩ رحمه الله تعالى، شيخُ البخاري وأحمد وإسحاق بن راهويه وابن المبارك وخلقٍ، كان يأخذُ العِوَض على التحديث، بحيث إنه كان إذا لم يكن مع الطلبة دراهم صِحاحٌ بل مكسورة أَخَذَ صَرْفَها ــ أي الفَرْقَ الذي يكون بين القِطَع الصغيرة والكبيرة ــ وكان يقول: يلومونني على الأخذ، وفي بيتي ثلاثَةَ عشَرَ إنساناً، وما في بيتي رغيف!».

١٧٦ ــ وعقد الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه «مناقب الإمام أحمد بن حنبل»[(٢)] باباً لذكر جماعة من العلماء لم يُجيبوا في مِحنةِ (مسألة خلق القرآن)[(٣)]، فذكَرَ منهم (أبا عثمان عَفَّانَ بن مُسْلِم البصري) شيخَ البخاري المولود سنة ١٣٤، والمتوفى سنة ٢٢٠ رحمه الله تعالى، فقال: « وكان عفانُ بنُ مُسْلِم أوَّلَ من امتُحِنَ من الناس».

ثم ساق ابنُ الجوزي بسنده إلى القاسم بن أبي صالح: «قال: سمعتُ إبراهيمَ ــ بنَ الحُسَين بنِ دِيْزِيل ــ يقول: لما دُعِيَ عَفَّانُ بنُ مُسْلِم للمِحْنَة، كنتُ آخِذاً بلِجامِ حماره، فلما حَضرَ عُرِضَ عليه القولُ فامتَنَع أن يجيب، فقيل له: يُحبَسُ عطاؤك،

= كبيرٌ بين بلاد العِراق وخراسان، والعامَّةُ تسمِّيه: عِراقَ العَجَم، وفيه مُدُنٌ كبار، منها هَمَذان وأصبهان والرَّيُّ وزَنْجانُ وغيرُ ذلك». انتهى. قلتُ: ويقال لهذا العراق: الجِبَال، بصيغة الجمع، وبه ذكره ياقوت في «معجم البلدان».

(١) ٢ : ٢٥٤.

(٢) ص ٣٩٤.

(٣) انظر رسالتي «مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل». ففيها إبانة لتاريخ هذه المسألة وسببها ومخلَّفاتها!.

وكان يُعطَى في كل شهرٍ ألفَ درهم، فقال: ﴿وفي السّماءِ رِزْقُكم وما تُوعَدُون﴾[١]. فلما رَجَع إلى داره عذَلَه ــ أي لامَه ــ نساؤه ومن في دارِه، وكان في دارِه نحوُ أربعين إنساناً!

فدَقَّ عليه دَاقٌّ البابَ. فدخَلَ عليه رجل ــ قال ــ: شَبَّهتُهُ بسَمَّان أو زَيَّاتٍ، ومعه كِيسٌ فيه ألفُ درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبَّتَك اللَّهُ كما ثبَّتَّ الدِّين، وهذا لك في كل شهر». انتهى.

وإعراضُ الحافظِ الإمامِ عَفَّانَ بنِ مُسْلِم رحمه الله تعالى عن عطاءِ السلطان إلى عطاءِ الرحمن، مُسْتَنِدَاً إلى قولِهِ تعالى: ﴿وفي السَّماءِ رِزْقُكم وما تُوعَدُون﴾، ذكَّرَني ببيتين رائعين كنتُ حَفِظتهما من شيخي الجليل الأستاذ عيسى البَيَانوني ــ الحلبي ــ رحمه الله تعالى، ثم وقفتُ عليهما للشاعر الأندلسي محمد بن إدريس البَلَنْسيّ، الملقَّبِ بمَرْجِ الكُحْل، المتوفى سنة ٦٣٤ رحمه الله تعالى، ذكرهما له العلامة خيرُ الدين الزِّرِكْلِي رحمه الله تعالى، في ترجمته في «الأعلام»[٢]، يقولُ فيهما:

مَثَلُ الرِّزقِ الذي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الذي يَمْشِي مَعَكْ
أنتَ لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعَاً وإذا وَلَّيتَ عنه تَبِعَكْ

١٧٧ ــ وهذا إمام الأئمة في علم الجرح والتعديل (يحيى بن مَعِين) البغدادي، شيخُ البخاريِّ ومسلمٍ وسواهما من أئمة الحديث، المولود سنة ١٥٨، والمتوفى سنة ٢٣٣ رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»[٣]، والعُلَيميُّ في «المنهج الأحمد»[٤]، في ترجمته: «وُلِدَ في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨، وكان أبوه (مَعِينٌ) كاتباً لعبد الله بن مالِك، ثم صار على خَرَاجِ الرَّيّ، فمات، فخلَّف لابنه (يحيى) ألْفَ ألْفِ درهمٍ وخمسين ألْفَ درهم، فأنفقه كلَّه يحيى على الحديث، حتى لم يَبق له نَعْلٌ يَلبَسُه!

---

(١) من سورة الذاريات، الآية ٢٢.
(٢) ٦: ٢٥١.
(٣) ١١: ٢٨٢.
(٤) ١: ٩٥.

وخلَّف يحيى من الكتب مِئة قِمَطْرٍ وأربعةَ عَشَرَ قِمَطراً[١]، وأربعَ حِبَابٍ شَرَابِيَّة مملوءة كتباً». وفي روايةِ «تهذيب التهذيب»: «وعشرين حُبّاً»[٢].

---

(١) قال صاحب «لسان العرب» فيه: «القِمَطْرُ: أصلُه البعير الشديدُ الصُّلب، أو الضخمُ القوي، ثم أُطلق على شِبه السَّفَط من القَصَب، تُصانُ به الكتب». وقال في «القاموس» في تفسير (السَّفَط): «السَّفَط كالجُوَالق أو كالقُفَّة، جمعُه أسفاط». وقال الزبيدي في «شرح الإحياء» ١ : ٣٥٩ : «القِمَطْرُ كالقِمَطْرَة: سَفَطٌ يُسَوَّى من قَصَبٍ تُصانُ فيه الكُتُب».

وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر، في ترجمة (يحيى بن معين) ١١ : ٢٨٢ : «قال محمد بن نَصْر الطبري: دخلتُ على ابن معين، فوجدتُ عنده كذا وكذا سَفَطاً، وسمعتهُ يقول: كلُّ حديثٍ لا يُوجَدُ هاهنا، وأشار بيده إلى الأسفاط، فهو كَذِب». انتهى.

فالقِمَطْرُ في كلام العلماء المرادُ به السَّفَطُ الذي تُحفَظُ به الكتب.

(٢) الحِبَابُ بالحاء المهملة المكسورة: جمعُ (حُبّ) بضم الحاء، وهو الجَرَّةُ الكبيرة الضخمة، وكانوا يضعون كتبهم في تلك الجرار الكبيرة حفظاً لها، وقد شهدتُها في بعض القرى القديمة يخزنون فيها الحبوب، وسعةُ مُحِيطها لا يَكادُ يُحيطُ بها ذِرَاعَا رَجُلينِ متقابلين.

ووقع في «المنهج الأحمد» و «تهذيب التهذيب» بلفظ (وأربع جباب) و (عشرين جُباً) بالجيم فيهما، وهو تحريف عما أثبته، وقد وقع هذا التحريف: (جِبَاب) في خبر الإمام الشافعي المتقدم برقم ١٧١، ويكثُرُ وقوعُ التحريف في هذا اللفظ: (حِبَاب) الذي هو بالحاء المهملة إلى (جِبَاب) بالجيم، لشهرةِ لفظة (جُبّ) و (جِبَاب) بالجيم، وغموضِ لفظ (حُبّ) و (حِبَاب) بالحاء، فاعلمه فإنه ينفعك إن شاء الله تعالى.

وقولُه: (شَرَابِيَّة)، هكذا جاءت الكلمةُ في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ١١ : ٨١، وهي ــ على هذا ــ منسوبةٌ إلى (الشَّرَاب) الذي يُوضَعُ فيها، وغيرُ المسلمين يضعون فيها (الشَّرَابَ) أي الخمرَ، يُعَتِّقُونها السِّنِينْ الطِّوال، لتكونَ أكثَفَ وأخبَث.

وجاء هذا اللفظُ في «تهذيب التهذيب» و «المنهج الأحمد» هكذا: (شبرانية)، أي مرسومةً بالشين المعجمة، ثم الباء، ثم أَلِف، ثم نون، ثم ياءٍ مثنَّاةٍ مُشَدَّدة، ثم تاءٍ مربوطة، فتكون ــ على هذا ــ منسوبةً إلى (الشِّبْر)، وهو ما يكون باتساع فَتْحَةِ الكَفِّ ما بين رأسِ الإبهامِ والخِنْصِر، وبهذا اللفظِ: (الشِّبْرَانِيَّة) أثبتُها وضبطتُها بالشكل في الطبعة الثانية من «الصفحات» ص ٥٨. ثم ترجَّح عندي تصويبُ ما جاء في «سِيَر» الذهبي، فأثبتُّها هنا كذلك، والله تعالى أعلم.

١٧٨ ـ وجاء في «طبقات المعتزلة» للقاضي عبد الجبار[١]، و«المُنْية والأمل» لابن المرتضى[٢]، في ترجمة الفقيه الناسك العالم (أبي محمد جعفر بن مبشِّر الثقفي المعتزلي البغدادي)، المتوفى سنة ٢٣٤ رحمه الله تعالى: «إنه كان مشهوراً بالعلم والورع، ورُوي أنه أَضَرَّتْ به الحاجةُ حتى كان يَقبَلُ القليلَ من زكاةِ إخوانِه.

فحضَرَه يوماً بعضُ التجار، فتكلَّمَ بحضرته في خِطبة نكاح، فأُعجِبَ به ذلك التاجرُ واستحسَنَهُ، فسأل عنه وعن حالِهِ، فأُخبِرَ بمَسْكَنَتِه ـ أي فَقْرِهِ وعَوَزِه ـ ، فبعَثَ إليه بخمسِ مِئَةِ دِينار! فردَّها.

فقيل له: قد عَذَرناك في رَدِّ مالِ السلطان للشُّبْهة، وهذا تاجرٌ ومالُه من كَسْبِه، وقد طابَتْ نفسُه بما أعطاك، فلا وَجْهَ لردِّك، فقال جعفر: أليس أنه قد استَحسَن كلامي وموعظتي؟ أفتَراني، لي أن آخُذَ على دُعائي إلى الله وموعظتي ثَمَناً؟! لو لم أكن فَعَلْتُ هذا، ثم ابتدأني لَقَبِلْتُه».

١٧٩ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[٣]، و«تهذيب التهذيب»[٤]، و«تهذيب الكمال» للحافظ المِزِّي ـ مخطوط ـ ، كلُّهم ذكروا في ترجمة (محمد بن رافع النيسابوري) الحافظِ القُدوةِ شيخ البخاري ومسلم وطبقتِهما، المتوفى سنة ٢٤٥ رحمه الله تعالى، ـ والسياقُ الآتي من مجموع كلامهم ـ :

«قال زكريا بن دَلُّوْيَه: بَعَث الأمير طاهرُ ـ بنُ عبد الله الخُزاعي ـ إلى محمد بن رافع بخمسةِ آلاف درهم، على يَدِ رسولٍ له، فدخل عليه بعد صلاة العصر، وهو يأكل الخُبزَ مع الفِجْل! فوضَع الكيسَ بين يديه، وقال: بعَث الأميرُ طاهرٌ بهذا المالِ لتُنفِقَهُ على أهلِك.

---

(١) ص ٢٨٣.
(٢) ص ٨١.
(٣) ٢ : ٥١٠.
(٤) ٩ : ١٦١.

فقال له محمد بن رافع: خُذْ خُذْ، لا أحتاجُ إليه، فإنَّ الشمسَ قد بَلَغَتْ رأسَ الحيطان، إنما تَغْرُبُ بعد ساعة، قد جاوزتُ الثمانين، إلى متى أعيش؟ فردَّ المال ولم يقبله، فأخَذ الرسولُ المالَ وذَهب، فدخل على محمد بن رافع ابنُهُ فقال له: يا أبَه ليس لنا خُبزٌ الليلةَ! وكان محمدُ بنُ رافع يَخرجُ إلينا في الشتاء الشاتي، وقد لَبِسَ لِحافَهُ الذي يَلبَسُه بالليل!».

١٨٠ ــ وجاء في «معجم الأدباء»[١]، و«وفَيَات الأعيان»[٢]، و«الوافي بالوَفَيات»[٣]، في ترجمة إمام العربية أبي عثمان المازني (بَكْر بن محمد بن عثمان) البصري النَّحوي الصَّرْفي، الذي لم يكن أحدٌ بعدَ سيبويه أعلَمَ بالنحوِ منه، وهو أوَّل من دَوَّن عِلمَ التصريف، وكان قبلَ ذلك مندرجاً في علم النحو، المتوفى سنة ٢٤٩ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«كان المازنيُّ في غاية الوَرَع، وقصَدَه يهوديٌّ ليَقرأَ عليه «كتابَ سيبويه»، وبَذَل له مِئةَ دينار في تدريسِهِ إياه فامتَنَع، فقال له المُبَرِّدُ ــ تلميذُه ــ: جُعِلتُ فِداك، أتَرُدُّ هذه المنفعةَ مع فاقتِك وشِدَّةِ إضاقتِك؟ فقال: إنَّ هذا الكتابَ يَشتمِلُ على ثلاثِ مِئةٍ وكذا وكذا آيةً من كتاب الله عَزَّ وجل، ولستُ أرَى أن أُمكِّنَ منها ذِمِّياً، غَيرةً على كتابِ الله وحَمِيَّةً له.

قال المُبَرِّد: فاتَّفق أنْ غَنَّتْ جاريةٌ بحضرةِ ــ الخليفة ــ الواثِق، بقولِ العَرْجِيّ:

أَظَلُومُ إنَّ مُصَابَكم رَجُلاً ... أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً: ظُلْمُ[٤]

---

(١) ٧: ١١١.

(٢) ١: ٢٨٤.

(٣) ١٠: ٢١٢.

(٤) العَرْجيُّ: نسبةٌ إلى العَرْج، مَنزِلٍ بطريق مكة المكرمة. كما جاء في «القاموس» في (عرج)، قال: «منه عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ عثمانَ بن عَفَّان العَرْجيُّ الشاعرُ». انتهى. والبيتُ المذكور من شواهد «المغني» لابن هشام ص ٥٣٨ و٦٧٣، في (الباب الخامس) في آخر الجهة الأولى فيه، وهو من قصيدةٍ ميميَّةٍ تُنسَبُ إلى الحارثِ بن خالد المخزومي، وهو الصحيح الراجحُ =

فاختَلَف مَنْ في الحضرة في إعرابِ (رجلًا)، فمنهم من نَصَبهُ وجعَلَه اسمَ (إنَّ)، ومنهم من رَفَعَهُ على أنه خبرُها، والجاريةُ مُصِرَّةٌ على أنَّ شيخَها أبا عثمان المازنيَّ لقَّنَها إياه بالنصب، فأمَرَ الواثقُ بإشخاصِه ــ من البصرة إلى بغداد ــ .

قال أبو عثمان: فلما مَثَلْتُ بين يديه، قال: ممن الرجل؟ قلتُ: من بَني مازِن، فقال: أيُّ المَوَازِن؟ أمَازِنُ تَمِيم، أم مازِنُ قَيْس، أم مازنُ رَبِيعَة، أم مازنُ اليَمَن؟ قلتُ: من مازن ربيعة، فكلَّمني بكلامِ قومي، وقال: بَا آسْبُك، لأنهم يَقلبون الميمَ باءً

= عند علماء الأدب. وبعدَهُ:

أَقْصَدْتِهِ وأرادَ سِلْمَكُمُ فلْيَهْنِهِ إذْ جاءَكِ السِّلْمُ

وهذان البيتانِ لهما معنى رقيقٌ جداً، يَحسُنُ بيانُه ليُفهَمَا على وجههما، فقولُه: (أَظلُومُ)، الهمزةُ فيه للنداء، و (ظَلُومُ) مُنادَى، وهو صِيغةُ مبالغةٍ من الظُّلْم، صِفَةٌ للمرأة المحبوبةِ الحسناءِ المتغزَّلِ بها.

و (مُصَابَكم) بمعنى (إصابتِكم)، والإصابةُ هنا معناها التفجيع، جاء في «القاموس» وشرحِهِ «تاج العروس» ١: ٣٤٠، في (صوب): «الإصابَةُ: التفجيعُ، أصابَهُ بكذا فجَعَه به، كالمُصَاب، قال الحارثُ بنُ خالد المخزومي:

أَسُلَيْمُ إنَّ مُصَابَكم رَجُلاً أَهْدَى السَّلامَ تَحِيَّةً: ظُلْمُ!».

انتهى. ومعنى البيتِ على اللفظ المنسوب للعَرْجي: أيتُها الحسناءُ المُدِلَّةُ بجَمَالِها، إنَّ تسديدَ سِهامِ لَحْظِكِ القاتلةِ، لقلبِ الرجل الذي تُيِّم في هواكِ، فأقبَلَ يُزجِي إليكِ تحيةَ قلبِهِ المُدْنَف: ظُلمٌ وأيُّ ظلم!

وقولُه في البيت الثاني: (أَقْصَدْتِهِ)، معناه: رَمَيْتِهِ بسهمٍ منكِ فقُتِلَ في مكانِهِ فوراً، ففي «لسان العرب» ٣: ٣٥٦، في (قصد): «قال الأصمعي: الإقْصَادُ: القَتْلُ على كل حال، وقال الليثُ: هو القتلُ على المكان، والإقصادُ أن تَضرِبَ الشيءَ أو ترمِيَهُ فيموتَ مكانَهُ، وأَقصَدَ السهمُ: أصاب فقتَلَ مكانَه، قال الأخطل:

فإن كنتِ قد أَقصدتِني إذْ رَمَيْتِني بسَهْمَيْكِ فالرامِي يَصِيدُ ولا يَدري!»

قال عبد الفتاح: وفي هذين البيتين شاهد لورود خطابِ المؤنث بلفظ المذكَّر، ولورود خِطابِ المفرد المؤنث بلفظِ الجمع المذكرِ تعظيماً. وهذا مما يُحتاجُ إلى معرفتِهِ فكن منه على ذُكْر. والمعنى المشارُ إليه في البيت الأولِ مُتَوارِدٌ كثيرٌ عند الشعراء، ومنه قولُ كُثَيِّر عَزَّة:

رَمَتْنِي بسَهْمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لم يُصِبْ ظَوَاهِرَ جِسْمِي وهْوَ في القَلْبِ جارِحُ!

والباءَ ميماً، فكَرِهتُ أن أجِيبَهُ على لغةِ قومي، كيلا أُواجِهَهُ بالمَكْر، فقلت: بَكْرٌ يا أميرَ المؤمنين، ففَطِنَ لما قصدتُه، وأُعجِبَ به وضَحِك.

ثم قال: ما تقولُ في قولِ الشاعر: أَظَلُومُ إنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلاً؟

أتَرفعُ رجلاً أم تَنصِبُهُ؟ فقلتُ: بل الوَجْهُ النصبُ يا أميرَ المؤمنين، فقال: ولِمَ ذاك؟ قلتُ: إنَّ (مُصَابَكم) مَصْدَرٌ بمعنى إصابتِكم، فأخَذَ اليزيديُّ في مُعارضتي، فقلتُ: هو بمنزلةِ قولِك: إنَّ ضَرْبَك زيداً ظُلْمٌ، فالرجلُ مفعولُ مُصَابَكم، وهو منصوب به، والدليلُ عليه أنَّ الكلامَ مُعَلَّقٌ إلى أن تقولَ: ظُلْمٌ، فيَتِمُّ، فاستحسَنَهُ الواثق.

وقال: هل لك مِن ولد؟ قلتُ: نعم يا أميرَ المؤمنين، بُنَيَّةٌ لا غير، قال: فما قالَتْ لك حين ودَّعْتَها عند مَسيرك؟ قلتُ: أنْشَدَتْ قولَ الأعشى:

تقولُ ٱبْنَتي حِينَ جَدَّ الرَّحِيلُ أَرَانا سَوَاءً ومَنْ قَدْ يَتِمْ[(١)]!
أَبَانَا فلا رِمْتَ مِن عِندِنا فإنَّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ[(٢)]
أُرَانا إذا أَضْمَرَتْكَ البِلَا دُ نُجْفَى وتُقطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ[(٣)]

فقال الواثق: كأني بك وقد قلتَ لها قولَ الأعشى أيضاً:

تقولُ بِنْتِي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحَلاً يا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ والوَجَعَا[(٤)]
عليكِ مِثلُ الذي صَلَّيتِ فاغْتَمِضِي نَوْماً فإنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا[(٥)]

---

(١) أي صار يتيماً.

(٢) أي نحن بخير إذا لم تبارحنا وتفارقنا. وقولُها: (أبانا فلا رِمْتَ من عندنا)، جملةٌ دُعائية، تدعو فيها أن يَبقى أبوها عندهم ولا يُفارِقَهم بالأسفار المحيطةِ بها الأخطار.

(٣) قولُها: (إذا أضْمَرَتْك البلاد)، أي إذا غَيَّبَتْك الأسفارُ في البلاد، وفي «لسان العرب» ٤:٤٩٢، في (ضمر): «أَضمَرَتْهُ الأرضُ: غَيَّبَتْهُ إما بموتٍ وإما بسَفَر».

(٤) قولُه: (وقد قرَّبتُ مُرْتَحَلاً)، أي جَمَلاً لأضعَ عليه الرَّحْل للسفر.

(٥) قولُه: (عليكِ مِثلُ الذي صَلَّيْتِ)، أي عليك مِثلُ ما دَعَوْتِ لي من الحفظ من الأمراض والأوجاع والأعراض. فلفظ (صَلَّيْتِ) بمعنى (دَعَوْتِ). وقولُه: (فاغتمضي نَوْماً)، أي =

فقلتُ: صَدَقَ أميرُ المؤمنين، قلتُ لها ذلك، وزدتُها قولَ جرير لابنتِهِ:

ثِقِي باللَّهِ ليس له شَرِيكٌ ومِن عندِ الخليفةِ بالنَّجاحِ

فقال: ثِقْ بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمَرَ لي بألفِ دينار، ورَدَّني مُكَرَّماً، قال المبرِّدُ: فلما عاد إلى البصرة، قال لي: كيف رأيتَ يا أبا العباس ــ هذه كُنْيَةُ المبرِّد ــ، رَدَدْنا لله مِئَةً فعوَّضَنا أَلْفاً»[١].

١٨١ ــ وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطي[٢]، في ترجمة (أبي الوليد عبد الملك بن قَطَن المَهْرِي القَيْرواني النَّحْوي) شيخ أهل اللغة والعربية هناك، الشاعر الأديب الخطيب اللبيب، المتوفى سنة ٢٥٦ رحمه الله تعالى، وكان على عادةِ العلماء من الإقْتَارِ وضِيقِ اليَد:

«وكان نَهِماً لا يَقصِد في مَطاعِمِهِ، فلا يُمسِك دِرهماً ولا ديناراً، على كثرةِ ما يُوصَلُ ويُجْبَى، واستَمرَّ على حالِهِ هذه حتى مات.

قال أبو عبد الله الدَّارُوْني: مَشَيْتُ يوماً مع أبي الوليد المَهْرِي، إلى أن مَرَرْنا بالجزَّارين، فقام إليه رجلٌ منهم، فقال: يا أبا الوليد، أَضْرَرْتَ بي، لأنَّ بضاعتي كلَّها عندك، ولا بدَّ من قَبْضِ مالي قِبَلَك، فاعتَذَر إليه وسأله الصَّبْرَ فأبَى، فمَرَّ بنا رجلٌ

= عُودي إلى نومك وراحةِ جَنْبِك بالاضطجاع. والمعتادُ في الارتحال عندهم أن يقوموا إليه في وَسَطِ الليل أو أواخِرِه قبلَ الفجر، فلذا رَغِبَ منها أن تعود إلى ضَجْعَتِها ونومِها.

ووقع هذا البيتُ في «معجم الأدباء» ٧: ١١٤ كما يلي (فاعْتَصِمي يَوْماً...)، وهو تحريف فاحش.

(١) قال الحافظُ الدَّلَجيُّ في «الفَلاكة والمفلوكون» ص ٧١، بعدَ إيرادِهِ طَرَفاً من خبرِ أبي عثمان المازني وذكرِ قبولِهِ ألفَ دينار: «ولا يقالُ: كان زاهداً بدليل قولِ المترجِين له: إنه كان شديدَ الوَرَع، لأنَّ الوَرَعَ لا يَستلزمُ الزهدَ، بدليل قبولِهِ الألفَ الموهوبَ له، لأنَّ الفاقةَ الدائمةَ يلزمُها حوائجُ مجتمِعَة ومصارفُ مؤخَّرة، لا تفي بها الألفُ ولا ما فَوْقَها، والدنانيرُ هي دنانيرُ بغداد،، وهي دَرَاهِمُ في الحقيقة».

(٢) ٢: ٢١٠.

فقال: كم لك على الشيخ؟ فقال: عَشَرةُ دنانير، فقال: هي عليَّ، مُرَّ حتى أدفَعَها إليك، فمَضَى معه، فظننتُ أنه من إخوانِ المَهْرِي، وظنَّ المهريُّ أنه من أَجْلِي فعَلَ به ذلك.

فلما صِرنا إلى دارِه، قال: الرجلُ الذي أَدَّى عني الدنانيرَ من هو؟ قلتُ: ما أعرِفُه، وما كنتُ أظنُّ إلا أنك عارفٌ به، قال: فسَلْ عنه، فسألتُ، فإذا هو رُوْمِيٌّ ـ أي نصرانيٌّ ـ من أهل العَطَّارين. وكان الناسُ من تعظيمِ العلمِ والأدبِ على خلافِ ما هُمْ عليه اليوم!».

١٨٢ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ»(١)، في ترجمة (حَجَّاج بن الشاعر): «هو الحافظُ الأوحَدُ المأمون، أبو محمد حَجَّاج بن يوسف بن حَجَّاج الثقفيُّ البغدادي. رَوَى عنه أبـو داود ومسلـم وبَقِيُّ بن مَخْلَد وأبو يَعْلَى وابنُ أبي حاتم وخَلْقٌ، ومات في سنة ٢٥٩ رحمه الله تعالى.

قال صالحُ جَزَرَة: سَمِعتُ حَجَّاجَ بنَ الشاعر يقول: جَمَعَتْ لي أُمِّي مِئةَ رغيف، فجعلتُها في جِراب وانحدَرْتُ إلى شَبَابَة بالمدائن، فأقمتُ مِئَةَ يوم ببابه، أجيءُ بالرغيفِ فأغمِسُهُ في دِجلَةَ وآكلُه، فلما نَفِدَتْ خَرَجْتُ!».

١٨٣ ـ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي(٢)، في ترجمة الحافظ الإمام العلامة (يعقوب بن شَيْبَة السَّدُوسِي البصري)، المولود سنة ١٨٢، والمتوفى سنة ٢٦٢ رحمه الله تعالى، صاحبِ «المسند الكبير المعلَّل» الذي ما صُنِّفَ مُسْنَدٌ مُعَلَّل أحسَنُ منه، ما يلي:

«قال أبو الحسن أحمد بن يوسف بن البُهْلُول: حدَّثني أبي، قال: حدَّثني يعقوبُ بنُ شيبة، قال: أَظَلَّ عِيدٌ من الأعياد رجلاً ـ يُشِيرُ إلى نَفْسِهِ ـ وعندَهُ مِئةُ دينار لا يَملِكُ سِوَاها، فكتَبَ إليه رجلٌ من إخوانِهِ يقولُ له: قد أظَلَّنا هذا العِيدُ، ولا شيءَ عندنا نُنْفِقُه على الصِّبيان، ويَستَدْعِي منه ما يُنفِقُه.

---

(١) ٢: ٥٥٠.

(٢) ١٤: ٢٨٢.

فجعَلَ المِئةَ دينار في صُرَّة وخَتَمها، وأنفَذَها إليه، فلم تَلبَثْ الصُرَّةُ عند الرجلِ إلا يسيراً حتى وَرَدَتْ عليه ــ أي على الرجل ــ رُقْعَةُ أخٍ من إخوانِه، وذكَرَ إضاقتَهُ في العِيد، ويَستَدْعِي منه مِثلَ ما استَدْعَاه، فوَجَّهَ بالصُّرَّةِ إليه بخَتْمِها، وبَقِيَ الأوَّلُ لا شيءَ عنده!

فكتَبَ إلى صديقٍ له وهو الثالثُ الذي صارت إليه الدنانير، يذكُرُ حالَهُ، ويَسْتَدْعِي منه ما يُنفِقُهُ في العِيد، فأنفَذَ إليه الصُّرَّةَ، بخَاتَمِها، فلما عادَتْ إليه صُرَّتُهُ التي أنفَذَها بحالها، رَكِبَ إليه ومَعَهُ الصُرَّةُ، وقال له: ما شأنُ هذه الصُّرَّةِ التي أَنفَذْتَها إليَّ؟ فقال له: إنه أظلَّنا العِيدُ، ولا شيءَ عندنا نُنفِقُه على الصبيان! فكتبتُ إلى فلانٍ أخينا، أستَدْعِي منه ما نُنْفِقُه، فأنفَذَ إليَّ هذه الصُّرَّة، فلما وردَتْ رُقعتُك عليَّ أنفذتُها إليك.

فقال: قمْ بنا إليه، فرَكِبَا جميعاً إلى الثاني ومعهما الصرة، فتفاوَضُوا الحديثَ، ثم فَتَحوها فاقتسموها أثلاثاً.

قال أبو الحسن: قال لي أبي: والثلاثةُ: يعقوبُ بن شيبة، وأبو حَسَّان الزِّياديُّ القاضي، وأُنسِيتُ أنا الثالث!».

١٨٤ ــ وقال القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان»[(١)]، في ترجمة (داود بن عليّ الأصبهاني البغدادي الظاهريّ) إمامِ الظاهريةِ، المولود سنة ٢٠١، والمتوفى سنة ٢٧٠ رحمه الله تعالى: «انتَهَتْ إليه رِئاسَةُ العِلم ببغداد.

قال أبو عبد الله المَحامِلي[(٢)]: صَلَّيتُ صلاةَ عيدِ الفطرِ في جامع المدينة، وقلتُ: أدخُلُ على داود بن عليّ فأُهنِّيه، فجئتُهُ وإذا بين يديه طبَقٌ فيه أوراقُ هِنْدَباء[(٣)]، وعُصارة فيها نُخَالةٌ وهو يأكل، فهنأتُه وعَجِبتُ من حاله! ورأيتُ أنَّ جميعَ ما في الدنيا ليس بشيء!

---

(١) ١: ١٧٥ ــ ١٧٦.

(٢) هو القاضي الفقيهُ الإمامُ العلامة الحافظُ: أبو عبد الله الحُسَين بن إسماعيل المَحَامِلي البغدادي، شيخُ بغداد ومُحدِّثُها، ولد سنة ٢٣٥، وتوفي سنة ٣٣٠ عن ٩٥ سنة رحمه الله تعالى، واستَمَرَّ في قضاءِ الكوفة ٦٠ سنة، مع السيرة الحميدة رحمةُ الله عليه.

(٣) نوعٌ من البُقولِ رخيصٌ مَبْذُول.

فخرجتُ من عنده ودخلتُ على رجل من مُحِبِّي الصَّنِيعَة ــ أي فِعلِ الخيرِ والكرمِ ــ يقال له: الجُرْجَاني، فخَرَج إليَّ حاسِرَ الرأسِ حافِيَ القدمين، وقال لي: ما عَنَّى القاضي؟! قلتُ: مُهِمٌّ! قال: ما هو؟ قلتُ: في جِوارِكَ داود بنُ علي ومكانُهُ من العلم ما تَعْلَمُهُ، وأنت كثيرُ الصِّلَةِ والرغبةِ في الخير تَغفُلُ عنه؟! وحدَّثتُه بما رأيتُ.

فقال الجُرْجانيُّ: داودُ شَرِسُ الخُلُق! وَجَّهتُ إليه البارحةَ بألفِ درهم ليستعين بها فرَدَّها عليَّ، وقال للغلامُ: قُلْ له: بأيِّ عَيْنٍ رأيتَني؟ وما الذي بَلَغك من حاجتي وخَلَّتي حتى بَعثتَ لي بهذا؟!

قال المَحامليُّ: فعَجِبتُ وقلتُ للجُرجاني: هاتِ الدراهم، فإني أحمِلُها إليه، فدفعها إليّ، وقال للغلام: ائتني بكِيسٍ آخر، فوَزن ألفاً أخرى وقال: تلك لنا وهذه لعِنايةِ القاضي ، فأخذتُ له الألفينِ وجئتُ إليه، فقَرعتُ البابَ ودخلتُ وجلستُ ساعة، ثم أخرجتُ الدراهم وجعلتُها بين يديه، فقال: هذا جَزاءُ من ائتَمنك على سِرِّه؟ أنا بأمانةِ العلمِ أدخلتُك إليّ، ارجِعْ فلا حاجةَ لي فيما معك.

قال المَحاملي: فرَجَعتُ وقد صَغُرَتْ الدنيا في عيني، وأخبرتُ الجُرْجاني فقال: إني أخرجتُ هذه الدراهمَ لله تعالى فلا تَرجِعُ في مالي، فليتولَّ القاضي إخراجَها في أهل البِرِّ والعفاف». انتهى. وقد ذكَّرني موقفُ الإمام داود الظاهري رحمه الله تعالى بما قيل:

إذا سَمَتْ عينُ مَنْ تَهْواهُ عن ذَهبٍ فالتِّبْرُ والتُّرْبُ في الدُّنيا لَدَيْكَ سَوَا[١]

١٨٥ ــ ومن غريب ما وقع من هذا الإمام داودَ بنِ عليّ الظاهريِّ، الفقير المُعْدمِ الصابرِ المطمئنِّ رحمه الله تعالى ــ وأذكُرُهُ هنا استطراداً ــ ، أنه ازدرى عالِماً كبيراً من العلماء لفقره، فبَخَعَهُ ذلك العالمُ الفقيرُ بالعلم، فكان له من ذلك دَرْسٌ عجيب!

قال القاضي ابنُ خَلِّكان: «قيل: إنه كان يَحضُرُ مجلسَ داود بـن علي الظاهري

---

(١) التِّبرُ: الذهبُ. والتُّرْب: الترابُ. وسَوَا: سَوَاءٌ.

كلَّ يوم أربَعُ مِئةِ صاحبِ طَيْلَسان أخْضَر ــ أي أربعُ مِئةِ عالمٍ كبير ــ[1]، قال داود:

---

(١) الطَّيْلَسان: كِساءٌ أخضَرُ، أو أسوَدُ، أو أبيضُ، لُحمتُهُ وسَدَاهُ من صوف، يَلبَسُهُ كبارُ العلماء والقضاة والمشايخ، وقد كان شِعارَ كبارِ العلماءِ في عصرِ الإمام داود الظاهريِّ وبعدَه.

وجاء في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب الحنبلي ١ :٣١٢، في ترجمة الحافظ مُفِيد العراق (أحمد بن صالح الجِيْلي)، المتوفى سنة ٥٦٥، ما يلي: «وسُئل عنه الشيخُ موفَّقُ الدين المقدسي، فقال: كان حافظاً ثقةً وشاهداً معدَّلاً، بلَغني أنه دُعي إلى الشهادة للخليفة بما لا يجوز، فامتَنَع من الشهادة، وطَرَح الطَّيْلَسانَ، وقال: ما لكم عندي إلا هذا». انتهى.

فأفاد هذا الخبرُ أن (الطَّيْلَسان) لباسٌ كان يخلعُهُ الخليفةُ على العالم، وطبعاً ما يكونُ هذا إلا للعالِمِ الكبير، وقد يكون هذا الخَلْعَ أصبَحَ من عادة الخليفة في القرن الخامس والسادس؟ والله تعالى أعلم.

جاء في «معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة» لأدِّي شِيْر ص ١١٣: «الطيلسان: كِساءٌ مُدَوَّر، أخضَرُ، لا أسفَلَ له، لُحمتُهُ وسَداه من صوف، يَلبَسُهُ الخواصُّ من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم. وهو معرَّب عن (تَالِسَان)، وفُسِّرَ بكِسَاءٍ يُلقَى على الكتِف، وهو مركَّب من (طَرَه)، وهو طَرَفُ العِمامة، ومن (سَان) وهي أداةُ التشبيه». انتهى.

وقال العلامة المُطَرِّزي في «المُغْرِب» ٢ :٢٣، في (طلس): «الطَّيْلُسان بتثليثِ اللام، تعريبُ تالشان، وجمعُهُ طَيَالِسَة، وهو من لباس العَجَم، مُدَوَّرٌ أسْوَدُ، لُحمتُهُ وسَدَاهُ صُوْف، والطَّيْلَسُ لغةٌ فيه». انتهى.

قال عبد الفتاح: وقد يكون الطيلسانُ أبيض، فقد جاء في ترجمة الإمام ابن دَقِيق العِيد: أنَّ جَدَّ أبيهِ كان عليه طيلسانٌ شديدُ البياضِ في يومِ عِيد، فقيل: كأنه دَقِيقُ العِيد، فلُقِّبَ به. فيُستفاد مما تقدَّم أن الطيلسان يكون أخضر ــ وهو الغالبُ الأكثر ــ وأسوَدَ وأبيضَ.

قال الأستاذ عبد الله الجُبُوري في آخر «طبقات الشافعية» للأسنوي، في (معجم المصطلحات الحضارية) ٢ :٦٠٨: «الطيلسانُ: ضَرْبٌ من الأكسية، معرَّب (تَالَسان)، وأطلقه الأستاذ المحقق أحمد تَيْمُور على ما يُسمَّى ــ في مصر والشام ــ الشَّال.

وكان الطيلسانُ من شارات الفقهاءِ الكبار، فهُمْ إذا أرادوا تعظيمَ فقيهٍ وتكريمَهُ طَيْلَسُوهُ». انتهى.

قال عبد الفتاح: وفي ترجمة الشيخ ابن سِينا الطبيب المشهور، المتوفى سنة ٤٢٨، في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ١٧ :٥٣٢، قولُ ابن سِينا عن نفسِه: «ثم تقلَّدتُ شيئاً من أعمال السلطان، وكنتُ بزيِّ الفقهاءِ إذْ ذاك، بطَيْلَسانٍ مُحَنَّك». =

حَضَر مجلسي يوماً أبو يعقوب الشُّرَيطي، وكان من أهلِ البصرة[١]، وعليه خِرقتان! فتصدَّرَ لنفسِهِ من غيرِ أن يَرفعَهُ أحد، وجلَسَ إلى جانبي، وقال لي: سَلْ يا فتى عَمَّا بدا لك، فكأني غَضِبتُ منه! فقلت له مستهزئاً: أسأَلُك عن الحِجامة، فبرَكَ أبو يعقوب، ثم رَوَى طريقَ حديث «أفطَرَ الحاجمُ والمحجوم»، ومن أرسلَه، ومن أسنَدَه، ومن وقَفَه، ومن ذهب إليه من الفقهاء.

ورَوَى اختلافَ طريقِ حديثِ احتجام النبي صلى الله عليه وسلم وإعطاءِ الحَجَّام أَجرَه، ولو كان حراماً لم يُعطِه، ثم رَوَى طُرُقَ حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم

= وإذا شئتَ التوسعَ في معرفةِ (الطيلسان) وأخبارِهِ وصفتِهِ وطريقةِ استعمالِهِ، فانظر كتاب «نُشْوَار المحاضرة» للمحَسِّن التنوخي، في القصة ٧، ص ٦٧، و«الفَرَج بعد الشدة» له أيضاً ٢: ٥٤ و ٤: ٢٧٨، وكذلك تجد الكلامَ الوافيَ على (الطيلسان) وصُوَرِهِ وأشكالِهِ وألوانِهِ، في كتاب «الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي» للدكتور صلاح حسن العُبَيْدي، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية سنة ١٩٨٠، في ص ٢٦٩ ــ ٢٧٧، طبع دار الحرية للطباعة في بغداد.

(١) لم أقف على ترجمة (أبي يعقوب الشريطي) هذا فيما تيسر لي من المراجع، وشَكَلْتُه بالتصغير ترجيحاً مني.

وجاء في نسخة من مخطوطات «وفَيَات الأعيان» بلفظ (الشُّرُوطي) كما في «الوفيات» من طبعة دار الثقافة ببيروت ٢: ٢٥٦، فالله أعلم.

وأما قولُ القاضي محمد سليمان رحمه الله تعالى في كتابه «من أخلاق العلماء» ص ٣٢٢: «والظاهرُ أن أبا يعقوب هذا هو: الشهيدي، قد عاصرَ داود، وهو إسحاق بن إبراهيم بن حبيب الشهيدي ــ كذا ــ، كان من البصرة، وتوفي سنة ٢٥٧، ووفاةُ داود سنة ٢٧٠». انتهى.

فهو غيرُ ظاهر ولا صواب عندي، فقد ترجم الخطيب في «تاريخ بغداد» ٦: ٣٧٠ لإسحاق هذا، باسم (إسحاق بن إبراهيم بن الشهيد) هكذا بدون نسبة، ولم يذكر أن كنيته (أبو يعقوب)، وليس في ترجمته ما يشعر بأنه صاحب الواقعة مع (داود).

ولا يلزم من كونِ كنيته (أبا يعقوب) أن يكون اسمُهُ (إسحاقَ)، فقد جاء في «تاريخ بغداد» ٦: ٣١٦ ــ ٤٠٤ تراجمُ أعدادٍ كثيرةٍ من العلماء المسمَّيْن: (إسحاق)، وكُناهم غيرُ (أبي يعقوب)، فقد تكون كنيةُ (الشريطي): (أبا يعقوب) وليس اسمُهُ (إسحاق)، كما أنّ كثيراً ممّن سُمِّي (إسحاق) لم تكن كنيتُهُ (أبا يعقوب)، فاعلَمْ ذلك، وابحَثْ عنه لعلك تقف على ترجمته.

احتَجَم بِقَرْن، وذكَرَ أحاديثَ صحيحة في الحِجامة، ثم ذكَرَ الأحاديثَ المتوسِّطةَ مِثلَ «ما مررتُ بملأ من الملائكة. . .» ومِثلَ «شِفاءُ أُمَّتي في ثلاث. . .» وما أشبَهَ ذلك.

وذكَرَ الأحاديثَ الضعيفة ــ أي الموضوعة ــ مثلَ قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تحتجموا يومَ كذا، ولا ساعةَ كذا». ثم ذكَرَ ما ذهب إليه أهلُ الطِّبِّ من الحِجامة في كل زمان، وما ذكروه فيها، ثم ختَمَ كلامَه بأن قال: وأوَّلُ ما خَرجتْ الحجامة من أصبهان! ــ بلدِ داود بنِ علي الظاهري ــ، فقلت له: والله لا حَقَرتُ بعدك أحداً أبداً»[١].

١٨٦ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» و«سير أعلام النبلاء»[٢] في ترجمة الإمام الحافظ شيخ الإسلام (بَقِيّ بن مَخْلَد القرطبي)، المتقدم ذكره[٣]، وقد طوَّفَ الشرقَ والغربَ على قدميه، قال الذهبي: «قال أبو الوليد الفَرَضيُّ: كان بَقِيٌّ يقول: إني لأعرِفُ رجلاً كانت تمضِي عليه الأيامُ في وقتِ طلبِه للعلم، ليس له عَيْشٌ إلا وَرَقُ الكُرْنُب الذي يُرمَى»[٤].

١٨٧ ــ وقال العلامة ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»[٥]، في ترجمة بَقِي بن مَخْلَد الأندلسي أيضاً المتقدم ذكره[٦]: «إنه قال يوماً لِطَلَبتِهِ: أنتم تطلبون العلم؟! وهكذا يُطلَبُ العلمُ؟! إنما أحَدُكم إذا لم يكن عليه شُغلٌ يقول: أَمْضِي أَسْمَعُ العلم! إني لأعرِفُ رجلاً ــ يعني نفسَهُ ــ تَمْضِي عليه الأيامُ في وقتِ طلبِهِ للعلم، لا يكون له

---

(١) تكلم الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، على (الحِجامة) وما ورد فيها مما صح ومما لم يصح، وعلى ما يتعلق بها زماناً وسِنّاً ومكاناً. . .، وأوسَعَ الكلامَ فيها في كتابه «زاد المعاد» ٣: ١٦٧ ــ ١٧٦، فليعد إليه من شاء.

(٢) في «تذكرة الحفاظ» ٢: ٦٣٠، و«سِيَر أعلام النبلاء» ١٣: ٢٩٢.

(٣) في الخبر ٢٣.

(٤) الكُرْنُب: هو السِّلق أو نوع يشبهه يسمى الملفوف، ولكنَّ بَقِيّاً كان يأكل الذي يُرمَى منه.

(٥) ٧: ٨٣.

(٦) في الخبر ٢٣.

عَيْشٌ إلا من وَرَقِ الكُرْنُبِ الذي يُلقِيه الناس! وإني لأَعرِفُ رجلاً باع سَرَاوِيلَهُ غيرَ مرة في شِراءِ كاغد[١]، حتى يَسُوقَ الله إليه مِن حَيْثُ يُخْلِفُهَا».

١٨٨ ـ وقال الحافظ ابنُ أبي حاتم الرازي في «تقدمة الجرح والتعديل»[٢]، في ترجمة أبيه (الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي)، المتقدم ذكره[٣]: سمعتُ أبي يقول: بقيتُ بالبصرة في سنةِ أربعَ عَشْرَةَ ومِئتين: ثمانيةَ أشهر، وكان في نفسي أن أُقيمَ سنةً، فانقطعَتْ نفقتي! فجعلتُ أبيعُ ثيابَ بَدَني شيئاً بعدَ شيء، حتى بَقِيتُ بلا نفقة، ومَضَيْتُ أطوفُ مع صديقٍ لي إلى المَشْيَخَة، وأسمعُ منهم إلى المساء، فانصرَفَ رفيقي ورَجعتُ إلى بيتٍ خالٍ، فجعلتُ أشربُ الماءَ من الجوع!».

١٨٩ ـ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[٤]، و«تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر[٥]، في ترجمة الإمام (محمد بن نصر المروزي) المولود سنة ٢٠٢، والمتوفى سنة ٢٩٤ رحمه الله تعالى: «قال محمد بن نصر: أقمتُ بمصرَ كذا كذا سنةً، فكان قُوْتي، وثيابي، وكاغِذِي ـ أي وَرَقي ـ وحِبري وجميعُ ما أنفقتُه في السَّنَةِ عشرين درهماً».

١٩٠ ـ وساق الخطيبُ في «تاريخ بغداد»[٦]، في ترجمة (محمد بن جرير الطبري)، والحافظُ الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»[٧]، في ترجمة (محمد بن هارون

---

(١) الكاغَدُ: بفتح الغين وكسرها آخره دال مهملة ويقال بالذال المعجمة (كاغذ) وسيأتي بالذال المعجمة في الخبر ١٨٩ و ٢٥٩، وهو لفظٌ فارسي، معناه الورَقُ للكتابة. والسَّرَاوِيلُ هنا مُفْرَدٌ بمعنى السِّرْوَال بالسين المهملة، والشِّرْوَال بالشين المعجمة، وقيل: هذه عامية، والسِّرْوَالَةِ بالتاء المربوطة، وتأتي السَّراويل بمعنى الجمع، وهي تذكر وتؤنث، وهي ما يُغَطِّي السُّرةَ والركبتين وما بينهما من الإنسان، واللفظُ فارسي معرَّب. وقوله: (باعَ سراويلَهُ)، أي سِرْوَالَهُ لأنَّ لديه سِرْوَالاً آخر، أو إزاراً يُغني عنه، لا أنه بقي مكشوفَ العورة، فهذا غيرُ معقول.

(٢) ص ٣٦٣.

(٣) في الخبر ٢٥.

(٤) ٣: ٣١٧.

(٥) ٩: ٤٩٠.

(٦) ٢: ١٦٤.

(٧) ٢: ٧٥٣.

الرُّوْيَاني)، وتاجُ الدين السُّبْكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[1]، في ترجمة (محمد بن نصر المروزي)، وغيرُهم[2]، حكايةَ إملاقِ المُحَمَّدِين بمصر، «قال أبو العباس البكري: جَمعتْ الرِّحلةُ بين محمدِ بن جَرِير الطبري، ومحمدِ بن إسحاق بن خُزَيمة، ومحمدِ بن نَصْر المَرْوَزي، ومحمدِ بن هارون الرُّويَاني بمصر ــ في حدود سنة ٢٥٦[3] ــ، فأَرْمَلُوا وافتقروا ولم يَبق عندهم ما يَقُوتُهم، وأضرَّ بهم الجُوع!

فاجتمعوا ليلةً في منزلٍ كانوا يأوون إليه ــ يكتبون فيه الحديث الشريف ــ. فاتّفَق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القُرْعة، فمن خرَجَتْ عليه القُرعة سأل الناسَ لأصحابه الطعامَ، فخرجَت القُرعة على محمد بن إسحاق بن خُزَيمة.

فقال لأصحابه: أَمهِلوني حتى أتوضَّأَ وأصلِّيَ صلاةَ الخِيَرَة أي الاستخارة، فاندفع في الصلاة، فإذا هُمْ بالشّموع، وخَصِيٍّ من قِبَل والي مصر ــ أحمد بن طُوْلُون ــ يَدُقُّ عليهم البابَ، ففتحوا الباب، فنَزَل عن دابَّتِهِ فقال: أيُّكم محمدُ بنُ نصر؟ فقيل: هو هذا وأشاروا إليه، فأخرَجَ صُرَّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه.

ثم قال: أيُّكم محمدُ بنُ جرير؟ فقالوا: هو هذا، فأخرج صُرَّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيُّكم محمدُ بنُ إسحاق بن خُزَيمة؟ فقالوا: هو هذا يصلي، فلما فَرَغ من صلاته دفَعَ إليه الصُرَّة وفيها خمسون ديناراً، ثم قال: أيُّكم محمدُ بنُ هارون؟ فقيل: هو هذا، فدَفَع إليه مِثلَها.

---

(١) ٢: ٢٥٠.

(٢) كياقوت الحَمَوي في «معجم الأدباء» ١٨: ٤٦، في ترجمة ابن جرير، والحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ١١: ١٠٣، في ترجمة محمد بن نصر المروزي.

(٣) استَخرجتُ هذا التحديد، اعتماداً على أنَّ ابنَ جرير دخل مصر في سنة ٢٥٣، و٢٥٦، كما في ترجمته في «معجم الأدباء» ١٨: ٥٢ و٥٥. وأُرجِّحُ أنَّ هذه الواقعةَ للمحمَّدين، وقعَتْ في سنة ٢٥٦ أو بعدَها بقليل، وذلك لأنَّ محمد بن نصر المَرْوَزي، عاد من رحلته الثانية في سنة ٢٦٠، واستَوطَنَ نيسابورَ ثم سمرقندَ ومات فيها ودُفِن بها، كما في ترجمته في «تذكرةِ الحفاظ» ٢: ٦٥١ ــ ٦٥٢، و«طبقاتِ الشافعية الكبرى». فيكون الاجتماعُ بينهم في هذه الرحلة التي عادَ منها سنة ٢٦٠ أقربَ، ولذلك قلتُ: (في حدود سنة ٢٥٦) والله تعالى أعلم.

ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس ـ أي نائماً وقتَ الظهيرة ـ ، فرأى في المنام خَيَالاً أو طَيْفاً يقولُ له: إنَّ المَحامِدَ طَوَوا كَشْحَهم جِياعاً، فأنفَذ إليكم هذه الصُرَر، وهو يُقْسِمُ عليكم إذا نَفِدَت أن تَبعثُوا إليهِ ليَزيدَكم».

١٩١ ـ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[١]، و«سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[٢]، في ترجمة الإمام أبي جعفر الترمذي (محمد بن أحمد بن نَصْر) الشافعي الزاهد، المولود سنة ٢٠١، والمتوفى سنة ٢٩٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«كتَبَ الحديث تسعاً وعشرين سنة، وتفقَّه بأصحاب الشافعي، سَكَن بغدادَ وحدَّثَ بها، وحدَّث عنه أحمدُ بن كامل، وابنُ قانع، وأبو بكر بنُ خلَّاد الرَّامَهُرْمُزِي ـ صاحبُ كتاب «المحدِّثُ الفَاصِلُ بين الراوي والواعي» ـ، وأبو القاسم الطبراني، وعِدَّةٌ.

قال الدَّارَقُطْنِيُّ: ثقةٌ مأمونٌ ناسِك، وقال أحمدُ بن كامل: لم يكن للشافعية بالعراقِ أَرأَسُ منه، ولا أورَعُ، ولا أكثرُ تَقَلُّلاً في المطعم، على حالٍ عظيمةٍ من الفقرِ والصَّبْرِ على الفقرِ.

قال إبراهيم بن السَّرِيِّ الزَّجَّاجُ: إنه كان يُجرَى على أبي جعفر في الشهر أربَعةُ دراهم، يَتقوَّتُ بها، وكان لا يَسألُ أحداً شيئاً. وقال محمد بن موسى بن حَمَّاد البَرْبَرِي: أخبَرَني أنه تَقوَّتَ في سبعةٍ وعشرين يوماً بخَمْسِ حَبَّات، قلتُ له: وكيف عَمِلتَ؟ فقال: لم يكن عندي غيرُها، فاشتريتُ بها لِفْتاً، وكنتُ آكُلُ كلَّ يومٍ واحدة، وتوفي عن ٩٤ سنة.

١٩٢ ـ وقال العلامة أبو زيد الدباغ في «معالم الإيمان في معرفة أهل القَيْرَوان»[٣]، في ترجمة (أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي) نِسبةً إلى قَصْرِ الأغْلَب، على مِيلينِ من جنوبِ القيروان، المتوفى سنة ٣٢١ رحمه الله تعالى: «كان

---

(١) ١: ٣٦٥.
(٢) ١٣: ٥٤٥.
(٣) ٣: ١١.

فقيهاً صالحاً ورعاً، سريعَ الدمعة، له عنايةٌ بالعلم والرواياتِ وتصحيحِ الكتب وجَمْعِها. وكان يقول: لي أربعون سنةً ما جَفَّ لي قَلَمٌ ــ يعني من كثرةِ ما يَنسَخُ بالليل والنهار ــ . وكان ربما باع بعضَ ثيابِهِ واشتَرَى بثمنِهِ كتاباً أو رُقُوقاً لنسخِ كتاب!

قال أبو بكر المالكي: ووَصَل إلى مدينةِ سُوْسَة برَسْم زيارةِ يحيى بن عُمَر، فوَجَدَهُ أَلَّفَ كتاباً، فلم يجد ما يشتري به رِقّاً يكتُبُه فيه، فباع قميصَه الذي كان عليه! واشتَرى بثمنِهِ رُقُوقاً، وكَتَبَ الكتابَ وقابَلَهُ، وأتى به معه إلى القيروان».

١٩٣ ــ وجاء في «المنتظم» لابن الجوزي[١]، و«تذكرة الحفاظ»[٢]، في ترجمةِ ابن زياد الشافعي: «الحافظُ المُجوِّدُ العلامةُ أبو بكر عبدُ الله بن محمد بن زياد بن واصل النيسابوري، الفقيهُ الشافعي، صاحبُ التصانيف، من أهل نيسابور.

وُلِدَ سنة ٢٣٨، ومات سنة ٣٢٤ رحمه الله تعالى، ورَحَلَ في طلب العلم إلى العراقِ والشامِ ومصر، وسَكَن بغداد، وحدَّثَ بها، واجتَمَع له العلمُ بالفقهِ والحديث، وكان ثقة صالحاً.

قال الحاكم: كان إمامَ عصرِهِ من الشافعيةِ بالعراق، ومن أحفَظِ الناسِ للفقهياتِ واختلافِ الصحابة، وقال الدارقطني: لم نَرَ في مشايخنا أحفظَ منه للأسانيدِ والمتون، وكان يَعرِفُ زياداتِ الألفاظِ في المتون، ولما قَعَد للتحديث، قالوا: حَدِّثْ، قال: بل سَلُوا أنتم، فسُئِلَ عن أحاديثَ فأجاب فيها وأمْلَاها.

قال أبو عبد الله بنُ بَطَّة: كنا نَحضُر في مجلسِ أبي بكر النيسابوري، لنَسمعَ منه الزياداتِ، وكان يُحزَرُ أنَّ في المجلس ثلاثين أَلْفَ مَحْبَرَة، ومَضَى على هذا مدةٌ يسيرة، ثم حَضَرْنا مجلسَ أبي بكر النجَّاد، وكان يُحزَرُ أنَّ في مجلسِهِ عشرةَ آلاف مَحْبَرة، فتعجَّبَ الناسُ من ذلك وقالوا: في هذه المدةِ ذَهَب ثلثا الناس؟![٣]

---

(١) ٦: ٢٨٦.

(٢) ٣: ٨١٩.

(٣) وقد توفي أبو بكر النيسابوري صاحبُ هذه الترجمة سنة ٣٢٤، وتوفي أبو بكر النَّجَّاد أحمد بن سَلْمان سنة ٣٤٨، فما كان بين وفاتيهما إلا ٢٤ سنة، رحمهما الله تعالى.

قال يوسف بن عُمَر القَوَّاس: سمعتُ أبا بكر النيسابوري يقول[١]: تَعرِفُ من أقام أربعين سنة لم يَنَم الليلَ إلا جاثياً، ويَتقوَّتُ كلَّ يوم بخمسِ حَبَّات، ويُصلِّي صلاةَ الغداةِ على طهارةِ العِشاء الآخِرة؟ ثم قال: أنا هو، وهذا كلُّه قبل أن أَعرِف أمَّ عبد الرحمن! أَيْشٍ أقولُ لمن زوَّجني؟! ثم قال: ما أراد إلا الخير. مات سنة ٣٢٤ رحمه الله تعالى».

١٩٤ ــ وجاء في «الوافي بالوَفَيات» للمؤرخ الأديب صلاح الدين الصَّفَدي[٢]، في ترجمة فيلسوفِ الإسلام أبي نَصْر الفَارابي (محمد بن محمَّد بن طَرْخَان) الحكيم العلامةِ النادرِ المثال، المولود في فاراب قُرْبَ تُخُومِ الصِّينِ سنة ٢٦٠، والمتوفى بدمشق سنة ٣٣٩ رحمه الله تعالى:

«كان أزهَدَ الناس في الدنيا، وأَجْرَى عليه سيفُ الدولةِ في كلِّ يوم أربعةَ دراهم[٣]، وتوجَّهَ من دمشق إلى مصر ثم عاد إليها، وقيل: إنه لما عاد من حَرَّان أقام ببغداد، وأكبَّ على مصنَّفاتِ أَرسْطُو، حتى مَهَر وأتقَنَ الحِكمة.

---

(١) وقع في «تذكرة الحفاظ» محرَّفاً إلى «سمعتُ أبا زكريا...». فصحِّحْه.

(٢) ١: ١٠٦ ــ ١٠٨.

(٣) قال القاضي ابن خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان» ٥: ١٥٥، في ترجمة الفارابي هذا: «ورأيتُ في بعض المجاميع أن أبا نصر الفارابي لما ورد على سيف الدولة، وكان مجلسُهُ مجمعَ الفضلاء في جميع المعارف، فأُدخِلَ عليه وهو بزِيِّ الأتراك، وكان ذلك زِيَّهُ دائماً.

فوقف، فقال له سيفُ الدولة: آقعُدْ. فقال: حيثُ أنا أم حيثُ أنتَ، فقال سيفُ الدولة: حيثُ أنت، فتخطَّى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مَسْنَدِ سيفِ الدولة وزاحَمَهُ فيه حتى أخرجَهُ عنه، وكان على رأس سيف الدولة مماليك، وله معهم لسانٌ خاصٌّ يُسارُّهم به قَلَّ أن يَعرِفَهُ أحد.

فقال لهم بذلك اللسان: إنَّ هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإني مُسَائِلُهُ عن أشياءَ إن لم يُوفِّ بها فآخْرُقُوا به، فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيها الأمير، اصبِرْ فإنَّ الأمورَ بعواقبها، فعَجِبَ سيفُ الدولة منه وقال له: أتُحسِنُ هذا اللسانَ؟ فقال: نعم أُحسِنُ أكثَرَ من سبعين لساناً، فعَظُمَ عنده.

ثم أخذ يتكلَّمُ مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن، فلم يزل كلامُهُ يعلو وكلامُهم يَسْفُل، حتى صَمَتَ الكلُّ وبقي يتكلَّمُ وحدَهُ، ثم أخذوا يكتبون ما يقولُه، فصَرَفَهم سيفُ الدولة وخَلَا به.

=

يقال: إنَّ نسخةً وُجدَتْ لكتابِ النَّفْس لأَرسْطُو، وعليها بخَطِّ أبي نصر الفارابي: قَرَأتُ هذا الكتابَ مِئتَيْ مرَّةً، وكان يقول: قرأتُ «السَّمَاعَ الطبيعي» لأرسطو أربعين مرَّة، وأنا مُحتاجٌ إلى مُعاوَدَتِه.

وكان يُحسِنُ اليونانية وكثيراً من اللغاتِ غيرها، وقال عن نفسه: أُحسِنُ أكثَرَ من سَبْعِين لِسَاناً. وسُئِلَ أأنت أعلَمُ بهذا اللسان أم أَرسطو؟ فقال: لو أدركتُه لكنتُ أكبرَ تلامذتِه.

وقال ابنُ سينا: سافرتُ في طلب الشيخ أبي نصر الفارابي، وما وَجَدْتُه! وليتني وَجَدْتُه فكانت حَصَلَتْ إفادة. وقال ابنُ سينا أيضاً: قرأتُ كتابَ «ما بَعْدَ الطبيعة» لأرسطو، فما كنتُ أفهَمُ ما فيه، والتَبَس عليَّ غَرَضُ واضِعِهِ، حتى قرأتُه أربعين مَرَّةً،

= فقال له: هل لك في أن تأكل؟ فقال: لا، فقال: فهل تشرب؟ فقال: لا، فقال: فهل تَسمع؟ فقال: نعم، فأمَرَ سيفُ الدولة بإحضار القِيَانِ، فحضر كلُّ ماهرٍ في هذه الصناعةِ بأنواعِ الملاهي، فلم يُحرِّك أحدٌ منهم آلتَهُ إلا وعابَهُ أبو نصر، وقال له: أخطأت.

فقال له سيفُ الدولة: وهل تُحسِنُ في هذه الصناعة شيئاً؟ فقال: نعم، ثم أَخرج من وَسَطِهِ خَرِيطَةً ــ كيساً صغيراً لفمِهِ رباط ــ ففتحها وأَخرَجَ منها عِيداناً وركَّبها، ثم لَعِبَ بها، فضَحِك منها كلُّ من كان في المجلس، ثم فكَّها وركَّبها تركيباً آخر وضَرَب بها، فبَكَى كلُّ من في المجلس، ثم فكَّها وغيَّر تركيبَها وحرَّكها، فنام كلُّ من في المجلس حتى البَوَّاب، فتركهم نِياماً وخرج. ويُحكَى أن الآلةَ المسماةَ: القانونَ من وَضْعِه، وهو أوَّلُ من ركَّبها هذا التركيب».

قال الصلاح الصفدي في «الوافي بالوفَيَات» ١: ١٠٧، عقِبَ هذا الخبر: «قلتُ: وهذه الواقعةُ مُمكِنةٌ من مثل أبي نصر، لأنه إذا غنَّى السامعين مثلاً بما لابنِ حَجَّاج[1] من ذلك المُجونِ الحُلْوِ في النَّغَم [2]، فإن السامع يضحك، وإذا غنَّى بأشعارِ مُتَيَّمِي العرب والرَّقيق من فِراقِيَّاتِهم وحُزْنِيَّاتِهم في نَغَم النَّوَى وما أشبَه ذلك، فإنَّ السامعَ يبكي، وكذا حالُهُ إذا أراد أن يُشجِّع أو أن يُسمِّحَ ــ يجعلُهم كرماءَ سُمَحاءَ ــ أو غيرَ ذلك».

(١) انظر ترجمتَهُ ومصادرَها في «الأعلام» للزركلي عند اسمه (حُسَين بن أحمد النِّيْلِي البغدادي، المتوفى سنة ٣٩١).
(٢) بياض في الأصل هنا.

وصار محفوظاً، وأَيِستُ من فهمه! وقلتُ: لا سبيل إلى فهمه[1].

---

(١) هذا ما يقوله الشيخ ابنُ سِينا أحدُ أذكياء العالم، في قراءة للكتاب أربعين مرة، وتقدَّم في أول هذا الخبر عن الفارابي واحِدِ أفذاذِ بني آدم: «يقال: إنه قَرَأ (كتابَ النَّفْس) لأرسطو مِئتَيْ مرَّة». وقال هو: «قرأتُ كتابَ (السَّماع الطبيعيِّ) لأرسطو أربعين مرَّة». انتهى. ومن هذا يتكوَّنُ النبوغُ والعُمْقُ في العلم.

فلْيَعلَمْ الطَّلَبَةُ اليومَ كيف كان صَبْرُ العلماء على تحصيلِ العلم، وكم تَعِبوا في تكوينِ أنفسِهم، حتى غَدَوْا بحقّ أئمةً في علومِهم عند الصَّدِيق والعَدُوّ. وحالُ طلابنا اليوم في تخلُّفِهم وكَسَلِهم، وتطلُّعِهم وأَمَلِهم، يَصدُقُ عليه قولُ القائل:

تَسْأَلُني أمُّ الوَلِيدِ جَمَلا يمشِي رُوَيْداً ويَجِيءُ أوَّلا!!

وأغلَبُ طلبةِ الجامعاتِ اليوم يَدْرُسُون التفسيرَ والحديثَ والفقهَ والأصولَ والنحوَ...، بالساعات المعدودة، وكلُّ علمٍ من هذه العلوم يَحتاجُ الطالبُ النابهُ لإتقانِه إلى السنواتِ الطوال وقراءةِ كتبِه مرَّاتٍ تِلْوَ مرات، فكيف يمكن أن يُحصِّلَه أو يتقِنَه بجملةٍ معدودةٍ من الساعات؟!

وهذه نماذجُ يسيرةٌ من أخبار العلماء، الذين قرأ الواحدُ منهم الكتابَ عَشَراتِ المراتِ أو مئة مرة أو أكثر، لعلها تَحفِزُ الطالبَ المُجِدَّ على الصبر على إعادةِ القراءةِ للكتابِ بعضَ المرات:

١ ــ ففي «طبقات علماء إفريقية وتونس» لأبي العَرَب القَيْرَواني ص ٢٢٤، في ترجمة المحدِّث الكبير الرحَّال (عباس بن الوليد الفارسي)، تلميذِ سفيان بنِ عيينة، والفُضَيلِ بن عِيَاض: «قال أبو العرب: ولقد حدَّثَني أبي أحمَدُ بنُ تميم رحمه الله، أنهم ربما وجدوا في آخر بعضِ كُتُبِ عباسِ بن الفارِسِيِّ: دَرَسْتُهُ ألفَ مرة، وكان قد قُتِلَ سنة ٢١٨ رحمه الله تعالى».

٢ ــ في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لابن مخلوف ص ٩٥، في ترجمة (أبي محمد عبد الله بن إسحاق) المعروف بابن التَّبَّان، إمام الفقهاء الراسخين، المولود سنة ٣١١، والمتوفى سنة ٣٧١ رحمه الله تعالى: «أَخَذَ عن ابن اللبَّادِ وغيرِه، دَرَس «المُدَوَّنَةَ» نحوَ الألفِ مرة».

٣ ــ في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٦:١٨٦، في ترجمة الإمام الفقيه المالكي المُحدِّث أبي بكر الأَبْهَري (محمد بن عبد الله بن صالح) التميمي البغدادي، المولود قبلَ سنة ٢٩٠، والمتوفى سنة ٣٧٥ رحمه الله تعالى قولُهُ: «قرأتُ مختصرَ ابنِ عبد الحكم خمسَ مِئةِ مرة، والأَسَدِيَّةَ خمساً وسبعين مرة، والموطَّأَ خمساً وأربعين مرة، ومختصَرَ البرقي سبعين مرة، والمبسوطَ ثلاثين مرة». رحمةُ الله عليه.

٤ ــ في مقدمة الإمام النووي لشرحِهِ على «صحيح مسلم» ١:٨، في ترجمة (أبي الحُسَين عبد الغافر بن محمد الفارسي النيسابوري) المعمَّر، المولود سنة ٣٥٣، والمتوفى سنة ٤٤٨ رحمه الله =

= تعالى: «كان شيخاً ثقة صالحاً مشهوراً مقصوداً من الآفاق، سَمِعَ منه الأئمةُ والصدور، وألحق أحفادَ الأحفادِ بالأجداد، وقرأ الحافظُ الحَسَنُ السمرقنديُّ عليه «صحيحَ مسلم» نيفاً وثلاثين مرة، وقرأ عليه أبو سعيد البُحَيْري نيفاً وعشرة مرة».

٥ ــ في «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٧: ٢٣٣، في ترجمة الإمام إِلْكِيَا الهَرَّاسي ــ أي الكبير الخائفِ ــ (علي بن محمد بن علي) النيسابوري ثم البغدادي، المولود سنة ٤٥٠، والمتوفى سنة ٥٠٤ رحمه الله تعالى، تلميذِ إمام الحرمين ومُعِيدِ دَرْسِه، وأجلِّ تلامذتِهِ بعدَ رفيقِهِ الغزالي: «عن إِلْكِيَا قال: كانت في مدرسة سَرْهَنْك بنيسابور قَناةٌ لها سبعون درجة، وكنت إذا حفظتُ الدرسَ أَنزِلُ القناة وأُعيدُ الدرس في كل درجة مرةً، في الصعود والنزول، قال: وكذا كنتُ أفعلُ في كل درس حفظتُه».

٦ ــ في كتاب «الصِّلَة» لابن بَشْكُوَال الأندلسي ص ٤٣٣، في ترجمة الحافظ المحدث (أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن عَطِيَّة المُحارِبي الأندلسي)، المولود سنة ٤٤١، والمتوفى سنة ٥١٨، وهو والدُ المفسِّر المشهور عبد الحق بن عطية، «كان حافظاً للحديث وطُرُقِهِ وعِلَلِه، عارفاً بأسماءِ رجالِه ونَقَلَتِه، منسوباً إلى فهمِهِ، ذاكراً لمتونِهِ ومعانيه، أديباً شاعراً لغوياً، ديناً فاضلاً، قرأتُ بخط بعض أصحابنا أنه سَمِعَ أبا بكر بنَ عطية يذكُرُ أنه كرَّر البخاريَّ سَبْعَ مِئَةِ مرة».

٧ ــ في «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٦: ١٦٩، في ترجمة الإمام (أبي عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفُرَاوي النيسابوري)، المولود سنة ٤٤١، والمتوفى سنة ٥٣٠ بنيسابور:

«قال أبو سعد السمعاني ــ تلميذُ الفُرَاوي ــ سمعتُ عبد الرزاق بن أبي نصر الطَّبَسِي يقول: «قرأتُ «صحيح مسلم» على الفُرَاوي سَبْعَ عشرة نوبةً، ففي آخر الأيام قال لي: إذا أنا مُتُّ أُوصيك أن تَحضُرَ غَسْلِي، وأن تُصلِّيَ أنت بمن في الدار، وأنت تُدخِلَ لِسانَك في فيَّ، فإنك قرأتَ به كثيراً حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم».

٨ ــ في «ذيول تذكرة الحفاظ» ص ١٣٤ ــ ١٣٥ بتعليق شيخنا الإمام الكوثري رحمه الله تعالى ما ملخصه: «مسند الدنيا ورُحلة الآفاق أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبـي طالب، المشهور بابن الشِّحْنَة الحَجَّار الدمشقي الصالحي الحنفي، ولد في حدود سنة ٦٢٢، وعُمِّر أكثر من مئة سنة، حتى ألحَقَ الأحفادَ بالأجداد، وحدَّث بالصحيح أكثَرَ من سبعين مرة بدمشق وغيرِها.

وانتخَبَ عليه الحفاظ ورحلوا إليه من البلاد وتزاحموا عليه، وقد صام رمضان وهو ابنُ مِئَةِ سنة وأتبعَهُ ستاً من شوال، شَرَع محبُّ الدين بنُ المحب في قراءة الصحيح عليه قبلَ موتِهِ بيوم، ثم قرأ عليه الميعادَ الثاني في يوم وفاتِهِ إلى الضحى، فمات قُبَيلَ الظهر سنة ٧٣٠ رحمه الله تعالى». =

فبينا أنا يوماً بعدَ صلاةِ العصر في الورَّاقين، وإذا بدَلَّالٍ ينادي على مجلَّد، فعَرَضه عليَّ فرَدَدْتُه رَدَّ مُتَبَرِّمٍ به، معتَقِداً أنَّ هذا العلمَ لا فائدة فيه، فقال: اشتَرِهِ فإني أَبيعُك إياه بثلاثةِ دراهم، فاشتريتُه، فإذا هو من تصانيفِ أبي نَصْر الفارابي، في أغراضِ ذلك الكتاب، فرَجعتُ إلى بيتي وأَسرعتُ قراءتَه، فانفَتَح عليَّ في الوقتِ أغراضُ ذلك الكتاب، وفَهِمتُه، وفَرِحتُ فَرَحاً شديداً، وتَصدَّقتُ ثانيَ يوم على الفقراءِ بشيءٍ كثير»(١).

= ٩ ــ في «فهرس الفهارس والأثبات» لشيخنا الحافظ عبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى ٢: ١٠٤٥، في ترجمة ابن السنوسي (محمد بن علي السنوسي): «وفي «الحِطَّة» نقلاً عن السيد جمال الدين المحدِّث، عن أستاذِهِ السيدِ أَصِيلِ الدينِ أنه قَالَ: قرأتُ صحيحَ البخاري نحوَ مئةٍ وعشرين مرة.

١٠ ــ وفي ترجمة الحافظ برهان الدين الحلبي من «الضوء اللامع» للسخاوي ١: ١٤١ أنه قرأ البخاريَّ أكثَرَ من ستين مرة، ومسلماً نحوَ العشرين، سوى قراءته لهما في الطلب أو قراءتها من غيرِهِ عليه.

١١ ــ وقال الحافظ السخاوي: حكى الحافظ الذهبي، عن الحافظ شرف الدين أبي الحسن اليُونِيني أنه سَمِعَهُ يقول: إنه قابَلَ نسختَهُ من صحيح البخاري، وأسمَعَهُ في سنةٍ: إحْدَى عَشْرَةَ مرة.

١٢ ــ وفي «طبقات الخَوَاصّ» للشهاب أحمد الشَّرْجِي اليَمَني، في ترجمة سليمان بن إبراهيم العَلَوِي: أنه أَتَى على البخاري نحواً من مِئتينِ وثمانين مرة، قِراءةً وسَماعاً وإقراءاً.

١٣ ــ ووَجَدْتُ في «ثَبَتِ الشهاب أحمد بن قاسم البُوْني»: رأيتُ خَطَّ الفيروزآبادي، في آخر جزء من صحيح الإمام البخاري، قال: إنه قرأ صحيحَ البخاري أزيدَ من خمسين مرة». انتهى كلام شيخنا الكتاني.

(١) ما أطيَبَ فَرَحَ الفَهْمِ على القلبِ والنَّفْس، وما أجمَلَ أثَرَهُ على الوَجْهِ والعَيْن، ومن هُنا قال العلامة الأديب الحريري في بعض «مقاماته»: «فهِمْنا حِينَ فَهِمْنا». الفِعْلُ الأوَّلُ هنا من (الهُيَام)، دخلَتْ عليه الفاء، والفعلُ الثاني من (الفَهْم)، أوردَهُما بصورةِ الجِنَاسِ التامِّ عند البلاغيين.

ومن أثَرِ الفَهْم على الوجهِ باحمرارِهِ لمَسَرَّةِ الفَهْم، كان البغداديون يقولون: (فَتَّح وَرْدُ المعرفة)، كما نقله العلامة الخَفَاجي في «شِفاءِ الغَليل» في حرف (الواو)، وذلك صحيح، لِمَا قال =

١٩٥ ــ وجاء في «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان(١)، في ترجمة العالم الأديب، والشاعر الكاتبِ الأريب، والوزير الحازِم الجَوَاد (الحسن بن محمد الأَزْدِي المُهَلَّبي

= أبو الفتح البُسْتي الشاعرُ الأديب الأريب: الفَهْمُ شُعاعُ العَقْل. كما في ترجمته في «وفَيَات الأعيان» ١ : ٣٥٧.

وقال العلامة المرتَضَى الزَّبيدي في شرح الإحياء «إتحاف السادة المتقين» ١ : ٣١٥ «إنَّ الطالبَ إذا فَهِمَ بين يَدَيْ مُعلِّمِهِ ما يقولُ، ظَهَر السُّرورُ في وجهه، وهذه علامَةُ وقوعِهِ على القلب، وقبولِهِ من حيث الفهمُ، ويُحكَى أنَّ جالينوس كان يُقرِّرُ يوماً في مسألةٍ مشكلة، والطَّلَبَةُ به مُحْدِقون، فقال لهم: فَهِمتُم؟ قالوا: نعم، قال: لا، لو فَهِمتُم لظَهَرَ السُّرورُ على وجوهكم».

وجاء في كتاب «شمس العلوم، ودَوَاءِ كلامِ العَرَب من الكلوم» ٢ : ٣٦٦ للعلامة الضَّليع القاضي نَشْوَان بن سعيد الحِمْيَري اليَمَني، المتوفى سنة ٥٧٣ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«يقال: عَينٌ ساجِيَة، أي ساكنة، قال عثمان بن إبراهيم الجُمَحِي ــ أحَدُ التابعين الفضلاء ــ : إني أعرِفُ في العَيْنِ إذا أنكَرَتْ، وإذا عَرَفَتْ، وإذا هي لم تَعرِف ولم تُنكِر، إذا عَرَفَتْ تَحُوْصُ ــ أي تَضِيقُ وتَعُودُ لطبيعتِها، لارتياحِها بالفهم، بعدَ تَحَمْلُقِها للإنكارِ أو الاستفهام ــ ، وإذا أنكَرَتْ تَجْحَظُ ــ أي تَبْرُزُ وتَتَّسِعُ ــ ، وإذا لم تَعرِف ولم تُنكِر تَسْجُو أي تَسْكُن». انتهى بزيادة ما بين المعترِضات.

ووقع في الكتاب المذكور (إذا عَرَفَتْ تَحَوَّصتْ)، وهو خطأ، لأن الفعل من باب (طَرِبَ): (حَوِصَ) كما في كتب اللغة، وليس فيها فِعلُ (حَوَّصَ) أو (تَحوَّصَ). ثم الصوابُ في اللفظ (تَحُوْصُ) بصيغة المضارع كما جاء في الجملتين التاليتين، فإثباتُهُ بصيغةِ الفعلِ الماضي خطأٌ آخر.

قال أبو منصور الثعالبي في كتابه «تحسين القبيح وتقبيح الحسن» ص ٤٨، في (تحسين العَمَى): «قيل للتابعي الجليل قَتَادَة بن دِعَامَة السَّدُوسِي ــ وكان ضريراً أكْمَهَ أي وُلِدَ أعمَى ــ : ما بالُ العُمْيَانِ أذْكى وأكيَسُ من البُصَراء؟ فقال: لأنَّ أبصارَهم تحوَّلَتْ إلى قلوبهم.

وقال الجاحظُ: العُمْيانُ أحفَظُ وأذكى، وأذهانُهم أقْوَى وأصْفَى، لأنهم غيرُ مشتغِلي الأفكارِ بتمييزِ الأشخاص، ومع النظرِ يَتشعَّبُ الفِكر، ومع انطباقِ العين اجتماعُ اللُّبّ، ولذلك قال بَشَّار:

عَمِيْتُ جَنِيْناً والذَّكَاءُ من العَمَى ... فجئتُ عجيبَ الظنِّ للعلمِ موئلا

وكان أبو يعقوب الخُرَيْمِي يقول: مِن فضائلِ العَمَى ومَحاسِنِهِ ومَرَافِقِهِ: اجتماعُ الرَّأْيِ والذِّهْنِ وقُوَّةُ الكَيْسِ والحِفظ».

(١) ١ : ١٤٢.

البَصْري)، المشهورِ بالوزير المُهلَّبي، المولود سنة ٢٩١، والمتوفى سنة ٣٥٢ رحمه الله تعالى:

«كان وزيراً لمُعِزِّ الدولة (أبي الحسين أحمد بن بُوَيْه)، وكان من ارتفاع القَدْر، واتساعِ الصَّدْر، وعُلُوِّ الهِمَّة، وفَيْضِ الكَفّ، على ما هو مشهورٌ به، وكان غايةً في الأدبِ، والمحبَّةِ لأهلِه، وكان قبلَ اتصالِهِ بمُعِزِّ الدَّوْلَة في شِدَّةٍ عظيمةٍ من الضرورةِ والضائقة! وكان قد سافر مَرةً ولَقِيَ في سفرِهِ مشقةً صَعْبَة! واشتهى اللَّحْمَ فلم يَقْدِر عليه! فقال ارتجالاً:

أَلاَ مَوْتٌ يُباعُ فأشتريهِ   فهذا العَيْشُ ما لا خيرَ فيهِ
أَلاَ مَوْتٌ لذيذُ الطَّعْمِ يأتي   يُخلِّصُني من العَيْشِ الكريهِ
إذا أَبْصَرتُ قَبْراً من بعيدٍ   وَدِدتُ لو أنني مما يليهِ
أَلاَ رَحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ   تَصدَّقَ بالوَفَاةِ على أخيهِ

وكان معه رفيقٌ يقال له: عبدُ الله الصُّوفي، وقيل: أبو الحسن العَسْقَلاني، فلما سَمِعَ الأبياتَ، اشتَرى له بدرهمٍ لحماً وطَبَخَهُ وأطعَمَه، وتفارَقَا.

وتنقَّلتْ بالمُهلَّبي الأحوالُ، وتولَّى الوزارةَ ببغدادَ لمعز الدولة، وضاقَتْ الأحوالُ برفيقِهِ الذي اشتَرَى له اللحمَ في السَّفرِ، وبَلَغَه وزارةُ المهلَّبيِّ، فقصَدَه وكتَبَ إليه:

ألا قُلْ للوزيرِ فَدَتْهُ نَفْسِي   مَقالَةَ مُذْكِرٍ ما قد نَسِيْهِ
أتذكُرُ إذ تقولُ لضَنْكِ عَيْشٍ:   ألا مَوْتٌ يُباعُ فأَشتريهِ؟!

فلما وَقَفَ الوزير على رُقْعتِه تذكَّره، وهَزَّتْه أَرْيَحِيَّةُ الكَرَم، فأمَرَ له في الحالِ بسَبْع مئة درهم، ووَقَّع في رُقعته: ﴿مَثَلُ الذين يُنفِقُون أموالَهم في سبيلِ الله، كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئةُ حَبَّة، والله يُضاعِفُ لمن يَشاء﴾[1]. ثم دَعَا به فخَلَع عليه وقَلَّده عَمَلاً يَرتفِقُ به.

---

(١) من سورة البقرة، الآية ٢٦١.

ولما وَلِيَ المُهَلَّبيُّ الوزارةَ بعدَ تلك الإضاقةِ عَمِلَ الأبياتَ التالية:

رَقَّ الزَّمَانُ لِفَاقَتِي ورَثَى لطُولِ تَحَرُّقِي
فأنَالَنِي ما أَرْتَجِيهِ وحَادَ عما أتَّقِي
فلأصْفَحَنْ عَمَّا أتاهُ من الذُّنوبِ السُّبَّقِ
حتى جِنَايتِهِ بما صَنَعَ المَشِيبُ بمَفْرِقِي

ومن المنسوب إليه في وَقْتِ الإضاقةِ من الشعر، ما كتبه إلى بعض الرؤساء، وقيل: إنهما لأبي نُوَاس:

ولو أني استزَدتُك فوقَ ما بي من البَلْوَى لأعوَزَك المَزِيدُ
ولو عُرِضَتْ على المَوْتَى حَيَاةٌ بعَيْشٍ مِثلِ عَيْشِي لم يُريدوا».

١٩٦ ــ وجاء في «نزهة الألِبَّاء» للأنباري[١]، و«إنباه الرُّواة» للقِفْطي[٢]، و«الوفَيَات» لابن خلكان[٣]، في ترجمة الإمام أبي سعيد السِّيْرافي (الحسن بن عبد الله) القاضِي النحوي البغدادي، الفارسي الأصل، جامع العلوم والفنون، المولود سنة ٢٨٤، والمتوفى سنة ٣٦٨ رحمه الله تعالى:

«ولِدَ في سِيراف من بلاد فارس، وبها ابتدَأَ بطلب العلم، ثم دخل بغداد وأخَذَ عن كبار شيوخها، ثم وَلِيَ القضاءَ على جانِبَيْها، وكان يُدرِّسُ القرآنَ، والقراءاتِ، وعلومَ القرآن، والنحوَ، واللغةَ، والفقهَ، والفرائضَ، والكلامَ، والشعرَ، والعَروضَ، والقوافيَ، والحِسابَ، وعلوماً سِوَى هذه.

وكان من أعلم الناسِ بنحوِ البصريين، ويَنتحِلُ في الفقه مذهبَ أبي حنيفة، قرأ في بغداد على أبي بكر بن مُجاهِد ــ شيخِ العلماء بالقراءاتِ في عصره ــ القرآنَ، وعلى أبي بكر بن دُرَيد ــ شيخِ اللغةِ في عصره ــ اللغةَ، ودَرَسَا هُمَا عليهِ النحوَ، وقرأ على

(١) ص ٣٠٧.
(٢) ١: ٣١٣.
(٣) ١: ١٣٠.

أبي بكر بن السرَّاجِ وعلى أبي بكرٍ مَبْرَمانَ البغداديَّيْنِ النحوَ، وقرأ أحدُهما عليهِ القراءاتِ، ودَرَسَ الآخَرُ عليه الحساب.

وصنَّف التصانيفَ الكثيرة، أكبرُها «شرحُ كتاب سيبويه»، ولم يَشرح أحدٌ كتابَ سيبويه أحسَنَ منه، ولو لم يكن له غيرُه لكفاه فضلاً، وشرَح «المقصورةَ الدُّرَيْدِيَّة»، وله كتابُ ألِفَاتِ الوَصْلِ والقطع في ثلاث مِئة ورقة، وكتابُ أخبار النَّحْويين البصريين، وكتابُ الوَقْفِ والابتداء، وكتابُ صناعة الشعرِ والبلاغة، وكتابُ جزيرة العرب، وغيرُها.

وكان زاهداً لا يأكلُ إلا من كَسْبِ يدِه، ولا يَخرُجُ من بيتِه إلى مجلس الحكم، ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم إلا بَعْدَ أن يَنسخَ عَشْرَ وَرَقات، يأخذُ أجرَها عَشْرةَ دراهم، تكون قَدْرَ مَؤُونَتِه، وكان حَسنَ الخَطِّ، ثم يَخرجُ إلى مجلسه، وكان نزيهاً عفيفاً، جميلَ الطريقة، حسَنَ الأخلاق، رحمةُ الله تعالى عليه.

قال القِفطي: «وقد ذكرتُ أخبارَه هنا مختصرةً، وأفردتُ لها مصنَّفاً سمَّيتُه «المفيد في أخبار أبي سعيد»، وهو كتاب ممتع».

١٩٧ ـ وهذا الإمام اللغوي الفقيهُ الأديبُ النَّحْويُّ الشاعر الأريب (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي)، صاحبُ الكتاب النفيس الفريد «مقاييس اللغة» المتقدم ذكره وشعرُهُ[١]، قد نَشَأ في قَزْوين، ثم سافَرَ إلى همَذَان وأقام بها، فأدرَكَهُ الإملاقُ والفَقْرُ! وصاحَبَهُ الدَّيْنُ والعَوَز! فقال داعِياً شاكِياً لهَمَذان[٢]!

سَقَى هَمَذانَ الغَيْثُ لَسْتُ بقائلٍ … سِوَى ذا وفي الأَحْشَاءِ نارٌ تَضرَّمُ!
ومالِيَ لا أُصفِي الدُّعاءَ لِبَلْدَةٍ … أَفَدْتُ بها نِسيانَ ما كنتُ أعلمُ!
نَسِيتُ الذي أَحسَنْتُهُ غيرَ أنني … مَدِينٌ! وما في جَوْفِ بيتيَ دِرْهَمُ!

ثم تحوَّل عن همَذَان إلى الرَّيّ، وأقام بها حتى توفي رحمه الله تعالى.

---

(١) في الخبر ١٥٣.

(٢) كما في ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ١ : ٣٦.

١٩٨ ـ وقال الحافظ الذهبي في «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»[١]، في ترجمة (أبي الحسن الدَّارَاني القَطَّان الدمشقي عليِّ بن داود)، إمامِ جامع دمشق ومُقرِئِه، والمحدِّثِ فيه، المتوفى سنة ٤٠٢ عن نحوِ تسعين سنة رحمه الله تعالى:

«قَرَأ بالرواياتِ على طائفةٍ من كبار القراء، وتلقَّاها الناسُ عنه، قال تلميذُه رَشَأُ بنُ نَظِيفِ المَعَرِّيُّ الدمشقي: لم ألْقَ مِثلَه حِذْقاً وإتقاناً في روايةِ ابنِ عامر.

قال عبدُ المنعم النَّحْويُّ: خَرَج القاضي أبو محمد العَلَوي وجماعةٌ من الشيوخ إلى داريَّا في سنة ٣٨٨، إلى (عليِّ بن داود) ليَؤُمَّ بجامع دمشق، وجاؤوا به بعدَ أنْ مَنَعَهمْ أهلُ داريَّا وتَنَافَسُوا.

قال الحافظ ابن عساكر: سمعتُ ابنَ الأكفاني يحكي عن بعضِ مشايخِهِ أنَّ أبا الحسن بن داود كان إمامَ داريَّا، فمات إمامُ جامعِ دمشق، فخَرَج أهلُ البلد إلى داريَّا ليأتوا به، فلَبِسَ أهلُ داريَّا السِّلاحَ وقالوا: لا نُمكِّنُكم من أَخْذِ إمامِنا، فقال أبو محمد عبدُ الرحمن بن نصر: يا أهلَ داريَّا ألا تَرضَوْن أن يُسمَعَ في البلاد أنَّ أهلَ دمشق احتاجوا إليكم في إمام؟ فقالوا: قد رَضِينا.

فقُدِّمَتْ له بَغْلةُ القاضي، فأبَى وركِبَ حِمارَهُ ودَخَل معهم، فسكن في المَنَارةِ الشَّرْقيَّة ـ أي من جامع دمشق ـ، وكان يُقرِىء بشَرقيِّ الرُّوَاقِ الأوسط، ولا يأخُذُ على الإمامةِ رِزْقاً، ولا يَقبَلُ ممن يَقرأُ عليه بِرّاً، ويَقْتَاتُ من غَلَّةِ أرضٍ له بداريَّا، ويَحمِلُ ما يكفيه من الحِنطة، ويَخرُجُ بنفسِهِ إلى الطاحون فيطحنه، ثم يَعجُنُه ويَخبِزُهُ، وانتهَتْ إليه الرئاسةُ في قراءةِ الشامِيين، ومَضَى على سَدَادٍ، رحمه الله تعالى».

أولئك: النَّاسُ إنْ عُدُّوا وإن ذُكِرُوا ‌‌ ‌‌ ‌‌ ومَنْ سِوَاهُمْ فلَغْوٌ غيرُ مَعْدُودِ

١٩٩ ـ وقال التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٢]، في ترجمة الإمام أبي حامد الإسْفَرَايِيْني الشافعي المولود سنة ٣٤٤، والمتوفى سنة ٤٠٦ رحمه الله تعالى:

---

(١) ١ : ٢٩٤.

(٢) ٤ : ٦١ ـ ٦٥.

«الشيخُ أبو حامد أحمدُ بن محمد بن أحمد الأَسْفَرَايِيْني، حافظُ المذهبِ وإمامُه، جَبَلٌ من جبالِ العلمِ مَنِيع، وحَبْرٌ من أحبار الأُمَّة رَفِيع.

وُلِدَ في أَسْفَرايين(١)، وقدِمَ بغدادَ شاباً، فتفقَّه على أبي الحسن بن المَرْزُبان وأبي القاسم الدَّارَكي، حتى صار أَحَدَ أئمةِ وَقْتِه. وحَدَّثَ عن عبدِ الله بن عَدِي، وأبي بكر الإسماعيلي، وأبي الحسن الدارقطني، وإبراهيم بن محمد بن عَبْدَك الإسفِرايينيّ، وغيرهم. وحَدَّثَ عنه تلامذتُه أقضَى القضاة أبو الحسن الماوَرْدِيُّ، والفقيهُ سُلَيم الرازي، وأبو علي السِّنْجِيُّ، وأبو الحسن المَحَامِليُّ، وآخرون.

قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: انتهَتْ إليه رئاسةُ الدين والدنيا ببغداد، وطَبَّقَ الأرضَ بالأصحاب، وجَمَع مَجْلِسُهُ ثلاثَ مِئةِ مُتَفَقِّه، واتفق المُوافِقُ والمُخالِفُ على تفضيلِهِ وتقديمه، في جَوْدةِ الفقه، وحُسنِ النظر، ونَظَافةِ العلم. وقال الخطيب: سمعتُ من يَذكرُ أنه يَحضُرُ في مجلسه سَبْعُ مِئةِ مُتَفَقِّه، وكان الناسُ يقولون: لو رآه الشافعيُّ لَفَرِحَ به.

وكان عظيمَ الجاه عند الملوك، مع الدِّين الوافر، والورَعِ والزهد، والاستيعابِ للأوقاتِ بالتدريسِ والمُناظرة، ومؤاخذةِ النفس على دقيقِ الكلام، ومُحاسَبَتها على هَفَواتِ اللسان، وإن بدَرَتْ في أثناءِ الإحسان.

ووقع من الخليفة أمير المؤمنين ما أوجَبَ أن كتَبَ له الشيخ أبو حامد: اعلم أنك لستَ بقادر على عَزْلي عن ولايتي التي ولَّانيها اللَّهُ تعالى، وأنا أقدِرُ أن أكتُبَ رُقعةً إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث، أعزِلُك عن خلافتك.

---

(١) أَسْفَرَايِيْنُ: بلدةٌ بخراسان من نواحي نيسابور، وفي ضبطها وجوه كثيرة تَبلُغ تسعَ لغات، وهي: ١ ـ إسْفِرايِنُ، بكسر الهمزة والفاءِ وياءٍ مكسورة بعدَ الألف. ٢ ـ وأَسْفِرايِنُ، بفتح الهمزة. ٣ ـ وإِسْفَرايِنُ، بكسر الهمزة وفتح الفاء. ٤ ـ وأَسْفَرايِنُ، بفتح الهمزة وفتح الفاء. وبالهمزة بدلَ الياءِ فيها جميعاً، فتصيرُ ثمانيَ لغات. كما يُستفاد من «تاج العروس» للزَّبِيدي ٩ : ٢٣٥. واللغةُ التاسعةُ: أَسْفَرَايِيْنُ، بفتح الهمزة وفتح الفاء وياءٍ أولى مكسورة، وياءٍ أخرى ساكنة، وهذه اللغة هي التي ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» ١ : ١٧٧، واقتَصر عليها، وقال الزبيدي: «وهو المشهورُ المعروف».

وعن سُلَيم الرازي تلميذِهِ: أن الشيخَ أبا حامد كان في أول أمرِهِ يَحرُسُ في بعض الدُّرُوب، ويُطالِعُ العِلمَ في زَيْتِ الحَرَس، ويأكلُ من أُجرة الحَرَس، وأنه أفتَى وهو ابنُ سَبْعَ عشرة سنة، وأقام يفتي ٤٥ سنة، إلى أن مات، ولمَّا قَرُبَتْ وفاتُهُ قال: لمَّا تَفَقَّهْنا مُتْنا! رحمه الله تعالى».

٢٠٠ ــ وجاء في «طبقات الشافعية الكبرى»[1] للتاج السبكي في ترجمة الإمام الفقيه (الحسين بن محمد الطبري الكَشْفُلِي)، وكَشْفُل من قُرَى آمُلِ طَبَرِسْتان، المتوفى ببغداد سنة ٤١٤، ما يلي:

«حُكي أن بعض طلبة الشيخ الكَشْفُلِي اشتكى إليه فاقةً، وأنه تأخرت عنه نفقتُه التي تَرِدُ عليه من أبيه، فأَخَذ الكَشْفُلِيُّ بيد الطالب، وذهب إلى بعض التجار بقَطِيعةِ الربيع ــ وهي محلة في الكَرْخ من بغداد ــ، فاستَقرَض له منه خمسين ديناراً، ــ أي طَلَب من التاجر أن يُقرِضَه خمسين ديناراً ــ، فقال التاجرُ: حتى نأكُلَ شيئاً، فمُدَّ السِّماط.

ثم قال التاجر: يا جارية، هاتِ المال، فأَحضرَتْ جاريتُه شيئاً من المال، فوَزَن منه خمسين ديناراً، ودَفَعها إلى الشيخ.

فلما قاما، إذا بوَجْهِ الطالبِ الفقيهِ قد تغيَّر! فقال له الكَشْفُلِيّ: ما لك؟ فقال: يا سيدي، قد سَكَنَ قَلْبِي حُبُّ هذه الجارية! فرَجَع به الشيخُ إلى التاجر، فقال: قد وَقَعْنا في فِتنةٍ أخرى، قال: ما هي؟ قال: إنَّ الفقيهَ قد هَوِيَ الجارية، فأمَرَ التاجرُ بأن تَخرُجَ وسلَّمها إليه، وقال: رُبَّما تكونُ قد وَقَع في قلبِها منه مِثلُ الذي وَقَع في قلبِهِ منها.

فلما كان بعدَ ليالٍ قَدِمَتْ على الفقيه نفَقَتُهُ من أبيه سِتُّ مِئةِ دينار، فوفَّى التاجرَ ما كان له عليه من ثمنِ الجارية والقَرْض»[2].

---

(١) ٤: ٣٧٣.

(٢) الظاهر أن أهل هذا الطالب كانوا من ذوي الغِنَى واليسار، كما أن التاجر كان من أهل الكرمِ والسماحة، فقد آثَرَ الشابَّ بالجارية، والتَمَس لها المصلحةَ في إيثارِهِ لها، أما الشيخُ الكَشفُلِي رحمه الله تعالى، فقد كان مثالَ الأب العاقِل الرحيم، والطبيبِ العطوفِ المحبّ، فداوَى الطالبَ =

٢٠١ ــ وجاء في «تبيين كذب المفتري» للحافظ ابن عساكر[١]، في ترجمة أبي منصور محمد بن الحُسَين الأيوبي النيسابوري[٢]، المتوفى سنة ٤٢١ رحمه الله تعالى، ما يلي: «الأستاذُ الإمامُ حُجَّةُ الدين، صاحبُ البيان، والحُجَّةِ والبرهان، واللسانِ الفصيح والنظرِ الصحيح، أنظَرُ من كان في عَصْرِهِ ومن تقدَّمَهُ ومن بَعْدَهُ على مذهبِ الأشعري، له التصانيفُ المشهورة المقبولة عند أئمة الأصول، مثل «تلخيص الدلائل».

تَلْمَذَ للأستاذ أبي بكر بن فُوْرَك في صِبَاه، وتَخَرَّجَ به، ولَزِمَ طريقتَهُ، وجَدَّ واجتهد، في فَقْرٍ وقِلَّةٍ من ذاتِ اليد، حتى كان يُعلِّقُ دروسَهُ ويُطالِعُها في القَمَر، لِضيقِ يدِهِ عن تحصيلِ دُهْنِ السِّراج، وهو مع ذلك يُكابدُ الفقرَ ويُلازمُ الورع، ولا يأخذُ من مال الشُّبْهَةِ شيئاً».

٢٠٢ ــ وحكى القاضي شمس الدين ابنُ خَلِّكان في «وَفَيَات الأعيان»[٣]، في ترجمة (القاضي عبد الوهاب بن علي بن نَصْر المالكي) البغدادي الفقيه، المولود في بغداد سنة ٣٦٢، والمتوفى بمصر سنة ٤٢٢ رحمه الله تعالى:

«قال: ذكره ابنُ بَسَّام في «الذخيرة» فقال: كان بقيَّةَ الناس، ولِسانَ أصحابِ القياس، وقد وَجَدتُ له شِعراً معَانِيهِ أَجْلَى من الصُّبح، وألفاظُهُ أحلَى من الظَّفَر بالنُّجْح. ونَبَتْ به بغدادُ! كعادةِ البلادِ بذوي فَضْلِها، على حُكمِ الأيام بمُحسِني أهلِها، فخَلَعَ أهلَها، ووَدَّعَ ماءَها وظِلَّها. وحُدِّثْتُ أنه شيَّعه يومَ فَصَلَ عنها من أكابرِها وأصحابِ محَابِرِها جملةٌ موفورة، وطوائفُ كثيرة، وأنه قال لهم: لو وَجَدْتُ بين ظَهْرَانَيْكم رغيفينِ كلَّ غَدَاةٍ وعَشِيّة، ما عَدَلتُ عن بلدكم لِبُلوغِ أُمْنِيَّة، وفي ذلك

= الشابَّ بطلبِ الجاريةِ له، دُونَ تذمُّرٍ أو غضبٍ أو استياء، وهكذا حالُ من استنار بالعلمِ والعقلِ والشرعِ الحكيم، رحم الله تعالى الجميع.

(١) ص ٢٤٩.

(٢) وقع في اسم أبيه تحريف في «تبيين كذب المفتري»، فجاء (محمد بن الحسن)، وصوابه: (محمد بن الحُسَين) بالتصغير، كما جاء في «طبقات الشافعية» للسبكي ٤ :١٤٧، و «الوافي بالوفَيَات» للصفدي ٣: ١٠ فيمن اسمُهُ (محمد بن الحُسَين).

(٣) ١ :٣٠٤.

يقول:

سَلَامٌ على بغدادَ في كلِّ موطنٍ ... وحُقَّ لها مني سَلَامٌ مُضَاعَفُ
فواللَّهِ ما فارَقْتُها عن قِلَىً لها ... وإنِّي بشَطَّيْ جانِبَيْها لعَارِفُ
ولكنها ضاقَتْ عليَّ بأسْرِها ... ولم تكُنِ الأرزاقُ فيها تُساعِفُ
وكانت كخِلٍّ كنتُ أهوَى دُنَوَّهُ ... وأخلاقُهُ تنأَى به وتُخالِفُ!

ويقول في ذلك أيضاً:

بَغْدَادُ دارٌ لأهلِ المالِ طَيِّبَةٌ ... وللمَفَالِيسِ دارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أمشِي في أزِقَّتِها ... كأنني مُصحَفٌ في بَيْتِ زِنديقِ

واجتاز في طريقِهِ من بغداد إلى مصر بمَعَرَّةِ النُّعْمان ــ بَلْدَةٍ بقُربِ مدينةِ حَلب في غَرْبِها ــ، وبالمَعَرَّةِ يومئذ أبو العلاءِ المَعَرِّي، فأضافه وأُعجِبَ بعِلمِهِ وفقهِهِ وأدبِهِ وشعرِه، وفي ذلك يقولُ أبو العلاء من جملةِ أبيات:

والمالكيُّ ابنُ نَصْرٍ زارَ في سَفَرٍ ... بلادَنا فَحَمِدْنا النَّأْيَ والسَّفَرا(١)
إذا تفَقَّهَ أحيا مالِكاً جَدَلاً ... ويَنْشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيل إنْ شَعَرا(٢)

ثم توجّه إلى مصر فحمَلَ لواءَها، وملأ بالعلم أرضَها وسماءَها، واسْتَتْبَعَ سادَتَها وكُبَراءَها، وتناهت إليه الغرائب، وانثالَتْ في يديه الرغائب، فمات لأوَّلِ ما وصَلَها! من أكلةٍ اشتهاها فأكَلَها! وزعموا أنه قالَ في مَرَضِهِ وهو يَتقلَّب ونَفَسُهُ يَتصعَّدُ ويَتصوَّب: لا إله إلا الله، إذا عِشنا مِتنا! وهو الذي يقول:

متى يَصِلُ العِطاشُ إلى ٱرتِواءٍ ... إذا استَقَتِ البِحارُ من الرَّكَايَا
ومن يَثْني الأصاغِرَ عن مُرادٍ ... وقد جَلَس الأكابرُ في الزَّوَايا

---

(١) وذلك أنَّ سفره ونَأيَه عن بلده بغداد، مكَّنَنا أن نَحظَى بفضلِه ولقائِه، ولولا نأيُه وسَفَرُه عنها لما مَرَّ بنا ولما حَظِينا بذلك. فالحمدُ للنأي والسفرِ من هذه الناحية.

(٢) أي ويُحْيِي امرأَ القيسِ إذا قال الشعر، لبلاغتِهِ وفصاحتِهِ وجزالتِهِ، وجَمَالِ معانيهِ وإبداعِه. والمَلِكُ الضِّلِّيل لقَبُ امرىءِ القيس.

وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعاءِ يوماً على الرُّفعاءِ من إحدى الرَّزَايَا
إذا استوَتِ الأسافِلُ والأعالي فقد طابَتْ مُنادَمةُ المنايا».

٢٠٣ ــ وجاء في «طبقات الحنابلة» للقاضي ابن أبي يعلى[(١)]، في ترجمة (القاضي أبي علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي)، المولود سنة ٣٤٥، والمتوفى سنة ٤٢٨ ببغداد رحمه الله تعالى:

«ذكَرَ أبو علي بنُ شَوْكَة، قال: اجتمعنا جماعةً من الفقهاء، فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي، فذكرنا له فَقْرَنا وشِدَّةَ ضُرِّنا! فقال لنا: اصبروا، فإنَّ الله سيَرزُقُكم ويُوسِّعُ عليكم، وأُحَدِّثُكم في مثلِ هذا بما تَطِيبُ به قلوبُكم:

أذكُرُ سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمرُ شيئاً عظيماً، حتى بِعْتُ رَحْلَ داري! ونَفِدَ جميعُه، ونَقَضْتُ الطبقة الوسطى من داري! وبعتُ أخشابَها، وتقوَّتُّ بثمنها، وقَعدتُّ في البيت فلم أَخرُج، وبقِيتُ سنةً! فلمَّا كان بعدَ سنةٍ قالَتْ لي المرأةُ: البابُ يُدَقُّ، فقلتُ لها: آفتَحِي الباب، ففَعَلَتْ، فدخل رجل فسلَّم عليّ، فلما رأى حالي لم يَجلِس حتى أَنشدَني وهو قائم:

ليسَ مِن شِدَّةٍ تُصيبُك إلا سَوْفَ تَمضِي وسَوْفَ تُكشَفُ كَشْفَا
لا يَضِقْ ذَرْعُك الرَّحيبُ فإنَّ النَّا رَ يَعْلُو لَهِيبُها ثم تَطفَا
قد رأينا من كان أَشْفَى على الهُلْـــ ـــكِ فوافَتْ نَجاتُهُ حين أَشْفَى

ثم خَرَج عني ولم يَقعُد، فتَفاءَلْتُ بقوله، فلم يَخرُج اليومُ عني حتى جاءني رسولُ القادر بالله، ومعه ثيابٌ ودنانير، وبغلةٌ بمَرْكَب، ثم قال لي: أَجِبْ أميرَ المؤمنين، وسلَّمَ إليَّ الدنانيرَ والثيابَ والبغلة، فغَيَّرتُ عَنْ حالي، ودخلتُ الحمّام، وصِرتُ إلى القادر بالله، فردَّ إليَّ قضاءَ الكوفة وأعمالَها، وأثرَى حالي».

٢٠٤ ــ وقال العلامة ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»[(٢)]، والحافظُ الذهبي

(١) ٢: ١٨٥.
(٢) ١٧: ٢٢٧.

في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة الإمام القدوة مُفِيد بغداد (أبي بكر محمد بن أحمد البغدادي)، المعروف بابنِ الخاضِبَة، المتوفى سنة ٤٨٩ رحمه الله تعالى:

قال محمد بن طاهر المقدسي: سمعتُ ابنَ الخاضبة ــ وكنتُ ذَكَرتُ له أنَّ بعضَ الهاشميين حدَّثني بأصبهان، أنَّ أبا الحسين بنَ المهتدي بالله يَرى الاعتزال ــ فقال: لا أدري، ولكن أحكِي لك:

لما كانت سَنَةُ الغَرَق ــ سنة ٤٦٦ في بغداد ــ، وقعَتْ داري على قُمَاشِي وكُتُبي! ولم يكن لي شيء! وكانت عندي عائلةٌ: الوالدةُ والزوجةُ والبناتُ[٢]، فكنتُ أنسَخُ وأُنفِقُ عليهن، فأَعرِفُ أني كتبتُ «صحيحَ مسلم» في تلك السنة سَبْعَ مرات! فلما كانت ليلةٌ من الليالي رأيتُ ــ في النوم ــ كأنَّ القيامة قامت، ومُنَادٍ يُنادي: أين ابنُ الخاضِبَة؟ فأُحضِرتُ، فقيل لي: ادْخُلِ الجنة، فلما دخلتُ البابَ وصِرتُ من الداخلِ استَلْقَيتُ على قفاي، ووَضَعْتُ إحدى رِجْلَيَّ على الأخرى، وقلتُ: استرَحتُ واللّهِ من النّسْخ[٣]!

---

(١) ٤: ١٢٢٦.

(٢) قوله: (وكانت عندي عائلة...) أي أُسْرَة، وهذا التعبيرُ يُفيدُ أن استعمالَ لفظِ (عائلة) ــ وهو ليس بعربي فصيح ــ كان مستعملاً في القرن الخامس، قبلَ زمن ابن الجوزي ــ القرن السادس ــ الذي تقدم في كلامه هذ اللفظُ في الخبر ١١٦.

(٣) قال ابنُ الخاضبةِ هذا، لأنه كان يَحترفُ نَسْخَ الكتب ويَتعيَّشُ به، فقد كان لنسخ الكتب في كل بلدٍ عِلْمي أُناسٌ مُتَفرِّغون له، متمرِّسون به، وكانت النِّسَاخَةُ حِرْفةً وعَمَلاً بمنزلةِ المَطَابعِ في عصرنا، فكان الناسخون يرتزقون بالنَّسْخ، ويُسَهِّلُون على العلماءِ اقتناءَ الكتب وتعدُّدَ نُسَخِها.

قال المستشرق فيتشخل: لقد كان في قُرْطُبَةَ وَحْدَها حَانُوتٌ لنَسْخ الكتب، يَستخدمُ أكثرَ من مِئتينِ من الجواري في نَقْل المُصنَّفاتِ، لطُلَّاب الكتبِ النادرةِ واستنساخِها، وهذه ظاهرةٌ لم تُعرَف بهذه المَثَابةِ في أيِّ حَضَارةٍ إنسانيةٍ غير حضارة الإسلام، وهي تؤكِّدُ على حقيقةٍ: أنَّ المسلمين أُمَّةٌ قارئةٌ كاتبةٌ، وأنَّ الإسلامَ دِينٌ يَحُثُّ مُعْتَنِقِيهِ على العلمِ والتحصيلِ، وتلك سِمَةُ الحضارةِ وعلامَةُ المتحضرين. انتهى من صحيفة (المدينة) الصادرة بجُدَّة، السنة ٤٧، العدد ٥٩٤٩، الصادر يوم الخميس ٢٧ من رمضان سنة ١٤٠٣.

فرفعتُ رأسي فإذا ببغلةٍ في يد غلام، فقلتُ: لمن هذه؟ قالوا: للشريفِ أبي الحسن الغريق، فلما أصبحتُ نُعِيَ إلينا الشريف».

٢٠٥ ــ وجاء في «وفيات الأعيان» لابن خلكان[١]، في ترجمة الأديب ابن صَارَة[٢] الأندلسي (أبي محمد عبد الله بن محمد البكري) الأندلسي الشَّنْتَرِيني الشاعر المشهور، المتوفى سنة ٥١٧ رحمه الله تعالى:

كان شاعراً ماهراً، ناظماً ناثراً، إلا أنه كان قليلَ الحَظِّ إلا من الحِرمان! كان يَبِيعُ المُحَقَّرات! لفقرِهِ وعُدْمِه، وبعدَ جُهدٍ ارتَقَى إلى كتابةِ بعض الولاة، فلمَّا كان مِن خَلْعِ الملوكِ بالأندلس ما كان، أَوَى إلى إِشْبِيلِيَةَ أَوْحَشَ حالاً من الليل! وأكثرَ انفراداً من سُهَيل!

وتَبلَّغَ بالوِراقةِ ــ أي الكتابةِ للكتب بالأجرة ــ ، وله منها جانبٌ وبصَرٌ ثاقب، فانتَحَلها على كَسَادِ سُوقِها! وخُلُوِّ طريقِها، وفيها يقول:

أمَّا الوِراقَةُ فهي أَيْكَةُ حِرفةٍ[٣] أوْرَاقُها وثِمارُها الحِرْمَانُ
شَبَّهتُ صَاحِبَها بحالةِ إِبْرَةٍ تَكْسُو العُراةَ وجِسْمُها عُرْيانُ

٢٠٦ ــ وجاء في «إنباه الرُّواة» للقِفْطي[٤]، و«الوفَيات» لابن خلكان[٥]، و«بُغْيَة الوعاة» للسيوطي[٦]، وغيرها في ترجمة (ابن ظَفَرٍ الصِّقِلِّي المكيّ الحَمَوِيّ)، المولود سنة ٤٩٧، والمتوفى سنة ٥٦٥ رحمه الله تعالى، ما خلاصته:

---

(١) ٣: ٩٣.

(٢) يقال فيه: ابن صَارة، بالصاد، وابن سَارة، بالسين.

(٣) هكذا جاء: (أَيْكَةُ حِرْفةٍ)، في «وفَيَات الأعيان» بتحقيق الدكتور إحسان عباس، ويشهد لها قوله: (أوراقُها وثمارها)، وهي في الطبعة الميمنية ١: ٢٦٤، وفي «شذرات الذهب» ٤: ٥٥ (أنكَدُ حِرفةٍ)، وهي مُواتية للمعنى، ووقع في «الفلاكة والمفلوكون» للدَّلَجي ص ٦٧ (أنكَرُ حِرفةٍ). وهذه تحريف عن (أنكَد).

(٤) ٣: ٧٤.

(٥) ١: ٥٢٢.

(٦) ص ٥٩.

هو أبو عبد الله محمدُ بنُ عبد الله بن محمد بن ظَفَر، المنعوتُ بحُجَّة الدين، المفسِّرُ النَّحْوِي، اللُّغَوِيُّ الرحَّالة، أحَدُ الأدباءِ الفضلاء، وصاحبُ التصانيف الممتعة.

وُلِدَ في صِقِلِّيَّة، ونشأ بمكة المكرمة، وتنقَّل في البلاد، فدخل المغربَ، وجَالَ في إفْرِيقِيَةَ والأندلس، وأقام بالمَهْدِيَّة مُدَّةً، وشاهَدَ بها حُرُوباً من الفَرَنج، وأُخِذَتْ من المسلمين وهو هناك.

ثم انتَقَل إلى صِقِلِّيَّة، ثم إلى مصر، ثم قَدِمَ حَلَب، وأقام بمدرسة ابنِ أبي عَصْرُون[1]، وصنَّف فيها تفسيراً كبيراً، ثم جَرَتْ فِتنةٌ بين الشيعةِ والسُّنَّة، فنُهِبَتْ كتبُهُ فيما نُهِبَ! فقَصَد مدينةَ حَمَاةَ واستوطنَها، ولسانُ حالِهِ يقول:

تَتَقَاذَفُ الأهوالُ بِيْ فكأنَّنِي ... وُلِّيتُ أَمْرَ مِساحَةِ الآفاقِ!

وزَوَّج ابنتَهُ من الحاجَةِ والضَّرُورةِ بغيرِ كُفْء! فرَحَل بها الزوجُ عن حَمَاةَ، وباعَها في بعضِ البلاد!! ولقي هو قبولاً في حَمَاةَ فاستَقرَّ بها، وأفاد الطلبةَ، وأُجرِيَ له راتبٌ وكان دُونَ الكفاف، فلم يزل يُكابِدُ الفقرَ إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وكان عالماً صالحاً وَرِعاً زاهداً، مشتغِلاً بما يَعنيه، صابراً على ما هو فيه، وصنَّف التصانيفَ الجميلة، في أنواع الأدبِ، وفسَّر القرآنَ الكريمَ تفسيراً جميلاً في مصنَّف سَمَّاه: «اليَنْبُوع»، وتَرَكَ من التآليف نحوَ ثلاثين كتاباً فيها الفريدُ والعجيبُ، وله شِعْرٌ حَسَنٌ، منه قوله ـ وكأنه يعني به نَفْسَهُ لكثرةِ ما نَزَلَ به من الخطوب رحمه الله تعالى ـ:

على قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تأتي خُطوبُهُ ... ويُعرَفُ عِندَ الصَّبْرِ فيما يُصيبُهُ
ومَنْ قَلَّ فيما يتَّقِيهِ آصطِبارُهُ ... فقَدْ قَلَّ فيما يَرتَجيهِ نَصِيبُهُ

٢٠٧ ـ وقال الحافظ الذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء»[2]، والتاجُ السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[3]، في ترجمة الكمالِ الأنباري المولود سنة ٥١٣، والمتوفى

(١) هي بقرب خَنْدَقِ قلعة حلب من جانب الغرب، بِلصقِ (جامع الحَيَّات)، وقد بَقِيَتْ أطلالاً! قبل خروجي من حلب سنة ١٣٨٥.

(٢) ٢١: ١١٣.

(٣) ٧: ١٥٥.

سنة ٥٧٧ رحمه الله تعالى: «الإمامُ القدوةُ شيخُ النحو كمالُ الدين أبو البركات عبدُ الرحمن بن محمد بن عُبَيد الله الأنباري، نزيلُ بغداد.

تفقَّهَ بالنِّظَامِيَّة في بغداد على أبي منصور الرزَّاز وغيره، وبَرَع في مذهب الشافعي، وقرأ الخِلافَ ــ أي الفقه المُقارَن ــ، وسَمِعَ الحديثَ بالأنبار من أبيه، وخليفة بنِ محفوظ، وببغداد من أبي منصور بن خَيْرُون، وعبدِ الوهاب الأنماطي، والقاضي أبي بكر محمدِ بن القاسم الشَّهْرَزُوري، وعِدَّة. وحدَّث. وأَعَادَ بالنِّظَامِيَّة ــ أي صار مُعِيداً ــ، ووعَظ.

ثم إنه تأدَّبَ بابنِ الجَوَالِيقي، وأبي السعادات ابن الشَّجَري، وشَرَح عِدَّة دواوين، وتصدَّر، وصار شيخَ العراق في الأدبِ غيرَ مُدافَع. وأَخَذَ عنه أئمةٌ، وكان إماماً كبيراً في النحو، ثقةً، عفيفاً، مُناظِراً، غزيرَ العلم، وَرِعاً، زاهداً، عابداً، تقياً، لا يَقبَلُ من أحد شيئاً، وكان خَشِنَ العَيْش، جَشْبَ المأكلِ والملبس ــ أي خَشِنَهُما ــ، لم يَتلبَّس من الدنيا بشيء، مَضَى على أسَدِّ طريقة. وسَرَد له ابنُ النجار تصانيفَ جَمَّة. وإليه كانت الرِّحلةُ من سائرِ الأقطار.

قال الموفَّقُ بنُ عبد اللطيف البغدادي تلميذُه: الكمالُ شيخُنا، لم أرَ في العُبَّادِ المنقطعين أقوى منه في طريقِهِ، ولا أصدَقَ منه في أُسلُوبِه، جِدٌّ محضٌ، لا يعتريه تصنُّع، ولا يَعرفُ الشُّرُورَ، ولا أحوالَ العالَم، كان له من أبيه دارٌ يَسكنُها، وحانوتٌ مقدارُ أُجرَتِها نِصفُ دينار في الشهر، يَقنَعُ به، ويشتري منه وَرَقاً، وسَيَّر له الخليفة المُستضِيء خَمْسَ مِئةِ دينار، فردَّها، فقالوا له: اجعَلْها لوَلَدِك، فقال: إن كنتُ خَلقتُهُ فأنا أرزقُه. وكان لا يُوقِدُ عليه ضوءاً، وتحته حَصِيرُ قَصَب وعليه ثوبٌ وعِمامةٌ من قُطن يَلْبَسُهما يومَ الجمعة، وكان لا يَخرج إلا للجمعة، ويَلْبَسُ في بيتِهِ ثوباً خَلَقاً. وله مِئةٌ وثلاثون مصنَّفاً، رحمه الله تعالى». ومنها كتابُهُ المشهور: «نزهةُ الأَلِبَّاء في طبقات الأدباء».

٢٠٨ ــ وقال القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان»[١]، في ترجمة ابنِ الدهان المَوْصِلي (عبد الله بن أسعد) الفقيهِ الشافعي المولود سنة ٥٢٢، والمتوفى سنة ٥٨١ رحمه الله تعالى: «كان فقيهاً فاضلاً أديباً، شاعِراً لطيفَ الشعرِ مَلِيحَ السَّبْك،

(١) ١: ٢٥٦.

وهو من أهل الموصل، ولما ضاقَتْ به الحالُ عزَمَ على قصد الصالح بن رُزِّيك وزير مصر، وعجَزَتْ قُدْرتُه عن استصحابِ زوجتِه، فكتَبَ إلى الشريف ضياءِ الدين بنِ عُبَيد الله الحُسَيني نقيبِ العلويين بالمَوْصِل هذه الأبيات:

وذاتِ شَجْوٍ أسالَ البَيْنُ عَبْرتَها ... كانت تُؤمِّلُ بالتفنيدِ إمساكي
لَجّتْ فلما رأتْني لا أُصِيخُ لها ... بَكَتْ فأقْرَحَ قلبي جَفْنُها الباكي
قالَتْ وقد رأتِ الأجمالَ مُحْدَجةً ... والبَيْنُ قد جَمَعَ المَشْكوَّ والشاكي
مَنْ لي إذا غِبتَ في ذا المَحْلِ قلتُ لها ... اللَّهُ وابنُ عُبَيد الله مولاكِ[1]
لا تَجزعي بانحباسِ الغَيْثِ عنكِ فقد ... سألتُ نَوْءَ الثُرَيَّا جُودَ مَغناكِ

فتكفّل الشريفُ المذكور لزوجتِه بجميع ما تحتاجُ إليه مدةَ غَيْبتِهِ عنها، ثم توجَّه إلى مصر، ومَدَح الصالحَ بنَ رُزِّيك، ثم تَقلَّبَتْ به الأحوال، وأقام بمدينة حمص وتوفي سنة ٥٨١ رحمه الله تعالى». ومات غريباً عن وطنِهِ وأهلِهِ ولسانُ حالِهِ يقول:

قد قَضَى اللَّهُ أن أموتَ غريباً ... في بلادٍ أُسَاقُ كُرْهاً إليها
في فؤادي مُحبّآتُ مَعَانٍ ... نَزَلَتْ آيةُ الحِجابِ عليها!

٢٠٩ ــ وقال الحافظ الذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء» و «معرفة القراء الكبار»[2] في ترجمة الإمام الشاطبي شيخ القُرَّاء في عصره:

«الشيخُ الإمامُ، العالمُ العاملُ، القُدوةُ، سيدُ القُرَّاء، أبو محمد وَأبو القاسِم القاسِمُ بن فِيْرُّه بنِ خَلَف الرُّعَيْني الأندلسي، الشاطبي، الضرير، ناظمُ «الشاطبيةِ» و «الرائيةِ» اللتينِ في القراءات والرسم. حَفِظَهما خَلْقٌ لا يُحصَون، وخَضَع لهما فحولُ الشعراء، وكبارُ البلغاء، وحُذَّاقُ القُرَّاء، فلقد أبدَعَ وأوجَزَ وسهَّلَ الصَّعْبَ.

ولد سنة ٥٣٨، وتَلَا ببلده بالسبع على أبي عبد الله بن أبي العاص النَّفْري، ورَحَل إلى بَلَنْسِيَة فقرأ القراءات على أبي الحسن بن هُذَيل، وعَرَض عليه ــ أي قرأ عليه ــ «التيسير» لأبي عَمْرو الداني من حفظِه، وسَمِعَ منه الكتب، وسَمِعَ من آخرين... وارتحل للحَجّ فسَمِعَ من أبي طاهر السِّلَفِي وغيره.

---

(١) هذا من تساهل الشعراء! وينبغي أن يقول: ثم ابنُ عُبَيد الله مولاكِ.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٢١ : ٢٦١ و «معرفة القراء الكبار» ٢ : ٥٧٣.

وكان يتوقَّدُ ذكاءً، له الباعُ الأطولُ في فنّ القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث، وله النظمُ الرائق، مع الوَرَع والتقوى والتألُّه والوقار. استوطن مصر وتصدَّرَ وشاع ذكرُهُ، وعَظُمَ شأنُه وبَعُدَ صِيتُه، انتهت إليه رياسةُ الإقراء، وقصَدَه الطَّلَبَةُ من النواحي، وتوفي بمصر سنة ٥٩٥.

قال أبو شامة: أخبرنا السَّخَاوِيُّ: أن سبَبَ انتقال الشاطبي من بلدِهِ أنه أُريدَ على أن يليَ الخِطابة، فاحتَجَّ بالحج، وتَرَكَ بلدَهُ ولم يَعُد إليه، تورُّعاً مما كانوا يُلزمون به الخطباء، من ذكرِهم الأمراءَ بأوصافٍ لم يَرَها سائغة، وصَبَر على فقر شديد».

٢١٠ ــ وجاء في «وفيات الأعيان»(١)، و«سِيَر أعلام النبلاء»(٢)، و«الفَلاَكَة والمفلوكون»(٣)، في ترجمة الإمام الجُزُولي إمام النحو أبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجُزُولي البَرْبَري المَرَّاكُشِي، المتوفى بمراكش سنة ٦٠٧ رحمه الله تعالى: كان إماماً في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقِهِ وغريبِهِ وشاذِّهِ.

حَجَّ ولازم العلامة عبد الله بنَ بَرِّي بمصر، وأتقَنَ عنه العربيةَ واللغة، وسَمِعَ «صحيح البخاري» من أبي محمد بن عُبَيد الله، ثم رجع إلى بلاد المغرب، وأقام بمدينة بِجَاية مدَّة، وتصدَّر بالمَرِيَّة وغيرها، وتخرَّج به أئمة وخلقٌ كثير، وكان إماماً لا يُجَارَى وعلامةً لا يُشَقُّ غبارُه في النحو، مع جودةِ التفهيم، وحُسنِ العبارة.

قال الذهبي: وقرأتُ بخط محمد بن عبد الجليل المُوْقَاني أن الجُزوليَّ قاسَى بمُدَّةِ مُقامِهِ بمصر كثيراً من الفقر، ولم يَدخل مدرسةً، وكان يَخرُجُ إلى الضِّيَاع يَؤمُّ بقومٍ، فيُحصِّلُ ما يُنفقُه، في غايةِ الصبر.

ورَجَع إلى المغرب فقيراً مُدْقِعاً، فلما وَصَل إلى المَرِيَّة أو نحوِها، رَهَن كتابَ ابن السرَّاج الذي قرأه على ابن بَرِّي وعليه خَطُّهُ! فأَنهى المُرتهِنُ أمرَهُ إلى الشيخ أبي العباس المَغْرِبي أحَدِ الزهاد بالمغرب، وكان يُصاحِبُ بني عبدِ المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان، فأمَرَ بإحضاره، وقدَّمَهُ وأحسَنَ إليه. انتهى.

---

(١) ٣: ٤٨٨.

(٢) ٢١: ٤٩٧.

(٣) ص ٩١.

٢١١ ــ وجاء في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»[1] للعلامة أحمد بابا التُّنْبُكْتي المالكي في ترجمة الفقيه الصالح المالكي (أبي محمد عبد العزيز بن محمد القَرَوِي الفَاسِي) المتوفى سنة ٧٥٠ رحمه الله تعالى:

«قال ابنُ الخطيب القُسَنْطِيني في «رحلتِهِ»: قال لي بعضُ الفقهاء: دَخلتُ على عبد العزيز وهو مُحْتَزِم في كِسائِه، وكُتُبُ الفقهِ مبسوطةٌ بين يديه، وأعْراقُهُ تَقطُرُ عليه، وكِساؤُه في غايةِ ما يكونُ من الوَسَخ! فقلتُ له: ارْفُقْ بنفسِك، واغسِلْ كِساءَك، فقال: لي سِتَّةَ أشهر نَرُومُ غَسْلَها وما وَجَدْتُ سبيلاً لذلك، من أجلِ هذا الشُّغل ــ يعني الانهماكَ في العلمِ وتحقيقِ مَسائِلِه ــ ، فتعجَّبتُ منه وانصرفتُ».

٢١٢ ــ وكان شيخنا العلامة النبيل محمد الخضر حُسَين التُّونسي ثم المصري، المولود سنة ١٢٩١ في تونس، والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ شيخاً للأزهر رحمه الله تعالى، أوَّلَ ما قَدِمَ إلى القاهرة، نَزَل في غرفةٍ بحَيِّ البَاطِنيَّة، وهو حيٌّ متواضِع للغاية، ثم اضطُرَّ إلى تركِ القاهرة، وسافَرَ إلى الإسكندرية لِيَعُودَ إلى دمشق، وبلَغَ سفرُهُ وعزمُهُ العلامةَ أحمدَ تِيْمُور باشا، فأَدركَ الشيخَ قبلَ سَفَرِه، وأعادَهُ إلى القاهرة، فعُيِّنَ مصحِّحاً في دار الكتبِ المصرية.

ثم انفرجَتْ الأَزْمَةُ عنه قليلاً قليلاً، فعُيِّنَ أستاذاً في كلية أصول الدين، ثم اتَّسَعَتْ الفُرْجَةُ قليلاً وارتَقَى الشيخ إلى مَقامِه، فعُيِّنَ شيخاً للأزهر، وهو أوَّلُ شيخ يُعيَّنُ لشِياخةِ الأَزهر من غيرِ المصريين مَنْبِتاً.

ولما كان في عُسْرِهِ ثم يُسرِهِ قَبْلَ أن يَصِيرَ شيخاً للأزهر بأزمانٍ، كتَبَ إلى شقيقِهِ الشيخ زين العابدين التونسي بدمشق: أحوالُ الغريب في مصر هي كرَسْمِ (مِصْر)، ضِيقٌ كضِيق الميم، ثم تَنْفَرِجُ كالصَّاد، ثم تكون السَّعَةُ كالراء. أفادني بهذا فيما كتبه إليَّ أخي وصديقي الأستاذ حسام الدين القدسي رحمه الله تعالى.

وأكتفي بهذا القدر في هذا الجانب، ثم أنتقِلُ إلى الجانب الرابع:

(١) ص ١٧٩.

الجانب الرابع
في أخبارهم في الجوع والعطشِ
في الهَوَاجِرِ: الأيامَ والساعات

والجوعُ ـ أو العطشُ ـ ألَمٌ جسماني، يَمنَعُ صاحبَهُ من راحة البال، وصفاءِ الخاطر، ودِقَّةِ التفكير، وهو أمْرٌ قَسْريٌّ لا اختيارَ للمرء فيه غالباً.

وهو يقَعُ لمثلِ هؤلاء العلماءِ أكثَرَ من غيرهم، لأنهم لحفظِ كرامتِهم، وشديدِ أَنَفَتِهم، وكراهتِهم المَهانةَ والانكسارَ للطلب، يَصبِرُون على الجوع، ولا يَطرحون أنفسَهم على الناس، كما أنهم لا يتمكنون من تحصيل المال لسدِّ الرَّمَق، لاشتغالهم بالعلم وتحصيلِهِ، كما وقع لأبي هريرة رضي الله عنه، الصحابيِّ الجليل، المتوفَّى سنةَ ٥٩، الذي أستهلُّ هذا الجانبَ بذكر حديثه، الذي كنتُ أشرتُ إليه في أول الجانب الثالث السابق[١].

٢١٣ ـ روى البخاري في «صحيحه»[٢]، في كتاب العلم في (بابِ حفظ العلم)، وفي أول كتاب البيوع[٣]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ الناسَ يقولون: أكثَرَ أبو هريرة من الحديثِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مِثلَ أحاديثهِ؟

ولولا آيتانِ في كتابِ الله ما حَدَّثتُ حديثاً، ثم يتلو: ﴿إنَّ الذين يَكتُمون ما أَنزَلْنا من البيِّنات والهُدَى مِن بَعْدِ ما بَيَّناهُ للنّاسِ في الكتابِ أولئك يَلعنُهُمُ اللَّهُ ويَلعنُهُمُ اللاعنون. إلا الذين تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيّنوا فأولئك أَتُوبُ عليهِمْ وأنا التوَّابُ الرحيم﴾[٤]. ثم يقول أبو هريرة:

---

(١) في الخبر ١٣٦.
(٢) ١ : ١٩٠.
(٣) ٤ : ٢٤٧.
(٤) من سورة البقرة الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠.

إن إخوانَنا من المهاجرين كان يَشغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواق[١]، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يَشغلُهم العملُ في أموالهم، وإنَّ أبا هريرة كان يَلزَمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لِشِبَعِ بَطْنِه، ويَحضُرُ ما لا يَحضُرُون ويَحفَظُ ما لا يحفظون». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[٢] عند شرح هذا الحديث: في هذا الحديث أنَّ التقللَ من الدنيا أمكَنُ لحفظِ العلم». انتهى.

وأسوق بعد هذا طَرَفاً من أخبار العلماء في شدائد الجوع فأقول:

٢١٤ ــ تَوارَى الإمامُ سفيانُ الثوري، المتقدمُ ذكره[٣]، من الخليفة العباسي المهدي، لكلمِ حق قالها[٤]، فأغضبت المهدي، فطلبه ليوقع به الأذى والعذاب، فاختَفَى حيثُ كان بمكة، وتوارى عن الناس، ولَقِيَهُ في تلك الأيام فقرٌ وضَنْكٌ شديدان! وهو على هذه الحال من الفاقةِ والقَلَق، بَعثَتْ إليه أختُه من الكوفة مع صاحِبِه أبي شهاب الحَنَّاط، بِجرابٍ فيه كَعْكٌ وخُشْكَنَانَج[٥]، قال المؤرخ النَّسابة ابنُ سعد، في كتابه «الطبقات الكبرى»[٦]، في ترجمةِ سفيان:

«قال أبو شهاب الحناط: بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب إلى سفيان وهو بمكة، فيه كعك وخشكنانج فقَدِمتُ مكة، فسألت عن سفيان، فقيل لي: إنه ربما يقعُدُ دُبُرَ الكعبة مما يلي بابَ الحَنّاطين، قال أبو شهاب: فأتيتُه هناك ــ وكان لي

---

(١) يعني بالصَّفْقِ في الأسواق: البيع والشراء، وذلك على عادة العرب في ذلك الزمن أن المُتَبَايِعَيْنِ إذا عَقَدَا عَقْداً بينهما، ضَرَب كلُّ واحد منهما كفَّه اليُمنى بكف صاحبه لإبرام البيع.

(٢) ١: ١٩٢.

(٣) في الخبر ١٦٣.

(٤) ذكرها ابن خلكان في ترجمة سفيان، في «الوفيات» ٢: ٣٨٧.

(٥) أي أرغفةٌ صغيرةٌ يابسة. ولفظُ (خُشْكَنَانَج) مُرَكَّبٌ من كلمتينِ فارسيتين، الأولى: (نانك) المقلوبة كافُها جيماً عند النطق العربي بها، ومعناها: الرغيفُ الصغير. والثانية: (خُشْك)، ومعناها: اليابسُ. أفادنيه شيخنا حبيبُ الرحمن الأعظمي حفظه الله تعالى. وفي «محيط أعظم» بالفارسية: «خُشْكَنَانَج: معرَّبٌ من خُشْك نَانَك، وهو خُبزٌ يُعمَلُ من دقيق البُرّ، ويُعجَنُ بزيتِ السِّمْسم». أي الشَّيْرَج.

(٦) ٦: ٣٧٢.

صديقاً ــ فوجدتُهُ مستلقِياً، فسلّمتُ عليه، فلم يُسائِلْني تلك المُساءَلة، ولم يُسلِّم عليَّ كما كنتُ أعرِفُ منه، فقلت له: إنَّ أختَك بَعَثَتْ إليك معي بجِرابٍ فيه كَعْكٌ وخُشْكَنَانَج، قال: فعَجِّلْ به عليَّ، واستَوَى جالساً!

فقلت: يا أبا عبد الله، أتيتُك وأنا صديقُك، فسلّمتُ عليك فلم تَرُدَّ عليَّ ذاك الردّ، فلما أخبرتُك أني أتيتك بجِرابِ كعكٍ، لا يُساوي شيئاً جَلستَ وكلَّمتني؟!

فقال: يا أبا شهاب، لا تَلُمني، فإنَّ هذه لي ثلاثَةُ أيامٍ لم أَذُق فيها ذَوَاقاً! قال أبو شهاب: فعَذَرْتُه».

٢١٥ ــ وقال ابن نُبَاتة المصري في «سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»[١]، وهو يترجم لإبراهيم بن سَيّار النظّام البصريّ المعتزلي، المولود سنة ١٨٥، والمتوفى سنة ٢٢١ عن ٣٦ سنة، أحَدِ أذكياء العالم، الذي قال فيه مُعاصِرُه الجاحظ ــ والجاحظُ هو مَنْ هو ــ: الأوائلُ يقولون: في كل ألفِ سَنةٍ رجلٌ لا نظيرَ له، فإنْ صحَّ ذلك فإبراهيمُ النّظّامُ من أولئك.

قال ابنُ نُباتة: «حَكَى الجاحظُ، قال: تجاذَبْتُ يوماً وإبراهيمُ النظَّامُ حديثَ الطِّيَرَة[٢]، فقال لي: أُخبرُك، إني جُعتُ حتى أكلتُ الطين! وما صِرتُ إلى ذلك حتى قَلَّبتُ قلبي[٣]، أتذكّرُ هل ثَمَّ رجلٌ أُصِيبُ عنده غَدَاءً أو عَشاءً؟! فما قَدَرْتُ عليه! وكان عليَّ جُبّةٌ وقميص، فبِعتُ القميص!

ثم قَصَدْتُ الأهواز[٤]، وما أعرِفُ بها أحداً، وما كان ذلك ناشئاً إلا عن الحَيْرَةِ والضَّجَر، فوافيتُ الفُرْضَة[٥] فلم أُصِب بها سفينة، فتطيَّرتُ من ذلك، ثم إني رأيتُ سفينةً في صَدْرِها خَرْقٌ وهَشْمٌ، فتطيَّرتُ أيضاً، فقلتُ للمَلَّاح: تَحمِلُني؟ قال: نعم، قلت: ما اسمُك؟ قال: (دَوَادَاذ) وهو بالفارسية اسمُ الشيطان، فتطيَّرتُ ورَكِبتُ معه!

---

(١) ص ٢٢٨، والجاحظ في كتاب «الحيوان» ٣: ٤٥١، وأضفتُ بعضَ الكلمات منه.

(٢) أي التشاؤمِ ببعض الأشياء أو الأشخاص أو الأزمان أو الأماكن، أصحيحٌ تأثيره أم باطل؟.

(٣) أي فكّرتُ كثيراً، والقلبُ: العقلُ.

(٤) الأهوازُ: بلدة شَرْقَ شمالِ البصرة، تَبْعُدُ عنها نحو ١٥٠ كيلومتر.

(٥) هي فُرجة من النهر تُركَبُ منها السُّفُن.

فلما قَرُبْتُ من الفُرضةِ صِحتُ: يا حَمَّال، ومعي لِحافٌ سَمَلٌ(١)، ومُضَرَّبةٌ خَلَق(٢)، وبعضُ ما لا بُدَّ لي منه، فكان أوَّلُ حَمَّال أجابني أعور! فقلتُ لبقَّار كان واقفاً: بكم تَكْرِي ثَوْرَكَ هذا إلى الخان؟ فلما أدناه مني إذا هو أعْضَبُ(٣)، فازددْتُ طِيَرةً إلى طِيَرة! وقلتُ في نفسي: الرجوعُ أسلَمُ، ثم ذَكَرْتُ حاجتي إلى أكلِ الطين! وقلتُ: من لي بالموتِ؟!!

فلما صِرتُ إلى الخان وأنا حائرٌ ما أصنَعُ، إذْ سَمِعتُ قَرْعَ باب البيت الذي أنا فيه، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ يُريدُك، فقلت: مَنْ أنا؟ فقال: إبراهيمُ بنُ سَيَّار النَّظَّام، فقلت ــ في نفسي ــ: هذا خَنَّاقٌ أو عدوٌّ أو رَسُولُ سُلطان!

ثم إني تحاملتُ وفَتَحتُ له الباب، فقال: أرسَلَني إليك إبراهيمُ بنُ عبد العزيز(٤)، ويقولُ لك: إنْ كُنّا اختَلَفْنَا في المَقَالة ــ أي في الرأيِ والمذهب ــ فإنّا نَرجِعُ بعدَ ذلك إلى حُقوقِ الأخلاقِ والحُرِيّة(٥)، وقد رأيتُك حيث مَرَرْتَ بي على حالٍ كَرِهتُها، وينبغي أن تكون نزَعَتْ بك حاجةٌ، ــ أي أخرجَتْكَ من بلدِك ــ فإن شِئتَ فأقِم بمكانِك مُدَّةَ شهرٍ أو شهرين، فعَسَى نَبعَثُ إليك ببعض ما يَكفيك زماناً من دَهْرِك، وإن اشتهيتَ الرجوعَ، فهذه ثلاثون دِيناراً فخُذْها وانصرِف، وأنت أحَقُّ من عَذَر.

قال: فوَرَدَ عليَّ أمرٌ أذهلَني، أمّا واحِدةٌ: فأنّي لم أكن مَلَكْتُ قبلُ في جميعِ دَهْري ثلاثين ديناراً(٦)، والثانيةُ: أنه لم يَطُل مُقامِي وغَيْبتي عن أهلي، والثالثةُ: ما تبيَّنَ لي من الطِّيَرةِ أنها باطل». انتهى.

---

(١) أي عتيق بالٍ.

(٢) أي باليةٌ أيضاً، والمضرَّبة: هي غطاء كاللِّحَاف، ذو طاقين مَخيطين خِياطةً كثيرة، بينهما قُطْنٌ ونحوُه.

(٣) الأعضَبُ: مكسورُ القَرْن، وكانوا يتطيرون به.

(٤) بحثتُ كثيراً لأقفَ على ترجمة هذا العالم الفاضل رحمه الله تعالى، فأُعرِّفَ به، فلم أقِف على ترجمته، فلعلَّ فاضلاً كريماً يُرشدني إليها، وجزاه الله خيراً.

(٥) أي إلى حقوق شَرَفِ النَّفْس والإنسانية.

(٦) لعلَّ هذا الإملاقَ الشديد، قد حَصَل للنَّظَّام قَبْلَ اتصالِهِ بجعفرِ بنِ يحيى البرمكي، =

قال عبد الفتاح: والرابعةُ ــ وقد فاتت النّظّامَ ــ وهي تَعدِلُ الثلاثةَ مجتمعةً عندي أو تَفُوقُها، وهي: ذاكَ النُّبْلُ النبيلُ، والفَهْمُ الأصيل، لحقوقِ الأخلاق والحُريّة والإنسانية، فلم تَمنع مُخالفةُ النظّامِ في المقالةِ والرأيِ والمذهبِ إبراهيمَ بن عبد العزيز: أن يُسعِفَه عند محنتِه وإملاقِه، وأن يَمُدَّ له يَدَ العون والمُروءَة والإنقاذ.

فتَبَاعُدُه منه كان لله تعالى، من أجل الاختلافِ في المقالةِ والرأي[١]، وصِلَتُه له من أجلِ رعايةِ حقوقِ الإنسانية والحُـرِّيَّـة، وهي لله تعالى أيضاً، وكلُّ ذلك من الإسلام، فانحرافُ النَّظّام في رأيه، لا يَمنَعُ من القيام بأداء حق المروءة إليه، فما أجمَلَ الفهمَ للشريعة وأحكامِها، وما أجمَلَ تنزيلَها مَنازلها في الرضا والغضب، والقُربِ والبُعد، والحُبِّ والكُره، مع الصديق والعَدُوّ: «لا وَكْسَ ولا شَطَط». ورحمةُ الله تعالى على ذاكَ الإنسان العالم النبيل، ما أعمَقَ إدراكَهُ للإسلام! ولْيَمُتْ كَمداً وحَنَقاً أولئك الجُهَّالُ المتفاقهون، والمتعالمون الفارغون.

٢١٦ ــ وجاء في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى[٢]، و«اختصارها» للنابلسي[٣]، في ترجمة تلميذِ الإمام أحمد (أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجُوْزَجاني)، المتوفى سنة ٢٥٩ رحمه الله تعالى:

= ففي كتاب «فضل الاعتزال» للقاضي عبد الجبار المعتزلي ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥، خَبَرٌ طريفٌ، جاء فيه أنَّ جعفراً أعطاهُ مُطْرَفاً، وأمَرَ أن يُحمَلَ معه، قال النَّظَّام: «فعَرَضْتُهُ في السُّوق فبِعتُهُ بألفِ دِينار». وفي ص ٢٨١ منه أيضاً: أنَّ عَلِيّاً الأَسْوَاري من أصحاب النَّظَّام، صَدَرَ إلى بغداد لِفَاقَةٍ لَحِقَتْهُ، فقال له النَّظَّام: ما جاء بك؟ فقال: الحاجةُ، فأعطاه ألفَ دينار». انتهى. فتأمَّل، والله تعالى أعلم.

(١) انظر ــ إذا شئت ــ ترجمةَ النَّظَّام وآراءَه ومقالاتِه، في كتاب «الفَرْق بين الفِرَق» للإمام عبد القاهر البغدادي ص ١٣١ ــ ١٥٠، وقد شرَحَها وبيَّن أن أكثر شيوخِ المعتزلة قد كفَّروه ومنهم خالُهُ أبو الهُذَيل العَلَّاف، و«المستصفَى من علم الأصول» للإمام الغزالي ٢: ٢٤٦، في مَبحَث (الباب الأول في إثبات القياس على منكريه).

(٢) ١: ٩٧.

(٣) ص ٥٩.

«قال أبو بكر الخلَّالُ: سمعتُ أبا زرعة الصغيرَ، يحكي عن إبراهيم بن يعقوب، قال: كان أحمدُ بنُ حنبل يُصَلِّي بعبد الرزاق، فسَهَا يوماً في صلاته، فسأله عبدُ الرزاق عنه ــ أي عن سَبَبِ السهو ــ؟ فأخبره أحمدُ أنه لم يَطعَم شيئاً منذ ثلاث!»[١].

٢١٧ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢]، و«سير أعلام النبلاء»[٣] في ترجمة الإمام (ابن المُقْرِىء محمد بن إبراهيم الأصبهاني)، المولود سنة ٢٨٥، والمتوفى سنة ٣٨١ رحمه الله تعالى:

«رُوِيَ عن أبي بكر بن علي قال[٤]: كان ابنُ المُقرِىء يقول: كنتُ أنا والطبرانيُّ وأبو الشيخ ــ ابنُ حَيَّان ــ بالمدينة، فضاق بنا الوقتُ ــ يعني فَراغَ أيديهم من النفقة ــ، فواصَلْنا ذلك اليومَ ــ أي صاموا ذلك اليومَ إلى صيامِ اليومِ الذي قبله! ــ.

فلما كان وقتُ العشاء، حَضَرْتُ القبرَ وقلت: يا رسول الله، الجُوع! فقال لي الطبراني: اجلِسْ! فإمَّا أَنْ يكونَ الرِّزقُ أَو الموتُ! فقُمتُ أنا وأبو الشَّيخ ــ أي قاما يُصلِّيان لله تعالى ــ، فحضَرَ البابَ عَلَوِيٌّ فَفَتَحْنا له، فإذا معه غلامانِ بقُفَّتينِ فيهما شيءٌ كثير، وقال: شكوتموني إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، رأيتُه في النوم فأَمَرَني بحَمْلِ شيءٍ إليكم».

٢١٨ ــ وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، في كتابه «ذيل طبقات الحنابلة»[٥]، في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي) الأنصاري

---

(١) الظاهرُ أن هذا وقع له في اليمن، حين رحل إلى عبد الرزاق، فسَمِعَ منه في صنعاء.

(٢) ٣: ٩٧٣.

(٣) ١٦: ٤٠٠ ــ ٤٠١.

(٤) لفظُ (رُوِيَ) يُشيرُ به المحدِّثون إلى ضعف الخبر، كما نبهتُ عليه في المقدمة.

(٥) ١: ١٩٦. وهذا الخبرُ ذكره الأميرُ أسامة بن مُنقِذ رحمه الله تعالى في كتابه «الاعتبار»، ص ١٧٨، وقال في إيراده: «حدثني الشيخُ العالم الحافظ أبو الخَطَّاب عُمَرُ بن محمد بن عبد الله بن مَعْمَر العُلَيْمي بدمشق، أوائل سنة اثنين وسبعين وخمس مئة، قال: حكى لي رجل ببغداد، عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي...»، وساقه بنحو يختلف عن اللفظ المذكور، وأَقْبَلُ منه.

البزَّاز، المعروفِ بقاضي المارستان، الحافظ المعمَّر، المولود سنة ٤٤٢، والمتوفى سنة ٥٣٥ ببغداد رحمه الله تعالى: «قال الشيخ الصالح أبو القاسم الخَزَّاز الصوفي البغدادي: سَمِعتُ القاضيَ أبا بكر محمدَ بنَ عبد الباقي بن محمد البزَّاز الأنصاريَّ يقول:

كنت مُجاوِراً بمكة حَرَسها الله تعالى، فأصابني يوماً من الأيام جُوعٌ شديد، لم أجد شيئاً أدفَعُ به عني الجوعَ، فوجدتُ كِيساً من إبرِيسَم مشدوداً بشُرَّابَةٍ من إبرِيسَم أيضاً، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي، فحَلَلتُهُ فوجدتُ فيه عِقْداً من لُؤْلُؤ لم أرَ مِثلَه.

فخرجتُ فإذا بشيخٍ يُنادِي عليه، ومعه خِرقة فيها خمسُ مئة دينارٍ، وهو يقول: هذا لمن يَرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ، فقلتُ: أنا محتاجٌ، وأنا جائع، فآخُذُ هذا الذهبَ فأنتفعُ به، وأرُدُّ عليه الكيس.

فقلتُ له: تَعالَ إليَّ، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي، فأعطاني عَلامَةَ الكيس، وعَلامَةَ الشُّرَّابة، وعَلامَةَ اللؤلؤ، وعَدَدَهُ، والخَيْطَ الذي هو مشدودٌ به، فأخرجتُهُ ودفعتُه إليه، فسلّم إليَّ خمسَ مئة دينار، فما أخذتُها، وقلتُ: يجبُ عليَّ أن أُعيدَهُ إليك، ولا آخُذَ له جزاءاً، فقال لي: لا بُدَّ أن تأخُذَ وألحَّ عليَّ كثيراً، فلم أقبَلْ ذلك منه، فتركني ومَضَى.

وأما ما كان مني، فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر المركبُ وغَرِقَ الناسُ، وهلكَتْ أموالُهم، وسَلِمتُ أنا على قطعةٍ من المركب، فبقيتُ مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب؟! فوَصَلْتُ إلى جزيرةٍ فيها قوم، فقَعدتُ في بعض المساجد، فسَمِعُوني أقرأ، فلم يَبق في تلك الجزيرةِ أحدٌ إلا جاء إليَّ وقال: علِّمني القرآن، فحصَلَ لي من أولئك القومِ شيءٌ كثير من المال.

ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتُها أقرأ فيها، فقالوا لي: تُحسِنُ تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علِّمنا الخط، فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب، فكنت أُعلِّمُهم، فحَصَل لي أيضاً من ذلك شيءٌ كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صَبِيّةٌ يتيمة، ولها شيءٌ من الدنيا، نريد أن تَتزوَّج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لا بُدَّ، وألزموني فأجبتُهم إلى ذلك.

فلما زَفُّوها إليَّ مَدَدْتُ عينيَّ أنظرُ إليها، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلّقاً في عُنُقِها، فما كان لي حينئذٍ شُغلٌ إلا النَّظَرَ إليه، فقالوا: يا شيخ! كَسَرْتَ قَلْبَ هذه اليتيمةِ من نظرِك إلى هذا العِقد، ولم تنظر إليها، فقَصَصتُ عليهم قِصَّةَ العِقد، فصاحوا وصرَّخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلَغَ إلى جميعِ أهل الجزيرة، فقلتُ: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخُ الذي أخَذَ منك العِقدَ أبو هذه الصَّبِيَّة، وكان يقول: ما وَجَدْتُ في الدنيا مُسْلِماً كهذا الذي رَدَّ عليَّ هذا العِقدَ[١]، وكان يدعو ويقولُ: اللهمَّ اجمَعْ بيني وبينه حتى أُزَوِّجَه بابنتي، والآنَ قد حَصَلَتْ، فبَقِيتُ معها مدةً، ورُزِقتُ منها وَلَدَيْنِ.

ثم إنها ماتت فوَرِثْتُ العِقدَ أنا ووَلَدَاي، ثم مات الوَلَدانِ، فحصَلَ العِقدُ لي، فبِعتُه بمئةِ ألفِ دينار[٢]، وهذا المالُ الذي تَرَوْنَهُ معي من بقايا ذلك المال».

٢١٩ ــ وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه «ذيل طبقات الحنابلة»[٣]، في ترجمة (الإمام الشيخ عبد القادر الجِيْلاني) شيخِ الطريقة المنسوبةِ إليه، المولودِ سنة ٤٧١، والمتوفى سنة ٥٦١ رحمه الله تعالى:

«قال الشيخ عبد القادر: وكنتُ أقتَاتُ بخُرْنُوب الشَّوْك، وقُمامةِ البَقْلِ ووَرَقِ الخَسّ من جانبِ النهرِ والشَّطّ، وبلغَتْ الضائقةُ في غلاءٍ نَزَل ببغداد إلى أن بَقِيتُ أياماً لم آكُل فيها طعاماً، بل كنتُ أتتبّعُ المنبوذاتِ أَطعَمُها.

---

(١) جاءت العبارة في كتاب «الاعتبار»: (ما وجدتُ في الدنيا مسلماً إلَّا كهذا...)، وجاءت في «ذيل طبقات الحنابلة»: (ما وجدت في الدنيا مسلماً إلَّا هذا...) فأثبتها كما ترى.

(٢) هكذا أورده الحافظُ ابنُ رجب الحنبلي ــ وغيرُهُ ــ وسَكَت عنه، فالله أعلم بحقيقة الحال، وسِيَاقَةُ الخبر في كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ هكذا: «... ثم استَوْلَى عليَّ الفِكرُ في العِقدِ ووُصُولِه إليَّ، فقال لي ــ أي أبوها ــ: فِيمَ تُفكِّرُ؟ فقلتُ: في العِقد الفُلَاني، فإني حججتُ في السنةِ الفلانية، فوجدتُهُ في الحَرَم أو عِقداً يُشبهُه، فصاح وقال: أنت الذي رددتَ علي العِقدَ؟ قلتُ: أنا ذاك، فقال: أبشِرْ، فإن الله غَفَر لي ولك، فإني دعوتُ الله سبحَانه في تلك الساعة أن يَغفِرَ لي ولك، وأن يرزقني مكافأتَك، وقد سَلَّمتُ إليك مالي وولدي، وما أظُنُّ أَجَلي إلا وقد اقتَرَب، ثم أوصَى إليَّ، ومات بعدَ مُدَيْدَةٍ قريبةٍ رحمه الله». انتهى.

(٣) ١: ٢٩٨.

فخرجتُ يوماً من شدةِ الجوع إلى الشطّ، لعلّي أجِدُ وَرَقَ الخَسّ أو البقلِ، أو غيرَ ذلك، فأتقوَّتَ به! فما ذَهبتُ إلى موضع إلا وغيري قد سَبَقني إليه! وإن وجدتُ أجِدُ الفقراءَ يتزاحمون عليه فأتركُهُ حُبّاً.

فرجَعْتُ أمشي وسط البلدِ فما أُدرِكُ منبوذاً إلا وقد سُبِقتُ إليه، حتى وَصَلتُ إلى مسجدِ ياسين بسوقِ الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعفُ، وعَجَزتُ عن التماسك، فدَخلتُ إليه وقَعدتُ في جانبٍ منه، وقد كدت أصافِحُ الموت! إذ دَخَل شابٌّ أَعْجَمِيٌّ، ومعه خُبزٌ صافٍ وشِوَاء، وجَلَس يأكل، فكنتُ أكادُ كلَّما رَفَع يدَهُ باللقمة أفتَحُ فمي من شدةِ الجوعِ، حتى أنكرتُ ذلك على نفسي، فقلتُ: ما هذا؟! وقلتُ: ما هاهنا إلا الله أو ما قَضَاهُ من الموت!

إذ التَفَتَ إليَّ العَجَميُّ فرآني فقال: بسم الله يا أخي، فأبَيْتُ فأقسَمَ عليَّ فبادَرَتْ نفسي فخالفتُها، فأقْسَمَ أيضاً فأجبتُه فأكلتُ متقاصِراً، فأخَذَ يسألني: ما شُغْلُك؟ ومن أين أنت؟ وبِمن تُعرَف؟ فقلتُ: أنا مُتَفَقِّهٌ من جِيلان، فقال: وأنا من جِيلان، فهل تَعرِفُ شابّاً جِيلانياً يُسمَّى عبدَ القادر، يُعرَفُ بسِبطِ أبي عبد الله الصَّوْمَعيِّ الزاهد؟ فقلت: أنا هو.

فاضطَرَب وتغيَّرَ وجهُهُ وقال: واللّهِ لقد وَصَلتُ إلى بغداد ومعي بقيَّةُ نفقةٍ لي، فسألتُ عنك فلم يُرشِدني أحد، ونَفِدَتْ نفقتي ولي ثلاثةُ أيام لا أجِدُ ثمنَ قُوْتي إلا ما كان لك معي، وقد حَلَّتْ لي الميتةُ، وأخذتُ من وديعتِك هذا الخبزَ والشِّوَاء، فكُلْ طَيِّباً، فإنما هو لك وأنا ضَيْفُك الآنَ بعدَ أن كنتَ ضيفي.

فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: أُمُّك وَجَّهَتْ لك معي ثمانيةَ دنانير، فاشتريتُ منها للاضطرار فأنا معتذِرٌ إليك، فسَكَّنْتُهُ وطَيَّبتُ نَفْسَه، ودفعتُ إليه باقيَ الطعام وشيئاً من الذهب برسمِ النفقة، فقَبِلَهُ وانصرف».

٢٢٠ ــ وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه «صيد الخاطر»[١]،

---

(١) ٢ : ٣٣٠ من طبعة الأستاذ الجليل الشيخ علي الطنطاوي.

متحدِّثاً عن الشدائد التي نالته في بَدْءِ طلبه للعلم، وعن مَحامِدِ صبرِهِ على تلك الشدائد:

«ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبي العلمَ، أَلقَى من الشدائدِ ما هو عندي أحلَى من العَسَل، لأجْلِ ما أطلُبُ وأرجو.

ـ ومَنْ تَـكُنِ العَلْياءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ فكلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ ـ

كنتُ في زمن الصِّبا آخُذُ معي أرغِفةً يابسة، فأخرجُ في طلب الحديث، وأقعُدُ على نهر عِيْسَى ـ في بغداد ـ، فلا أَقدِر على أكلها إلا عندَ الماء، فكلَّما أكلتُ لقمةً شَرِبتُ عليها، وعَيْنُ هِمَّتي لا تَرى إلا لذَّةَ تحصيلِ العلم، فأثمَرَ ذلك عندي أني عُرِفتُ بكثرةِ سماعي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحوالِهِ وآدابه، وأحوالِ أصحابِهِ وتابعيهم».

٢٢١ ـ وقال أيضاً[1]: «ولم أقنع بفَنّ واحد، بل كنتُ أسمَعُ الفقهَ والحديث، وأَتْبَعُ الزُّهّادَ، ثم قرأتُ اللغة، ولم أترك أحداً ممن يَروِي ويَعِظُ، ولا غريباً يَقدَمُ إلا وأَحضُرُه، وأتخيَّرُ الفضائلَ.

ولقد كنتُ أدورُ على المشايخ لسماع الحديث، فينقطِعُ نَفَسي من العَدْو لئلا أُسْبَق، وكنتُ أُصبحُ وليس لي مَأْكَل! وأُمسِي وليس لي مَأْكَل! ما أذلّني الله لمخلوقٍ قط، ولو شَرَحتُ أحوالي لطال الشرح».

٢٢٢ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[2]، في ترجمةِ شيخِهِ (علي بن مسعود بن نَفِيس المَوْصِلي ثم الحَلَبي نزيلِ دمشق)، المولود سنة ٦٣٤، والمتوفى سنة ٧٠٤ رحمه الله تعالى: «هو الشيخُ الإمامُ المحدِّث مُفِيدُ الجماعة، أبو الحسن، عليُّ بنُ مسعود بن نَفِيس المَوْصِلي، لَزِمتُهُ، وسَمِعتُ منه جملةً، وكان دَيِّناً خيِّراً مُتَصوِّفاً مُتَعفِّفاً، قرأ ما لا يُوصَفُ كثرةً، وحَصَّل أُصولاً كثيرة، كان يَجوعُ ويَبْتَاعُها، رحمه الله تعالى».

---

(١) من مقدمة الأستاذ الكبير الشيخ علي الطنطاوي أمتع الله به، لكتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص ٢٧.

(٢) ٤ : ١٥٠٠.

٢٢٣ ـ قلتُ: فهو على مذهبِ الإمام أبي محمد بن حزم الظاهري، المتقدّمِ ذكره[١]، الذي يقول رحمه الله تعالى في شأنِ غلاءِ العلمِ على طالبِهِ الصادق:

مَنْ لم يَرَ العِلْمَ أغْلَى ... مِن كُلِّ شيءٍ يُصابُ
فليسَ يُفلِحُ حتى ... يُحثى عليهِ التُّرابُ[٢]

٢٢٤ ـ وأختمُ الحديثَ عن هذا الجانب بخبر جُوع شيخنا الإمام (شيخ الإسلام مصطفى صبري)، آخِرِ شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، المولود سنة ١٢٨٦، والمتوفى سنة ١٣٧٣ رحمه الله تعالى، فإنه حين هاجَرَ بدِينِهِ من تركيا، بعد أن وقَفَ من طاغيتها: مصطفى كمال الموقفَ المشرِّفَ الشجاع، وترامَتْ به البلادُ ثم استقرَّ في مصر، على فاقَةٍ وإملاقٍ شديدين، مع التجمُّلِ في الظاهرِ والتجلُّدِ للشدائد، نَشرَتْ الصُّحفُ العالمية خبَرَ صِيَام (غاندي) زعيم الهند، احتجاجاً على سياسة الإنجليز في بلاده، فارْتَجَّتْ بهذا النبأ أرجاءُ العالم، واستُعظِمَ النبأُ كلَّ الاستعظام.

فأنشأ شيخُنا رحمه الله تعالى أبياتاً، قارَن فيها بين جُوعِه الدائمِ الصامتِ وجُوعِ غاندي العابر الصاخب، إذ تحدَّثَتْ عنه صحفُ العالم فقال[٣]:

صام شيخُ الهند الحديثةِ غَنْدي ... صَوْمَةَ المستميتِ والمتحدِّي

---

(١) في الخبر ١٢٩.

(٢) من «إنباه الرواة» للقِفْطِي ٣: ٢٣٣.

(٣) هذه الأبياتُ الآتيةُ وقفتُ عليها وِجادَةً مكتوبةً في ورقة بخط شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، بين أوراقه ودفاتره التي آلت إليَّ، غيرَ منسوبة لقائل، فقدَّرتُ أنها من نظم شيخنا الإمام مصطفى صبري شيخ الإسلام، يوازن فيها بين حالِه وحالِ غاندي، وكتبها صديقُه شيخنا الإمام الكوثري بخطه في بعض أوراقه استحساناً لها، فعزوتُها إلى شيخنا مصطفى صبري كما ترى.

ثم التقيتُ في بيروت سنة ١٣٩٤ بالأستاذ الفاضل إبراهيم نجل شيخنا مصطفى صبري، فذكرتُها له وحدَّثتُه بها، فلم يَعرفها عن والدِهِ، واستغرب ذلك، فإن رَجَح استغرابُه، فتكون هي من نَظْمِ شيخِنا الكوثري وكيلِ شيخ الإسلام، يحكي فيها حالَ نفسِه وحالَ غاندي كما ترَى، والله أعلم.

وأَراني على شَفَا الموتِ أُدعَى ... شيخَ الآسلام بَلْهَ هِندٍ وسِنْدِ
غيرَ أنَّ الصومين بينهما فَرْ ... قٌ عجيبٌ أُبدِيهِ من غير رَدِّ
صامَ مَعْ وُجْدِه وصُمتُ لِعُدمٍ ... دامَ مُذْ ضِفتُ مِصرَ كالضيفِ عندي
وغَدَا صومُه حديثَ جميع النَّا ... سِ، أمَّا صومي فأدريه وَحْدِي!
في سبيلِ الإسلام ما أنا لاقٍ ... ولَئِنْ مِتُّ فلْيَعِشْ هُوَ بعدي
فلْيَعِش رَغْمَ مُسْلِمي العَصْرِ دينٌ ... ضَيَّعُوهُ ولم يَفُوهُ بعَهْدِ
كان مِثلي يَموتُ جُوعاً ولا يُعْـ ... ـرَفُ لو كان شيخَهم شيخُ هندِ!

أما أخبارهم في العطش فهي غيرُ قليلة، أكتفي منها بما يلي:

٢٢٥ ــ قال الإمام أبو حاتم الرازي ــ المتقدّم ذكره[١] ــ في خبره الآتي قريباً[٢]، وهو يتحدَّثُ عن رحلتِه في طلبِ العلم وما لَقِيَه فيها من المشقَّاتِ والأهوال: «... ورَكِبنا البحرَ ثم مَشَيْنا، فكانت الريحُ في وجوهِنا، فبَقِينا في البحر ثلاثةَ أشهُر!! وضَاقَتْ بنا صُدُورُنا، وفَنِيَ ما كان معنا من الزاد، وبَقِيَتْ بقيَّةٌ، فخرجنا إلى البَرّ، فجعلنا نمشِي أياماً على البَرِّ، حتى فَنِيَ ما كان معنا من الزَّادِ والماء!

فمَشَيْنا يوماً وليلةً لم يأكُلْ أحدٌ مِنَّا شيئاً ولا شَرِبنا، واليومَ الثاني كمِثل، واليومَ الثالثَ، كلَّ يوم نمشِي إلى الليل، فإذا جاء المَساءُ صلَّينا وألقَيْنا بأنفسِنا حيث كنا، وقد ضَعُفَتْ أبدانُنا من الجُوع والعَطَش والعَيَاء، فلمَّا أصبحنا اليومَ الثالث جعلنا نمشي على قَدْرِ طاقتِنا، فسَقَط الشيخُ المَرْوَرُوْذِي مَغْشِيّاً عليه، فجِئنا نُحرِّكُه وهو لا يَعقِل، فتركناه!

ومَشَينا أنا وصاحبِي النَّيْسَابُوري قَدْرَ فَرْسَخٍ أو فَرْسَخَينِ، فضَعُفْتُ وسَقَطْتُ مَغْشِيّاً علي، ومَضَى صاحبِي وتَرَكني!

فلم يَزَلْ هو يَمْشِي، إذْ بَصُرَ من بعيدٍ قوماً قد قَرَّبُوا سفينَتَهم من البَرّ، ونَزَلوا على

---

(١) في الخبر ٢٥.
(٢) برقم ٢٣٧.

بِئْرِ مُوسَىَ صلى الله عليه وسلم، فلما عايَنَهم لَوَّحَ بثوبِه إليهم، فجاؤوه معهم الماءُ في إداوة، فسقَوْه وأَخذُوا بيده، فقال لهم: آلحَقُوا رفيقين لي قد أَلقَوْا بأنفسِهِمْ مَغْشِيًّاً عليهم، فما شَعَرتُ إلا برجلٍ يَصُبُّ الماءَ على وجهي، فَفَتَحتُ عينيَّ فقلتُ: آسْقِني، فصَبَّ من الماء في ركوةٍ أو مَشْرَبةٍ شيئاً يسيراً، فشربتُ ورَجعَتْ إليَّ نفسي، ولم يُرْوِني ذلك القَدْر، فقلتُ: آسْقِني فسَقَاني شيئاً يسيراً وأَخَذَ بيدي.

فقلتُ: وَرَائي شيخٌ مُلْقىً! قال: قد ذَهَبَ إلى ذاك جماعةٌ، فأَخَذ بيدي وأنا أمشِي أَجُرُّ رجلَيَّ، ويَسقِيني شيئاً بعدَ شيء، حتى إذا بَلغتُ إلى سفينتِهم، وأَتَوْا برفِيْقِي الثالثِ الشيخ، أَحسَنَ إلينا أهلُ السفينة، فبَقِينا أياماً حتى رَجعَتْ إلينا أنفسُنا.

ثم كتبوا كتاباً إلى مدينةٍ يُقالُ لها: رَايَة، إلى واليهم، وزوَّدُونا من الكَعْكِ والسَّوِيقِ والماءِ، فلم نَزل نمشِي حتى نَفِدَ ما كان مَعَنا من الماءِ والسَّوِيق والكعك!

فجعَلْنا نمشِي جِيَاعاً عِطاشاً على شَطِّ البحر، حتى وَقَعْنَا إلى سُلَحْفاةٍ قد رَمَى بها البحرُ مِثلَ التُّرْس، فعَمَدْنا إلى حَجَرٍ كبيرٍ فضَرَبْنا على ظهرها فانفَلَق ظهرُها، وإذا فيها مِثلُ صُفْرَةِ البيض، فأَخَذْنا من بعضِ الأصدافِ الملقاةِ على شَطِّ البحر، فجعلنا نغترِفُ من ذلك الأصفَرِ فنتحسَّاه، حتى سَكَن عنا الجُوعُ والعطش...». وسيأتي تمام هذا الخبر قريباً[1].

٢٢٦ ــ وقال الحافظ الذهبي في «العِبَر في خَبَر من غَبَر»[2]، وفي «ميزان الاعتدال»[3]: «وفي سنة ٢٨٣[4] تُوفِّيَ الحافظُ البارعُ الناقدُ أبو محمد عبدُ الرحمن بن يوسف بن خِراش المروزي ثم البغدادي، وكان حافظَ زمانِه، له الرحلةُ الواسعة ما بين

---

(١) برقم ٢٣٧.

(٢) ٢: ٧٠.

(٣) ٢: ٦٠٠.

(٤) وقع في «ميزان الاعتدال» ٢: ٦٠١، تأريخُ وفاة ابن خراش (سنة ثلاث وثلاثين ومئتين). انتهى. وهو تحريف، صوابه (سنة ثمان وثمانين ومئتين) كما في «تذكرة الحفاظ» ٢: ٦٨٥، و«العِبَر» ٢: ٧٠، و«لسان الميزان» لابن حجر ٣: ٤٤٥.

مصرَ إلى خراسان، قال بَكْرُ بنُ حَمْدَان المروزي: سمعتُ ابنَ خِراش يقول: شربتُ بَوْلِي في طلبِ هذا الشأن ــ يعني طلبَ الحديث ــ خَمْسَ مرَّات». انتهى[١].

وذلك أنه كان يمشي في الفَلَوات والقِفار، لتحصيلِ الحديث وتلقيهِ عن أهلِه، فينالُهُ العطشُ الشديد في طريقه!

٢٢٧ ــ رَوَى الحافظ الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»[٢]، والحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٣]، في ترجمة (الإمام محمد بن نصر المَرْوَزِي) المتقدم ذكره[٤]، رَوَيا بسندهما إلى أبي عَمْرٍو عثمان بن جعفر بن اللَّبَّان قال:

«حدثني محمد بن نصر المروزي، قال: خرجتُ من مصر ومعي جارية لي، فركبت البحر أُريدُ مكة، فغَرِقْتُ فذهَبَ مني ألْفَا جُزء! وصِرتُ إلى جزيرة أنا وجاريتي، فما رأينا فيها أحداً، وأخَذَني العطشُ فلم أقدِر على الماءِ وأُجهدتُ، فوضعتُ رأسي على فخذِ جاريتي مستسلِماً للموت، فإذا رجلٌ قد جاءني ومعه كُوز، فقال لي: اشْرَبْ، فأَخذتُ فشربتُ وسَقيتُ الجارية، ثم مَضَى، فما أدري من أين جاء ولا من أين ذهب؟».

وأنتقلُ بعد هذا إلى الجانب الخامس:

---

(١) قد يَستغرِبُ مُستغرِبٌ وقوع شُرْبِ الإنسانِ بولَ نفسِه!! ولكنه ليس بغريب، ويَقَعُ في بعض الأحيان لأفراد من الناس، في ظروف قاسية مُلْجِئة كما في هذا الخبر. ولْيقرأْ من يَستغربُ اليومَ ذلك: الفصلَ التاسعَ من كتاب «البوَّابة السَّوْدَاء» لأحمد رائف، الذي يَتحدَّثُ فيه عن حالِهِ في الحَبْسِ الوَحْشِيِّ الذي لقِيَهُ هو و(إخوانُه المسلمون) في سُجُونِ مصر! يقولُ في هذا الكتاب ص ١٢٠ «. . . وفي هذه الليلةِ المباركة! شَـرِبتُ البولَ لأوَّل مرةٍ في حياتي! ولم يكن طعمُه مُريحاً على أيةِ حال. . .».

(٢) ٣: ٣١٧.

(٣) ٢: ٦٥٢.

(٤) في الخبر ١٨٩.

الجانب الخامس
في أخبارهم في العُرْيِ الدائمِ
ونَفادِ المالِ والنفقاتِ في الغُرُبات

وإنَّ قارىءَ هذه الأخبارِ أو سامِعَها لَيعجَبُ من أولئك العلماءِ الأجلاء، كيف تحمَّلتْ قلوبُهم ما نَزَل بهم من الشدائد والرزايا، التي يتململ الإنسانُ عند سماعِها، ولكنها كانت قلوباً عامرةً بالإيمان بالله، راجيةً ما عنده من رضوانٍ وثواب، فهان عليها في سبيلِ مرضاتِهِ كلُّ صعبٍ وشديد.

إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ فالكلُّ هَيِّنٌ وكلُّ الذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

٢٢٨ ــ جاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي(١)، في ترجمة الحُجَّةِ الحافظ الإمام، شيخ الإسلام، وإمام أئمةِ الحديث الأعلام، في الحفظِ والدرايةِ والتثبُّتِ (أبي بِسْطام شُعْبَةَ بن الحجاج الواسِطي ثم البَصْري)، المولود سنة ٨٢، والمتوفى سنة ١٦٠ رحمه الله تعالى، الذي قال فيه الإمام أحمدُ: هو أمَّةٌ وَحْدَهُ في هذا الشأن، وقال فيه الشافعيُّ: لولا شُعبةُ ما عُرِفَ الحديثُ بالعراق، وقال فيه الأصمعيُّ: لم نَرَ أحداً قَطُّ أعلَمَ بالشعر من شعبة، حَكَى ما يلي:

«قال عبدُ الرحمن بن يونس المُسْتَمْلِي، سَمِعتُ سفيانَ بنَ عيينة يقول: سَمِعتُ شعبةَ يقول: من طَلَبَ الحديثَ أفلَسَ! بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بسَبْعةِ دنانير!». وقال الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «العلل ومعرفةِ الرجال»(٢): «أقام شعبةُ على الحكَم بن عُتَيْبَة ثمانيةَ عَشَرَ شَهْراً، حتى باعَ جُزُوعَ بيتِه!».

٢٢٩ ــ وجاء في «أخبار القضاة» لوكيع(٣)، وفي «تاريخ بغداد» للخطيب

(١) ١ : ١٩٥.
(٢) ١ : ٣٦٥.
(٣) ٣ : ١٦٩.

البغدادي[١]، في ترجمة القاضي أبي عبد الله شَرِيك بن عبد الله النخعي الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، المتقدم ذكره[٢]، ما يلي:

«قال عُمَرُ بن هَيَّاج بن سعيد الهَمْداني: كنتُ من صَحابَةِ شَرِيك، فأتيتُه يوماً ــ وهو في منزله ــ باكراً، فخَرَج إليَّ في فَرْوٍ ليس تحته قميص، عليه كِساء، فقلتُ له: قد أَضْحَيْتَ عن مجلس الحكم، فقال لي: غَسَلتُ ثيابي أَمْسِ فلم تَجِفّ، فأنا أنتظرُ جُفُوفَها، ٱجْلِس، فجَلَسْتُ.

فجعلنا نتذاكرُ بابَ العَبْدِ يَتزَوَّجُ بغير إذنِ مَوَالِيه، فقال: ما عندك فيه؟ ما تقول فيه؟ وكانت الخَيْزُران ــ أمّ الخليفة هارون الرشيد ــ قد وَجَّهَتْ رجلًا نصرانياً على الطِّراز بالكوفة[٣]، وكَتَبَتْ إلى موسى بن عيسى ــ أميرِ الكوفة ــ أن لا يَعصِيَ له أمراً، فكان مُطاعاً بالكوفة.

فخَرَجَ علينا ذلك اليومَ من زُقَاقٍ يَخْرُجُ إلى النَّخَع، معه جماعةٌ من أصحابه، عليه جُبَّةُ خَزٍّ وطَيْلَسَانٌ، على بِرْذَونٍ فارِه[٤]، وإذا رجلٌ بين يديه مكتوفٌ وهو يقول: واغَوْثا بالله، أنا بالله ثم بالقاضي، وإذا آثارُ سِياطٍ في ظهره، فسلَّم على القاضي شَرِيك وجَلَس إلى جانبه.

فقال له الرجلُ المضروبُ: أنا بالله ثم بك، أصلحك الله، أنا رجل أعمَلُ الوَشْيَ، وكِراءُ مِثْلي مِئَةُ ــ درهمٍ ــ في الشهر، أخَذَني هذا مُذْ أربعةِ أشهر، فاحتَبَسني في طِراز، يُجرِي عليَّ القُوتَ، ولي عِيالٌ قد ضاعوا، فأَفْلَتُّ اليومَ منه، فلَحِقَني ففعَل بظهري ما تَرى.

---

(١) ٩: ٢٨٨.

(٢) في الخبر ١٦٥.

(٣) جاء في «لسان العرب» ٥: ٣٦٨، في (طرز): «الطِّرَازُ: عَلَمُ الثوب، فارسيٌّ معرَّب، وقد طرَّزَ ثوبَه فهو مطرَّز. والطِّرَازُ: ما يُنسَجُ من الثياب للسلطان، فارسي، وقال الليث: الطِّرازُ موضعٌ معروف، وهو الموضع الذي تُنسَجُ فيه الثيابُ الجياد». انتهى. والمعنى الأول: ما يُنسَجُ من الثياب للسلطان، هو المرادُ هنا، والمعنى الثاني: موضعٌ معروف تُنسَجُ فيه الثيابُ الجياد، هو المرادُ فيما يأتي، كما سيتضح من سِياقةِ الخبر قريباً.

(٤) البِرْذَوْنَ: البَغْلُ. وفارِهٌ: جميل.

فقال شَرِيك: قُمْ يا نصرانيُّ فاجْلِسْ مع خَصْمِك، فقال: أصلحك الله يا أبا عبد الله، هذا مِن خَدَمِ السيدة، فمُرْ به إلى الحَبْس، قال: قُمْ ويلَكَ فاجلِسْ معَهُ كما يُقالُ لك، فقام فجلَسَ معه. فقال شريك: ما هذه الآثارُ التي بظهر هذا الرجل؟ مَنْ أثَّرَها به؟ قال: أصلح الله القاضي، إنما ضَرَبْتُه أسواطاً بيدي، وهو يَستحقُّ أكثَرَ من هذا، مُرْ به إلى الحَبْس.

فألقى شريكٌ كِسَاءَهُ ودَخَل دارَه فأَخرَج سَوْطاً رَبَذِيًّا[1]، ثم ضَرَب بيدِهِ إلى مَجامع ثوب النصراني، وقال للرجل: انطلِقْ إلى أهلك، ثم رَفَع السَّوطَ فجعَلَ يَضربُ به النصرانيَّ، وهو يقول: يا طَبَجِيُّ[2]، قَدِّمَنَّ قَفَا جَمَل[3]، لا تَضرِبُ واللّٰهِ المسلمَ بعدَها أبداً.

فهمَّ أعوانُهُ أن يُخلِّصوه من يديه، فقال: مَنْ هاهنا من فِتْيَان الحيّ؟ خُذوا هؤلاء فاذهبوا بهم إلى الحبس، فهرَبَ القومُ جميعاً، وأَفردوا النصرانيَّ فضَرَبه أسواطاً، فجعل النصرانيُّ يَعصِرُ عينيه ويَبكي ويقولُ له: ستَعْلَم!

فألقى السوطَ من يدِهِ في الدِّهْلِيز وقال: يا أبا حفص، ما تقولُ في العَبْدِ يَتزوَّجُ بغيرِ إذنِ مَوَاليه؟ وأَخَذ فيما كنا فيه كأنه لم يَصنع شيئاً.

وقام النصراني إلى البِرْذَوْن ليَركبَه فاستعصَى عليه، ولم يكن له من يأخُذُ بركابه، فجعَلَ يَضرِبُ البِرْذَون، فقال له شريك: ارفُقْ به ويلَكَ فإنه أطوَعُ لله منك، فمَضَى، فقال لي شريك: خُذْ بنا فيما كنا فيه، قلتُ: ما لنا ولذا؟ قد واللّٰهِ فعلتَ اليومَ فَعلةً

---

(١) هو السَّوْطُ يكونُ له سيُور من جلد في رأسه، نِسبةً إلى الرَّبَذَة، وهي عذَبَةُ السوطَ، ويكونُ الضربُ به أشدَّ إيلاماً.

(٢) في «القاموس» و«تاج العروس» في (طبج): «طَبِجَ كفَرِحَ طَبَجاً: حَمُقَ، وهو أطبَجُ أي أحمق، والطَّبْجُ بفتح فسكون: استحكامُ الحماقة». فلفظُ (الطبجي) يجوز فيه (الطَّبَجيُّ) بفتحُ الباء نسبة إلى المصدر (الطَّبَج)، وتسكينُها (الطَّبْجِيُّ) نسبة إلى الاسم وهو استحكامُ الحماقة. ووقع في «تاريخ بغداد»: (يا صبحي)، وهو تحريف.

(٣) يَصفُهُ بغلظ الجسم وعَرْض القَفَا الذي يَضرِبُهُ عليه. والعبارة في «تاريخ بغداد»: (قد مر قفا جمل)، وفي «أخبار القضاة»: (قدمن فاجمل)، فصوَّبتُها كما ترى. ويُحتمل على بُعْد أن تكون (قَدِّمَنَّ فاحمِلْ)، أي قَرِّبْ فتحمَّلْ الضرب، ويُبعِدُهُ لفظُ (جمل) بنقط الجيم في الكتابين.

ستكونُ لها عاقبةٌ مكروهة، قال: اسكُتْ، أعِزَّ أَمْرَ اللَّهِ يُعِزَّك الله، خُذْ بنا فيما نحن فيه.

قال: وذهب النصراني إلى موسى بن عيسى ــ أمير الكوفة ــ فدخل عليه، فقال: من فَعَل هذا بك؟ وغَضِبَ الأعوانُ وصاحِبُ الشُّرَط، فقال: شريكٌ فَعَل بي كيتَ وكيت! قال: لا والله ما أتَعرَّضُ لشريك، فمَضَى النصرانيُّ إلى بغداد فما رَجَع».

٢٣٠ ــ وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[1]، في ترجمة (زيد بن الحُبَابِ الخُرَاساني) ثم الكوفي، المولود في حدودِ سنة ١٣٠، والمتوفى سنة ٢٠٣ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«الإمامُ الحافظُ الثقةُ الربَّانيُّ، أبو الحسين العُكْلِي الخُرَاساني، ثم الكوفي، الزاهد، جَالَ في طلبِ العلم من مَرْوِ الشَّاهِجَان ــ من أقصَى المشرِق ــ وإلى مِصْر، حتى قيل: إنه دَخَل إلى الأندلس.

حدَّثَ عنه أحمدُ بنُ حنبل وقالَ: صاحبُ حديثٍ كيِّسٌ، قد رَحَل إلى مصر وخراسانَ في الحديث، ما كان أصبَرَهُ على الفقر؟! كتبتُ عنه بالكوفة وهاهنا ــ يعني: بغداد ــ ، وقال عليُّ بن حَرْب: أتينا زيدَ بنَ الحُبَاب، فلم يكن له ثوبٌ يَخرُجُ فيه إلينا، فجعَلَ البابَ بيننا وبينَهُ حاجزاً!! وحَدَّثَنا من وَرَائِهِ رَحِمَهُ الله». انتهى.

قال أبو العَتَاهِيَةِ رحمه الله تعالى:

إذا أَبْقَتْ الدُّنيا على المَرْءِ دِيْنَهُ ... فما فاتَهُ منها فليس بضَائرِ

٢٣١ ــ وجاء في «المنهج الأحمد» لأبي اليُمن العُلَيمي الحنبلي[2]، في ترجمة (الإمام أحمد): «خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق، بصنعاءِ اليَمَن سنةَ سبعٍ وتسعين ومِئة، ورافَقَ يحيى بنَ معين ــ في هذه الرحلة ــ .

قال يحيى: لمَّا خرجنا إلى عبد الرزاق إلى اليَمَن، حَجَجْنا، فبينا أنا بالطوافِ إذا بعبدِ الرزاق في الطواف، فسلَّمتُ عليه وقلتُ له: هذا أحمدُ بنُ حنبل أخوك،

---

(١) ٩: ٣٩٣.

(٢) ١: ٨.

فقال: حيَّاه اللَّهُ وثَبَّته، فإنه بَلَغني عنه كلُّ جميل، فقلتُ لأحمد: قد قرَّبَ الله خُطَانا، ووفَّرَ علينا النفقة، وأراحنا من مسيرةِ شهر، فقال أحمد: إني نويتُ ببغداد أن أسمَعَ من عبد الرزاق بصنعاءِ، واللَّهِ لا غَيَّرتُ نِيّتي.

قال يحيى: فلمَّا خرجنا إلى صنعاء، نَفِدَتْ نفقةُ أحمد، فعَرَض علينا عبدُ الرزاق دراهمَ كثيرةً فلم يَقبلها، فقال له: اَقْبَلْهَا على وجهِ القَرْضِ فأَبَى، وعرَضْنا عليه ــ أي على أحمد ــ نفقاتِنا فلم يَقبل، فاطّلعنا عليه وإذا به يَعمَلُ التِّكَكَ ويُفطِرُ على ثمنِها».

٢٣٢ ــ ثم قال العُلَيمي[(١)]: «ولما كان أحمدُ باليمن رَهَنَ سَطْلاً عند بَقَّال بحضورِ سُليمان بن داود الشاذَكُوني[(٢)]، وأخَذَ منه ما يَتَقوَّتُ به، ثم جاءه بفَكاكِه، فأخرجَ إليه سَطْلين، فقال: أيُّهما سَطْلُك فخذه، فقال: قد اشتَبَه علي، أنت في حِل من السّطْل وفَكاكِه، فقال الشاذَكُوني للبقّال: أخرجتَ سطلين إلى رجل من أهل الورع، والسُّطُولُ تتشابه، فقال: والله إنه لسطلُه بعينه، وإنما أردتُ امتحانَه».

٢٣٣ ــ ونَقَل القاضي ابنُ أبي يَعْلَى في «طبقات الحنابلة»[(٣)]، في ترجمة (عبد الرزاق بن همّام الصنعاني) شيخ الإمام أحمد، وابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»[(٤)]: «أنَّ عبدَ الرزاق ذكَرَ أحمدَ بن حنبل فدمعت عيناه، ثم قال: قَدِمَ علينا فأقام هاهنا سنتين إلا شيئاً.

وبلَغَني أن نَفَقَتَهُ نَفِدَتْ، فأَخذتُ بيده فأقمتُهُ خَلْفَ الباب، وأشار إلى بابه، وما معي ومعه أَحد، فقلتُ: إنه لا يَجتمعُ عندنا الدنانير، وإذا بعنا الغَلَّةَ شَغَلناها في شيء، وقد وَجَدْتُ عند النساءِ عشرةَ دنانير فخُذْها، فأرجو أن لا تُنفِقَها حتى يَتهيَّأ عندنا شيء،

---

(١) ١: ١٤.

(٢) هكذا الصواب: سُلَيمان بن داود...، كما جاء في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ١: ١٦٣، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ٢٥٩، و«البداية والنهاية» لابن كثير ١٠: ٣٢٨، ووقَعَ في «المنهج الأحمد» للعُلَيمي: (أحمد بـن داود)، وهو تحريف فاجتنبه.

(٣) ١: ٢٠٩.

(٤) ص ٢٢٦.

قال: فقال لي أحمد: يا أبا بكر، لو قَبِلتُ شيئاً من الناس قَبِلتُ منك».

ثم نقل ابن الجوزي «عن إسحاق بن راهويه، قال: لمَّا خرج أحمدُ إلى عبد الرزاق انقطعَتْ به النفقة، فأكْرَى نفسَهُ من بعضِ الجَمَّالين إلى أن وافَى صنعاء، وقد كان أصحابُه عَرَضوا عليه المواساةَ فلم يَقبل من أحدٍ شيئاً.

وقال أحمدُ بن سِنَان الواسطيُّ: بلغني أنَّ أحمد رَهَن نَعْلَهُ عند خباز على طعامٍ أخَذَهُ منه، عند خروجِهِ من اليمن». انتهى. ونحوُ هذا في «الحلية» لأبي نعيم[١].

٢٣٤ ــ وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»[٢]، وهو يتَحدَّثُ عن الشدائد التي لَقِيَها الإمامُ أحمدُ في خِلال رحلته إلى اليمن، وإقامتِهِ فيه لتحصيلِ العلم والحديث: «وسُرِقَتْ ثِيابُه وهو باليَمَن، فجَلَس في بيتِهِ ورَدَّ عليه البابَ، وفقَدَهُ أصحابُه، فجاؤوا إليه فسألوه فأخبرَهُم، فعَرَضوا عليه ذَهَباً فلم يقبله، ولم يأخذ منهم إلا دِيناراً واحداً، ليكتبَ لهم به ــ أي أخَذَ الدينارَ على أن يكون أُجرةً لما يَنسخُه لهم من الكتب ــ ، فكتَبَ لهم بالأَجْر، رحمه الله تعالى».

٢٣٥ ــ وحكى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»[٣]، في ترجمة الإمام البخاري المتقدم ذكره[٤]، قال: «قال عُمَرُ بنُ حفص الأشقَرُ: إنهم فقدوا البخاريَّ أياماً من كتابةِ الحديث بالبصرة، قال: فطلبناه فوجدناه في بيتٍ وهو عُرْيان، وقد نَفِدَ ما عنده ولم يَبقَ معه شيء، فاجتمعنا وجَمَعْنا له الدراهمَ حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه، ثم اندفَعَ مَعَنا في كتابة الحديث».

٢٣٦ ــ وحكى التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٥]، في ترجمة الإمام (البخاري)، والحافظ ابن حجر في مقدمة «فتح الباري» المسماة: «هدي

---

(١) ٨: ١٧٤ ــ ١٧٥.
(٢) ١٠: ٣٢٩.
(٣) ٢: ١٣.
(٤) في الخبر ٩٣.
(٥) ٢: ٢٢٧.

الساري»[١]، قال: «قال وَرَّاقُ البخاري محمدُ بنُ أبي حاتم: سمعتُه يقول: خرجتُ إلى آدمَ بنِ أبي إياس ــ في عَسْقَلَان ــ، فتأخَّرَتْ نفقتي حتى جعلتُ أتناوَلُ حشيشَ الأرض، ولا أُخبِرُ بذلك أحداً، فلما كان اليومُ الثالثُ أتاني رجلٌ لا أعرفه، فأعطاني صُرَّةً فيها دنانير وقال: أَنفِقْ على نفسِك».

٢٣٧ ــ وقال الحافظ الإمام ابنُ أبي حاتم الرازي، في كتابه «تقدمة الجرح والتعديل»[٢]، في ترجمة والده (الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي)، المتقدم ذكره[٣]: (باب ما لَقِيَ أبي من المُقاساةِ في طلبِ العلم من الشدة): «سمعتُ أبي يقول: بَقِيتُ بالبصرة في سنةِ أربعَ عَشْرَةَ ومئتين: ثمانيةَ أشهر، وكان في نفسي أن أُقيمَ سنة، فانقطَعَتْ نفقتي، فجعلتُ أبيعُ ثيابَ بَدَني شيئاً بعد شيء! حتى بَقِيتُ بلا نفقة! ومَضَيتُ أطوفُ مع صديقٍ لي إلى المَشْيَخَة، وأَسمَعُ منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ، فجعلتُ أشرب الماء من الجوع!

ثم أصبحتُ من الغَدِ وغَدَا عليَّ رفيقي، فجعلتُ أطوفُ معه في سَماعِ الحديثِ على جُوع شديد، فانصرف عني وانصرفتُ جائعاً، فلما كان من الغَدِ غَدَا عليَّ فقال: مُرَّ بنا إلى المشايخ، فقلتُ: أنا ضعيف لا يمكنني، قال: ما ضَعْفُك؟ قلت: لا أكتُمُك أمري، قد مَضَى يومانِ ما طَعِمْتُ فيهما شيئاً، فقال لي: قد بَقِيَ معي دينار، فأنا أُواسِيك بنصفِه، ونجعل النصف الآخر في الكِراء، فخرجنا من البصرة، وقبضتُ منه النصفَ دينار».

ثم قال ابنُ أبي حاتم: «سمعتُ أبي يقول: لما خرجنا من المدينة من عندِ داود الجعفري، صِرنا إلى الجار[٤]، وركبنا البحر، وكنا ثلاثةَ أنفس: أبو زهير المَرْوَرُوذِيُّ شيخٌ، وآخَرُ نيسابوريٌّ.

---

(١) ٢ : ١٩٥.

(٢) ص ٣٦٣.

(٣) في الخبر ٢٥ و ٢٢٥.

(٤) في «القاموس» الجارُ موضعٌ بينه وبين المدينةِ الشريفةِ يومٌ وليلة». انتهى. وفي «معجم البلدان» و«مَراصد الاطِّلاع»: «الجارُ مدينةٌ على بَحْرِ القُلْزُم ــ هو البحر الأحمر ــ، بينها وبين =

ولما كنا في البحر احتَلمتُ، فأصبحتُ وأخبرتُ أصحابي بذلك، فقالوا لي: اغمِسْ نفسَك في البحر، قلت: إني لا أُحسِنُ أن أَسْبَح، فقالوا: إنا نَشُدُّ فيك حَبْلاً ونَدْلُوك في الماء، فشَدُّوا فيَّ حبلاً وأرسلوني في الماء، وأنا في الماء أُريدُ إسباغَ الوضوء، فلما توضَّأتُ قلتُ لهم: أرسلوني قليلاً، فأرسلوني، فغَمَسْتُ نفسي في الماء فقلتُ: ارفعوني فرفعوني.

وركبنا البحرَ ثم مَشَيْنا فكانت الريحُ في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثةَ أشهر! وضاقت بنا صدورُنا، وفنِيَ ما كان معنا من الزاد، وبقيَتْ بقية، فخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشي أياماً على البر، حتى فَنِيَ ما كان معنا من الزادِ والماء!.

فمَشَيْنا يوماً وليلة لم يأكل أحدٌ منا شيئاً ولا شَرِبنا، واليومَ الثاني كمِثل، واليومَ الثالث، كلَّ يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساءُ صَلّينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضَعُفَتْ أبدانُنا من الجوع والعطش والعَيَاء، فلما أصبحنا اليومَ الثالث جعلنا نمشي على قَدْرِ طاقتنا، فسقَطَ الشيخُ المَرْوَرُوذيُّ مغشياً عليه، فجئنا نُحرِّكُهُ وهو لا يَعقِل، فتركناه!

ومَشَيْنا أنا وصاحبي النيسابوريُّ قَدْرَ فَرْسَخٍ أو فرسخين[1]، فضَعُفتُ وسَقَطتُ مَغْشِيّاً علي، ومَضَى صاحبي وتَرَكني!

فلم يَزَلْ هو يمشي إذْ بَصُرَ من بعيدٍ قوماً قد قَرَّبوا سفينَتَهم من البَرّ، ونَزَلُوا على بِئْرِ موسى صلى الله عليه وسلم، فلما عايَنَهُم لَوَّحَ بثوبِهِ إليهم، فجاؤوه معهم الماءُ في إداوَةٍ، فسَقَوْه وأخذوا بيده، فقال لهم: آلحقُوا رفيقينِ لي قد أَلقَوْا بأنفسِهم مَغْشِيّاً عليهم، فما شَعرتُ إلا برجلٍ يَصُبُّ الماءَ على وجهي، ففتحتُ عينيَّ فقلتُ: آسْقِني، فصَبَّ من

= المدينةِ يومٌ وليلة، وبينها وبين أَيْلَة نحوٌ من عَشْر مراحل، وإلى ساحِلِ الجُحْفَةِ نحوُ ثلاثِ مراحل، وهي فُرْضَةٌ ــ مَرْفَأٌ ــ لأهل المدينة، تَرْفَأُ إليها السُّفُنُ من أرضِ الحَبَشَةِ ومصرَ وعَدَنٍ ونَجْد. ويُنسَبُ إليها جماعةٌ من المحدِّثين، منهم...».

(١) الفرسخ بمشي القدم ساعة ونصف، وهو يزيد على خمس كيلومترات. وتقدم إيضاحه بأتم من هذا تعليقاً في الخبر ٢٥.

الماءِ في ركوةٍ أو مَشرَبةٍ شيئاً يسيراً، فشَربتُ ورَجَعَتْ إليَّ نفسي، ولم يُرْوِني ذلك القَدْرُ، فقلتُ: آسْقِني فسَقَاني شيئاً يسيراً وأخَذَ بيدي.

فقلتُ: وَرَائي شيخٌ مُلْقىً! قال: قد ذَهَبَ إلى ذاك جماعةٌ، فأخَذَ بيدي وأنا أمشِي أجُرُّ رِجْلَيَّ، ويَسقِيني شيئاً بعدَ شيء، حتى إذا بَلغتُ إلى سفينتِهم، وأتَوْا برفيقي الثالثِ الشيخ، أَحسَنَ إلينا أهلُ السفينة، فبَقِينا أياماً حتى رَجَعَتْ إلينا أنفسُنا.

ثم كتبوا كتاباً إلى مدينةٍ يُقالُ لها: راية[١]، إلى واليهم، وزوَّدُونا من الكَعْكِ والسّويقِ والماء، فلم نَزَلْ نمشي حتى نَفِدَ ما كان معنا من الماء والسّويق والكعك! فجعلنا نمشي جِياعاً عِطاشاً على شَطِّ البحر، حتى وقعنا إلى سُلَحْفاةٍ قد رَمَى بها البحرُ مِثلَ التُّرْس، فعَمَدْنا إلى حَجَرٍ كبيرٍ فضَرَبْنا على ظهرها فانفلَقَ ظهرُها، وإذا فيها مِثْلُ صُفْرَةِ البَيْض، فأخذنا من بعضِ الأَصدافِ الملقاةِ على شَطِّ البحر، فجعلنا نغترِفُ من ذلك الأصفرِ فنتحَسَّاهُ، حتى سَكَن عنا الجُوعُ والعطش.

ثم مررنا وتحمَّلْنا حتى دخلنا مدينةَ الراية، وأوصَلْنا الكتابَ إلى عامِلِها، فأنزلَنا في داره، وأحسَنَ إلينا، وكان يُقدِّمُ إلينا كلَّ يوم القَرَع، ويقولُ لخادِمِه: هَـاتي لهم اليَقْطِينَ المبارك، فقدَّمَ إلينا من ذلك اليقطينِ مع الخبزِ أياماً، فقال واحدٌ منا بالفارسية: ألا تَدْعُو ــ لنا ــ باللَّحْم المشؤوم؟! وجعَلَ يُسمِعُ الرجلَ صاحِبَ الدار، فقال: أنا أُحسِنُ الفارسية، فإنَّ جَدَّتي كانت هَرَوِيَّةً، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثم خَرَجْنا من هناك وزوَّدَنا إلى أن بلغنا مصر».

٢٣٨ ــ وقال الحافظ الذهبي في «العِبَر»[٢]، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»[٣]، في ترجمة (يعقوب بن سفيان الفارسي الفَسَوِي الحافظ) المتقدم ذكره[٤]، «قال أبو إسحاق بنُ حمزة، عن أبيه، قال:

---

(١) هي راية القُلْزُم، كُوْرَةٌ من كُوَر مصر القِبْلِية، أي الجنوبية. كما في «معجم البلدان».
(٢) ٢: ٥٨.
(٣) ١١: ٣٨٦.
(٤) في الخبر ٢٦.

«قال لي يعقوبُ بنُ سفيان: أقمتُ في الرحلةِ ثلاثين سنة، وكنتُ في رحلتي فقَلَّتْ نفقتي! فكنتُ أُدمِنُ الكتابة ليلاً، وأقرأُ نهاراً، فلما كان ذاتَ ليلة كنتُ جالساً أنسَخُ في السِّراج، وكان شتاء، فنَزَل الماءُ في عَيْنَيَّ فلم أُبصِر شيئاً! فبَكَيْتُ على نفسي لانقطاعي عن بلدي، وعلى ما فاتني من العلم!

فغلبتني عيناي، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النوم، فناداني: يا يعقوبُ، لِمَ أنتَ بَكَيْتَ؟ فقلتُ: يا رسول الله، ذَهبَ بصري فتحسَّرتُ على ما فاتني، فقال لي: آدْنُ مني فدنوتُ منه، فأمَرَّ يدَهُ على عَيْنَيَّ كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظتُ فأبصرتُ، فأخذتُ نُسَخِي وقعدتُ أكتُب. وتوفي سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى عن بِضعٍ وثمانين سنة».

٢٣٩ ـ قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»(١)، والتاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»(٢)، في ترجمة (الإمام محمد بن جرير الطبري) المولود سنة ٢٢٤، والمتوفى سنة ٣١٠ رحمه الله تعالى، الذي عَدَّ تلامذتُهُ: أيامَ حياتِه، منذ بَلَغ الحُلُمَ إلى أن تُوفِّي وهو ابن ٨٦ سنة، ثم قسَّمُوا عليها أوراقَ مصنَّفاته، فصار منها على كلِّ يوم أربَعَ عَشْرَة ورقة(٣): «قال أبو محمد الفَرْغانيُّ ـ عبدُ الله بنُ أحمد بنِ جعفر تلميذُ ابنِ جرير ـ:

كان محمد بن جرير لا تأخُذُهُ في اللَّهِ لَوْمَةُ لائم، مع عِظَمِ ما يُؤذَى، فأمَّا أهلُ الدِّين والعلمِ فغيرُ مُنكِرين عِلمَه وزُهدَه، ورَفْضَه للدنيا، وقناعتَهُ بما يجيئه من حِصَّةٍ خَلَّفَها له أبوه بطَبَرِسْتان.

---

(١) ٢ : ٧١١.

(٢) ٣ : ١٢٥.

(٣) وإني أدعو كلَّ طالبِ علمٍ مُجِدٍّ: أن يَقرأ ترجمةَ (الإمام محمد بن جرير الطبري) في «معجم الأدباء» ١٨ : ٤٠ ـ ٩٤، التي جاءت في ٥٤ صفحة، فإنها تُعلِّمُ الخُلُقَ والأدَبَ والجدَّ، وتُعرِّفُ بأخلاقِ الإمامةِ في العلم والدين، وسيأتي بعضُها في هذا الكتاب، في (الجانب السابع) في العلماء العُزَّاب في الخبر ٢٩٥، فاقرأه. وإن شِئت فاقرأ ترجمتَه الأتمَّ التي أوردتُها في كتابي: «العلماء العُزَّاب، الذين آثروا العلمَ على الزواج» ص ٣٧ ـ ٥١ من الطبعة الأولى أو الثانية أو الثالثة.

قال: ورحَلَ محمدُ بن جرير لمَّا ترعرع من آمُل ــ في سنة ٢٣٦، وكان ابنَ اثنتَيْ عَشْرَةَ سنة ــ، وسَمَحَ له أبوه بالسفر، وكان أبوه طولَ حياته يُوجِّهُ إليه بالشيءِ بعدَ الشيء إلى البلدان، فسَمِعتُه يقول: أبطأتْ عني نفقةُ والدِي، واضطُررتُ إلى أن فَتَقْتُ كُمَّيْ قَمِيصِي فبعتُهُما»[1].

---

(١) قلت: قد يَبْدُو غريباً اليومَ (بيعُ كُمَّيْ القَمِيص)، فهُمَا في زمننا لا يزيدانِ على قِطعةِ قُماشٍ يسيرة، ليسَتْ قِيمتُها بشيء، ولا تَدخُلُ في رغبة الناس، والجوابُ: أنَّ هذا القليلَ الضئيلَ الذي ليس بشيء، هو شيءٌ مُحرِز بالنظر للمُمْلِق المَحْسُورِ والغريبِ المَعْسُور قديماً.

ثم إنَّ الأكمامَ التي كانت في زمنهم غيرُ الأكمام التي في زماننا هذا، فقد كانت واسعةً جداً، قال المؤرِّخُ المسعوديُّ في «مُرُوج الذهب» ٤: ٩٤، في خلالِ حديثِهِ عن الخليفةِ العباسي المستعينِ بالله، المتوفى سنة ٢٥٢، وقد كانت خلافته من سنة ٢٤٨ ــ ٢٥١، قال:

«والمستعينُ بالله أَحدَث لُبْسَ الأكمامِ الواسعة، ولم يكن يُعهَدُ ذلك، فجعَلَ عَرْضَها ثلاثةَ أشبارٍ ونحوَ ذلك، وصَغَّرَ القَلانِسَ، وكانت قبلَ ذلك طِوالاً كأقباعِ القُضَاة». انتهى. والإمامُ ابن جرير رحمه الله تعالى عاصرَ هذا العهدَ، فقد سَبَق أنه وُلِدَ سنة ٢٢٤، وتوفي سنة ٣١٠. فعلى هذا تكون قيمةُ الكُمَّين شيئاً مُسْعِفاً في ذلك الزمن.

والظاهر أنَّ زِيَّ الأكمامِ الواسعةِ كان معروفاً مِن قَبْلُ، ولكن في عهد المستعين بالله زِيْدَ في سَعَتِها أكثَرَ مما كانت عليه من قَبْلُ، وقد كان العلماءُ يجعلون فيها كتبَهم إذا حَمَلُوها. وإليك بعضَ الأخبار في ذلك:

١ ــ جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب ١٣: ٣٣٨، في ترجمة الإمام أبي حنيفة، في قصة عبد الله بن المبارك مع الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧، وفيها قال ابنُ المبارك: «. . . فجئتُ والكتابُ في يَدِي، فقال الأوزاعيُّ: أيُّ شيء هذا الكتاب؟ فناولتُهُ. . .، ثم وَضَع الكتابَ في كُمِّه، ثم أقامَ وصلَّى، ثم أَخرَج الكتابَ حتى أَتَى عليها ــ أي على المسائلِ التي فيه ــ». انتهى.

٢ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٢: ٥٩٢، في ترجمة الإمام أبي داود السِّجِسْتَاني صاحبِ كتاب «السُّنَن»، المتوفى سنة ٢٧٥ بالبصرة رحمه الله تعالى: «قال تلميذُه أبو بكر بنُ دَاسَهْ: كان لأبي داود كُمٌّ واسعٌ، وكُمٌّ ضيِّق، فقِيل له في ذلك؟ فقال: الواسِعُ للكُتُب، والآخَرُ لا يُحتاجُ إليه».

٣ ــ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب ٣: ٤٠٤، في ترجمة (القاضي أبي عُمَر محمدِ بنِ يوسف الأَزْدِي)، وفي «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ١: ١٢٥، في ترجمة (إبراهيم بن إسحاق =

= الحَرْبي)، شيخِ المالكية في وقتِهِ، وناشرِ هذا المذهب في العراق، المولود سنة ٢٠٠، والمتوفى سنة ٢٨٢ رحمه الله تعالى، والسياقَةُ هنا جُلُّها من «المعجم» لياقوت:

«قال أبو بكر البَرْقاني: كان إسماعيل بنُ إسحاق القاضي يَشتهي رُؤيَة إبراهيم الحربي، وكان إبراهيمُ لا يَدخُل عليه، يقول: لا أدخلُ داراً عليها بوَّاب، فأُخبِرَ إسماعيلُ بذلك، فقال: أنا أدَعُ بابي كبابِ الجامع، فنَحَّى الحاجِبَ عن بابِه أياماً.

فجاء إبراهيمُ إليه، فلما دَخلَ تلقَّاه أبو عُمَر محمد بن يوسف القاضي، وكان كاتبَ القاضي إسماعيل وحاجِبَه، فلما نَزَع إبراهيمُ نعليه، أخَذَ أبو عُمَر محمدُ بن يوسف القاضي نَعْلَيْه، ولَفَّهما في مِنديلٍ دَبِيْقِيٍّ ــ نسبة إلى دَبِيْق بلدةٍ في مصر يُصنَعُ فيها، ويكون رَفِيعَ الثمن ــ ، وجعَلَه في كُمِّه.

وجَرَى بين إبراهيم وإسماعيل من العلمِ الكثيرِ ما تعجَّب منه الحاضرون، فلما قام إبراهيمُ التَمَس نعليه، فأَخرج أبو عُمَر النَّعْلَ من كُمِّهِ ملفوفةً في المِنديل، فقال له إبراهيم: غَفَر الله لك كما أكرمتَ العلم.

فلما مات أبو عُمَر القاضي، رُئي في المنام فقيل له: ما فعَلَ الله بك؟ فقال: أُجيبَتْ فِيَّ دعوةُ الرجل الصالح إبراهيمَ الحربي فغُفِرَ لي». رحمه الله تعالى.

تتمة تتصل بهذا الخبر: ذكَرَ ابنُ شاكر الكتبي في كتابه «فوات الوَفَيات» ١:٦، في ترجمة (إبراهيم الحربي) هذه الواقعة نقلاً عن ياقوت في «معجم الأدباء»، ولكنه غلِطَ فجعَلَ الذي حَمَل (النَّعْلَ) ولفَّها هو إسماعيل بن إسحاق القاضي، وإنما الذي صَنَع ذلك حاجبُه وكاتبُه أبو عمر القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الأَزْدِي كما تقدم. وكان أهلُ بغداد ــ وقد تَولَّى قضاءَها ــ يَضرِبُون المَثَلَ بعقلِهِ وحِلمِهِ كما في ترجمته في «تاريخ بغداد»، وكانت ولادته سنة ٢٤٣، وتوفي سنة ٣٢٠ رحمه الله تعالى.

٤ ــ وجاء في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣:٣١، في ترجمة الإمام القاضي أبي العباس ابنِ سُرَيج (أحمد بن عمر) الشافعي البغدادي، المتوفى سنة ٣٠٦ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«ومن شعرِ أبي العباس ابنِ سُرَيج في «مختَصَرِ المُزَني»:

لَصِيقُ فُؤَادِي منذُ عِشرينَ حَجَّةً ... وصَيْقَلُ ذِهْني والمُفَرِّجُ عن هَمِّي
عَزِيزٌ على مِثلي إعارَةُ مثلِهِ ... لِمَا فيه من عِلْمٍ لطيفٍ ومن نَظْمِ
جَمُوعٌ لأصنافِ العلومِ بأسْرِها ... فأَخْلِقْ به أن لا يُفارِقَه كُمِّي».

٥ ــ وجاء في «إنباهِ الرواة على أنباهِ النحاة» للقِفْطي ٣:٢١٣ ــ ٢١٤، في ترجمة =

= (عبد الواحد بن علي بن بَرْهَان أبي القاسم العُكْبَري النَّحْوِي) المتوفى ببغداد سنة ٤٥٦ رحمه الله تعالى:

«كان من العلماء القائمين بعلومٍ كثيرة، منها النحوُ، واللغةُ، ومعرفةُ النَّسَب، والحِفظُ لأيّامِ العرب وأخبارِ المتقدمين، وله أنسٌ شديدٌ بعلم الحديث، ولم يَروِ شيئاً من الحديث.

ذكره الباخَرْزِي في كتابه ــ «دُمْية القَصْر» ــ، وسَجَع له فقال: «رأيتُه ببغداذَ سنة ٤٥٥، باذَّ الهيئة ــ أي رَثَّها ــ، رَثَّ الكِسْوَة، يَمْشِي وقد شَمِلَ العُرْيُ طَرَفَيْه، ونَظَم رأسَه وقدمَيْه، وقَصَدتُهُ زائراً ولم أكن عَهِدتُه، فإذا أنا في بابِ المراتبِ بشيخٍ على ما وَصَفْتُ، فلم أشُكَّ أنه ضالَّتِيَ المنشودة ــ وفِراسةُ المؤمنِ لا تُخطِىءُ ــ، فاقتَفَيتُ أثَرَهُ إلى مسجدٍ اجتَمعَتْ فيه تلاميذُهُ ينتظرونه، وكُمُّه أعْجَرُ ــ أي عظيمٌ كِبَراً ممتلِىءٌ ــ بأجزاءِ النحو، فدَخَل عليهم وقاموا إليه، واستَنَد إلى المحراب، . . .».

٦ ــ وفيه أيضاً ٣: ٣٢٤، في ترجمة (مُهَلَّب بن الحسن بن بركات أبي المحاسن البَهْنَسِي المصري النَّحْوي) المتوفى سنة ٥٧٢ رحمه الله تعالى:

«قال لي المَجْدُ وَلَدُهُ: وقد كنا عند توجُّهِهِ إليه ــ إلى وزير الدولةِ الغُزِّيَّة ــ ننتظرُ عَوْدَهُ بما يَسُرُّهُ من أَمْرِ رِزْقِه، قال: فلما عادَ سألناه عن أمرِه، فألْقَى المجلَّداتِ من كُمِّه، فقال: لهذِهِ طُلِبتُ. . .». انتهى.

٧ ــ وسيأتي في الخبر ٢٧٦ خَبَر (سَنَدِ بن علي) البغدادي المهندس قولُهُ: «ثم خَرَجْتُ وقد عَمِلتُ أشكالاً مُسْتَصْعَباتٍ، ووضعتُها في كُمِّي. . .». وفي الكتاب أخبار أخرى يأتي فيها ذكرُ الكُمّ.

وهذه النصوص ــ وغيرُها كثير ــ تُعرِّفنا بما كان عليهِ لِباسُ الناسِ والعلماءِ في الأزمان المتقدمة، من سَعَةِ الأكمام كما قرأتَ، وما تزالُ الأكمامُ العريضة الواسعة زِيّاً قائماً في ملابس بعض اليمنيين والسودانيين والأفارقة إلى اليوم. ومما تناقَلَهُ شيوخُنا عن شيوخهم قولُهم في المتزيِّين بزِيّ العلماءِ وليسوا منهم: أكمامٌ كالأَخْراج، وعَمائمُ كالأَبْراج، والعِلمُ عند الله تعالى! ومعذرةً فقد طالت هذه التعليقة، ولكنها لا تخلو من طرافة.

ثم بعدَ مدةٍ طويلة من كتابتي ما تقدَّمَ ذكرُه عن (الأكمام الواسعة)، رأيتُ في كتاب «صُوَر مُشْرِقَة من حضارةِ بغدادَ في العصر العباسي» للأستاذ ميخائيل عوَّاد، في ص ٤٤ ــ ٤٥ أثناءَ حديثِهِ عن (ملابس البغداديين وأَزْيَائِهم) ما يلي:

«. . . ولم يَتعرَّض أيُّ شيء إلى التبدُّلِ والتغيير، والزيادةِ والنقصان، قَدْرَ ما تعرَّضَتْ له =

والإمامُ ابن جرير هو القائل، كما في ترجمته في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي[1] :

«إذا أعسَرْتُ لم يَعلم رَفِيقِي وأَستَغني فيَستغنِي صَدِيقي
حَيائِي حافِظٌ لِي مَاءَ وَجْهِي ورِفْقِي في مُطالَبَتي رَفِيقي
ولو أنِّي سَمَحْتُ ببَذْلِ وَجْهي لكنتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطريقِ

وهو الذي يقول أيضاً :

خُلُقانِ لا أَرضَى طريقَهُمَا بَطَرُ الغِنَى ومَذَلَّةُ الفَقْرِ
فإذا غَنِيتَ فلا تَكُنْ بَطِراً وإذا افتقرتَ فَتِهْ على الدَّهْرِ».

رَحِمَ اللَّهُ صاحبَ هذه النَّفْسِ الأبية، وهذا الشَّمَمِ الباذِخ، وذلك الخُلُقِ العظيم، والعِلْم الغزير النَّمِير.

= الأزياءُ في بغدادَ في ذلك العصر ــ عصرِ الخليفة المنصور توفي سنة ١٥٨ ــ ، فشاع لُبسُ الجِبَابِ ذواتِ الأكمام الواسعة التي لم تكن تُعهَد من قبلُ، جعلوا عَرْضَها ثلاثةَ أشبار أو نحوَ ذلك. وقيل: إنَّ أوَّل من أحدَث لُبْسَ الأكمامِ الواسعةِ الخليفةُ المستعِينُ بالله العباسيُّ، وكانت خلافتُهُ سنة ٢٤٨، ووفاته سنة ٢٥٢.

وكانت هذه الأكمام تقومُ مَقامَ الجيوب، يَحفظُ الإنسانُ فيها كلَّ ما يَحتاجُ إلى حِفظِه، كالدنانير والكُتُب. وكان المهندسُ يَضَعُ فيها مِيْلَهُ، والصَّيْرَفِيُّ يَجعَلُ فيها رِقَاعَهُ، والخيَّاط يَحمِلُ فيها الجَلَمَ ــ آلَةً كالمِقصِّ ــ ، والقاضِي يضَعُ فيها الكُرَّاسَةَ التي يَقرأُ فيها الخُطبةَ يومَ الجمعة، والكاتبُ يَحفظُ فيها الرُّقْعَةَ لعَرْضِها ــ على رَئِيسِه ــ .

وقد كتَبَ الأستاذ حبيب زيَّات مقالاً ممتعاً بعنوان «أزياء الأكمام وما كانت تَصْلُح له في الملابس العربية»، في (مجلة المَشْرِق) الصادرة ببيروت سنة ١٩٤٧، المجلَّد الرابع ص ٤٦٥ ــ ٤٧٦، ثم أعاد نشره في «الخِزانة الشرقية» ٤ : ٤٢ ــ ٥٣». انتهى.

ثم وقفتُ على كتاب «الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي» للدكتور صلاح حسين العُبَيدي، فرأيت فيه تفصيلاً وافياً عن الأكمام الكبيرة، وصُوَراً قديمةً لها، انظر منه ص ٢٤٤ ــ ٢٥٠ و ص ٢٧٧، واللوحة ١٤٨ إذا شئتَ، والله يرعاك.

(١) ٢ : ١٦٥.

٢٤٠ ــ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة (الحافظ أبي بكر عبد الله ابنِ الإمام الحافظ أبي داود السجستاني)، المولود سنة ٢٣٠، والمتوفى سنة ٣١٦ رحمه الله تعالى: «قال: دخلتُ الكوفةَ ومعي درهمٌ واحد، فاشتريتُ به ثلاثين مُدّاً باقِلاّءَ، فكنتُ آكلُ منه وأكتُبُ عن الأشَجّ ــ عبدِ الله بن سعيد الكِنْدي مُحدِّثِ الكوفة ــ، فما فَرَغ الباقِلاءُ حتى كتبتُ عنه ثلاثين ألفَ حديثٍ ما بين مقطوعٍ ومُرسَل». انتهى. وأقدِّرُ المدة لكتابتها نحوَ شهرين على الأقل.

٢٤١ ــ وقال الحافظُ الخطيبُ البغدادي في «تاريخ بغداد»[٢]، والحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٣]، في ترجمة الإمام الحافظ شيخ الفقهاء والمحدثين (أبي بكر أحمدَ بن محمدٍ البَرْقاني) شيخ بغداد، المولود سنة ٣٣٦، والمتوفى سنة ٤٢٥ ببغداد رحمه الله تعالى:

«قال البَرْقانيُّ: دخلتُ إسْفَرَايِينَ[٤]، ومعي ثلاثةُ دنانيرَ ودرهمٌ واحد، فضاعت الدنانير وبَقِيَ الدرهم حَسْبُ! فدفعتُه إلى خَبّاز، فكنت آخُذُ منه كلَّ يوم رغيفين، وآخُذُ من بِشر بن أحمد جُزْءاً من حديثِه، وأدخُلُ مسجدَ الجامع فأكتُبُه وأفرَغُهُ بالعَشِيّ، فكتبتُ في مُدَّةِ شَهْرٍ ثلاثين جزءاً ونَفِدَ ما كان لي عندَ الخَبّازِ فسافرتُ عن البَلَد!».

٢٤٢ ــ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[٥]، و«الأنساب» للسمعاني[٦]، في ترجمة الإمام الفقيه القاضي (أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأَبِيْوَرْدِي) ثم البغدادي، أحدِ الفقهاء الشافعيين، المولود سنة ٣٥٧، والمتوفى سنة ٤٢٥ رحمه الله تعالى:

«سَكَن بغداد، ووَلِيَ بها القضاءَ على الجانبِ الشرقيِّ بأَسْرِهِ ومدينةِ المنصور،

---

(١) ٢: ٧٦٨.
(٢) ٤: ٣٧٥.
(٣) ٣: ١٠٧٥.
(٤) تَقدَّمَتْ وجوهُ ضبطِها تعليقاً على الخبر ١٩٩.
(٥) ٥: ٥١.
(٦) ١: ١٠٨.

وكان يُدرِّسُ في قَطِيعَةِ الرَّبيع، وله حَلْقةٌ للفتوى في جامع المنصور، وكان حسنَ الاعتقاد، جميلَ الطريقة، ثابتَ القَدَمِ في العلم، فصيحَ اللسان يقولُ الشعر.

وذكَرَ لي عُبَيدُ الله بنُ أحمد الصَّيْرَفي عمن حدَّثه، أنَّ القاضيَ أبا العباس الأَبِيْوَرْدِيَّ كان يَصُومُ الدهر، وأنَّ غالبَ إفطارِهِ كان على الخُبز والمِلح! وكان فقيراً يُظهِرُ المُروءة، قال: ومكَثَ شَتْوَةً كاملةً لا يَمِلِكُ جُبَّةً يَلبَسُها! وكان يقولُ لأصحابِهِ: بي عِلَّةٌ تَمْنَعُني عن لُبْسِ المَحْشُوّ! فكانوا يظنونه يَعني المَرَضَ، وإنما كان يعني بذلك الفَقْرَ! ولا يُظهِرُهُ تَصَوُّناً ومُرُوءَةً»[١].

٢٤٣ ــ وقال الحافظ السخاوي في «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث»[٢]: قال هبةُ الله بنُ المبارك السَّقَطِيُّ: كان مُسْنِدُ بغداد أبو الغنائم محمدُ بنُ عليّ الدَّجَاجيُّ البغداديُّ، المتوفَّى سنة ٤٦٣ رحمه الله تعالى: ذا وجاهةٍ وتقدُّمٍ وحالٍ واسعة، وعَهْدِي به وقد أَخنَى عليه الزمان بصرُوفِه.

وقد قصدتُهُ في جماعَةٍ مُثْرِين، لنَسمَعَ منه الحديث وهو مريض، فدخلنا عليه وهو على بارِيَّةٍ ــ أي حَصِيرةٍ ــ وعليه جُبَّةٌ قد أكلَتْ النارُ أكثَرَها، وليس عنده ما يُساوِي درهماً!

فحمَلَ على نفسِهِ حتى قرأنا عليه بحَسَبِ شَرَهِنا ثم قمنا، وقد تحمَّل المشقَّةَ في إكرامنا، فلما خرجنا قلتُ: هل مَعَ سادَتِنا ما نَصْرِفُهُ إلى الشيخ؟ فمالوا إلى ذلك،

---

(١) ورأيتُ نحوَ هذا الجوابِ لمتقدمٍ عن زمنِ (الأَبِيْوَرْدِي) المذكور، وهو الإمامُ أبو زيد محمدُ بن أحمد بن عبد الله المَرْوَزيُّ الفَاشَانيُّ ــ بالفاء ــ الزاهدُ الفقيهُ المحدِّثُ الشافعي، المولود سنة ٣٠١، والمتوفى سنة ٣٧١ رحمه الله تعالى، قال ابنُ خَلِّكان في «الوفَيات» ١ : ٤٦١، في ترجمته:

«وكان في أوَّلِ أمرِهِ فقيراً لا يَقدِرُ على شيء، فكان يَعْبُرُ الشتاءَ بلا جُبَّة مع شِدَّةِ البَرْدِ في تلك البلاد ــ مَرْو ــ ، فإذا قيل له في ذلك يقول: بي عِلَّةٌ تَمْنَعُني مِن لُبسِ المَحْشوِّ، يَعني بها الفقرَ، وكان لا يشتهي أن يَطَّلع أَحَدٌ على باطنِ حالِه، ثم أقبلَتْ عليه الدنيا في آخر عُمُرِه، وقد أسَنَّ وتَساقطَتْ أسنانُهُ، فكان لا يَتمكَّنُ من المَضْغ!». انتهى.

(٢) ١ : ٣٤٧، في أواخر مبحث (من تُقبَلُ روايتُه ومن تُرَدُّ).

فاجتمع له نحوُ خمسةِ مثاقيل من ذهب، فدعوتُ ابنتَهُ وأعطيتُها، ووقفتُ لأَرَى تسليمَها إليه.

فلما دَخَلَتْ وأعطَتْهُ لَطَمَ وَجْهَهُ! ونادَى: وافضيحتاه! آخُذُ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عِوَضاً؟! لا واللّهِ! ونَهَضَ حافياً فنادَى: بحُرْمَةِ ما بيننا إلا رَجَعْتَ، فعُدتُ إليه، فبكى وقال: تَفْضَحُني مع أصحاب الحديث؟! الموتُ أهوَنُ من ذلك، فأَعَدْتُ الذهبَ إلى الجماعة، فلم يقبلوه وتصدَّقوا به.

٢٤٤ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة (الإمام الحافظ الجوّال أبي علي الحسن بن علي البَلْخِي الوَخْشِي)، المتوفى ببَلْخ سنة ٤٧١ رحمه الله تعالى: «قال الوَخْشِيُّ يوماً: سَمِعتُ ورَحَلْتُ وقاسَيْتُ المَشَاقَّ، والذُّلّ، ورَجعتُ إلى وَخْش ـ وَخْشُ قريةٌ من أعمال بَلْخ ـ ، وما عَرَف أحَدٌ قَدْرِي، ولا فَهِمَ ما حَصَّلْتُه! فقلتُ: أموتُ ولا ينتشرُ ذِكري، ولا يَتَرحّمُ أحَدٌ عليَّ، فسهَّلَ الله ووفَّقَ نِظامَ المُلْكِ، حتى بَنَى هذه المدرسةَ ـ في وَخْش ـ وأجلَسني فيها حتى أُحَدِّث.

لقد كنتُ بعَسْقَلان أَسمَعُ من ابنِ مُصَحِّح وغيرِهِ، فضاقَتْ عليَّ النفقةُ، وبَقِيتُ أياماً بلا أكل، فأخذتُ لأكتُبَ فعَجَزْتُ! فذهَبْتُ إلى دُكَّانِ خَبَّازٍ، وقَعَدتُ بقُربِهِ لأَشُمَّ رائحةَ الخُبزِ وأتقَوَّى بها! ثم فَتَحَ الله عليّ».

٢٤٥ ـ وقال التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٢]، في ترجمة الإمام أبي إسحاق الشيرازي (إبراهيم بن علي)، المولود سنة ٣٩٣، والمتوفى سنة ٤٧٦ ببغداد رحمه الله تعالى، وكان إمامَ الشافعية في عصرهِ غيرَ مُدافَع: «قال أبو العباس الجُرجاني: كان أبو إسحاق الشيرازي لا يَمْلِكُ شيئاً من الدنيا، فبلَغَ به الفقرُ مبلغَه، حتى كان لا يَجِدُ قُوتاً ولا مَلْبَساً!

ولقد كنا نأتيه وهو ساكنٌ في القَطِيعة ـ حَيٌّ من أحياءِ بغداد ـ ، فيقومُ لنا نِصْفَ قَوْمَة، ليس يَعتدِلُ قائماً من العُرْي! كي لا يَظهَرَ منه شيء».

---

(١) ٤ : ١١٧٣.

(٢) ٣ : ٩٠.

٢٤٦ ــ قيل: وكان إذا بقي مدة لا يأكل شيئاً، جاء إلى صَدِيق له باقِلَّاني ــ أي فَوَّال ــ، فكان يَثْرُدُ له رغيفاً ــ أي يَفُتُّه ــ ويَثْرِيهِ ــ أي يَبُلُّهُ ويُلَيِّنُه ــ بماءِ الباقِلاَءِ. فربما أتاه وكان قد فَرَغ من بيع الباقِلَاء! فيقف أبو إسحاق ويقولُ: تلك إذاً كَرَّةٌ خاسِرَة! ويَرجِع!!».

والإمام أبو إسحاق الشيرازيُّ هذا، هو قائلُ البيتين السائرين:

سألتُ الناسَ عن خِلٍّ وَفِيٍّ ... فقالوا: ما إلى هذا سبيلُ!
تَمسَّكْ إن ظَفِرتَ بذَيْلِ حُرٍّ ... فإنَّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ[1]!

٢٤٧ ــ وقال المؤرِّخُ ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد»[2]، والتاج السبكي في «طبقات الشافعية»[3]، في ترجمة الإمام الفقيه الشافعي المُقرىء المحدِّث المتعبد الزاهد

---

(١) ويُروَى البيتُ الثاني بلفظ: تمسَّكْ إن ظَفِرتَ بوُدِّ حُرّ... كما في «الأنساب» للسمعاني ١: ١٧٤. والخِلُّ والخَليلُ بمعنى واحد، وهو من تملَّكك حُبُّه، فشَغَلَ منك القلبَ والفؤادَ في النَّجْوَى والعَلَانِيَة، وهو الذي عَنَاه بَشَّار بن بُرْد بقولِهِ كما في «ديوانه» ٤: ١٦١:

قد تَخلَّلتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مني ... ولِذَا سُمِّيَ الخليلُ خليلا
فإذا ما نَطَقْتُ كُنْتَ حَدِيثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغَلِيلا

وقد أشار الإمام أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى بقوله:

(فقالوا: ما إلى هَذا سَبِيلُ!)

إلى أنَّ الناسَ في زمنه! أيأَسُوهُ من لِقاءِ (الخِلِّ الوفيّ)، إذْ هُوَ عَدِيمُ الوجود، لا يُمكنُ لقاؤه ولا الوصولُ إليه، وأَرشدُوه إلى إمكانِ لقاءِ من دُونَه رُتبةً وهو (الحُرّ)، مع نُدْرَةِ وجودِهِ وعِزَّةِ لقائِه، فلذا حَضَّ على التمسُّكِ بذَيْله إنْ وُجِد، فإنه عزيزُ الوجود في زمنِهِ: القَرْنِ الخامس!

تَمسَّكْ إن ظَفِرتَ بذيل حُرٍّ ... فإنَّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ

ولعلَّ (الحُرَّ) الذي يَعنيه أبو إسحاق، هو الذي عَنَاه قبلَه الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه، حين سُئِلَ عن (الحُرّ) من هو؟ فقال: «مَنْ رَاعَى وِدَادَ لَحْظَة، وَانتَمَى لمن أفادَهُ لَفْظَة». نقله الشيخ الباجوري في حاشيته على «السَّنُوسِيَّة» في التوحيد ص ٤٢.

(٢) ٣: ٤٩.

(٣) ٧: ٢١١.

(أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن مَحْمُويَهْ اليَزْدِي)(١)، المولود سنة ٤٧٣، والمتوفى سنة ٥٥١ رحمه الله تعالى:

«كان دائمَ البِشْر، سَخِيَّ الطَّبْع بما يَمْلِكه، قانعاً بما هو فيه، متواضعاً، عاملاً بعلمِهِ، كثيرَ المحفوظ، من الفقهاءِ المتعبِّدين، وصَنَّف الكثيرَ، وزادَتْ مصنَّفاتُه على خمسين مصنفاً في أنواعِ العلوم، حديثاً وفقهاً وزهداً.

قال السمعاني: وكان له عِمَامةٌ وقميصٌ بينه وبين أخيه، إذا خَرَج هذا قَعَد ذاك في البيت! وإذا خَرَج ذاك قَعَد هذا في البيت! سمعتُه يقول وقد دَخَلْتُ عليه دارَه مع علي بن الحُسَين الغَزْنَوِي الواعظ، مُسلِّماً عليه، فوجدناه عُرْياناً متأزِّراً بمِئْزَر، فاعتَذَر من العُرْي، وقال: نحنُ إذا غَسَلنا ثيابنَا نكونُ كما قال القاضي أبو الطيب الطَّبَري:

قَوْمٌ إذا غَسَلُوا ثِيابَ جَمَالِهم ... لَبِسُوا البُيُوتَ إلى فَراغِ الغاسِلِ!»(٢).

---

(١) ذكر القاضي ابنُ خلكان في «وفَيات الأعيان» ١: ٢٣٤، خَبَرَ العُرْي المذكورَ فيما يأتي، في ترجمة (القاضي أبي الطيب الطبري) وكنَّى اليَزْدِيَّ: (أبا إسحاق)، فلعلَّه سَهَا فيه؟.

(٢) أبو الطيب هذا هو الإمامُ الجليلُ القاضي النبيل، أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري البغدادي، شيخُ الشافعية في عصره، ولد سنة ٣٤٨ بآمُلِ طَبَرِسْتَان، وتوفي سنة ٤٥٠ في بغداد، فعاش مئةَ سنةٍ وسنتين. قال الإمامُ تاجُ الدين السبكي في ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٥: ١٢ ــ ١٦ ــ وقد توسَّع في ترجمته إلى ص ٥٠ ــ ما يلي:

«كان إماماً جليلاً بحراً غَوَّاصاً مُتَّسِعَ الدائرة، عظيمَ العلم، جليلَ القدر، كبيرَ المحل، تفرَّدَ في زمانِهِ وتوحَّد، والزمانُ مشحونٌ بأخدانِه، واشتَهَر اسمُه فملأ الأقطار، وشاع ذكرُه فكان أكثرَ حديثِ السُّمَّار، وطاب ثناؤه، فكان أحسَنَ من مِسْكِ اللَّيلِ وكافُورِ النهار، والقاضي: فوق وَصْفِ الواصفِ ومَدْحِه، وقَدْرُهُ رَبَا على بَسِيط القائلِ وشَرْحِه، وعنه أخَذَ العراقيون وحَمَلُوا المذهبَ.

كان حسَنَ الخُلُق، مَليحَ المُزاحِ والفُكاهة، حُلوَ الشِّعْر، وَلِيَ القضاءَ برَبْع الكَرْخ في بغداد إلى آخر حياته. رَوَى عنه الخطيبُ البغدادي وأبو إسحاق الشيرازيُّ، وهو أخصُّ تلامذتِهِ به.

وإذا أَطلَق الشيخُ أبو إسحاق الشيرازيُّ وشِبهُهُ من العراقيين الفقهاء لفظَ (القاضي) مطلقاً في فَنِّ الفقه، فإياه يَعنُون، كما أنَّ إمامَ الحرمين وغيرَه من الخراسانيين يَعنون بالقاضي: القاضيَ الحُسَينَ ــ بنَ محمد المَرْوَرُّوذِيّ ــ، والأشعريَّةَ في الأصول يَعنون: القاضيَ أبا بكر بنَ الطيِّب الباقِلَّاني، والمعتزلةَ يَعنون: القاضيَ عبدَ الجبار الأسَدَابَاذِيّ. =

٢٤٨ ــ وقال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[1]، في ترجمة الإمام الزَّبِيدي اليمني: «الإمامُ القدوةُ العابدُ الواعظُ، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن مسلم القرشي اليمني الزَّبِيدي، نزيلُ بغداد، وجَدُّ المشايخ الرواة.

ولد سنة ٤٦٠، وقَدِمَ دمشق بعد الخمس مئة، فوَعَظ بها، وأَخَذَ يأمر بالمعروف، فلم يَحتَمِل له المَلِكُ طُغْتِكِين، وكان يقول الحقَّ وإن كان مُرّاً، لا تأخذه في الله لومةُ لائم وكان نحوياً فقيراً قانعاً متألِّهاً حنفيّاً سَلَفِياً.

قال الوزير يحيى بن هُبَيرة: جَلستُ معه من بكرة إلى قريب الظهر وهو يَلُوك شيئاً، فسألتُه، فقال: نَوَاةٌ أتعلَّل بها لم أجد شيئاً.

قال ابنُ شافع: كان له في علم العربية والأصولِ حظٌّ وافر، وصنَّف في فنون العلم نحواً من مِئَةِ مصنَّف، ولم يُضيِّع شيئاً من عُمُرِه. توفي سنة ٥٥٥ رحمه الله تعالى».

٢٤٩ ــ وقد وقع للعبدِ الضعيفِ جامعِ هذه «الصفحات» نَفَادُ النفقة أكثَرَ من مرة[2]، ومنها أثناءَ دراستي في كلية الشريعة في الجامع الأزهر بالقاهرة، فقد أبطأتْ نفقتي عليَّ من أهلي في حلب، وأصبحتُ يوماً ولم يَبقَ معي سوى ١٣ قرشاً مصرياً، وكان اليومُ يومَ الخميس ولم أُفطِر بعد، فذهبتُ إلى الكلية على غير طعام، ولما عُدتُ منها مررتُ بالمطعم ودخلتُهُ للغداء قبلَ ورود الآكلين، فتسابَقَ إليَّ النُّدُلُ ــ خَدَمُ

= قال فيه تلميذُهُ الشيخُ أبو إسحاق الشيرازي: شيخُنا وأستاذُنا أبو الطيب، تُوفي عن مِئَةٍ وسنتين، لم يَخْتَلَّ عقلُه، ولا تَغيَّرَ فَهْمُهُ، يُفتِي مع الفقهاء، ويَستدركُ عليهم الخطأ، ويَقضِي ويَشهَدُ ويَحضُر المواكبَ في دار الخلافة إلى أن مات، ولم أر فيمن رأيتُ أكملَ اجتهاداً وأَسَدَّ تحقيقاً وأجودَ نظراً منه، لازَمْتُ مجلسَه بضعَ عشرةَ سَنَةً، أحسَنَ الله تعالى عني جزاءَهُ ورَضِي عنه».

(١) ٢٠ : ٣١٦.

(٢) أذكر واقعتي هذه هنا وأخواتِها بعدَها على استحياء من السَّادةِ العلماءِ الذين دَوَّنتُ بعضَ أخبارهم في هذه «الصفحات»، فإنَّ واقعاتي ليست بشيء في جَنْبِ ما وَقَعَ لهم، رحمهم الله وأثابهم ورضي عنهم. فأذكُرُها بناءً على ما قيل: لا بُدَّ في حَضْرَةِ الساداتِ من الخُدَّام.

المطعم ـــ ، استئناساً منهم بمظهري العِلْمِي الشامي ، وكل منهم يبدي الاهتمامَ بي بغية إكرامِهِ بشيء .

ولما جلستُ للطعام تظاهرتُ بالمرض، وأنه لا يُواتيني من الطعام سوى الحَساء (الشوربة) مع الخبز، وهو أرخصُ الطعام في ذلك المطعم . ثم خرجتُ من المطعم على بقيَّةِ جُوعٍ حسنة، وبَقِيَ لدي عشرةُ قروش، وما إن وصلتُ إلى غرفتي التي أسكنها واستقررتُ فيها، حتى أرسلَتْ جارةٌ لي ولدَها تقترضُ مني خمسةَ قروش، فأقرضتُها، وبقي لدي خمسةُ قروش، ونمتُ كما أنا دون أن آكُلَ شيئاً، على أملٍ أن أُفطِرَ فُوْلاً في الغَدِ صباحَ الجمعة، فيَقُوتني إلى آخِرِ النهار، ويَبقَى من القروش بقية .

فلما أصبحتُ ظهَرْتُ إلى ساحةِ السطح الذي كانت غرفتي عليه، فإذا زميلٌ لي من الطلبة السوريين الفقراء، كان يَسكُنُ على سطحٍ يَبعُدُ عني نحوَ خمسين متراً، فأشار إليَّ هل لديك فلوس؟ فأشرتُ إليه : ليس لديَّ سِوَى خمسةِ قروش، فأشار أنه يُريدُ الفلوسَ للفطور، فقلتُ بالإشارة : وأنا أريدُ الفطورَ أيضاً، فأنا أَرْمِيها لك، فاشتَرِ بها فُولاً وخُبزاً لِفطورِنا جميعاً، وتعالَ به إليَّ، ثم رَمَيْتُ له بالقطعةِ ذات خمسةِ قروش، على اعتدادِي أنه فَهِمَ مني، وأنَّ الفُولَ سيأتي قريباً وأُفطِر .

ثم عُدتُ إلى غرفتي وانتظرتُ ثم انتظرتُ، ثم انتظرتُ فلم يأتِ أحَدٌ! وقاربَتْ صلاةُ الجمعة فذهبتُ للصلاة، ثم عُدتُ وبَقِيتُ دُون طعام إلى صباح يومِ السبت، فذهبتُ إلى الكلية وعلائمُ الجُوع والتأثر باديةٌ على وجهي، فقال لي بعضُ زملائي الحَمَويِّين : ما بك؟ قلتُ : لا شيء، قال : لا بد، فإني أرى وجهَك ذَاوِياً متغيِّراً فأخبِرني، وأصَرَّ عليَّ بإخباره، فأخبرتُه بجُوعي منذ يومين، فأخذني لمنزلِهِ وأضافني أكرمه الله، وأقرضني من نفقتِهِ حتى جاءت نفقتي، وأوسَعَ الله عليَّ وذهبَتْ الفاقةُ .

٢٥٠ ـــ وبعدَ أن وقعَتْ لي هذه الحادثة، وجاءتني النفقةُ من بلدي حلب، حدَّثتُ بها شيخَنا الإمامَ محمد زاهد الكوثري وكيلَ شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، المُهاجِرَ بدينه من تركيا إلى القاهرة، المولود سنة ١٢٩٦ ، والمتوفى بها سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى، للاستمتاع بالخبر وطَرَافتِه، فحدَّثني تطييباً لنفسي بما وقَعَ له من ذلك،

فكان أغرَبَ وأعجَبَ، فأنا أُسَجِّلُ ما سَمِعتُه منه بعدَ أكثرَ من عشرين سنةً من سماعِه، فأكتُبُ ما بقي في ذهني.

قال رحمه الله تعالى: لما أقمتُ بدمشق، وعَكَفْتُ على المكتبة الظاهرية أُطالع في أسفارها قُرابَةَ سنة، نزلتُ أوَّلَ الأمر في الفندق، فلما قَلَّتْ نفقتي نَزَلتُ في غرفةٍ متواضعةٍ على سطح، استأجرتُها مشتركَةً بيني وبين إنسانٍ آخَر غريبٍ من تركيا، ثم إني أَملَقْتُ بالمرة، فكان صاحبي في الغرفة ــ على فقرِهِ ــ يُواسِيني بما لديه من نفقةٍ قليلة نشتركُ فيها طعاماً وشراباً، ثم أملَقَ هو مثلي، وغاب يسعى في الرزق، وأصبحتُ على جُوعٍ شديد، ولم يَبقَ لديَّ دِرهمٌ آكُلُ به.

فذهبتُ صبيحةَ اليوم الأول من حالي هذه إلى الظاهرية كعادتي، ولكن دون طعام، ثم عُدتُ إلى الغرفة، ثم أصبحتُ على ما نمتُ عليه من الجُوع، وذهبتُ إلى الظاهرية، وعُدتُ منها في جُوعٍ شديد، وجَلستُ في غرفتي إلى الغد، ثم ذهبتُ إلى الظاهرية في اليوم الثالث على اشتدادِ الجوعِ بي، إذْ وجدتُ جلوسي في الغرفة يَزِيدُ أَلمَ الجُوع عليّ، فالاشتغالُ بالعلم ربما يُخفِّفُ بعضَ الشيء؟!

ولما عُدتُ إلى الغرفة بعدَ الظهر، مررتُ بسَمّانِ الحيِّ الذي أَودعتُ عنده عنواني للمراسلة، فأخبَرَني أنَّ ساعيَ البريد جاء إليَّ ومعه رسالة مسجَّلة لا تُسلّم إلا بيدي، فذهبتُ إلى البريد على سَغَبي وجُوعي وتهالُكِ قُوَّتي، فإذا هي رسالة من الشيخ رشيد الحَوَاصِلي الدمشقي، العالم الكُتُبي، أرسلَها لي من إصطنبول إلى القاهرة منذ أكثَرَ من أربعةِ أشهر، ومعها حوالةٌ لي بثلاثةِ جنيهات ذهبية.

وقد ظَلَّتْ هذه الحوالةُ مع الرسالةِ تذهَبُ وتَعُودُ بين إصطنبول والقاهرة طَوالَ هذه المدة، لعدم وجودي ولعدم معرفة عنواني في القاهرة، حتى وصلتني في ذلك اليوم الثالثِ من شِدَّتي هذه فأخذتُ الحوالة، وتوسَّعتُ بها أنا ونزيلي في الغرفةِ إلى حين.

قال: وكان سبَبُ إرسالِ تلك الجنيهات إليَّ، من صاحبي الشيخ الحَوَاصِلي في إصطنبول ــ كما حدَّثني بعدَ التقائِنا في القاهرة ــ، أنه عاد يوماً إلى بيته، وقد اشترى سَمَكاً طَيِّباً وتَغدَّى منه، ثم تذكَّرني وتَذكَّرَ أني بعيدٌ عن الأهل والبلد، ولا مَوْرِدَ

ولا عَمَل، وأني خَرَجتُ من البلد بملابسي، فأرسَلَ لي تلك الحوالة من أشهرٍ بعيدة، وشاء الله أن تَصِلني في حينها المناسب، فالحمدُ لله على كريم ِ لُطفِهِ وتدبيره.

٢٥١ ـ قال: وقد أَملقتُ إملاقةً ثانيةً بدمشق أيضاً، ومَضى عليَّ يومان ـ أو قال: ثلاثة ـ دُونَ طعام، وفي اليوم الثالث لَقِيَني في الطريق رجلٌ من أهل فلسطين، كنتُ لمحتُه في بعضِ المجالس التي ضَمَّتني مع بعضِ العلماءِ بدمشق، فَقدَّمَ لي قَدْراً حَسَناً من المال، وأصرَّ عليَّ بأخذه، وأَلَحَّ كثيراً، فأخذتُهُ تحت إلحاحِهِ وتحت شِدَّةِ الفاقَةِ والجُوع، ولكني ما عرَفتُ اسمَ ذاك الرجل، ولا اهتديتُ إليه حتى الآنَ لأرُدَّ له الجميل!

وكان شيخُنا (الكوثريُّ) رحمه الله تعالى: (زاهداً) حقاً عند كل عارفيه، فكان من الذين إذا وجدوا آثروا، وإذا فَقَدُوا صَبَرُوا وشكروا، فرحِمَه الله تعالى وأعلى مَقامَهُ في الصابرين.

٢٥٢ ـ ومما وقع للعبد الضعيف مؤلِّفِ هذه (الصفحات) أيامَ الطلبِ والدارسة: أني كنتُ عائداً من القاهرة إلى بلدي حلب، في آخِرِ العام الدراسي عام ١٣٦٧ = ١٩٤٧، فلما وَصَلتُ إلى مدينةِ حَيْفا ـ وكانت تحتَ الاحتلالِ الإنكليزي ـ، بِتُّ فيها انتظاراً لسفرِ السيَّارة صباحَ الغد إلى دمشق، بعدَ أن حَجَزتُ في السيارةِ الكبيرة لسفري، ودَفعتُ الأجرةَ ٦٠ قرشاً مصرياً، وذهبتُ إلى الفندق بانتظارِ صباحِ الغَدِ للسفر، وكان قد بَقِيَ معي من النفقة بعدَ تناولِ العشاءِ وأُجرةِ الفندق ٦٥ قرشاً مصرياً.

فلما جئتُ على الموعدِ صباحاً رَفَض سائقُ السيارةِ أن يَحمِلَني، نظراً إلى أنَّ مَعِي أمتِعَتي في حقيبة، ومعي أيضاً حقيبتانِ مملوءتانِ كتباً، ورَدَّ لي ٦٠ قرشاً، فقلتُ له: أزيدُكَ على أجرتِك أجرةً للحقيبتين، فأبَى وأنزَل ما كان حَمَلَهُ من أمتعتي ووَضَعها في الطريق، وساق سيارته ومشى دون أن يَستجيب لما عرضتُه عليه! فبقِيتُ على الأرض! والسيَّارةُ الكبيرةُ التي حَجَزْتُ فيها لرُخصِها لا تَذهبُ إلى دمشق إلا مرةً واحدة في اليوم، فنالني من الغَمِّ والحُزنِ ما الله تعالى به عليم.

ورآني رجلٌ من أهلِ حيفا وأنا أُحاوِرُ السائقَ لإركابي، ورآه قد تركني ومَشَى دُون

مبالاةٍ ولا رحمة، ورأى هَمِّي وغَمِّي! فقال لي: لا تَغتمَّ يا شيخ، هناك سيارة ثانية تَذهَبُ إلى دمشق في (شركة العَلَمين)، وهي سيارةٌ صغيرةٌ تُسافِرُ كلَّ يوم، فسَافِرْ فيها، واستَدعَى سيارةَ أجرةٍ لِنذهَبَ بها إلى (شركة العلمين)، فأخذتُ طريقي معه إليها، ولمَّا وَصَلتُ إلى مَقرِّ الشَّركة علمتُ أن السيَّارةَ تُسافِرُ بعدَ الظهر في الساعة الثانية، وأجرةُ الركوبِ فيها ٢٥٠ قرشاً مصرياً، فقلتُ لهم: عندي الآن ١٢٥ قرشاً، وأدفَعُ لكم الباقي في دمشق فقَبِلُوا، فدفعتُ لهم ما بقي معي ١٢٥ قرشاً، وذهبتُ أتمشَّى في البلد بانتظار الموعِدِ بعدَ الظهر.

ولما جئتُ على الموعد في الساعة الثانية، وجدتُ الموظفين في مكتبِ الشركة يَتوارَوْن بوجوههم مني، وقد حان الموعدُ المحدَّدُ للسفر، ومشهورٌ جداً عن هذه الشركة ضَبْطُ مواعيدِها ودِقّةُ انتظامِها في معاملتِها، فرَابَني تأخُّرُهم وتواريهم، ثم عَلِمتُ أنه ليس من مُسافرٍ إلى دمشق سواي عندهم، وهم يَضَنُّون أن تَخرُجَ سيارةٌ براكبٍ واحد، وعدَدُ رُكَّابِها خمسة.

ثم مَضَى من الوقت نصفُ ساعة وأنا أُذكِّرُهم بالموعدِ واضطراري إلى السفر، وإذا برئيس الشركة يَحضُر، واسمُهُ: (أبو أحمد فُسْتُق)، ولما دَخَل قاموا لاحترامه، وعَلِمتُ أنه المسؤولُ الأول، فحدَّثتُه بالأمر، فأمَرَ على الفورِ بإخراجِ سيارةٍ تُسَافِرُ بي وَحْدِي إلى دمشق، تحقيقاً لانتظامِ مواعيدِ الشركة والتزامِها، فأخرجوها وجعلوا يَرفعون أمتعتي إلى السيارة، فشكرتُهُ وحَمِدتُ له موقفَه.

ثم استَدْعَى سيارةً ثانية لركوبه خاصةً يُسافر بها إلى بيروت، ثم قال لي: هل تَركَبُ معي إلى بيروت، وتَذهبُ من هناك إلى دمشق في سياراتِنا في بيروت؟ فقلتُ له: لا مانعَ عندي من هذا، وما أُحِبُّ أن أُكلِّفَكم سيارةً كاملةً من أجلي وَحْدِي تُسافِرُ بي إلى دمشق، فحَوَّلُوا لي أمتعتي من سيارةِ دمشق إلى سيارتِهِ إلى بيروت.

ولما وصلنا إلى (النَّاقُوْرَة) من حدودِ الاحتلال الإنكليزي، كان التفتيشُ من رجال الحدودِ والجيشِ هناك شديداً جداً للغاية وطويلاً جداً، ويَنظرون في كل شيء، ويَفتحون كلَّ كتاب مع المسافر، وكان معي حقيبتانِ من الكتب، فامتلأ قلبي هَمَّاً وغَمَّاً لما سأُلاقي من العَنَاءِ معهم.

ولمَّا رأى رجالُ الحدودِ والضابطُ المسؤولُ هناك: صاحبي (أبو أحمد فُسْتُق) وكان رجلاً وجيهاً مشهوراً عندَهم فيما بدا لي، تساهَلُوا في تفتيش الأمتعة والكتب، فما زادوا على فتحِ الحقائب ثم إغلاقِها، وخرجنا من (الناقورة) بيُسْرٍ وسُهولة لا ألقاهما لو لم يكن معي هذا الرجلُ الوجيه، فشَكرتُ له صُحبَتَه، ولمَّا وصلنا إلى بيروت كان قد بَقِيَ للمغرب نحوُ ساعة، ولم يكن هناك سيارةٌ مُسافرةٌ من مكتبِ شركةِ العَلَمَيْنِ إلى دمشق!

فقلتُ لمسؤول المكتب في بيروت: يَلْزَمُكُم أن تُسفِّرُوني إلى دمشق كما هو الاتفاق، فقال لي: آسَفُ أنه لا يُوجَدُ لدينا مسافرون غيرُك، ولعلّك تَعذُرنا؟ ونحن نكتفي منك بمقابِلِ ذلك بالأُجرةِ التي أخذناها منك، فقلتُ له: أَنظُرُ في أمري.

ولم يكن بقي معي شيء من المال، وليس لي مَعارِفُ في بيروت يَسهُلُ عليَّ الاقتراضُ منهم، ففكَّرتُ: كيف أنامُ هذه الليلة؟ وكيف أسافِرُ غداً؟ ولا دِرْهَمَ ولا مالَ بيدي! فضاقَتْ عليَّ نفسي، ولَبِسَني من الهَمِّ والغَمِّ الشيءُ الكثير! ثم استَفتحتُ اللَّهَ تعالى الخيرَ وكَشْفَ الغُمَّة، فكان الفَرَجُ.

تَذَكَّرتُ أنَّ لي قريباً من الأرحام في بيروت، بَعُدَ عهدي بلقائه، ولا أتذكَّرُ بالضبطِ موضعَ مَسْكَنِه، فجَعَلْتُ أستذكِرُ الحيَّ الذي يَقطُنُ فيه، وأمشِي فأسألُ عنه حتى اهتَديتُ إليه بعدَ المغرب بكثير، فاستقبَلَني ورَحَّبَ بي، وفَرِحَ بقدومي كثيراً.

ولمَّا جَلستُ بادَرَ إليَّ قائلاً: لديَّ مِئتا ليرةٍ سورية أُرِيدُ إرسالَها إلى حلب من نحو شهر، ولم يتيسر لي أحد، فهل تتكرَّمُ باصطحابِها معك وأكونُ لك من الشاكرين؟ فقلتُ له: نَعَمْ وبكلِّ سُرور، وأخذتُها ونِمتُ عنده، وأصبحتُ وقد ذَهَبَ الغَمُّ عني، وأعقَبَهُ اليُسْرُ والارتياحُ الغامرُ بما يَسَّرَ الله لي وأذهَبَ عني من الهَمِّ والغَمِّ، فالحمدُ لله الذي لا يَنْسَى عِبَادَه، ويُدبِّرُ الأمرَ بحِكمتِهِ وعِلْمِهِ وهو اللطيفُ الخبير.

وأختِمُ الحديث عن هذا الجانب، وأنتقِلُ بعدَ هذا إلى الجانب السادس:

الجانب السادس

في أخبارهم في فَقْدِ الكتب أو المُصابِ بها، أو بَيْعِها والخروجِ عنها أو نحوِ ذلك عند المُلِمّات، أو تحصيلها ببيع الملبوسات

والكتبُ من حياة العالِم تَحُلُّ منه محلَّ الرُّوح من الجسد والعافيةِ من البَدَن[1]. وسنرى من أخبارهم في فقد الكتب أو تَلَفِها أو احتراقِها العَجَبَ العجاب، وقد أكثروا القول في انتكابهم بها، وسبَقَ ذكرُ جملةٍ منها عَرَضاً، وأجتزىء مما قالوه باليسير:

٢٥٣ ــ فهذا القاضي الجُرْجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، الآتي ذكره[2]، يَذكر موقِعَ الكتابِ من نفسِه ومن لَذاذةِ حياتِه، فيقولُ كما في ترجمته في «وَفَيات الأعيان»[3]:

ما تَطعَّمتُ لَذَّةَ العَيْشِ حتى ... صِرْتُ للبَيْتِ والكتابِ جَلِيسَا
ليس شيءٌ عندي أعزَّ من العِلْـ ... ــمِ فما أبتغِي سِوَاه أَنِيسَا

---

(١) وهي مع هذه المنزلةِ العاليةِ والحُبِّ الشديدِ في قَلْبِ العالِم، تكونُ عند بعضِ الزوجاتِ أنكى من الضَّرَّةِ، وآلَمَ من الصُّداع الدائم للرأس!

جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ٨: ٤٧١ و«الوَفَيَات» للقاضي ابنِ خَلِّكان، ١: ١٨٩، في ترجمة الإمام العالم النسَّابة (الزُّبَيْر بن بَكَّار القرشي الزُّبَيْري)، قاضي مكة وأحَدِ أعيانِ العلماءِ في عصره، وُلِدَ سنة ١٧٢، وتوفي سنة ٢٥٦ عن ٨٤ سنة رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الزُّبيرُ بنُ بكار: قالَتْ ابنةُ أختي لأهلِنا: خالي خيرُ رجلٍ لأهلِه، لا يَتَّخذُ ضَرَّةً، ولا يَشتري جارية. فقالت المرأةُ: لَهذِهِ الكتُبُ أشَدُّ عليَّ من ثلاثِ ضَرَائِرَ وأصعَبُ!».

(٢) في الخبر ٣٤٤.

(٣) ١: ٣٢٥.

إنما الذُّلُّ في مُخالَطةِ النَّا س فدَعْهُمْ وعِشْ عَزِيزاً رَئِيسَا[(١)]

٢٥٤ ـ وهذا الإمامُ اللغويُّ الفقيه الأديب، النَّحْوِي الشاعرُ الأريب، (أبو الحُسَين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي)، المتقدم ذكره[(٢)]، يَتَشكَّى من متاعِبِ الحياة وتوارُدِ الهُموم عليه، ثم يذكُرُ أنَّ سَلْوَى هُمومِهِ وغُمومِه، وأنيسَ نَفْسِهِ ورُوحِه: كُتُبُه التي يأوِي إليها ويَعِيشُ معها، فيقول كما في ترجمته في «وَفَيات الأعيان»[(٣)]:

وقالوا كيف حالُكَ؟ قُلتُ خَيْرٌ تَقَضَّى حاجَةٌ وتَفُوتُ حَاجُ[(٤)]
إذا ٱزْدَحَمَتْ هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنا عَسَى يوماً يكونُ لها انفراجُ
نَدِيمي هِرَّتِي وأَنِيسُ نَفْسِي دَفَاتِرُ لي ومَعْشُوقي السِّرَاجُ

---

(١) نعم هكذا شأنُ العالم النابهِ العاقل، الصادقِ مع العلمِ والتحصيل، وإبلاغِ الأمَانةِ إلى من بعدَهُ، يأنَسُ بالكُتُب، ويَستوحِشُ من الناس، وما يَعدِلُ بلَذَّةِ الجلوسِ مع الكتاب شيئاً، ويَرَى الازديادَ من العلمِ والمعرفةِ حقّاً عليهِ للَّهِ تعالى وللناسِ وللدِّين، ولمُتعَةِ عقلِه وقلبِه.

ومن المؤسِف أن كثيراً من المنتمين إلى قبيلِ العلماءِ اليوم، إذا أحرَزَ الواحدُ منهم شهادةً، أو أَدركَ مَنْصِباً، أو نال وَجَاهةً، قلَّ إقبالُه على العلم والازديادِ منه! وتَراه يَكْبُرُ في مَنصِبه، ويَصْغُرُ ويَضمُرُ منه العلمُ حتى يكادَ يَضْمَحِلّ، وتَراه يَسعَى إلى لقاءِ الناس، ولا يُبالي أن يَقضِيَ معهم الساعةَ والساعتينِ والثلاثَ في مُحادثاتٍ خاوِية! وأحاديثَ بَالية! ويُصبحُ هَمُّهُ الارتقاءَ في الرُّتَب والرواتب والزعامة لا في تنميةِ العلم وتوثيقِه وتَفْتِيحِهِ وتعميقِه، فإنَّا لله!

(٢) في الخبر ١٥٣.

(٣) ١: ٣٦.

(٤) كان بعضُ شيوخي الأجلَّة بحلب، وهو العلامة الفقيه الحنفي النَّحْوِيُّ اللغوي المحقِّق الشيخ محمد الناشد رحمه الله تعالى، إذا سَمِعَنا مَعْشَرَ الطلبةِ يقولُ أحدُنا للآخَرِ: كيف حالُك؟ يُنكِرُ علينا هذا التعبيرَ عَرَبِيَّةً، ويقولُ: ينبغي أن تقولوا: كيفَ أنت؟ فإنَّ (كيف) للحال، فلا يُسألُ بها عن الحال.

وكنتُ أرى ورودَ هذا التعبيرِ في شِعرِ هذا الإمام اللغوي النحوي الحُجَّة، يُفِيدُ صحةَ هذا الاستعمال عربيةً، وقد راجعتُ في حينها من أكثر من أربعين سنةً: كُتُبَ اللغةِ والنحوِ الواسعةَ، فلم أرَ فيها ما يَرُدُّ قولَ شيخِنا ولا ما يُثبتُه. ثم رأيتُ من أيامٍ في «تاج العروس» للزَّبِيدي ما يُثبِتُ صحةَ هذا التعبير، ثم رأيتُه وارداً في كلامِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامِ سيدنا معاوية =

فهذا الخَبَرُ والخَبَرُ الذي قَبْلَهُ يُصوِّرانِ لنا مَوْقِعَ الكتابِ من نَفْسِ العالِمِ المتَّقِدِ بالعلم، ولذا يكونُ فَقْدُ الكتابِ أو الكُتُبِ رَزِيَّةَ الرزايا عندَهُ، ومُصِيبةَ المصائب لديه، ولقد تغيَّر ذِهنُ كثير من العلماء واختَلَط، بسَبَبِ نكبتِهِ في كُتُبِه.

٢٥٥ ــ فهذا قاضي مصر ومُحدِّثُها (عبد الله بن لَهِيْعَة)، المولودُ سنة ٩٧، والمتوفى سنة ١٧٤ رحمه الله تعالى، كان إماماً في الحديث وحفظِهِ وروايتِه، فنُكِبَ باحتراقِ كُتُبِه في سنة ١٦٩، فكَثُرَ الوَهَمُ والتدليسُ في حديثِه، فمن أَخَذَ عنه قبلَ احتراقِ

= رضي الله عنه، وإليك النصوصَ في ذلك:

١ ــ قال الزَّبِيدي رحمه الله تعالى في «تاج العروس» بمادةِ (حوذ) ٢ : ٥٦٠ : «الحَاذُ الظَّهْرُ، وخَفِيفُ الحَاذِ في حديثِ «المُؤْمِنُ خَفِيفُ الحَاذِ»، ضَرَبَ صلى الله عليه وسلم فيه قِلَّةَ اللَّحْمِ مثلاً لِقِلَّةِ المالِ والعِيَال، كما يقال: هو خَفِيفُ الظَّهْر. وقيل: خَفِيفُ الحاذِ أي الحَالِ من المَالِ، يقالُ: كيفَ حالُكَ وحَاذُك؟». انتهى. وبهذا النصِّ اللغويِّ الذي وَرَد في غير مادَّةِ (كَيْفَ)، تأكَّدَتْ صِحَّةُ قولِنا: كيف حالُكَ.

٢ ــ ثم وقفتُ على حديثٍ صحيح رواه الحاكم في «المستدرك» ١ : ١٦، عن عائشة رضي الله عنها، وفيه قولُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم: (كيف حالُكَ)، فزادَتْ صِحَّةُ هذا الاستعمالِ تأكيداً وثُبوتاً، ونصُّهُ عن عائشة ما يلي:

«قالت: جاءَتْ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم عَجُوز، فقالَ: مَنْ أنتِ؟ قالت: جَثَّامَةُ المُزَنِيَّةُ، قال: بلْ أنتِ حَسَّانَةُ المُزَنِيَّةُ، كيف أنتُم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتُم بَعْدَنا؟ قالت: بخيرٍ بأبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ الله.

فلمَّا خرجَتْ قلتُ: تُقبِلُ على هذه العجوزِ هذا الإقبالَ؟ فقال: إنها كانت تأتينا زَمَنَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ ــ أي تَعَهُّدِ المعرفةِ المتقدِّمة ــ من الإيمان». قال الحاكم: على شرطِ الشيخين، ولا عِلَّةَ له، وأقرَّه الذهبي.

٣ ــ ثم وقفتُ على قول سيدنا معاوية رضي الله عنه، مُرَحِّباً بالزَّرْقَاءِ بنتِ عَدِيٍّ الكوفيَّةِ، قائلاً لها: «مَرْحَباً وأهْلاً، خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَه وافِد، كيف حالُكِ يا خَالَة؟...». كما في ترجمتها في كتاب «أعلام النساء» لعُمَر كحَّالة ٢ : ٣٣، وقد ذَكَرَ هناك مصادرَ هذا الخَبَر.

٤ ــ وجاء في «نُزْهَة الألِبَّاء» للأنباري ص ٣٧، و«معجم الأدباء» لياقوت ١٠ : ٢٦٢، وغير كتاب في ترجمةِ (حَمَّادِ الرَّاوِيَة): «قولُ هِشام بنِ عبد الملِك ــ المولود سنة ٧١، والمتوفى سنة ١٢٥ ــ لحمّادِ الرَّاوِيَة: كيفَ حالُك؟».

كُتُبِه، فحديثُهُ أقوَى ممن أخَذَ عنه بعدَ احتراقها، كما في ترجمته في «تذكرة الحفاظ» للذهبي[١]، و «تهذيب التهذيب» لابن حجر[٢].

ولمَّا احترَقَتْ كتُبُهُ، وصَلَه الإمامُ الليثُ بنُ سعدٍ المصري بألفِ دينار، كما ذكره الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»[٣]، تخفيفاً من مُصابِه!

وهذا خبَرٌ آخَرُ يُصَوِّرُ تفديةَ العالم لكُتُبِهِ التي هي جُزءٌ من لحمِهِ ودَمِهِ، وقع لأحد المحدِّثين في بعض أسفاره، يُصوِّرُ لنا غلاءَ الكتب على العالم، وشِدَّةَ حرصه على رعايتها وسلامتها.

٢٥٦ ــ قال الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى في «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث»[٤]: «كان أبو أيوب سُلَيمانُ بنُ داود الشَاذَكُوْني من الحُفَّاظ الكبار ــ وتُوفِّيَ في أصْبَهان سنة ٢٣٤ ــ رُؤيَ بعدَ موتِهِ في النوم، فقيل له: ما فعَلَ الله بك؟ قال: غَفَر لي، فقيل: بماذا؟ قال: كنتُ في طريقِ أصبهان، فأخَذَني المطرُ، وكان معي كُتُبٌ، ولم أكن تحتَ سَقْفٍ ولا شيء! فانكبَبْتُ على كُتُبي حتى أصْبَحْتُ وهَدأَ المطرُ، فغَفَرَ الله لي بذلك في آخَرين»[٥].

٢٥٧ ــ وهذا إمامُ المُحَدِّثين وشيخُ البخاري (عليُّ بنُ المَدِيني)، المولود سنة ١٦١، والمتوفى سنة ٢٣٤ رحمه الله تعالى، ــ وهو الذي قال فيه الخطيبُ البغداديُّ: «فيلسوفُ هذه الصنعةِ وطبيبُها، ولِسَانُ طائفةِ أهلِ الحديث وخَطِيبُها» ــ قد ألَّفَ كتابَهُ العظيم «المسند» على الطُّرُق، واستَقصَى فيه واستَوعَب ما أمكنه، ثم رَحَلَ رحلةً طويلة، فطوَّف فيها ما طَوَّفَ من بلادِ الإسلام في ثلاثِ سنين، ثم عاد إلى بلده:

---

(١) ١: ٢٣٨.

(٢) ٥: ٣٧٨ و ٣٧٩.

(٣) ٨: ٤٦٤ في ترجمة (الليث بن سعد).

(٤) ص ١٥٧.

(٥) وتقدم الخبرُ ٢٠٤ خَبَرُ (ابنِ الخاضِبَة) حين وقع الغَرَقُ في بغداد على دارِهِ وكُتُبِهِ!، والخبرُ ٢٢٧ خَبَرُ (محمد بن نصر المَرْوَزِي) حين غَرِقَ في البحر، وذهَبَ منه ألْفا جُزء!!.

البصرةِ، فرأى «مُسْنَدَهُ» قد أكلَتْهُ دُوْدَةُ الكُتُبِ وقَضَتْ عليه! فمات الكتابُ في حياةِ مؤلِفِه!

حكى الخطيب في «تاريخ بغداد»[١]، في ترجمته أنه قال: «كنتُ صنَّفتُ (المسنَد) على الطُّرُقِ مستقصىً، وكتبتُه في قراطيس، وصيَّرتُهُ في قِمَطْر كبير[٢]، وخلَّفتُه في المنزل، وغِبتُ هذه الغَيبة، فلما قَدِمْتُ ذهبتُ يوماً لأُطالِعَ ما كنتُ كتبتُ، فحَرَّكتُ القِمَطْرَ، فإذا هِيَ ثقِيلةٌ رَزِينةٌ بخلافِ ما كانت، ففتحتُها فإذا الأَرَضَةُ قد خالَطَتِ الكُتُب، فصارَتْ طِيناً! فلم أَنشَط بَعْدُ لجمعِهِ!».

٢٥٨ ــ وجاء في مقدمة كتاب «تهذيب اللغة» لإمام العربية أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الهَرَوِيّ، المولود سنة ٢٨٢، والمتوفى سنة ٣٧٠ رحمه الله تعالى، قولُهُ[٣]:

«ومن علماءِ اللغة ــ أي الذين تقدَّموه ونقَلَ عنهم في كتابه ــ: أبو عَمْرٍو شِمْرُ بنُ حَمْدُوْيَه الهَرَوِي، المتوفى سنة ٢٥٥، وكانت له عنايةٌ صادقة بهذا الشأن، رحَلَ إلى العراق في عُنْفُوانِ شبابِه، فكتَبَ الحديثَ، ولَقِيَ ابنَ الأعرابي وغيرَه من اللغويين، وسَمِعَ دَوَاوِينَ الشعر من وُجُوهٍ شتى.

ولَقِيَ جماعةً من أصحاب أبي عَمْرٍو الشيباني، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عُبَيدة، والفَرَّاءِ، منهم: الرِّيَاشِيُّ، وأبو حاتم، وأبو نصر، وأبو عَدْنان، وسَلَمة بنُ عاصم، وأبو حسَّان. ثم لما رَجَع إلى خراسان لَقِيَ أصحابَ النَّضْرِ بن شُمَيْل، والليثِ بن المُظَفَّر، فاستكثَرَ منهم.

ولمَّا ألقىَ عَصَاهُ بهَرَاةَ، أَلَّف كتاباً كبيراً في اللغات، أَسَّسَهُ على الحروفِ المُعْجَمَة، وابتَدَأَ بحرفِ الجيم، فيما أخبرني أبو بكر الإِيَادِي وغيرُه ممن لَقِيَه، فأشبَعَهُ

---

(١) ١١: ٤٦٢.

(٢) القِمَطْرُ: السَّفَطُ الذي تُحفَظُ فيه الكتب، وتقدَّم تفسيرُهُ تعليقاً في خبر ابن مَعين في الخبر ١٧٧.

(٣) في مقدمته لكتابه «تهذيب اللغة» ١: ٢٥.

وجَوَّدَه، إلا أنه طَوَّلَهُ بالشواهِدِ والشعرِ والرواياتِ الجَمَّةِ عن أئمةِ اللغةِ وغيرِهم من المُحدِّثين، وأَودعَهُ من تفسير القرآنِ بالرواياتِ عن المفسِّرين، ومن تفسيرِ غريبِ الحديثِ أشياءَ، لم يَسبِقه إلى مثلِهِ أَحَدٌ تقدَّمَهُ، ولا أدرَكَ شأوَهُ فيه مَنْ بعدَه.

ولمَّا أَكمَل الكتاب ضَنَّ به في حياته، ولم يُنْسِخْهُ طُلَّابَه! فلم يُبارَك له فيها فعَلَه حتى مَضَى لسبيله! فاختَزَل بعضُ أقاربِهِ ذلك الكتابَ ــ أي اقتَطَعه وأخذَهُ لنفسِه ــ من تَركَتِه، واتَّصَل ــ هذا القريبُ ــ بيعقوبَ بنِ الليثِ السِّجْزِي ــ الصَفَّارِ أحَدِ الأمراءِ الأبطالِ الدُّهاةِ الكبار ــ ، فقلَّدَهُ بعضَ أعمالِه، واستَصحَبَه إلى فارِسَ ونواحيها، وكان لا يُفارِقُهُ ذلك الكتابُ في سَفَرٍ ولا حضر.

ولمَّا أناخ يعقوبُ بنُ الليث بسِيْبِ بني مَاوَان ــ أي نَهْرِ بني مَاوَان قُرْبَ بغداد ــ من أرض السَّوَاد، وحَطَّ بها سَوَادَه، وَركِبَ في جماعةِ المُقَاتِلة من عسكرِه، مُقدِّراً لقاءَ المُوَفَّق وأصحابِ السُّلطان، فُجِّرَ الماءُ من النَّهْرَوانِ ــ نَهْرٍ كبيرٍ شَرْقيِّ بغداد ــ على معسكرِهِ، فغَرِقَ ذلك الكتابُ في جملةِ ما غَرِق من سَوَاد العسكر!!!

ورأيتُ أنا من أول ذلك الكتابِ تفاريقَ أجزاء، بخطِّ محمد بن قَسْوَرَة، فتَصفَّحتُ أبوابَها، فوجدتُها على غايةِ الكمال. واللَّهُ يَغفِرُ لأبي عَمْرو ويتغمَّدُ زَلَّته. والضَّنُّ بالعلم غيرُ محمودٍ ولا مُبارَكٌ فيه».

٢٥٩ ــ وجاء في «تقدمة الجرح والتعديل» لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي[1]، في ترجمة الإمام أبي زُرْعة الرازي (عُبَيد اللَّهِ بنِ عبد الكريم الرازي)، المولود سنة ٢٠٠، والمتوفى سنة ٢٦٤ رحمه الله تعالى:

«قال عبدُ الرحمن: سمعتُ أبا زُرعةَ يقول: خَرجتُ من الرَّيِّ المرَّةَ الثانيةَ سنةَ سَبْعٍ وعشرين ومِئتين، ورَجعتُ سنةَ اثنتينِ وثلاثين في أوَّلِها ــ فكانت رِحلتُه هذه خَمْسَ سنوات ــ .

بَدَأتُ فَحَجَجْتُ، ثم خَرجتُ إلى مصر، فأقمتُ بمصرَ خمسةَ عَشَرَ شهراً، وكنتُ

(١) ص ٣٤٠.

عَزمتُ في بُدُوِّ قُدومِي مصرَ أنِّي أُقِلُّ المُقام بها، فلما رأيتُ كثرةَ العلمِ بها، وكثرةَ الاستفادَة، عَزمتُ على المُقامِ، ولم أكن عَزمتُ على سَمَاعِ كُتُبِ الشافعي.

فلمَّا عَزمتُ على المُقام، وجَّهتُ إلى أَعْرَفِ رجلٍ بمصر بكُتُبِ الشافعي، فقبَّلتُها منه بثمانين دِرْهماً أن يكتُبَها كلَّها[1]، وأعطيتُه الكاغِذَ ــ أي الوَرَقَ ــ، وكنتُ حَمَلْتُ مَعِي ثَوْبَيْنِ دَبِيْقِيَّينِ لأَقْطَعَهما ــ أي اشتريتُهما من مصر لأُفصِّلَهُما وأَخِيْطَهما في بَلَدِي ــ لِنَفْسِي[2]، فلما عَزمتُ على كتابتِها أَمَرْتُ بِبَيْعِهِمَا، فبِيْعَا بسِتِّينَ دِرْهماً، واشتَريتُ مِئَةَ ورَقَةِ كاغِذٍ بعشَرَةَ دراهم، كَتَبْتُ فيها كُتُبَ الشافعي.

---

(١) يقال: قبَّلَه العمل: إذا تعاقَدَ معه عليه جملةً بأَجْرٍ مقطوع على إنجازه.

(٢) وقع هذا النصُّ في «تَقْدِمَة الجرح والتعديل» بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المُعَلِّمي ص ٣٤٠ ــ وفي غيره من الكتب ــ محرَّفاً! فجاء بلفظِ (ثَوْبَيْنِ ديبقيين)، أي بتقديم الياءِ المثناةِ على الباءِ الموحدة. ووقع في «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم ص ٧٥ و«مَناقب الشافعي» للبيهقي ١ : ٢٦٤ (ثَوْبَيْنِ رقيقين)! وكلاهما تحريف. والصوابُ فيه كما أثبتُّهُ: (ثَوْبَيْنِ دَبِيْقِيَّيْنِ)، بتقديم الباءِ الموحدةِ على الياءِ المثناة، نسبة إلى (دَبِيْق) بوَزْنِ أَمِيْر، قال ياقوت في «معجم البلدان» ٢ : ٤٣٨ «دَبِيْق: بُلَيْدةٌ كانت بينَ الفَرَمَا وتِنِّيسَ من أعمالِ مِصْر، تُنسَبُ إليها الثيابُ الدَّبِيْقِيَّة».

قال صاحبُ «القاموس» وكذا شارِحُهُ: «والثِّيَابُ الدَّبِيْقِيَّة مِن دِقِّ الثِّيَاب ــ أي أنعَمِها وأرقِّها ــ، كانت تُتَّخَذُ بها ــ أي تُصنَعُ بها وتُحمَلُ إلى سائرِ البلدان ــ، وكانت العِمامَةُ منها طُولُها مِئَةُ ذِرَاع، وفيها رَقَماتٌ منسوجَةٌ بالذَّهَب، تَبلغُ العِمامَةُ من الذَّهَب خَمْسَ مِئَةِ دِينارٍ سِوَى الحريرِ والغَزْلِ». انتهى.

وفي خبرِ أبي زُرعة هذا فَوائدُ نفيسة جداً، وهي معرفةُ ثَمَن الوَرَقِ: الكاغِذِ حينذاك في أوائلِ القرنِ الثالث. وفيه معرفةُ ثَمَنِ (الثوبِ الدَّبِيقيّ) آنذاك أيضاً. وفيه أنَّ أبا زُرعة كان من المتنعِّمِين المُتَرَفِّهين، المُتجمِّلين الباذِلين.

ويبدو هذا جلياً إذا وازَنْتَ بين خبرِهِ هذا والخبرِ ١٨٩ الذي تقدم، خبرِ محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤، وقولِهِ فيه: «أقمتُ بمصر كذا وكذا سَنَةً، فكان قُوْتي، وثِيابي، وكاغِذِي، وحِبْرِي، وجميعُ ما أنفقتُه على نَفْسِي في السَّنَةِ عِشرين درهماً».

وجاء في حوادثِ سنة ٤٥٦، في «الكامل» لابن الأثير ١٠ : ١٠ من طبعة بولاق، و ١٠ : ٣١ من طبعة دار صادر، في حادثةِ قَتْلِ عَمِيدِ المُلْك: «فكان قَتْلُه في ذي الحجة، ولُفَّ في قَمِيصٍ دَبِيْقِيٍّ من مَلَابسِ الخليفة». انتهى.

ثم خَرجتُ إلى الشام فأقمتُ بها ما أقمتُ، ثم خَرجتُ إلى الجزيرة وأقمتُ بها ما أقمتُ، ثم رَجعتُ إلى بغدادَ سنةَ ثلاثين في آخرها، ورجعتُ إلى الكوفةِ وأقمتُ بها ما أَقمتُ، وقَدِمتُ البصرةَ فكتبتُ بها عن شَيْبَان وعبدِ الأعلى.

وأقمتُ في خَرْجتي الثالثةِ بالشامِ والعراقِ ومصرَ أربعَ سنين وستةَ أشهر، فما أعلَمُ أني طَبَخْتُ فيها قِدْراً بيَدِ نفسِي».

٢٦٠ ــ وجاء في «معجم الأدباء»[1]، في ترجمة الإمام أبي علي الفارسي (الحسن بن أحمد)، الفَسَوي نسبة إلى مدينة فَسَا من مُدُنِ فارس ثم البغدادي، أوحدِ زمانه في علم العربية، المولود سنة ٢٨٨، والمتوفى سنة ٣٧٧ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال عثمان بن جِنّيْ: حدثني شيخُنا أبو علي أنه وقع حريقٌ بمدينة السلام ــ بغداد ــ، فذهب به جميعُ عِلْم البصريين. ــ كذا ــ.

قال: وكنتُ كتبتُ ذلك كلَّه بخطي، وقرأتُه على أصحابنا، فلم أجد من الصُّندوقِ الذي احترق شيئاً آلبتةَ، إلا نصفَ كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن.

وسألتُه عن سَلْوَتِهِ وعَزَائِه، فنظر إليَّ عاجباً ثم قال: بقيتُ شهرين لا أكلِّمُ أحداً حُزناً وهَمّاً! وانحدرتُ إلى البصرة لغلبةِ الفِكرِ عليّ، وأقمتُ مُدَّةً ذاهِلاً متحيراً!». نعم:

وفقدُ الكتاب كفقدِ الصوابِ فيا هَوْلَ من قد أضاع الكُتُبْ

٢٦١ ــ وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطي[2]، في ترجمة (الشريف الرَّضِيّ): محمد بن الحسين بن موسى العَلَوي الطالبي، المولود ببغداد سنة ٣٥٩، والمتوفى سنة ٤٠٦ رحمه الله تعالى:

«وكان الرَّضِيُّ من أهلِ الفضلِ والأدبِ والعلمِ والذكاءِ وحِدَّةِ الخاطرِ من صِغَرِه، ذكره أبو الفتح بنُ جِنّيْ في «مجموعٍ» له جَمَعَهُ، وذكَرَ في بعضِ «مَجَامِيعِه» أنَّ هذا (المجموعَ) سُرِقَ منه في طريقِ فارس! وتأوَّهَ عليه كثيراً!! ومات وهو عَادِمٌ له!

ثم إنَّ هذا المجموع حَصَل في بعضِ وقوفِ مدينة أصبهان، ولما توجَّهَ إليها

---

(١) ٧: ٢٥٧.

(٢) ٣: ١١٤.

سعيدُ بنُ الدهَّان البغداديُّ، وَجَد «المجموعَ» المذكورَ، فنَقَل منه مجلَّداً واحداً، ولم أرَ سِوَاه بخطِّ سعيدٍ المذكور».

٢٦٢ ــ وحكى القاضي شمسُ الدين ابنُ خَلِّكان في كتابه «وَفَيَاتِ الأعيان، وأنباءِ أبناءِ الزمان»[١]، في ترجمة الشريف المرتَضَى أبي القاسم (علي بن الطاهر)[٢] حكايةً عجيبةً، وقعت لأبي الحَسَنِ الفَالِي (علي بن أحمد بن سَلَّك الفَالِي) المُحدِّث الأديب الشاعر، المتوفى سنة ٤٤٨ رحمه الله تعالى، قال: «حَكى الخطيبُ أبو زكريا يحيى بن علي التِّبْريزيُّ اللغوي، أنَّ أبا الحسن عليَّ بنَ أحمد بنِ عليِّ بنِ سَلَّكَ الفَالِي الأديب، كانت له نُسخةٌ من كتابِ «الجمهرة» لابن دُرَيْد في غايةِ الجَوْدَة، فدَعَتْه الحاجَةُ إلى بيعها، فاشتراها الشريفُ المرتَضَى أبو القاسم المذكورُ بسِتِّين دِيناراً، وتصفَّحها فوَجَدَ بها أبياتاً بخَطِّ بائِعِها أبي الحسن الفَالِي المذكور، وهي:

أَنِسْتُ بها عِشرين حَوْلاً وبِعتُها ... لقد طالَ وَجْدِي بعدَها وحَنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأَبِيعُها ... ولوخَلَّدَتْني في السُّجونِ دُيوني
ولكِنْ لِضَعْفٍ وافتِقَارٍ وصِبْيَةٍ ... صِغَارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شُؤُوني[٣]
فقلتُ ولم أَمْلِك سَوابقَ عَبْرَتي ... مَقالَةَ مَكْوِيِّ الفؤادِ حَزِينِ
«وقد تُخرِجُ الحاجَاتُ يا أمَّ مالكٍ ... كرائِمَ من رَبٍّ بهِنَّ ضَنينِ»

فأرجَعَ النسخةَ إليه، وتَرَكَ له الدنانيرَ رحمه الله تعالى». انتهى[٤].

---

(١) ١ : ٣٣٧.

(٢) ولد سنة ٣٥٥، وتوفي سنة ٤٣٦.

(٣) أي دُمُوعي.

(٤) وهذا الفَالِي: منسوبٌ إلى فَالَةَ بالفاء، وهي بَلْدَةٌ بخُوْزِسْتَان، كما ضبطه ابنُ خلكان، وياقوت في ترجمته في «معجم الأدباء» ١٢ : ٢٢٦، و «معجم البلدان» في (فالَة) ٦ : ٣٣٤. وقد أقام بالبصرة مدة طويلة، ثم استوطن بغداد وحدَّث بها، وتوفي فيها سنة ٤٤٨، وكان أديباً شاعراً، روَى عنه الخطيبُ البغدادي صاحب «تاريخ بغداد» وغيرُه كما ذكره ابن خلكان.

قال عبد الفتاح: وإنما ذكرتُ نِسبةَ الفَالي، وذكرتُ تاريخَ وفاتِه وبَلَدَ إقامته، لأدفَعَ الاشتباهَ عنه والتحريفَ الذي يقع في اسمِهِ، فإنه يقَعُ محرَّفاً إلى (القالي) بالقاف، ظناً أنه (أبو علي القالي) =

٢٦٣ ــ ولأبي الحسَن الفَاليِّ هذا شعرٌ لطيف، استَحْسَنْتُ ذِكرَهُ استطراداً، لما له من صِلةٍ بالعلمِ والعلماء، وقد أورَدَ جملةً منه ابنُ الأثير في «الكامل»[1]، في حوادث سنة ٤٤٨ التي توفي فيها الفَالي رحمه الله تعالى، وياقوتُ الحَمَويُّ في «معجم الأدباء»[2]، في ترجمته، فمِن شعرِهِ الجميلِ قولُهُ:

لما تَبدَّلَتِ المَجَالِسُ أوْجُهاً ... غيرَ الذين عَهِدتُ من عُلَمائِها
ورأيتُها محفوفةً بسِوَى الأُلَى ... كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائِها
أَنشدتُ بيتاً سائراً متقدِّماً ... والعَيْنُ قد شَرِقَتْ بجارِي مائِها
«أمّا الخِيَامُ فإنها كخيامِهِمْ ... وأَرَى نِساءَ الحيِّ غيرَ نِسائِها»

ومن شعره الحسن قولُه:

تَصَدَّر للتدريس كلُّ مُهوَّسٍ ... بَليدٍ تَسمَّى بالفقيهِ المُدَرِّسِ

= المشهور، وذاك (أبو علي) وهذا (أبو الحَسَن)، وأبو علي اسمُهُ: إسماعيل بن القاسم، ولد سنة ٢٨٨، وتُوفِّي قبلَه بنحوِ مِئة عام في قُرطبة سنة ٣٥٦، وأبو الحسن الفَالي هذا توفي ببغداد سنة ٤٤٨ كما تقدَّم ذكرُه.

وقد وقع هذا التحريفُ والخطأُ في تكنيتِهِ وفي نِسبتِهِ في كتبٍ كثيرة، مثلِ كتاب «الفَلاكَة والمفلوكون» للدَّلَجي ص ١١٤، و«المُزْهِر» للسيوطي ١: ٩٥ بتحقيق ثلاثة من الأساتذة المحققين، و«شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي ٣: ٢٧٨، و«تاج العروس» للزَّبيدي ١: ١٢، وكتابِ «ظُهر الإسلام» ١: ١١٧ ــ ١١٨، للأستاذ أحمد أمين، فقد قال فيه:

«وهذا أبو عليّ القالي البغدادي، ضاقت به الحالُ قبلَ أن يَرحَل إلى الأندلس، حتى اضطُرَّ إلى أن يَبِيعَ بعضَ كتبه، وهي أعَزُّ شيءٍ عنده، فباع نسخةً من كتاب «الجمهرة» وكان كلِفاً بها، فاشتراها الشريفُ المرتَضى، فَوجدَ عليها بخط أبي علي أَنِسْتُ بها عشرين حَوْلاً وبِعتُها الأبيات...». انتهى.

فزاد الأستاذ أَحمد أمين إلى هذا التحريفِ الذي وقع فيه وتقبَّلَهُ بقبولٍ حسن: أنَّ ذلك كان من أبي علي القالي قبلَ أن يرحَلَ إلى الأندلس! وأنَّ الشريف المرتَضى اشتَرَى النسخةَ منه! والشريفُ المرتَضى وُلِدَ سنة ٣٥٥، وأبو علي القالي تُوفِّي سنة ٣٥٦، فكيف يشتري هذا من هذا؟!

(١) ٨: ٧٩.

(٢) ١٢: ٢٢٦.

فحُقَّ لأهلِ العِلمِ أن يتَمَثَّلُوا ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مَجْلِسِ
«لقد هُزِلَتْ حتى بَدَا مِن هُزالِها كُلاها وحتى سامَهَا كلُّ مُفْلِس!».

٢٦٤ ــ وجاء في ترجمة الحافظِ الجَوَّالِ أبي زكريا البخاري، في «معجم البلدان» لياقوت الحموي(١)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي(٢)، ما يلي: «وخرج من بُخَارَى: الحافظُ الإمامُ الجوَّال أبو زكريا عبدُ الرحيم بن أحمد بن نَصْر التميمي البخاري، أحَدُ الحفاظِ الأثبات، ولد سنة ٣٨٢ في بُخَارَى، وتوفي بمصر سنة ٤٦١، وسَمِعَ ببخارى، وخراسان، والعراق، والشام، واليمن، ومصر، وإفريقية، ودَخَل الأندلس وبلادَ المغرب، وكتب بها عن شيوخها، وكتَبَ عمن هو دُونَهُ، ولم يَزَل يكتبُ الحديثَ إلى أن مات.

وحدَّث عن الإمام أبي عبد الله الحُسَين بن الحسن الحَلِيمي، وأبي يَعْلَى حمزةَ المُهَلَّبِي، وأبي عُمَرَ بن مَهْدي، وأبي محمد بن البَيِّع، وهلالٍ الحَفَّار، وتَمَّامٍ الرازي، وعبد الغني بن سعيد الأَزْدي المِصري، وخلقٍ كثيرٍ ممن يَطُولُ ذكرُهم.

ورَوَى عنه عبدُ الوهاب بنُ عبد الله بن الجَبَّان شَيْخُهُ، والفقيهُ نَصْرٌ المقدسي، ومُشَرَّفُ بنُ علي التَّمار، وجميلُ بن الحسن المادَرَاني، وأبو عبد الله محمدُ بن أحمد الرازي، وآخرون.

وسكن مصرَ، حكى عنه الفقيهُ أبو الفتح نَصْرُ بنُ إبراهيم المقدسي أنه قال: لي ببُخَارَى أربعَةَ عَشَرَ ألْفَ جُزء، أُريدُ أن أمضِيَ وأجيءَ بها! مات بمصر في الحَوْرَاءِ: كُورةٍ من كُوَر مصر القِبْلِيَّة في آخر حدودِها من جهة الحجاز رحمه الله تعالى».

وكم حَسَراتٍ في بُطونِ المَقَابِرِ!.

٢٦٥ ــ وهذا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخَوْلاني، المعروفُ بالحدَّاد المَهْدِوِيّ(٣)، يَبِيعُ كُتُبَه اضطراراً وفقراً، فتَسألُه زوجتُهُ وهي تَعرِفُ حُبَّه لكُتُبِه

(١) ١: ٣٥٥ في ذكر (بُخَارى).
(٢) ٣: ١١٥٧.
(٣) نسبة إلى بلدة المَهْدِية قُرْبَ مدينةِ سَلا في المغرب الأقصى.

وشِدَّةَ تعلُّقِهِ بها: كيفَ بِعتَ الكُتُبَ وهي أعَزُّ شيء لديك؟! فيقول لها كما حكاه الحافظ السِّلَفِيُّ في كتابه «معجم السَّفَر»، وياقوتُ الحَمَوِيُّ في «معجم البلدان» عند اسم (المَهْدِيّة)(١):

قالَتْ وأبدَتْ صَفْحَةً ... كالشَّمْسِ مِن تحتِ القِنَاعْ
بِعتَ الدفاترَ وهْيَ آ ... خِرُ ما يُباعُ من المَتَاعْ
فأجبتُها ويَدِي على ... كَبِدِي وهَمَّتْ بانصداعْ
لا تَعْجَبِي مما رأيتِ ... فنحنُ في زَمَنِ الضَّيَاع!

٢٦٦ ــ وقال التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»(٢)، في ترجمة الإمام الغزالي: «قال الإمام أسعَدُ المِيْهَني: سَمِعتُ الغزاليَّ يقولُ: قُطِعَتْ علينا الطريقُ، وأَخَذَ العَيَّارون جميعَ ما معي ومَضَوْا(٣)، فتَبِعتُهم فالتفَتَ إليَّ مُقَدَّمُهم وقال: ارْجِعْ ويحَك، وإلا هَلكتَ، فقلتُ له: أسألُك بالذي ترجو السلامةَ منه أن تَرُدَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتُك؟ فقلتُ كُتُبٌ في تلك المِخْلاَة، هاجَرتُ لسماعِها وكتابتِها ومعرفةِ عِلمِها، فضَحِكَ وقال: كيف تَدَّعي أنك عَرَفتَ علمها؟ وقد أخذناها منك فتجرَّدتَ من معرفتِها وبَقِيتَ بلا علم! ثم أمَرَ بعضَ أصحابه فسلَّم إليَّ المِخْلاَة.

قال الغزالي: هذا مُسْتَنْطَقٌ أنطقه الله لِيُرشِدَني به في أمري، فلمّا وافَيْتُ طُوسَ أقبلتُ على الاشتغالِ ثلاثَ سنين، حتى حَفِظتُ جميعَ ما عَلَّقتُه، وصِرتُ بحيثُ لو قُطِعَ عليَّ الطريقُ لم أتجرَّد من علمي».

٢٦٧ ــ وجاء في «الأعلام» للزركلي رحمه الله تعالى(٤)، في ترجمة الشاعر الأديب، المترسِّلِ اللبيب (أبي الفتوح نصرِ بن عبد الله بن عبد القَوِيِّ اللَّخْمِي،

---

(١) ٨: ٢٠٨.
(٢) ٣: ١٠٣.
(٣) العَيَّارون جمعُ عَيَّار، وهو النشيطُ في المَعَاصِي.
(٤) ٨: ٣٤٤ ــ ٣٤٧.

المعروفِ بابن قَلاقِس، الإسكندريّ الأزهري)، المولودِ سنة ٥٣٢، والمتوفى سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى:

«كان يُكثِرُ النُّزولَ بعَيْذَابَ، من ثُغورِ البحر الأحمر شِمالِيَّ جُدَّة، ودخَلَ عَدَنَ سنة ٥٦٥، ثم غادَرَها مُبْحِراً في تجارة، وارتطمَتْ سفينتُهُ بصخرةٍ في جزيرة نُخْرة قُرْبَ دَهْلَك ويقالُ له: دَهِيك أيضاً، وهو مَرْسىً في جزيرةٍ بين بلادِ اليَمَنِ والحَبَشةِ، فتبدَّدَ ثُلُثَا ما مَعَه من فُلْفُل وبَقَّمٍ وسِوَاهما.

وكتَبَ هو في غُرَّة رجبٍ سنة ٥٦٦ إلى أبي بكر العِيْدِي الوزير بعَدَن، اثنَتَيْ عشرة صفحةً صغيرةً، هذه بعضُ فِقَراتٍ منها ــ مما يتصل بالمقام ــ: «من جانب الصَّخْرَة، بنُخْرَة، وشَوْقي يُكاثِرُ الفُلْفُلَ المُبَدَّدَ في السَّواحِل، والبَقَّمَ المُفرَّق في المَراحِل، ما زالَتْ تَترامَى بنا الأَفْوَاجُ والأَمْوَاج، حتى استأثرَتْ بأموالِنا وآمالِنا!

نعم قد سَلِمَ الثُلُثُ، والثُلُثُ كثير، وحَصَلْنا بجزيرة دَهْلَك، والسلطانُ المالكُ ابنُ أبي السَّدَاد، ساعَدَني بالبَزِّ والبُرِّ، وكانت معي كُتبٌ، كتَبَ البَحْرُ عليها المَحْوَ، فلا شِعْرَ ولا لُغَةَ ولا نَحْو! لم يَسلَم سوى ديوانِ شعرِ ابنِ الهَبَّارِيَّة! بعدَ أخذِهِ من البَلَل! ضاع شِعري كلُّه، وانحَطَّ عن مَتْنِ نظري فيه كَلُّهُ ــ أي ثِقَلُه ــ ، فقد كنتُ لا أَخْلُو من إصلاحِ فاسد، ومُداراةِ حاسِد».

٢٦٨ ــ وقال القاضي ابن خَلِّكان في «وفيات الأعيان»[1]، في ترجمة ابن الدهان النَّحْوِي البغدادي (أبي محمدٍ سعيدِ بن المبارك)، المولود سنة ٤٩٤، والمتوفى سنة ٥٦٩ رحمه الله تعالى: «كان سيبويهِ عَصرِه، وله في النحو التصانيفُ المفيدة ــ ثم ذكرها ابن خَلِّكان ــ ثم إنَّ أبا محمدٍ تَرَك بغداد، وانتقلَ إلى المَوْصِل، قاصداً جنابَ الوزير جمالِ الدين الأصبهاني المعروف بالجَوَاد، فتلقاه بالإقبالِ وأحسَنَ إليه، وأقام في كنَفِه مدة.

وكانت كتبه قد تخلّفَتْ ببغداد، فاستَولَى الغَرَقُ تلك السنة على البلد، فسيَّرَ من يُحضِرُها إليه إن كانت سالمةً، فوجدها قد غَرِقَتْ! وكانت خَلْفَ داره مَدْبَغةٌ فغَرِقَتْ

---

(١) ١ : ٢٠٩.

أيضاً، وفاضَ الماءُ منها إلى دارِه! فتَلِفَتْ الكُتُبُ بهذا السببِ زيادةً على إتلافِ الغَرَق، وكان قد أفنَى في تحصيلها عُمُرَه، فلمّا حُمِلَتْ إليه على تلك الصورة! أشاروا عليه أن يُطيِّبها بالبَخُور، ويُصلِحَ منها ما يُمكِن، فبخَّرَها باللَّاذَن[1].

ولازَمَ ذلك إلى أن بَخَّرها بأكثَرَ من ثلاثين رِطْلاً لاذَناً، فطلَعَ ذلك إلى رأسِهِ وعينيه، فأحدث له العَمَى وكُفَّ بصرُه!».

٢٦٩ ـ وهذه فاجعةٌ كُبْرَى من فواجع العلماءِ بفقدِ الكتب، تَنزِلُ بأسامة بن منقِذ أميرِ بلدة شَيْزَر وقَلْعَتِها، وأحَدِ الشجعانِ والعلماءِ الأدباءِ في عصره، ولد سنة ٤٨٨ وتوفي سنَة ٥٨٤، وقد حَلَّتْ به هذه الداهيةُ الدهياءُ قبلَ سنة ٥٦٩، في حياةِ المَلِكِ العادلِ نورِ الدين الشهيد رحمهما الله تعالى.

قال الأميرُ أسامةُ في كتابه «الاعتبار»[2]، الذي دَوَّن فيه مُجْمَلَ سِيرتِه، ـ وهو يَتحدَّثُ عن هذه الفاجعة المؤلمة على مَدَى العُمُر ـ : «ثم اتَّصَلْتُ بخِدمةِ المَلِكِ العادل نور الدين رحمه الله، وكاتَبَ المَلِكَ الصالحَ ـ بنَ رُزِّيك في مصر ـ في تسيير أهلي وأولادِي الذين تخلَّفوا بمصر، وكان مُحْسِناً إليهم.

فرَدَّ الرَّسُولَ واعتَذَر بأنه يَخافُ عليهم من الإفرنج، وكتَبَ إليَّ يقول: تَرجِعُ إلى مصر وأنت تَعرِفُ ما بيني وبينك، وإن كنتَ مستوحِشاً من أهل القصر، فتَصِلُ إلى مكة، وأُنفِذُ لك كتاباً بتسليم مدينةِ أُسْوَانَ إليك، وأَمُدُّك بما تتقوّى به على محاربة الحَبَشة، فأُسْوانُ ثَغْرٌ من ثُغورِ المسلمين، وأُسَيِّرُ إليك أهلَك وأولادَك.

ففاوضتُ المَلِكَ العادلَ واستَطلعتُ أمرَه، فقال: يا فلانُ، ما صَدَّقْتَ متى تَخلُص من مصر وفِتَنِها[3]، تعودُ إليها؟! العُمرُ أقصَرُ من ذلك، أنا أُنفِذُ ـ من ـ يأخُذُ لأهلِك الأمانَ من مَلِك الإفرنج، وأُسَيِّرُ من يُحضِرُهم.

---

(١) قال في «لسان العرب»: اللاذَنُ من العُلُوك، وقيل: هو دواء بالفارسية.

(٢) ص ٣٤. وكتابُ «الاعتبار» هذا، دَوَّن فيه الأميرُ أسامةُ بنُ مُنْقِذ الشَّيْزَرِي مُجْمَلَ سِيرتِهِ وواقعاتِهِ في قتالِ الصليبيين، وهو كتابٌ ممتعٌ للغاية، إذا أَخَذ الإنسانَ بقراءةِ أوَّلِهِ لم يَدَعْه حتى يأتي على آخره فلذا قمتُ بنشره والعناية به، فعليك بمطالعته.

(٣) قوله: (ما صَدَّقتَ. . .)، هذا التعبير ما يزال جارياً في بلاد مصر والشام إلى الآن.

فأنفَذَ رحمه الله ــ مَنْ ــ أخَذَ أمانَ الملِك في البرِّ والبحر، وسَيَّرتُ الأمانَ مع غلامٍ لي وكتابَ الملِك العادِل وكتابي إلى الملِكِ الصالح، فسيَّرهُم في عُشَارِيّ من الخاصِّ إلى دِمْيَاط، وحَمَل لهم كلَّ ما يَحتاجونَهُ من النفقاتِ والزاد، ووَصَّى بهم.

وأقلعوا من دِمياط في بُطْسَةٍ من بُطس الإفرنج[1]، فلما دَنَوْا من عَكَّا والملكُ ــ لا رحمه الله ــ فيها، نفَّذَ قوماً في مركبٍ صغير، كسَّروا البُطْسَة بالفُؤُوس، وأصحابي يَرَوْنَهم، وَرَكِبَ ووَقَفَ على الساحل، ــ و ــ نُهِبَ كلُّ ما فيه!

فخَرَجَ إليه غلامٌ لي سِبَاحَةً، والأمانُ معه، وقال له: ما هذا أمانُك؟ قال: بلى، ولكن هذا رَسْمُ المُسْلِمين: إذا انكسَرَ لهم مَرْكَبٌ على بلدٍ، نَهبه أهلُ ذاك البلد! قال: فتَسبِينا؟ قال: لا.

وأَنزلهم ــ لعنه الله ــ في دار، وفتَّش النساءَ، حتى أخَذَ كلَّ ما معهم، وقد كان في المركب حُلِيٌّ أَودَعَهُ النساءُ، وكِسْوَاتٌ وجواهِرُ وسُيوفٌ وسِلاحٌ وذَهَبٌ وفِضَّة، بنحوٍ من ثلاثين ألفَ دينار، فأخَذَ الجميع، ونفَّذَ لهم خمسَ مئة دينار، وقال: تَوَصَّلوا بهذِهِ إلى بلادِكم، وكانوا رجالاً ونساءً في خمسين نَسَمة.

وكنتُ إذ ذاك مع الملِكِ العادلِ في بلادِ الملكِ مسعود: رَغبان وكَيْسُون[2]، فهوَّنَ عليَّ سلامَةُ أولادي وأولادِ أخي حِرْمانَ ما ذهَبَ من المال، إلا ما ذَهَبَ لي من الكتب! فإنها كانت أربعةَ آلافِ مجلَّدٍ من الكتبِ الفاخرة، فإنَّ ذهابَها حَزَازةٌ في قلبي ما عِشتُ! فهذه نكبَاتٌ تُزَعْزِعُ الجبال، وتُفْنِي الأموالَ، والله سبحانه يُعوِّضُ برحمتِه، ويَختِمُ بلطفِهِ ومغفرتِه».

٢٧٠ ــ وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»[3]: «لمَّا

---

(١) البُطْسَة: المَرْكَبُ، وهي كلمة غير عربية.
(٢) الملِكُ مسعود: سلطانُ قُوْنِيَةَ آنذاك. ورغبانُ وكيسونُ اسْمَا بلدينِ من بلادِه.
(٣) ص ٢٩٧.

وقع الغَرَقُ ببغداد سنةَ أربع وخمسين وخمس مِئة، غَرِقَتْ كتبي! وسَلِمَ لي مُجَلَّدٌ فيه ورقتانِ بخطِّ الإمام أحمد!»[١].

٢٧١ ــ وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي[٢]، و«إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» لشيخنا العلامة المؤرِّخ المحدِّث محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى[٣] في ترجمة الوزير جمال الدين القِفْطي: العلامة الأديب الجامع الأريب، القاضي ثم الوزير جمالِ الدين أبي الحسن علي بن يوسف القِفْطِي المصري ثم الحَلَبِي المولود بقِفْط سنةَ ٥٦٨، والمتوفى بحلب سنة ٦٤٦ رحمه الله تعالى:

أنه لما أقام بحلب، واختارها له وَطَناً ومَسْكَناً، كان يَسعى كلَّ السعي في شِراءِ الكُتُبِ واقتنائِها وجَلْبِها من البلدانِ البعيدة، واستطارَتْ شُهرتُهُ بهذا الغَرَامِ العِلْمي في الآفاق، فتوافَدَ عليه الورَّاقون والنسَّاخون وبَاعَةُ الكتبِ من كل حَدَبٍ وصَوْب، حتى اجتمَعَتْ له مكتبةٌ جامعةٌ نادرةُ المِثال، نافَسَ في اقتنائِها، وبَذَلَ النَّفِيسَ والكثيرَ في شرائِها، وأنفقَ عُمرَه في حفظِها وتنظيمها والاقتباسِ منها.

وغَدَتْ دارُه بحلَبَ مَجْمَعاً من مَجامع العلماءِ والأدباء، وقِبْلَةً للورَّاقين والنسَّاخين ودَلَّالِي الكُتُب، يَجلبون له الكتبَ والأسفارَ النفيسة، بخطوط مؤلِّفيها، أو بخطوطِ أكابرِ العلماءِ المشهورين، وكتابُه «إنباهُ الرُّوَاة على أنْبَاهِ النُّحَاة» طافِحٌ بالحديثِ عن اقتنائِهِ تلك النفائسِ وبَحْثِهِ عنها، وكان يَبذُل فيها الأثمانَ العالية، ويُجزِلُ فيها العطاء، فتَتَوَجَّهُ إليه من شَتَّى البِقاع والأصقاع.

(١) وجاء في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب ١:٣٥٢، في ترجمةِ عَصْرِيِّ ابنِ الجوزيِّ وبَلَدِيِّهِ: القاضي أبي القاسم (عبدِ الله بن علي... بنِ الفَرَّاء) البغداديِّ، المولودِ سنة ٥٢٧، والمتوفى سنة ٥٨٠ رحمه الله تعالى، ما يلي: «وكانَتْ عندَهُ ــ أي عند ابنِ الفَرَّاءِ ــ كتُبٌ جليلةٌ أَصِيلة، على مذهبِ الإمام أحمد، وخَطُّ الإمام أحمدَ كان أيضاً عنده». انتهى.

والشاهدُ من هذا النَّصِّ أنَّ خَطَّ الإمام أحمدَ رضي الله عنه، كان محفوظاً مُتَوارَثاً حتى القرنِ السادس.

(٢) ١٥:١٧٥ ــ ٢٠٤.

(٣) ٤:٤١٤ ــ ٤٢٦.

وله في غَرَامِهِ بالكتُبِ أخبارٌ تُعَدُّ من العجائب الغرائب، قال صديقُهُ وصاحبُه العلامة ياقوتُ الحَمَوِيُّ في ترجمته في «معجم الأدباء»[١]، وقد عاشَرَه طويلاً: «وكان القَاضِي جَمَّاعةً للكتب، حريصاً عليها جِدّاً، لم أرَ مع اشتِمالي على الكُتُب، وبَيْعِي لها، وتجارتي فيها: أشَدَّ اهتماماً منه بها، ولا أكثرَ حِرصاً منه على اقتنائِها، وحصَلَ له منها ما لم يَحصُل لأحد، وكان مُقيماً بحلب.

وقال المؤرِّخ ابنُ شاكر الكتبي في «فَوَات الوفَيَات»[٢]، في ترجمته: «وجمَعَ من الكتب ما لا يُوصَف، وقُصِدَ بها من الآفاق، وكان لا يُحِبُّ من الدنيا سِوَاها، ولم تكن له دَارٌ ولا زَوْجَةٌ[٣]، وأوصَى بكُتُبِهِ للناصِرِ صاحبِ حلب، وكانت تُساوِي خَمْسِينَ ألفَ دينار». قال عبد الفتاح: ويقَعُ في حِسباني أنَّ (خمسين ألفَ دينار) في زمنِهِ تُعادِلُ عشرة ملايين ريال سعودي في زمننا أو تَزِيدُ.

وقال شيخنا العلامة الطباخ في «إعلام النبلاء»[٤]، في ترجمته: «وقال الصَّفَديُّ في تاريخه المرتَّب على السنين، في حوادثِ سنةِ ٦٤٦، في ترجمة الوزير القِفطي المذكور:

وله حكاياتٌ عجيبةٌ في غرامِهِ بالكُتُب، منها أنه وقَعَ له نُسخةٌ مَلِيحةٌ من كتاب «الأنساب» لابنِ السَّمْعاني بخَطِّهِ، يُعوِزُها مُجَلَّدٌ من أَصْلِ خمسةٍ، فلم يَزل يَبحَثُ عنه ويَطلُبُه من مَظَانِّه، فلم يَحصُلْ عليه!

وبعدَ أيام ــ من يَأْسِهِ من الحُصُولِ عليه ــ اجتاز بعضُ أصحابِهِ بسُوق القَلَانِسِيِّين بحلب، فوَجَدَ أَوْرَاقاً من كتابِ «الأنساب» المفقودِ عنده، فأحضَرَهَا إليه، فأَحضرَ الوزيرُ الصَّانِعَ، وسألَهُ عنه، فقال: اشتريتُهُ في جُملةِ أوراق، وعَمِلتُه قَوَالِبَ للقَلانِس! فحَدَثَ عند الوزير من الهَمِّ والغَمِّ والوُجُومِ ما لا يُمكن التعبيرُ عنه! حتى إنه بَقِيَ أياماً لا يَركَبُ إلى القَلْعَةِ ــ مَقَرِّ الحكمِ والوِزارة ــ ، وقَطَعَ جلوسَه، وأحضَر من

---

(١) ١٥ : ١٨٧.
(٢) ٢ : ١٢١.
(٣) وقد ذكرته في كتابي «العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزَّواج» ص ٨٩ ــ ٩١.
(٤) ٤ : ٤٢٦.

نَدَبَ على الكتاب كما يُندَبُ على الميتِ المفقودِ المؤيَسِ منه! وحضرَ عنده الأعيانُ يُسلُّونَهُ كما يُسَلَّى من فُقِدَ له عزيز! والحكاياتُ الدالَّةُ على عِشْقِهِ الكتبَ كثيرة».

٢٧٢ ــ وقال الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع»(1)، في ترجمة الإمام الحافظ (عُمَر بنِ علي بن أحمد الوَادِي آشي) الشهير بابن المُلَقِّن، المولود بالقاهرة سنة ٧٢٣، والمتوفى بها سنة ٨٠٤ رحمه الله تعالى، وقد بلغَتْ مؤلّفاتُهُ نحوَ ثلاثِ مِئةِ مصنَّف، قال السخاوي:

«قال شيخنا ــ أي الحافظُ ابنُ حجر ــ : وكان عنده من الكتب ما لا يَدخُلُ تحت الحَصْر، ثم إنها احترقَتْ مع أكثرِ مُسَوَّداتِهِ في أواخرِ عُمُرِهِ، ففُقِدَ أكثرُها! وتغيَّرَ حالُه بعدَها! فحَجَبه ولَدُهُ إلى أن مات، وقال شيخنا أيضاً ــ الحافظُ ابنُ حجر ــ في «معجمه»: إنَّهُ قَبْلَ احتراقِ كُتُبِهِ كان مستقيمَ الذِّهْن، ولمَّا احترقَتْ كتبُهُ أنشده شيخُنا من نَظْمِهِ مُخاطِباً له:

لا يُزْعِجَنّكَ يا سِراجَ الدِّينِ إنْ ... لَعِبَتْ بكُتْبكَ ألْسُنُ النِّيرانِ
للَّهِ قد قرَّبتَها فتُقُبِّلَتْ ... والنَّارُ مُسْرِعةٌ إلى القُرْبانِ».

٢٧٣ ــ وقال الحافظ المُتقِنُ مُحدِّثُ حلب سِبْطُ ابنِ العَجَمي في كتابه «الاغتباط بمعرفة من رُمِيَ بالاختلاط»(2): «عُمَر بن علي بن أحمد الوادِي آشي، شيخُنا الحافظُ الشهيرُ بابنِ المُلَقِّن، اختَلطَ قبلَ موته ــ فيما بلغني ــ بسبب احتراقِ كُتُبه!». انتهى.

٢٧٤ ــ وجاء في مقدمة «تاج العروس من جَواهر القاموس» للمرتضى الزبيدي(3)، في ترجمة الإمام الفَيْرُوزْآبَادِي صاحبِ «القاموس»، وفي آخر «شرح دِيباجة القاموس» للعلامة الشيخ نَصْر الهُورِيني(4)، في ترجمة الفيروزآبادي أيضاً،

---

(1) ٦: ١٠٥.

(2) ص ١٩.

(3) ١: ١٣.

(4) ١: ٢٨.

ما يلي تلخيصاً:

«هو الإمامُ الهُمَام، قاضي القُضَاة، مَجْدُ الدين، أبو طاهرٍ محمدُ بن يعقوب بن محمد الشِّيرازي الفَيْرُوزْآبَادي، اللغويُّ المُحدِّث المفسِّر المؤرخُ الأديبُ قاضي اليَمَن، وُلِدَ سنة ٧٢٩ بكازَرين، ونَشَأَ بها، وحَفِظَ القرآنَ وهو ابنُ سبع سنين، وكان سَرِيعَ الحِفظ، وكان يقول: لا أنامُ حتى أحفَظَ مِئتَيْ سَطْر.

وانتَقَل إلى شِيراز وهو ابنُ ثمانِ سنين، وأخَذَ عن والدِهِ، وعن القِوَام عبدِ الله بن محمود، وغيرِهما من علماءِ شِيراز، وانتَقَل إلى العراق فدَخَل واسِطَ وبغدادَ، وجالَ في البلادِ الشرقيَة والشامية، ودَخَلَ بلادَ الروم والهند ومصر، وأخَذَ عن علمائها، ولَقِيَ الجَمَّاءَ الغفيرَ من أعيانِ الفُضَلاءِ، وأَخَذَ عنهم شيئاً كثيراً بيَّنَه في «فِهْرِسَتِه».

وبَرَعَ في الفنون العلمية، وجَوَّدَ الخَطَّ، وفاقَ الأقران، واعتَنَى بالحديثِ جداً، وتوسَّعَ في الحديثِ والتفسير، وجَدَّ واجتَهَد في علم اللغة، فمَهَر فيه إلى أن بَهَر، وفاقَ من حَضَرَ ومن غَبَر، وكان لا يُسافِرُ إلا وصُحْبَتُه عِدَّةُ أَحْمَالٍ كثيرةٍ من الكُتُب، ويُخرِجُها في كلِّ منزِلَةٍ لِيَنظُرَ فيها، ويُعيدُها إذا رَحَل، وحَصَّلَ كُتُباً نفيسةً، لكنه كان كثيرَ التبذير، فلا يُبقِي ولا يَذَر، وإذا أَملَقَ باع كُتُبَهُ! ومات بزَبِيد من اليَمَن سنة ٨١٧ رحمه الله تعالى، وقد ناهَزَ التسعين».

٢٧٥ ــ وقد وقع لشيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، المتقدمِ ذكرُه[1]، في كُهُولتِهِ غَرَقٌ أشرفَ فيه على الموت لولا أنَّ الله أحياه، وذهَبَ منه في غَرَقِهِ هذا عَدَدٌ من نفائس المخطوطات، كان يَصحَبُها معه في سفرِهِ وحضَرِهِ، لنفاستِها وتعلُّقِهِ بها، فكان دائمَ الحسرةِ عليها طُولَ عُمُرِه.

وذلك أنه في سنة ١٣٣٦ كان في بلدة قَسْطَمُوني، وأراد العودةَ إلى إصطنبول، وكان الوقت شتاء، ولا يُمكِنُ السفرُ إليها بالبَرِّ لكثرة الثلوج، فركِبَ طريقَ البحر، حتى إذا ما وَصَل إلى ميناء أَرَيْلي، استَقَلَّ قارِباً للذهاب إلى (أقتششهر) مِيناءِ بلدتِهِ (دُوْزَجَة) لزيارةِ أهلِهِ فيها.

(١) في الخبر ٢٥٠.

ولمَّا قارَبَ ساحلَ مدينةِ (أقتششهر) هاجَ البحرُ وانقلَبَ بهم القاربُ! ولكنهم ظَلُّوا متمسكين به، فما كان من اثنينِ على الشاطىء إلا أن نَزَلا إلى الماء، وسَبَحا ومعهما الحِبَالُ الطويلة، فرَبَطا القاربَ وعَادَا بالحِبالِ إلى من في الساحل لجَذْبِهِ، وأثناءَ جَذْبِهِ اشتَدَّتْ الأمواج حتى أَفلَتَتْ القارِبَ من أيديهم! وعاد القاربُ إلى وَسَطِ البحر، وغَرِقَ الشيخُ في قلبِ الأمواج!

ثم هَدأَ البحرُ قليلاً فأَنقَذُوا الغَرْقَى، ولم يَعرِف الشيخَ أحَدٌ من مَعَارِفِهِ، لشدةِ ما تحمَّلَ من البَرْدِ ومُقاومةِ الأمواج، وهم يَرَوْنَهُ في عِدادِ الأموات، ولكنَّ أحَدَ الشيوخ قال: آضرِبُوهِ على رجليه، ونكِّسُوا رأسَه ليَستفرِغَ الماءَ من جَوْفِه، فإن كان فيه حَيَاةٌ يُحيِيهِ اللَّهُ تعالى، ومَضَتْ مُدَّةٌ طويلةٌ والشيخُ كذلك، فإذا به تَعُودُ له الحركَةُ والحياةُ رُويداً رُويداً، ثم عادَ إلى حالتِهِ العاديَّةِ بعدَ أيامٍ طويلة.

وكان معه حين غَرَقِه مجموعةٌ من أنفسِ المخطوطات، منها ما هو من مخطوطاتِ القَرْنِ السادس، ومنها ما هو من القَرْنِ السابع، وكانت من عيون الذخائر، بلَغَ به الحِرصُ عليها أن يَستصحِبَها حيث سافر، وكان من بينها مجموعةُ رسائلَ فيها كتابٌ في (مناقب أبي حنيفة) لابن حجر الهَيْتَمِيِّ غيرُ المطبوع، وكتابُ (عقيدة الطحاوي)، بخطِّ ابنِ العديم وهو معروف بإجادة الخطِّ المَنْسُوب، وعليها تسميعاتٌ متوالية، ونفائسُ وذخائرُ غيرُهما ذهبَتْ مع الماء! وبَقِيَ الشيخُ يَتحسَّرُ عليها طَوالَ حياتِهِ رحمه الله تعالى.

٢٧٦ ــ وقال أبو جعفر أحمَدُ بن يوسف البغداديُّ المصريُّ الكاتب، المتوفى سنة ٣٤٠، في كتابِهِ «المكافأة»(١): «وحَدَّثني شُجاعُ بن أسلَم الحاسِبُ، قال: قلت لسَنَدِ بنِ علي: مَنْ كان سبَبَك إلى المأمون، حتى اتَّصَلْتَ به وكنتَ من جُلَسائِهِ من العلماء؟ فقال: أُحدِّثُك به:

كان والدي يَتكسَّبُ بصناعةِ أحكامِ النجوم، مع قومٍ من أسبابِ السلطان يَوَدُّونَه ويُحِبُّونَه، وتعلَّقَ قلبي بعدَ فراغي من قراءةِ كتاب «أُقْلِيدِس»، بكتابِ

---

(١) ص ١١٩.

«المَجَسْطِي»(١)، وكان في أيام المأمونِ بسُوقِ الورَّاقين رَجُلٌ يُعرَفُ بمعروف، يُورِّقُ هذا الكتابَ ـ أي يُهَيِّىء وَرَقَه ويَكتُبُهُ فيه ـ ويَبِيعُه بعدَ تَكامل خَطِّهِ وأشكالِهِ وتجليده بعشرين ديناراً، فسألتُ والدي ابتياعَهُ لي، فقال: أَنظِرْني يا بُني إلى أن يَتهيَّأ لي شيءٌ آخذُهُ، إما مِن رِزْق، وإما من فَضْل، وأبتاعُهُ لك.

وكان لي أخ لا يشتهي مما تقدَّمتُ أنا فيه من العلم شيئاً، إلا أنه كان يَخدِمُ أبي في حوائجِهِ والإشفاقِ عليه.

فلما سَوَّفني أبي بالكتاب، وطالَتْ المُدَّةُ فيه، رَكِبْتُ معه لأُمسِكَ دابَّتَه في دخولِهِ إلى من يَدخُلُ إليه، ولي إذْ ذاك سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً. فخَرَج إليَّ غِلمانُ مَنْ كان عندَه فقالوا: انصرِف، فقد أقام أبوك عندَ مولانا، فمَضَيْتُ بالدَّابَّةِ فبِعتُها بسَرْجِها ولِجَامِها بأقلَّ من ثلاثين ديناراً.

ومَضَيْتُ إلى معروفٍ، فاشتَرَيْتُ الكتابَ بعشرين ديناراً، وكان لي بيتٌ أخلُو فيه، وجِئتُ إلى أُمِّي فقلتُ لها: قد جَنَيْتُ عليكم جِنايةً! واقتَصَصْتُ القِصَّةَ عليها، وحَلَفْتُ لها إنْ شَحَذَتْ أبي عليَّ حتى يَمنعَني من النَّظرِ في الكتاب، لأَخرُجَنَّ عنهم إلى أبعَدِ غاية، ورَددتُ عليها فَضْلَ ثمنِ الدابَّة، وقلتُ لها: أنا أُغلِقُ بابَ هذا المنزلِ الذي لي، وأَرضَى منكم برغيفٍ يُلقَى إليَّ كما يُلقَى إلى المحبوس، إلى أن أقرأه جميعاً، فتَضَمَّنَتْ لي بتسكينِ فَوْرَتِه.

ودخلتُ البيتَ وأغلقتُه مِن عندي، فمَضَى أخي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه، فأسَرَّ إليه الخبَرَ، فتغيَّرَ وجهُهُ، وتَلَجْلَجَ في حديثه، فقال له من كان عنده: قد

---

(١) جاء في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة ١ :١٣٧ قولُهُ: «أُقْلِيدِس في أصول الهندسةِ والحساب، وهو بضم الهمزة وكسر الدال وبالعكس، لفظٌ يوناني، مركَّبٌ من (أُقْلي) بمعنى المفتاح، و(دِس) بمعنى المِقدار، وقيل: الهندسة أي مفتاحُ الهندسة» انتهى.

وفي «المعجم الوسيط» ٢ :٨٦١ «المِجَسْطِي: كتابٌ قديمٌ في الهندسة والفَلَك، وَضَعَهُ بَطْلَيْمُوسُ الفَلَكيُّ المصريُّ حوالي سنة ١٤٠ ميلادية، وتُرجِمَ إلى العربية في عهد المأمون، وعُدَّ حُجَّةً في بابه». انتهى. ونحوُهُ في «كشف الظنون» ٢ :١٥٩٤.

شَغلتَ قلبي وقلْبَ من حضرَ بما ظَهر منك، فبحقِّي عليك إلا أخبرتَنا بماذا؟ فحدَّثَهُ أبي، فقال الرجلُ: هذا واللّهِ يَسرُّنا في وَلَدِك، فاتَّعِدْ فيه بكلِّ جميل، ثم استَحضرَ من إسْطَبْلِهِ بَغْلاً أَفْرَهَ من بَغْلِ أبي، وسَرْجاً خيراً من سَرْجِه، وقال لأبي: اركَبْ هذا البَغْلَ ولا تُكلِّمْ ابنَك بحرف.

قال سَنَد: وأقمتُ ثلاثَ سِنين كيومٍ واحد، لا يَرى لي أبي صورةَ وجه، وأنا مُجِدٌّ حتى استَكمَلْتُ كتابَ المِجَسْطِي، ثم خَرَجْتُ وقد عَمِلتُ أشكالاً مُسْتَصْعَبات، ووضعتُها في كُمِّي، وسألتُ: هل للمهندسين والحُسَّابِ مَوْضِعٌ يجتمعون فيه؟ فقيل لي: لهم مجلسٌ في دار العباس بنِ سعيد الجوهري تِرْبِ المأمون، يَجتمِعُ فيه وجوهُ العلماء بالهيئةِ والهندسة، فحَضَرْتُهُ، فرأيتُ جميعَ من حضَرَ مشايخَ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري، لأني كنتُ في العشرين.

فقال العباس: من تكونُ وفيمَ نَظرتَ؟ فقلتُ: غلامٌ يُحبُّ صِناعةَ الهندسة والهيئة، قال: ما قرأتَ؟ قلتُ: «أُقليدِس» «والمِجَسْطِي»، قال: قِرَاءَةَ إحاطة؟ قلتُ: نعم، فسألني عن شيءٍ مستصعَب في كتاب «المِجَسْطِي» كان تفسيرُه في الأوراقِ التي كانت في كُمِّي فأجبتُه، فعَجِبَ وقال: مَنْ أفادك هذا الجوابَ؟ قلتُ: استخرَجْتُهُ قَرِيحَتي وما سَمِعتُه من غيري، وهو وغيرُه فيما مَرَّ بي في وَرَقٍ معي، قال: هاتِهِ، فلما رآه اغتَاظَ واضطَرَب، ثم قال لبعضِ مَنْ بينَ يديه من غِلمانِه: «السَّفَطَ»، فجِيءَ به، فنَظَر إلى خاتمِهِ فوجَدَهُ بحالِه، ثم فَضَّهُ وأخرجَ منه كُرَّاسةً، فجَعَلَ يُقابِلُ بها الوَرقَ الذي كان معي، فكان الكلامُ فيما معه أحسَنَ رَصْفاً من الكلام الذي معي، والمعنى واحد.

فقال: هذا شيءٌ تَوَلَّيتُ تبيينَهُ من كتاب «المِجَسْطِي»، فلما أحضرتَنِيهِ تَوهَّمْتُ أنه سُرِق مني، حتى تَبيَّنتُ اختلافَ اللفظين مع اتفاق المعنى. ثم أمَرَ أن يُقطعَ لي أَقْبِيَة، ويُرتادَ لي مِنْطَقَةٌ مُذهبَّة، ففُرِغَ من جميع ذلك في تلك الليلة، وأَدخَلَ بي إلى المأمون، وأَمَرني بملازمتِهِ، وأَجرَى لي أَنْزَالاً ورِزْقاً»(١).

---

(١) الأنزالُ جمعُ نُزُلٍ، وهو ما يُهيَّـءُ للضيف أن يَنزِلَ عليه. وليس في هذا الخبر ولا الخبرين اللذين بعدَه فَقْدُ الكتب أو تَلَفُها... كالأخبار السابقة، وإنما فيها بيعُ الثوبِ والركوبةِ، من أجلِ الحصول على الكتاب، فهو قريبٌ من ذاك.

٢٧٧ ـ وجاء في «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» لأستاذنا العلامة المحدِّث المؤرِّخ الأديب الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى[١]، في ترجمةِ علاَّمةِ حلب في عصره الشيخ أحمد الحجَّار، المولود سنة ١١٩٠، والمتوفى سنة ١٢٧٨ رحمه الله تعالى، ما يلي:

العلامة الشيخ أحمد بن قاسم الشهير بالحجَّار، من أهل النسب الطاهر العلوي، الفقيهُ الحنفي الأصولي الفرضي النَّحْوِي، الحَفَّاظُ، وقد حَفِظَ كتاب «جمع الجوامع» الأصولي عن ظهر قلب في فترة يسيرة، وكان حلاَّلَ المشكلات في العلوم والمعارف النقليةِ والرياضية، مُشاركاً في علم الفَلَك والطب وغيرهما، آيةً من آيات الله في العلم والعَمَلِ والذكاءِ وقوةِ الحافظة، له غرام عجيب بالكتب وجمعِها واقتنائها.

قال الشيخ بكري الكاتب في ترجمتِهِ له: وبلغَتْ قيمةُ مكتبتِهِ بعدَ موته أربعين ألفاً، مع أنها بِيعَتْ بغير أثمانها! وكان رحمه الله يحب اقتناء الكتب، حتى سمعنا أنه رأى كتاباً يُباعُ، ولم يكن معه دراهم، وكان عليه ثياب، فنَزَع بعضَها وباعَهُ واشترى الكتابَ في الحال.

٢٧٨ ـ وقال العبد الضعيف مؤلِّفُ هذه (الصفحات): كنتُ في أيامِ الطلب والتحصيل مُمْلِقاً كأكثرِ طلبة العلم، وكنتُ أشتري من الكتبِ ما أستطيعُ شراءَهُ بالاقتطاع من نفقتي الضيقة، بالنقدِ الحاضر أو بالدَّينِ الآجلِ إذا أمكن.

وعَرَضَتْ لي يوماً بعضُ كتبٍ نادرة تهمني جداً، ورَغِبتُ في اقتنائها، ولكني كنتُ في إملاقٍ شديد، فلا سبيلَ إلى شرائها! وقَلِقَ قلبي وخاطِري من جَرَّاءِ ذلك، فبِعتُ (شَالَتِي) التي وَرِثْتُها من أبي رحمه الله تعالى في (سُوق الحراج)[٢]، واشتريتُ تلك

(١) ٧: ٣١١ ـ ٣١٥.

(٢) الشَّالَةُ والشَّالُ: قِطعةُ نسيجٍ رهيفٍ من الصوفِ الناعم الرفيع النفيسِ الملوَّن، تكادُ تكونُ مُرَبَّعةً في حَجْمِها، تزيدُ على المتر طولاً، وتُقارِبُهُ أو تكونُ نحوَ ثلثيه عَرْضاً، ذاتُ خطوطٍ ونقوشٍ ملوَّنَة جميلة، تُصنَعُ في بلاد العجم (إيران وما جاورها)، وكانت تُعرَفُ في بلادنا باسم (الشَّالِ العَجَمِي)، ويَلبَسُها الرجالُ فيَلُفُّها لابسُها حِزَاماً على وسَطِ الثوب العربي المفتوح، وتُوضَعُ الصغيرةُ الرفيعةُ المستطيلةُ منها على العُنُقِ في الشتاءِ لدفع البَرْد.

الكتب، وأَرَحْتُ قلبي وخاطري، وفَرِحتُ باقتنائِها ووصولي إليها فَرَحاً عظيماً أنساني فَقْدَ (الشالة) والحمدُ لله.

وكنتُ في بعضِ الأحيان أَنذُرُ لله تعالى صلاةَ كذا وكذا ركعةً، إذا حَصَلتُ على الكتابِ الفلاني، ووقَعَتْ لي واقعة في شأنِ الحصول على كتابٍ، أُسجِّلُها هنا استطراداً لطرافتِها:

لمَّا كنتُ في القاهرة أيامَ دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر، أوصاني شيخنا العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، خِلالَ ملازمتي له باقتناءِ كتاب «فَتْح بابِ العِنَاية بشرح كتاب النُّقَاية» للعلامة الشيخ عليّ القاري، وحَضَّني على الحصولِ عليه حَضّاً أكيداً وكثيراً، مع علمِهِ أني من هُواةِ الكتب النادرة النافعة، وكنتُ أظنُّ أنه مطبوعٌ في الهند، وقد مكثتُ في القاهرة سِتَّ سنوات حتى إنهاءِ دراستي أسألُ عنه، وأنشدُهُ في كلِّ مكتبةٍ أُقدِّرُ وجودَهُ فيها، فلم أظفَر منه بخبرٍ ولا أَثَر.

ولما عُدتُ إلى بلدي حلب، ما فَتِئتُ أبحَثُ عنه أيضاً في كل بلدٍ أَزُوره أو مكتبة أرتادها، ولما كنتُ أظنه مطبوعاً في الهند، وكان هو من كتبِ فقهِ السادة الحنفية، كنتُ أسأل الكتبيين عن مطبوعاتِ الهند في الفقهِ الحنفي عامة، لعلي أصلُ إليه بهذه الطريقة، إذ قد يَجهلون اسمَهُ، وكان في دمشق كتبيون قُدَماءُ خُبراءُ في الكتب القديمة والنفيسة، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير، ولكنهم يُغالُون به ويَتشدَّدون في بيعه، منهم السيد عزَّت القُصَيباتي ووالدُهُ، والشيخ حَمْدِي السَّفَرْجَلاني، والسيد أحمد عُبَيد.

فسألتُ السيد عزت القُصَيْبَاتي عن «فتح باب العناية» على أنه من مطبوعاتِ الهند، فقال: هو عندي، وأَخرَجَ لي كتابَ «البِناية بشرح الهِداية» للإمام العيني، المطبوع في الهند من مِئة عام سنة ١٢٩٣، في ست مجلَّداتٍ ضِخام كبارٍ جداً، وكان هذا الكتابُ أحَدَ الكتب النادرة النفيسة التي أبحَثُ عنها، فاشتريته بثمنٍ غيرِ مُغَالى فيه، إذْ كان غيرَ الكتاب المطلوب الذي سَمَّيتُهُ له.

ثم سألتُ الشيخَ حَمْدي السَّفَرْجَلاني رحمه الله تعالى عن الكتاب، فعَلِمتُ منه أنه مطبوعٌ في قَزَان من بلادِ روسيا، وأنه أندَرُ من الكِبريتِ الأحمَرِ كما يقال، وأنه طُولَ حياتِهِ

واشتغالِهِ بالكتب ما مَرَّ به منه سِوى نسخةٍ واحدة، كان قد باعها للعلامة الكوثري بأغلَى الأثمانِ التي لا تُعقَل، فعندَ ذلك تَعيَّنَ عندي البلدُ الذي طُبِعَ فيه الكتاب، وضَعُفَ أملي بالحصولِ عليه!

ولما أتاح الله لي حَجَّ بيتِهِ الكريم أوَّلَ مرة عام ١٣٧٦، ودخلتُ مكة المكرمة: طَفِقتُ أسألُ عنه في مكتباتها، لعلي أجدُهُ قادِماً مع أحَدِ المهاجرين من تلك البلادِ إلى بلدِ الله الحرام؟ فلم أوفَّقْ لذلك.

ثم ساقتني عِنايَةُ الله تعالى إلى كتبيٍّ قديمٍ مُنْزَوٍ في بعضِ الأسواق المتواضعةِ ثم في مكة المكرمة، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطي سلَّمه الله تعالى، فاشتريتُ منه بعضَ الكتب، وسألتُهُ ــ على يأسٍ ــ عنه، فقال لي: كان عندي من نحو أسبوع، اشتريتُهُ من تَركَة بعضِ العلماء البُخَاريين، وبِعتُهُ لرجلٍ من بُخارَى من علماءِ طَشْقَنْدَ بثمنٍ كريم، فما كِدتُ أُصدِّقُهُ حتى جَعَلَ يَصِفُهُ لي وَصْفاً مُثْبِتاً لمعرفتِهِ به، وأنه الكتابُ الذي أَلُوبُ عليه، وأسعَى منذ دَهْرٍ إليه!

فقلتُ: مَنْ هذا العالمُ الطَّشْقَنْدِيُّ الذي اشتراه؟ فجَعَلَ يتذكَّرُهُ تذكُّراً ويُسمِّيهِ لي: (الشيخ عِناية الله الطَّشْقَنْدِي). فقلتُ: أين مسكنُهُ أو مَحَلُّ عَمَلِهِ أو ملتقاه؟ قال: لا أدري عن ذلك شيئاً، فقلتُ: كيف أسألُ عنه؟ قال: لا أدري، فازددتُ عند ذلك يأساً من الحصولِ عليه أو لقاءِ مشتريه!

فذهبتُ بعدَ هذا أسألُ عن (الشيخ عِنايةِ الله) كلَّ بخاريٍّ أَراهُ في المسجدِ الحرام أو في أسواقِ مكة، وصِرتُ أذهَبُ إلى المدارس والرُّبُطِ التي يُقالُ لي: فيها بُخارِيُّون، لأسألَ عن هذا الشيخ البخاريّ، حتى ذهبتُ إلى الأحياءِ الواقعةِ خارجَ مكة، إذْ قِيلَ لي: فيها بعضُ البخاريين، ولكنْ هيهات اللقاءُ بالمنشودِ عنه؟! وكم في مكة المكرمةِ من البخاريين الذين يُسمَّوْنَ: عِنايةَ الله!

ثم أوصلني السؤالُ المتتابعُ إلى الشيخ عبد القادر الطَّشْقَنْدِي البخاريّ الساعاتي رحمه الله، في جهة حَيِّ جَرْوَل من أطرافِ مكة، فسألتُهُ عن الشيخ الطشقندي، فعَرَفَهُ وعيَّنَ لي ٱسْمَهُ: (الشيخ مِيرعِناية الطشقندي)، ولكن لا عِلمَ له بمستقره وملتقاه، فعندَ ذلك غَلَبني اليأسُ من لقاءِ هذا الشيخ الذي عنده «فتحُ باب العناية»! فصِرتُ في أثناءِ

طَوَافي حولَ الكعبةِ المعظمةِ زادها الله تشريفاً وتعظيماً: أطلُبُ من الله تعالى أن يُرشدني إلى ذلك الإنسان، ويُيسرَ لي اقتناءَ هذا الكتاب، وصِرتُ أكرِّرُ هذا الدعاءَ والطلبَ مَرَّاتٍ تِلْوَ مرَّات، ومَضَى أسبوعُ وأنا ــ عَلِمَ الله ــ في تَشَتّتِ بالٍ من حالِ البحثِ عن الكتابِ وصاحبِه.

حتى كنتُ يوماً أمشِي في سُوق بابِ زيادة من أبوابِ المسجدِ الحرام قبلَ توسعة المسجد، فرآني تاجرٌ دمشقيٌّ قديمٌ في مكة المكرمة، يقال له: أبو عَرَب، كان له مَتْجَرٌ هناك، فدعاني إلى متجره لما رآني شامِيَّ السَّحْنةِ والمَظْهَر، يُسائِلُني عن الشام وأهلِها، فسألتُهُ من شِدَّةِ هَوَسي بالكتاب ــ وهو تاجرٌ دمشقيٌّ شامي ــ عن الشيخ البخاري؟! فقال لي: هذا خَتَنُه زَوْجُ ابنتِه في الدُّكَّانِ الذي أمامي، وهو أعرَفُ الناس به، فواللَّهِ ما كِدتُ أُصدِّقُ ذلك فَرَحاً وسُروراً.

فذَهَبْتُ إلى خَتَنِهِ وسألتُه عنه، فاستَغرَبَ قائلاً: ما الذي يدعوك للسؤالِ عنه وإلى لقائِهِ؟ قلتُ: صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائبُ البحثِ عنه، فدُلَّني عليه جزاك الله خيراً، فأرشَدَني إلى منزلِهِ بالتعيين في حي المِسْفَلة، جوارَ قَهْوَةِ السَّقِيفَة، فذهبتُ إليه مرَّةً بعدَ مرةٍ ليلاً ونهاراً، حتى لقيتُه، فتنازَلَ لي عن الكتاب بالثمن الذي اختَارَ وأَحَبَّ، فكانت عندي فَرْحةٌ من فَرَحَاتِ العُمُر.

وقد مَنَّ الله عليَّ بنشر الجزء الأول من هذا الكتاب مُحقَّقاً، وأسألُ الله تعالى أن يَمنَّ عليَّ بنشرِ باقي الكتابِ بفضلِهِ وكرمِه.

أنتقل بعد هذا إلى الجانب السابع:

الجانب السابع
في أخبارهم في التبتُّل وتركِهم الزَّوَاج وهو من المرغوبات[1]، في سبيل الازديادِ من العلم والانقطاعِ له، والتفرُّغِ للارتحالِ والتأليفِ والاستفاداتِ والإفادات

٢٧٩ ـ الزَّوَاجُ في الإسلام مرغَّبٌ فيه أتمَّ الترغيب، ومحضُوضٌ عليه آكد الحَضّ، إلى جانب أنه أمرٌ فِطري مركوزٌ في الطبيعة الإنسانية، يَسعى الإنسانُ إليه بدافع الفطرة، وهو شَطْر هامٌّ كبير من الحاجة الأصلية في هذه الحياة، محقِّقٌ لاكتمال الذات، وإنشاء الذرية، وبقاءِ النَّسل والنوعِ الإنساني، وعمارةِ الكون.

٢٨٠ ـ وقد أمَرَ الشرع الحنيف به أمراً أكيداً لمن خَشِيَ العَنَت والزنى، وعدَّه بعضُ الأئمة الفقهاء من قسم العبادات[2]، لما يترتب عليه من استمرار النسل الصالح في الوجود، وتلقِّيهِ الإسلامَ عن الآباء، وتبليغِهِ إلى الأبناء، وهكذا حتى يَرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومن عليها، ولِمَا لَهُ أيضاً من آثار طيبة على سلوك الإنسان في طُهره وعفافه، وكمالِ دينه واستقرارِ نفسه، وسلامةِ خواطره، فإن غريزة الشهوة إذا استَيْقَظَتْ في

(١) يقال في اللغة: تَبَتَّل فلان إذا انقطع عن الزواج وتركَهُ زُهداً فيه. قال الزمخشري في «أساس البلاغة» في (بتل): «وقيل لمريم عليها السلام: العَذْراءُ البَتُول، لانقطاعها عن الأزواج، ثم قيل لفاطمة رضي الله عنها: البَتُول، تشبيهاً لها بمريم في المنزلة عند الله تعالى».

(٢) قال الإمام الفقيه الحنفي أبو زيد الدَّبُوْسِي رحمه الله تعالى: «قال علماؤنا: النكاحُ أفضَلُ من التخلي لعبادةِ الله تعالى. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: التخلِّي للعبادة أفضَلُ، إلا أن تَتُوقَ نفسُهُ إلى النساء، ولا يَجِدَ الصبرَ على التخلِّي». انظر بحثَ هذه المسألة بإسهاب، عند الإمام أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، في كتابه «الفنون» القسم الأول ص ٣٢٦ ـ ٣٣٥ والقسم الثاني ص ٤٨٢ ـ ٤٨٤.

الإنسان العَزَب، شَتَّتَتْ عليه الفكرَ والرأي، وأقلقَتْ منه العينَ والنَّفْس، وقد تُزَحزِحُه عن الجادَّة والاستقامة، وتَهوِي به إلى السقوط في هُوَّةِ الإهانةِ والهلاك[1].

---

(١) نَقَل الحافظ المرتَضى الزَّبيدي في كتابه «تاج العروس: شرح القاموس» ٥: ١٥. مادة (نَعَظَ)، عن التابعي الجليل العابد الزاهد أبي مسلم الخَوْلاني الشامي، الذي كان حكيمَ الأمة، أنه قال رحمه الله تعالى:

«يا معشرَ خَوْلان، أَنكِحُوا نساءَكم وأيَامَاكم، فإنَّ النَّعْظَ ـ وهو شِدَّةُ تَوَقانِ النفس للنكاح ـ أَمْرٌ عارمٌ، أي أمرٌ شديد الخُطُورة، فأعِدُّوا له عُدَّةً، واعلموا أنه ليس لِمُنْعِظٍ رَأْيٌ». انتهى. والمُنْعِظُ من اشتَدَّتْ شهوتُهُ للنكاح.

ورَوَى هذا الخبرَ بتمامه الإمامُ سعيدُ بنُ منصور في «سننه» ٣/١: ١٢٣، وجاء في روايته قولُ أبي مسلم الخَوْلاني: «واعلموا أنه ليس لمُنْعِظٍ أُذُنٌ». انتهى. أي ليس لديه قابليةٌ أن يَستمعَ الموعظةَ ويَقبلَ النُّصحَ، لاشتغالِ ذهنِهِ وخاطِرِه، وتعلُّقِ قلبِهِ وبَدَنِهِ بتَوَقانِ نفسِه، فليس لديه أُذُنٌ لقبولِ الوعظِ والنصح، ولا رأيٌ للاستفادةِ منه، لتشتتِ بالِهِ وخاطرِهِ بتسلُّطِ الشَّبَقِ عليه.

وهذا كلامٌ وجيهٌ للغاية من حكيم الأمةِ رحمه الله تعالى، فإنَّ الرأيَ والذهنَ يَتشتَّتُ بأقلَّ من هذا، ومن الكلام المأثور الذي نقلَه ابنُ قُتَيْبَة في «غريب الحديث» ٣: ٧٤٩، والزمخشريُّ في «الفائق في غريب الحديث» ١: ٣٠٠، وابنُ الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» ١: ٣٧٨ و ٤١١ و ٤١٦: «لا رَأْيَ لحاقِنٍ، ولا حاقِبٍ، ولا حازِقٍ».

والحاقِنُ: الذي حَبَس بولَهُ، ويَدْفَعُه الدافعُ الشديدُ لإراقتِهِ. والحاقِبُ: الذي حَبَس غائطَه، ويَدفعُهُ الدافعُ الشديدُ إلى إخراجِهِ. والحازِقُ: الذي حَزَقَ قَدَمَهُ أي عَصرَها وضَغَطَها بلُبْسِهِ الحِذاءَ الضيِّق. فإذا كان هؤلاء لا رأيَ لهم، فمن بابِ أولى: لا رأيَ لمُنْعِظٍ ولا أُذُنَ له، لأنه قَلِقٌ نفساً وقلباً وبدناً ولُبّاً.

فائدة مُهِمَّة: هذا الأثرُ الذي ذكرتُه هنا: (لا رأيَ لحاقِنٍ...)، أورده الزمخشري وابن الأثير بلفظ (جاء في الحديث...)، دون عزو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو غيره، وأورده ابن قتيبة تحت عنوان (أحاديثُ سمعتُ أصحابَ اللغة يذكرونها لا أعرفُ أصحابَها).

ولفظُ (الحديث) يُطلَقُ على قول الرسول صلى الله عليه وسلم، ويُطلَقُ على قولِ غيرِه من الصحابة والتابعين، كما هو مقرر في علم المصطلح، ولكنه عند إطلاقِ قولهم: (جاء في الحديث...)، وفي مثلِ هذا المقام يَتبادرُ للقارىء أنه حديث نبوي، لأنه ذُكِرَ في سياق الأحاديث النبويةِ التي فيها ألفاظٌ غريبة، لتُشرَحَ معانيها، فلهذا يُورده بعضُ الناس (حديثاً)، استناداً لذكره في هذه الكتب وأمثالها.

=

٢٨١ ــ فلذا كان الزواج ــ إلى جانب أنه مُتعة مشروعة ــ أمراً أساسياً وحاجةً أصلية من حاجات الإنسان في الحياة ، يَصعُبُ عليه التخلي عنها إلا لشوقٍ غلّابٍ مُحرِق، أو لتعلُّقٍ شديدٍ بعزيزٍ غالٍ على النفس جداً، يَفوقُ تعلُّقَها بالزواج، ويزيدُ عليه تملُّكاً للقلب واستيلاءً على الخاطر، مثلِ طلب العلم في بعض العلماء، والقيامِ بالجهاد عند بعض المجاهدين، وتحصيلِ عُلْيا الرغائب لدى ذوي النفوس الطمّاحة الشمّاء.

٢٨٢ ــ ومن السهل أن ندرك أن التبتل والانقطاع عن الزواج اختياراً: شِدَّةٌ من أكبر الشدائد في حياة الإنسان العالم، يَفقِدُ بها الأُنسَ الرُّوحي، والسُّكون النفسي، ويَتحمَّلُ معها مَشاقَّ العُزُوبة في شؤون الطعام والشراب والنظافةِ وخدمةِ البيت والمسكن، ويُحرَمُ بسببها من رعاية المرأة وحنانها عند نزول الأمراض والأسقام عليه، ومن خدمةِ بنيهِ له في وقتِ حلولِ الشيخوخةِ ومتاعبها لديه، وهذه شدائدُ متراكمة، ومَشاقُّ متعاظِمة، لا يَتحمَّلُها إلا من رأى الصبرَ عليها، أهونَ عليه من فَقْدِ الازديادِ من العلم وتحصيلِه وبَثِّه، فآثَرَ ما يراه له أغنَمَ وأعظَمَ، على ما يراه له ألذَّ وأنعم، كشأنِ العلماء العُزَّاب الذين سأذكُرُ أخبارَ طائفةٍ منهم، وهم من أساطين العلم الكبار.

= وهذا استنادٌ خاطىء لا يجوز الاعتمادُ عليه، فكتبُ الغريب تُورِدُ كلامَ النبي صلى الله عليه وسلم، وكلامَ غيره من الصحابة والتابعين، وتُوردُ الحديثَ الصحيحَ وغيرَ الصحيح، جاء في «تاريخ بغداد» ٦ : ٣٥، في ترجمة الإمام إبراهيم الحربي، وفي ١٢ : ٤١٣، في ترجمة الإمام أبي عُبَيد القاسم بن سَلّام: «قال سليمان بن إسحاق البزّاز: سمعتُ إبراهيمَ الحربيَّ يقول: في كتابِ أبي عُبَيدٍ «غريبِ الحديث» ثلاثةٌ وخمسون حديثاً ليس لها أصل»، ثم ذَكَر منها خمسةَ أحاديث كنموذج. وقال في الموضع الثاني «فيه خمسةٌ وأربعون حديثاً لا أصلَ لها».

وقال ابن قتيبة في ختام مقدمة كتابه «غريب الحديث» ١ : ١٥٢ «ابتدأتُ بتفسير غريب حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وتلوتُهُ بأحاديثِ صَحابتِهِ رجلاً رجلاً، ثم بأحاديثِ التابعين ومَنْ بعدَهم، وختمتُ الكتابَ بذكر أحاديثَ غيرِ منسوبة، سمعتُ أصحابَ اللغة يذكرونها، لا أعرِفُ أصحابَها ولا طُرقَها، حَسَنةِ الألفاظِ لِطافَ المعاني». انتهى.

فهذا يفيد أنه لا يسوغُ الاعتمادُ على الأحاديث التي تُورِدُها كتبُ الغريب، لتفسير معناها، ولو صُرِّحَ فيها بنسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لم يُعلم ثبوتُها عن طريق معرفةِ أسانيدها أو من أخرجها من المحدثين المعتبرين.

٢٨٣ ــ وقبل أن أسوقَ تلك الأخبار، أستحسنُ أن أُشيرَ بإيجاز بالغ إلى المسوِّغ الذي بسببه عَزَب هؤلاء العلماءُ الأئمةُ عن الزَّواج إلى العُزوبة[١]، مع علمهم بأحكام الزواج وفضلِه، ومخاطِرِ العزوبة ومتاعِبها، وخصوصاً أنه لم يَرِد نصٌّ صحيح عن الشارع يُشجِّعُ على العزوبة[٢]، فما الذي حَدَا بهم إلى تركِ الزواج؟ مع أنهم لا يَجهلون أحكامَ النكاح والمرغِّباتِ فيه بل الفقهاء منهم قرَّروها في كتبهم ومؤلفاتهم.

٢٨٤ ــ والجوابُ عن حالهم هذه ــ والله أعلم ــ أنها مسلكٌ شخصي فَرْدِي، اختاروه لأنفسهم، مايَزُوا فيه ببصيرتهم الخاصَّةِ بين خيرِ الزواج وخيرِ العلمِ الذي يقومون به، فرجَحَ لديهم خيرُ العلم على خير الزواج لهم، فَقدَّموا مطلوباً على مطلوب، ولم يَدْعُوا أحداً من الناس إلى الاقتداءِ بهم في هذا المسلك، ولا قالوا للناس: التبتُّلُ للعلم أفضَلُ من الزواج، ولا ما نحن عليه أفضل مما أنتم عليه.

ولا ذهبوا في ترك الزواج مذهبَ بعض الحكماء والفلاسفة، القائلين بأن إيجاد

---

(١) وقد تعرَّضتُ بتوسع وإسهاب لبحثِ مُسوِّغ العُزُوبة لهؤلاء العلماء الكبار، في كتابي: «العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزَّواج» ص ٩ ــ ٢١ من الطبعة الأولى والثانية والثالثة، وهو كتاب طريف فريد في بابه يزيد على ١٥٠ صفحة.

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» ص ١٢٧: «أحاديثُ مَدْح العُزوبة كلُّها باطل».

وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» ص ٢٠٣: «حديثُ: خيرُكم في رأس المئتين الخفيفُ الحاذِ ــ ويُروَى: خفيفُ الحاذِ ــ، قيل: يا رسول الله، وما خفيفُ الحاذِ؟ قال: من لا أهلَ له، ولا مال. رواه أبو يعلى في «مسنده» من حديث رَوَّاد بن الجرَّاح، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن رِبْعي، عن حُذيفة مرفوعاً، وعِلَّتُه رَوَّاد، ولذا قال الخليلي: ضعَّفه الحُفَّاظ فيه وخَطَّؤوه، انتهى. فإن صحّ فهو محمول على جواز الترهُّب أيامَ الفتن، وفي معناه أحاديث كثيرة كلُّها واهيةٌ، منها... ومنها... ومنها...».

والحاذُ بتخفيف الذال المعجمة: الظَّهْر، وأُريدَ بِخفَّةِ الحاذِ هنا مجازاً: خِفَّةُ المال والعِيال. وجاء تفسيرُه الحاذِ في الحديث عند الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٢: ٥٥ بلفظ: «قال: من لا أهلَ له، ولا وَلَد».

الولد جنايةٌ عليه! قال ابن خلكان في «وفَيَات الأعيان»[١]، في ترجمة أبي العلاء المَعَرِّي (أحمد بن عبد الله) الشاعر اللغوي الفيلسوف المشهور: «وبلغني أنه أَوصَى أن يُكتَب على قبره هذا البيتُ:

هذا جناه أبي عليَّ وما جَنيتُ على أحد

وهذا البيتُ متعلق باعتقاد الحكماء، فإنهم يقولون: إيجادُ الولد وإخراجُه إلى هذا العالم جنايةٌ عليه، لأنه يَتعرَّضُ للحوادث والآفات». انتهى.

حاشاهم من هذا كلِّه، وإنما اختاروا تركَ الزواج لأنفسهم اختياراً فردياً، ووضحَتْ لهم السلامةُ من غوائل العُزوبةِ وشُرورِها، بما حفظهم الله تعالى به من التقوى والإيمان والعلم.

٢٨٥ ــ وما عَزَب بهم عن الزواج المركوزِ في الفطرة، إلى العزوبةِ التي لا تُجهَلُ مصاعِبُها ومتاعِبُها، إلا الشوقُ المتزايدُ للعلم الذي اشتَعَلَتْ هِمَمُهم به تعلُّقاً وحُبّاً وتحصيلاً، وجمعاً ونشراً وتدويناً، حتى غدا العلمُ منهم بمنزلة الرُّوح من الجسد، والماءِ من العُوْد الأخضر، والهواء من حياة الإنسان، لا يستطيعون له فِراقاً، ولا يُطيقون التنازلَ عن تحصيل أدنى قِسطٍ منه يُمكِنُهم تحصيلُه، فصار العِلمُ منهم بموقع الغِذاء والدَّواءِ جميعاً.

٢٨٦ ــ ورأوا الزواج ــ على خيره وفضله ــ سبباً شاغلاً كبيراً عن تحصيل هذا المطلبِ الشريفِ المُنيف، وقَيْداً معوِّقاً لهم عن التفاعل والاحتراقِ بالعلم والتحصيلِ الحبيب العزيز، فآثَرُوا الخيرَ الأعمَّ على حَظِّ النفس الخاصّ بهم في الجملة، اجتهاداً منهم أنَّ ذلك أغنَمُ لهم تحصيلاً، وأفضلُ عليهم للازدياد من رضوان الله سبيلا[٢].

---

(١) ١: ٣٤.

(٢) وتقدم في الخبر ٣٤ أنَّ الحافظ أبا نصر السِّجْزيَّ عَرَضَتْ عليه امرأةٌ ألفَ دينار ليتزوَّجَها ولِتَخْدِمَهُ، فأبَى وقال: خَرجتُ من سِجِسْتان بنيَّةِ طلبِ العلم، ومتى تزوَّجتُ سَقَط عني هذا الاسمُ، وما أُوثِرُ على ثوابِ طلبِ العلم شيئاً.

٢٨٧ ــ ولا يُمكِنُ أحـدٌ منّا أن يُنكِرَ أن العلائق إذا كَثُرتْ شَغلَتْ عن العلم وتحصيله. وعلائقُ الزَّواج والزوجةِ والأولادِ وما إليها من أقوى الشواغل إن لم نقل: من القواطع عن العلم عند كثير من الناس، حتى قال الإمام بِشْرٌ الحافي الكلمةَ المشهورة في هذا المعنى: «ضاع العلمُ في أفخاذِ النساء»[1].

وتُروَى هذه الكلمة بلفظِ «ذُبِـحَ العلمُ بين أفخاذ النساء»، إشارةً إلى أنَّ كثيراً من العلماء، وقَفَ بهم الزواج وما يتصل به من مُتَعِه أو مسؤولياته ومشاغِلِه بالأولاد وغيرهم، عن متابعة العلم، فضَمَر العلمُ لديهم واضمحل!

ولا شكَّ أنَّ الزواج قَيْدٌ ثقيل بِمسؤولياتِهِ المادية، ومسؤولياتِهِ المعنوية، وبالانعطافاتِ التي يُسبِّبُها للانصرافِ عن العلم أوقاتاً كثيرة، أو إلى الأبد، كما هو معلوم لكل متزوِّجٍ صاحبِ عِلم، يُحبُّ العلمَ، ويُتابعُه، ولكل متزوِّج صُرِف عن العلم، وحُرِم منه!

٢٨٨ ــ ومن طريف ما نُقِلَ من التقييد بالزواج: ما حكاه الإمام تقي الدين السبكي في كتابه «ترتيب ثقاتِ العِجْلي»، في ترجمة أحد أئمة المحدثين الكبار: (مَعْمَر بن راشد البصري)، الذي كان يَرحَلُ من بلد إلى بلد لِيَنْشُرَ الحديث النبوي، ويَجمَع إليه ما لم يكن عنده منه، فلما حَلَّ في اليَمَن رَغِبَ أهلُ تلك الديار أن يَبقى عندهم، ليَكسِبوا من علمه وفضله، فاختاروا له قَيْداً منعوه به من مغادرتهم، وكان ذلك القيدُ هو أن زوَّجوه امرأةً منهم، فكانت قَيْداً له حَبَسه عن الرحلة والعودة إلى الوطن الأول، فاستمر لديهم إلى آخر الحياة.

قال العِجْلي في ترجمته: «مَعْمَرُ بن راشد، يكنى أبا عُروة، بصريٌّ سكَنَ صنعاءَ اليَمَن، وتزوَّج بها، ثقةٌ رجل صالح، وكان من عقلاء الرجال، رَوَى عنه ابنُ المبارك، ورَحَل إليه سفيانُ الثوري، وسَمِعَ منه بصنعاء.

ولمَّا دخل صنعاء كرِهوا أن يَخرج من بين أظهرهم، فقال لهم رجل: قَيِّدُوه، فزَوِّجُوه». فأقام عندهم حتى مات سنة ١٥٣ رحمه الله تعالى.

---

(١) كما في كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للعلامة علي القاري ص ١٢٠.

٢٨٩ ــ ومن لطيفِ ما أُشِيرَ به إلى أن الزواج قَيْدٌ ومسؤولياتٌ ثقيلة: قولُ بعض الظرفاء:

إنَّ ذِئباً أَمْسَكُوه وتمارَوْا في عِقابِهْ
قال شيخٌ: زَوِّجُوه ودَعُوهُ في عذابِهْ

فالزواجُ وما يتصل به وما يَنشأ عنه ويترتَّبُ عليه: قَيْدٌ لا ريب فيه، وله مسؤوليات تأخُذُ جوانبَ كبيرةً من حياة الرجل مادِّياً ومعنوياً، وتقتَطِعُ من فراغه للعلم كثيراً، بل قد تَقطَعُه عن العلم أو الازديادِ فيه قطعاً! كما شُوهِدَ ذلك في كثيرٍ من العلماء الأذكياء، فلذا آثر بعضُهم العُزوبَةَ عليه.

٢٩٠ ــ وبعدَ هذا أسوقُ تراجمَ طائفةٍ من هؤلاء الأئمةِ الأعلام العُزَّاب، المقتدَى بهم في علوم الدين، من عصورٍ مختلِفة، ومذاهبَ متعدِّدة، من مفسِّرين، ومحدِّثين، وفقهاءَ، وأصوليين، ولغويين، ونَحْويين، وأدباءَ، ومؤرِّخين، ومتزهِّدين، لتكون كالنماذج لكثيرٍ سواهم، من الذين صَبَرُوا على شدائدِ العُزوبةِ ومَشاقِّها، في سبيل تحصيل العلم والازديادِ منه، فآثَرُوا نَفْعَ غيرهم على لَذاذَةِ أنفسِهم، رضي الله عنهم، وأحسَنَ إليهم بما أحسنوا للعلم وأهلِه؛ ولا يعني هذا الدعوةَ للعزوبة كما زعمه زاعم متعالم.

٢٩١ ــ وقد توخَّيتُ في اختيار من أُترجمُ لهم من (العلماء العُزَّاب)، أن تكون سِيرتُهم مُوجِّهةً مُعَلِّمة حافزة، وأن تكون حياتُهم العِلميةُ والسُّلوكيةُ جيَّاشةً نبَّاضَةً بأنواع الفضائل والمآثِر، تَبعَثُ في نفس قارئها الائتساءَ والاقتداءَ بهم (خلا العُزُوبة)، وتَطبعُ في شخصيتِهِ الخيرَ وحُبَّ العلم والالتهابَ به، وتَشُدُّه إلى الصلاح والتقوى.

٢٩٢ ــ ولِيشهَدَ (طلابُ العلم اليوم!) من خلال تراجم أولئك الأئمة، غلاءَ العلم ورفْعَتَه ومَعَزَّتَه عند هؤلاءِ العلماءِ الفضلاء الصلحاءِ النبلاء، الذين اختاروا حِرمانَ أنفسِهم من أُنسِ الزواج ومُتْعَتِه، ومنفعتِه ورعايتِه طُولَ حياتهم، ابتغاءَ أن يزدادوا من العلم وتحصيلِه، ومن خِدمتِه وتبليغِه لمن بعدَهم، فآثرونا على حصول الزوجة والأولادِ، والنَّسْلِ والذُّريَّة لهم، فجزاهم الله عن العلم والدين والإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء، وأكرمهم في جواره بالحُوْر العِيْن، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

٢٩٣ ـ فمن العلماء العُزَّاب: أبو عبد الرحمن يونُس بن حبيب البصري، الأديبُ النحوي، قال القاضي ابن خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان»[١]، في ترجمته: «مولدُه سنة ٩٠، ومات سنة ١٨٢ ـ وقيل في ولادته ووفاتِه غيرُ ذلك ـ أَخَذَ الأدب عن أبي عَمْرو بن العلاء، وحمَّادِ بن سلمة. وكان النحوُ أغلبَ عليه، وسَمِعَ من العرب.

ورَوَى عنه سيبويه كثيراً، وسَمِعَ منه الكسائيُّ والفَرَّاء، وله قياسٌ في النحو ومذاهبُ ينفرد بها، وكان من الطبقة الخامسة، وكانت حَلْقَتُه بالبصرة ينتابها الأدباءُ وفصحاءُ العرب وأهلُ البادية.

قال مَعْمَر بن المُثَنَّى: اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة، أملأُ كلَّ يوم ألواحي من حفظه[٢]. وقال أبو زيد الأنصاري النحوي: جلستُ إلى يونس بن حبيب عَشْرَ سنين، وجَلَس إليه قَبْلي خَلَفٌ الأحمر عشرين سنة.

---

(١) ٢: ٤١٦.

(٢) هكذا كانت تلمذةُ الطلبة على الشيوخ عند المتقدمين: أربعين سنة، وعشرين سنة، وعَشْرَ سنين، والطالبُ عالمٌ جِدُّ عالم، ومجلسُ الدرس طولَ النهار أو أكثَره أو رُبعَه، لا خمسين دقيقة أو خمساً وأربعين دقيقة! فغدا أولئك الطلبةُ أئمةً بملازمة الأئمة.

أما اليوم فالدراسةُ أشهرٌ محدودة، ودقائقُ معدودة، ومن الصُّحف والكُرَّاساتِ الصمَّاء، يتلقون منها دون مناقشة أو فهم أو هضم، والحضور بين يدي العلماء مفقود، والدعاوي عريضة، والألقابُ أعْرَض! والعلمُ يشتكي إلى الله تعالى من أكثر هؤلاء المنتسبين إليه المتاجرين به!

ومَعْمَر بن المُثَنَّى هذا، الذي لازم شيخَه (يونسَ بن حبيب) أربعين سنة، هو أبو عُبيدة البصري النحوي، المولود سنة ١١٠، والمتوفى سنة ٢٠٩، الإمامُ في العلم، الذي قال فيه الجاحظ ـ وحسبُك به في الثناءِ على العلماء ـ: «لم يكن في الأرض خَارِجيٌّ ولا جَمَاعيٌّ أعلمَ بجميع العلوم منه». وقد تَرَك من المؤلفات له نحوَ ٢٠٠ كتاب. هذا الفحلُ الإمام كانت تلمذتُه على شيخِه: أربعين سنة.

وجاء في «نزهة الألباء» لأبي البركات الأنباري ص ١٢٦، وفي «وفيات الأعيان» لابن خلكان ١: ٢٠٨، في ترجمة الإمام أبي زيد الأنصاري (سعيد بن يونس) البصري اللغوي الأديب، تلميذ (يونس بن حبيب)، وشيخ (الأصمعي)، المولود سنة ١١٩، والمتوفى سنة ٢١٥ عن ٩٦ سنة ما يلي: «قال أبو عثمان المازني: كنا عند أبي زيد، فجاء الأصمعيُّ إلى حلقة أبي زيد، فأكبَّ على =

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عاش يونس بن حبيب ٨٨ سنة، لم يتزوَّج ولم يَتَسَرَّ، ولم تكن له هِمَّةٌ إلا طلَبَ العلم ومحادثةَ الرجال. وله من الكتب: كتابُ معاني القرآن الكريم، وكتابُ اللغات، وكتابُ الأمثال، وكتابُ النوادر الصغير، وكتابُ النوادر الكبير، ومعاني الشعر، رحمه الله تعالى».

٢٩٤ ــ ومن العلماء العُزَّاب: الإمامُ الزاهد العابد، المحدِّث الفقيه، الجَبَلُ الثقةُ الرِّضَا، عديمُ النظير في عصره، أبو نصر بِشْرُ بن الحارث بن عبد الرحمن المَرْوَزِي ثم البغدادي المشهور باسم (بِشْر الحافي)[1].

وُلد في مَرْوَ سنة ١٥٠، ونَزَل بغداد وتوطَّنها، وسَمِعَ بها الحديث، وأخَذَ عن شيوخٍ كثيرين في بغداد وغيرها، منهم: حَمَّاد بن زيد، وعبدُ الله بن المبارك، وعبد الرحمن بن مهدي، ومالك بن أنس، وأبو بكر بن عياش، والفُضيل بن عِيَاض، وغيرهم.

ورَوَى عنه جماعةٌ من الأئمة الكبار، منهم أحمد بن حنبل، وإبراهيم الحربي، وزهير بن حرب، وسَرِيٌّ السَّقَطِي، والعباس بن عبد العظيم ومحمد بن حاتم، وآخرون.

= رأسه فقبَّله وجَلَس بين يديه، وقال: أنت رئيسُنا وسيدُنا ومُعلِّمُنا منذ عشرين سنة، ولفظُ ابن خلكان: منذ خمسين سنة».

وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ٨: ٩٦، في ترجمة الإمام مالك رضي الله عنه: «قال القعنبي: سمعتُ مالكاً يقول: كان الرجلُ يَختلِفُ إلى الرجل ثلاثين سنةً يَتعلَّمُ منه. قال عبدُ الله بن نافع: جالستُ مالكاً خمساً وثلاثين سنة».

وجاء في كتاب «العِلَل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد بن حنبل ١: ٣٦٧، قولُ الإمام أحمد رضي الله عنه: «لَزِمْنا إسماعيلَ بنَ عُلَيَّة بعدَ ما مات هُشَيم ــ بن بَشِير، وكان قد لَزِمه الإمامُ أحمدُ أربَع سنين ــ عَشْرَ سنين كلَّ يوم، لا نُخِلُّ إلا أن تكون الحاجةُ».

(١) مصادر ترجمته هذه: «تاريخ بغداد» للخطيب ٧: ٦٧ ــ ٨٠، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ١: ٩٠، و«البداية والنهاية» لابن كثير ١٠: ٢٩٧، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر ١: ٤٤٤، و«خلاصة الخزرجي» ص ٤٨.

وسَمِعَ الحديثَ وأسمَعَه، وعَدَّل وجَرَّح ووَثَّق وضعَّف[١]، ثم اعتَزَل الناس، واشتغل بالعبادة، ولم يُحدِّث، وصار عَلَماً من الأعلام في الزهد والعبادة والتقوى والورع، وقد أثنى عليه غيرُ واحد من الأئمة، في عبادتِه وزَهَادتِه ونُسُكِه وتقشُّفِه وورعِه، وقيل له بأي شيء تأكل الخبز؟ فقال: أذكرُ العافيةَ فأجعَلُها إداماً. ومات رحمه الله تعالى سنة ٢٢٧ من الهجرة عن سَبْع وسبعين سنةً من العمر.

قال أحمد بن ماهان: سُئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع، فقال: أنا أستغفرُ الله، لا يَحِلُّ لي أن أتكلَّم في الورع وأنا آكلُ من غَلَّة بغداد! لو كان بِشْرُ بن الحارث، صَلَح أن يجيبك عنه، لأنه كان لا يأكل من غَلَّة بغداد ولا من طعام السَوَاد[٢]. قال الحسن بن محمد بن أعين: سمعتُ أحمدَ بن حنبل يقول: لولا بِشْرٌ وما نرجو من استغفاره لنا، لكنا في عُطلة!

وقال الحسن بن الليث الرازي: قيل لأحمد: يَجيئُك بِشرُ بن الحارث؟ قال: لا تُعنُّون الشيخَ، نحن أحقُّ أن نذهبَ إليه. وقال أبو بكر المَرُّوذي: سمعتُ أبا عبد الله، وذكَرَ بِشْرَ بن الحارث، فقال: لقد كان فيه أُنْس، وقال: ما كلَّمتُه قط. ـ قال عبد الفتاح: كان الإمام أحمد يكتفي بمجالستِه ومشاهدتِه ومُشَامَّته فحَسْب ـ.

وقال الإمام أحمد: إنما قَوِيَ بِشْر ـ أي على ما كان عليه من العبادة والزهد والورع والفضائل العالية ـ لأنه كان وَحْدَهُ، ولم يكن له عيال، ليس من كان مُعْيِلاً كمن كان وحدَه، لو كان إليَّ ما باليتُ ما أكلتُ، ولو تَرَك الناسُ التزوُّجَ من كان يَدفعُ العدو؟ لَبكاءُ الصبيّ بين يدي أبيه مُتَسخِّطاً، يَطلُبُ منه خُبزاً أفضلُ من كذا وكذا، فأين أن يلحقَه المتعبِّدُ الأعزبُ[٣]؟

---

(١) جاء ذلك في مواضع من كتب الرجال والمحدثين، ومنها ما في «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١: ٢٥٦، في ترجمة (يزيد بن زُرَيْع البصري): «... وقال بِشرُ الحافي: كان يزيدُ متقِناً حافظاً، ما أعلمُ أني رأيتُ مثلَه ومثلَ صحةِ حديثه».

(٢) السَوَادُ هنا: قُرَى العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر رضي الله عنه، كما في «معجم البلدان» ٣: ٢٧٢.

(٣) (نقلتُ هذه المقاطع الثلاثة من كتاب «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي ٢: ٢٥ و ٢٥٤ و ٢٦٠ و ٢٦٢).

وقال الإمام أحمد يوم بَلَغه موتُه: مات رحمه الله ولم يكن له نظير في هذه الأمة، إلا عامرَ بن عَبْد قيس، ولو تزوَّج كان قد تَمَّ أمرُه، وما تَرَك بعدَه مِثْلَه. وقال محمد بن المثنَّى: قلتُ لأحمد بن حنبل: ما تقول في هذا الرجل؟ فقال لي: أيُّ الرجال؟ قلت: بِشْر، فقال لي: ما مَثَلُه عندي إلا مَثَلُ رجل رَكَز رُمْحاً في الأرض، ثم قعَدَ منه على السِّنَان، فهل تَرَكَ لأحدٍ موضعاً يَقعُدُ فيه؟ انتهى قول الإمام أحمد.

وعلى هذا يَصدُقُ فيه قولُ زُهَير بن أبي سُلْمَى:

سَعَى بعدَهم قومٌ لكي يُدركوهمُ　　　فلم يَفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال عبد الفتاح: وأَثنى عليه تلميذُه الإمامُ إبراهيمُ الحربي الذي كان يُشبَّه بأحمد بن حنبلٍ ثناءً ما رأيتُ مثلَه قِيلَ في مَدْحِ عاقل، قال إبراهيم الحربيُّ: ما أخرجَتْ بغدادُ أتمَّ عقلاً منه ولا أَحْفَظَ للسانه من بِشْر، ما عُرِفَ له غِيبةٌ لمسلم، كأنَّ في كل شعرة منه عَقْلاً، ولو قُسِمَ عقلُه على أهلِ بغداد لصاروا عُقَلاءَ وما نَقَصَ من عقله شيء، وطِىءَ الناسُ عَقِبه خمسين سنة.

وقال الخطيب البغدادي: كان بِشرٌ ممن فاق أهلَ عصره في الورع والزهد، وتفرَّد بوفور العقلِ، وأنواعِ الفضل، وحُسنِ الطريقة، واستقامةِ المذهب، وعُزوفِ النفس، وإسقاطِ الفُضُول، وكان كثيرَ الحديث، إلا أنه لم يَنْصِب نفسَه للرواية، وكل ما سُمِعَ منه فإنما هو على سبيل المذاكرة.

وقال الحافظ الدارقطني: بِشرُ بن الحارث: زاهدٌ، جَبَل، ليس يَروي إلا حديثاً صحيحاً، وربما تكون البليَّةُ ممن يَروِي عنه.

وقال الخطيب البغدادي والحافظ ابن كثير: وحين مات بشر، اجتمع في جنازته أهلُ بغداد عن بَكْرَةِ أبيهم، فأُخرِجَ بعد صلاة الفجر، فلم يَستقرَّ في قبره إلا بعد العَتَمَة، وكان النهارُ نهاراً صائفاً فيه طُول. قال يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني: رأيتُ أبا نصر التمَّار وعليَّ بن المديني في جنازة بِشْر، يَصِيحان في الجنازة: هذا واللّهِ شَرَفُ الدنيا قبلَ شرف الآخرة. قال الذهبي: كانت له جنازة عظيمة، أُخرِجَتْ من غَدْوَةٍ،

فلم يَحصُلْ في قبره إلى الليل من الزحام. انتهى[١].

وإنما أطلتُ بعض الإطالة في ترجمة (بِشْرٍ الحافي)، لأن المركوز في أذهان بعض الناس أنه (صوفي درويش من الدراويش)، ومُغَـفَّل من المغفَّلين الصالحين، والواقعُ أنه كان من كبار عقلاء الأمة وعلمائِها وصُلَحائِها، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٢٩٥ ــ ومن العلماء العُزَّاب: الإمامُ المجتهِدُ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الحُجَّةُ، المفسِّر، المحدِّث، الفقيه، الأصولي، النظَّار، المُقْرىء، المؤرِّخ، اللغوي، النَّحْوي، العَرُوضي، الأديب، الراويةُ، الشاعر، المحقِّق المدقِّق، جامعُ العلوم والمفاخر، وذو التصانيف والمآثر، المجتهدُ المطلَق، وأحَدُ أئمة الدنيا علماً وديناً وحفظاً وكثرةَ تآليفَ جياد، وقد طبَّقتْ شُهرتُه الآفاقَ، وصار اسمُه (العَلَمَ المفردَ) عند الإطلاق.

وقد ترجم له الحافظ الخطيب البغدادي ترجمةً واسعة[٢]، كما ترجم له العلامة ياقوت الحموي ترجمةً حافلةً وارفةً منقطعة النظير[٣]، فأقطِفُ هنا جملاً من ترجمتِهِ الزاهرة الحافزةِ عن هذين المؤرخين الجليلين رحمهما الله تعالى[٤]، فأقول:

وُلِدَ في بلدةِ آمُلَ من بلاد طَبَرِسْتان سنة ٢٢٤، وحَفِظ القرآن وعمره سبعُ سنين، وكَتَب الحديثَ وعُمرُه تِسعُ سنين، ورَحَل في طلب العلم يافعاً وعُمرُه اثنتا عشرة سنة، في عام ٢٣٦ حين سَمَح له أبوه بالرحلة، ودخل بغداد بعد وفاة أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ فلم يلقه، وطوَّف أقاليمَ الإسلام لتحصيل العلم ولقاءِ العلماء، فجال بلادَ

---

(١) ونظراً إلى هذا المشهد، كان يقال في السلف، من جانبِ المتشرِّعين للمبتدِعين: بيننا وبينكم يومُ الجنائز. يُشيرون بهذا إلى أنَّ يومَ موتِ العالم وتشييع جنازته، ينكشف فيه من كان من أهلِ السنة والصلاح عمن كان من أهلِ البدعة والطَّلاَح، وذلك بانحسار الناس عن تشييع العالم المبتدِع، وانجفالِهم وإقبالِهم إلى تشييع العالم المتشرِّع المتَّبع.

(٢) في «تاريخ بغداد» ٢: ١٦٢ ــ ١٦٩.

(٣) في «معجم الأدباء» ١٨: ٤٠ ــ ٩٦.

(٤) وقد ترجمتُ له في كتابي «العلماء العُزَّاب» في ١٤ صفحة، من ٣٧ ــ ٥١.

خُراسان والعراقَ والشامَ ومصر، ثم استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاتِه رحمة الله عليه. وقد حاز مقامَ الإمامة في العلم وهو في مقتَبَل شبابه، ثم غدا إماماً فذّاً، مشهوداً له، مرجوعاً إليه، في كل العصور وعلى مرِّ الدهور.

قال الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب: كان أحَدَ أئمة العلماء، يُحكَمُ بقوله، ويُرجَعُ إلى رأيه، لمعرفتِه وفضلِه، وكان قد جَمَع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله عز وجل، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنَن وطُرُقِها، وصحيحِها وسقيمِها، وناسخِها ومنسوخِها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدَهم من الخَالِفِين، في الأحكامِ ومسائلِ الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارِهم.

وله التفسيرُ المشهورُ الذي لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه: «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن»، وله الكتاب المشهور في التاريخ «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والأُمَم»، و «تهذيبُ الآثار وتفصيلُ الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار» لم أر سواه في معناه، إلا أنه لم يُتمَّه! وله في أصول الفقه وفروعه كتبٌ كثيرة، واختيارٌ من أقاويل الفقهاء. وتفرَّدَ بمسائل حُفِظَتْ عنه.

قال الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الإسْفِرايني الفقيه[1]: لو سافر رجلٌ إلى الصِّين، حتى يَحْصُلَ له «تفسيرُ ابن جرير»، لم يكن ذلك كثيراً. وقال الإمام أبو بكر بن خُزَيمة بعد أن وَقَف عليه: نظرتُ فيه من أوَّلِه إلى آخِرِه، وما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من ابن جرير.

قال الخطيب: وسمعتُ السِّمْسِميَّ يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة. وحدَّث تلميذُه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفَرْغاني، في كتابه المعروف بكتاب «الصِّلَة»، وهو كتاب وَصَل به «تاريخ ابن جرير»: أنَّ قوماً من تلاميذ ابن جرير، حَصَّلوا أيامَ حياتِه، منذ بَلَغ الحُلم إلى أن تُوفي وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة، ثم قَسَموا عليها أوراقَ مصنَّفاته، فصار منها على كل يوم أربعَ عشرةَ ورقة. وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوقٍ إلا بحُسنِ عنايةِ الخالِق.

---

(١) تقدم ضبط لفظ (الإسْفَرَاييني) تعليقاً على الخبر ١٩٩ في ص ٢٠٥.

وحكى تلميذُه أبو بكر بن كامل ــ أحمد بن كاملٍ الشَّجَريُّ القاضي صاحبُ ابن جرير ــ قال: قال لي أبو جعفر: حَفِظتُ القرآنَ ولي سبعُ سنين، وصلَّيتُ بالناس وأنا ابنُ ثماني سنين، وكتبتُ الحديث وأنا ابنُ تسع سنين. ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معي مِخلاةٌ مملوءةٌ حجارةً، وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبِّر: إنه إن كَبِرَ نَصَح في دينه وذَبَّ عن شريعته. فحَرَص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذٍ صغير.

وكنا نكتبُ عند محمد بن حُمَيد الرازي، فيَخرُجُ إلينا في الليل مرات، ويَسأَلُ عما كتبناه، ويقرؤه علينا. وكنا نمضي إلى أحمد بن حَمَّاد الدُّولَابي، وكان في قرية من قرى الرَّيِّ، بينها وبين الريّ قِطعة، ثم نَعْدُو كالمجانين! حتى نَصِيرَ إلى ابن حُمَيد فنلحقَ مجلسَه. ويقال: إنه كتَبَ عن ابن حُمَيد فوقَ مئةِ ألفِ حديث.

وصَارَ في رحلته إلى الكوفة، فكتَبَ فيها عن عدد من المحدثين، ومنهم أبو كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدَاني، وكان هذا شَرِسَ الخُلُق ومن كبار أصحاب الحديث.

قال أبو جعفر: حضرتُ بابَ داره مع أصحاب الحديث، فاطَّلع من باب خَوْخَة له ــ الخَوْخةُ: البابُ الصغير على الباب الكبير ــ ، وأصحابُ الحديث يلتمسون الدخولَ ويَضِجُّون، فقال: أيكم يَحفظُ ما كَتَب عني؟ فالتفَتَ بعضُهم إلى بعض، ثم نظروا إليَّ وقالوا: أنت تحفظُ ما كتبتَ عنه؟ قلتُ: نعم، فقالوا: هذا فسَلْهُ، فقلتُ: حدَّثْتَنا في يومِ كذا بكذا، وفي يومِ كذا بكذا.

قال: وأَخذ أبو كُرَيب في مسألته، إلى أن عَظُمَ في نفسه، فقال له: ادخُلْ إليَّ، فدَخلَ إليه وعَرَف قدرَه على حداثته، ومكَّنه من حديثه، وكان الناسُ يَسمعون به ــ أي بسببه ــ ، فيقال: إنه سَمِعَ من أبي كُرَيب أكثَرَ من مئةِ ألفِ حديث. ثم عاد إلى مدينة السلام: بغداد فكتب بها ولَزِمَ المُقامَ بها مدةً، وتفقَّه بها وأَخَذ في علوم القرآن، ورَوَى الشعر عن ثعلب، قال أبو عُمَر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعتُ ثعلباً يقول: قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء، قبل أن يكثر الناسُ عندي بمدة طويلة.

ثم غرَّب فخرج إلى مصر، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور، وأكثَرَ منها، ثم صار إلى الفُسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومئتين، وكان بها بقيَّةٌ

من الشيوخ وأهلِ العلم، فأكثَرَ الكتابة عنهم من علوم مالك والشافعي وابنِ وهب وغيرِهم، ثم عاد إلى الشام، ثم رجع إلى مصر في سنة ست وخمسين ومئتين.

وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها، يَرفَعُ نفسَه عن التماسها، وكان كالقارىء الذي لا يَعرف إلا القرآن، وكالمحدِّثِ الذي لا يَعرف إلا الحديث، وكالحاسِبِ الذي لا يَعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جَمعتَ بين كتبِه وكتبِ غيره، وَجدتَ لكتبه فضلاً على غيرها.

وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حَسَن العِشرةِ لمجالسيه، متفقِّداً لأحوال أصحابه، مُهذَّباً في جميع أحواله، جميلَ الأدب في مأكلِه، وملبسِه، وما يَخُصُّه في أحوالِ نفسه، منبسِطاً مع إخوانه، حتى ربما داعَبَهم أحسنَ مُداعبة، وربما جِيءَ بين يديه بشيء من الفاكهة، فيُجرِي في ذلك المعنى ما لا يَخرُجُ عن العلم والفقه والمسائل، حتى يكون كأجَدِّ جِدٍّ وأحسَنِ عِلم.

وقد كان يمضي إلى الدعوة يُدعى إليها، وإلى الوليمة يُسأل فيها، ويكون ذلك يوماً مشهوداً من أجله، وشريفاً بحضوره، وكان يَخرج مع بعضهم إلى الصحراء فيأكل معهم. وكان إذا دخل منزلَه بعد المجلس، لا يكادُ يَدخُلُ إليه أحدٌ، لتشاغُلِهِ بالتصنيف، إلا في أمرٍ مهم.

وقال أبو بكر بن كامل: كان أبو جعفر مَلِيّاً بما نَهَض فيه، من أيّ علم كان، وكان متوقِّفاً عن الأخلاق التي لا تليقُ بأهل العلم، ولا يُؤثِرُها إلى أن مات، وكان يُحبُّ الجدَّ في كلِّ أحوالِه. وقال لنا أبو جعفر: ما حَلَلْتُ سَرَاويلي على حرام ولا حلال قط.

قال الأستاذ محمد كُرْدعلي(١): «وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة، رَوَى المُعَافَى بن زكريا عن بعضِ الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبلَ موته، وتوفي بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها، فذُكِرَ له هذا الدُّعاءُ عن جعفر بن محمد، فاستَدعَى محبرةً وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدَعَ اقتباسَ العلم حتى الممات». انتهى.

---

(١) في «كنوز الأجداد» ص ١٢٣.

وتوفي لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠، عن ٨٦ سنةً، عَزَباً لا زوجة حولَه، ولا ولَدَ له بعدَه، وإنما خلَّف وأبقى من العلم والمؤلَّفاتِ الحافلة، ما لا يُنسَى ولا يُجهَل على وجه الدهر، فكانت تآليفُهُ الكثيرةُ النادرةُ، ذريَّتَه الباقيةَ المذكِّرةَ به البارَّة، بل كانت أدومَ تذكيراً به من النَّسْل والأولاد.

وطُولُ هذه الترجمة هنا، اقتضاه طُولُ الثناءِ والفضلِ الذي اتصف به صاحبُها الإمامُ ابنُ جرير الطبري رحمةُ الله عليه، قال أبو الطيب:

وقد أطال ثَنَائي طُولُ لابِسِهِ ... إنَّ الثناءَ على التِّنْبَالِ تِنْبالُ

٢٩٦ ــ ومن العلماء العُزَّاب: الإمام أبو بكر بن الأنباري (محمد بن القاسم بن محمد)، النَّحْويُّ، المفسِّر، الأديب، الراوية، الحَفَّاظ بَحْرُ الحفظ، البغدادي، المولود سنة ٢٧١، والمتوفى سنة ٣٢٨ رحمه الله تعالى.

لقد امتنع هذا الإمامُ العالمُ طولَ حياتِه من تناول الطيِّبات من الأطعمة ــ وقد قُدِّمَتْ له على موائد الملوك ــ إبقاءً على حفظه، وزَهِدَ في اقتراب النساء ــ بعد أن دَخَلت المرأة الحسناءُ الحلالُ دارَه وبيتَه ــ حِفاظاً على تفرُّغِه لعلمه، فكان أُعجوبةً في حفظه، وفي علمه، وفي تأيُّمه وزهدِه، فلم يكن له نسلٌ ولا ذُريَّةٌ من بعدِه سوى أكثَرَ من ثلاثين مؤلَّفاً، تزيدُ أوراقُها على أكثر من خمسين ألفَ ورقة! فللَّه دَرُّه ما أغلى العلمَ على قلبه! وإليك شيئاً من ترجمته[١]:

كان من أعلم الناس بالنحو والأدب، وأكثرهم حفظاً له، سَمِعَ عالَماً من الأئمة في زمانِه، ورَوَى عنه مثلُ ذلك، وكان صدوقاً فاضلاً دَيِّناً خيِّراً من أهل السُّنَّة، وصنَّف كتباً كثيرة في علوم القرآن، وغريبِ الحديث والمُشكِل، والوقفِ والابتداء.

وكان يَحفظُ ــ فيما ذَكَر ــ ثلاثَ مئةِ ألف بيتٍ من الشعر، شاهدةً في القرآن، وكان يُملي من حفظِه لا من كتاب، وكانت عادتُه في كل ما يُكتَبُ عنه هكذا، في كتبه المصنَّفة وأماليه المشتمِلةِ على الفوائد اللغوية والنحوية والأخبار والتفاسير والأشعار.

---

(١) من «تاريخ بغداد» للخطيب ٣: ١٨١ ــ ١٨٦، «وإنباه الرواة على أَنْباه النحاة» للقِفْطي ٣: ٢٠٢ ــ ٢٠٧، و «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان ١: ٥٠٣.

ومَرِض مرةً، فدخل عليه أصحابُه يعودونه، فرأَوْا من انزعاج أبيه وقَلَقِه عليه أمراً عظيماً، فطيَّبوا نفسَه، ورجَوْا له عافيةَ أبي بكر، فقال لهم: كيف لا أقلَقُ وأنزعِجُ لعِلَّةِ من يَحفظُ جميعَ ما ترون، وأشار لهم إلى حِيْرِيِّ مملوءٍ كتباً[1].

وكان أحفظَ الناس للغة والنحو والشعر وتفسير القرآن، وحدَّث أنه يَحفظُ عشرين ومئةَ تفسيرٍ من تفاسير القرآن بأسانيدها. وقال تلميذه أبو العباس بن يونس: كان أبو بكر بن الأنباري آيةً من آيات الله في الحفظ. وقال تلميذه أبو علي القالي ــ الإمام الأديب المشهور: ــ كان أبو بكر بن الأنباري يَحفظ ــ فيما ذَكَر ــ ثلاثَ مئةِ ألفِ بيتٍ شاهدةً في القرآن، وكان ثقةً دَيِّناً صدوقاً.

قال محمدُ بنُ إسحاق النديمُ في «كتابه»: كان أفضلَ من أبيه وأعلم، في نهايةِ الذكاء والفِطنةِ وجَوْدةِ القريحة وسُرعةِ الحفظ، وكان مع ذلك وَرِعاً من الصالحين، لا تُعرَفُ له زَلَّة، وكان يُضرَبُ به المثلُ في حضور البديهة وسُرعةِ الجواب.

وحكى أبو الحسن العَرُوضي، قال: كان ابنُ الأنباري يَتَردَّدُ إلى أولاد الراضي

---

(١) الحِيري هنا صِفةٌ لموصوفٍ محذوف هو (حُبّ)، والحُبُّ هو الجَرَّةُ الكبيرة الضخمة، وقيل له: (حُبٌّ حِيري)، لأنه كان يُصنَع في (الحِيرة) مدينةٍ بالعراق كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، وقد دَخلَتْ فيها منذ عهد بعيد، وكانت حاضرةَ ملوكِ العربِ المناذرة، وتألَّقَتْ فيها الحضارةُ بأنواعها، وشَهِدَتْ ازدهاراً ورُقيّاً في الصناعاتِ المختلفةِ، المعهودةِ في العصر الجاهلي وبعدَه ومنها صِناعةُ الجِرار والقِلال ودِنانِ الخمر، فأُتقِنَتْ فيها صِناعةُ الحِبَاب، ونُسِبَتْ إليها فقيل: (حُبٌّ حِيريٌّ) على القياس، و (حُبّ حارِيٌّ) على غير القياس مسموعاً من العرب، ثم طُوي ذكرُ الموصوفِ: (حُبّ) لاشتهار ذلك، واقتُصِر على الصِّفَةِ اختصاراً على عادة الناس في الشيء المعروف عندهم، فقيل: (حِيريّ)، و (حارِيّ).

والحُبُّ أكبرُ من القُلَّةِ والدَّنّ، والقُلَّةُ دون الحُبِّ وأكبرُ من الدَّنّ، كما ذكره الإمام ابن سِيْدَهْ في «المخصَّص» ١١ :٨٣، فالحُبُّ أكبرُ الأوعية الحافظة التي كانت عندهم، وجمعُه: حِبَاب. وكان العلماء في القديم يحفظون في (الحِبَاب) الكتبَ والأوراقَ وما يخافون عليه التلفَ والضياع. وقد غَلِطَ طائفةٌ من المحققين في تفسير (حِيري) وضبطِه، كما بيَّنته مطولاً في كتابي «العلماء العُزَّاب» ص ٥٣ ــ ٥٥ من الطبعة الأولى والثانية والثالثة.

بالله ـــ الخليفةِ العباسي أحمد بن المقتدر، بُويع سنة ٣٢٢، وتوفي سنة ٣٢٩ ـــ ، فكان يوماً من الأيام قد سألَتْهُ جاريةٌ عن شيء من تفسير الرؤيا؟ ، فقال لها : أنا حاقِن ـــ أي يَحتاجُ إلى الذهابِ لبيتِ الخلاء للبَوْل ـــ ثم مَضَى ، فلما كان من الغَد عاد وقد صار مُعَبِّراً للرؤيا ، وذاكَ أنه مَضَى من يومِهِ فدَرَس كتابَ الكِرْماني ـــ في تعبير الرؤيا ـــ وجاء .

قال حمزة بن محمد الدقاق : وكان مع حفظِه زاهداً متواضعاً ، حكى أبو الحسن الدارقطني أنه حضرَهُ في مجلسِ إملائِهِ يومَ الجمعة ، فصحَّف اسماً أَورَدَه في إسنادِ حديث ، إما كان حبَّان فقال : حيَّان ، أو حيَّان فقال : حبَّان .

قال أبو الحسن : فأعظمتُ أن يُحمَل عن مثلِهِ في فضله وجلالتِه وَهَمٌ ، وهِبتُه أن أُوقِفَه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء ، تقدَّمتُ إلى المستملي وذكرتُ له وَهَمَهُ ، وعرَّفتُه صوابَ القول فيه وانصرفتُ . ثم حضرتُ الجمعةَ الثانيةَ مجلسَه ، فقال أبو بكر للمستملي : عرِّف جماعةَ الحاضرين أنَّا صحَّفنا الاسمَ الفلاني ، لما أملينا حديثَ كذا في الجمعةِ الماضية ، ونبَّهَنا ذلك الشابُّ على الصواب ، وهو كذا ، وعرِّفْ ذلك الشابَّ أنَّا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال .

وحكى أبو الحسن العَرُوضي ، قال : اجتمعتُ أنا وأبو بكر بن الأنباري عند الراضي بالله على الطعام ، وكان أبو بكر قد عَرَّف الطباخَ ما يأكل ، فكان يُسوِّي له قَلِيَّةً يابسةً ، قال : فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايبه ، وهو يُعالجُ تلك القَلِيَّة ، ثم فرغنا ، فأُتِينا بَحَلْوَاء فلم يأكل منها شيئاً ، وقام وقمنا إلى الخَيْش ـــ هي ثياب في نَسْجها رِقَّة ، وخُيوطُها غِلاظ من مُشَاقَةِ الكَتَّان ـــ ، فنام بين يدي الخَيْش ، ونمنا نحن في خَيْشٍ يُنافَس فيه ، ولم يَشرب ماءً إلى العصر .

فلما كان بعد العصر ، قال : يا غلام ، الوظيفة ، فجاءه بماءٍ من الحُبّ ـــ أي الخابية ـــ ، وتَرَك الماءَ المزمَّل بالثَّلْج ، فغاظني أمرُه ، فصِحتُ صيحةً : يا أميرَ المؤمنين! فأمَرَ بإحضاري ، وقال : ما قِصَّتُك؟ فأخبرتُه ، وقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا يَحتاجُ أن يُحالَ بينه وبين تدبيرِ نفسِه ، لأنه يَقتلُها ولا يُحسِنُ عِشرتَها ، قال : فضَحِكَ وقال : لَهُ في هذا لَذَّةٌ ، وقد جَرَت به العادةُ ، وصار آلِفاً له فلن يَضرَّه .

ثم قلت: يا أبا بكر، لم تفعل هذا بنفسك؟ قال: أُبقِي على حِفظي، قلت: قد أكثر الناسُ في حفظك، فكم تحفظ؟ قال: أحفَظُ ثلاثةَ عشرَ صُندُوقاً. قال محمد بن جعفر التميمي النحوي: وهذا ما لا يُحفَظُ لأحدٍ قبلَه ولا بعدَه.

وكان يأخُذ الرُّطَبَ يَشمُّهُ ويقول: أمَا إنك لطيِّب، ولكنْ أطيَبُ منك حِفظُ ما وَهَب الله لي من العلم. ولما وقع في عِلَّةِ الموت أكَلَ كل شيء يشتهيه وقال: هي عِلَّةُ الموت!

ومَضَى يوماً إلى النخَّاسِين ـــ بيَّاعي الرَّقِيق من العَبِيد والإماء ـــ، ورأى جاريةً تُعرَضُ حسنةَ الصُّورةِ كاملةَ الوصف، قال: فوقعَتْ في قلبي، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله، فقال لي: أين كنتَ إلى الساعة؟ فعرَّفتُه، فأمَرَ بعضَ أَسْبابِهِ ـــ أي غِلمانِه ـــ فمَضَى فاشتراها، وحمَلَها إلى منزلي، فجئتُ فوجدتُها، فعَلِمتُ الأمرَ كيف جَرَى.

فقلتُ لها: كُوني فَوْق إلى أن أَستَبْرئكِ ـــ أي أتبيَّنَ براءةَ رَحِمِكِ من الحَمْل، وذلك بحلول الحيضِ لها ـــ، وكنتُ أطلُبُ مسألةً قد اختلَّتْ عليّ، فاشتَغَل قلبي عن علمي! فقلتُ للخادم: خُذْها وامضِ بها إلى النخَّاسين، فليس قَدْرُها أن تَشغَل قلبي عن علمي، فأَخَذها الغلام.

فقالت: دَعْني أُكلِّمْه بحرفين، فقالَتْ: أنت رجلٌ لك مَحَلٌّ وعَقْل، وإذا أخرجتَني ولم تُبيِّنْ لي ذنبي، لم آمَنْ أن يَظُنَّ الناسُ بي ظناً قبيحاً، فعرِّفْنِيهِ قَبْلَ أن تُخرِجَني، فقلتُ لها: ما لَكِ عندي عَيْب، غيرَ أنكِ شَغَلْتِني عن علمي، فقالَتْ: هذا أسهلُ عندي.

قال: فبلَغَ الراضيَ بالله أمرُه، فقال: لا ينبغي أن يكونَ العلمُ في قلبِ أحدٍ أحلَى منه في صَدْرِ هذا الرجل!». رحمةُ الله تعالى عليه.

٢٩٧ ـــ ومن العلماء العُزَّاب: إمامُ أئمةِ العربية في عصره: أبو علي الفارسيُّ (الحسن بن أحمد)، المولود سنة ٢٨٨، والمتوفى سنة ٣٧٧ عن ٨٩ سنة رحمه الله

تعالى[١]. ولد في مدينة (فَسَا) من بلاد فارس، فيقال في نسبته: الفارسي، والفَسَوِي، وطلَبَ العلم، ثم رحل إلى بغداد ودخلها سنة ٣٠٧ وأقام بها.

ثم جال ودار في البلدان، ودخل الشام فزار حلب وطرابلس ومَعَرَّة النعمان، وأقام بحلب سنة ٣٤١ عند الأمير سيف الدولة بن حمدان نحوَ سبع سنين، وجرَتْ بينه وبين الشاعر أبي الطيب المتنبي مجالس، وامتُحِنَ بخصومة ابن خالَوَيْه النَّحْوي بحلب، وكان هذا العالمُ من خُلَصاءِ سيف الدولة وآثَرِهم عنده، فلم تَطِب لأبي علي الإقامةُ هناك.

تَرَك أبو علي مدينة حلب ورَجَع إلى بلاد فارس، ووَرَد مدينة شِيراز سنة ٣٤٨، فَلَبِثَ فيها عشرين عاماً منقطعاً إلى المَلِك عضد الدولة بن بُوَيْه، وتقدَّم عنده، وعلَتْ منزلتُه، وعلَّمه النحو، حتى كان المِلكُ عضدُ الدولة يقول: أنا غلامُ أبي علي النَّحْوي في النحو، وصنَّف أبو علي له كتابَ «الإيضاح» وكتابَ «التكملة»، ولما استَولى عضدُ الدولة على بغداد، عاد أبو علي إليها، وأقام فيها إلى أن تُوفي منتقلاً إلى رحمة الله تعالى.

---

(١) مصادر هذه الترجمة «وفيات الأعيان» لابن خلكان ١: ١٣١، و«الأعلام» للزركلي ٢: ١٩٣، ومقدمة كتابه «الحجة» بتحقيق الأساتذة: علي النجدي، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح شلبي، ومراجعة الأستاذ محمد علي النجار.

ومما ينبغي التنبيه عليه ما وقع لهؤلاء الكبار الأفاضل، من تحريف في كنية الشيخ الإمام أبي اليُمْنِ الكِنْدي (زيد بن الحسن) المتوفى سنة ٦١٣، الذي سُمِعَ عليه كتاب «الحُجَّة» من النسخة المخطوطة التي اعتمدوا عليها في الطبع، فقد وقعَتْ كنيتُهُ في السماع الذي في المخطوطة ــ على ما أثبتوه ــ في ص ٣٧ ــ ٣٨ ــ ٣٩ من مقدمتهم هكذا: «... وكَتَبَ زيدُ بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمين في ذي الحجة من سنة ست وستمئة. انتهى.

وجاء لفظ (أبو اليمين) بعدَ هذا في تمام السماع الذي نقلوه وفي كلام المحققين أنفسهم مكرَّراً خمسَ مرَّات: (أبو اليمين) بياء بعد الميم!! وهو تحريف بيِّن، أثبتوه مطمئنِّين، ومشَوْا عليه مُقِرِّين، وزادوا في الإقرار للتحريف إيغالاً! فعلَّقوا في ص ٣٩ على (أبي اليمين زيد بن الحسن بن زيد الكندي) قولَهم: «ترجمتُهُ في طبقات القراء ١: ٢٩٧، وبُغية الوعاة ٣٤٩». فأوهم ذكرُهم هذين المصدرين لترجمتِهِ أنه كذلك هو فيها! وليس كذلك، بل هو أبو اليُمْنِ بضم الياء وسكون الميم بعدها، فاعرِفْه.

وكان أبو علي في رحلاته وانتقالاته في البلاد، يُجالس العلماء، ويحاضرُ الطلاب، ويُجيب عن الأسئلة العويصة التي توجه إليه، ويؤلف فيها وفي غيرها الكتب، وسُئل في حلب، وشيراز، وبغداد، والبصرة، وغيرها، أسئلةً كثيرةً من كبار العلماء، فصنَّف فيها الكتبَ إجابةً للسائلين، وسمَّاها بنسبتها إلى البلد الذي أُلِّفَتْ فيه، مثل «البغداديات»، و «البصريات»، و «الحلبيات»، و «والشيرازيات».

وبارك الله في عمر أبي علي، فعاش نحو تسعين سنة، يخدم العلم وأهله، ويؤلف في علوم القرآنِ وعلومِ العربية التصانيفَ الفريدة، ولم يتزوج ولم يُعقِب، وإنما كانت ذُرِّيَّتُه ونَسْلُه: مؤلَّفاتِه وتصانيفَه التي بَقِيَتْ بعده إلى يومنا هذا، وقد بلغت نحو ٢٥ كتاباً.

وكان الإمام ابنُ جِنِّيْ من أخصِّ تلامذةِ الإمام أبي علي الفارسي، ومن المَشْغُوفين به، وقد أفاض في كتبه بذكره، والثناءِ عليه، والاقتباس من علومه ومعارفه، وكاد يَستوعب علمه، وقد أشار إلى عُزُوبتِه، وتفرُّغِهِ وتفرُّدِه ــ بخُلُوِّه من الزوجةِ والوَلَد ــ للعلمِ والتأليف، وتأصيلِ القواعد وتأسيسِها في مواضع من كتبه.

قال في كتابه «الخصائص»[1] وهو يَتحدث عن قُوَّة أبي علي في معرفة القياس في اللغة، ومتانتِهِ به تقعيداً وتأصيلاً: «أقام على هذه الطريقة سبعين سنة، زائحةً عِلَلُه، ساقطةً عنه كُلَفُه، وجعَلَه هَمَّهُ وسَدَمَه ــ يعني: مَقْصِدَه ــ، لا يَعتاقُهُ عنه ولد».

وأشار ابنُ جني أيضاً إلى عُزوبتِهِ في مقدمة كتابه «المحتسَب»، فقال وهو يُشِيدُ به، ويُبيِّنُ سبَبَ سُمُوِّ علمِهِ وغزارةِ معَارفه: «. . . بخُلُوِّ سِرْبِه، وسُرُوحِ فِكره، وفُرُودِهِ بنفسِه». انتهى. رحمة الله تعالى عليه.

ــ وأكتفي هنا بذكرِ هؤلاءِ الخمسةِ من العلماءِ العُزَّابِ الذين آثَرُوا العلمَ على الزَّوَاج، كنموذجٍ لِسِواهم الكثيرين، وقد ذكرتُ منهم خمسةً وثلاثين عالماً في كتابي

---

(١) ١ : ٢٧٧.

«العلماء العُزَّاب»، فأُحِيلُ القارىءَ المستزيدَ إلى مُطالعته للوقوفِ على أخبارهم (١).

وفيهم الأئمةُ الكبارُ، منهم: أبو يَسَار عبدُ الله بن أبي نَجيح المكي المُحدِّثُ المفسِّرُ، وأبو علي حُسَينُ بن علي الجُعْفِي الكوفي شيخُ الإسلام الحافظُ المقرىء، وأبو السَّرِيِّ هَنَّادُ بن السَّرِي الكوفيُّ الحافظُ المحدِّث، وأبو نَصْر السِّجْزِيُّ عُبَيدُ الله بن سعيدٍ عَلَمُ السُّنَّةِ الحافظُ الإمام، وأبو سَعْدٍ السَّمَّانُ الرازِي البَصْرِي إسماعيل بن علي الحافظُ المحدِّث الفقيه المقرىء، وأبو البركاتِ الأنماطيُّ عبد الوهاب بن المبارك البغدادي الحافظُ العالم محدِّثُ بغداد، وفيهم: ابنُ الخشاب أبو محمد عبدُ الله بن أحمد البغداديُّ المفسِّرُ المُقرِىء المحدِّث الأديب، وأبو الفتح ناصحُ الدين الحنبلي نصرُ بن فِتْيَان المعروفُ بابـن المَنِّي البغداديُّ فقيهُ العراق، والوزيرُ جمالُ الدين القِفْطي أبو الحسن عليُّ بن يوسف الأديبُ النَّحوِيُّ المؤرِّخ، والإمامُ النَّوَوِي محيـي الدين أبو زكريا يحيـى بن شَرَف الدمشقيُّ الفقيهُ المُحدِّثُ القُدوَةُ علَمُ الأولياء، وابنُ تيمية شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الإمام الحافظ الناقد الفقيه المجتهد، وسِوَاهم من العلماءِ الكبارِ الأفذاذ.

أنتقلُ بعدَ هذا إلى الجانب الثامن:

---

(١) وقد طُبِعَ هذا الكتاب: «العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج» ثلاثَ طبعات، ونَفِدَت نُسَخُه من زمن بعيد بفضل الله تعالى وحُسنِ توفيقه، وأعددتُ الطبعةَ الرابعة منه مزيدةً على سابقاتها تراجمَ كثيرة من المتأخرين والمعاصرين، المشهورين المعروفين بالعلم الغزير، والتقوى الساطعة، والأخلاق الطاهرة، والعفاف المتين، رحمةُ الله تعالى عليهم.

وقارئه يشهد فيه نموذجاً من نماذج الإيثار العجيب، ولوناً من ألوانِ عِشقِ العلمِ والفناءِ فيه، والتضحيةِ في سبيله.

الجانب الثامن

في أخبارهم في بذلِ المالِ الكثيرِ وبيعِ المملوكاتِ والمقتَنَيات، لتحصيلِ العلمِ والارتحالِ ولقاءِ الشيوخ، وشراءِ الكتب والوَرَقِ وتدوينِ المؤلَّفات

٢٩٨ ـ يُمكِنُ أن يُعَدّ هذا الجانبُ من صُنوفِ الصَّبْرِ على الشدائد والمشقّات، إذا عَلِمنا أنَّ النَّفْسَ نزَّاعَةٌ للمالِ بفِطرتها، ومتعلِّقةٌ به بدافع حاجتِها، وقد قال الله سبحانه في كتابه الكريم، وهو يَصِفُ الإنسانَ ويكشِفُ عن طَوِيَّتِهِ وجِبِلَّتِه ـ وهو خالقُهُ سبحانه والعالِم بطبيعته ـ : ﴿وإنَّهُ لِحُبِّ الخيرِ لَشديدٌ﴾[1]. والخيرُ هنا المال.

فالتخلِّي عن المال، والبَذْلُ له بسخاءٍ وكَرَم ـ وقد شَقِيَتْ النفوسُ في تحصيلِه وجَمْعِه ـ فيه من المَشَقَّةِ على النفسِ عند كثيرٍ من الناس، ما يَفوقُ مَشقَّةَ المَشْيِ على الأقدامِ المسافاتِ الشاسِعَةَ، ومَشَقَّةَ الصَّبْرِ على الجُوعِ الساعاتِ الكثيرة، وسَهَرِ الليالي الأزمانَ المتطاوِلة.

وكم أذهَبَ حُبُّ المالِ من أرواح، وكم قَتَّلَ من آباءٍ وأبناء وإخوةٍ وأحبَّاء، وأباعِدَ وأقرباء، فطَغَى حُبُّ المالِ على عاطِفةِ القرابة والمحبَّة، فآثَرَ الإنسانُ المالَ على القريبِ والحبيب! فضلاً عن البعيد والأجنبي، وذلك لمشقة فراقِ المالِ على النفوس، ولمحبتِهِ في القلوب.

فالخروج عن المال بسخاءٍ وبَذْل، ليس سهلاً على كل أحد، ولا يستطيعه كلُّ إنسان، وكم من إنسانٍ نُشِّطَ وحُثَّ على بَذْلِ المال في الخير، فقام وقَصَد، ثم تراجَعَ وقَعَد! قال أبو الطيِّب:

وما كلُّ هَاوٍ للجميلِ بفاعِلٍ وما كلُّ فَعَّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ

---

(١) من سورة العاديات، الآية ٨.

والمالُ شقيقُ الرُّوح كما يقولون، فبَذْلُه ـ من هذا الوجه ـ يَدخُلُ في (صَبْر العلماء على الشدائد)، وإن كان العلماءُ الذين بَذَلُوه، رَأَوْه رخيصاً لا يُسامِي العِلْم، ولا يُوازِي المعرفةَ وتحصيلَها، فجادُوا به أسخياءَ فَرِحين إذْ غَنِموا العِلْمَ وما ذلك لشذوذٍ فيهم بكراهِيَةِ المال، ولا لجهلٍ منهم بموقعِهِ من النفع والحياة، ولا لفقد حُبِّ المال من نفوسِهم، وإنما لِغَلاءِ العِلْم لديهم، ومَعَزَّتِهِ في قلوبهم، ورَجَاحَتِهِ كلَّ الرجاحةِ على المالِ في مَوازِينهم وأمانِيهم.

٢٩٩ ـ وفي عَرْضِ هذا الجانب من حَيَاةِ العلماءِ الذين بَذَلُوا المالَ في تحصيل العلم حين دَخَل تحت أيديهم: نَماذجُ حافِزَةٌ دافعةٌ للميسورين من طلبة العلم وراغبيه في هذا العصرِ وبعدَه: أن يَبذلوا المالَ بسخاءٍ وكرم، لتزويد أنفسهم بالعلم، وتعميرِ خزائنهم بالكتب، فإنَّ النفسَ الإنسانية تَجُود بسَمَاعِ أخبارِ الجُود، وتنبسِطُ وتَطرَب بسماع أخبارِ ما تُحِبُّ وترغب، إذا سمعَتْ بوقوعِهِ من الأفاضِلِ الأماثِل، كعلمائنا السالفين رضوان الله عليهم.

ومن بانَ له عِظَمُ المطلوب، بَذَلَ في تحصيلِهِ كلَّ مرغوب، وقد أرشد إلى ذلك الإمامُ ابنُ هشام النَّحْويُّ السابقُ ذكرُه[1]، حيث قال رحمه الله تعالى:

وَمَنْ يَصْطَبِرْ للعِلْمِ يَظْفَرْ بنَيْلِهِ ... وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ يَصْبِرْ على البَذْلِ

وقبلَهُ قال الإمامُ ابنُ حزم الظاهري الفقيهُ المتَفَنِّن رحمه الله تعالى، المتقدمُ ذكره[2]:

مَنْ لم يَرَ العِلْمَ أغلَى ... من كلِّ شيءٍ يُصابُ
فليسَ يُفلِحُ حتى ... يُحْثَى عليه التُّرابُ!

وأسوقُ بعدَ هذه المقدمةِ بعضَ أخبارِ العلماءِ في هذا الجانب:

(١) في الخبر ١٣٧.
(٢) في الخبر ١٢٩.

٣٠٠ ـ حكى القاضي الشيخ محمد سليمان رحمه الله تعالى، في كتابه «من أخلاق العلماء»[١]، بعد أن ذَكر خبرَ الإمام (يحيى بن معين)، الذي قدَّمتُه[٢]، وفيه أنَّ يحيى بنَ معين كان والدُهُ (مَعين) كاتباً لعبد الله بن مالك، ثم صار على خَراج الرَّيّ، فمات وخلَّفَ لابنه (يحيى) ألْفَ ألْفِ دِرْهمٍ وخمسين ألفَ دِرْهم، فأنفقَه كلَّه يحيى على الحديث، حتى لم يَبْقَ له نَعْلٌ يَلبسُهُ!».

ثم قال القاضي محمد سليمان بعده:

«وأكثَرُ مِنْ هذا ما صنَعَتْه أمُّ (رَبيعةَ الرَّأْي) شيخِ الإمام مالك، التابعيِّ الجليلِ المتوفَّى سنة ١٣٦ رحمه الله تعالى، فإنَّ هذه المرأةَ أنفقَتْ على تعليم ولدِها ثلاثين ألْفَ دينار، خلَّفَها عندها زَوْجُها فَرُّوخ مَوْلَى آلِ المنكدِر وخَرَج إلى الغَزْو، ولم يَعُدْ إليها إلا بعدَ أن استكمَلَ ولدُهُ (ربيعةُ) الرجولةَ والمَشْيَخَةَ، وكانت أُمُّهُ قد اشتَرَتْهُما له ـ أي الرجولةَ والمشيخة ـ بمالِ أبيه الذي خلَّفَهُ عندَها، فأَحمَدَ الرجلُ صَنِيعَها، وأَربَحَ تِجارتَها، في قِصَّةٍ طريفةٍ ساقها الخطيب في «تاريخ بغداد» والقاضي ابن خَلِّكان في كتابه «وَفَيات الأعيان»[٣]، فقال:

وكان فَرُّوخ أبو ربيعة خَرَج في البُعُوثِ إلى خراسان أيامَ بني أمية، و (ربيعةُ) حَمْلٌ في بطنِ أُمِّه، وخلَّفَ عند زوجتِهِ أمِّ ربيعة ثلاثين ألفَ دِينار.

فقَدِمَ المدينةَ المنورة بلَدَهُ بعدَ سبعٍ وعشرين سنَةً، وهو راكب فرساً، وفي يده رُمْح، فنَزَل ودَفَع البابَ برُمْحِه، فخَرَج ربيعةُ وقال: يا عَدوَّ الله، أتَهجُمُ على منزِلي؟! فقال: لا، وقال فَرُّوخ: يا عَدُوَّ الله، أنت رجلٌ دخلتَ على حُرْمَتِي! فتواثَبَا وتَلَبَّبَ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه، حتى اجتَمَع الجيران.

فبَلَغ ـ الخبرُ ـ مالكَ بن أنس والمَشْيَخَةَ، فأَتَوْا يُعِينون ربيعةَ، وكثُرَ الضجيجُ، وكلٌّ منهما يقول: لا فارقتُك إلا عندَ السلطان، فلما بَصُروا بمالك سكَتَ الناسُ كلهم.

---

(١) ص ١٥٣.

(٢) وهو الخبر ١٧٧ فيما تقدَّم هنا.

(٣) الخطيب في «تاريخ بغداد» ٨: ٤٢١، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» ١: ١٨٣.

فقال مالك: أيها الشيخُ لك سَعَةٌ في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري، وأنا فَرُّوخ مَوْلَى بني فلان، فسَمِعَتْ امرأتُه كلامَه فخَرَجَتْ وقالت: هذا زَوْجي، وهذا ابني الذي خلَّفَهُ وأنا حامِلٌ به، فاعتنَقَا جميعاً وبكَيَا، ودَخَل فَرُّوخ المنزلَ، وقال: هذا ابني؟ فقالَتْ: نعم، قال: أَخْرِجِي المالَ الذي عندك، وهذه معي أربعةُ آلافِ دينار، فقالت: المالُ قد دَفَنْتُه، وأنا أُخرِجُهُ بعدَ أيام.

ثم خَرَجَ ربيعةُ إلى المسجد، وجَلَس في حَلْقَتِه، فأتاه مالِكٌ والحَسَنُ بن زيد وأشرافُ أهلِ المدينة، وأَحْدَقَ الناسُ به، فقالت أُمُّه لزوجها فَرُّوخ: اُخْرُجْ فَصَلِّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخَرَج فصلَّى، فنَظَر إلى حَلْقةٍ وافرة، فأتاها فوَقَفَ عليها، ــ وكانت حَلْقَةَ ابنِهِ ربيعة ــ فنَكَسَ ربيعةُ رأسَه يُوهِمه أنه لم يَره، وعليه قَلَنْسُوة طَوِيلة، فشَكَّ أبوه فيه، فقال: مَنْ هذا الرجلُ؟ فقالوا له: هذا ربيعةُ بن أبي عبد الرحمن.

فقال: لقد رَفَع اللَّهُ ابني، ورَجَع إلى منزِلِه، وقال لوالدتِه: لقد رأيتُ ولدَكِ على حالةٍ ما رأيتُ أحداً من أهلِ العلمِ والفقهِ عليها، فقالت أُمُّه: فأَيُّما أَحَبُّ إليك: ثلاثون ألفَ دينار، أو هذا الذي هو فيه من الجاه؟ فقال: لا واللَّهِ بل هذا، فقالت: إني قد أَنفَقْتُ المالَ كلَّهُ عليه، قال: فواللَّهِ ما ضيَّعتِهِ». انتهى ما نقله القاضي محمد سليمان بزيادة يسيرة.

٣٠١ ــ قال عبد الفتاح: لقد استَحْسَنْتُ هذه الحكايةَ أوَّلَ ما وَقَفْتُ عليها، ثم تشكَّكتُ في صحتِها، وكَشَفتُ عنها فلم يَتَّضِح لي ثبوتُها، ثم رأيتُ الحافظَ الناقِدَ الصَّيْرَفِيَّ الإمامَ أبا عبد الله الذهبيَّ رحمه الله تعالى، قد كَشَف عن وَضْعِ هذه الحكاية وكَذِبها في كتابه «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلامَ»(١)، في ترجمة (ربيعة الـرَّأْي) نَفْسِه، فقال:

«قال أحمد بن مروان الدِّينوري صاحبُ «المُجَالَسة»، وقد تُكلِّم فيه: حدَّثنا يحيى بنُ أبي طالب، حدَّثنا عبدُ الوهاب بن عطاء، قال حدَّثني مَشْيَخَةُ أهلِ المدينة،

(١) ٥: ٢٤٦.

أنَّ فَرُّوخاً والِدَ ربيعة، خَرَج في البُعُوثِ إلى خراسان...». وساق الحافظُ الذهبيُّ القِصَّةَ بتمامِها، ثم قال عقِبَها:

«قلتُ: حِكايةٌ مُعجِبَة، لكنها مكذوبةٌ، لوجوه:

منها: أنَّ ربيعة لم يكن له حَلْقَةٌ وهو ابنُ سبعٍ وعشرين سنة، بل كان ذلك الوقتَ شيوخُ المدينةِ مثلَ القاسِم، وسالمٍ، وسليمانَ بنِ يَسَار وغيرِهم من الفقهاءِ السبعة.

الثاني: أنه لما كان ابنَ سبع وعشرين سَنَةً، كان مالكٌ فَطِيماً أو لم يُوْلَد بَعْدُ.

الثالث: أنَّ الطويلة ـ أي القَلَنْسُوَةَ ـ لم تكن خَرَجَتْ للناس، وإنما أخرجها المنصورُ، فما أظنُّ ربيعةَ لَبِسَها، وإن كان قد لَبِسَها فيكون في آخِرِ عُمُرِه، وهو ابنُ سبعين سنةً لا شابّاً.

الرابع: كان يكفيه في السَّبْع والعشرين سَنَةً أَلْفُ دينار أو أكثرُ». انتهى كلامُ الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى. وإنما أوردتُ هذه الحكاية للتنبيه عليها، لأنها محلُّ اغترارٍ بها لمن لا يَعلم حقيقتَها، كما وقع للقاضي ابن خلكان والقاضي محمد سليمان وغيرِهما وبعضِ كُتَّاب هذا العصر.

٣٠٢ ـ ثم وَقَفْتُ على نَقْدِ هذه الحكاية ونَقْضِها، للعلامة الشيخ عبد الرحمن المُعَلِّمي، في تعليقه عليها في كتاب «الأنساب» للسمعاني[1]، وقد كشَفَ عن إسنادِها ـ في «تاريخ بغداد»[2] إذ ساقها الخطيب فيه وسكت عليها ـ، وانتهى إلى الحكم باختلاقِها، لوجودِ بعض المتَّهمين بالوضع في إسنادها ولمنافاتها الواقع، فتوافَقَ حكمُه مع حكمِ الإمام الذهبي رحمهما الله تعالى. وقد أشار إلى ذلك الحافظ أبو سَعْد السمعاني عندما أورَدَها في «الأنساب» بقوله: «وحُكي...». وهكذا دائماً يكونُ مع الخبرِ الباطلِ دليلُ بطلانِه، يُدركُهُ من يُدْرِكُه، ويَغفُلُ عنه من يَغفُل.

(١) ٦: ٦١ ـ ٦٢.

(٢) ٨: ٤٢١.

٣٠٣ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»(١)، و«ميزان الاعتدال» للذهبي(٢)، في ترجمة (إسماعيل بن عَيَّاش الحِمْصِي): «الإمامُ، محدِّثُ الشام، أحَدُ الأعلام، حَدَّث عنه من القدماءِ الأعمشُ وغيرُهُ خَلْقٌ كثير. ولد سنة ١٠٦، ومات سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى.

وَفَدَ على المنصور فولَّاهُ خِزانةَ الثياب، وكان محتَشِماً نبيلاً جَوَاداً، وكان من العلماء العاملين. قال أبو اليَمان: كان إسماعيلُ جارَنا، فكان يُحيـي الليل، وربما قَرَأ ثم قَطَع ــ أي وقَفَ عن الصلاة ــ ثم رَجَع، فسألتُه عن ذلك فقال: أذكُرُ الحديثَ في الباب، فأقطَعُ الصلاةَ وأُعلِّقُه(٣). قال يحيى بن صالح: سمعتُ إسماعيل يقول: وَرِثتُ من أبي أربعةَ آلافِ دينار، أنفقتُها في طلب العلم».

٣٠٤ ــ وجاء في «تهذيب التهذيب»(٤)، في ترجمة (زياد بن عبد الله بن الطُّفَيل البَكَّائي الكوفي):

«قال يحيى بن آدم، عن ابن إدريس ــ عبدِ الله بن إدريس الأَوْدِي الكوفي ــ: ما أحَدٌ أثبَتُ في ابنِ إسحاق منه، لأنه أملَى عليه إملاءً مرَّتين. وقال صالح بن محمد ــ الملقَّبُ جَزَرَة ــ: ليس كتابُ «المغازي» ــ لابن إسحاق ــ عند أحَدٍ أصحَّ منه عند زياد، وذلك أنَّ زياداً باع دارَهُ وخَرَج يَدُوْرُ مع ابنِ إسحاق حتى سَمِعَ منه الكتاب. مات زياد سنة ١٨٣ رحمه الله تعالى».

٣٠٥ ــ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب(٥)، و«ذيل الجواهر المُضِيَّة» لعلي القاري(٦)، في ترجمة الإمام الفقيه المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الكوفي، تلميذِ

(١) ١ : ٢٥٣.
(٢) ١ : ٢٤٠ ــ ٢٤٤.
(٣) أي أكتبُهُ، لأضعَهُ في الباب الذي يُلائمه.
(٤) ٣ : ٣٧٥ ــ ٣٧٦.
(٥) ٢ : ١٧٣.
(٦) ٢ : ٥٢٩، ونقله شيخنا العلامة الكوثري رحمه الله تعالى في «بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني» ص ٦.

الإمام أبي حنيفة، المولود سنة ١٣٢، والمتوفى سنة ١٨٩ رحمه الله تعالى، قولُهُ: «تَرَكَ لي أبي ثلاثينَ ألفَ درهم، فأنفقتُ خمسة عَشَر ألفاً على النحو والشعر، وخمسة عَشَر ألفاً على الحديث والفقه».

٣٠٦ ــ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[١]، و «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[٢]، في ترجمة أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العُتَقِي، المصري، رحمه الله تعالى، المتقدم ذكره[٣]، «أنَّ ابنَ وَضَّاح قال: أنفقَ ابنُ القاسم في سَفْرَتِهِ إلى مالك ألفَ مثقال»، وقال الذهبي: «وبلَغَنا عن ابنِ القاسِم قالَ: خرجتُ إلى الحجاز اثنتي عشرة مرةً، أنفقتُ في كل مرة ألفَ دينار».

٣٠٧ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي[٤]، في ترجمة (علي بن عاصم الواسطي): «مسنِدُ العراق، الإمامُ الحافظ، أبو الحَسَن، ولد سنة ١٠٥، قال يعقوب بن شيبة: كان من أهلِ الدين والصلاح والخير البارع، وكان شديدَ التوقّي. حَدَّث عنه أحمدُ بن حنبل، ومحمد بن يحيى الذُّهْلِي، وعَبْدُ بن حُمَيد، وخلقٌ كثير.

قال ابنُ أَعْيَن: سَمِعتُ عليَّ بن عاصم يقول: دَفَع إليَّ أبي مِئَةَ ألفِ درهم، قال: اذهَبْ فلا أَرَى لك وجهاً إلا بمئةِ أَلْفِ حديث. قال يحيى بن جعفر البِيْكَنْدِي: كان يَجتمعُ عند علي بن عاصم أكثَرُ من ثلاثين ألفاً. وتوفي سنة ٢٠١ رحمه الله تعالى».

٣٠٨ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي[٥]، في ترجمة (هشام بن عُبَيد الله الرازي) المتوفى سنة ٢٢١ رحمه الله تعالى، الفقيه الحنفي أَحَدِ الأعلام، الذي تفقَّهَ بالإمام أبي يوسف والإمام محمد بن الحسن، وأخَذَ عنه أبو حاتم الرازي والحَسَنُ بن عَرَفة وهذه الطبقة، ما يلي: «قال موسى بن نصر سمعتُه يقول: لَقِيتُ ألفاً وسَبْعَ مِئةِ

---

(١) ٣: ٢٤٨.
(٢) ٩: ١٢١.
(٣) في الخبر ٨٣.
(٤) ١: ٣١٧.
(٥) ١: ٣٨٧.

شيخ، وخَرَجَ مني في طلب العلم سَبْعُ مِئةِ ألفِ درهم. مات هشامٌ سنة إحدى وعشرين ومئتين»[1].

٣٠٩ ــ وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[2]، في ترجمة الإمام (محمد بن سَلاَم البِيْكَنْدي) شيخِ البخاري، المولود سنة ١٦١، والمتوفى سنة ٢٢٥ رحمه الله تعالى، ما يلي: «الإمامُ الحافظُ الناقدُ، أبو عبد الله محمدُ بنُ سَلاَم البخاري البِيْكَنْدِي، مُحدِّث بُخَارَى، رَحَّال جَوَّال، حَدَّث عنه البخاريُّ، وأبو محمد الدارِميُّ، وعُبَيدُ الله بنُ واصل، . . .، وخَلْقٌ من أهلِ ما وراءَ النهر، وكان من أوعيةِ العلم والأَثر.

رَوَى محمد بن يوسف السمرقندي، عن محمد بن مُبَشِّر الكَرْمِيْني، قال: انكسر قلَمُ محمدِ بنِ سَلاَم البِيْكَنْدِي في مجلسِ شيخ، فأمَرَ أن يُنادَى: قَلَمٌ بدينار، فطارَتْ إليه الأقلام.

وقال سهلُ بن المتوكل: سمعتُ محمد بنَ سَلاَم يقول: أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفاً، وأنفقتُ في نَشْرِهِ أربعين ألفاً».

٣١٠ ــ وجاء في «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» للحافظ الذهبي[3]، وفي «غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري[4]، في ترجمة (خلف بن هشام الأَسَدي البزَّار البغدادي)، المولود سنة ١٥٠، والمتوفى سنة ٢٢٩ رحمه الله تعالى، المقرىءِ المحدِّثِ العابدِ الفاضل أحد الأعلام، شيخ الإمام مسلم وأبي داود وإبراهيم الحربي وهذه الطبقة:

---

(١) وقع في «هدية العارفين» ٢: ٥٠٨ تأريخُ وفاته (سنة ٢٠١ إحدى ومئتين)، وهو خطأ ناشىء عن سقوط (وعشرين)، وقد تابعَهُ عليه العلامة الزركلي رحمه الله تعالى في «الأعلام» ٩: ٨٥، والصوابُ سنة ٢٢١ كما أرَّخه الحافظ الذهبي.

(٢) ١٠: ٦٢٨ ــ ٦٣٠.

(٣) ١: ٢٠٩.

(٤) ١: ٢٧٣.

«قال حَمْدَانُ بن هانىء: سَمِعتُ خَلَفَ بن هشام يقول: أَشكَلَ عليَّ بابٌ من النحو، فأَنفَقْتُ ثَمانينَ ألفَ دِرْهَم حتى حَذَقْتُه».

٣١١ ــ وتقدَّم(١) أنَّ الإمامَ يحيى بنَ معين، المتوفى سنة ٢٣٣، خلَّف له والدُهُ ألْفَ أَلْفِ درهم وخمسين أَلْفَ درهم، فأنفَقَه كلَّهُ على الحديث، حتى لم يَبْقَ له نَعْلٌ يَلبَسُه.

٣١٢ ــ وجاء في «تهذيب الكمال» للمِزِّي(٢)، و«معرفة القُرَّاء الكبار» للذهبي(٣)، في ترجمة الحافظ الإمام (هشام بن عَمَّار السُّلَمِي الدمشقي) أبي الوليد، خطيبِ دمشق ومُقرِئها، ومُحدِّثها وعالِمها، المُعَمَّر الزاهد، شيخِ البخاري وأبي داود والنسائي وأُمَمٍ سِوَاهم، المولودِ سنة ١٥٣، والمتوفى سنة ٢٤٥ رحمه الله تعالى:

«قال أبو بكر محمد بن سليمان الرَّبَعِي، عن محمد بن الفَيْض الغسَّاني: سَمِعتُ هشامَ بن عَمَّار بن نُصَير يقول: باع أبي بيتاً له بعشرين ديناراً، وجهَّزَني للحجّ، فلما صِرتُ إلى المدينة أتيتُ مجلسَ مالكِ بن أنس، ومعي مسائلُ أُريدُ أن أسألَه عنها، فأتيتُه وهو جالسٌ في بيتِهِ في هيئة الملوك، وغِلمانٌ قيامٌ، والناسُ يَسألونه وهو يُجيبهم.

فلما انقضى المجلسُ قال لي بعضُ أصحاب الحديث: سَلْ عما مَعَك، فقلتُ له: يا أبا عبد الله، ما تقولُ في كذا وكذا؟ فقال: حَصَلْنا على الصِّبْيَان! يا غلامُ احمِلْه! فحَمَلَني كما يُحمَلُ الصبي، وأنا يومَئذٍ غلام مُدْرِك، فضرَبني بدِرَّةٍ مِثْلِ دِرَّةِ المُعَلِّمين سَبْعَ عشرة دِرَّة، فوقفتُ أبكي، فقال لي مالكُ بن أنس: ما يُبكيك أَوْجَعَتْك هذه؟ يعني الدِّرَّة.

قلتُ: إنَّ أبي باع منزلَه، ووجَّهَ بي أتشرَّفُ بك وبالسماع منك، فضربتَني! فقال: اكتُبْ، فحدَّثني سَبْعَةَ عشرَ حديثاً، وسألتُه عما كان معي من المسائل فأجابني.

---

(١) في الخبر ١٧٧.

(٢) ٣: ١١٤٤.

(٣) ١: ١٩٦.

وقال صالح بن محمد الحافظُ جَزَرَةُ[١]: سَمِعتُ هشام بن عَمَّار يقول: دخلتُ على مالك بن أنس، فقلتُ له: حدِّثْني، فقال: اقْرَأ، فقلتُ: لا، بل حدِّثني، فقال: اقرأ، فلما رادَدْتُهُ، قال: يا غلامُ، تعالَ اذهَبْ بهذا فاضْرِبْهُ خمسَةَ عَشَر، قال: فذَهَب بي فضَرَبني خمسَ عشرة دِرَّة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضَرَبتُه.

فقلتُ: قد ظَلَمتَني! ضَرَبتني خَمْسَ عشرة دِرَّة بغير جُرْم، لا أجْعَلُكَ في حِلّ، فقال مالكٌ: فما كفَّارَتُه؟ قلتُ: كفَّارتُه أن تُحدِّثني بخمسَةَ عشرَ حديثاً، قال: فحدَّثني بخمسَةَ عشرَ حديثاً، فقلتُ له: زِدْ من الضَّرْبِ وزِدْ في الحديث، فضَحِكَ مالكٌ وقال: اذهَبْ».

٣١٣ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي[٢]، في ترجمة (الذُّهلي)، الذي تقدم ذكره[٣]، «الإمامُ، شيخُ الإسلام، حافظُ نيسابور، أبو عبد الله محمدُ بن يحيى بن عبد الله بن خالد النيسابوري، الذُّهْليُّ مَوْلَى بني ذُهْل. انتهَتْ إليه مَشْيَخَةُ العلم بخراسان مع الثقةِ والصيانة والدينِ ومُتابعةِ السنن. قال محمد بن سهل بن عسكر: كنا عند أحمد بن حنبل، فدخل محمد بن يحيى الذُّهْلي، فقام إليه أحمد وتعجَّب الناسُ منه، وقال لأولادِهِ وأصحابِهِ: اذهبوا إلى أبي عبد الله ــ أي الذُّهْلي ــ فاكتبوا عنه، وقال أبو بكر بن أبي داود: كان أميرَ المؤمنين في الحديث[٤].

قال الحسين بن الحسَن بن سفيان: سمعت محمد بن يحيى ــ الذهلي ــ يقول: ارتحلتُ ثلاثَ رِحْلات، وأَنْفَقْتُ على العلم مِئةً وخمسين ألْفاً، وأتيتُ البصرةَ فاستقبلَتْني جنازةُ يحيى القطان على باب البلد!». انتهى. وكانت وفاة يحيى بن سعيد القطان في صفر سنة ١٩٨، رحمةُ الله تعالى عليهم أجمعين.

---

(١) هذه الرواية التالية ليس فيها بيع شيء لإنفاق ثمنه في طلب العلم، وإنما أوردتها هنا تبعاً للرواية السابقة، لما فيها من تحمل السياط في طلب العلم.

(٢) ٢ : ٥٣١.

(٣) في الخبر ٩٦.

(٤) وقع في «تذكرة الحفاظ»: (وقال أبو بكر بن زياد)، وهو تحريف عن (أبو بكر بن أبي داود) كما في غير كتاب، ومنها «طبقات الحفاظ» للسيوطي ص ٢٣٤، و«سير أعلام النبلاء» ١٢ : ٢٨١، و«تهذيب التهذيب» ٩ : ٥١٥.

٣١٤ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي[1]، في ترجمة (محمد بن سَنْجَر)، المتوفى سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى: الحافظُ الكبيرُ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سَنْجَر الجُرْجانيُّ، صاحبُ «المسند»، قال ابن أبي حاتم: ابنُ سَنْجَر ثقة. وقال ابنُ سَنْجَر: رَحَلْتُ ومعي إسحاقُ الكَوْسَج ــ هو صاحبُ الإمام أحمد، الإمامُ الفقيه أبو يعقوب إسحاق بن منصور المروزي، توفي سنة ٢٥١ ــ، ومعي تِسعةُ آلافِ دينار، فكان إسحاق يُورِّقُ لي ــ أي يكتُبُ ليَ الحديث ــ، ويَتزوَّجُ في كل بلد، وأنا أُؤدِّي عنه المهر. ثم إنَّ ابن سَنْجَر سكن قريةَ قَطَايَة من أعمال مصر، ومات فيها رحمه الله تعالى».

٣١٥ ــ وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[2]، في ترجمة (يعقوب بن شيبة) السَّدُوسِيّ البَصْري ثم البغدادي، المولود في حدود ١٨٠، والمتوفى سنة ٢٦٢ رحمه الله تعالى:

«الحافظُ الكبيرُ العلامةُ الثقة، صاحبُ «المسند» الكبير، العديمِ النظير، المُعَلَّلِ، الذي تَمَّ من مسانيدِهِ نحوٌ من ثلاثين مجلداً، ولو كَمَل لجاء في مِئةِ مجلَّد. يَذكُرُ أولاً سِيرةَ الصحابي مستوفاةً، ثم يَذكُرُ ما رواه، ويُوضِّحُ عِلَل الأحاديث، ويتكلَّم على الرجال، ويُجرِّح ويُعدِّل، بكلامٍ مُفيدٍ عَذْبٍ شافٍ، بحيث إنَّ الناظر في «مسنده» لا يَمَلُّ منه.

قال أبو الحسن الدارقطني: لو كان كتابُ يعقوب بن شيبة مسطوراً على حَمَّام[3]، لوَجَبَ أن يُكتَب. يعني: لا يَفتقِرُ الشخصُ فيه إلى سماع.

قال الخطيب: قيل: إنَّ نسخةً بمُسْنَدِ أبي هريرة منه شُوهِدَتْ بمصر، فكانت في مِئتي جزء، والذي ظَهَر له: مُسْنَدُ العَشَرةِ، وابنِ مسعود، وعمارٍ، والعباسِ، وعُتْبَة بن غَزْوان، وبعضِ الموالي. قلتُ ــ القائل الذهبي ــ: وبلغني أنه شُوهد له «مُسنَدُ عليّ» في خمسةِ أسفار.

(١) ٢ : ٥٧٩.

(٢) ١٢ : ٤٧٦ ــ ٤٧٩، و«تذكرة الحفاظ» ٢ : ٥٧٧.

(٣) وهكذا هو بلفظ (حَمَّام) في «تاريخ بغداد» ١٤ : ٢٨١. وخص الحَمَّام بالذكر لأنه مكان ممتهن، ومع هذا لو كُتِبَ عليه لوَجَبَ أن يُكتَب.

قال الخطيب: حدثني الأزهري، قال: بَلَغني أنه كان في منزلِ يعقوب بن شيبة أربعون لِحافاً، أعدَّها لمن كان عنده من الورَّاقين الذين يُبيِّضون له «المُسْنَد». قال: ولَزِمَه على ما خَرَّجَ منه عَشَرةُ آلافِ دينار. قلتُ: ــ القائلُ الذهبي ــ: قد كان يعقوبُ صاحبَ أموالٍ عظيمة وحِشمةٍ وحُرْمةٍ وافرة، بحيث إنَّ حفيدَه حَكَى، قال: لمَّا وُلِدتُّ عَمَد أبوايَ، فملآ لي ثلاثةَ خَوَابِي ذهباً، وخبَّآها لي، فذَكَرَ أنه طال عُمرُهُ، وأنفَقَها وفَنِيَتْ، واحتاج!».

٣١٦ ــ وجاء في كتاب «ذكر أخبار أصبهان» للحافظ أبي نُعَيم الأصبهاني[١]، في ترجمة (ابن رُسْتُم)، المتوفى سنة ٢٧٢[٢]: «أبو جعفر المدينيُّ أحمَدُ بنُ محمد بن مَهْدِي بن رُسْتُم، كَتَب بالشام ومِصْرَ والعِراقَيْن وصنَّف «المسنَد».

قال أبو محمد بن حَيَّان: قال محمد بن يحيى بن مَنْدَه: لم يُحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثَقُ منه. كان ظاهِرَ الثروة، صاحبَ ضِيَاع، لم يكن في أصبهان أكثَرُ منه حديثاً. صاحبُ الكتب والأصول الصحاح، أنفَقَ عليها نحواً من ثلاثِ مئةِ ألفِ درهم، لم يُعرَف له فِراشٌ منذ أربعين سنة، صاحبُ صلاة واجتهاد. افتَقَد من كتبه كتابَ قَبِيصة، ثم رُدَّ عليه فتَرَكَ قراءته ــ أي احتياطاً خشية أن يكون تَصرَّفَ فيه مُتَصرِّف ــ».

٣١٧ ــ وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[٣]، في ترجمة الإمام ابن عامر المالكي (أبي زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامِر الكِناني) الأندلسي، المولود سنة ٢١٣، والمتوفى سنة ٢٨٩ رحمه الله تعالى:

«أَنْدَلُسيٌّ من أهلِ جَيَّان، نشأ بقرطبة، وسَكَن القَيْرَوان، واستَوْطَن سُوْسَة أخيراً، وبها قَبْرُهُ، طَلَبَ العلمَ عند ابنِ حبيب وغيره. ورَحَل فسَمِعَ بإفريقية من

---

(١) ١: ٨٥.

(٢) هكذا أرَّخ وفاته أبو نعيم بالعبارة: «سنة اثنتين وسبعين ومئتين». وهكذا أرَّخها الذهبي في «العِبَر»، وترجم له بإيجاز في وَفَيَات سنة ٢٧٢. ووقع في «النجوم الزاهرة» لابن تَغْرِي بَرْدِي ٣: ٢٢٦، ذكرُهُ في وفَيَات سنة ٣١٧. وهو غلط فاجتنبه.

(٣) ٤: ٣٥٧ ــ ٣٦٠ من طبعة المغرب، و٣: ٢٣٤ ــ ٢٣٧ من طبعة بيروت الناقصة.

سحنون، وعَوْن، وأبي زكرياء الحُفْرِي[١]، وسَمِعَ بمصرَ من ابن بُكَيْر، وابن رُمْح، وحرملة، وغيرِهم من أصحاب ابنِ وَهْب وابن القاسم وأشهب.

وسَمِعَ أيضاً بالحجاز وغيرها من أبي مُصْعَب الزهري، ونصر بن مرزوق، وابن كاسِب، وأحمد بن عمران الأخفش، وغيرِهم. قال الكانشي: وأنفَقَ يحيى في طلب العلم ستةَ آلافِ دينار.

سَمِعَ منه الناس، وتفقه عليه خلق، منهم أخوه محمد، وأبو بكر بن اللَّبَّاد، وأبو العَرَب، وعمر بن يوسف، وأبو العباس الإِبْيَاني، وأحمد بن خالد الأندلسي، وغيرُهم، وإليه كانت الرِّحلةُ في وقته. قال أبو العرب: كان إماماً في الفقه، ثَبْتاً، ثقة، فَقِيهَ البدن[٢]، كثيرَ الكتبِ في الفقه والآثار، ضابطاً لما رَوَى، عالماً بكُتُبِهِ مُتْقِناً شديدَ التصحيح لها، من أئمة أهل العلم، وعِدادُه في كبراء أصحاب سحنون، وبه تفقه. وتوفي بسُوسَة رحمه الله تعالى».

٣١٨ ــ وجاء في «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[٣]، في ترجمة (عَبْدان) الفقيهِ الحافظ المحدِّث الإمام أبي محمد عبدان بن محمد بن عيسى المَرْوَزِي، الذي كان يُضرَبُ المَثَلُ باسمِهِ في الحفظ والزهد، المولود سنة ٢٢٠، والمتوفى سنة ٢٩٣ رحمه الله تعالى:

«قال أبو سَعْد بن السمعاني: وعَبْدَانُ هو الذي أظهَرَ مذهبَ الشافعي بمَرْو بعد أحمد بن سَيَّار، فإنَّ أحمد بن سيَّار حَمَل كتب الشافعي، ــ عن الربيع المُرادِي من مصر ــ إلى مَرْو، وأُعجِبَ بها الناس.

(١) الحُفْرِي: بضم الحاء المهملة وسكون الفاء، نسبة إلى حُفْرةٍ عند داره بالقيروان، قاله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ٤: ٤١٥ من طبعة المغرب، ووقع في طبعة بيروت ٣: ٢٣٤: (الجفري) أي بالجيم، وهو تحريف.

(٢) يقال: فقيه البدن، ويقال: فقيه النفس، ويراد بكل منهما أنه فقيه ممتلىء فقهاً بالفطرة والخِلقة.

(٣) ٢: ٢٩٨.

فنَظَر في بعضها عَبْدان وأراد أن يَنسخَها، فمَنَعها أحمدُ بن سَيَّار عنه، فباع ضيعةً له بجُنُوجِرْد: قرية من قرى مَرْو، وخَرَج إلى مصر، وأدرَك الربيعَ وغيرَه من أصحاب الشافعي، ونسَخَ كُتُبَه، وأدرَكَ من المشايخ والفقهاءِ ما لم يدركه غيرُه، وحمَلَ عنهم، ورحَلَ إلى الشام والعراق، وكتَبَ عن أهل مصر ورَجَع إلى مَرْو.

وكان أحمد بن سيَّار في الأحياء، فدخل عليه مسلِّماً ومهنئاً بالقدوم، فاعتَذَر أحمدُ بن سيار من مَنْع الكتبِ عنه، فقال عَبْدان: لا تعتذر، فإنَّ لك مِنَّةً عليَّ في ذلك، وذلك أنك لو دَفَعْتَ إليَّ الكتبَ كنتُ اقتَصرتُ على ذلك، وما كنت أَخرُجُ إلى مصر، ولا كنتُ أُدرِكُ أصحابَ الشافعي، ففَرِح بذلك أحمدُ بن سيَّار».

٣١٩ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ» للذهبي(١)، في ترجمة (ابن الضُّرَيْس)، المولود سنة ٢٠٠، والمتوفى سنة ٢٩٤ رحمه الله تعالى: «الحافظُ المسنِدُ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضُّرَيس البَجَليُّ الرازِيُّ، مُصَنِّفُ كتاب (فضائل القرآن)، قال بعض العلماء: سَمِعتُ محمد بن أيوب يقول: آخِرُ قَدْمَةٍ قَدِمتُها البصرة، أَدَّيتُ أُجْرَةَ الوَرَّاقِين عَشَرةَ آلافِ درهم».

٣٢٠ ـ وجاء في «معرفة القراء الكبار» للحافظ الذهبي(٢)، في ترجمة (أبي بكر الأصبهاني) محمدِ بن عبد الرحيم شيخِ القُرَّاءِ في زمانه، المتوفى ببغداد سنة ٢٩٦ رحمه الله تعالى:

«قال عبدُ الباقي بن الحسن بن السَّقَّا: قال محمد بن عبد الرحيم: رَحَلتُ إلى مصر ـ من أصبهان ـ، ومعي ثمانون ألفاً، فأنفقتُها على ثمانين خَتْمَةً». انتهى! يعني أنه خَتَمَ القرآن بقراءته على شيوخ القرآن والقراءات ثمانين مرة، وأنفَقَ من أجل ذلك ثمانين ألفَ درهم، فما أغناه بما رَبح! رحمةُ الله عليه.

٣٢١ ـ وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب(٣)، و«الأنساب» للسمعاني(٤)، في

---

(١) ٢: ٦٤٣.

(٢) ١: ١٨٩.

(٣) ٢: ١٣٩.

(٤) ١٠: ٤٤١ في نسبة (القَصْري).

ترجمة أبي بكر محمد بن جعفر بن رُمَيْس بن عَمْرو القَصْرِي البغدادي، المتوفى سنة ٣٢٦ رحمه الله تعالى: «القَصْري: نسبةٌ إلى قَصْرِ ابن هُبَيرة، من أعمال بغداد، كان ابنُ رُمَيْس بغدادياً نزل القَصْرَ وأقام بها إلى حين وفاته، فنُسِبَ إليها، رَوَى عنه أبو الحسن الدارقطني. قال ابنُ رُمَيْس: بعتُ صَفَّ الحدَّادين ببغداد بثلاثة آلاف دينار، فأنفقتُها كلَّها على الحديث».

٣٢٢ ــ وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي[1]، في ترجمة (ابن الكوفي): علي بن محمد بن الزُّبَير الأَسَدي النَّحْوِي اللغوي الكوفي، المولود سنة ٢٥٤، والمتوفى سنة ٣٤٨ رحمه الله تعالى:

«عالمٌ، صحيحُ الخطّ، راوِيةٌ، جَمَّاعةٌ للكتب، صادِقُ الرواية، مُنَقِّرٌ بحَّاثٌ، من أصحاب أبي العباس ثَعْلَب المختصين به.

وكان أبوه من أهلِ ذَوِي اليسار من أهل الكوفة، واشتَغَل ولدُه هذا بطلب العلم من يومِه. ولما مات أبوه خلَّف له ــ فيما يُقال ــ زائداً عن خمسين ألفَ دينار، فصرَفها كلَّها في طلب العلم، وتحصيلِ الكتب اشتراءً واستنساخاً وكتابةً، وصرَف من ذلك جُزْءاً صالحاً لفقراءِ طَلَبةِ العلم، وكان منزلُه مَغْشِياً منهم، ونَفَقاتُه عليهم واسِعَةً.

فأما كتُبه ففي غايةِ الجودة والإتقان، والموجودُ منها في زماننا هذا، إذا تُؤمِّلَ دَلَّ على تيقُّظٍ وبَحْثٍ ورغبة، وقد كانت لكثرتها يُعيِّنُ لكلِّ نوعٍ منها مَوْضِعاً مخصوصاً من خزائِنِه، ويكتُبُه على أوَّلِ الكتابِ ليجدَهُ إذا طلبه، ويُعيده إلى موضعِه المعلوم إذا غَنِيَ عنه، رحمه الله، فما كان أسنَى أفعالَه.

وشَغَلَه طلبُهُ الفوائدَ عن التصنيف، فلم يُرَ له إلا تصنيفٌ واحد في مَعاني الشعر واختلافِ العلماء في ذلك».

٣٢٣ ــ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[2]، في ترجمة (دَعْلَج) الحافظِ الفقيهِ الإمام

---

(١) ٢: ٣٠٥.

(٢) ٣: ٨٨١.

محدِّثِ بغداد، دَعْلَجِ بن أحمد بن دَعْلَج أبي إسحاق السِّجْزي المُعَدَّل، المولود سنة ٢٦٠، والمتوفى سنة ٣٥١ رحمه الله تعالى:

«كان من أَوْعِيَةِ العلم وبُحورِ الرواية، وكان له صَدَقاتٌ جاريةٌ على أهل الحديث بمكة والعراق وسِجِسْتان.

قال الحاكم: اشتَرى دَعْلَجُ بمكة دارَ العبَّاسِيَّةِ بثلاثين ألفَ دينار. قال الخطيب: بَلَغني أنَّ دَعْلَجَ بَعث ـ مُصَنَّفَهُ ـ «المسند الكبير» إلى ابن عُقْدَة، لِيَنظُرَ فيه، وجَعَل بين كلِّ ورقتين دِيناراً. قال ابنُ حَيُّوَيْهْ: أدخَلَني دَعْلَجُ دَارَهُ، وأراني بِدَراً من المالِ مُغَشَّاة[1]، فقال: خُذْ منها ما شِئتَ، فشكرتُه وقلتُ: أنا في كفاية».

٣٢٤ ـ وجاء في «تذكرة الحفاظ»[2]، في ترجمة (الجَوْزَقي)، المولود سنة ٣٠٦، والمتوفى سنة ٣٨٨ رحمه الله تعالى: «الحافظُ الإمامُ الأوحَدُ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن زكريا الشيباني الجَوْزَقي[3] المُعَدَّل، مُحدِّثُ نيسابور، وصاحبُ «الصحيح المخرَّج على صحيح مسلم». رُوي عنه أنه قال: أنفقتُ في طلب الحديث مئة ألف درهم، ما كَسَبتُ درهماً».

٣٢٥ ـ وجاء في «الديباج المُذْهَب»، للقاضي ابن فرحون المالكي[4]، في ترجمة (أبي القاسم خَلَف مَوْلَى يوسف بن بُهْلول البَلَنْسِي الأندلسي المالكي، المعروف بالبَرَالي، ويقال: البَرْيَلي) المتوفى سنة ٤٤٣ رحمه الله تعالى: إنه لمَّا ألَّف في شرح «المدوَّنة» واختصارها كتاباً سمَّاه: «التقريب»، استعمَلَه الطلبَةُ في المُنَاظرة وانتفعوا به، عَوَّل فيه على نَقْل ابنِ أبي زَمْنِيْن في لفظِ «المدوَّنة»، ولمَّا أكمَلَ هذا الكتابَ تأليفاً، دَخَلَتْ نسخةٌ منه مَدِينةَ صِقِلِّيَّة.

وكان عبدُ الحق بن محمد بن هارون السَّهْمِي القرشيُّ الصِّقِلِّيُّ، فقيهُ صِقِلِّيَّة

---

(١) البِدَرُ جمعُ بَدْرَة وهي كيسٌ فيه مقدارٌ من المال، يُتعامَلُ به، ويُقدَّمُ في العطايا، ويكون فيه ألفُ درهم، أو عشرةُ آلاف درهم، أو سبعةُ آلافِ دينار، يختلف باختلاف العهود.

(٢) ٣: ١٠١٣.

(٣) جَوْزَق: قريةٌ من قرى نيسابور.

(٤) ١: ٣٥٢.

وعالِمُها، والمتوفَّى بالإسكندرية سنة ٤٦٦، لم يكن قد رَحَل من صِقِلِّيَّةَ بَعْدُ، فلمّا قرأه ونَظَر فيه إلى أقوالِهِ وما أدخَلَهُ فيه من كتابه، استحسنه وأراد شراءَهُ فلم يَتيَسَّر له ثمنُه! فباع حوائجَ من دارِهِ واشتراه! فغلا الكتابُ، وتنافَسَ فيه الناسُ عندَ ذلك.

وكان أبو الوليد بن هشام بن أحمدَ الفقيه يقول: من أراد أن يكونَ فقيهاً من ليلةٍ، فعليه بكتابِ البَرْيَلي.

٣٢٦ ـ وجاء في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب[1]، في ترجمة الإمام أبي الوفاء بن عَقِيل الحنبلي (علي بن عقيل) البغدادي، المُقرىء، الفقيه، الأصولي، الواعظ، المتكلِّم، ذي العلوم والفنون، أحدِ الأئمة الأعلام في الإسلام، ومن أفاضل العالَم، وأذكياءِ بني آدم، المولود سنة ٤٣١، والمتوفى سنة ٥١٣، رحمه الله تعالى، ما خلاصته:

«أنه كان يقول: إني لا يَحِلُّ لي أن أُضِيعَ ساعةً من عُمُري، حتى إذا تَعطَّلَ لساني عن مذاكرةٍ ومُناظرةٍ، وبَصَري عن مُطالعة، أَعملتُ فكري في حالِ راحتي، وأنا مُنْطَرِح، فلا أَنْهَضُ إلا وقد خَطَر لي ما أُسَطِّرُهُ، وإني لأَجِدُ من حِرْصِي على العلم وأنا في عَشْرِ الثمانين أشَدَّ مما كنتُ أجِدُهُ وأنا ابنُ عشرين سنة.

وأنا أُقصِّرُ بغايةِ جُهدِي أوقاتَ أكلي، حتى أختارَ سَفَّ الكَعْكِ وتحسِّيَهُ بالماءِ على الخُبْز، لأجلِ ما بينهما من تَفَاوُتِ المَضْغ، توفُّراً على مُطالعة، أو تسطيرِ فائدة لم أُدركها فيه. وإنَّ أجَلَّ تحصيلٍ عند العقلاء بإجماع العلماءِ هو الوَقْتُ، فهو غَنِيمةٌ تُنتهَزُ فيها الفُرَص، فالتكاليفُ كثيرةٌ، والأوقاتُ خاطفة.

قال تلميذُ تلامذتِهِ الشيخُ ابن الجوزي: كان الإمام ابن عقيل دائمَ الاشتغال بالعلم، وكان له الخاطِر العاطِر، والبحثُ عن الغَوَامضِ والدقائق، وجعَلَ كتابه المسمَّى بـ «الفنون» مَنَاطاً لخواطِره وواقعاتِه.

قال الحافظ ابن رجب: وللإمام ابن عقيل تصانيفُ كثيرةٌ في أنواع العلوم، نحوُ العِشرين تصنيفاً، وأكبرُ تصانيفِهِ كتابُ «الفنون» وهو كتاب كبير جداً، فيه فوائدُ كثيرةٌ

---

(١) ١: ١٤٢ ـ ١٦٥.

جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، وأصول الفقه، وأصول الدين، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات. وفيه مناظراتُهُ ومُجالساتُهُ التي وَقَعَتْ له، وخواطرُه ونتائجُ فكره، قيَّدها فيه.

قال الحافظ الذهبي: لم يُصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب، حدَّثني من رأى منه المجلَّدَ الفلانيَّ بعد الأربعِ مئة، قال الحافظ ابن رجب: وقال بعضهم: هو ثمانُ مئةِ مجلَّدة».

ثم قال الحافظ ابن رجب[1] في ترجمة (عبد الله بن المبارك العُكْبَري)، المُقرِىء الفقيهِ الحنبلي المكنَّى بأبي محمد، ويُعرف بابنِ نَيَّال، المتوفى سنة ٥٢٨ رحمه الله تعالى، عن نيف وسبعين سنة: «سَمِعَ ــ الحديثَ ــ من أبي نصر الزَّيْنَبي، ...، وتفقَّهَ على أبي الوفاء بن عقيل، وأبي سعد البَرَداني، وكان يَصحَبُ شافِعاً الحنبليَّ، فأشار عليه بشراء كُتُب ابن عقيل، فباعَ مِلْكاً له! واشتَرَى بثمنِهِ كتابَ «الفنون»، وكتابَ «الفصول»، ووَقَفَهما على المسلمين، وكان خيِّراً من أهل السُّنَّة رحمه الله تعالى».

قال عبد الفتاح: لله دَرُّ هذا الفقيه! ما أفقَهَهُ في أمور الآخِرة أيضاً، فقد باع ما يَخرَبُ ويَفْنَى، واشتَرَى ما يَستمرُّ الأجرُ فيه ويَبقى، أحسَنَ الله إليه، ورضوانُ الله عليه.

٣٢٧ ــ وجاء في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب[2]، في ترجمة ابنِ الخَشَّاب أبي محمد عبد الله بن أحمد بن الخشاب الحنبلي البغدادي، الإمام النَّحْوي اللغوي المفسِّر المقرىء المحدِّث الأديب، المولود سنة ٤٩٢، والمتوفى سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى:

«ذَكَرَ ابن النجار أنه لم يمت أحدٌ من أهل العلم وأصحاب الحديث، إلا وكان يشتري كتبه كلَّها، فحصلَتْ أصولُ المشايخ عنده، وكان لا يخلو كُمُّهُ من كُتُبِ العلم.

وذَكَرَ عنه أنه اشترى يوماً كتباً بخمس مئة دينار، ولم يكن عنده شيء،

(١) في «ذيل طبقات الحنابلة» ١ : ١٨٥.

(٢) ١ : ٣١٩.

فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضَى ونادى على داره، فبلغَتْ خمسَ مئة دينار، فنقد ــ كذا، ولعل الصواب: فقَصَد ــ صاحِبَها ــ أي صاحبَ الكتب ــ، وباعه بخمس مئة دينار، ووفَّى ثمن الكتب، وبقيت له ــ أي لصاحب الكتب ــ الدار. ولما مَرِض أُشهِدَ عليه بوقف كتبه، فتفرَّقَتْ وبِيعَ أكثَرُها ولم يَبق إلا عشرُها، فتُرِكَتْ في رباط المأمونية وَقْفاً».

٣٢٨ ــ وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء» و«تذكرة الحفاظ» للذهبي[1]، و«ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب الحنبلي[2]، «معجم الأدباء»، لياقوت الحَمَوي[3]، في ترجمة أبي العلاء الهَمَذاني (الحسن بن أحمد بن سهل العطار)، المقرىءِ المحدِّثِ الحافظِ، الفقيهِ الحنبلي، الأديبِ اللغوي، المؤرِّخ النسَّابة، الرحَّالِ الزاهد، شيخِ هَمَذان، المولود سنة ٤٨٨، المتوفى سنة ٥٦٩ رحمه الله تعالى:

«الحافظُ العلامة المقرىء، شيخُ الإسلام، وُلِدَ بهمَذان، وتلقَّى عن كبار الشيوخ فيها، ثم ارتحل إلى بغداد أربعَ مرات، فسَمِعَ من خلقٍ كثيرٍ من علمائها، ثم عاد إلى هَمَذان، وعَمِلَ داراً للكتب وخِزانة، ووَقَفَ جميعَ كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصولَ الكثيرة، والكتبَ النادرةَ الكبارَ الحِسان، بالخطوط المعتبرة، وأَرْبَى على أهل زمانه في كثرةِ السماعات، مع تحصيل أصول ما سَمِع، وجَوْدَةِ النُّسَخ، وإتقانِ ما كتبه بخطه، فإنه ما كان يكتُبُ شيئاً إلا مُنَقَّطاً مُعْرَباً.

وكان عفيفاً من حب المال، مُهيناً له، من أبناء التجار، فباع جميعَ ما وَرِثَهُ وأنفقه في طلب العلم، وسافَرَ الكثيرَ ماشِياً، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصبهان مراتٍ ماشياً، يَحمِلُ كتبه على ظهره، وأُوتي قوةً عجيبةً في المشي، كان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً. وكان له حَظٌّ في كل علم، قال: كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد، وآكُلُ خُبْزَ الدُّخْنِ. أي الذُّرَة.

---

(١) ١: ١٣٢٤ و«سِيَر أعلام النبلاء» ٢١: ٤٠.

(٢) ١: ٣٢٤. (٣) ٨: ٥ ــ ٥٢.

قال الإمام طلحة بن مظفَّر العَلْثي: بِيعَتْ كتبُ ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهَمَذاني، فنادَوْا على قطعةٍ منها بستين ديناراً، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين ديناراً، والإنظارُ من يوم الخميس إلى يوم الخميس، فخرج الحافظ واستقبَلَ طريق همَذَان، فوَصَل فنادَى على دارٍ له، فبلغت ستين ديناراً، فقال: بِيعوا، قالوا: تَبلُغُ أكثَرَ من ذلك، قال: بيعوا، فباعوا الدار بستين ديناراً فقَبَضَها ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس فوفَّى الثمن، ولم يَشعُر أحدٌ بحالِهِ إلا بعدَ مُدَّة.

قال ابن الجوزي: وبلغني أنه رُؤي في المنام بعد موته، في مدينةٍ جميعُ جُدرانِها من الكُتُب، وحَوْلَهُ كُتبٌ لا تُحَدُّ، وهو مشتغلٌ بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال سألتُ الله أن يَشغَلَني بما كنتُ أشتغلُ به في الدنيا، فأعطاني[1].

ورَحَل إليه العلماءُ من المشرِق والمغرب، وطارَتْ شُهرتُهُ بفضائلِهِ وعلومِهِ الكثيرةِ في الآفاق.

فسارَ مَسِيرَ الشمسِ في كلِّ موطنٍ ... وهَبَّ هُبُوبَ الرِّيح في الشَّرْقِ والغَرْبِ

ورَحَل إليه رجلٌ من أقصَى المغرب، ومدَحَه بقصيدةٍ هي من غُرَرِ القصائد، وذَكَر أحوالَه في سَفْرَتِهِ إليه، وما أصابه من التعب والمَشَاقِّ، وأنه سار على قَدَمَيْهِ في رحلته إليه مُدَّةَ حَوْلٍ! :

سَعَى إليكَ على قُرْبٍ ومِنْ بُعْدِ ... مَنْ كان ذا رغبةٍ في العِلْمِ والسَّنَدِ

---

(١) قال عبد الفتاح: ولشيخنا العلامة الفقيه الأديب القاضي أحمد بن محمد بَنَّاني، المغربيِّ الرِّباطيِّ، حفظه الله تعالى وأمتَعَ به أبياتٌ لطيفةٌ في التعلُّق بالكتب ومطالعتها، سمعتُها منه مراتٍ متعددة في مدينتِهِ الرِّباط بالمغرب، آخِرها في يوم الخميس ٢٥ من شوال سنة ١٤٠٣، وقد بَلَغ من العُمر المئةَ إلا سنتين وكُفَّ بصرُه أحسن الله إليه، قال:

إذا رُمْتَ الجِنَانَ وساكِنِيها ... وإمتاعَ العُيُونِ بما يُفِيدُ
فكُتْبُكَ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ فيها ... ثِمارُ الخُلْدِ تَجْني ما تُرِيدُ
وغَذِّ الرُّوحَ منها كلَّ وقتٍ ... ولا تَشْبَعْ فرُوحُكَ لا تَحِيدُ
وإن فَاتَ الزَّمانُ عليكَ جَنْيَاً ... فعُدْ واَقطِفْ ثِماراً لا تَبيدُ
وإيَّاك التخلِّيَ عن جَنَاهَا ... فعَقْلُك من غِذاها يَستفِيدُ

حتى أناخ بِمَغْنَاكَ الكريمِ وقد كَلَّتْ ركائبُهُ في الغَيْطِ والسَّنَدِ(١)
لذاك أَثْرَى وما أوعَتْ أنامِلُهُ لكن وَعَى قَلْبُهُ ما شاءَ من مَدَدِ
وما أناخ بِمَغْنَى غيركم أحَدٌ إلَّا ونُودِيَ: ما بالرَّبْعِ من أحَدِ
وقد قَصدتُكَ من أقصَى المغاربِ لا أَبْغِي سِوَاكَ لِوَحْيِ الوَاحِدِ الصَّمَدِ
وما امتَطيتُ سِوَى رِجْلَيَّ راحِلَةً وقد غَنِيتُ عن العَيْرَانَةِ الأُجُدِ(٢)
وهذه رِحْلَةٌ بِكْرٌ(٣) كَشَفتُ لها عن سَاقِ ذِي عَزَماتٍ غير مُتَّئِدِ
عِنايةٌ لم تكن قبلي لِذِي طَلَبٍ وحُظوةٌ لم تكن في غابرِ الأبَدِ
هل كان قبلَك حَبْرٌ أمَّهُ رجلٌ وسَارَ مُدَّةَ حَوْلٍ سَيْرَ مجتهِدِ
أبا العَلاءِ ــ لَـدَيْكَ ــ الكُـلُّ إنـك في أقصَى العراقِ مُقِيمٌ منه في بَلَدِ
وقد فَشَا لك ذِكرٌ في البلادِ كما فاحَتْ أزاهِرُ رَوْضٍ للغَمَامِ نَدِي

٣٢٩ ــ وقال الإمام ابن الجوزي في رسالته اللطيفة «لَفْتَة الكَبِد في نصيحة الوَلَد»، متحدثاً لوَلَدِهِ عن نشأتِهِ ومبتدأ حالِه:

«واعلم يا بُنيَّ، أنَّ أبي كان مُوسِراً وخلَّفَ ألوفاً من المال، فلما بلغتُ دفعوا لي عشرين ديناراً ودَارَيْنِ، وقالوا لي: هذه التَّرِكَةُ كلُّها، فأخذتُ الدنانيرَ واشتريتُ بها كتباً من كتب العلم، وبِعتُ الدارينِ وأنفقتُ ثمنَها في طلب العلم، ولم يَبْقَ لي شيء من المال. وما ذَلَّ أبوك في طَلَبِ العلم قط، ولا خَرَج يَطُوفُ في البلدان من الوُعَّاظ، ولا بَعَثَ رُقْعَةً إلى أحَدٍ يَطْلُبُ منه شيئاً قَطُّ، وأمورُهُ تجري على السَّداد، ﴿ومَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ له مَخْرَجاً ويَرْزُقْهُ من حيثُ لا يَحتسِبُ﴾(٤).

فاجتهد يا بُنيَّ في صِيانةِ عِرضِك من التعرُّضِ لطلبِ الدنيا والذُّلِّ لأهلِها، واقنَعْ

(١) السَّنَدُ: ما قابَلَك من الجَبَل وعَلاَ من السَّفْح. والغَيْطُ: المنخَفَضُ الواسعُ من الأرض. والمعنى: قطعتُ إليك الوِهادَ والتِّلال. ووقع في «معجم الأدباء» ١٦:٨ محرفاً: (في العُنْفِ والسَّنَدِ)! وغَلِطَ محقِّقُهُ غلطاً عَجَباً في إقراره (العُنْف)، وتفسيرِهِ (السَّنَد) بما لا يَخطُر على بال!!

(٢) العَيْرَانَةُ الأُجُد: الناقةُ القوية.

(٣) أي لم يتقدمها مثلُها.

(٤) من سورة الطلاق، الآية ٣.

تُعَزّ، فقد قيل: من قَنِعَ بالخُبزِ والبَقْلِ لم يَستعبِدْهُ أحَد، ولقد كنتُ أُصبحُ وليس لي مأكل، وأُمسي وليس لي مأكل، ما أذلَّني الله تعالى لمخلوق قط، ولكنه ساق رِزقي لصيانة عِرضي، ولو شَرَحْتُ أحوالي لطال الشرح. وها أنا قد تَرَى ما آلت حالي إليه»(١).

٣٣٠ ـ قال عبد الفتاح: ولما تشرَّفتُ بزيارةِ المدينة المنوَّرة على ساكنها الصلاة والسلام، للمرةِ الثانية من الحج أواخر عام ١٣٨٤، كنتُ قد فَرغتُ في أوائل هذا العام من طِباعةِ كتاب «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العَشَرَة الكاملة» للإمام عبد الحي اللَّكْنَوي الهندي، بعدَ أن حقَّقتُه وعلَّقتُ عليه، فاصطحبتُ معي منه بعضَ النسخ، لأهدِيها إلى بعضِ شيوخي الأجلاء في المدينة المنورة.

وكان في طليعتهم شيخُنا العلامة المحدِّث الفقيه اللوذعي الأريب، الشيخُ محمد بَدْر عالَم الميرتهي الهندي، المجاوِرُ بدار الهجرة، فقَصدتُهُ بالزيارة إلى منزله، وكان قد نَزَل به المرضُ المُقْعِد، فألزمه الاستلقاءَ في الفراش سَطِيحاً، وحَجَبه عن المطالعةِ واستقاءِ العلم كما يُحبُّ، فقدَّمتُ له نسخَةً من كتاب «الأجوبة الفاضلة».

فرحَّب به وتقبَّلَه وأثنَى عليه الثناءَ الحسن، وقال لي: لقد اشتَريتُ هذا الكتابَ من حينِ ما وَصَل إلى المدينةِ المنورة، وأنا كما تراني ما بي قُدرةٌ على القراءة والمطالعة كما أُريد، ولَكني أَردتُ من شرائِهِ أن أُوَرِّثَ أولادي وأُسرتي كُتُبَ العلم، فهي خيرٌ لهم مِيراثاً من المال. فكانت هذه الكلمةُ عندي دَرْساً غالياً، استَفدتُ منها، ومن أجلِها ذكرتُ هنا هذا الخبرَ عن الشيخ رحمه الله تعالى وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٥.

٣٣١ ـ هذه النماذجُ الكثيرةُ المتعدِّدةُ في بذلِ المالِ الكثيرِ بشأنِ العلم وكُتُبِهِ، تُعَدُّ قليلةً في نظر المتتبِّع لأخبارِ المتقدمين وسِيَرِ العلماء الراحلين، ففي كتب التاريخ والتراجم العجائبُ الغرائب التي لا تُحصَى من هَذا الجانب.

وإنما قَصَدتُ بما سُقْتُه هنا شَحْذَ العزائم، وحَفْزَ الهِمَم، إلى بَسْطِ اليَدِ وبَذْلِ المالِ ممن آتاه الله الغِنَى واليسار، في تحصيل العلم وكُتُبِهِ وآلاتِه، فإنه الذكرُ الدائم،

---

(١) فقد كان بعد نبوغه وظهور علمه وفضله في سَعَةٍ من العيش، في المأكل والمشرب والمَلْبَس والمُتَع المباحة، كما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته في «تذكرة الحفاظ» ٤: ١٣٤٧.

والفخرُ الرفيع المحفوظ، وجَزَى الله عنا آباءَنا ــ الواقِفين للكتبِ والمكتباتِ ــ الخيرَ، وأَحسَن إليهم بما بَذَلُوا، وأكرَمَهم بجواره الكريم في جناتِ النعيم، بما قدَّموا وما عَمِلوا.

وأختِمُ هذه الجوانبَ الثمانيةَ بذكرِ خبَرَين جامعين، اجتمعَتْ فيهما جُلُّ الجوانبِ المتقدمة، فلذا رأيتُ إيرادَهما في آخِرِ هذه الصفحات، لدخولهما في أغلبِ الجوانبِ السابقة. ثم أُتبعُهُمَا بثلاثة أخبار جامعة، جاء فيها كثرةُ التَّطواف في الأرض لتحصيل العلم، ووَفْرَةُ التآليفِ الكثيرةِ الكبيرة، وشِدَّةُ الحِفاظِ على الأوقاتِ واللحظات.

الخبر الأول:
خبر الإمام إبراهيم الحربي البغدادي
رحمه الله تعالى

٣٣٢ ــ قال الخطيبُ البغدادي في «تاريخ بغداد»(١)، وابنُ أبي يَعْلَى في «طبقات الحنابلة»(٢)، وجمالُ الدين القِفْطِي في «إنباهِ الرواة»(٣)، وشمسُ الدين النابلسي في «مختصر طبقات الحنابلة»(٤)، في ترجمة (إبراهيم بن إسحاق الحربي) المولود سنة ١٩٨، والمتوفى سنة ٢٨٥ ببغداد عن ٨٧ سنة رحمه الله تعالى، وهو الإمامُ العَلَمُ في العلمِ والزهدِ والفقهِ والحديثِ والأدبِ واللغة، قال الخطيب:

«كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مُمَيِّزَاً لعِلَلِهِ، قيِّماً بالأدب، جَمَّاعاً للغة، صنَّفَ «غريبَ الحديث» وكتباً كثيرة». ثم قال الخطيب:

«قال إبراهيمُ الحربي: أفنَيْتُ من عُمري ثلاثين سَنَةً برغيفين، إن جاءتني بهما أُمِّي أو أُختي أكلتُ، وإلا بَقِيتُ جائعاً عطشانَ إلى الليلة الثانية.

---

(١) ٦: ٣١.

(٢) ١: ٨٦ ــ ٨٨.

(٣) ١: ١٩٠.

(٤) ص ٥١ و ٢٩٤.

وأفنَيْتُ ثلاثين سنةً من عُمُري برغيفٍ في اليومِ والليلة، إن جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلتُهُ، وإلا بَقِيتُ جائعاً عطشانَ إلى الليلةِ الأخرى.

والآنَ آكُلُ نِصفَ رغيفٍ وأربعَ عَشْرَةَ تَمْرَة إن كان بُرْنياً، أو نَيِّفاً وعشرين إن كان دَقَلاً، ومَرِضَتْ ابنَتي فمَضَتْ امرأتي فأقامَتْ عندَها شهراً فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهمٍ ودانِقَينِ ونِصف! ودَخلتُ الحَمّامَ واشتريتُ لهم صابوناً بدانِقَين، فقامَتْ نفقةُ شهرِ رمضان كلِّه بدرهمٍ وأربعةِ دَوَانِقَ ونِصف.

قال أبو القاسم بن بُكَير: سَمِعتُ إبراهيمَ الحربيَّ يقول: ما كنا نَعرِفُ من هذه الأطبخةِ شيئاً، كنت أجيءُ من عَشِيٍّ إلى عَشِيّ وقد هيَّأَتْ لي أُمِّي باذِنْجانةً مشويةً، أو لَعْقَةَ بُنٍّ[١]، أو بَاقَةَ فِجْل.

قال أبو علي الخياط المعروفُ بالمَيِّت: كنتُ يوماً جالساً مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا قال لي: يا أبا علي، قُمْ إلى شُغلك، فإنَّ عندي فِجلةً قد أكلتُ البارحةَ خَضِرَها، أقومُ أتغدَّى بجزَرَتِها».

٣٣٣ ــ ثم رَوَى الخطيبُ البغداديُّ بسندِهِ إلى أحمد بن سَلْمان النَّجَّاد، أحَدِ المحدِّثين من السادة الحنابلة المتقدِّمين، وأحَدِ الفقهاءِ الفقراءِ الشاكرين رحمه الله تعالى «قال أحمَدُ بن سَلْمان النجّاد القَطِيعي: أَضَقْتُ إضاقةً شديدة، فمَضَيْتُ إلى إبراهيم الحربي لأبُثّه ما أنا فيه، فقال لي: لا يَضِق صَدْرُك، فإنَّ اللَّهَ من وراءِ المَعُونة، وإني أَضَقْتُ مرةً حتى انتَهى أمري في الإضاقةِ إلى أن عَدِم عيالي قُوتَهم!

فقالت لي الزوجة: هَبْ أنِّي أنا وإياك نَصْبِرُ، فكيف نصنَعُ بهاتين الصَّبِيَّتَين؟ فإنهما لا تَصْبِرانِ على ما نَصبِرُ عليه، فهاتِ شيئاً من كُتبِك حتى نَبِيعَه أو نَرْهَنَهُ! ونَتَفرَّجَ به، فضَنِنتُ بذلك، وشَحَّتْ نفسي بالكُتُب، وقلتُ لها: اقترِضِي لهما شيئاً وأَنظِرِيني بقيّةَ اليومِ والليلة.

---

(١) البُنُّ بضم الباء: إدامٌ يُصنَعُ من عَكَرِ المُرِّي، أي من رَدِيء الإدام وأَسْوَئِهِ، يتأدَّمُ به الغرباءُ لفقرهم. وقد تقدَّم ضبطُهُ تعليقاً في الخبر ١٣٥ في ص١٥١.

وكان لي بيتٌ في دِهليزِ داري فيه كتبي، فكنتُ أجلِسُ فيه للنَّسْخِ والنَّظَر، فلما كان في تلك الليلةِ إذا داقٌّ يَدُقُّ البابَ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ من الجيران، فقلتُ: آدْخُل، فقال أَطفِئ السِّراجَ حتى أدخُل، فكَبَبْتُ على السِّراج شيئاً وقلتُ: آدْخُل، فدخَلَ الدِّهْلِيزَ فوَضَعَ فيه صُرَّةً كبيرة، وقال لي: إنَّا أصلحنا لصِبياننا طعاماً، فأحببنا أن يكون لك وللصِّبْيَانِ فيه نصيب، وهذا شيءٌ آخر، فوضَعَه إلى جانب الصُرَّة الكبيرة وقال: تَصرِفُه في حاجتك، وأنا لا أعرِفُ الرجل وتركني وانصرف.

فدعوتُ الزوجة وقلتُ لها: أَسْرِجي السِّرَاج، فأسرجَتْ وجاءت، وإذا الصُّرَّةُ مِنديلٌ له قيمة، وفيه خمسون وَسَطاً في كل وَسَطٍ لونٌ من طعام، وإلى جانب الصُّرَّةِ كِيسٌ فيه ألفُ دينار، فقلتُ للزوجة: أنبِهي الصِّبيانَ حتى يأكلوا، ولما كان الغَدُ قَضَيْنا دَيْناً كان علينا من ذلك المال.

وكان وقتُ مجيءِ الحاجِّ من خُراسان، فجلستُ على بابِ داري من غَدِ تلك الليلة، وإذا جَمَّالٌ يَقُودُ جَمَلينِ عليهما حِملان وَرَقاً خُراسَانِيًّا[1]، وهو يَسأَلُ عن منزلِ إبراهيمَ الحربي، فانتَهَى إليَّ، فقلت: أنا إبراهيمُ الحربي، فحَطَّ الحِملينِ وقال: هذانِ الحِملان أَنفذَهُمَا لك رجلٌ من أهلِ خراسان، فقلتُ: مَنُ هو؟ فقال: قد استحلَفَني أن لا أقولَ من هو، فأخذتُهما منه، ودعوتُ الله لمرسلهما وللحامل.

---

(١) استفدتُ صِحَّةَ هذه الكلمة: (وَرَقاً خُراسَانِيًّا)، من كتاب «إنباهِ الرُّواة على أنباهِ النحاة» ١: ١٥٦، للإمام العلامة الوزير جمال الدين القِفطي ثم الحلبي، العالم بالكتب وأنبائها، والمُغرَمِ بشرائها واقتنائها، الذي اختار أن يَعيشَ طُولَ حياته عَزَباً لا زوجة له، وتكونَ له مكتبةٌ نفيسة جامعة تُؤنِسُه وتُؤويه، وتَملأ نفسَه وتُرضيه، كما تقدم ذكرُ ذلك في الخبر ٢٧١، فكانت له المكتبةُ العامرة، وكان من أعلم الناس في عصره بالكتب وأخبارها رحمه الله تعالى.

وكنتُ قبلَ وقوفي على كتابه المذكور، متحيِّراً مُشْتَبِهاً في صوابِ هذه الكلمة وفَهْمِ معناها وصِحَّةِ مبناها، وخاصةً أن الواقف على تصحيح «طبقات الحنابلة» الشيخ حامد الفقي تفضَّل! فشَكَلها هكذا: (وُرقاً)! بوضع ضمة على الواو! ولم يكن معها لفظُ (خُراسانياً)، فصوَّبتُها أوَّلَ الأمر في الطبعة الأولى والثانية: (رِزْقاً)، والرِّزقُ ما يُنتفَعُ به كما في «لسان العرب» لابن منظور، ثم لما وقفتُ عليها في «إنباه الرواة» بلفظِ (وَرَقاً خراسانياً)، زالَتْ عني الحَيْرةُ والاشتباهُ في معناها، وتبيَّنَ لي الصوابُ فيها، فالحمدُ لله على السَّداد. =

= وإهداءُ جَمْلَين ــ على جَمَلين ــ من (الوَرَق الخُرَاساني) للعالِم الفقير المُعْدِم، عَوْنٌ كبيرٌ جداً، له موقعُه الرفيعُ في ذاك الزمان، لأن الوَرَق عند العالِم لتدوين عِلمه، عديلُ الخُبْزِ عنده لدفع جُوعِه، كما ستراه في خبر (محمد بن طاهر المقدسي) الخبر ٣٣٧، لمَّا جاع وبَقِيَ ثلاثةَ أيام مُتردِّداً في صَرْفِ الدرهم الذي بَقِيَ معه، أيَصرِفُه في الخُبز أم في الوَرَق؟! ثم حَمَله في فمه في شِراء الوَرَقِ أم الخُبْز؟! فابتَلَعه وحُرِمَ منه ومن الخبزِ والوَرَقِ جميعاً!! إلى آخر ما يأتي.

وجاء في «تذكرة الحفاظ» ٣: ١١١٤، في ترجمة (الصُّوْرِيّ): «هو الحافظُ العلامة الأوحد، أبو عبد الله محمد بن علي السَّاحِلي الصُّورِيُّ، مولدُهُ سنة ٣٧٧، وتوفي سنة ٤٤١، حدَّث عنه أبو بكر الخطيبُ وآخرون. قال الخطيب: وكان صدوقاً يَسرُدُ الصومَ إلا الأعيادَ، وكان من أحرص الناس على الحديث، وأكثرِهم كَتْباً له، وكان دقيقَ الخط، صحيحَ النَّقْل، حدَّثني أنه كان يكتب في الوِجْهَةِ من ثُمْنِ الكاغَدِ ــ أي الوَرَق ــ الخُراسَاني ثمانين سَطْراً». انتهى.

فأفاد هذا الخبرُ وخَبرُ إبراهيم الحربي أيضاً: أن (الوَرَق الخراساني)، كان له شأنٌ معروفٌ عندهم في ذاك الزمان، حتى القرن الخامس. وقد تحدَّث ابنُ النديم في «الفِهْرِسْتِ» ص ٣١ عن الورق الخُراسَاني وصُنعِهِ وأنواعه.

ونِسبتُهم الوَرَقَ إلى (خُراسَان) على التوسُّع، من باب إضافةِ الشيء إلى جهتِه لا إلى بَلَدِهِ، فإنَّ منشأ الوَرَق الخُراسَاني هو مدينة سَمَرْقَنْد لا غير، كان يُصنَعُ فيها، وهي من مُدُن خراسان كما في «معجم البلدان» و«مراصد الاطِّلاع»، فأُضيفَ إلى الجهةِ: خُراسَان، فقيل: وَرَقٌ خُراساني، على حدِّ قولهم في كل من يأتي من بلدٍ من بلاد الشام، وفي كل ما يُصنع في بلدٍ من بلادها: شامي.

جاء في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للثعالبي ص ٥٣٠ و٥٤٣، في (الباب الخامس والأربعين فيما يُضافُ ويُنسَبُ إلى البُلدانِ والأماكن) قولُه رحمه الله تعالى: «كَوَاغِدُ ــ أي وَرَقُ ــ سَمَرْقَنْدَ، هي من خصائِصها التي عَطَّلَتْ قراطيسَ مِصرَ والجلُودَ التي كان الأوائلُ يكتبون فيها، إلا أنها أنعَمُ وأحسَنُ وأرْفَقُ، ولا تكونُ إلا بسَمَرْقَنْدَ والصِّين. وذكَرَ صاحبُ «المسالك والممالك» أنه وَقَع من الصِّيْن إلى سمرقند، في سَبْيٍ سَبَاهم زيادُ بنُ صالح ــ المتوفى سنة ١٣٥ ــ في وقعةِ أَطْلَح: مَنْ اتَّخذ الكواغِيدَ، ثم كَثُرتْ الصَّنْعَةُ، واستمرَّتْ العادةُ حتى صارَتْ مَتْجَراً لأهلِ سمرقند، فعَمَّ خَبَرُها والارتفاقُ بها جميعَ البلدانِ في الآفاق.

وقراطيسُ مصر، قال بعضُ الشعراء ــ فيها ــ :

حَمَلتُ إليك عَرُوسَ الثَّناءِ   على هَوْدَجٍ مالَهُ من بَعِيرْ
على هَوْدَجٍ من قَراطِيسِ مِصرٍ   يَلِينُ على الطيِّ لِينَ الحرير». انتهى.

= وللمعرفةِ بشأنِ صِناعَةِ الوَرَق في الصِّين وسَمَرْقَنْد ثم بقيةِ البلدان: انظر «صُبْحَ الأعشى» للقَلْقَشَنْدِي ٢: ٤٨٦ وما بعدها.

وإهداءُ الوَرَق إلى العلماء سُنَّةٌ معروفةٌ في الناس قديماً، وذلك لأنه من حاجتهم الأصلية، وهو مَعدِنُ علمِهم، وحافظُ حِفظِهم، جاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ٣٠٢، في الباب ٤١: «قال صالح ــ ابنُهُ ــ: ووَجَّهَ رجلٌ من الصِّين بكاغَدٍ صِينِيّ إلى جماعةٍ من المحدِّثين، فيهم يحيى ــ بنُ معين ــ وغيرُه، ووجَّه بقِمَطْرٍ إلى أبي، فردَّه». انتهى.

وكان الغالبَ على الطلبة في ذلك الزمان الفقرُ والإملاقُ! فكان من أفضلِ ما يُمنَحُهُ طالبُ العلم: الوَرقُ أو الأقلامُ أو الحِبرُ، لغلاءِ هذه الأدواتِ وارتفاعِ أثمانِها عن طاقةِ الطَّلَبَة.

جاء في «إنباهِ الرُّوَاة» للقِفطي ٢: ٣١٦ و٣١٧، في ترجمة الأحْمَر النَّحْوي صاحبِ الكسائي (عليّ بن المبارك)، المتوفى سنة ١٩٤، أنه كان فقيراً مُمْلِقاً يَسكُن في غرفةٍ ضيِّقةٍ في بعض الخانات.

فلما استخلَفَه الكسائيُّ على أولادِ الرشيد ليُعلِّمَهم العربيةَ وآدابَها، «أُدخِلَ إلى دار، وفُرِشَ له البيتُ الذي فيه بفَرْشٍ وخَيْش، وصارت له الهَيْئَةُ الجميلة، والتجمُّلُ التامُّ، والجماعةُ المُتَوَقِّرَةُ، والطَّعامُ السَّرِيّ، وإذا حَضَرَ الطَّلَبَةُ إلى منزلِهِ رأَوْا منزلاً كمنازلِ الملوك، يَنفَحُ منه الطِّيْبُ، ويُوسِّعُ لهم في المآكلِ والوَرَقِ والأقلامِ والمِداد، ويُريهم بِشْراً وسُرُوراً، فلا يَنفصِلُ أحدٌ عنه إلا شاكراً».

وإليك هذا الخبرَ الطريف، لينكشِفَ لك منه نُدورَةُ الوَرَق في أيدي طلاب العلم في ذاك الزمان، لغلائِهِ وارتفاعِ ثمنه:

جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ٦: ١٩٣، في ترجمة (أبي إسحاق إبراهيم بن نَصْرٍ أبي الليث)، الترمذي الأصل ثم البغدادي، صاحبِ عُبَيدِ الله بن عُبَيد الرحمن الأشجعي الكوفي، المتوفى سنة ٢٣٤: «قال أبو العباس عبدُ الله بن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي: كنا نختلِفُ إلى إبراهيمَ بنِ نصرٍ: ابنِ أبي الليث سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ ومِئتين، أنا وأَبي: أَحْمَدُ ويحيى بنُ معين ومحمدُ بن نُوح وأحمدُ بن حنبل، في غيرِ مجلس، نَسمعُ منه تفسيرَ الأشجعي، فكان يقرأُهُ علينا من صحيفةٍ كبيرة.

فأَوَّلُ من فَطِنَ له ــ أي أنه كَذَّاب ــ أَبي، فقال: يا أبا إسحاق، هذه الصحيفةُ كأنها أَصْلُ الأشجعي؟ قال: نعم، كانت له نسختان فوَهَب لي نسخةً، فسَكَتَ أبي.

فلما خرجنا من عندِهِ قال لي أبي: أي بُنَيَّ، ذَهَبَ عَنَاؤُنا إلى هذا الشيخ باطلاً، الأشجعيُّ كان رجلاً فقيراً وكان يُوصَلُ، وقد رأيناه وسَمِعنا منه، من أين كان يُمكِنُهُ أن يكونَ له نُسْخَتانِ؟! فلا تَقُل شيئاً واسكُت، فلم يزل أمرُهُ مستوراً حتى حدَّثَ بحديثِ أبي الزُّبير عن جابر في الرُّؤْية =

قال أحمدُ بنُ سَلْمان النَّجّاد[1]: فقمتُ من عند إبراهيم الحربي، ومَضَيْتُ إلى قبرِ أحمد فزُرْتُه ثم انصرفتُ، فبينا أنا أمشِي إلى جانب الخندق، إذ لَقِيَتْني عَجُوزٌ من جيرانِنا فقالت لي: يا أحمَدُ، مالك مغموماً؟ فأخبرتُها، فقالت: إنَّ أُمّكَ قَبْلَ موتِها أعطَتْني ثلاثَ مِئةِ درهم، وقالَتْ لي: أخبِئي هذه عندكِ، فإذا رأيتِ ابني مُضِيقاً مغموماً فأعطِيه إياها، فتعالَ معي حتى أُعطِيَك إياها، فمضيتُ معها فدفعَتْهَا إليّ.

٣٣٤ ــ وكان أحمَدُ بن سَلْمان النَّجّاد هذا ــ كما حَكَى الخطيب في ترجمته في «تاريخ بغداد»[2] ــ يَصُومُ الدهرَ، ويُفطِرُ كلَّ ليلةٍ على رغيف، ويَترُكُ منه لُقمةً، فإذا كان ليلَةُ الجمعةِ تصدَّق بذلك الرغيف، وأكَلَ تلك اللُّقَم التي استَفْضَلَها.

٣٣٥ ــ ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي القاسم بن الجَبَلي قال: «اعتَلَّ إبراهيمُ الحربي عِلّةً حتى أشرَفَ على الموت، فدخلتُ إليه يوماً فقال لي: يا أبا القاسم، أنا في أمرٍ عظيم مع ابنَتِيْ، ثم قال لها: قُومِي اخرُجي إلى عَمِّك، فخَرَجَت

= ــ وغيرِهِ من الأحاديثِ المكذوبة، فانكشف أمرُ كَذِبه ــ، فكذَّبَهُ يحيى بنُ معين فقال: كذَّابٌ خبيثٌ يَسرِقُ حديثَ الناس، لا حَفِظَه الله!

قال أحمدُ بن الدَّوْرَقي: والذي أظُنُّ في أمْرِ كُتُب الأشجعي، أنَّ إبراهيمَ بن أبي الليث خَرَج إلى مكة مع وَلَدِ أحمدَ بنِ نصر، فمرَّ بالكوفة، ومَضَى إلى عِيَالِ الأشجعيِّ بعد موته، فاشتَرى كتبَ الأشجعي وقَعَد يُحدِّث بها!». انتهى.

وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ٤: ٣٢، و«سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ١٨: ٢٧٨، في ترجمة الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، ما يلي: «ابنُ ناصر: حدثنا أبو زكريا التبريزي اللغوي، قال: دخلتُ دمشق في سنة ٤٥٦، فكنت أقرأُ على الخطيب بحَلْقَتِه بالجامع: كُتُبَ الأدبِ المسموعة، وكنتُ أسكُنُ مَنارَةَ الجامع، فصَعِدَ إليَّ، وقال: أحببتُ أن أَزُورَك في بيتك، فتحدَّثنا ساعةً، ثم أَخرَج وَرَقةً وقال: الهديَّةُ مستحبة، تشتري بهذا أقلاماً، ونهَض، فإذا خمسَةُ دنانير صِحاح مِصرية، ثم صَعِدَ مرةً أخرى ووَضَعَ نحواً من ذلك أو أكثر ذهباً، وقال لي: تشتري به كاغداً».

(١) وهو الفقيه المحدث العابد أحد العلماء السادة الحنابلة في زمانه، ولد سنة ٢٥٣، وتوفي سنة ٣٤٨ رحمه الله تعالى.

(٢) ٤: ١٩١.

وألقَتْ على وجهِها خِمارَها، فقال لهاَ إبراهيم: هذا عَمُّك كلِّميه، فقالت لي:

يا عَمُّ، نحن في أمرٍ عظيم! لا في الدنيا ولا في الآخِرة! الشهرَ والدَّهْرَ ما لنا طعام إلا كِسَرٌ يابسة ومِلْح، وربما عَدِمْنا المِلحَ! وبالأمسِ قد وَجَّهَ إليه المعتَضِدُ مع بَدْرٍ ألْفَ دينار فلم يأخذها! ووَجّهَ إليه فلانٌ وفلان فلم يأخذ منها شيئاً! وهو عليل!

فالتفَتَ إبراهيمُ إليها وتبسَّمَ فقال لها: يا بُنَيّة، إنما خِفْتِ الفقرَ؟! قالت: نعم، فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية، فَنَظَرَتْ فإذا كُتُبٌ، فقال: هناك اثنا عَشَرَ ألفَ جُزءِ لغةٍ وغريب، كتبتُها بخَطِّي، إذا مِتُّ فوجِّهِي كلَّ يومٍ بجزء تَبِيعينَهُ بدِرْهَم، فمن كان عنده اثنا عَشَرَ ألفَ دِرْهَم فليس هو بفقير!».

ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده وابنُ الجوزي في «مناقب الإمام أحمد»(١) بسنده أيضاً إلى أبي عِمْران الأشْيَب قال: «قال رجلٌ لإبراهيم الحربي: كيف قَوِيتَ على جَمْعِ هذه الكتب؟ فَغَضِبَ إبراهيمُ الحربي وقال: قَوِيتُ عليها بلَحْمِي ودَمِيَ! بلَحْمِي ودَمي!».

٣٣٦ ــ قال عبد الفتاح: إذا عرفنا تَعلُّقَ الحربيِّ بكُتُبِهِ وكيف جَمَعَها بلحمِهِ ودمِهِ فكيف يُعقَلُ أن يَستجيبَ لزوجته حين قالت له كما سَبَق: «هاتِ شيئاً من كتبك حتى نبيعَهُ أو نرْهَنَهُ». فكُتُبُ العالم (خلاياه) التي يعيش بها، والعالمُ يَبيعُ ثيابَه، ولا يَبِيعُ كتابَه، وقد قال الزمخشري في كتابه«نوابغ الكلم»: مَجْدُ التاجرِ في كِيْسِه، ومَجْدُ العالِمِ في كَرَارِيْسِه.

والكتبُ عند النساءِ هي الضرائرُ المُضارَّة، فأوَّلَ ما تَمَسُّهنَّ الضائقةُ يَتَّجِهُ تفكيرُهن إلى بَيْعِها وإخراجِها من البيت، والكتُبُ عند العلماء هي الإخوانُ والأعوان، فإذا مسّتْهم الضائقة صبروا على الجُوعِ والعُريِ والفقر، ولم يصبروا على فراقِ الكتب وإخراجها! (فمَحْبُوبي من الدنيا كتابي).

---

(١) ص ٥٠٨.

الخبر الثاني:
خبرُ الحافظ محمد بن طاهر المقدسي
رحمه الله تعالى

٣٣٧ ـ جاء في ترجمةِ (الحافظ المحدِّث الجوَّال محمد بن طاهر المقدسي)، المولود في بيت المقدس سنة ٤٤٨، والمتوفى في بغداد عند عودتِهِ من الحجّ سنة ٥٠٧، الملحقةِ بآخِرِ كتابه «الجمع بين رجال الصحيحين»[١]، وفي «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي[٢]، و «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر[٣]، ما يأتي:

«قال السمعاني: سمعتُ بعضَ المشايخ يقول: كان محمدُ بن طاهر يمشي في ليلةٍ واحدةٍ قريباً من سَبْعَةَ عَشَرَ فَرْسَخاً[٤]، وكان يمشي على الدَّوام بالليلِ والنهار عشرين فرسخاً[٥]، وكان دَاوُدِيَّ المذهب ـ أي ظاهِرِيَّ المذهب ـ، وهو أَحَدُ الرحَّالين في طلب الحديث. وكان قَوِيَّ السَّيرِ في السَّفَر، كثيرَ الحج والعُمرة.

---

(١) ٢: ٦٣٣.

(٢) ٤: ١٢٤٢. (٣) ٥: ٢٠٨.

(٤) الفرسخُ بمَشْيِ القَدَم نحو ساعةٍ ونصف الساعة، ويَبلُغ نحوَ خمسة كيلو مترات، وقد تقدم تحديده تعليقاً على الخبر ٢٥ والخبر ٢٣٧.

(٥) وذلك أنه كان سريعَ المشي وكثيرَهُ، مع كثرةِ التَّطْوَافِ في الأرض. وتلك طريقةٌ مستحبةٌ لازمةٌ في ابتداءِ الطلبِ والتحصيل، وقد قال محمد بن طاهر نفسُه رحمه الله تعالى: سمعتُ أبا إسماعيلَ الأنصاري (الحافظ شيخَ الإسلام عبدَ الله بن محمد الهَرَوي الحنبليَّ، المتوفى سنة ٤٨١) يقول: «المحدِّثُ يجبُ أن يكونَ سَرِيعَ المشي، سَرِيعَ الكتابة، سَرِيعَ القراءة». انتهى من ترجمة (الهَرَوي) في «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ١: ٥٩.

قال عبد الفتاح: وأنا أُضِيفُ إلى تلك الصفاتِ الثلاثِ في المحدِّثِ وفي طالبِ العلم أيضاً: صِفةً رابعةً، وهي أن يكون سَرِيعَ الأكل، لكسبِ الوقتِ والاستفادةِ من الزمن الغالي وإن قلّ. وقد كان الإمام أبو الوفاء بنُ عَقِيل الحنبليُّ رحمه الله تعالى، يَختارُ أكْلَ الكعك على أكْلِ الخُبز، وذلك أنه كان يَبُلُّ الكعكَ فيأْكُلُهُ في وقتٍ أقصرَ من مُدَّةِ مَضْغِ الخبز، فيَتَوفَّرُ بذلك على كسبِ الوقت للمطالعةِ وتحصيلِ العلم وإفادتِه كما تقدم في الخبر ٣٢٦. وانظر ـ إذا شئت ـ خبَرَه العُجَاب في ذلك، في رسالتي المسماة: «قيمة الزمن عند العلماء» ص ٥٣ ـ ٥٦، وفيما علَّقته على =

سَمِعَ الحديثَ بمصر والثغورِ الشامية وبلادِ الشام والحجاز والجزيرة والعراق وفارس وخراسان والإسكندرية وتِنيس وبيتِ المقدس ودمشقَ وحلبَ ومكة وبغداد وأصبهان وجُرجان، وآمِدَ ونيسابور وهَراة ومَرْو، وما أظُنُّ أحداً رحَلَ في عصرِهِ مِثلَ رحلتِه، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والمصنّفات الكبار والمسانيد والأجزاءِ المنثورة.

قال الحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر في كتابَيْهِما «تذكرة الحفاظ» و«لسان الميزان».

«سَمِعَ ببلده من الفقيه نَصْر، وأبي عثمان بنِ وَرْقَاءَ وعِدَّة، وببغدادَ أبي محمد الصَّرِيفِيني، وأبي الحُسَين ابنِ النَّقُّور، وطبقتِهما، وبمكة من سعدِ بن علي الزَّنْجاني، والحسنِ بن عبد الرحمن الشافعي، وهَيَّاجِ الحِطِّيْني، وصَحِبَهُ وتخرَّج به في التصوف والحديث، وبمصر من أبي إسحاق الحَبَّال، وبالإسكندرية من الحسين بن عبد الرحمن الصَّفْراوي، وبتِنِّيسَ من علي بن الحسين بن محمد

= «رسالة المسترشدين» للمحاسبي ص ١٤٤ ــ ١٤٥؛ وتقدم طرفٌ منه في الخبر ٣٢٦ في ص ٣٢٠.

هذا، وتوضيحاً للمَسافَةِ التي كان يمشيها محمدُ بنُ طاهر المقدسي، كان يمشي في الليل والنهار عشرين فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال عندهم، أي كان يمشي نحو مئة كيلو متر، يمشيها على قدميه وكتبُه على ظهره! وهذا شيء غريب عزيز، ما يقع إلا من أهل الشَّوْقِ المُحْرِق والهَمِّ المُقْلِق! فللّهِ هُمْ، ما أغلى العلمَ عندهم؟!

وسُرعَةُ المشيِ والقُوَّةُ عليه مَوْهِبَةٌ يَتميَّزُ بها أفرادٌ قليلون، كان منهم محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله تعالى. وكانوا قديماً يكرمون تكريماً خاصاً سريعي المشي الأقوياءِ فيه، لقيامهم بنقلِ البريدِ السريع في أقصرِ زمن. جاء في «المنتَظَم» لابن الجوزي ٦ : ٣٤٠:

«إنَّ مُعِزَّ الدولة ــ العباسي ــ كان يُشجِّعُ السِّبَاحَةَ والصِّراعَ، واحتاج إلى السُّعَاةِ ــ جَمْعُ ساع وهو الفَيْجُ الذي يَسيرُ على قَدَمَيْهِ ويَنْقُلُ البريدَ وما خَفَّ حَمْلُه ــ ليَجعَلَهم فُيُوجَاً بينه ــ في بغداد ــ وبين أخيهِ رُكنِ الدَّولةِ في الرَّيّ، فأَعطَى على جَوْدَةِ السَّعْي الرغائبَ، واشْتَهَر له رِكابِيَّانِ يَسْعَى كلُّ واحد منهما نَيِّفاً وثلاثين فَرْسَخاً في اليوم، من طُلوعِ الشمس إلى غروبها». انتهى.

وراجع ــ إذا شئت ــ مقالَ (العَدَّاؤون والسُّعَاةُ في العُصورِ الإسلامية) للأستاذ كوركيس عَوَّاد، في مجلة (المقتَطَف) السنة ١٠٣/٤٣ : ٦٦. وسَبَق ذكرُ القوةِ على المشي بالخبر ٣٢٨.

الحدَّاد، حدَّثه عن جَدِّه محمد بن أحمد الحدَّاد، عن أحمد بن عيسى الوشَّاء، عن عيسى بن حَمَّادٍ: زُغْبَة، وهو أكبَرُ شيوخِه.

وبدمشق من أبي القاسم بن أبي العلاء، وبحَلَب من الحسن بن مكي، وبالجزيرة من عبد الوهاب بن محمد التميمي، وبالرَّحَبَةِ من الحسين بن سَعْدُون، وبصُوْر من علي بن عبيد الله الهاشمي، وبأَصْبَهَان من عبد الوهاب بن مَنْدَهْ وطائفةٍ، وبنَيْسَابورَ من الفضل بن المحب، وأبي بكر بن خَلَف، ونحوهما، وبهَرَاة من محمد بن أبي مسعود الفارسي وغيرِه، وبجُرْجَان من إسماعيل بن مَسْعَدة، وبآمِدَ من قاسم بن أحمد الأصبهاني الخياط، حدَّثه عن ابن جشنس، عن ابن صاعد.

ولقي بأَسْتَراباذ عليَّ بنَ عبد الملك الحفصي صاحبَ هلالٍ الحفار، وببُوْشَنْج عبدَ الرحمن بن محمد بن عفيف، وبالبصرة عبدَ الملك بن شَغَبَة، وبالدِّيْنَور أحمدَ بنَ عيسى بن عباد صاحب أبي بكر بن لَالٍ، وبالرَّيِّ إسماعيلَ بن علي الخطيب صاحبَ أبي زكريا المُزكِّي، وبسَرَخْسَ محمدَ بنَ عبد الملك بن المظفر، وبشِيْراز علي بن محمد الشرُوطي.

ولَقِيَ بقَزْوِينَ محمدَ بنَ إبراهيم العِجْلي، وبالكُوْفَة أبا القاسم حسينَ بن محمد، وبالمَوْصِل هِبَةَ الله بنَ أحمد المُقْرِي، وبمَرْوَ محمدَ بنَ الحسن، وبِكَرْمَان محمدَ بن سعيد الحاكم، وبمَرْوِ الرُّوْذِ الحسَنَ بن محمدٍ الفقيه، وبنَهَاوَنْد عُمَرَ بنَ عُبَيْد الله القاضي، وبهمَذَانِ عبدَ الواحد بنَ علي الصُّوفي، وبالحَدِيثَة طِرَاداً الدُّبيثي، وبواسِطَ صَدقَةَ بن محمد المُتَوَلِّي، وبسَاوَةَ محمدَ بن أحمد الكاغِي، وبأَسَد آباد عليَّ بنَ الحسن المُحَلِّمِي، وبالأنبار أبا الحسن الخطيب، وبإسْفَرَايِيْنَ عبدَ الملك بن أحمد المعدَّل، وبآمِلِ طَبَرِسْتَان الفضلَ بن أحمد البصري، وبالأهواز عُمَرَ بنَ محمد بن جِيكان، وبِبِسْطَام أبا الفضل السَّهْلَكي، وبيَزْدَجَرْد الحسنَ بن أحمد البيهقي.

فهذه أربعون مدينةً قد سَمِعَ فيها الحديثَ، وسَمِع في بلدانٍ أخرى تركتُ ذكرَها».

قال الحافظ السِّلَفِي: سمعتُ الحافظَ محمدَ بنَ طاهر المقدسيَّ يقول: كتبتُ «صحيح البخاري» و«مسلم» و«أبي داود» سَبْعَ مراتٍ بالوِراقةِ أي بالأجرة، وكتبتُ

«سنن ابن ماجه» عَشْرَ مرات بالوِراقة، سوى التفاريقِ بالريّ.

قال محمد بن طاهر: بُلْتُ الدَّمَ في طلب الحديث مرَّتين: مرةً ببغداد، ومرةً بمكة، وذلك أني كنت أمشِي حافياً في حَرّ الهواجر بها فلَحِقَني ذلك! وما ركبتُ دابّةً قط في طلبِ الحديث إلا مرةً، وكنتُ أحمِلُ كتبي على ظهري، إلى أن استَوطنتُ البلاد، وما سألتُ في حالِ طلبي أحَداً، وكنتُ أعيشُ على ما يأتيني من غيرِ سُؤال.

ورَحَلْتُ من طُوسَ إلى أصبَهان لأجلِ حديثِ أبي زُرعَة الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح[1]، ذاكَرَني به بعضُ المحَدِّثين الرحّالة بالليل، فلما أصبحتُ شَدَدْتُ عليَّ رَحْلي[2] وخَرجتُ إلى أصبهان، ولم أحلُل عنه حتى دخلتُ على الشيخ أبي عَمْرو[3]، فقرأتُه عليه، عن أبيه، عن أبي بكر القطان، عن أبي زُرْعة، ودَفَعَ إليَّ أبو عَمْرو ثلاثَةَ أرغفة وكُمَّثْراتَين، وما كان وَقَعَ إليَّ تلك الليلةَ قُوْتي، ولم يكن لي قُوتٌ

---

(١) هو ما رواه مسلم في «صحيحه» ١٧ : ٥٤، في أوائل كتاب الرِّقَاق في (باب أكثر أهل الجنة الفقراء)، قال: «حدثنا عُبَيدُ الله بنُ عبد الكريم أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثني يعقوبُ بن عبد الرحمن، عن موسى بن عقبة، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عُمَر، قال: كان من دُعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أعوذُ بك من زَوَالِ نِعمتِك، وتحوُّلِ عافيتِك، وفُجَاءَةِ نِقْمتِك، وجميعِ سَخَطِك».

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم»: «هذا الحديث رواه مسلم عن أبي زُرْعَة الرازي، أحَدِ حُفَّاظِ الإسلام وأكثرِهم حفظاً، ولم يَرو مسلمٌ في صحيحه عنه غيرَ هذا الحديث، وهو من أقرانِ مسلم، تُوفي بعدَ مسلم بثلاث سنين، سنة أربع وستين ومئتين».

(٢) يعني: وَضَع خُرْجَ كتبه على ظهره، وقد قال: (وكنتُ أحمِلُ كتبي على ظهري)، ولم يكن يَملِكُ دابَّةً يركبها، ولا طعاماً يَتزوَّدُ به! حتى دَفَعَ له أبو عَمْرٍو ثلاثَةَ أرغفةٍ وكُمَّثْرَاتَيْنِ! كما سيقوله قريباً.

(٣) هو الشيخ المحدِّثُ الثقةُ المسنِدُ الكبير، أبو عَمْرو عبدُ الوهَّاب ابنُ الحافظ أبي عبد الله محمدِ بنِ إسحاق، ابنِ الحافظ محمدِ بنِ يحيى بنِ مَنْدَهْ العَبْدِي الأصبهاني، ولد سنة ٣٨٨، ومات سنة ٤٧٥ رحمه الله تعالى. فضائلُهُ كثيرة، وكان طويلَ الرُّوح على الطلبة، طيِّبَ الخُلُق، محسناً، متواضعاً، كان يقال له: أبو الأرامِل. انتهى من ترجمته في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ١٨ : ٤٤٠.

غيرُه، ثم لَزِمتُه إلى أن حَصَلَ ما كنتُ أريد، ثم خرجتُ إلى بغداد، فلما عُدت إلى أصبهان كان قد تُوفِّي رحمه الله تعالى.

وكنتُ يوماً أقرأُ على أبي إسحاق الحبَّال بمصر «جزءاً»، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيتِ المقدس، وأسَرَّ إليَّ كلاماً قال فيه: إنَّ أخاك قد وصَلَ من الشام، وذلك بعدَ دخولِ الأتراك بيتَ المقدس وقَتْلِ الناسِ بها، فأخذتُ في القراءة فاختَلَطتُ ولم يُمْكني أن أقرأ! فقال لي أبو إسحاق: ما لك؟ قلتُ: خَيْر، قال: لا بُد أن تُخبِرَني ما قال لك هذا الرجل، فأخبرته فقال لي: وكم لك لم تَرَ أخاك؟ قلت: سِنِين، قال: ولم لا تَذهَبُ إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ «الجزء»، فقال: ما أعظَمَ حِرصَكم يا أصحابَ الحديث؟! قد تمَّ المجلسُ وصلّى الله على محمد، وانصرَف.

وأقمتُ بتِنِّيسَ مدةً على أبي محمد بن الحدَّاد ونظرائِهِ، فضَاقَ بي، ولم يَبْقَ معي غيرُ درهم! وكنتُ في ذلك اليومِ أحتاجُ إلى خُبْزٍ وإلى وَرَقٍ للكتابة، فكنتُ أتَردَّدُ إن صرفتُه في الخبز لم يكن لي وَرَقٌ للكتابة! وإن صرفتُه في الورق لم يكن لي خُبز! ومَضَى على هذا ثلاثةُ أيام ولياليهن لم أَطعَمْ فيها!

فلما كان بُكرةُ اليومِ الرابع قلتُ في نفسي: لو كان لي وَرَقٌ لم يمكنِّي أن أكتُبَ فيه شيئاً لما بي من الجوع، فجعلتُ الدرهمَ في فَمِي، وخَرجتُ لأشتري الخُبزَ، فبلعتُ الدرهم! ووقع عليَّ الضَّحِكُ! فلَقِيَني أبو طاهر بنُ خطاب الصائغ المَوَاقيتي بتِنِّيس وأنا أضحَكُ! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خَيْر، فألَحَّ عليَّ وأبيتُ أن أخبره، فحلَفَ بالطلاق: لَتَصْدُقَنِّي لِمَ تَضْحَكُ؟ فأخبرتُه، فأخَذَ بيدي وأدخلني منزله، وتكلَّف لي في ذلك اليوم ما أَطْعَمُهُ.

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمَعَ به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بتِنِّيس يُعرَف بابن قَادُوس، فسألَهُ عني فقال: هو هذا، فقال: إنَّ صاحبي ــ أي أميرَ تِنِّيس ــ أمَرني أن أُوصِلَ إليه كل يَوْمٍ عَشْرَةَ دراهمَ قيمتُها رُبعُ دينار، وسَهَوْتُ عنه، فأخَذَ منه ثلاثَ مِئةِ درهم وجاءني، وقال: قد سَهَّلَ الله رِزْقاً لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلتُ: يكونُ عندَك ونكونُ على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ

خروجي، فإني وحدي، وليس لي من يقومُ بأمري ففَعَل، وكان بعدَ ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام. انتهى.

٣٣٨ ــ وأسوقُ بعدَ هذين الخبرين الجامعين ــ اللذين اجتمعت في كل واحد منهما جُلُّ الجوانب المتقدمة ــ ثلاثةَ أخبار جامعة، جاء فيها كثرةُ التَّطْواف في الأرض، ووَفْرَةُ التآليفِ الكثيرة الكبيرة، وشدَّةُ الحِفاظِ على الأوقاتِ واللحظات، من ثلاثة علماء أجلاءَ، من أولئك العلماء الفضلاء، الذين طافوا الدنيا لتحصيل العلم، وذَرَعُوها بأقدامِهم ذَرْعاً، يومَ لم يكن قِطارٌ ولا سَيَّارة، ولا باخرةٌ ولا طَيَّارة، فطافوها على الأقدامِ، لملاقاةِ الشيوخِ والعلماء، والتلقي عنهم، والمشافهةِ لهم، والسَّمَاعِ منهم.

ذلك: لما في هذا التلقِّي من عظيم الفوائد، وكريم العوائد، ولما في كثرة الشيوخ من جزيل الاستفادات، والانتفاعِ بتنوُّعِ المواهبِ والاستعدادات. وهذا الخيرُ العظيمُ لا يَتحقَّقُ إلا بالرحلةِ في البُلدانِ، ومُشَامَّةِ الناس، كما سَبَقت الإشارةُ إليه في أول الكتاب[1].

وهؤلاء العلماءُ الثلاثةُ الطَّوَّافون، أحدُهم مُحدِّث مَشْرِقِي، والثاني مُقرِئٌ مَغْرِبي، والثالث مؤرِّخ شامي، يَصلُحُون نماذجَ لغيرِهم من طَوَّافي البُلدان وجَوَّابي الآفاق، الذين مَرَّ ذكرُ بعضِهم في هذا الكتاب، فاقرأ عن هؤلاء الثلاثة ما تَرى، وانظر حولَك اليومَ مَنْ تَرى! وقُلْ بعدَ ذلك ما شئت أن تقول، فقد شاهدتَ البَوْنَ البائنَ الشاسعَ بين الفروع والأصول!

الخبر الثالث:
خبَرُ المحدِّث المَشْرِقي أبي حاتم بنِ حِبَّان
رحمه الله تعالى

٣٣٩ ــ قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[2]، و «سِيَر أعلام النبلاء»[3]: «هو الحافظ الإمامُ العلامةُ المحدِّثُ، أبو حاتم محمدُ بن حِبَّان التَّمِيميُّ البُسْتي،

(١) في الخبر ٦ وما علقته عليه في آخره.
(٢) ٣ : ٩٢٠.
(٣) ١٦ : ٩٤.

صاحبُ التصانيف، ولد في حدود سنة ٢٨٠ ، وتوفي سنة ٣٥٤ رحمه الله تعالى، وسَمِعَ النَّسائيَّ، والحسَنَ بن سفيان، وأبا يَعْلَى المَوْصِلي، وأبا بكر بنَ خُزَيمة، وأُمَماً لا يُحصَوْن من مصر إلى خراسان.

وَلِيَ قَضاءَ سمرقند، وكان من فقهاءِ الدين، وحُفَّاظِ الآثار، عالماً بالنجوم، والطب، وفنونِ العلم. وكان من عقلاءِ الرجال، ومن أوعيةِ العلم في الفقه، والحديث واللغة، والوعظ. عاد من رحلتِهِ الطويلةِ إلى بلدِهِ بُسْت في سنة ٣٤٠ واستقرَّ فيها، ــ وصنَّفَ ما يقاربُ ستين كتاباً ــ وكانت الرحلةُ إليه لسماع كتبه، قال في كتابه «الأنواع والتقاسيم» ــ أي في «صحيحه» ــ : لعلَّنا كتبنا عن أكثَرَ من ألفَيْ شيخ. قلت ــ القائل الذهبي ــ : كذا فلتكن الهِمَمُ، مع ما كان عليه من الفِقه، والعربية والفضائلِ الباهرة، وكثرةِ التصانيف».

وقال العلامة ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»[١]، في (بُسْت) ما يلي: «بُسْتُ بالضم: مدينةٌ بين سِجِسْتان وغَزْنِين وهَرَاة ــ من بلاد أفغانستان الآن ــ ، وأظنُّها من أعمالِ كابُل. وهي من البلاد الحارَّةِ المِزاج، وهي كبيرة كثيرة الأنهار والبساتين، إلا أن الخرابَ فيها ظاهر.

وقد خرج منها جماعةٌ من أعيان الفضلاء منهم... ومنهم أبو حاتم محمدُ بنُ حِبَّان بنِ معاذ التميميُّ، الإمامُ العلَّامة الفاضل المتقِن، كان مكثراً من الحديث والرحلة والشيوخ، عالماً بالمتون والأسانيد، أخرج من علوم الحديث ما عَجَز عنه غيرُه، ومن تأمَّل تصانيفَه تأمُّلَ منصف، علم أن الرجل كان بحراً في العلوم، قال في كتابه «المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع»: لعلَّنا كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ ما بين الشاشِ والإسكندرية.

سافر بين الشاشِ والإسكندرية، وأدرَكَ الأئمةَ والعلماءَ والأسانيدَ العالية، وأَخَذ فقهَ الحديثِ والغَوْصَ على مَعَانِيه عن إمام الأئمة أبي بكر ابن خزيمة[٢]، ولازمه وتلمَّذَ له، وصارت تصانيفُهُ عُدَّةً لأصحاب الحديث، غير أنها عزيزةُ الوجود.

---

(١) ١ : ٤١٥.

(٢) قولُه: (والغوصَ)، وقع في «معجم البلدان» في طبعة ليبسيك ١ :٦١٣، وطبعة الخانجي ١ : ١٧١، وطبعة صادر ١ : ٤١٥، محرَّفاً إلى (والغَرْض...)، مشكولاً بفتحة ثم سكون، =

سَمِعَ ببلده: (بُسْت): أبا أحمد إسحاقَ بن إبراهيم القاضي، وأبا الحسن محمد بن عبد الله بن الجُنَيد البُسْتِي. وبهَرَاةَ: أبا بكر محمد بن عثمان بن سعد الدَّارِمي. وبمَرْوَ: أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن: عبدَ الله بنَ محمود بن سليمان السَّعْدَني، وأبا يزيد محمد بنَ يحيى بن خالد المَدِيني. وبقرية سِنْج: أبا علي الحسينَ بن محمد بن مصعب السِّنْجِي، وأبا عبد الله محمدَ بن نصر بن تَرْقُل الهَوْرَقَاني.

وبالصُّغْد بما وراء النهر: أبا حفص عمرَ بنَ محمد بن يحيى الهَمْداني. وبنَسَا: أبا العباس الحسنَ بنَ سفيان الشيباني، ومحمدَ بنَ عمر بن يوسف، ومحمدَ بنَ محمود بن عدي، النَّسَوِيِّين. وبنَيْسابور: أبا العباس محمدَ بنَ إسحاق بن إبراهيم السرَّاج الثقفي، وأبا محمد عبدَ الله بن محمد بن عبد الرحمن بن شِيْرَوَيْه الأزدي. وبأَرْغِيَان: أبا عبد الله محمدَ بنَ المسيَّب بن إسحاق الأَرغِياني.

وبجُرْجَان: عِمرانَ بنَ موسى بن مُجاشِع، وأحمدَ بنَ محمد بن عبد الكريم الوزَّان، الجُرْجَانِيَّيْن. وبالرَّيّ: أبا القاسم العباسَ بنَ الفضل بن عاذان المقري، وعليَّ بنَ الحسن بن مُسْلِم الرازي. وبالكَرَج: أبا عُمَارة أحمدَ بنَ عُمَارة بنِ الحجاج الحافظ، والحسينَ بنَ إسحاق الأصبهاني.

وبعَسْكَر مُكْرَم: أبا محمد عبدَ الله بن أحمد بن موسى الجَوَالِيقي المعروف بعَبْدانَ الأهوازي. وبتُسْتَر: أبا جعفر أحمدَ بنَ محمد بن يحيى بن زهير الحافظ. وبالأهواز: أبا العباس محمدَ بنَ يعقوب الخطيب. وبالأُبُلَّة: أبا يَعْلَى محمدَ بنَ زهير، والحسينَ بنَ محمد بن بِسْطام الأُبُلِّيَّيْن.

وبالبَصْرة: أبا خليفة الفضلَ بنَ الحُبَاب الجُمَحي، وأبا يحيى زكرياءَ بنَ يحيى السَّاجي، وأبا سعيد عبدَ الكريم بنَ عمر الخَطَّابي. وبواسِط: أبا محمد جعفرَ بنَ أحمد بن سِنان القطان، والخليلَ بن محمد الواسِطي ابن بنتِ تميم بن المنتصر. وبفَمِ الصِّلْح: عبدَ الله بن قَحْطَبَة بن مرزوق الصِّلْحِي. وبنَهْرِ سَابُس قريةٍ من قُرَى واسِط: خلَّادَ بنَ محمد بن خالد الواسطي.

= وهو تحريف زاده الشكل تعقيداً! فلم أهتد إلى تصويبه، فرجعت فيه إلى أستاذنا العلامة الأَفِيق الشيخ مصطفى الزرقا، فصوَّبه لي أمتع الله به.

وببغداد: أبا العباس حامدَ بنَ محمد بن شُعَيب البلخي، وأبا أحمد الهَيْثَم بنَ الدُّوْرِي، وأبا القاسم عبدَ الله بنَ محمد بن عبد العزيز البَغَوي. وبالكوفة: أبا محمد عبدَ الله بنَ زيدان البَجَلي. وبمكة: أبا بكر محمدَ بنَ إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، صاحبَ كتاب «الإشراف» في اختلاف الفقهاء، وأبا سعيد المفضَّلَ بن محمد بن إبراهيم الجَنَدي.

وبسَامَرَّاء: عليَّ بنَ سعيد العسكري عَسْكَر سامَرَّاء. وبالموصل: أبا يعلى أحمدَ بنَ علي بن المثنَّى المَوْصِلي، وهارونَ بن المِسْكِين البلدي، وأبا جابر زيدَ بنَ علي بن عبد العزيز بن حيان المَوْصِلي، ورَوْحَ بن عبد المجيب الموصلي. وببلد سِنْجار: عليَّ بنَ إبراهيم بن الهَيْثَم المَوْصِلي.

وبنَصِيبين: أبا السَّرِيِّ هاشمَ بنَ يحيى النَّصِيبِي، ومُسَدَّدَ بنَ يعقوب بن إسحاق الفُلُوسيّ. وبكَفَرْتُوثَا من ديار رَبيعة: محمدَ بنَ الحُسَين بن أبي معشر السُّلَمي. وبسَرْغَامَرْطا من ديار مُضَر: أبا بدرٍ أحمدَ بنَ خالد بن عبد الملك بن عبد الله بن مسرّح الحَرَّاني.

وبالرافِقَة: محمدَ بنَ إسحاق بن إبراهيم بن فَرُّوْخ البغدادي. وبالرَّقَّة: الحسينَ بنَ عبد الله بن يزيد القطان. وبمَنْبِج: عُمَرَ بنَ سعيد بن سِنَان الحافظ، وصالحَ بنَ الأصْبَغ بنِ عامر التَّنُوخي. وبحَلَب: عليَّ بنَ أحمد بن عِمران الجُرْجاني. وبالمَصِيصَة: أبا طالب أحمدَ بنَ داود بن مُحسن بن هلال المَصِيصي.

وبأَنْطاكِيَة: أبا علي وَصِيفَ بنَ عبد الله الحافظ. وبطَرَسُوس: محمدَ بنَ يزيد الدَّرْقي، وإبراهيمَ بنَ أبي أُميَّة الطَّرَسُوسِي. وبأَذَنَة: محمدَ بنَ عَلَّان الأَذَني. وبصَيْدَاءَ: محمدَ بنَ أبي المُعَافى بن سليمان الصَّيْداوِي. وببَيْرُوت: محمدَ بنَ عبد الله بن عبد السلام البَيْرُوتي المعروف بمكحول. وبحِمْص: محمدَ بنَ عُبَيْد الله بن الفضل الكَلَاعي الراهب.

وبدِمَشْق: أبا الحسن أحمدَ بنَ عُمَير بن جَوْصَاء الحافظ، وجعفرَ بنَ أحمد بن عاصم الأنصاري، وأبا العباس حاجبَ بنَ أَرْكِيْن الفَرْغاني الحافظ. وبالبَيْتِ

المُقَدَّسِ : عبدَ الله بنَ محمد بن مسلم المَقْدِسي الخطيب. وبالرَّمْلة : أبا بكر محمدَ بنَ الحسن بن قُتَيْبَة العَسْقَلاني.

وبمصر: أبا عبد الرحمن أحمدَ بنَ شُعَيب بن عليّ النَّسَائيّ، وسعيدَ بنَ داود بن وِرْدان المصري، وعليَّ بنَ الحسين بن سليمان المعدَّل، وجماعةً كثيرةً من أهل هذه الطبقة سوى من ذكرناهم». انتهى.

هكذا كان تحصيلُ العلم من راغبيه قديماً: طوافٌ في البُلدان، ونَصَبٌ للأبدان، وكَسْبٌ للزمان، لا راحةَ ولا استرخاء، ولا تمنَعُهم الصعوباتُ من لقاءِ العلماء. وأمانِيهم في تحصيلِ العلم وخِدمةِ الدين تَحْدُوهُم للمزيد، وتُنسِيهم كلَّ ما يَلْقَوْنَهُ من تَعبٍ وعناء.

الخبرُ الرابعُ :
خَبرُ المُقرِىء المَغْرِبيّ أبي القاسم الهُذَلي
رحمه الله تعالى

٣٤٠ ــ قال الحافظُ الذهبي في «معرفة القُرَّاء الكِبَار على الطبَقَاتِ والأعصار»[١]، وإمامُ القُرَّاء الحافظُ ابنُ الجَزَرِي في «غاية النهاية في طبقات القراء»[٢]، في ترجمة (أبي القاسم الهُذَلي) البِسْكَري المغربي ثم المشرقي، المولود بالمغرب الأقصى سنة ٣٩٥، والمتوفى بالمشرق الأقصى في نيسابور سنة ٤٦٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

قال الذهبي: أبو القاسم الهُذَلي، الأستاذُ الكبيرُ الرحَّال، والعَلَمُ الشهيرُ المُقرىء الجَوَّال، أحَدُ من طَوَّف الدنيا في طلب القراءات. واسمُهُ: يوسفُ بن علي بن جُبَارة المغربي البِسْكَري، و (بِسْكَرَة) بُلَيْدَة بالمغرب.

رَحَل من أقصى المغرب إلى بلاد التُّرك ــ في أقصى المشرق ــ ، وكانت رحلتُه في سنة ٤٢٥ وبعدَها، فقرأ بحَرَّان على أبي القاسم الزيدي صاحبِ النَّقَّاش، وهو أكبَرُ شيوخِه، وعلى الأهوازي بدمشق، وعلى إسماعيل بن عَمْرو بن راشد الحدَّاد وجماعةٍ

---

(١) ١ : ٤٢٩ ــ ٤٣٣.

(٢) ٢ : ٣٩٧ ــ ٤٠١.

بمصر، وعلى مَهْدِيّ بنِ طَرَارَه، والحسنِ بن محمد بن إبراهيم المالكي صاحبِ «الروضة»، وتاجِ الأئمةِ أحمدَ بنِ علي المصري، وأبي العلاء محمدِ بن علي الواسطي، ومحمدِ بن الحسن الكارَزِيني.

قال ابنُ الجَزَرِي: طاف البلاد في طلب القراءات، فلا أعلَمُ أحداً في هذه الأمة رَحَل في القراءات رِحلتَهُ، ولا لَقِيَ من لَقِيَ من الشيوخ مِثْلَه، قال في كتابه «الكامل» في القراءات: فجملةُ من لَقِيتُ في هذا العلم ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستون شيخاً، من آخِرِ المغرب إلى بابِ فَرْغَانة يميناً وشِمالاً وجَبَلاً وبحراً، ولو علمتُ أحداً يُقدَّمُ عليَّ في هذه الطريقة في جميع بلادِ الإسلام لقصدتُه.

قلتُ: كذا تَرَى هِمَمَ الساداتِ في الطلب. قال الأميرُ ابنُ مَاكُوْلا ـ وقد لَقِيَهُ ـ: كان يُدرِّسُ علمَ النحو، ويَفهمُ الكلامَ والفقهَ، وكان قد قرَّره الوزيرُ نِظامُ المُلْك في مدرسته بنَيْسَابور، فقَعَد سنين وأفاد، وكان مقدَّماً في النحو والصرفِ وعِلَلِ القراءات، وكان يَحضُرُ مجلسَ أبي القاسم القُشَيري ويأخُذُ منه الأصول، وكان القُشَيريُّ يُراجعُهُ في مسائل النحوِ والقراءاتِ ويستفيدُ منه، وكان حضورُهُ سنة ٤٥٨ إلى أن توفي.

وقد ذَكَر شيوخَهُ الذين أَخَذ عنهم القراءاتِ في كتابه «الكامل»، وعِدَّتُهم ١٢٢ شيخاً، وها أنا ذا أذكُرهم مُرَتَّبين على حروف الهجاء:

إبراهيمُ بن أحمد الإِرْبِلِي، وإبراهيم بن الخطيب ببغداد، وأحمد بن رجاء بعَسْقَلان، وأحمد بن الصَّقْر ببغداد، وأحمد بن محمد بن عَلَّان بواسِط، وأحمد بن علي بن هاشم بمصر، وأحمد بن علي بالإسكندرية، وأحمد بن الفضل البَاطِرْقاني، وأحمد بن لَال بهَمَذان، وأحمد بن نفيس بمصر، وأبو زُرْعَة أحمد بن محمد الخطيب النُّوْشَجَاني.

وأحمد بن محمد بن أحمد بن الفتح الفَرَضِي، وأحمد بن محمد المادَرَائي، وأحمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي نعيم الأصبهاني، وأحمد بن محمد بن الحسن بن مردة المِلَنْجِي، وأحمد الحَاجِي بالأُبُلَّة، وأحمد السَّكَّاك بسمرقند، وأحمد بن مسرور،

وإسماعيل بن الجُنَيد، وإسماعيل بن الطَّيْر بحلب، وإسماعيل بن عُلَيَّان بأَرْسُوف، وإسماعيل بن عَمْرو الحدَّاد بالقَيْرَوَان.

وإسماعيل الشَّرْمَقَاني، وجامع بنُ الخضر بصَيْدَا، والجُنَيْد الشَّهْرِسْتَاني، وحَبَشِي بن عبد العزيز بالبصرة، وحَسَّان بن مكية بجُرْجَان، والحسن بن علي بن إبراهيم الماكلي بمصر، والحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي بدمشق، والحسن بن علي الشَّامُوْخي، والحسن بن خُشَيْش بالكوفة، والحسين بن منصور بميَّافارِقِين، والحسين بن مُسْلِمة بن الكاتب بالرَّقَّة، والحسين بدَيْرِ عَاقُول، وحمزة بن علي الزيدي بحَرَّان، والخَضِر بن أحمد بصَيْدَا، وخَلَفُ الله بن علي السَّبْتي بفَاس.

وسُلَيْم بن سلامة بصُوْر، وسعيد بن سعادة بالقدس، وسَمْعانُ القبادي بسَمَرْقَنْد، وصَدَقة بن المهذَّب إمامُ الجامعِ بحَرَّان، وعبد الخالق الحلبي بعَانَة، وعبد الرحمن بن أحمد أبو الفضل الرازي، وعبد الرحمن بن علي القَرَوِي، وعبد الرحمن الهُرْمُزَان، وعبد الساتر بن الذِّرِب باللاَّذِقِيَّة، وعبد العزيز بن أخي عبد الحميد، وعبد العزيز بن أبي رَمَاد، وعبد الله بن الجوية، وعبد الله بن سَمْحَان، وعبد الله بن الأقرع.

وعبد الله بن الحسن بن محمد الجلباني بتِنِّيْس، وعبد الله بن أحمد أبو القاسم الدلَّال، وعبد الله بن شَاذَان، وعبد الله بن اللَّبَّان، وعبد الله بن شَبِيب، وعبد الله بن منيرة، وعبد الله بن محمد الطِّيْرَائِي الذَّارِع، وعبد الملك بن سَابُوْر، وعبد الملك بن علي بفَسَا، وعبد الملك الرُّهَاوِي، وعبد الملك بن سعيد بالقدس، وعبد الملك بن عَبْدُوْيَهْ العطار، وعبد الواحد بن عبد القادر بدِمْيَاط، وعبد الواحد بن إبراهيم أبو غانم القَايِنِي.

وعثمان بن مالك، وعثمان بن علي الدلَّال، وعثمان بن محمد بن إبراهيم المالكي، وعليُّ بن أحمد الجوردكيُّ، وعلي بن أحمد بن محمد الواحدي، وعلي بن الحسين بكازَرُوْن، وعلي بن النمر بأَطْرَابُلُسِ المغرب، وعَمْرو بن سعيد، والفضل بن أبي الفضل الجارودي، والفضل بن فِرَاس بالأنبار، وما شَاءَ اللَّهُ بأصبهان.

ومحمد بن أحمد بن النوجاباذي ببخارا، ومحمد بن عبد الله الفَرَّاء، ومحمد بن

عبد الله بن أحمد بن القاسم بن شاذَان، ومحمد بن علي الزِّنْبِيلي، ومحمد بن الحسن الشيرازي بمصر، ومحمد بن الحسين الكارَزِيني، ومحمد بن البَغْل القاضي، ومحمد بن أبي شيخ، ومحمد بن إسماعيل المبيِّض بالرَّمْلَة، ومحمد بن إسماعيل ببيروت، ومحمد الإسكاف بدمشق، ومحمد المعلِّم بالرحبة، ومحمد بن البحتري، ومحمد بن سَمْران القَرَوِي، ومحمد بن عَمْرو بحلب.

ومحمد بن سماعة، ومحمد بن يعقوب، ومحمد بن علي الصَّلِيْقِي، ومحمد الخَاوَسِي، ومحمد بن عبد الواحد، ومحمد النُّوْشَجَاني، ومحمد بن علي الجُوْزْدَاني، ومبارك بن الفضل بالبصرة، ومنصور بن أحمد القُهُنْدُزِي، ومسروق بن جعفر، وأبو غانم المُرْشِدي بجِيْرُفْتَ، ومَهْدي بن طراز بِكَرْمان، ونصر بن أبي نصر الحدَّاد بسمرقند، ووَهبان بن خليفة بالجزيرة.

ويوسُفُ بنُ عَبْدِ الله بنِ بنيجس، وأبو أحمد العطار وهو عبد الملك بن عَبْدُوْيه المتقدم، وأبو الحسين الخَشَّاب بتِنِّيس، وأبو طاهر الحِنَّائي محمد بن الحُسَيْن بدمشق، وأبو الحسن المادَرائي، وأبو المجد، وأبو المهذَّب بالمَعَرَّة، وأبو نصر بن مسرور اسمُهُ أحمد، وأبو رجاء بواسط، وأبو عَمْرِو بن سعيد بالبصرة، وأبو جعفر الشَّعِيري، وأبو الحسن علي بن أحمد الجوردكي المتقدم بالبصرة.

وأبو التمّام بن الشِّرَاك، وأبو الحسين الجَوَاليقي، وأبو عاصم القاضي وهو عبد الواحد بن إبراهيم، وأبو القاسم العسكري بالأهواز، وأبو غانم بالكَرَج، وأبو الحسين بن سِنْجار، وأبو الحسن الأصم، وأبو يعقوب بالبيضاء، وأبو القاسم بن عَبْدان، وأبو نصر بن قِيراط، وأبو الحسن الخَيْرِي.

وأبو زُرْعَة أحمد بن محمد النوشجاني المتقدم، وأبو طاهر بشيراز، وأبو الفضل بن عَبْدان، وأبو محمد الذارع هو عبدُ الله، وأبو عبد الله المِلَنْجِي، وأبو القاسم عبدُ الله بن أحمد الدلَّال، وأبو عبدِ اللَّهِ بنُ كوشيد، وأبو سعد الجوهري، وأبو طاهر المكشوف، وأبو القاسم العطار وهو عبد الله بن محمد، والقاضي أبو العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي.

قال الذهبي: إنما ذكرتُ شيوخه وإن كان أكثرهم مجهولين ــ يعني: ليسوا أئمةً مشهورين ــ ، لتعلمَ كيف كانت هِمَّةُ الفضلاء في طلب العلم.

الخبرُ الخامس:
خبر الحافظ أبي القاسم بن عساكر الدمشقي رحمه الله تعالى

٣٤١ ــ هو الإمامُ الحافظُ المحدِّث الرَّحَّالُ أبو القاسم (علي بن الحسن بن عساكر)، المولود بدمشق سنة ٤٩٩، والمتوفى بها سنة ٥٧١ رحمه الله تعالى، وهو مؤرِّخُ مدينة دمشق الشام في ثمانين مجلَّداً، سوى سائرِ كتبِهِ الكثيرة الكبيرة، فقد كان هذا الإمامُ يُحافِظُ على اللحظاتِ من وقتِه، فجاد على المكتبة الإسلامية بتآليفَ، تَعْجِزُ المجامعُ العلميةُ اليومَ عن طبعها! وقد كتبها وحده، وأَلَّفها بيدِهِ وقَلَمِهِ، وحرَّرَها وحقَّقَها، وجَمَعَ أصولها، وانْتَخَبَ منها، ونسَّقها ورتَّبَها، وأخرجها للناس آيةً باقيةً ناطقةً بأنه كان أُعجوبةَ الأعاجيب، في سَعَةِ الحفظ، ووفرةِ المعرفة، ونَفاذِ الهِمَّةِ في القدرة على التأليف، وكثرةِ المصنفات المدهشةِ، وحفظِ الوقتِ وكَسْبِه.

وأسوقُ هنا طَرَفاً وجيزاً من ترجمته عن ثلاثة كتب، مقتصراً منها على ما يتعلق بكثرةِ التطواف، ووفرةِ المؤلفات، وشدةِ الحفاظ على الأوقات واللحظات.

١ ــ قال المؤرخ القاضي ابنُ خَلِّكان في «وَفَيَات الأعيان»[١]، في ترجمته: «كان محدِّثَ الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غَلَبَ عليه الحديثُ فاشتَهَرَ به، وبالَغَ في طلبه إلى أن جَمَعَ منه ما لم يتفق لغيره، ورَحَلَ وطَوَّف وجابَ البلاد، ولقي المشايخ، وكان رفيق الحافظِ أبي سَعْد عبد الكريم ابنِ السمعاني في الرِّحلة ــ وقد بَلَغَ تعدادُ شيوخِ السَّمعاني الذين لقيهم في دار الإسلام سبعةَ آلافِ شيخ كما تقدَّم[٢] ــ.

وكان حافظاً دَيِّناً، جَمَعَ بين المتون والأسانيد، سَمِعَ ببغداد، ثم رجع إلى دمشق، ثم رَحَلَ إلى خراسان، ودخل نيسابور وهَرَاة وأصبهان والجبال[٣]، وصنَّف التصانيف

---

(١) ١: ٣٣٥.
(٢) في ترجمة السمعاني الخبر ٤٣.
(٣) وقد أشار الحافظ ابن عساكر إلى ما لاقاه من الشدائد في سكناه (نيسابور)، ذاتِ =

المفيدة، وخَرَّجِ التخاريج، وكان حسنَ الكلام على الأحَاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف، صَنَّف «التاريخ لدمشق» في ثمانين مجلداً، أتَى فيه بالعجائب، وهو على نَسَق «تاريخ بغداد» ــ للخطيب البغدادي، من حيث شَرْطُه فيمن ذكرهم فيه، ولكنه أضعافُهُ حجماً واتساعاً وشُمولاً وإفاداتٍ متنوعة ــ .

قال لي شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظُ مصر، وقد جَرَى ذكرُ هذا التاريخ، وأَخْرَجَ لي منه مجلداً، وطال الحديثُ في أمرِهِ واستعظامِهِ: ما أظنُّ هذا الرجلَ إلا عَزَمَ على وضع هذا التاريخ من يوم عَقَلَ على نفسه، وشَرَعَ في الجمع من ذلك الوقت، وإلا فالعُمرُ يَقصُرُ عن أن يَجمعَ فيه الإنسانُ مثلَ هذا الكتاب بعد الاشتغالِ والتنبُّه(١).

= الثَّلْجِ الكثير والبَرْد الشديد، الذي لم يألفه في بلده دمشق، فقال متألِّماً متضجراً، كما في ترجمته في «معجم الأدباء» ١٣ : ٧٣.

لا قَدَّسَ اللَّهُ نَيْسابورَ من بَلَدٍ ... ما فيه من صاحَبٍ يُسْلِي ولا سَكَنِ
لولا الجَحِيمُ الذي في القَلْب من حُرَقٍ ... لفُرْقَةِ الأَهْلِ والأحبابِ والوَطَنِ
لَمِتُّ من شِدَّةِ البَرْدِ الذي ظَهَرَتْ ... آثارُ شِدَّتِهِ في ظاهِرِ البَدَنِ
يا قومُ دُوْمُوْا على عَهْدِ الهَوَى وثِقُوا ... أَنّي على العَهْدِ لم أَغْدُرْ ولم أَخُنِ

وذَكَر ما كان له من أسفارٍ متواصلة، ورِحْلاتٍ في الأرضِ متباعِدَة، فقال رحمه الله تعالى، كما في آخر كتابه «تبيين كذب المفتري» ص ٤٣١ :

وأنَا الذي سافَرْتُ في طَلَب الهُدَى ... سَفَرَيْنِ بين فَدَافِدٍ وتَنَائِفِ
وأنا الذي طَوَّفْتُ غيرَ مَدِينةٍ ... من أصبهانَ إلى حُدودِ الطَّائِفِ
الشَّرْقُ قد عايَنْتُ أكثَرَ مُدْنِهِ ... بَعْدَ العِراقِ وشامِنا المُتَعارَفِ
وجَمَعْتُ في الأسفار كلَّ نَفِيسةٍ ... ولَقِيتُ كلَّ مُخالِفٍ ومُؤالِفَ
وسَمِعتُ سُنَّةَ أحمدٍ مِنْ بَعْدِ ما ... أنفقتُ فيها تالِدِي مع طَارِفي

(١) وقع لفظ (التنبُّه) محرفاً إلى (التنبيه) في «وفيات الأعيان» من طبعة مصر الميمنية سنة ١٣١٠. وتصويبه من طبعة صادر في بيروت بتحقيق إحسان عباس ٣ : ٣١٠. والمراد (بالاشتغال) في لغة أهل القرن الخامس وما بعده: قيامُ العالم بالتدريس أو التحديث. والمراد (بالتنبُّه): حصولُ نباهةِ الذكر والشُّهرةِ، الناشيء عنها قصدُ الناس والمستفيدين إليه بالسؤال والاستفادة، وفي هذا وذاك مَشْغَلَةٌ كبيرةٌ يَصْعُبُ معها تفرُّغُ العالم للتأليف والتحقيق والإنتاج الكثير. =

ولقد قال الحقَّ، ومن وَقَفَ عليه عَرَفَ حَقِّيَّةَ هذا القول، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يَضع مثلَه، وهذا الذي ظَهَرَ ـ أي من التاريخ ـ هو الذي اختاره، وما صَحَّ له هذا إلا بعدَ مُسَوَّداتٍ ما كادَ ينضبط حَصْرُها، وله غيرُه تَوَالِيفُ حسنة، وأجزاء ممتعة». انتهى كلام القاضي ابن خلِّكان. وقد زادَتْ مؤلفاتُ الحافظ أبي القاسم بن عساكر على خمسين كتاباً، أحدُها «تاريخ مدينة دمشق» في ثمانين مجلداً، كما سبق ذكره.

٢ ـ وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»(١)، في ترجمته: «الإمامُ الحافظُ الكبير، محدِّث الشام، فخر الأئمة، أبو القاسم بن عساكر، صاحب التصانيف و«التاريخ الكبير»، ولد في أول سنة ٤٩٩، وسَمِعَ في سنة ٥٠٥، باعتناء أبيه وأخيه الإمام ضياء الدين هبة الله، فسمع من . . . بدمشق، ورَحَل في سنة عشرين، فسمع من . . . ببغداد، و . . . بمكة، و . . . بالكوفة، و . . . بنيسابور، و . . . بأصبهان، و . . . بمرو، و . . . بهَراة، وعَمِلَ «الأربعين البُلدانية» ـ أربعين حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين بَلَداً ـ ، وعددُ شيوخِهِ ألفُ وثلاثُ مئة شيخ، ونَيِّفٌ وثمانون امرأةً. ـ وكانت عودته إلى دمشق سنة ٥٣٣ ـ .

وحدَّث عنه خلقٌ كثير، ومنهم صاحبُهُ في الرحلة أبو سَعْد السمعاني، ـ ثم عَدَّد الذهبيُّ توالِيفَهُ، فبلغَتْ نحو خمسين كتاباً ـ ، وأملَى في أبواب العلم أربعَ مئة مجلس وثمانية ـ وكلُّ إملاءِ مجلسٍ منها بمثابة تأليف ـ .

قال ولَدُه المحدِّث بهاء الدين القاسم: كان أبي رحمه الله مواظباً على الجماعة والتلاوة، يختُمُ كلَّ جمعة، ويختُمُ في رمضان كلَّ يوم، ويعتكفُ في المَنَارَةِ الشرقية ـ من جامع دمشق ـ ، وكان كثيرَ النوافل والأذكار، ويُحيي ليلةَ النصف ـ من شعبان ـ

= والحافظ ابن عساكر قد (اشتغَلَ) و(نَبُهَ) ذكره في الآفاق، ومع هذا جاء بتآليفَ خِصبة وكثيرة، أوسَعَ من العمر الذي عاشه، وما ذلك إلا لِحفاظِهِ على الوقتِ واللَّحظَاتِ، فللَّه درُّه ما أمضى عزيمتَه! وما أشدَّ جَلَدَه وشوقَه للعلم! وما أقواه على الدخولِ فيما يريد، حين يُريد، وكما يريد، رحمةُ الله تعالى عليه.

(١) ٤: ١٤٢٨.

والعيدين بالصلاة والذكر، وكان يُحاسِبُ نفسَه على لحظةٍ تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة. أي منذ أَذِنَ له شيوخُهُ بالرواية والتحديث ـ إلا بالجمع والتسميع حتى في نُزْهَتِهِ وخلَوَاتِهِ.

قال الحافظ أبو العلاء الهَمَذاني: ما كان يُسَمَّى أبو القاسم بن عساكر في بغداد إلا شُعلةَ نار، من ذكائِهِ وتوقُّدِهِ وحُسْنِ إدراكه. وقال أبو المواهب بن صَصْرَى: قلتُ له: هل سيدُنا رأى مِثلَ نفسِه؟ قال: لا تَقُل هذا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أنفسَكم﴾[1]. قلتُ: فقد قال الله تعالى: ﴿وأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، فقال: لو قال قائل: إنَّ عَيْنِي لم تَرَ مثلي لصَدَق.

ثم قال أبو المواهب: وأنا أقول: لم أرَ مثلَه، ولا من اجتَمَع فيه ما اجتَمَع فيه، من لزومِ طريقةٍ واحدة مدةَ أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عُذر، والاعتكافِ في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعَدَمِ التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناءِ الدُّور، قد أَسقَطَ ذلك عن نفسِه، وأَعرَض عن طلب المناصب من الإمامة والخِطابة، وأباها بعد أن عُرِضَتْ عليه، وأَخَذَ نَفْسَهُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةُ لائم». انتهى.

٣ ـ وقال الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[3] في ترجمته: «الإمامُ الجليل، حافظُ الأمة، أبو القاسم بن عساكر، ولا نعلم أحداً من جُدُودِهِ يُسمَّى عساكر، وإنما هو اشتَهَر بذلك، وهو ناصِرُ السُّنَّة وخادمُها، إمامُ أهل الحديث في زمانه، وخِتامُ الجهابذةِ الحفاظ، مَحَطُّ رِحالِ الطالبين.

جَمَع نَفْسَه على أشتات العلوم، لا يتخذ غيرَ العلم والعمل صاحبين له، وهما منتهى أَرَبِهِ، حِفْظٌ لا تغيبُ عنه شارِدَة، وضَبْطٌ استوَتْ لديه الطَّريفَةُ والتالِدَة، وإتقانٌ

---

(١) من سورة النَّجْم، الآية ٣٢. ولفظ الآية بما بعدَها: ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفسَكم هو أعلَمُ بمن اتَّقى﴾.

(٢) من سورة الضحى، الآية ١١.

(٣) ٧: ٢١٥.

ساوَى به من سَبَقَهُ إن لم يكن فاقَه، وسَعَةُ علمٍ أَثْرَى بها وتَرَكَ الناسَ كلَّهم بين يديه ذَوِي فاقَة.

سَمِعَ خلائق، وعِدَّةُ شيوخه ألفٌ وثلاث مئة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة، وارتحل إلى العراق، ومكة، والمدينة، وارتحل إلى بلاد العجم، فسَمِعَ بأصبهان، ونيسابور، ومَرْو، وتَبْريز، ومِيْهَنَة، وبَيْهَق، وخُسْرُوجِرْد، وبِسطام، ودامغان، والريّ، وزَنْجَان، وهمَذَان، وأَسَدَاباذ، وجَيّ، وهَراة، وبَوَن، وبَغ، وبُوْشَنْج، وسَرَخْس، ونُوقَان، وسِمْنَان، وأَبْهَر، ومَرَند، وخُوَيّ، وجَرْباذَقان، ومُشْكَان، ورُوْذَاور، وحُلوان، وأَرْجِيش.

وسَمِعَ بالأنبار، والرافِقة، والرَّحَبة، ومارِدين، وماكسين، وغيرها من البلادِ الكثيرة، والمدنِ الشاسعة، والأقاليم المتفرقة، لا ينفكُّ نائيَ الدار، يُعْمِلُ مَطِيَّهُ في أقاصِي القِفارِ، وحيداً لا يَصحبه إلا تُقىً اتّخَذَهُ أنيسَه، وعَزْمٌ لا يَرى غيرَ بلوغ المآرِبِ درجةً نفيسةً.

وقال شيخه الخطيب أبو الفضل الطُّوسي: ما نَعرِفُ من يَستحق هذا اللَّقَبَ اليوم سواه، يعني لقَبَ (الحافظ). وقال ابن النجار: هو إمامُ المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرياسةُ في الحفظِ والإتقان، والمعرفة التامة بعلوم الحديث، والثقة والنُّبل، وحُسنِ التصنيف والتجويد، وبه خُتِمَ هذا الشأن.

قال ابن النجار: وسمعتُ شيخنا عبد الوهاب بن الأمين، يقول: كنتُ يوماً مع الحافظ أبي القاسم بن عساكر وأبي سعد بن السَّمعاني، نمشي في طلب الحديث ولقاءِ الشيوخ، فلقينا شيخاً، فاستوقَفَه ابنُ السمعاني ليقرأ عليه شيئاً، وطاف على الجزء الذي هو سماعُه في خَرِيطته، فلم يجده وضاق صَدْرُه، فقال له ابنُ عساكر: ما الجزء الذي هو سماعُه؟ فقال: كتاب «البعث والنشور» لابن أبي داود، سَمِعَهُ من أبي نصر الزَّيْنَبِي، فقال له: لا تحزن، وقرأهُ عليه من حفظِه أو بعضَه. قال ابنُ النجار: الشكُّ من شيخنا.

وقال فيه الشيخ محيـي الدين النووي، ومن خَطِّهِ نَقَلْتُ: هو حافظُ الشام، بل هو حافظ الدنيا، الإمامُ مطلقاً الثقةُ الثَّبْت.

وحكى ولدُه الحافظ أبو محمد القاسمُ، قال: كان أبي قد سَمِعَ كتباً كثيرة لم يُحصِّل منها نُسَخاً، اعتماداً منه على نُسَخِ رفيقِهِ الحافظِ أبي علي بن الوزير، وكان ما حصَّله ابنُ الوزير لا يُحَصِّله أبي، وما حصَّله أبي لا يُحَصِّله ابنُ الوزير.

فسمعتُه ليلةً من الليالي، وهو يتحدث مع صاحب له في ضوء القمر في الجامع، فقال: رَحَلتُ وما كأني رحلت! وحَصَّلتُ وما كأني حَصَّلت! كنتُ أَحسَبُ أن رفيقي ابنَ الوزير يَقدَمُ بالكتب التي سَمِعتُها، مثل «صحيح البخاري» و«مسلم»، وكتب «البيهقي»، وعَوالي الأجزاء، فاتفَقَتْ سُكناه بمَرْوَ وإقامتُهُ بها.

وكنتُ أؤمل وصولَ رفيقٍ آخر، يقال له: يوسف بنَ فاروا الجَيَّاني، ووصولَ رفيقنا أبي الحسن المُرادي، فإنه يقول لي: ربما وَصَلْتُ إلى دمشق، وتوجهتُ منها إلى بلدي الأندلس، وما أرى واحداً منهم جاء إلى دمشق، فلا بُدَّ من الرحلةِ ثالثاً! وتحصيلِ الكتب الكبار، والمهماتِ من الأجزاء والعوالي.

فلم يمضِ إلا أيامٌ يسيرة حتى جاء إنسانٌ من أصحابِهِ إليه، ودَقَّ عليه الباب، وقال: هذا أبو الحسن المُرادي قد جاء، فنَزَلَ أبي إليه وتلقاه وأَنزلَهُ في منزله، وقَدِمَ علينا بأربعة أسفاطٍ مملوءةٍ من الكتب المسموعات، ففرِحَ أبي بذلك فرحاً شديداً، وشكر الله سبحانه على ما يسَّره له من وصول مسموعاته إليه، من غير تعب، وكَفَاه مؤونةَ السفر، وأقبَلَ على تلك الكتب فنَسَخَ واستنسخ، حتى أتى على مقصودِهِ منها، وكان كلما حَصَل على جزء منها، كأنه حَصَل على مِلكِ الدنيا، رحمه الله تعالى ورضي عنه». انتهى.

٣٤٢ ــ هذه صَفَحات أو قَبَسات من تاريخ العلماء، وما لاقَوْه من شدائدَ وأهوالٍ ومتاعبَ في تحصيل العلمِ وتلقِّيه، وقد بذلوا في سبيلهِ المُهَجَ والأرواح كما رأينا، وصَبَرُوا أشدَّ الصبر حتى نالوه، فكانوا الأئمةَ الهُداةَ لمن بَعدَهم، فرحمةُ الله عليهم ورضوانُه العظيم.

وقد استحسنتُ أن أُورِدَ في ختام هذه الأخبار، عن أولئك الأخيار الأبرار، قصيدةَ القاضي الجُرْجَاني، التي جمَعَ فيها ما ينبغي أن يكون عليه طالبُ العلم، لِيَسْمُوَ به عِلمُه إلى أعلى المقامات، ويَنْبُلَ قَدْرُه، ويَنتفعَ الناسُ به في الحياة وبعدَ الممات.

٣٤٣ ــ وهو العلامة القاضي أبو الحسن عليُّ بنُ عبد العزيز الجُرْجاني، الفقيه الشافعي الأديب الشاعر المُحْسِن، قاضي قُضَاة الرَّي، المولود في حدود سنة ٣٢٥، والمتوفى بالرَّيّ سنة ٣٩٢ رحمه الله تعالى، صاحبُ كتاب «الوَسَاطة بين المتنبي وخصومه»، قال فيه الثعالبي وهو يَصِفُ كثرةَ تَطوافِهِ وتَقَلُّبِه في البلدان لتحصيل العلم:

«وكان في صِبَاه خَلَفَ الخَضِرَ في قَطْعِ الأرضِ وتدويخِ بلادِ العراقِ والشامِ وغيرِهما، واقتَبَس من أنواع العلوم والآدابِ ما صار به في العلوم عَلَماً، وفي الكمال عالَماً، فهو حَسَنَةُ جُرْجَان، وفَرْدُ الزمان، ونادرةُ الفَلَك، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم، ودُرَّةُ تاجِ الأدب، وفارِسُ عَسْكَرِ الشِّعْر، يَجْمَعُ خَطَّ ابن مُقلة، إلى نثر الجاحظِ ونظم البحتري، ويَنظِمُ عِقدَ الإتقانِ والإحسانِ في كل ما يتعاطاه».

٣٤٤ ــ وقصيدتُه العصماءُ في وصف (العالِمِ الأَبيّ)، والاعتزازِ بالعلم وسُمُوِّ الهِمَّة، مشهورةٌ تناقَلَتْها كتبُ الأدب وكتبُ الأخلاق والتعليم. واختَلَفَتْ في تَعدادِها وترتيبِها وألفاظها، وأوسَعُ ما وقفتُ عليها فيه: «المضنونُ به على غير أهله» لعز الدين الزَّنجاني، بشرح عُبَيدِ الله بن عبد الكافي العُبَيدي، فقد أوردها الزنجاني ٢٠ بيتاً، وجاء في تعليقةٍ بحاشية الشرح المذكور أنها تبلغ ٤٤ بيتاً، فأنا أنقلها هنا من كتاب الزنْجاني(١)، بزيادةِ البيتِ السادسَ عشرَ من كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي(٢)، مع تعديلٍ في البيت ٣ و٢٢ أخذاً ببعض الروايات التي رأيتها ــ في غير هذين الكتابين ــ أكثرَ اتساقاً مع المعنى.

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما ... رأَوْا رجلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحجَمَا
أَرى النَّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أَقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما ... بدا مَطْمَعٌ صَيَّرتُه ليَ سُلَّما
وما زِلتُ مُنحازاً بعِرْضيَ جانباً ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانةَ مَغْنَمَا
إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أَرَى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعضِ ما لا يَشِينُها ... مَخافَةَ أقوالِ العِدَا: فِيمَ أو لِمَا؟

---

(١) ص ٧ ــ ١٥.

(٢) ص ٤٧.

فأُصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّماً ... وقد رُحْتُ في نفسِ الكريم مُعظَّما
وإني إذا ما فاتَنِي الأمرُ لم أبِتْ ... أُقلِّبُ كَفِّيْ إثْرَهُ مُتَنَدِّما
ولكنه إن جاء عَفْواً قبِلْته ... وإن مالَ لم أُتبِعْهُ: هَلاَّ ولَيْتَما
وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافِرَ العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابِساً ... وأنْ أَتلَقَّى بالمديحِ مُذَمَّماً
وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْماهُ لم يَصِل ... إليه وإن كان الرئيسَ المُعَظَّما
وكم نِعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلمِ مُهْجَتِي ... لأُخْدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَى به غَرْساً وأَجنِيهِ ذِلَّةً ... إذاً فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أحْزَما
وإني لَراضٍ عن فَتىً مُتَعفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يَملِكُ دِرْهَما
يَبِيتُ يُراعِي النجمَ من سُوءِ حالِهِ ... ويُصبِحُ طَلْقاً ضاحِكاً مُتَبَسِّمَا
ولا يَسألُ المُثْرِين ما بأكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوْعاً عِفَّةً وتكرُّمَا[١]
فإن قلتَ: زَنْدُ العلمِ كابٍ، فإنما ... كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأَظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لَعَظَّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُوا ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجَهَّما![٢]
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَستفِزُّني ... ولا كلُّ من لاقَيْتُ أَرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما آضطرَّني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ فِكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما[٣]

---

(١) هذه الأبياتُ الثلاثة: وإني لَرَاضٍ والبيتانِ بعدَهُ، وقفتُ عليها في كتاب «تُحْفَة الأدباء وسَلْوَة الغرباء»، المعروف باسم «رحلة الخِيَاري»، لمؤلِّفِهِ المُحدِّث الأديب إبراهيم بن عبد الرحمن الخِيَاري المدني، المولود سنة ١٠٣٧ والمتوفى سنة ١٠٨٣ رحمه الله تعالى، فقد أورد أكثَرَ القصيدةِ فيه ٣: ٧٢، ونَسَبها إلى الإمام الشافعي محمد بن إدريس (خطأً منه)، وأورد فيها هذه الأبيات الثلاثة بعدَ قوله هناك: ولكن أهانوه، ثم أورَدَ بعدَها البيتين: وإني إذا ما فاتني، ولكن إذا ما جاء عفواً. وذكرتُ فيما تقدَّم قبلَ إيرادِ القصيدة عن تعليقةٍ على كتاب «المضنون به على غير أهله» أنَّ القصيدة تَبلغُ ٤٤ بيتاً، فهذه الأبيات منها، والله أعلم.

(٢) مُحَيَّاهُ: وجهُهُ. وتجهَّمَ: صار جَهْماً، وهو الكريهُ المنظر.

(٣) قوله: (الضُّرُّ)، أراد به هنا شِدَّةَ الإملاقِ والفاقة. و(مُنْجِداً): متجهاً جهةَ نَجْد، =

إلى أن أرَى ما لا أَغَصُّ بذكرِهِ إذا قلتُ: قد أَسدَى إليَّ وأَنعَمَا

قال التاج السبكي رحمه الله تعالى، بعدَ أن أَوردَ هذه القصيدةَ الفائقةَ العصماء، في ترجمة القاضي أبي الحسن الجُرجاني رحمه الله تعالى: «للّهِ هذا الشعرُ ما أبلغَهُ وأصْنَعَه! وما أعلَى على هَامِ الجَوْزَاءِ مَوْضِعَه! وما أنفَعَهُ لو سَمِعَهُ مَنْ سَمِعَه! وهكذا فليكُنْ ــ وإلاَّ فَلا ــ أدَبُ كلِّ فقيه، ولمِثْلِ هذا الناظمِ يَحسُنُ النظمُ الذي لا نظِيرَ لَهُ ولا شَبيه، وعند هذا يَنطِقُ المنصِفُ بعظيمِ الثناءِ على ذهنِهِ الخالِصِ لا بالتمويه».

= وهي بلاد كثيرة تقعُ تقريباً في شرقِ بلاد الحجاز من جزيرة العرب، ومنها مدينةُ الرياض الآن. و(مُتْهِماً): متجهاً جهة تِهَامَة، وهي بلاد كثيرة تقعُ في غرب جزيرة العرب، ومنها مكة والمدينة وجُدَّة. وهذا منه كناية عن التلفتِ إلى الناس يميناً وشِمالاً، بُغيَةَ أن يجد منهم من يَدفعُ عنه العَوَزَ والفقر.

يقول في هذين البيتين الأخيرين: إني لا أفعلُ ذلك، بل إني إذا نزل بي الضُّرُّ، وأطبَقَ عليَّ الإملاق لستُ ممن يَبيتُ الليالِيَ الطوالَ، ساهراً قَلِقاً مفكِّراً، باحثاً عمن يكشِفُ غُمَّتَهُ ويُزيلُ غُصَّتَهُ من الكرامِ النبلاء، الذين لا يجدُ الأَبيُّ غضاضةً في قبوله إسداءَ المعروف منهم، بل إني أشمَخُ وأعلُو بتجلُّدي وصبري فوقَ الشدةِ واللأواء، إعزازاً للعلم، وشَمَماً وإباءَ نفس.

وبات يُريني الخطبُ كيف اعتداؤُه وبِتُّ أُريهِ الصبرَ كيف يكونُ

خَاتِمَة

٣٤٥ ـ وبعد فهذه نُبَذٌ يسيرة من حياة علمائنا السابقين، وآبائنا المتقدمين نُدرِكُ منها: كيف كان عيشُ الكثيرين منهم، يتَدثَّرون الفقر، ويلتحفون الطَّوَى، ويأكلون الخشِنَ والقليلَ عُدْماً وفاقة، مع إظهار التجمُّل والغِنَى، ويمتطون المصاعبَ والشدائد، ويصبرون حتى يكادُ الصبرُ يتململُ من مُصابرتِهم له، كلُّ ذلك في سبيل العلم وتحصيله.

وكانوا يجمعون إلى ذلك في قرارةِ نفوسهم الرضا عن الله تعالى، والحمدَ والشكرَ له سبحانه، حتى كانوا القُدوةَ الصالحة لمن بعدهم من طلبة العلم وأهله، فرضي الله عنهم، وجزاهم عن العلم والدين والإسلام خيرَ الجزاء.

٣٤٦ ـ وأخلُصُ من هذا إلى بعضِ ما تفيدنا هذه الصفحات، من عِبَر وعظات، فأقول: هذه وقائع لَذَّ لنا دَرْسُها، وطاب لنا سَمْعُها، وعَظُمَ لدينا وَقْعُها، وتحمّلَهَا آباؤنا بصبرٍ ورضا، ابتغاءَ رضوان الله تعالى، وفي سبيل خدمةِ كتاب الله وسُنَّةِ رسوله وعلومهما، فكانت عِطراً يُطيَّبُ به تاريخُ العلم والعلماء في الإسلام، ويُشنَّفُ به سمْعُ الزمانِ على مَرِّ الأيام.

أولئك آبائي فجِئْني بمثلِهم ... إذا جمعَتْنا يا جَرِيرُ المَجامع

٣٤٧ ـ شهدنا في هذه الصفحات أخباراً عن صبر العلماء وشدائدِ حياتهم وما لاقَوْه في سبيل العلم والتحصيل، وليست هذه الصفحات على كثرتها إلا نَزْراً يسيراً من تاريخهم في هذا الجانب، وعلى قِلّةِ ما سمعنا أو قرأنا من أخبارهم، نُدرِكُ مَدَى ما بذَله علماءُ الإسلام في سبيل المعرفة والعلم، ومَدَى ما تحمّلوه من شدائِدَ ومِحَن وتضحيات، فهذه باقَةٌ من مكارم الآباء، تُهدَى إلى كِرام الأبناء(١).

(١) للأستاذ العالم الكبير الغيور على التراث الإسلامي، العلامة الدكتور محمد فؤاد =

٣٤٨ ــ شهدنا في هذه الصفحات: «الرِّحَالَ المُغِذَّةَ والمَطَايا المتموِّجَةَ، ما بينَ شَرْقِ المعمورة وغَرْبِها، وشِمالِها وجَنُوبِها، يَرْحَلُ هذا ليأخُذَ عن ذاك، ويَرحَلُ ذاك ليأخُذَ عن ذلك، مع بُعْدِ الشُّقَّةِ وغَوْلِ الطريق.

= سزكين، صاحبِ الكتابِ العظيم: «تاريخ التراث العربي»، كلمةٌ قالها في اللقاء الرابع لمنظمة النَّدْوَة العالَمِيَّةِ للشباب الإسلامي، في الرياض سنة ١٣٩٩، وجَّهها إلى الشَّابِّ المسلم، أَقطِفُ منها الجُملَ التالية:

«أيها الشَّابُّ المسلم:

أنت تَعرِفُ أنَّ الإسلامَ قد جاء في بيئةٍ قاسية، وفي قومٍ ذوي حضارةٍ كانت دُونَ مُستَوى الحضارةِ المُعاصِرةِ بكثير. وربما تتساءَلُ عن الدوافع الأصليةِ التي أدَّتْ إلى انتشارِ المجتَمعِ الإسلاميِّ خِلالَ قَرْن، من إيرانَ حتى الأَنْدَلُس، وإلى إنشاءِ أُمَّةٍ مُتعطِّشةٍ للعلم، رامِيَةٍ لأخذِ كل ما يُوجَدُ في العلومِ والمعارفِ لدى الأُمَم الأخرى.

ربما تكتفي بأن تُعلِّلَ هذا كلَّهُ بالدِّينِ الجديدِ بصورةٍ عامة، دون الاهتمام بما جاء به هذا الدينُ لِمُعْتَنِقِيه، مما أَدَّى إلى تعلُّقِ هؤلاءِ بالعلم، لقد أَعطى هذا الدينُ لمعتنقِهِ الثِّقَةَ بالنفس، والشُّعورَ بمسؤوليَّةِ الفَرْدِ تجاهَ المجتَمع، والتضحيَةَ والسَّعْيَ، للرفاهِيَةِ العامَّة، كما عَلَّمَ مُعْتَنِقَهُ الزُّهْدَ في الحياةِ المُتْرَفَة، وأعطاه المَبادىءَ التي تَصلُحُ لتحقيق هذا الهَدَف.

لقد طَلَب الدينُ أيضاً من الفَرْدِ تعلُّمَ ما وصَلَ إليه البشرُ من معرفة، وأَلحَّ في هذا الطلبِ بشدة، وكنتيجةٍ لهذا فقد شَهِدَ التاريخُ ــ ولمدةِ نصفِ قَرْنٍ بعدَ ظهور الإسلام ــ مُجتَمَعاً مُنهمِكاً في طلب العلم، وهو لا يَتعلَّمُ القراءةَ والكتابة فحسب، وإنما يتعلم كلَّ ما يتسنَّى له الحصولُ عليه من معارف وعلوم . . .

في هذا المجتمع: تطوَّرَ بعدَ مدةٍ قصيرةٍ نموذجٌ للعالِم: زاهدٌ في حياتِهِ الخاصَّة، سَخِيٌّ تجَاهَ غيره، حَرِيصٌ على المعرفة برغبةٍ للمعرفة لا تَشبع، واثقٌ بقُدْرَتِهِ على تحقيقِ أهدافٍ كبيرة في تعليم العلوم، وتنظيمِ المجتمع، وتذليلِ المصاعب التي تواجهه في شتى ظروفِ الحياة.

أيها الشاب المسلم:

لو دَرَستَ تاريخَ الحضارةِ لهذه الأمة في قرونها الأولى، لرأيتَ كيف أصبَحَ الدينُ الذي جاء نظاماً إلَهياً لتنظيم الحياة البشرية وإصلاحها ــ بعد فترةٍ قصيرة من ظهوره ــ مصحوباً بالعلم، إذْ حَكَم العلمُ في قُصُورِ الحُكَّام، وتحكَّمَ في خُطَبِ الخُطَبَاءِ ومواعظِ الوُعَّاظ. ولرأيتَ كيف كانت المساجدُ مراكزَ للعلوم ولطلب العلم.

ولو تعمَّقتَ في دراستِك للحياةِ الثقافية لهذا المجتمع، لرأيتَ كيف نشأَتْ هناك في أقلَّ من =

ويَحمِلُ كلُّ واحدٍ عن الآخَرِ أسفاراً سَمِعَها عليه، وقرأها قراءةَ تحقيقٍ إن طالَتْ المُلازَمَةُ منه للشيخ، فإن قَصُرَتْ الملازمةُ رَجَعَ بنُسَخٍ تَناوَلَها، أو على الأقلِّ بإجازةٍ عامَّةٍ أو خاصَّة أُعطِيَها، مع فوائدَ أقلُّها: روايةُ شَطْرِ بيتٍ، أو موعِظةٍ، أو طُرْفةٍ، أو مُشاهَدةٌ ذاتُ بال»[1].

٣٤٩ ــ شَهِدنا في هذه الصفحات أنَّ كثيراً من العلماءِ الذين مَلأَ طِيبُ ذِكرِهم المشارق والمغارب، وأوتوا مواهبَ ذاتيةً فَذَّة، وطاقاتٍ علميةً نادرة، وعبقريةً عجيبةً مُدْهِشَة، قد نَمَتْ فيهم هذه الفضائل، وتزايدت هذه المزايا، حينما شَعَرُوا أنهم يَبْذُلُونها

= قَرْنٍ ونصفٍ: بِيْئَةً علميَّةً أَدَبِيَّة، حيث تُؤخَذُ وتُترجَمُ علومُ الأجانب، وتُوضَعُ قوانينُ اللغةِ ومبادىءُ الكلامِ والصحبةِ والمراسلة، وحيث يَعِيش مجتمعٌ حضاري، ذُو مُسْتَوىً لم يُوجَد مثلُه آنذاك في أنحاءٍ أخرى من العالم.

ألم تقرأ في كتبِ ذاك العهد مثلاً: كيف أن شخصاً كبيرَ السِّنِّ، كان يَرحَلُ مع ابنِهِ أو حفيدِهِ، من جانب العالم الإسلامي إلى جانبِهِ الآخَر، من خراسان مثلاً إلى قرية بجوار البصرة، لِيَسمَعَ أو يتتلمذَ على عالمٍ مشهورٍ هناك. لم يكن الرجلُ المسلمُ يكتفي بما يُوجَدُ في بِيئتِهِ الخاصة، بل أراد أَخْذَ كلِّ ما يمكنه الحصولُ عليه من العلم، مُستَهيناً بالمصاعب، متخطياً للمشقَّاتِ في هذا السبيل.

كانت هذه الفضيلةُ عُنْصُراً بَنَّاءً للمجتمع الإسلامي، وكانت نتائجُ هذا التعطش للعلم هي الإنجازاتِ العلمية، التي لم تنحصر في بِيئةٍ محدودة، بل كانت عامَّة وأثَّرتْ في بِيئات أخرى، وقد استَمرَّ الأمرُ على ذلك مَدَى قُرونٍ عِدَّة.

لو دَرستَ الجوَّ السياسيَّ لتلك القرون، لرأيتَ أنه كان مضطرِباً ومملوءاً بالقَلَق، ومع ذلك فقد استمرَّ العِلْمُ في تطورِهِ السريع، لأنه كان يستند على أُسسٍ سليمة، مَكَثَتْ حتى عَهْدِ الركودِ في القرنِ الثامن بعدَ الهجرة، مما لم يَشعُر به العلماء والمسؤولون إلا بعدَ مضي قرون.

وأَوَدُّ أن أُشِيرَ إلى أنَّ تأثيرَ الحضارة الإسلامية على العالم الغَرْبي المسيحي، قد بدأ في القرن الرابع الهجري، مما أدَّى ــ بعدَ أخذِ علوم الحضارة الإسلامية والتقليدِ الواسع لمؤسَّساتِها المختلِفة ــ إلى بَدْءِ مرحلةٍ جديدة من العلم في القرن العاشر الهجري في أوروبا، بخُطَىً سريعة دون معرفةِ أسبابِ الركود في العالمِ الإسلامي».

(١) مقتبسة بحروفها من كلمة للأخ العالم الفاضل المحقِّق المتفنِّن الشيخ أبي عبد الرحمن بن عَقِيل الظاهري، في تقدمته للسِّفْرِ الأول من «الشروح والتعليقات على كُتُب الأحكام لعبد الحق الإشبيلي» ص ٥١.

في خدمةِ الشريعةِ وأتباعِها، ونُصرةِ الإسلامِ ونَشْرِه، فغَمَرهم شُعور الرِّضا، وشَرَفُ المَقْصِدِ والغاية.

ورأَوْا أنَّ ما هم عليه من الفقرِ والجُوعِ والنَّصَب، والتَّقَشُّفِ في الملبسِ والمَسْكَنِ: جُزْءٌ من النعيم العاجل، الذي لو عَلِمَ به الملوكُ لقاتلوهم عليه بالسيوف، فطابَتْ نفوسُهم، وجادَتْ مواهبُهم، ورأَوْا أنَّ الفَنَاءَ في هذه السبيل هو الطريقُ الأمثَلُ لرضوان الله، فللَّه دَرُّهم، وللَّهِ ما نالوا عاجلاً وآجلاً.

٣٥٠ــ وللحافظِ أبي بكر بن السُّنِّي (أحمد بن محمد الدِّيْنَوَرِي)، المولود في حدود سنة ٢٨٤، والمتوفى سنة ٣٦٤ رحمه الله تعالى، في كتابه: «القَنَاعة»[(١)]، هذه الأبياتُ:

رَضِيتُ مِن الدنيا بِقُوْتٍ يُقِيمُني ... فَلا أبتغي مِن بَعْدِهِ أبداً فَضْلا
ولستُ أَرُومُ القُوتَ إلا لأنَّهُ ... يُعِينُ على عِلْمٍ أَرُدُّ به جَهْلا
فما هذه الدنيا بطِيْب نَعِيمِها ... لِأَيْسَرَ ما في العِلْمِ مِن نُكتَةٍ عِدْلا

٣٥١ ــ وللإمام الهُمَام والعلامةِ الكبير، المحقِّق النِّحرير ذي التصانيفِ الكثيرةِ المنقَّحةِ المحقَّقة، شيخِ علومِ البلاغةِ والعربيةِ والمعقولِ في عصره، سَعْدِ الدين التفتازاني (مسعودِ بن عُمَر) المولود في تَفْتازَان بلدةٍ بنواحي نَسَا في خراسان سنة ٧١٢، والمتوفى بسَمَرْقَنْد سنة ٧٩٣ رحمه الله تعالى قولُه:

إذا خَاضَ في بَحْرِ التفكُّر خَاطِري ... على دُرَّةٍ مِن مُعْضِلاتِ المَطَالِبِ
حَقَرْتُ مُلوكَ الأرضِ في نَيْلِ ما حَوَوْا[(٢)] ... ونِلْتُ المُنَى بالكُتْبِ لا بالكَتَائبِ

وقد صَدَق في هذا وأجاد، وبيَّنَ أنَّ لَذَّةِ العلمِ فوقَ لَذَّةِ الحكم، وكشَفَ عن نَفْسٍ عالِمةٍ شامِخةٍ شَمَّاء، تَرَى مُلوكَ الأرض وما ملكوا دُونها، فلله دَرُّهُ ما أشَدَّ شَمَمَهُ! وما أغْلَى العِلْمَ والكُتُبَ عنده!

---

(١) ص ١٥.

(٢) في «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» للكنوي ص ١٥٧، في ترجمة القاضي أبـي جعفر النَّسَفِي (محمد بن أحمد)، المتوفى سنة ٤١٤ رحمه الله تعالى: «كان من أعيان الفقهاء، زاهداً وَرِعاً مُتَعفِّفاً فقيراً قَنُوعاً، يُحكَى أنه بات ليلةً مهموماً، من ضِيق البال وسُوءِ الحال وكثرةِ العِيال! فوقع في خاطره فَرْعٌ من فروع مذهبه، فأُعجِبَ به، فقام يَرقُصُ في دارِهِ ويقول: أين الملوكُ وأبناءُ الملوك؟! فسأَلَتْهُ زوجتُهُ فأخبرَها فتعجَّبَتْ».

٣٥٢ ـ شهدنا في هذه الصفحات: بطولات وتضحيات، وعزائم نافذات، وقعَتْ من أناس متباعدي الديار، مختلِفي البيئاتِ والأقطار، فيهمُ الأبيضُ والأسود[1]، والعربيُّ والعجمي، والشاميُّ والمصري، والخراسانيُّ والعراقي، والمشرقيُّ

(١) وأذكُرُ لك على سبيل النموذج هذين الخبرين، لطرافتِهما في نُبوغ بعض من كان أَسْوَدَ اللَّون، عالماً، متفوِّقاً، جامعاً لجملة من العلوم والفضائل:

١ ـ جاء في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ٥:٧٨، و«تذكرة الحفاظ» ١:٩٨، في ترجمة (عطاءِ بن أبي رَبَاح المَكِّي)، المولود سنة ٢٧ من الهجرة، والمتوفى سنة ١١٥ رحمه الله تعالى، وكان من سادات التابعين فقهاً، وعلماً، ووَرَعاً، وفضلاً ما يلي: «هو الإمام، شيخُ الإسلام، القُدْوَةُ، العَلَم، مفتي الحَرَم، أبو محمد القُرَشي مولاهم، المَكِّي، وكان أَسْوَدَ مُفَلْفِلاً ـ شديدَ جعودةِ الشعر ـ ، فصيحاً، كثيرَ العلم، قال أبو حنيفة: ما رأيتُ أحداً أفضَلَ من عطاء».

وجاء في «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٧:٢٠٠ «قال أبو داود: كان أبو عطاءٍ نُوْبِيّاً ـ من بلاد النُّوْبَة من الجزء الجنوبي من بلاد مصر، وكان أهلُ النُّوبةِ نَصَارى يُجلَبُون إلى مِصرَ فيُباعُون بها ـ ، وكان يَعمَلُ المَكاتِل ـ أي الزنابيل ـ ، قال ابنُ معين: وكان عطاءٌ مُعَلِّمَ كُتَّاب. قال ابنُ المديني: هو مَوْلَى حَبِيْبَة بنتِ مَيْسَرة بنِ أَبي خُثَيْم.

وقال ابن سعد: «كان من مُوَلَّدِي الجَنَد ـ بلدةٍ باليَمَن ـ ، ونشأ بمكة، سمعتُ بعضَ أهل العلم يقول: كان عطاءٌ أسوَدَ، أعوَرَ، أفطَسَ، أشَلَّ، أعرَجَ، ثم عَمِيَ بَعْدُ ـ سِتَّةُ عُيوبٍ فقط! ـ ، وكان ثقةً، فقيهاً، عالماً، كثيرَ الحديث». وقُطِعَتْ يدُهُ مع ابن الزبير في حرب الحجَّاج. وكان في زمن بني أمية يَصيحُ المنادي في مكة أيامَ الحج: لا يُفتِي الناسَ إلا عطاء. وكان المسجدُ فِراشَ عطاءٍ عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاةً».

٢ ـ وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت ٤:٥١، و«الوافي بالوفَيَات» للصَّفَدِي ٧:٢٢٠ وما بعدها، في ترجمة القاضي الرشيد بن الزُّبَيْر (أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزُّبَير) الغَسَّاني، الأَسْوَاني المصري، القاضي الرشيد أبي الحُسَين، أو: أبي الحَسَن، وكان يُلقَّبُ بالرشيد، المتوفى سنة ٥٦٢ رحمه الله تعالى، ما يلي: «كان من أفرادِ الدهر فضلاً في فنونٍ كثيرة من العلوم، كان كاتباً، شاعراً، فقيهاً، نَحْوياً، لغوياً، مُنْشِئاً، عَرُوضياً، مَنْطِقياً، مؤرِّخاً، مهندساً، طبيباً، موسيقاراً، مُنَجِّماً ـ أي فَلَكِيّاً ـ ، متفنِّناً، وله تآليفُ، ونَظْمٌ، ونَثْر، التَحَق فيها بالأوائلِ المُجِيدِين، ومَوْلِدُهُ في أُسوان وهي بلدةٌ من صَعِيد مصر، وهاجَرَ منها إلى مصر فأقام بها، واتصل بمُلوكِها، ومدَحَ وزراءَها، وتقدَّمَ عندهم. =

والمغربي[1].

وهي تُعرِّفنا أنَّ نَيْلَ المقاماتِ العِلمية الرفيعة، لا يقتصر على جنس دون جنس، ولا بلد دون بلد، ولا لون دون لون، ولا عِرق دون عِرق، ولا قوم دون قوم، بل كل من جَدَّ واجتهد، ودأَبَ واصطبر، وتَفرَّغ وأَقْبَل: نال وارتفع بقدر جِدِّهِ ومَواهبِه

= ومن بليغ شِعرِهِ رحمه الله تعالى هذان البيتان الفريدان العجيبان:

ولو لم يَزِد إحسانُهُمْ وجَميلُهمْ ... على البِرّ من أهلي حَسِبتُهُم أهلي
إن كان عندكَ يا زمانُ بقيةٌ ... مما تُهِينُ به الكرامَ فهاتِها

وكان على جلالتِهِ وفضلِه، ومنزلتِهِ من العلم قبيحَ المنظر، أسوَدَ الجِلدةِ، جَهْمَ الوَجْهِ، سَمْجَ الخِلْقَة ــ أي بَشِعَها ــ، ذا شَفَةٍ غليظة، وأَنْفٍ مبسوط، كخِلْقَةِ الزُّنوج، قصيراً.

قال ياقوت: حدثني الشريف أبو عبد الله محمد بن أبي محمدٍ العزيزُ الإدريسيُّ الحَسَنيُّ الصعيديُّ، عن أبيه، قال:

كنتُ أنا والرشيدُ بنُ الزُّبَيْر والفقيهُ سُلَيمانُ الدَّيْلَمِي، نجتمعُ بالقاهرة في منزلٍ واحد، فغاب عنا الرشيدُ، وطال انتظارُنا له، وكان ذلك في عُنْفُوانِ شبابِه، وإبَّانِ صِباهُ، وهُبُوبِ صَباه، فجاءنا وقد مَضَى معظمُ النهار، فقلنا له: ما أَبطأَ بك عنا؟ فتبسَّمَ وقال: لا تسألوا عما جَرَى عليَّ اليوم.

فقلنا: لا بُدَّ من ذلك، فتمنَّعَ، وألححنا عليه فقال: مررتُ اليومَ بالموضع الفلاني، وإذا امرأةٌ شابَّةٌ صَبيحةُ الوجه، وَضِيئَةُ المنظر، حُسَّانَةُ الخَلْق ــ أي بالغةُ الحُسن جداً ــ، ظريفةُ الشمائل، فلما رأتني، نَظرَتْ إليَّ نَظَرَ مُطْمِعٍ لي في نفسِه، فتوهَّمتُ أنني وقعتُ منها بموقعٍ، ونَسِيتُ نفسي!!

وأشارَتْ إليَّ بطَرْفِها، فتبِعْتُها وهي تَدخُلُ في سِكَّةٍ وتَخرجُ من أخرى، حتى دخلَتْ داراً، وأشارَتْ إليَّ فدخلتُ، ورفَعَتْ النِّقَابَ عن وجهٍ كالقمر في ليلةِ تَمامِه، ثم صَفَّقَتْ بيَدَيْها مُنَادِيةً: يا سِتَّ الدار، فنزلَتْ إليها طِفلةٌ كأنها فِلْقَةُ قَمَر، وقالت لها: إنْ رَجَعْتِ تَبُولِين في الفِراش، تَرَكتُ سيدَنا القاضيَ يأكُلُكِ.

ثم التَفَتَتْ إليَّ وقالت: لا أعدَمَني الله فَضْلَ سيدِنا القاضي، أدام الله عِزَّهُ، فخرجتُ وأنا خَزْيَانُ خَجِلٌ لا أهتدي إلى الطريق!». ومن العلماءِ السُّودِ سعيدُ بنُ جُبَير والقارىءُ نافعُ المدني.

(١) ومن غريبِ الاتفاق، وجميلِ المصادفاتِ بين الرِّفاق، ما حكاه القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفَيَات الأعيان وأَنباءِ أبناءِ الزمان» ١ :٤٩٣، في ترجمة إمام أهل العربية في عصره (ابنِ الأعرابي): أبي عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، الكوفي، اللغوي النَّحْوِي النَّسَّابةِ الراويةِ =

وفضلِ الله عليه. فالمقاماتُ والمكارمُ العالية لا تُنال إلا بالاجتهادِ والدَّأب، ومتابعةِ الجِدّ والطَّلَب، كما قال:

فقُلْ لمُرَجِّي مَعَالي الأُمورِ بغيرِ اجتهادٍ: رَجَوْتَ المُحالا!

وقد وَقَعَتْ منهم هذه الوقائع المتشابهة والمتوافقة، على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم، وتباعُدِ أزمانهم وأوطانهم، ولكن الناظر في أخبارهم لا يَلمحُ لهذه المفارقات أيَّ أثَر، ذلك لأنَّ الإسلام هو الذي سَوَّاهم فأحسنَ تسويتَهم، وصقَلَهم فوحَّدَ سِيرتهم، وكوَّنَهم هذا التكوينَ الفريدَ العجيب، ولسانُ حالِ كلِّ واحدٍ منهم يقول:

أبِي الإسلامُ لا أبَ لي سِوَاهُ إذا افتَخروا بقَيْسٍ أو تميمِ

= الأديب البارع، المولود سنة ١٥٠، والمتوفى سنة ٢٣١ رحمه الله تعالى.

قال ابنُ خلكان: «وكان يَحضُرُ مجلسَه خَلْقٌ كثيرٌ من المستفيدين، ويُملي عليهم، قال أبو العباس ثعلب: شاهَدتُ مجلسَ ابنِ الأعرابي، وكان يَحضُرُه زُهاءُ مِئةِ إنسان، وكان يُسألُ ويُقرَأ عليه، فيُجيبُ من غيرِ كتاب، ولَزِمتُه بِضْعَ عَشْرَةَ سنةً ما رأيتُ بيدِهِ كتاباً قط، ولقد أَملَى على الناس ما يُحمَل على أجمال، ولم يُرَ أحَدٌ في علم الشعرِ أغزَرُ منه.

ورأى في مجلسه يوماً رجلين يتحادثان، فقال لأحدِهما: مِن أين أنت؟ فقال: من إَسْبِيجاب ــ مدينةٍ في أقصى بلادِ المشرق ــ، وقال للآخَرِ: مِن أين أنت؟ فقال: من الأندلُس ــ أقصى بلادِ المغرب ــ، فعَجِب من ذلك وأنشد:

رَفِيْقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهْرُ بينَنَا وقد يَلْتَقِي الشَّتَّى فيَأْتَلِفَانِ

ثم أملَى على مَنْ حضرَ مجلسَه بَقِيةَ الأبيات، وهي:

نَزَلْنا على قَيسيَّةٍ يَمَنيَّةٍ لها نَسَبٌ في الصَّالِحين هِجَانِ
فقالَتْ وأَرْخَتْ جانبَ السِّتْر بيننا لِأيَّةِ أرضٍ أَمْ مَنِ الرجُلانِ
فقلتُ لها: أمَّا رَفِيقي فقَوْمُهُ تَمِيمٌ وأمَّا أُسْرَتي فيَماني
رَفِيقانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهرُ بينَنَا وقد يَلتَقِي الشَّتَّى فيَأتَلِفانِ».

فالتَقى المَشْرِقيُّ الأقصى والمَغْرِبيُّ الأقصى، في (الكوفة) من قلب العراق، فسبحان جامع القلوب والأشواق، ومقدِّرِ اللقاءِ والاتفاق.

و (إسبيجاب) ضبطَها ياقوت في «معجم البلدان» بفتح الهمزَة، وضبَطها ابن خلكان بكسرها. و (امرأة هِجَانٌ: كريمةُ الحَسَب نَقِيَّته، عَقِيلَةُ قومها).

٣٥٣ ــ شهدنا في هذه الصفحات: الرِّحلةَ في طلبِ الحديث الواحد فقط، وفي طلبِ الحديثِ خاصَّةً، وفي طلبِ العلمِ عامَّة، في زمانٍ كلُّ حركةٍ فيه للسفر، تحتَاجُ إلى الجَلَدِ والصَّبْرِ وتحمُّلِ المشاقِّ وقَطْعِ المسافاتِ البعيدة، على الأقدامِ أو الراحلةِ التي ما يَنفكُّ الراكبُ لها عن تَعَبٍ ونَصَبٍ وعَطَب!

يا رُبَّ سَارٍ بَاتَ ما تَوَسَّدَا ... إلا ذِرَاعَ العَنْسِ أو كَفَّ اليَدَا[١]

أو كما قال أُعجوبةُ الحِفظِ والفضائل بديعُ الزمان الهَمَذَاني:

كَنَفِي بَعِيري إن ظَعَنْتُ ومفْرَشِي ... كُمِّي، وجُنْحُ اللَّيْلِ مَطْرَحُ هَوْدَجِي

والرحلةُ في طلب العلم على الصِّفةِ التي قام بها السلف، هي من مزايا وخصائصِ هذه الأمة المحمدية، ولم يُعهَد في الناس قَبْلَ الإسلام مثلُها، وكانت من أوَّلِ يوم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لمَّا رَحَل إليه مالكُ بن الحُوَيْرِث ومعه شَبَبَةٌ متقاربون، فأقاموا عند رسول الله عشرين ليلة[٢].

---

(١) هذا البيتُ من شواهد النحو، على أنَّ لفظَ (يَا) حَرْفُ تنبيهٍ، ولم يُعلمْ قائلُه. ويُروَى: (إلا ذِرَاعَ العِيْسِ). والروايةُ الأولى أعلى. والعَنْسُ بفتح العين، وسكون النونِ بعدَها: النَّاقَةُ الصُّلْبَة. والعِيْسُ بكسر العين، وسكونِ الياء المثناة بعدَها: الإبِلُ التي يُخالِطُ بياضَها شُقْرَة. ولفظةُ (رُبَّ) هنا للتكثير، و(الساري) الذي يمشي مُسافِراً ليلاً.

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» ولفظُهُ: «عن مالك بن الحُوَيْرِث، قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عندَهُ عشرين ليلة، فظنَّ أنا اشتَقْنا أهلَنا، وسألَنَا عمن تركنا في أهلِنا فأخبرناه، وكان رَقِيقاً رحيماً، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم، ومُرُوهم، وصَلُّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرَتْ الصلاةُ فليؤذِّنْ لكم أحدُكم، ثم لِيَؤُمَّكم أكبرُكم».

رواه البخاري رحمه الله تعالى في تسعة مواضع من صحيحه:

١ ــ في كتاب الأذان ٢ : ١١٠ (باب من قال: ليؤذِّنْ في السفر واحد). ٢ ــ ٣ ــ فيه أيضاً ٢ : ١١١ (باب الأذانِ للمسافِرِ إذا كانوا جماعة والإقامةِ). أورده من طريقين. ٤ ــ فيه أيضاً ٢ : ١٤٢ (باب اثنانِ فما فوقهما جماعة). ٥ ــ فيه أيضاً ٢ : ١٧٠ (باب إذا استووا في القراءة فليؤمَّهم أكبرُهم). ٦ ــ فيه أيضاً ٢ : ٣٠٠ (باب المُكْثِ بين السجدتين). ٧ ــ في كتاب الجهاد =

ثم رَحَلَ جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري من المدينة المنورة إلى دمشق لعبد الله بن أُنَيس الأنصاري رضي الله عنهما، ورَحَلَ أبو أيوب الأنصاريُّ من المدينة إلى مصر لعُقْبَةَ بن عامر رضي الله عنهما[١]، وهكذا غيرُهما وغيرُهم، إلى الذين دَوَّن الحافظُ الخطيبُ البغدادي أخبارَ رِحلتِهم من المحدِّثين، الذين رحلوا في تحصيل حديثٍ واحدٍ وسماعِهِ من راويه، في كتابه: «الرحلة في طلب الحديث».

إلى الذين طَفَحَتْ بأخبار ارتحالِهم كتبُ الرجالِ والتاريخِ والسِّيَر، حتى صارَتْ الرحلةُ أساساً في شَرْطِ الثقةِ بالعالم وفَهْمِه، فقالوا الكلمةَ المتداولةَ المتوارَثةَ: من لم يَرْحَل فلا ثِقَةَ بعلمِه.

٣٥٤ ــ شهدنا في هذه الصفحات أنَّ مرحلةَ تحصيل العلم مرحلةٌ صعبةٌ شاقة جداً، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتَنحسِرُ أمامها عَزَماتُ الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذُ الأبطال، ممن كان مُغرَماً بالعلم، ذائقاً لذَّتَه، عازماً على تحصيله ولو لَقِي في سبيله الألاقيَّ! غيرَ مستسلم للكَسَلِ والتواني، فقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: من أطاع التواني ضَيَّعَ الحقوق.

والعلمُ منقولُه ومعقولُه، في تحصيلِهِ مَشَاقٌّ وصعوباتٌ كثيرةٌ في فهمِهِ وحفظِهِ وإتقانِه، لأنَّ كلَّ علم له صِلةٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ بعلمٍ آخَر، فالعلومُ شجرةٌ ذاتُ أغصانٍ متشابكة وأفنانٍ متعانقة، لا يُمكنُ أن يُتقِنَ المرءُ علماً منها دُونَ أن يُلِمَّ أو يُتقِنَ ما يتصِلُ به[٢].

= ٦ :٥٣ (باب سَفَرِ الاثنين). ٨ ــ في كتاب الأدب ١٠ :٤٣٧ (باب رحمةِ الناسِ والبهائم).
٩ ــ في كتاب أخبار الآحاد ١٣ :٢٣١ (باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذانِ والصلاةِ والصومِ والفرائض). والرواية المذكورة هنا من كتاب الأدب.

(١) كما رَوَى البخاريُّ في «صحيحه» ١ :١٧٣، خبرَ جابر بن عبد الله، في كتاب العلم (باب الخروج ــ أي السَّفَر ــ في طلب العلم)، وكما حَكَى الحافظُ ابن حجر خبرَ أبي أيوب الأنصاري، في الباب نفسه، من «فتح الباري» ١ :١٧٥. وكتابُ «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب مطبوع.

(٢) قال الحافظُ الدَّلَجيُّ أحمدُ بنُ عليّ المصري رحمه الله تعالى، في كتابه «الفلاكة والمفلوكون» أي الفقر والفقراء ص ٤١ «الكتابُ والسنةُ والحُكمُ الشرعيُّ مُفْتَقِرٌ إلى العلوم بأَسْرِها، =

٣٥٥ ـ شهدنا في هذه الصفحات رجالَ العلم وطُلّابَه يواجهون الفقرَ والإملاقَ تارة، والعُرْيَ والجُوعَ والعطشَ تارةً أخرى، والعَقَباتِ والنوائبَ حيناً آخر، وشَهِدنا في هذه الصفحات بعضَ أئمة العلم والدين يُطالعُ العلمَ في الليل على ضوء سِراج الحارس، لفقدِهِ المالَ لشراء زيت السِّراج!

= وبيانُه:

أنه بالنظر إلى اللفظِ المُفْرَدِ الذي يُستَدَلُّ به، وصِحَّتِهِ في حالِ إفرادِهِ، يَفتقِرُ إلى عِلمِ الصَّرْف، وبالنظر في صِحةِ التركيب يَفتقِرُ إلى علم النحو، وفي تطبيق اللفظِ على مدلوله يَفتقِرُ إلى علم اللغة، وفي إظهارِهِ وإضمارِهِ وتقديمِهِ وتأخيرِهِ ونحوِها ـ مما يَرجعُ إلى مُطابَقَةِ اللفظِ لمقتَضَى الحال ـ إلى علم المَعَاني، وفي حقيقتِهِ ومَجازِهِ وكنايتِهِ واستعارتِهِ ونحوِها: إلى علم البديع، وبالنظر إلى إيرادِ المعنى الواحدِ في طُرُقٍ مختلِفةٍ في وضوح الدلالة: إلى علم البيان.

وبالنظر إلى خاصِّهِ وعامِّهِ ومُطْلَقِهِ ومُقَيَّده ومُجمَلِهِ ونحوِ ذلك: إلى علم أصول الفقه، وفي مواقعِ القرآنِ إلى أسبابِ النزول، وفي استيضاح مَعَانيهِ إلى علم التفسير، وفي نزولِهِ على حروفٍ متعددة إلى علم القراءات، وفي الاستدلالِ به وترتيبِ الأدلة إلى علم المنطقِ والجَدَل وآدابِ البحث، وفي الأحكامِ المستفادةِ منه وبواسطتِهِ إلى علمِ الفقه، وفي استنباط الفقه إلى علمِ أصول الفقه.

وإنَّ النظرَ في السُّنَّةِ يَستلزِمُ عِلْمَ روايةِ السنة، وحِفظَها، وعلمَ الحديث، والناسخِ والمنسوخ، وأسماءِ الرواة وكُنَاهُم وألقابِهم ومُشْتَبِهِ أنسابِهم، وجَرْحِهم وتعديلِهم ووَفَيَاتِهم والأخبارَ والقِصَص، وإنَّ النظر في الشارعِ الحكيم سبحانه يفتقر إلى علم الكلام.

ثم إنَّ العلوم مربوطٌ بعضُها ببعض ومتعلِّق به، إمَّا على سبيلِ الاستلزام أو على سبيلِ الاستمداد. وهذه العلومُ المذكورةُ تستلزِمُ جملةً من علوم الحكماء والأوائل ولو بواسطةٍ أو وسائط، كاستلزامِ الفقهِ بواسطةِ الفرائض والإقراراتِ المجهولة: علمَ الحساب، وهو الارتماطيقي، وعلمَ الجبرِ والمقابَلَة، وبواسطةِ اختلاف أحكام الوصية وما في معناها بالمَرَضِ المخوفِ وغيره وإباحةِ التيمم بالمَرَض ونحوِه إلى علم الطب.

وكاستلزامِ علم الكلام للطبيعة والرياضةِ والمنطقِ، وكاستلزام تعيين معرفةِ القِبلة وهو من الفقه عِلمَ طائفةٍ من الهَيْئة، وكذلك معرفةُ دخولِ الوقت. واستلزامِ الاستشهادِ بالشعر في النحو والتفسير عِلمَ العروض. وعلى هذا المِنوالِ قِسْ سائرَ العلوم تجدها مُرتَبِطةً بعضُها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد». انتهى ملخصاً ومصححاً ما فيه من تصحيف.

وشَهِدنا فيهم من يَقنعُ بوَرَقِ الكُرْنُب يَعيشُ عليه في سبيل العلم، ولديه من العقل والذكاء ما لو صرَفه لتحصيل المال والغِنى، لغُمِرَ بالمال غَمْراً ولكان من أغنى الناس يداً، ولكنه آثَرَ الفقرَ على الغنى من أجل تحصيل العلم، وشهدنا فيهم من يقنع برائحة الخبز يَشَمُّها يَتغذَّى بها، ومن يتناول الأيامَ الطوالَ حشيشَ الأرض ومنبوذَ القُمامات يقتاتُ به!(١).

(١) قال العلامة المحققُ الأستاذ عباس حسن في مقدمة كتابه البديع «النحو الوافي» ١ : ٢، وهو يَتحدَّثُ عن جانبٍ من جهود العلماءِ النُّحَاةِ ــ فقط ــ في إنشاءِ علم النحو وتقعيدِهِ وتَدْوِينِه:

«فليس عَجِيباً أن يَتفرَّغ له العباقرةُ من أسلافنا، يَجمعون أصولَه، ويُثْبِتُون قواعدَه، ويَرفعون بُنْيَانَه، شامخاً ركيناً، في إخلاصٍ نادر، وصبرٍ لا يَنفَد.

ولقد كان الزمانُ يَجري عليهم بما يَجري على غيرهم، من مَرَضٍ وضعفٍ وفَقْر، فلا يَقدِرُ على انتزاعِهم مما هم فيه، كما كان يَقدِرُ على سواهم، وكان الزمنُ لا يَنجَحُ في إغرائهم بمَبَاهِجِ الحياة، كما كان يَنْجَحُ في إغراءِ ضِعافِ العزائم ومَرْضَى النفوس، من طلابِ المَغَانم ورُوَّادِ المَطامِع.

ولقد يَترقَّبُهم أولياؤُهم وأهلُوهم الساعاتِ الطوال، بل قد يَترصَّدُهم الموتُ، فلا يَقَعُ عليهم إلا في حَلْقةِ دَرْس، أو قَاعَةِ بَحْث، أو جَلْسَةِ تأليف، أو مَيْدانِ مناظرة، أو رِحلةٍ مُخْطِرة في طلب النحو.

والموتُ حينَ يَظْفَر بهم، لا يَنتزِعُ عِلمَهم معهم، ولا يَذهَبُ بآثارهم بذهابِ أرواحِهم، إذْ كانوا يُعِدُّون لهذا اليوم عُدَّتَهُ مِن قَبْلُ، فيدوِّنون بُحوثَهم، ويُسجِّلون قواعدَهم، ويختارون خُلَفاءَ من تلاميذهم، يُهيئونهم لهذا الأمرِ العظيم، ويُشرِفون على تَنْشِئَتِهم وتَعَدُّدِ مَواهِبِهم، إشرافَ الأستاذِ البارع القدير على التلميذِ الوفيِّ الأمين.

حتى إذا جاء أَجَلُهم، وَدَّعُوا الدنيا بنَفْسٍ مطمئنة، واثقةٍ أنَّ مَيْدانَ الإنشاءِ والتعمير النَّحْوي لم يَخْلُ من فُرْسَانِه، وأنهم خلَّفوا وراءَهم خَلَفاً صالحاً يَسِيرُ على الدرب، ويَحتَذِي المِثال، وربما كان أسعدَ حَظَّاً وأوفرَ نُجْحاً من سابِقيه، وأسرَعَ إدراكاً لما لم يُدركه الأوائل.

على هذا النَّهْجِ الرفيع تعاقَبَتْ طوائفُ النحاة، وتوالَتْ زُمَرُهم في مَيْدانِه، وتَلَقَّى الرايةَ نابغٌ عن نابغ، وأَلْمَعيٌّ إثْرَ أَلْمَعِيّ، وتسابَقُوا مُخْلِصين دائِبين، فُرادَى وزَرَافات، في إقامةِ صَرْحِهِ وتشييدِ أركانِه، فأقاموه سامِقَ البناء، وَطِيدَ الدِّعَامَة، مَكِينَ الأساس، حتى وَصَل إلى أهلِ العصور الحديثة، التي يُسمُّونها: عُصورَ النهضة راسخاً قوياً، من فَرْطِ ما اعتَنَى به الأسلاف، =

بل لقد جَعَل بعضُ أئمةِ العلمِ منهم الجُوعَ ونسيانَ الجوعِ في سبيلِ العلم: شرْطاً لحصول لَذَّة العلم، فكان أبو الحسن المازنيُّ البصريُّ (النَّضْر بن شُمَيل) اللغويُّ المحدِّثُ الحافظُ الإمام في العربيةِ والحديثِ والأدبِ والشعرِ المتقدم ذكره(١) يقول: لا يَجِدُ الرجلُ لَذَّةَ العلمِ حتى يَجوعَ ويَنسَى جُوعَه. نقله الحافظ الذهبي في ترجمته في «تذكرة الحفاظ»(٢).

٣٥٦ ــ شهدنا كلَّ هذا وأمثالَه ينتابُ أولئك الرجالَ خَدَمَةَ الشريعةِ والدين، فما وَنَتْ هِمَمُهم، ولا استكانَتْ عزائمُهم، ولا اختلَّتْ موازينُ الحقِّ والعلم والدين بين أيديهم، بل كانوا أحرصَ الناس على دينهم، وأرعى الناس لأماناتهم، فما تأثّروا بتلك الشدائد والأزَمات التي تأخُذُ بالأنفاسِ والتلابيب، في آرائهم واستنباطاتهم وأحكامهم

= ووَجَّهوا إليه بالغَ الرِّعَاية، فاستَحَقُّوا منا عَظِيمَ التقدير وخالدَ الثناء». انتهى.

قال عبد الفتاح: هذه كُلَيْمةٌ وجيزة، وإشارةٌ خاطفة إلى جُهودِ النُّحَاةِ فقط، وما كانوا عليه، وما لاقَوْهُ في سبيلِ تدوينِ النحو، فما بالُك بجُهُودِ غيرهم من الألوف المؤلَّفة، من المفسِّرين والرُّواةِ والمحدِّثين والمتكلِّمين والفقهاءِ واللُّغويين والأدباءِ والمؤرِّخين...، الذين تقدَّمَ الإلماعُ في هذه الصفحات إلى بعضِ ما لَقُوه في سبيلِ تحصيل علومِهم وتدوينها، من جُوع وعُرْي وفَقْر ومُكابَدَات!

وللأستاذ العلامة الفاضل الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله تعالى، مقالةٌ منشورةٌ في (مجلة كلية اللغة العربية) بالرياضِ، ص ١٧٩ ــ ٢٣٩ من العدد الحادي عشر لسنة ١٤٠١، بعنوان «فقه اللغة العربية بين الأصالة والتغريب» جاء فيها قولُه في ص ١٩٦:

«وها هنا شيءٌ يعتقده المسلمُ لا يُنازِعُهُ فيه شك، وهو أن الذين صانوا العربية، ووضعوا لها القواعدَ التي حَفِظَتْها طَوالَ هذه القرون، وأقامَتْ ألْسِنَةَ الناطقين بها على سَنَنِها: كانوا يَعمَلُون بهدايةٍ من الله ورعايةٍ وتوفيق. ــ قلتُ: بل كلُّ رُوَّادِ علوم الشريعة وأدواتِها كانوا يعملون كذلك ــ. لأنهم كانوا الأدواتِ والوسائلَ إلى تحقيقِ وَعْدِه الصادقِ النافِذ، الذي لا يَعُوقُ نَفَاذَهُ شيء، في قوله تعالى: ﴿إنَّا نحن نزَّلْنا الذكرَ وإنَّا له لَحافظون﴾. وهل يكونُ حِفظُهُ إلا بحفظِ لُغَتِه؟

هذا أمْرٌ لا صِلةَ له بمناهج البحثِ ومنطقِ الفكر، لأنه يَنزِلُ من المُسْلِم مَنزلةَ العقيدةِ المُسَلَّمةِ التي لا تَحتاجُ إلى بُرهان، ولا يُنازِعُهُ فيها شك، مهما كان رأيُ غيرِ المسلمين فيه، ومهما خَطَر على بالِهِ من وساوِسَ وهواجِسَ تدعو إلى اطِّراحِهِ أو التهوينِ من شأنِه».

(١) في الخبر ١٦٩. (٢) ١: ٣١٤. وسبق نقلُه في المقطع ١٢٨ ص ١٤٧.

على غيرهم من الناس، أغنياءَ كانوا أو فقراء، أصدقاء كانوا أو أعداءا، ولا قَبِلُوا مع شِدَّةِ فَقْرِهم: المالَ الوفيرَ يُعرَضُ عليهم، ليضعوا في كتبهم أنها أُلِّفَتْ باسمِ مَلِكٍ أو أمير(١).

٣٥٧ ــ شهدنا في هذه الصفحات: أن علوم الإسلام العظيم، لم تُدوَّن على ضفافِ الأنهار، وتحت ظلال الأشجار والأثمار، وإنما دُوِّنَتْ باللحم والدم وظمأ الهواجر، وسَهَرِ الليالي على السِّراج الذي لا يكاد يُضيءُ نفسَه، وفي ظِلّ العُرْي والجُوعِ وبيعِ الثياب، وانقطاعِ النفقة في بلد الاغتراب، والرِّحَلِ المتواصلةِ المتلاحقة، والمشاقِّ الناصبةِ المتعانقة، والصبرِ على أهوال الأسفار، وملاقاةِ الخطوبِ والأخطار، والتيهِ في البِيْد والغَرَقِ في البحار، وفَقْدِ الكتب العزيزة الغاليةِ والأسفار، وحُلولِ الأمراض والأسقام، مع البعد عن الأهلِ والزوجةِ والأولادِ والدار! ومفارقةِ الأقارب والأحباب والأصحاب ونقدِ الاستقرار، فلسانُ حالِ كثيرٍ منهم يقول:

بــالشــامِ أهــلي وبغــدادُ الهَــوَى وأنــا ... بــالـرَّقْمَتَــيْنِ وبـالفُسْــطَاطِ خُــلَّاني!

فما أثَّرَ كلُّ ذلك في أمانةِ علمِ أهلها، وما نقَص من مَتانةِ دينهم، وما وهَنَ من قُوَّةِ شكيمتهم، وما خَضَعَتْهُم الضَّائِقةُ الخانقةُ ــ مع قَسْوتِها ــ إلى قبولِ الذلِّ والهوان.

---

(١) جاء في «معجم الأدباء» ٧:١٣٦ و«وفَيَات الأعيان» ١:٣٠٠، في ترجمة الإمام أبي غالب تمَّامِ بنِ غالب بن عُمَر الأندلسي اللغوي، يُعرف بابن التَّيَّان أو ابن التيَّاني، المتوفى سنة ٤٣٦ رحمه الله تعالى: «ذكره الحُمَيديُّ فقال: كان إماماً في اللغة، وثِقةً في إيرادِها، مذكوراً بالديانة والورع، مات في المَرِيَّة من بلاد الأندلس.

وله كتاب جامعٌ في اللغة، سمّاه «تلقيحَ العَيْن»، جَمُّ الإفادة، لم يؤلَّف مثلُهُ اختصاراً وإكثاراً، وله فيه قِصَّةٌ تَدُلُّ على دِينِهِ مَعَ علمِه، وذلك أنَّ الأميرَ أبا الجَيْش، مُجاهِدَ بنَ عبدِ الله العامِري، وَجَّهَ إلى الإمام أبي غالب هذا ــ أيامَ غَلَبتِهِ على مُرْسِيَة، وأبو غالبٍ ساكنٌ بها ــ ألفَ دينارٍ أندَلُسِيَّة، على أن يَزيدَ في ترجمة هذا الكتاب ــ أي في مقدِّمتِهِ ــ: مِمَّا أَلَّفَهُ تَمَّامُ بنُ غالبٍ لأبي الجَيْشِ مُجاهِد.

فرَدَّ الدنانيرَ ولم يَفعَلْ، وقال: واللّهِ لو بَذَلَ لي مِلءَ الدنيا ما فَعَلتُ، ولا استَجَزْتُ الكذبَ، فإني لم أجمعه له خاصةً، لكن لكلِّ طالِبٍ عامَّةً، قال الحُمَيدي: فاَعجَبْ لِهِمَّةِ هذا الرئيسِ وعُلوِّها، واَعجَبْ لنَفْسِ هذا العالِمِ ونزاهتِها». انتهى.

قال أبو نَصْر أَحمدُ بن علي الزَّوْزَني رحمه الله تعالى:

ولا أقبَلُ الدنيا جميعاً بذِلَّةٍ ولا أَشْتَري عِزَّ المَراتبِ بالذُّلِّ
وأَعشَقُ كَحْلاءَ المَدامعِ خِلْقَةً لئلا تُرَى في عَيْنِها مِنَّةُ الكُحْلِ

٣٥٨ ــ شهدنا من هذه الصفحات أن المكارم والمعالي، مَنوطةٌ بالمكاره والمصاعب، ومَحفوفةٌ بالعَقَبات الصَّعْداء، لا يُعْبَرُ إليها إلا على جِسرٍ من المشقة والتعب، ولا تُقْطَعُ فَيافِيها إلا على راحلةِ الجدِّ والنَّصَب، وكما قال التابعي الجليل الإمام يحيى بن أبي كثير: لا يُستطاعُ العِلمُ براحة الجسم، كما رواه عنه الإمام مسلم في «صحيحه»(١).

فمن طمَحَتْ نفسُه إلى مَراقي هؤلاء الأئمة، فواجبٌ عليه أن يَسِيرَ على المَحَجّة التي سلكوها، ويَخوضَ الغَمَراتِ التي خاضوها، وهي في ابتدائها لا تنفك عن ضُروب المشقة والكراهية والتأذّي، ولكن متى أُكرِهَتْ النفسُ عليها، وسِيقَتْ طائعةً أو مُكرَهةً إليها: صَبَرَتْ على لأوَائِها وشِدَّتِها، واستلانَتْ ما استَوعَرَهُ غيرُ أبناء بَجْدَتِها، وأَفضَتْ من رِحْلتِها هذه إلى رياضٍ مُونِقَة، ومقاعِدِ صِدْقٍ رفيعةٍ متألِّقةٍ، ومَقامٍ كريم، ونعيمٍ مُقيم، تجدُ كلَّ لذة كانت بَلَغَتْها قبل لذة هذا المقام: مثل لذَّةِ لَعِبِ الصبيّ بالعُصفور، بالنسبة إلى لَذَّات الملوك وأرباب القُصور، كما قال:

وكنتُ أرَى أنْ قد تناهَى بي الهوى إلى غايةٍ ما بعدَها لِيَ مَذْهَبُ
فلما تلاقَيْنا وعايَنْتُ حُسنَها تيقَّنْتُ أني إنما كُنتُ أَلعَبُ!

٣٥٩ ــ شهدنا من هذه الصفحات: أن طالب العلم إذا بذَلَ جهدَه في الطلب والتحصيل، وتحمّلَ المشاقَّ والمتاعب، وغالبَ الصِّعابَ والعقبات، لا يُخيِّبُ الله مَسعاه، ولا يَهضمُ الناسُ حقَّه، ولا يَتخلّفُ عنه التفوُّقُ والنبوغُ، فالنبوغُ صبرٌ طويل، كما قال الهُذَليّ:

(١) في كتاب الصلاة في (باب أوقات الصلوات الخمس) ٥:١١٣ بشرح الإمام النووي.

وإنَّ سِيادَةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لها صَعْداءُ مَطْلَعُها طويلُ[1]

أما من تَرجَّى الأماني، وصاحَبَ التواني، واستروَحَ الراحة، واستَحْلَى الرفاهِيَة، واستلَذَّ المطاعم، واستَجْمَل الملابس، واستَحبَّ النومَ الطويل، وشَغَلَتْهُ تقلباتُ الفصول عن الأخذِ والتحصيل، فما أبعَدَ العلمَ منه، وما أنفَرَهُ عنه! قال الإمامُ ابنُ فارس اللغويُّ رحمه الله تعالى:

إذا كان يُؤْذِيكَ حَرُّ المَصِيفِ ويُبْسُ الخَرِيفِ وبَرْدُ الشِّتَا
ويُلْهِيك حُسنُ زَمَانِ الرَّبيعِ فأخْذُكَ للعِلْمِ قُلْ لِي متى؟!

وذاك الذي يَصدُقُ عليه قولُ الشاعر الحُطَيْئَة:

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِها واقعُدْ فإنك أنت الطاعِمُ الكاسِي!

ويَدخُلُ أيضاً تحت قولِ القائل:

خَلَقَ اللَّهُ للحُرُوبِ رجالاً ورجالاً لِقَصْعَةٍ وثَرِيدِ!

٣٦٠ ــ شَهِدنا في هذه الصفحات أنَّ كثرةً بالغةً من العلماءِ البارزين، والأعلامِ المشهورين، قد نَبَغُوا من بينِ أُسَرِ الحِرَفيين والرِّيفيين، والناسِ المغمورين، والفقراءِ المُعْدِمين، كما تَدلُّ على ذلك انتساباتُهم التي عُرِفوا بها، للحِرَفِ كالنَّجّار، والحَدَّاد، والصَّبَّاغ، والقصَّار، والكَوَّاء، والخَبَّاز، والسَّمَّان، واللَّحَّام، والجَزَّار، والقَصَّاب، والرَّوَّاس، والسَّمَّاك، والقُدُوري، والقَفَّال... أو للقُرَى والبُلدانِ الصغيرةِ كالبابي، والتاذفي، والسَّفِيري، والسُّبْكي، والدَّلَجي، والجِبْريني و...

وذلك أن الإسلام الحنيف، أتاح العلمَ لكل متعلِّم، حينما جَعَل طلبَ العِلمِ عِبادة، وقرَّرَهُ في ضِمنِ التكاليفِ الشرعية: «طَلَبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم»، وجَعَل تعليمَه عِبادةً أيضاً، وشَرَعَهُ مَجّاناً مُباحَ الحضورِ والسماعِ والتحمُّلِ لمن شاء، إذْ كانت ــ على الأغلب الأكثر ــ المساجدُ بُيُوتُ الله تعالى هي مَقَرَّ التعلُّم والتعليم،

---

(١) أي لها طريق عالية يشتد صعُودُها على الراقي، فلا تُبلَغُ إلا بالدأب المتواصل والصبر الطويل.

ويَستطيع كلُّ مسلمٍ دخولَها والإفادةَ من الدروسِ التي تُلقَى فيها، دُونَ حَجْبٍ أو مَنْع أو تمييزٍ بين أبيضَ وأسوَدَ وبَلَديّ وغريب، بل عليه دخولُها كلَّ يوم خمسَ مرات.

«أقولُ هذا، في الوقت الذي اقتَصَرَتْ فيه المعاهدُ العلمية عند كثير من الأمم ــ ومنهم الأوروبيون ــ في هذه الأعْصُر، على فِئاتٍ مُعَيَّنةٍ من الناس، متميِّزةٍ باللونِ أو بالعِرق أو بالانتماءِ المكاني»(١).

٣٦١ ــ شَهِدنا في هذه الصفحات أنَّ الشدائد ــ مهما تعاظَمَتْ وامتدَّتْ ــ ، لا تدومُ على أصحابها، ولا تُخلَّدُ على مُصَابِها، بل إنها أقوى ما تكونُ اشتداداً وامتداداً واسْوِداداً، أقربُ ما تكونُ انقِشَاعاً وانفراجاً وانبلاجاً، عن يُسْرٍ ومَلاءة، وفَرَج وهَنَاءة، وحَيَاةٍ رَخِيَّة مُشْرِقةٍ وضَّاءة، فيأتي العونُ من اللّهِ والإحسان، عند ذِرْوَةِ الشِّدَّةِ والامتحان، وهكذا نهايةُ كلِّ ليلٍ غاسِق، فَجْرٌ صادِق.

فما هي إلا ساعَةٌ ثم تنقضي ... ويَحمَدُ غِبَّ السَّيْرِ مَنْ هو سائرُ

*****

إذا تضايَقَ أمْرٌ فانتظِرْ فَرَجاً ... فأضيَقُ الأمرِ أدناهُ إلى الفَرَجِ (٢)

---

(١) هذا المقطع مقتبس من كلام الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، في تقديمه لكتاب «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ١:١٣٨.

(٢) أورد المؤرِّخ الأديب أحمد بن يوسف الكاتب المصري، المعروفُ بابنِ الدَّايَة، المتوفى سنة ٣٤٠ رحمه الله تعالى، في كتابه المُعجِبِ الفريد: «المكافأة وحُسْن العُقْبَى»: أخباراً عجيبة في (المكافأة على الحَسَن)، ثم أخباراً مِثْلَها في (المكافأة على القَبِيح)، ثم قال في ص ١٠٥ ــ ١٠٦ مُمهِّداً للبابِ الثالثِ من الكتاب، وهو (حُسْنُ العُقْبَى) أي العاقِبَة:

«وقد عَلِمَ الإنسانُ أن سُفُورَ الحالة ــ أي انكشافَ الغُمَّةِ والشِّدَّةِ ــ عن ضِدِّها: حَتْمٌ لا بُدَّ منه، كما عَلِمَ أنَّ انجلاءَ الليلِ يُسفِرُ عن النهار، ولكنَّ خَوَرَ الطبيعةِ أشَدُّ ما يُلازِمُ النَّفْسَ عند نُزولِ الكَوَارِث، فإذا لم تُعالَج بالدَّوَاء، اشْتَدَّتْ العِلَّة، وازدادَتْ المِحْنَة، لأنَّ النَّفْسَ إذا لم تُعَنْ عندَ الشدائدِ بما يُجدِّدُ قُوَاها، تولَّى عليها اليَأْسُ فأهلكها.

والتفكُّرُ في أخبار هذا الباب ــ باب أخبارِ مَنْ ابتُلِيَ فصَبَر، فكان ثَمَرةُ صَبْرِهِ حُسْنَ العُقْبَى ــ مما يُشجِّعُ النَّفْسَ ويَبعَثُها على مُلازمةِ الصَّبْرِ وحُسنِ الأدَبِ مع الرَّبِّ عزَّ وجل، بحُسْنِ الظنِّ في مُواتاةِ الإحسان، عند نِهايةِ الامتحان». انتهى. =

٣٦٢ ــ شهدنا في هذه الصفحات من بدأ حياته فقيراً مُعْوِزاً، لا يَملِكُ من الدنيا شيئاً! فما اخضرَّ عِذارُه، وطَرَّ شاربُه إلا وهو الإمامُ المقدَّمُ في الأمّة، والمرجعُ الموثّق عند الناس في دينهم وشريعتهم، وقد فُتِحَتْ عليه أبواب الخير والرزق من كل جانب.

وهذه سُنّة مطّردة في الحياة، أنَّ «من كانت بدايتُه مُحرِقة، كانت نهايتُه مُشرِقة»، وأنَّ من جوَّدَ وأحكم ما يزاوله في أمرِ الدين أو أمرِ الدنيا نَجَح وأفلح، فكيف بطالب

= وقد صَدَق رحمه الله تعالى، ثم أَورَد في (باب حُسن العُقْبى) أخباراً ووقائع كان أوّلُها شِدَّةً حالكة وظلاماً مُدْلَهِمّاً على أصحابها، وآخِرُها صُبْحاً مُنِيراً ونَعِيماً غامراً لهم، فأثبتَ صِحَّةَ قولِهِ: (إنَّ مُوَاتَاةَ الإحسان، عند نِهايةِ الامتحان). ثم قال في آخر الكتاب:

«خاتمة: قال بُزرْجِمْهر: الشدائدُ قَبْلَ المواهبِ، تُشبِهُ الجُوعَ قبلَ الطعام، يَحسُنُ بهِ مَوْقِعُهُ، ويَلَذُّ معَهُ تناوُلُه.

وقال أفلاطُن: الشدائدُ تُصْلِحُ من النفسِ بمقدارِ ما تُفسِدُ من العَيْش، والتَّرَّف ــ أي التَّرَفُ والترفُّهُ ــ يُفسِدُ من النفسِ بمقدارِ ما يُصلِحُ من العيش.

وقال أيضاً: حافِظْ على كلِّ صديقٍ أهدَتْهُ إليك الشدائدُ، والْهُ عن كلِّ صديقٍ أَهْدَتْهُ إليك النِّعْمة.

وقال أيضاً: التَّرَفُّهُ كالليل: لا تتأمَّلْ فيه ما تُصدِرُهُ أو تتَنَاوَلُهُ، والشِّدَّةُ كالنهار: تَرَى فيها سَعْيَك وسَعْيَ غيرِك.

وقال أَرْدَشِير: الشِّدَّة كُحْلٌ تَرى بهِ ما لا تَرَاهُ بالنِّعمة.

قال أبو جعفر ــ المؤلِّفُ ــ: ومِلاكُ مَصْلَحةِ الأمرِ في الشِّدةِ شيئان، أصغرُهما قُوَّةُ قَلْبِ صاحبِها على ما يَنُوبُه، وأعظمُها حُسْنُ تفويضِهِ إلى مالكِهِ ورازِقِه. وإذا صَمَدَ الرجلُ ــ أي توجَّهَ ــ بفِكرِهِ نحوَ خالِقِه، عَلِمَ أنه لم يَمتحنه إلا بما يُوجِبُ له مَثُوبة، أو يُمَحِّصُ عنه كبيرة، وهو مع هذا من اللّهِ في أرباحٍ متصلة، وفوائِدَ متتابعة.

فأمّا إذا اشتَدَّ فِكْرُهُ تِلقاءَ الخَلِيقة، كَثُرَتْ رذائلُهُ، وزاد تَصَنُّعُه، وبَرِمَ بمُقامِهِ فيما قَصَّرَ عن تأميله، واستطالَ من المِحَنِ ما عَسَى أن يَنقضِي في يومه، وخافَ من المكروهِ ما لعلَّهُ أن يُخطِئَه.

وإنما تَصدُقُ المُناجاةُ بين الرجلِ وبين رَبِّه، لعِلْمِه بما في السَّرائر، وتأييدِهِ البصائر، وهي بين الرجلِ وبين أشباهِهِ كثيرةُ الأذيَّة، خارجةٌ عن المصلحة.

ولِلّهِ تعالى رَوْحٌ يأتي عند اليأس منه، يُصيبُ به من يشاءُ من خَلْقِه، وإليه الرغبةُ في تقريبِ الفَرَج، وتَسْهيلِ الأمر، والرُّجوعِ إلى أفضلِ ما تطاوَلَ إليه السُّؤل، وهو حسبي ونعم الوكيل».

العلم الذي تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتَها رِضاءً بما يصنع، فإن عون الله لا يتخلف عنه، بل ما أسرَعَه منه.

٣٦٣ ــ شهدنا في هذه الصفحات دروساً في الصبر على الشدائد والمكاره والفقر والعُدْم والعُرْي والضِّيق، فينبغي أن نتعلم منها: البُعْدَ عن النفاقِ والتملقِ إذا أملقنا، فإن الله هو الرزّاقُ ذو القوة المتين، ونتعلّمَ منها: أن الصبر على الحق، والتضحيةَ في سبيله، هما مفتاحُ العون الإلهي والإمداد السماوي للعالم الصالح.

٣٦٤ ــ شهدنا في هذه الصفحات أن العِفّة عن المال من يد الحُكّام، سببٌ لاستنارةِ البصائر، وانبساطِ اللسانِ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضْعِ القبول في الأرض، فالحلالُ الطيِّبُ القليل أرضى لله، وأبرَكُ على صاحبه، وأصلَحُ في سلوكه، من الكثير المدخول.

٣٦٥ ــ شهدنا من هذه الصفحات أن الذي يتعفّف عن الحرام أو المشبوه مع شِدَّة الحاجةِ والفقر، يُعوِّضُه الله الطيِّبَ الطاهرَ الحلال، فيأكل طيِّباً، ويقول طيِّباً، ويجعلُ الله في كلامه النفعَ والقبول، والخيرَ المثمِرَ للناس، ويكون كلامُه شفاءً للقلوب وبلسماً للأرواح.

٣٦٦ ــ شهدنا من هذه الصفحات أن العلم يُذكَرُ أهلُه على وجه الدهر، ولو كانوا في حياتهم فقراءَ مُعوِزين، وإذا كان العُدْمُ لحِقَ بهم، فإنما لحِقَ بهم في مظاهر الحياة الماضية الزائلة، ولكنهم عاشوا بعد موتهم أغنياءَ بالذكر الحسَن، والسِّيرةِ العَطِرة، وكانوا القدوة الحسنة لمن بعدهم في التذرُّع بالصبر عند الشدائد، فلم يزالوا بذلك أحياءً في الناس وإن ماتوا، ولم يَفُتْ التخلُّقُ بأخلاقِهم الحميدةِ وإن فاتوا:

جَمالَ ذي الأرض كانوا في الحياةِ وهُم   بَعْدَ المماتِ جَمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

وكما قال الآخر:

يَموتُ قومٌ فيُحيي العِلمُ ذِكرَهُم   والجهلُ يُلحِقُ أمواتاً بأمواتِ!

٣٦٧ ــ شهدنا في هذه الصفحات: من العلماءِ مَنْ بَذَلَ الأموالَ الوفيرة، والألوفَ المؤلَّفَةَ من الدراهم والدنانير، في سبيل نَيْلِ العلم وتحصيلِه، وتمتينِهِ وتأصيلِه،

وشِراءِ كُتُبِهِ وأدَوَاتِه، ولِأسفارِهِ من أجلِهِ ورِحْلاتِه، ورأى ما بَذَلَهُ من عزيزِ المالِ وغاليهِ وغزيرِهِ ــ مع ركوب الأسفارِ والأخطار ــ رخيصاً قليلاً زهيداً، بمُقابِل ما حَصَّلَ من العلمِ والمعرفة ولقاءِ العلماء، فاختارَ الفقرَ مع العلم، وكان أَحبَّ إليه من الغِنَى واليَسارِ مع الجهل، تمييزاً منه ومعرفةً بالنفيس والرخيص، و «من عَرَف ما يَطلُب، هان عليه ما يَبْذُل»(١).

والعلمُ أغلَى ما يُبَاعُ ويُوهَبُ

٣٦٨ ــ شهدنا في هذه الصفحات: من تَرْكَ المُتَعَ المباحَةَ الحلال، والملذَّاتِ المشروعةَ المُحَبَّبة، وانهَمَك في العلم تحصيلاً وتعليماً، وتدويناً وتَلْقِيناً، فكان لا يُؤثِرُ على العلم لَذَّةً ولا أُنْساً، ولا طعاماً، ولا شراباً، ولا زَوْجةً ولا تَسَرِّياً، ولا قريباً ولا حَبِيباً، ولا راحةَ بَدَن، ولا ضَجْعةَ فِراشٍ إلا لِمَاماً.

أيقَظَ ليلَهُ، وأدأَب نهارَهُ، ونَفْسُهُ لا تَشبَعُ من العلم، ولا تَروَى من المُطالَعَة، ولا تَمَلُّ من الاشتغال، ولا تَكِلُّ من البحثِ والتعمُّق، يَنامُ على العلم إذا نام، ويَستيقظُ على العلم إذا قام، فكان العِلمُ سَمِيرَ قَلْبه، ولَزِيمَ لُبِّه على الدَّوَام، وأوَّلَ شيءٍ عنده في اليَقظَةِ وآخِرَ شَيءٍ عنده في المنام.

وذلك كما قال الشاعرُ الحَمَاسِيُّ، في محبوبتِهِ التي آغتَرَقَتْهُ جَنَاناً وزماناً، وشُعوراً ووِجْداناً، فلم يكن في قلبه سِواها، ولا يَمُرُّ بخاطرِهِ غيرُها، وإنما هي منه: الظاهرُ والباطنُ واليقظَةُ والمنام:

أآخِرُ شيْءٍ أنتِ في كلِّ هَجْعَةٍ! ... وأوَّلُ شيْءٍ أنتِ عِندَ هُبُوبي!

ومن كان العلمُ عنده بهذه المنزلة، جاء بالعجائب، وحَظِيَ بالرغَائب، وغدَا في الناسِ إماماً، وخُلِّدَ له الذكرُ الحَسَنُ في الآخِرين، والمآثِرُ الباقياتُ الصالحات في الغابرين.

---

(١) قالها الإمام تقي الدين السُّبْكي رحمه الله تعالى، في مقدمة كتابه «الإبهاج في شرح المنهاج» ١ : ١٠، من كتب أصول الفقه.

٣٦٩ ــ شهدنا في هذه الصفحات ثُلَّةً كبيرةً من العلماءِ الكبارِ العقلاء، والأئمةِ الفقهاءِ النبلاء، والمفسِّرين والمحدِّثين، واللغويين والنحويين، والأدباءِ والمؤرِّخين. . . ، قد عَزَفُوا عن الزَّوَاج وقد تيسَّر لهم، إذْ رَأَوْهُ شاغلاً لهم عن الازديادِ من العلمِ والتحصيل، فارتَضَوْا العُزوبةَ وصُعُوباتِها ومَشَاقَّها، في سِنِّ الشبابِ والكهولةِ والشيخوخة، لأنهم يَفرُغُون بها للعلم أكثَرَ مما يَفرُغُ المشغولون بأمرِ الزوجةِ والوَلَدِ وما يتصِلُ بحقوقهما ورعايتهما، فكانوا بذلك أهلَ إيثارٍ لغيرهم على أنفُسِهم، بما تحمَّلوا وتجمَّلوا وصَبَرُوا، وبما تركوا من الآثار العلميةِ الباقية، فرضِيَ الله عنهم، وتقبَّلَ منهم.

٣٧٠ ــ شهدنا في هذه الصفحات غَلاءَ الوقتِ وقيمةَ الزمن عند العلماء السابقين، فقد قسَّمُوا أوقاتَهم تقسيماً دقيقاً، للطعامِ والمنام، ولأداءِ الفرائضِ والنوافل، والتهجُّد والقيام، والتحصيلِ والتعليم، والمطالعةِ والتأليف، مع تَرْكِ الأشغالِ اليومية، والأعمالِ الدنيوية، والرِّضا بالعيشِ الخَشِن، والدُّوْنِ من الطعامِ والشرابِ واللِّباسِ والمَسْكَن. . . ، حِرصاً على التفرُّغِ للعلم، وعلى كسبِ الوقتِ فيه، لأنَّ العلمَ عندهم أعزُّ مطلوب وأعظمُ مرغوب.

فوجدوا تَرْكَ المَلذَّاتِ والراحاتِ في سبيل تحصيلِ العلم: أطيَبَ الملذَّات، وأغنَم المستحبَّات، ففَرِحُوا بما يُفَرِّغُهم للحبيبِ المعشوقِ ولو كان في ذلك إرهاقُ الأجسام، وحِرمانُ الراحةِ والمنام، وإسهارُ الليلِ وتفويتُ أطايبِ الشراب والطعام، فنَفَعُوا بآثارِهم مَنْ بعدَهم، وأسدَوْا المعروفَ إلى مَنْ خَلْفَهم، فطَابَ منهم الذكر، وكَثُرَ لهم الشكر، وأُجزِلَ لهم الأجر.

٣٧١ ــ شهدنا في هذه الصفحات أنَّ العِلمَ الحقَّ يأخذه الناس من عالمِهِ وحافِظِه، دون تمييز بين أن يكون ذلك العالِمُ من سادات البيوتات، أو من الموالي الذين أَعتَقَتْهم السادات، فالعِلمُ في ذاته شَرَفٌ وسيادة، ونسَبٌ رفيعٌ لحامِلِهِ وشهادة، فبعدَ ثبوت الأمانة من ناقلِه، لا يُلتفَتُ إلى عنصره أو جنسه، أَو كونه حُرّاً أو رقيقاً، أو مَولىً أو مُعتَقاً، أو فقيراً أو غنياً، أو مُتقشِّفاً أو مُتبسِّطاً أو مخشوشِناً. فالعِلْمُ سُدَّةٌ رفيعة تُحنَى لها الجباه، وحَكَمٌ عَدْل يَخضَع له المتكبرون والكُبَراء، والمُلُوكُ والعُظَماء:

إنَّ المُلوكَ لَيحكمُون على الوَرى　　　وعلى المُلوكِ لَتحكُمُ العُلَماءُ

ورحم الله تعالى الإمامَ ابنَ القيِّم إذ قال في كتابه «مفتاح دارِ السعادة»[١]: «سُلْطانُ العِلم أعظَمُ من سُلطانِ اليَدِ، ولهذا يَنقادُ الناسُ للحُجَّةِ ما لا ينقادون لليَدِ، فإنَّ الحُجَّةَ تنقادُ لها القلوب، وأمَّا اليَدُ فإنما ينقادُ لها البَدَن، فالحُجَّةُ تأسِرُ القَلْبَ وتَقُودُهُ، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهر العِنَادَ والمُكابرةَ فقَلْبُهُ خاضِعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحت سلطانها.

بل سُلطانُ الجاهِ إن لم يكن معه عِلمٌ يُسَاسُ به، فهو بمنزلةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسُودِ ونحوِها، قُدْرَةٌ بلا علمٍ ولا رحمة، بخلاف سُلطانِ الحُجَّة، فإنه قُدْرَةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحِكمة، ومن لم يكن له اقتدارٌ في علمِهِ فهو إمَّا لِضعفِ حُجَّتِهِ وسُلطانِه، وإما لقَهْرِ سُلطانِ اليد والسيفِ له، وإلا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفْسَها، ظاهرة على الباطل، قاهرةٌ له».

٣٧٢ ــ شهدنا في هذه الصفحات: المفارقةَ الكبيرةَ بين حالِنا اليوم وحالِ طلاب العلم في القديم، فقد كانوا يضربون آباطَ الإبل، ويقطعون الفيافيَ والقِفارَ في الليالي والهواجر مشياً على الأقدام، ويقعون في المتاعب والمهالك حتى يَلقَوْا عالماً، أو يَسمعوا محدِّثاً، أو يأخذوا عن فقيه، أو يتلقَّوا من أديب.

كلُّ ذلك يكون منهم وهم صامتون، فلا تشهد منهم غرورَ المغرورين، وانتفاخَ المدَّعين، الذين اغتروا بالشهادات والألقاب، كالذي تُبلَى به من بعض الناس اليوم[٢]،

---

(١) ص ٦٤.

(٢) قال الإمام أبو الحسن الماوردي رحمه الله تعالى، في كتابه النافع العظيم: «أدب الدنيا والدين» ص ٨١ «قلَّما تَجدُ بالعِلْم مُعْجَباً، وبما أدركَهُ مُفتَخِراً، إلا من كان فيه مقِلاًّ ومُقَصِّراً، لأنه قد يَجهَلُ قَدْرَه، ويَحسَبُ أنه نالَ بالدخولِ فيه أكثَرَه!

فأمَّا من كان فيه متوجِّهاً، ومنه مستكثِراً، فهو يَعلَمُ مِن بُعْدِ غايتِه، والعَجْزِ عن إدراكِ نهايتِه، ما يَصُدُّهُ عن العُجْبِ به، وقد قال الشعبيُّ: العِلْمُ ثلاثَةُ أشبار، فمن نالَ منه شِبْراً شَمَخَ بأنْفِه، وظنَّ أنه نالَهُ!! ومن نالَ منه الشِّبْرَ الثاني صَغُرَتْ إليه نَفْسُه، وعَلِمَ أنه لم يَنَلْهُ. وأما الشِّبْرُ الثالثُ فهيهاتِ! لا يَنالُهُ أحدٌ أبداً». انتهى. =

وقد أُوتوا ــ رحمهم الله ــ من دِقّة العلم وكثرته وإتقانه ما يَبهر الأنظار، ويَخضع لعظمته ومَتَانته وتحقيقه واستيعابِه المُجِدُّون المنصفون ذوو الألباب، فدَوَّنوا كلَّ ذلك، بصَمْتِ العابد، وتواضُعِ العالم، وأمانةِ الفَطِن الصالح الدقيق البصير، الذي لا يُفرِّطُ في قِير ولا قِطْمير(١).

= وأنصَفَ وصَدَق بعضُ المعاصرين، إذْ حَكَى حالَهُ عند بَدْءِ دخولِهِ الكلية، وعند انتهاءِ دراستِهِ فيها:

وَدَخلتُ فيها جاهِلاً مُتَواضِعاً   وخَرجتُ منها جاهِلاً مغرورا

وفي رواية:

وخَرجتُ منها جاهِلاً دكتورا

ولقد ظَنَّ أولئك النفرُ الذين مُنِحوا تلك الألقابَ: شِراءً، أو استجداءً، أو استغلالاً لمنصِبٍ تسلَّقُوه دون استحقاق، أنهم بمجرَّدِ مَنْحِها لهم قد حَصَّلوا العلم، وخَرَجُوا من الجهل، فاللَّقَبُ هو المُهمُّ، وقد فازوا به!

(١) وأُحبُّ أن أُطلِعَك على صورةٍ صادقة من الموازنة بين جُهود المُجِدِّين النابهين المعترفين منا اليوم، وجهودِ بعض أئمة العلم الذين جاوَزَ تعدادُ مؤلفاتِهم المئةَ، مثلِ الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله تعالى، لتَشهدَ منها حالَ المدَّعين منا المتطاولين! على الأئمة العباقرة الماضين.

قال العالِم الثَّبْت المتقِن المتتبِّع الأستاذ سعيد الأفغاني، عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً، في مقدمته التي كتبها لترجمة (السيدة عائشة رضي الله عنها)، المستخرجة من كتاب «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، قال حفظه الله تعالى: ما يلي:

«ترجم السيدةَ عائشةَ كثيرون من أعلام المؤرِّخين، إلا أن هذا المَصْدَر: (سِيَر النبلاء) يَتفرَّدُ بمزايا ليسَتْ في مصدرٍ آخر، إنها ترجمةٌ فَنِّية من الوِجهة الحَدِيثية». ثم أشار إلى عِظم جهود المحدِّثين وبالغِ تفنُّنِهم في خدمةِ التاريخ في الحضارة الإسلامية بما يُدهِشُ الألباب، إلى أن قال:

«ولكي يخرجَ القارىءُ بفكرة مُجملةٍ عَجْلَى عن المجهود العظيم المُعْجز، الذي قام به المحدِّثون، وخاصةً الذهبيَّ في «سِيَر النبلاء»، أذكرُ أن الإمام الزركشي في كتابه عن السيدة عائشة: «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»، ذَكَر من الرواة عنها: اثنَيْ عَشَر راوياً، وأني أَضفتُ عليهم نحواً من ثمانين راوياً. جمعتُ أسماءَهم في أعوامٍ متطاولة، بعد الاطِّلاع على كتب الطبقات المخطوطة والمطبوعة، وعلى مصادر كثيرة جداً، حتى التي لا يُظَنُّ أن يكون فيها شيء عن السيدة عائشة، فأوصلتُ بعد هذا العَناء: عدَدَ الرواةِ عنها إلى التسعين، وأنا أرى أني أتيتُ بما =

واليومَ ــ والحمدُ لله ــ تيسّرَتْ السُّبُل، ولانَتْ الوسائل، ودنا القاصي والبعيد وطُويت أبعادُ الزمان والمكان، ومع هذا اليُسرِ كلّه: وَنَتْ الهِمَم، وفَترَتْ العزائم، وضَعُفَ الإنتاج، وغاب النبوغ، والحالُ في العلوم الإسلامية وأهلِها إلى ما تَرى!

ومع هذا: كثُرَ في الناس اليومَ المدَّعون، أصحابُ «التعالُم»، الذين هَمُّهم إظهارُ علمِهم وتعالُمِهم، وتجهيلُ السلف! وادِّعاءُ الاجتهاد بكثرةِ الشَّطَطِ والشذوذِ ورَغْوَةِ الكلام، ظناً منهم أن الرغوةَ في الكلام، والتعالُمَ، وكثرةَ التجريح والتقبيح: عُنوانُ التفوُّقِ العلمي على من تقدَّمَ ومن سيأتي![1].

= لم يأت به الأوَّلون ولا الآخِرون!

ولكنني لم أكَدْ أقرأ هذه الرسالة للذهبي، وأَراه قد زاد على هؤلاء التسعين نحوَ المئة! وأَدهشني أنه أورَدَ أسماءَهم مرتبةً على الحروف. . . ! أقول: لم أكد أجِدُ ذلك، حتى انطَفَأ فيَّ ذلك الزَّهْوُ المُنْتَفِخ، وعَرفتُ أني وأُلُوفاً من أمثالي! مهما جَهَدْنا لا نَبلُغُ أن نكون من أصغرِ تلاميذِ مُؤرِّخينا من أهل الحديث، لقد وَقَفُوا أنفسَهم على خدمة العلم، فأخلصوا له الخِدمة، فآتاهم الله في ذلك المُعجِزات» ــ يعني به العجائب المدهشة ــ .

وقال العلامة الأديب الكبير والمحقق الضليع أحَدُ أركانِ العلم بالعربية وآدابها في هذا العصر الأستاذ محمود شاكر حفظه الله تعالى، في مقدمته لتفسير الإمام ابن جرير الطبري الذي قام بتحقيقه وخدمته خيرَ قيام ص ١٣ «ونحن أهلُ زمانٍ أُوتُوا من العَجْزِ والتهاوُن! أضعافَ ما أُوتيَ أسلافُهم من الجِدِّ والقُوَّة!».

(١) قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، في كتابه «فَضْلُ علم السلف على علم الخلف» ص ٢٦ و٢٨ و٤٧ «وقد فُتِنَ كثير من المتأخرين بهذا ــ أي بكثرة الكلام ــ ، فظنوا أنَّ من كَثُر كلامُهُ وجدالُهُ وخِصامُهُ في مسائل الدين فهو أعلمُ ممن ليس كذلك! وهذا جهلٌ محض.

وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر وعمر ــ وعثمان ــ وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت، كيف كانوا: كلامُهم أقلُّ من كلام ابن عباس، وهم أعلَمُ منه.

وكذلك كلامُ التابعين أكثرُ من كلام الصحابة، والصحابةُ أعلَمُ منهم. وكذلك تابعو التابعين كلامُهم أكثَرُ من كلام التابعين، والتابعون أعلَمُ منهم.

فليس العلمُ بكثرةِ الرواية، ولا بكثرةِ المقال، ولكنه نُورٌ يُقذَفُ في القلب، يَفهَمُ به العبدُ الحقَّ، ويُميِّزُ به بينه وبين الباطل، ويُعبِّرُ عن ذلك بعباراتٍ وجيزةٍ مُحصِّلةٍ للمقاصد. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أُوتيَ جوامعَ الكَلم، واختُصِرَ له الكلامُ اختصاراً، ولهذا وَرَد النهيُ عن كثرةِ =

. . . .

= الكلامِ، والتوسُّعِ في القِيلِ والقال.

وقد ابتُلِينا بجَهَلةٍ من الناس! يعتقدون في بعض من توسَّع في القول من المتأخرين ــ لعله يعني به شيخَ الإسلام ابنَ تيمية رحمه الله تعالى ــ أنه أعلَمُ ممن تقدَّم، فمنهم من يَظُنُّ في شخصٍ ــ لعلها: في شخصِهِ ــ أنه أعلَمُ مِن كلٍّ من تقدَّم من الصحابة ومَنْ بعدَهم، لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقولُ: هو أعلَمُ من الفقهاءِ المشهورين المتبوعين.

وهذا يَلزمُ منه ما قبلَه، لأنَّ هؤلاء الفقهاءَ المشهورين المتبوعين أكثَرُ قولاً ممن كان قبلَهم، فإذا كان من بعدَهم أعلَمَ منهم لاتساعِ قولِه، كانوا هم أعلَمَ ممن كان أقلَّ منهم قولاً بطريقِ الأولى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطَبقتِهم وممن قبلَهم من التابعين والصحابةِ أيضاً، فإن هؤلاء كلَّهم أقلُّ كلاماً ممن جاء بعدَهم.

وهذا تنقُّصٌ عظيم بالسلف الصالح، وإساءَةُ ظَنٍّ بهم، ونسبةٌ لهم إلى الجهلِ وقصورِ العلم! ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولقد صَدَق ابنُ مسعود رضي الله عنه في قوله في الصحابة: إنهم أبَرُّ الأُمَّةِ قلوباً، وأعمقُها عِلماً، وأقلُّها تكلُّفاً. ورُوي نحوُه عن ابنِ عُمَر أيضاً. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ بعدَهم أقلُّ علوماً، وأكثَرُ تكلفاً.

وقال ابن مسعود أيضاً: إنكم في زمانٍ كثيرٌ علماؤُه، قليلٌ خطباؤُه، وسيأتي بعدَكم زمانٌ قليلٌ علماؤه، كثيرٌ خطباؤه، فمن كَثُرَ علمُه وقَلَّ قولُهُ فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو المذموم.

وقد شَهِدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن بالإيمانِ والفقه، وأهلُ اليمن أقلُّ الناس كلاماً وتوسُّعاً في العلوم، لكنْ علمُهم علمٌ نافعٌ في قلوبهم، ويُعبِّرون بألسنتهم عن القَدْرِ المحتاجِ إليه من ذلك. وهذا هو الفقهُ والعلمُ النافع.

ومن علامات العلم النافع: أنَّ صاحبَهُ لا يَدَّعي العلم، ولا يَفْخَرُ به على أحد، ولا يَنسُبُ غيرَه إلى الجهل، إلا من خالف السُّنَّةَ وأهلَها، فإنه يتكلَّمُ فيه غضباً لله، لا غضباً لنفسه، ولا قصداً لرفعتها على أحد.

وأما من عِلمُهُ غيرُ نافع، فليس له شُغلٌ سوى التكبُّرِ بعلمه على الناس! وإظهارِ فضلِ عِلمِه عليهم، ونسبتِهم إلى الجهل، وتنقُّصِهم ليرتفعَ بذلك عليهم! وهذا من أقبح الخِصال وأردئها.

وربما نَسَب من كان قبلَه من العلماء إلى الجهل والغفلةِ والسهو! فيُوجبُ له حُبُّ نفسِه وحُبُّ ظهورِها: إحسانَ ظنه بها! وإساءةَ ظنه بمن سَلَف!

وأهلُ العلم النافع على ضد هذا، يُسيئون الظنَّ بأنفسهم، ويُحسنون الظنَّ بمن سَلَف من العلماء، ويُقِرُّون بقلوبهم وأنفسِهم بفضلِ من سَلَف عليهم، وبعَجْزِهم عن بلوغ مراتبهم =

٣٧٣ ــ وأستحسِنُ أن أُورِدَ في هذا المقام، كلمةَ الإمام الفَذِّ الكبير، والتابعيِّ الهُمام العبقريِّ النِّحْرير، أبي عَمْرِو بنِ العلاء (زبَّان بن عَمَّار)، التميمي المازني البصري، المولود سنة ٧٠ من الهجرة، والمتوفى سنة ١٥٤ رحمه الله تعالى، وهو أحَدُ الأئمةِ القُرَّاءِ السبعة، وأعلَمُ أهلِ عصره بعلوم القرآن الكريم، والقراءات، والعربية، والأدب، والشعر، والنحو، وكانت كتُبُه التي كتَبَها عن العربِ الفصحاءِ الذين خالَطهم ولَقِيَهم، قد مَلأتْ بيتاً له إلى قريبٍ من السَّقْف، وكان رأساً في حياةِ الإمامِ الحسَنِ البصري، مُقَدَّماً بين علماءِ ذلك العصرِ الأوَّلِ الزاهر.

٣٧٤ ــ هذا الإمامُ الجليلُ رضي الله عنه يقول ــ بالنسبة لحالِهِ وحالِ السَّلَف الذين كانوا قبلَه، وهو قد تُوفِّي في منتصَفِ القرن الثاني ــ : ما رواه عنه الخطيب البغدادي في فاتحة كتابه «مُوضِّح أوهام الجَمْعِ والتفريق»[(١)]، وأبو البركات الأنباري في «نُزهة الألِبَّاء»[(٢)]: «ما نحن فيمن مَضَى إلا كَبَقْلٍ في أُصولِ نَخْلٍ طِوَال!». انتهى.

٣٧٥ ــ فإذا كان هذا قولَ الإمام أبي عَمْرو بن العلاء ــ وهو مَنْ عَرفتَ ــ بالنظر لحالِهِ وحالِ سَلَفِه، قالَهُ من أكثَرَ من ألفٍ ومِئَتَيْ عام، فاسمَعْ قولَ شيخِهِ

= والوصولِ إليها أومُقاربتِها، وما أحسن قولَ أبي حنيفة وقد سُئل عن علقمة والأسْوَدِ: أيُّهما أفضل؟ فقال: واللّهِ ما نحن بأهلِ أن نذكُرَهم فكيف نُفضِّلُ بينهم؟! وكان ابنُ المبارك إذا ذكَرَ أخلاقَ من سَلَف يُنشِدُ:

لا تَعرِضَنَّ لِذِكْرِنا مع ذكرِهم ... ليس الصحيحُ إذا مَشَى كالمُقْعَدِ

ومَنْ عِلمُهُ غيرُ نافع، إذا رأى لنفسِهِ فضلاً على من تقدَّمَهُ في المقالِ وتشقُّقِ الكلام، ظَنَّ لنفسه عليهم فضلاً في العلومِ أو الدرجةِ عند الله تعالى، لفضلٍ خُصَّ به عمن سَبَق! فاحتَقَر من تقدَّمه! واجتَرَأ عليه بقِلَّةِ العلم!

ولا يَعلمُ المسكينُ أنَّ قِلَّةَ كَلَامِ مَن سَلَف، إنما كان وَرَعاً وخشيةً لله، ولو أراد الكلامَ وإطالتَهُ لما عَجَز عن ذلك، كما قال ابنُ عباس لقومٍ سَمِعَهم يتمارَوْن في الدِّين: أمَا علمتم أنَّ لله عباداً أسكتَتْهُم خشيةُ الله من غير عِيٍّ ولا بَكَم، وإنهم لَهُمُ العُلَماءُ والفصحاءُ والطُّلَقَاءُ والنبلاءُ العُلَماء».

(١) ١: ٥.

(٢) ص ٢٦.

(مُجاهِدِ بنِ جَبْرٍ المكي)، التابعيِّ الكبير، وأعلَمِ الناسِ في عصره بالتفسير، القارىء الفقيهِ العابدِ الوَرِع، والعالِمِ المُحدِّثِ المُتْقِن، المولودِ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سنة ٢١ من الهجرة، والمتوفى سنة ١٠٤ رحمه الله تعالى، فقد قال ــ كما رواه عنه ابنُ أبي خيثمة في «التاريخ الكبير»، ورأيتُه مكتوباً على وجه كتاب مخطوط ــ : «ذَهَبَ العلماء! فلم يَبقَ إلا المتعلِّمون، وما المُجتهِدُ فيكم اليومَ، إلا كاللاَّعِبِ فيمن كان قبلَكم». انتهى.

٣٧٦ ــ وجاءت الجملةُ الأخيرةُ من هذا القولِ، في كلام التابعي الجليل (عُبَيد بن عُمَير المكي) قاصِّ أهل مكة، المتوفى سنة ٦٨، كما في ترجمته في «الحلية» لأبي نعيم[١].

٣٧٧ ــ وجاء في كتاب «المعرفة والتاريخ» للحافظ يعقوب بن سفيان الفَسَوي[٢]، في ترجمة مُعاصِرِ هذينِ الإمامينِ السابقِ ذكرُهما، الإمامِ التابعيِّ الجليل، والمُحدِّث الحُجَّةِ الجامع النبيل، سيدِ الفقهاء: (أيوبَ بنِ كَيْسان السَّخْتِياني البصري)، المولود سنة ٦٨ من الهجرة، والمتوفى سنة ١٣١ رحمه الله تعالى، ما يلي: «قال حَمَّادُ بن زيد ــ تلميذُهُ ــ : قيل لأيوب السَّخْتِياني: العِلْمُ اليومَ أكثَرُ أم أقلّ؟ قال: الكلامُ اليومَ أكثر! والعلمُ كان قبلَ اليومِ أكثر». انتهى.

وما أدَقَّ هذا التشخيصَ! وما أوجَزَ هذا التعبير! وما أصدَقَ هذا الجواب! إنه من ينابيع الحكمة التي تتفجَّر من قلوب المخلِصين.

٣٧٨ ــ وقال التابعي الجليل بلال بن سعد الأشعريُّ الدمشقي، أحَدُ الفضلاءِ العُبّاد، والثقاتِ الصُّلَحاء الزُّهَّاد، المتوفى في حدود سنة ١٢٠ رحمه الله تعالى، مُخاطباً أهلَ عصرِه، ومُوازِناً بينهم وبين مَنْ كان قبلَهم: «زاهدُكم راغب، ومُجتهِدُكم مقصِّر، وعالِمُكم جاهل، وجاهِلُكم مُغْتَرّ»، كما في كتاب «الزهد» لعبد الله بن المبارك[٣].

---

(١) ٣ : ٢٦٩.

(٢) ٢ : ٢٣٢.

(٣) ص ٦٠.

٣٧٩ ـ فإذا كان هذا قولَ هؤلاء الأئمةِ الأجلَّةِ أركانِ العلم والدين، وشيوخِ المعرفة بعلوم المسلمين، من نحوِ ألفٍ وثلاثِ مِئةِ عام، فماذا يقولُ أمثالُنا اليومَ بالنظر لحالِنا وحالِهم وحالِ سَلَفِهم الأوَّلِ، الذين قالوا في علمهم وفضلهم ما قالوا؟! فستْرَكَ اللهم وعفوَك، وحِفظَك من الدعاوي العريضة المريضة، التي عليها بعضُ الناس في عصرنا أوائل القرنِ الخامسَ عشر!

٣٨٠ ـ ورحم اللَّهُ الإمامَ جلالَ الدين الدَّوَّاني الشِّيرَازي ـ محمد بن أسْعَد ـ الشافعيَّ عالِمَ العَجَم بأرض فارس، وإمامَ المعقولات في عصره، وصاحبَ المصنفات الرفيعة، المولود سنة ٨٣٠، والمتوفى سنة ٩١٨ عن ٨٨ سنة، الذي ارتحل إليه علماءُ أهل الروم وخراسان وما وراءَ النهر، لتلقي العلوم عنه والتلمذةِ عليه، فإنه كان يقول:

«لو عَلِمَ العلماءُ الأَسْلاَف، أنه يَخْلُفُ بعدَهم نظائرُنا من الأَجْلاَف! لأَوْصَوْا أنْ تُدفَنَ كُتبُهم مَعَهم في قُبُورِهم، بل لم يُظهِروا قطُّ ما في صُدُورِهم». كما في «روض الأَخْبَار المنتخب من ربيع الأبرار» للعلامة محمد الخطيب قاسم الأَماسِيّ[1].

٣٨١ ـ شهدنا في هذه الصفحات أن دار الإسلام، من مَشْرِقها إلى مَغرِبها ومن جَنُوبها إلى شِمالها: كانت دارَ علمٍ واحدة لهؤلاء العلماء الرحَّالين الجوَّالين، يتنقلون في أقطارها، ويتلقَّون في جوامعها ومدارسها، ويأخذون عن علمائها وشيوخها، كما يَتَنقَّلُ الأطفالُ اليومَ في غُرَفِ المدرسة الواحدة، لا يمنعهم مانع، ولا يَحجبهم حاجز، ولا تَحُدُّهم حدود، ولا تَصُدُّهم قيود، ولا تُفرِّق بينهم وبين بُلدانِ شيوخهم هُوِيَّاتٌ أو جِنْسِيَّات، فقد كانت الجنسيةُ هي الإسلامَ، وليست هي وطنَ المَوْلِد كما هو الواقع اليوم!!

وكانت الرِّحلات منهم بين البلدان الإسلامية على أوسع نطاق، وقائمةً على قدم وساق، حتى غدَتْ شَرْطاً عندهم في استكمال التحصيل، فقالوا: من لم يَرحل فلا ثقةَ بعلمه، فكَثُرَ منهم الترحال والتطواف، وكانت تستقبلهم تلك المدارس والمساجد والرُّبُطُ بخيراتِ واقفيها، وتحنو عليهم بلادُ الإسلام بصنائع أهليها، فتمكَّنوا من سَعَةِ

(١) ص ٩١.

التطواف في الأرض، ولقاءِ المئات بل الألوف من الشيوخ والعلماء، فتنوَّعَتْ معارفُهم، وتكاملَتْ مواهِبُهم، وتمحَّصَتْ مَفَاهِمُهم، وازدهرَتْ علومُهم وتَوَاليفُهم، وجاءوا فيها بالزُّبْد والشُّهْد، وبالمُدهِش العُجاب.

كان هذا كله في ديار الإسلام شرقاً وغرباً، عُجماً وعُرباً: منظَّماً بنظام الوقف في الإسلام، وكانت بلدان الغرب الأوروبية مظلمةً بالجهل والتخلف، والحرمانِ من هذه المعارف وتلك المناهل، فانقلبت الحال الآن.

٣٨٢ ــ شهدنا في هذه الصفحات: آداباً عاليةً رفيعة، ومسالكَ منيفةً بديعة، من سِيرةِ الشيوخ والطَّلَبَة، تَدُورُ في مَجالِسِهم، وتَشِيعُ في مُصَاحَبَتِهم، وتُتَبادَلُ بينهم، فشهِدْنا آدابَ الشيوخ مع الشيوخ، وآدابَ الشيوخ مع الطلبة، وآدابَ الطلبة مع الشيوخ، وآدابَ الطلبة مع الطلبة، في حَلَقاتِ التعلُّم والتعليم، ومجالسِ الإفادة والتلقي.

فرأينا فيهم نماذجَ قُدْوَةٍ صالحة للعالِمين والمتعلِّمين، في مَظاهِرهم ومَلابِسِهم وتَسَاقِيهم للعلم، ومآكِلِهم ومشارِبهم وغُدُوِّهم ورَوَاحِهم، وحَطِّهم وتَرْحَالِهم... فهم كالأزهار العَطِرة المجموعة، والبلابل المُغَرِّدة المسموعة، لا تَمَلُّ الأُذُنُ منهم، ولا تَرجِعُ العينُ عنهم.

٣٨٣ ــ وهم الذين عناهم الإمامُ ابنُ دقيق العِيد رحمه الله تعالى[1]، بما كان يُنشِدُهُ في وصفِ تلك المجالسِ مجالسِ العلمِ وأهلِها وفضلِ اجتماعِهم فيها:

ولِلَّهِ قومٌ كلَّما جئتُ زائراً ... وجدتُ نفوساً كلُّها مُلِئَتْ حِلْمَا
إذا اجتمعوا جاؤوا بكل طَرِيفَةٍ ... ويَزدَادُ بعضُ القومِ من بعضِهم عِلْمَا

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن علي القُشَيري المصري، ولد سنة ٦٢٥، وتوفي سنة ٧٠٢، وهذه الأبياتُ التالية أوردها المؤرِّخُ شهابُ الدين أحمد بن محمد المَقَّري التِّلِمْسَاني في كتابه: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» ٤: ٢٤٨. وجاءت تعليقاً من محقق كتاب «إضاءة الرَّامُوس وإضافَةِ النَّامُوس على إضاءَةِ القاموس» للحافظ محمد بن الطَّيِّب الفاسي ٢: ١٨٠، دون عَزْوٍ لقائلها، وبين الروايتين مُغايرة، فاختَرْتُ منهما.

تساقَوْا كؤوسَ العِلم في رَوْضَةِ التُّقى فكلُّهمُ مِن ذلكَ الرِّيِّ لا يَظْمَا
نُفُوسٌ على لَفْظِ الجدالِ قد انطوَتْ فنُبصِرُها حَرْباً ونَعقِلُها سِلْمَا
ومَا ذاكَ مِن جَهْلٍ بهمْ غيرَ أنهمْ لَهُمْ أَسْهُمٌ شَتّى تنكَّبَتِ المَرْمَى
أولئك مِثلُ الطِّيْبِ كُلٌّ له شَذىً ومَجْموعُهُ أَذْكَى أَرِيجاً إذا شُمَّا

ثم يقولُ بعدَ إنشادِهِ: كانت تلك المَجَالسُ عَسَلاً بمِثلِهم، فتَعَلْقَمَتْ بمِثلِنا!

٣٨٤ ـــ شهدنا في هذه الصفحات تنوُّعَ المواهبِ والنبوغِ والمَهارات، وتفوُّقَ بعضِ النبغاءِ الأفذاذِ على بعض، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، ولله تعالى في ذلك حكمةٌ بالغة، وقلَّما تجتمعُ للعالِمِ الفَذِّ كلُّ المزايا والمحاسن، وقد كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مَرْزُوق التِّلِمْسَاني المالكي الشهيرُ بالخطيب، الإمامُ الفقيهُ المحدِّثُ المسنِدُ الرحَّالُ، المولودُ سنة ٧١٠ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٨١ رحمه الله تعالى يقول:

«إنَّ الله أجرى سُنَّتَهُ في علماء الإسلام أن يُبارِكَ لأحدِهم في قراءتِه، والآخَرِ في إلقائِهِ وتفهيمِه، والآخَرِ في نَسْخِهِ وجَمْعِهِ ـــ أي جَمْعِهِ للكتب ـــ ، والآخَرِ في عبادتِه، وسيدي أبو القاسم العَبْدُوسِيُّ حافظُ المغرب في وقتِهِ وإمامُ الدنيا ـــ الفاسي نزيلُ تُونس ـــ ممن جَمَع اللَّهُ له ذلك كلَّه، وبارَكَ له في قراءتِهِ، وإلقائِه، ونَسْخِه، وجَمْعِه، وعبادتِه»(١). فسبحان من قَسَم الحظوظَ على عباده، وخَصَّ من شاء بإكرامِهِ وإمدادِه.

٣٨٥ ـــ شهدنا في هذه الصفحات أناساً فارقوا الأهل والوطن، وغادروا الأهل والسكن، وساحوا في البلدان السنين الطوال، سعياً وراءَ تحصيل علوم الشريعة ونقلِها وضبطها، وتلقيها عن أهلها، وأفنَوْا أعمارهم في ذلك، فتَعِبُوا لراحة مَنْ بعدَهم، ونَصِبُوا لِدَعَةِ من اقتَفَى أثَرهم، وسافروا الأسفارَ الكثيرةَ الطويلة، ولَقُوا الشدائدَ

---

(١) هذا الخبر من «فهرس الفهارس والأثبات» لشيخنا عبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى ٢: ١٠٤٤، في ترجمة (ابن السنوسي: محمد بن علي السنوسي)، نقلاً عن «روضة النِّسْرين» لمحمد بن صَعْد التِّلِمْسَاني، وبقيةُ الخبر كما نقله عنه شيخنا الكتاني بعدَ ما ذكرتُه: فيه أن أبا القاسم قرأ صحيحَ البخاري في نهارِ يومٍ واحد، وأنه ممن فُتِحَ عليه في حفظِ البخاري والقيامِ عليه نَسْخاً وفَهْماً وقراءة، وأنه نَسَخ منه ثمانيَ نُسَخ أو أكثَر، أكثرُها في سِفْرٍ واحد، ونَسَخ من صحيح مسلم تِسعَ نُسَخ، ونَسَخ غيرَهما من كتب الحديثِ والفقهِ ما لا يأتي عليه العَدُّ.

الحالكةَ المُهلِكة، فلم يَمنعهم ذلك عن مُتابَعَةِ التَّجْوَال، ولقاءِ الرجال، والاستزادةِ من المعرفة التي تَطلَّبُوها في كل بلدٍ وقريةٍ ومدينة.

ولم يَشهدوا لأنفسِهم في ذلك فضلاً، ولم يَمْتنُّوا على مَنْ بعدَهم بذلك أصلاً، وإنما وجدوا أنفسَهم يَمُوتونَ مُقصِّرين في حَقِّ أُمَّتِهم وشريعتِهم ومعرفتِهم، وما كان ظَمَأُهم بالنهار في الأسفار، وسَهَرُهم بالسُّرَى إلى الأسحار، إلا جُزءاً يسيراً من حق العلم عليهم.

ماتوا فأحيَاهُمُ إحياءُ لِيْلِهِمُ ومَنْ سِوَاهم أُناسٌ بالكَرَى ماتُوا

٣٨٦ ــ شَهِدنا في هذه الصفحات العجائبَ الغرائبَ في شؤونِ هؤلاء العلماء، الذين مُلِئَتْ صفحاتُهم من الصبرِ على الشدائدِ والأهوال، وشَهِدنا أنَّ استعذابَ كلِّ ذلك كان منهم لتحصيل العلم، بل لتحقيق (الكلمةِ العلمية) التي تقرأها في كتبهم.

وهذه (الكلمة العلمية) التي دَوَّنُوها في الكتب، قد تعاوَرَتْ عليها الأنظارُ والأفكار، وتوجَّهَ إليها النَّقْدُ والإقرار على مَرِّ العُصُور، حتى نَضِجَتْ واحترقَتْ[1]، فكانت بعدَ تلك الجهود التي بُذِلَتْ في سَبِيلها: كحَجَرةِ الخاتم الجميلة، في الخاتمِ الجميل، في اليَدِ الجميلة، تَلبَسُها تلكَ اليَدُ في ليلة الفرح الأكبر.

ولذا أصبَحَتْ تلك (الكلمةُ العلميةُ) من المسلَّمات، فلا اعتراضَ عليها، ولا نَقْدَ يُوجَّهُ إليها، فهي قد استوفَتْ وُجُودَها من الدراسةِ لها، والدَّقِّ عليها، والعَصْرِ لمعناها ومَبْنَاها، فهي الكلمةُ المقروءَةُ المدروسَةُ المعصورةُ المُقَطَّرةُ المُقَرَّرة، على تمادي القرون، وتتابُعِ النُّقَّادِ والفُحُول، فلذلك تَقعُ على السَّمع والقلبِ والفَهْمِ وُقُوعَ الطَّلِّ

---

(١) نقل الإمام ابن نُجَيم الفقيه الحنفي رحمه الله تعالى، في كتابه «الأشباه والنظائر» ص ٤٥٢، (فوائد شتى) منها: «العلومُ ثلاثة: عِلْمٌ نَضِجَ وما احترَق، وهو علمُ النحوِ وأصولِ الفقه، وعلمٌ ما نَضِجَ وما احترَق، وهو علمُ البيانِ والتفسير، وعلمٌ نَضِجَ واحترَق، وهو علمُ الحديثِ والفقه». انتهى. ونقله صاحب «الدر المختار» في أوله ١ : ٣٤ بحاشية الشيخ ابن عابدين. وانظر ما علقته على كتابي «لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث» ص ١٣٧، ففيه كلامٌ مُهِمٌّ يتَّصِلُ بهذه الكلمة.

والنَّدَى على الأرضِ العَطْشَى، وتُحرِزُ القبولَ والرِّضَا، وتَملأُ جوانبَ النَّفْسِ اقتناعاً وحُبُوراً وسُروراً.

فاعرِفْ يا أخي قَدْرَ (الكلمة العلمية) في كُتُبِ آبائنا وعلمائنا السابقين، ولا تَظُنَّ أنها من (جنس) كلام أغلب الناسِ والعلماءِ اليوم، لا عُمقَ ولا تأسيس، ولا فحصَ ولا تمحيص، ولا نَقْدَ ولا تَرْصِيص، وإنما هي كلماتٌ صَحَفِيَّة، من أناسٍ صَحَفِيَّة، فتلك بليَّةٌ وأيُّ بليَّة!

٣٨٧ ــ شهدنا في هذه الصفحات من كان يَمشي الأميالَ الكثيرة، والأيامَ الطويلة، لتحصيلِ كلمة، أو تصحيحِ لفظة، أو استكمال حديث، أو تلقِّي جملةٍ عن قائلها مُباشَرَةً، أو لتوثُّقٍ من قَوْلٍ نُقل عن عالمٍ أو قائل في ذلك المكان، فكانت سِيَاحَاتُهم العلميةُ على فَقْرِهم وعُدْمِهم، وضَعْفِ الوسائل التي لديهم، كأنها من صُنْعِ الخَيَال، أو أحاديثِ السَّمَر، ولكنها ما كانت إلا صِدقاً وحقيقة، يَحْدُوْهم إليها أشواقٌ مُحْرِقة، وآمالٌ عِذابٌ في نفوسِهم، صَنَعُوا بها ما يَعُدُّه بعضُ الناس اليوم من المبالغات والأساطير! فللَّه دَرُّهم على ما بَذَلوا وما صَبَرُوا، وما سَهِروا وما بَكَرُوا، ورحمةُ الله على تلك الأجسادِ الطاهرة الكريمة، والعزائمِ المؤمنةِ الخارقةِ العظيمة.

لولا عجائبُ صُنعِ اللَّهِ ما نَبَتَتْ   تلك الفضائلُ في لَحْمٍ ولا عَصَبِ

٣٨٨ ــ شهدنا في هذه الصفحات كيف كان أئمتُنَا وعلماؤنا السابقون يَهتَمُّ كلُّ واحدٍ منهم ــ في ضِمنِ اختصاصِه ــ كلَّ الاهتمام، بالجملةِ أو الكلمةِ العِلمية يُحقِّقُها أو يَضبطُها أو يتثَبَّتُ فيها، لِيؤدِّيَها على وجهها الصحيح، وقد يَسهَرُ من أجلِها الليلَ كلَّه، ويُنقِّب في الكشفِ عن صحتها ومن أجل سلامتِها بطونَ العشراتِ من الكتب والأسفار، حتى يُخرِجَها من الزَّلَل أو الخَلَل، ويُقيمَها على الجادَّةِ والصواب، فيَستريحَ بذلك قلبُهُ ولُبُّه، وتَغمُرَه فَرْحَةُ الظَّفَرِ بالسَّعَادة، ويَنسَى بذلك كلَّ ما لَقِيَه من نَصَبٍ وتَعبٍ وسَهَر وكَدّ، إذْ سَلِمَتْ الكلمةُ العِلْمِيَّةُ من الخطأ والخَطَل في الصِّيْغَةِ أو المضمون، ولو ضحَّى هو بالعُمر والمالِ والراحةِ ومُفارقةِ الأهل والبلد.

٣٨٩ ــ وبهذا تَعلمُ مَدَى التوثُّقِ والضبطِ والتمحيصِ وغلاءَ تَكاليفِهِ في الكلمةِ العلمية التي تَدْرُسُها، في كتب التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو والصرف

واللغة والبلاغة . . . ، فما من كلمةٍ فيها إلا وقد دُقَّتْ ــ على توالِي القرون ــ دَقَّاتٍ ودَقَّات، في تحديدِ معناها، وتدقيقِ مَرْمَاها، وتشذيبِ لفظِها، وفُلِّيَتْ ــ على تعاقُبِ العلماءِ والفحول ــ مَرَّاتٍ ومَرَّات، في ضبطِ صِيغتها ومغزاها، حتى أَصبحَتْ تلك الكلمةُ اليقينَ نَفْسَهُ في ثبوتِها وضَبْطِها وتمحيصِها.

وذلك شيءٌ لا تجدُه إلا في كتبِ آبائك وأجدادِك المسلمين، فاعرِفْ قيمةَ الكلمةِ العلميةِ التي تقرؤها، وتذكَّرْ كم بَذَلوا فيها من جهود وأذهان وأوقات وتكاليفَ وعناءٍ، عِبادَةً لله وخِدمةً لدينِهِ وشريعتِه، حتى وصَلَتْ إليك ــ عَبرَ القرون ــ سليمةً قويمة، فهي أغلى في تكاليفها، من تكاليفِ استخراجِ اللؤلؤ والألماسِ! ولكنَّ أكثرَ الناسِ لهذا يجهلون!

٣٩٠ ــ وإذا صادَفَ أنك أَلَّفتَ كتاباً، أو كتبتَ بحثاً، أو حقَّقتَ مسألةً، فلا تظنَّنَّ بنفسِك أنك بَدْءُ تاريخها، وأبو عُذْرَتِها، ونابِطُ وُجُودِها، فهذا الذي مَنَّ اللَّهُ عليك به ــ إن كان كما رأيتَه صواباً سديداً ــ : قد استَنَدْتَ فيه إلى جُهودِ الأوَّلين، وإلى نُبوغِهم وتفانِيهم في العلم، جَمْعاً وتنسيقاً، وضَبْطاً وتحقيقاً، فلولاهم ما كنتَ شيئاً مَّا، وهم بعلمِهم وفَضْلِهم وصَبْرِهم وآثارِهم: رَاشُوْا جَنَاحَيْك، وبَصَّرُوا عينيك، وفَتَحُوا أُذُنَيْك، وسَدَّدوا عَقْلَك وفَهْمَك، فأنت حَسَنَةٌ من حَسَنَاتِهم شَعَرتَ أو لم تَشْعُر.

قال العلامة علي القاري في كتابه «شرح شرحِ النخبة»(١): «حُكِي أنَّ بعضَ العلماءِ صنَّفَ كتاباً في ثلاثين سنة، ثم هذَّبَهُ أحَدُ تلاميذِه ورَتَّبهُ في ثلاثِ سنين، فصار أحسَنَ، فأراد به الاستحسانَ من أهلِ مَجْلِسٍ، فعَرَض عليهم الكتابَيْنِ، فقال له بعضُ الظرفاء: إنما صَنَّفتَ أنت هذا الكتابَ في ثلاثٍ وثلاثين سنة، فلولاَ مُصَنِّفُهُ لما بَلَغْتَه». نعم وما أصدَقَ هذا الكلام!

فحذارِ أن تتعالَى على المتقدِّمين والسابقين فيما تكتب ــ ناسخاً ماسِخاً مختلِساً ــ مؤلِّفاً، وتَرى نفسَك أنك أتيتَ بشيء فات الأوائل ولم تستطعه الأواخر، فلا تَنزِلُ (نا) و (نحن) من لسانك وقلمك وذهنك، فتُصابَ بمرض نون الجماعة، كما هي حال من تَرى من زعانف الفارغين وطَحالب التافهين المتعالين!

---

(١) ص ١٥٠.

٣٩١ ـ رأينا في هذه الصفحات: كيف بلَغَ أولئك الأئمةُ الأعلام الذِّرْوَةَ في العلم، دون تشجيع يُصنَعُ إليهم، أو مكافأةٍ مادِّيَّةٍ تُدَرُّ عليهم، أو منزلةٍ حكوميةٍ يرتقبونها، أو وظيفةٍ دنيوية يتشبثون بها، إنما كان هَمُّهم وقُصارى مُرادِهم مما ركبوا فيه الصعبَ والذلول: خِدمةَ دينهم، وإرضاءَ ربهم، ونَصْرَ كتابهم، ونَشْرَ سُنّةِ نبيِّهم، وعلومِ إسلامهم، فنالوا ما أمّلوه في الدنيا، وحَلُّوا من الإعزازِ والإكرامِ: المكانَ الرفيعَ، حتى تسابَقَ أبناءُ الملوكِ إلى تقديم نِعالِهم إليهم(١)، ولهم عند الله تعالى في الدار الآخرة من الأجرِ والمقامِ المحمودِ: ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قَلْبِ بَشَر.

وما أُغمِضَتْ منهم العيونُ لوَداعِ هذه الدارِ الفانية، حتى تَلَقَّتْهم رِحابُ الخُلْدِ

---

(١) جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب ١٤: ١٥٠، و«إنباهِ الرُّواة على أنباه النُّحَاة» للقِفطي ٤: ١١، و«الوفَيَات» لابن خلكان ٢: ٢٢٨، في ترجمة الإمام الفَرَّاء (يحيى بن زياد) الكوفي، المولود سنة ١٤٤، والمتوفى سنة ٢٠٧ رحمه الله تعالى، إمامِ الكوفيين وأعلمِهم بالنحوِ واللغةِ وفنونِ الأدب حتى كان يُقالُ فيه: أميرُ المؤمنين في النحو، ما يلي:

«كان الخليفة المأمون قد وكَّل الفَرَّاءَ يُلَقِّنُ ابنَيْهِ النحوَ، فلما كان يوماً أراد الفراءُ أن يَنهضَ إلى بعضِ حوائجه، فابتَدَرا إلى نَعْلِ الفَرَّاءِ يُقدِّمانِها له، فتنازَعَا أيُّهما يُقدِّمُها، ثم اصطَلَحا على أن يُقدِّمَ كلُّ واحد منهما فَرْدَةً، فقدَّمَاها.

وكان المأمون له على كل شيءٍ صاحبُ خَبَرٍ ـ أي رجلٌ يأتيه بالأخبار ـ، فرَفَعَ إليه ذلك الخبرَ، فوَجَّه إلى الفَرَّاءِ فاستدعاه، فلما دَخَل عليه قال له: من أَعَزُّ الناس؟ قال: ما أعرفُ أحداً أعَزَّ من أمير المؤمنين، قال: بلى، مَنْ إذا نَهَض تقاتَلَ على تقديمِ نَعْلَيْهِ وَلِيَّا عَهْدِ المسلمين، حتى رَضِيَ كلُّ واحدٍ منهما أن يُقدِّمَ له فَرْدَةً.

قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردتُ مَنْعَهما من ذلك، ولكن خَشِيتُ أن أدفعَهما عن مَكْرُمَة سَبَقا إليها، وأكسِرَ نفوسَهما عن شريفةٍ حَرَصا عليها، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنه أمسَك للحسَن والحُسَين رضي الله عنهما رِكابَيْهما حتى خَرَجا من عنده، فقال له بعضُ من حَضَر: أتُمسِكُ لهذين الحَدَثَيْنِ رِكَابَيْهما وأنت أسَنُّ منهما؟ فقال له: اسكُتْ يا جاهل، لا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلا ذَوُوا الفضل.

قال له المأمون: لو منعتَهما عن ذلك لأوجعتُك لَوْماً وعَتْباً، وألزَمْتُك ذنباً، وما وَضَع ما فَعَلاهُ =

واستقبلَتْهم حُورُها في الدار الباقية، فلَقُوا التكريمَ والهناء، ونَسُوا الشقاءَ والبلاء، فكان لهم كما قيل:

هَنَاءٌ مَحَا ذاك العَزَاءَ المقدَّما فما عَبَسَ المحزونُ حتى تبَسَّما[١]

٣٩٢ ــ شهدنا في هذه الصفحات تَبَارِيَ المواهِبِ والهِمَم، وتنافُسَ الكفاياتِ والعبقريات، تحت جَنَاح الإسلام من كل عَرَبيّ وعَجَمي، وأبيض وأسود. . .، في خدمة الشريعة المطهرة وعلومِها، سواءٌ كانت تلك العلومُ من الأصول والغايات، أم من الفروع والآلات، فكلٌّ واحدٍ من هؤلاء النَّبَغَةِ الأفذاذ، بَذَل عبقريتَهُ ونبوغَهُ في خدمةِ الدينِ وعلومِه، وصِيانتِهِ من عَبَثِ العابثين، وكيد الكائدين، حتى يَصِلَ العلمُ منهم للأخلاف، كما تلقَّوْهُ عن الأسلاف، عَسَلاً مُصَفًّى وكامِلاً مُوَفًّى، وغدَتْ الأحاديثُ عنهم حوافز، واستماعُ أخبارِهم مُتَعاً ولَذائِذ.

إيهِ أحاديثَ نَعْمانٍ وساكنِهِ إنَّ الحديثَ عن الأَحْبَابِ أسمارُ

*****

وحدَّثْتَني يا سعدُ عنها فزِدتَّني جُنُوناً فزِدْني من حَدِيثِك يا سَعْدُ
هَوَاهَا هَوًى لم يَعرفِ القلبُ غيرَهُ فليس لَهُ قَبْلٌ وليس لَهُ بَعْدُ

٣٩٣ ــ شهدنا من خلال هذه الصفحات: ألوانَ الصبرِ العجيب، والجهودَ الجبّارة، والعزائمَ الخارقة، والعقولَ الكبيرة المبدِعة، التي شادَتْ هذه المكتبة الإسلامية التي ملأت الخافقين[٢]، مع ما ذهَب منها وسَوَّدَ ماءَ دِجلة أياماً طِوالا، ومع ما أحرقَتْه

= مِن شَرَفِهما، بل رَفَع مِن قَدْرِهما، وبيَّنَ عن جوهرِهما، ولقد ثَبَتَتْ لي مَخِيلَةُ الفِراسَةِ بفِعلِهما، فليس يكبُرُ الرجلُ ــ وإن كان كبيراً ــ عن ثلاث: عن تواضُعِهِ لسلطانِه، ووالدِهِ، ومُعَلِّمِهِ العلم، وقد عوَّضتُهما بما فعلاه عِشرين ألفَ دينار، ولك عشرةُ آلاف دِرْهَم على حُسنِ أَدَبِك لهما».

(١) هذا البيت للشاعر ابن نُباتَة المصري (محمد بن محمد)، المتوفى سنة ٧٦٨، وهو مَطْلَعُ قصيدةٍ رائعة، قالها في سنة ٧٣٢، مُعَزِّياً السلطانَ الأفضل، في وفاة أبيه السلطانِ المؤيَّد مَلِكِ حَماة، ومُهَنِئاً له باستخلافِهِ في السلطنةِ بعدَه.

(٢) وهاك شهادةً لباحثٍ غربي كبير، ومؤرِّخٍ فرنسي شهير، وهو الدكتور غوستاف لوبون، إذ يقول في كتابه المشهور «حضارة العَرَب» ص ٥٢٦، والعَرَبُ هنا تعني المسلمين والإسلام. =

محاكمُ التفتيش والأسبان أشهراً كثيرة، ومع ما أتْلفَتْه أيدي المَغُول والتتر في عَيْثِهم في بلاد الإسلام فساداً[١].

= «والإنسانُ يقضِي العَجَبَ من الهمة التي أقدَمَ بها العربُ على البحث، وإذا كانت هناك أممٌ قد تساوَتْ هي والعَرَبُ في ذلك، فإنك لا تجد أمةً فاقت العربَ على ما يُحتَمَلُ.

فالعَرَبُ كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا هِمَمَهُم إلى إنشاءِ مسجد وإقامةِ مدرسةٍ فيها، فإذا ما كانت تلك المدينةُ كبيرةً أسَّسُوا فيها مدارسَ كثيرة، ومنها المدارسُ العشرون التى رَوَى بِنْيامين التُّطَيْلِي المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية.

وهذا عَدَا اشتمالَ المدنِ الكبرى كبغداد والقاهرة وطُلَيْطُلَة وقُرْطُبَة... على جامعاتٍ محتويـةٍ عـلى مختبراتٍ ومَراصِدَ ومكتباتٍ غنية، وعلى كل ما يُساعد على البحث العلمي.

فكان للعرب في أسبانِيَة وحدَها سبعون مكتبةً عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحَكَم الثاني بقُرْطُبَةَ سِتُّ مئةِ ألفِ كتاب، منها أربعةٌ وأربعون مجلداً من الفهارس كما رَوَى مؤرِّخو العرب، وقد قيل بصَدَدِ ذلك: إنَّ شارل الحكيم لم يستطع بعد أربع مِئةِ سنة أن يَجمع في مكتبة فَرَنْسَة المَلَكِيَّة أكثَرَ من تسع مِئةِ مجلد، يكاد ثلثُها يكون خاصاً بعلم اللاهوت».

(١) ألمعتُ هنا وفيما سَبَق من لَمحَات، إلى ما شهدناه في سيرة سلفنا العلماء، من دأَبٍ متواصل، وجِدٍّ متزايد، وصَبْرٍ عجيب...، أغنَوْا به المكتبةَ الإسلامية غَناءً منقطعَ النظير، ثم وقفتُ على كلمةٍ مسهَبةٍ ماتِعة في هذا الصدد، للعلامة المحقق النَّحْوي اللغوي الضليع الأستاذ عباس حسن، كتَبها في مقدمة كتابه «اللغة والنحو بين القديم والحديث» ص ٥ ـ ١٠، فأنا أُوردُها بطولها لأهميتها، قال أحسن الله إليه:

«... وبعدُ، فقد وَصَلَتْ الأيامُ بيني وبين اللغةِ العربيةِ بأوثقِ الصلات، وجَرَى القَدَرُ أن أكون من العاكفين عليها تعلُّماً وتعليماً، وأن أقضِيَ السنين الطِّوالَ في دراسةِ علومها، وقراءةِ ما جادَتْ به قرائحُ الأفذاذِ من أبنائها، والأعلامِ المشتغلين بها، فوجدتُني أمامَ مَوْرِدٍ لا يَنْضُب، بل بَحْرٍ فسيحِ الجَنَبات، بعيدِ الأعماق. وقد بدا لي فيما تناوَلْتُهُ ظاهرتانِ غريبتانِ، لهما أكبرُ الأثر في هذه اللغة وفروعها. ـ أكتفي هنا بذكر الأولى لمناسبتها المقام ـ.

فأمَّا الأولى: فتلك العنايةُ المعجزةُ التي بَذَلها الأولون في جَمْع أصولها، ولَمِّ شَتَاتِها، واستنباطِ أحكامِها العامَّةِ والفرعية، وحِياطتِها بسِياجٍ متين من اليَقَظةِ الواعية، والحَيْطةِ الوافية، والتضحيةِ الغالية، في عُصور غلبَتْ فيها الجهالة، وشاعَتْ الأُميَّة، وعزَّتْ أسبابُ الاتصال، فضربوا بهذا أحسنَ الأمثال، وأبقاها على الدهر، وقَهَرُوا التاريخَ على الشهادةِ لهم بالصبرِ الصابر، والكَدْحِ =

= الدائب، والفَناءِ في الجلائل، حِسْبَةً وائتجاراً.

وهل أدَلُّ على هذا من المراجع الكبيرة التي تركوها، والكتبِ المستفِيضةِ التي خلَّفوها، والنفائسِ العلميةِ والأدبيةِ التي تَمُوجُ بها الخزائنُ ودُورُ الكتب، وفي كل سطر من سطورها آيةٌ تَنطِق بفضلِهم، وتعترفُ بنصيبِهم الأكمل، من الدِّقَّة، والتحري، والضبطِ، والأمانة، ووفرةِ التحصيل، وتَدلُّ على فهم ثاقب، وعقلٍ راجح، وذَكاءٍ لمَّاح، وإخلاصٍ نادر، في وقتٍ يَرْزَحُون فيه تحت أعباءِ العَيْش الضَّنْك، وأثقالِ الحياةِ الخَشِنة، محرومين ما ننعَمُ به اليومَ من وسائل المعاونة على الإعدادِ والإنجازِ، فلا الأوراقُ لديهم حاضرة، ولا الأقلامُ قريبة، ولا المَحابرُ والمصابيحُ ــ وإن كانت بدائية ــ سَهْلة، ولا المَراجعُ العلميةُ موجودة، ولا وسائِلَ تَنقُلُهم ــ على خشونتها وقَسْوتِها ــ مُعدَّة.

لكنَّ العزم إذا صَدَق حقَّقَ الغاية، والنيَّةَ إذا خَلَصَتْ قرَّبَتْ المأمول. وقد صَدَق منهم العزمُ، وخلَصَتْ النية، فكان من وراء ذلك كلٌّ عجيب.

وإن المرء ليقف أمام أَحَدِ المراجع التي تركوها، فيتعاظَمُهُ الأمر، ويُسائِلُ نفسَه: أهذا عَمَلُ فَرْد، أم عَملُ جماعة؟ بل إنَّ الشكَّ ليَغْلِبُهُ في موقفِه، ويَدفعُهُ إلى الإلحافِ في تساؤله: أهذا عَملُ جماعةٍ واحدة؟ إذ كيف تستطيع جماعةٌ منهم أن تتحملَ العِبءَ الذي تَنُوءُ اليومَ به الجَمَاعَات، وتُذَلِّلَ الصِّعابَ التي تستعصي على الطاقة، وتُظهِرَ المعجزاتِ التأليفية في عصورٍ بطَلَتْ فيها المعجزات؟!

لكنَّ الجواب لا يَلبَثُ أن يُفاجِئَهُ من تلك الآثارِ اللغوية المتنوعة، والثقافيةِ الباهرة، التي تكشِفُ عن أفرادٍ وَهَبُوا أنفسَهم للغتِهم، ووقفوا عليها حياتَهم، وتقرَّبوا إلى الله بخدمتها، فدَانَ لهم البعيد، وذَلَّ العَصِيّ، ودخَلَ المُحالُ في مَجالِ الإمكان.

وإنك لتقرأ ثَبَتاً واحداً بأسماء الكتب التي ألَّفَها منهم لُغَوِيٌّ، أو أديبٌ، أو نَحْوي، أو عالم، في ناحيةٍ مَّا من علومهم، فيَستَبِدُّ بك العَجَبُ والإعجابُ معاً، مؤلَّفاتٌ تتجاوَزُ العشرةَ إلى العَشَرات، كلٌّ منها متعدِّدُ الأجزاء، وكلُّ جزء يَحوِي من الصُّحُف مئات، فيها من فريدِ المسائل ونَفيسِها ما قد يُعجِزُ المرءَ عن تَعدادِه، ويُقعِدُهُ عن مجرَّدِ قراءتِه، فكيف الشأنُ بتفهُّمِهِ واستيعابِه، بَلْهَ جَمْعَهُ، وتأليفَهُ، واستخلاصَ فُروعِه، واستنباطَ أحكامِه.

لستُ الآن بسبيلٍ من تلك المراجع، وحَصْرِها، وسَرْدِ أسماءِ المشهورِ منها، كالأغاني، والأمالي، ولسانِ العرب، والمخصَّص، وتاج العروس، و«الكتاب» لسيبويه، والمفصَّل، وشروحِهِ، والشافِيَة، وشروحها، وغير هذا من أمهات المراجع اللغوية، والأدبية، والنَّحْوية، =

= والبلاغية. . .

لكني أكتفي بإحالةِ القارىء إلى مقدِّمةِ «تاج العروس شرح القاموس»، لِيَرى ويَعجَبَ، يَرى أسماءَ المراجع التي اعتَمَد عليها المؤلفُ في إعدادِ كتابه، ويَعجَبُ أن يكون للمَراجِعِ اللغويةِ وَحْدَها ذلك العَدَدُ العديدُ من الكتب، ذواتِ الأجزاء الكثيرة، التي يَحوي كلُّ جزء منها مِئاتِ الصفحات، على الرغم مما سجَّلَهُ المؤلِّفُ في مقدمته، من: أنه اهتَدَى إلى بعض المراجع دون بعض، ووَقَعَ على القليل دون الكثير، فما عسى أن يكون ما لم يَطَّلع عليه، وعدَدُ أجزائِه، وصَحَائفِه، وما تَحوِيه سُطورُه من نصوصٍ، وبحوثٍ، وقواعِدَ، وأحكام. . . !

هذا كتابُهُ «تاج العروس» عشَرَةُ أجزاءٍ ضِخام، في كل جزء أربعُ مئة صفحة أو يزيد. حَوَى من مادة اللغة، وأصولِها، وروافِدِها، وجَداوِلِها، ما لا قِبَلَ لأمثالِنا بحَصْرِه، ولا طاقَةَ لكثيرٍ من المُعاصرين المثقفين بتصفُّحِه. فما الظنُّ بتدبُّره، أو تحصيلِه، أو إعدادِ مسائله!

وهذا كتابُ «المُخَصَّص» لابن سِيْدَهْ، أَلَّفَهُ صاحبُهُ وهو ضَرِير، سلَبَتْه الأيامُ أكرمَ حَوَاسِّه، وأنْفَسَ ما يَحتاجُ إليه العلماءُ الباحثون، ولم يَمنعه العَمَى القهَّارُ أن يُخرِجَ للناس كُتُباً جليلة، منها «المخصَّص» في سبعةَ عَشَر جزءاً، في كل جزء قُرابةُ ثلاثِ مئة صفحة، بها من أصول اللغة، وخصائِصِها، ونواحي اتصالِها بالحياة، ما جعلَهُ قِبْلَةَ اللُّغَويين في العصور المختلِفة، ولا سيما عَصْرَنا الزاهي بألوانِ الحضارةِ المستحدثة، وأفانينِ الابتكارِ المتجدِّد، حيث تشتدُّ الحاجَةُ إلى أسماءٍ لمسمَّياتها، ودلائلَ لمدلولاتها، وأنَّى لنا بها إلا عند «المُخَصَّص» وأمثالِهِ، فمنه العَوْنُ، وإليه المَفْزَع.

وهذا كتابُ «الأغاني» في واحدٍ وعشرين جزءاً، كلٌّ منها مجلَّدةٌ ضخمة، حافلةٌ بفنون الأدب، وطرائفِ اللغويات، وأعذَبِ المُلَح والأخبار. . . ولا يزالُ حتى اليوم مَوْرِداً صَفْواً، يتزاحَمُ عليه رُوَّادُ الآدابِ والفنون. وهذا. . . وهذا. . . وهذا. . . مما لا سبيلَ إلى حَصْرِهِ أو الإلمامِ بمُوجَزِ وَصْفِه.

وجُهدُ العاجز أن يقول: إنَّ علماءنا السابقين ــ أجزل الله ثوابهم ــ أخلصوا للغتهم، وجاهدوا في ميادينها حَقَّ الجهاد، وغادَرُوا دُنياهم وقد أبلَوْا خيرَ البلاء، واستَنْفَدُوا وسائلَ التضحيةِ النزيهة، فاستوجبوا الثناءَ عليهم، واستخلصوا الدُّعاءَ لهم، وسجَّلوا أسماءَهم في صُحُفِ الأبرار الخالدين.

والحقُّ أن الدهر جادَ بهم في غَفْوةٍ من غَفَواتِه، وأطلَعهم شُموسَ هدايةٍ وعِرفان، فلما صَحَا استَردَّ ما مَنَح، وسَلَبَ ما أَعطى، وتركَنا نرتقبُ منه غفوةً جديدة، تُبشِّرُ بقُربِ الغايةِ ودُنوِّ المبتغى. =

٣٩٤ ـ شهدنا من خلال هذه الصفحات، سِرَّ عَظَمَةِ هذه المكتبة الإسلامية وسِرَّ سَعَتِها، وأنها ما كانت تكون بهذه الكثرةِ التي لا تنقطع، لولا تلك العزائمُ الإيمانية، والقلوبُ الطاهرة، والنفوسُ الزكية، التي وَهَبَتْ وجودَها للإسلام وعلومِه.

مَعَ ملاحظةِ الفارقِ بيننا وبينهم، فيما كانوا عليه من العُسْرِ في الأمورِ المعاشية، والشؤونِ اليومية، في شأنِ الماءِ والطعامِ والضوءِ والمواصلاتِ ووسائلِ الكتابةِ وما يتصلُ بها، فلا ماءَ إلا بجُهدٍ شديدٍ ودَلْوٍ ورِشَاء، أو استقاءٍ من النَّهْرِ أو عَيْنِ الماء، ولا يخفى ما في ذلك من العَنَاء! ولا طعامَ بسُهولةٍ ويُسْرٍ كما يُرام، ولا ضوءَ يَصحَبُهم حيث شاؤا، ولا سيَّارةَ أو طيَّارةَ تُقِلُّهم حيث رغبوا، ولم تكن وسائلُ العلم وأدواتُهُ ميسَّرَةً لهم في كل طريق ومكان.

ومَعَ كلِّ هذا جاؤا بالعَجَبِ العُجَاب، الذي خَضَعَ له وأَذْعَنَ لِفضلِهِ الأعداءُ قبلَ الأصدقاء، وكانت هِمَّةُ كثيرٍ منهم أقوَى من جِسْمِه، وعَزِيمَتُهُ أمضَى من قَلَمِه، ومن كانت هذه حالَه، لم يَعزَّ عليه مَطْلَب، ولم يَنِدَّ عنه مَأْرَب.

٣٩٥ ـ شهدنا في هذه الصفحات هذا العَنَاءَ الطويلَ العريضَ المَدِيدَ، الذي كان عليه آباؤنا في تحصيل العلم ونَشْرِه، واليومَ قد هُيِّئَتْ للدارسِ سُبُلُ الراحة، بل

= إني لا أَرى لأُولئك العلماء بيننا أنداداً، ولا أعرِفُ لهم في أيامنا قُرناء، اللهم إلا طائفةً يسيرة من رجالِ العلم الحديث في البلاد الغَرْبِيَّة ونحوِها، وهبوا أنفسَهم له، وافتَدَوْه بالنَّفِيسَيْن، وماثَلُوا علماءنا القُدامَى في الصبرِ والدأَبِ والتضحية، فكان لهم ما أرادوا، وكان للعالَمَ على أيديهم هذه المدنيّة التي لم تشهدها الأرضُ من قبل[1].

ولو أن طائفة من علماءنا السابقين ـ غفر الله لهم ـ انقطعَتْ للدراسات الكونية، وأَطلقَتْ عقولَها وراءَ الطبيعة، تكشِفُ أسرارَها، وتَستخلِصُ دخائلَها، وتستخدمُ قُوَاها الماديَّةَ وغيرَ الماديَّة، لأدركَتْ من ذلك ما أدركه غيرُها أو زادَتْ، ولسَابَقَتْ في ميادين الحضارة فسَبقَتْ، أو لم تتخلف، فقد مَنَحها الله من صادقِ الرغبة، وعظيمِ المُثابَرة، وساطعِ الذكاءِ، ما يَكفُلُ ذلك».

. . . .

(١) قلت: أجحف الأستاذ عباس حسن بحق المتأخرين من علمائنا، فدونك: محمد عبد الحي اللَّكْنوي، ومحمد أشرف علي التهانوي، ومحمد عبد الحي الكتاني، وقبلَهم: علياً القاري، والسيوطي، انظر أواخر كتابي «قيمة الزمن عند العلماء».

سُبُلُ الرفاهِيَةِ في كلِّ شأنٍ من شؤون العلمِ والحياة، فهو يَدْرُسُ الآن في أمكنةِ الدراسةِ المُريحة، ذات الأجواءِ المكيَّفة، والأنوارِ الوضَّاءة، والهواءِ البارِدِ الناعِمِ البليل صيفاً، والدافىء المُريحِ شتاءً، وتُقدَّمُ له الكتبُ المطبوعةُ المخدومةُ بالعنايةِ والإخراجِ الجميل، المؤلَّفةُ على أيسرِ الأساليبِ وأفضلِها سُهولةً ومُتْعَة، وبعضُ المعاهد تُقدِّمُ الكتبَ للدارسين مجاناً.

وتَيَسَّرَتْ الآن للدارسِ الراحِلِ عن بَلَدِهِ أسبابُ السَّفَر ووسائلُهُ ولو إلى أقصى الشرق أو الغرب، بسُرعةٍ مُذْهِلةٍ، وراحةٍ شاملة، فهو يَتمكَّنُ من قَطْعِ مَسافةِ الشهرِ والشهرينِ قديماً في يوم واحد، ومن قَطْعِ مسافةِ أسبوعٍ في ساعةٍ أو دُونَها، في حين أنَّ سَلَفَهُ كان يُلاقي في ذلك الشدائدَ والأهوال، ويمشي الليالِيَ الطِّوال، ليَحصُلَ على حديثٍ واحد، أو كتابٍ يَراهُ أو يَنْسَخُ منه، أو مسألةٍ علميةٍ يتلقاها من عالمٍ جليل، أو مُحدِّثٍ نبيل، يُشَامُّهُ ويأخُذُ عنه العلمَ والدين.

والدارسُ الآن يَسمَعُ صوتَ العالِم المرموق في داخلِ بيته، ويَشهَدُ فيه صُورتَهُ إلى جانب صَوْتِهِ، ولا يَعجِزُ عن الوصول إلى كتابٍ مطبوع تملكاً، أو مخطوطٍ تصويراً من المكتباتِ العامةِ القريبةِ أو البعيدة، وهو جالسٌ في بيته، متكىءٌ على أَرِيكَتِه، يُصوِّرُ الكتابَ الذي كان يكتبُهُ سَلَفُهُ في شهر، بنصفِ ساعة، فإذا هو لديه كالأصل لا نَقْصَ ولا زيادة ولا تصحيفَ ولا تحريف.

شَتَّان ما يَوْمِي على كُوْرِها ... ويَوْمُ حَيَّانَ أخِي جابِرِ(١)!

فرَحَماتُ اللّهِ تعالى على العلماءِ السابقين، العاملين المؤلِّفين، الصابرين المحتسبين، الذين صَبَرُوا وصابَرُوا، وخَلَّفُوا وآثَرُوا.

مَاتُوا وغُيِّبَ في التُّرابِ شُخُوصُهُمْ ... فالنَّشْرُ مِسْكٌ والعِظَامُ رمِيْمُ

(١) انظر شرح هذا البيت وبيانَ معناه وما وقع فيه من تصحيف وتحريف، في آخر رسالتي «صفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين» ص ١٥٥ ـ ١٥٩.

٣٩٦ ــ قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي رحمه الله تعالى، بعد ذكرِهِ انتقالَ مشايخِهِ ــ الذين كانوا أئمةَ القرنِ الخامسِ وبركَةَ الزمانِ للناس ــ إلى الدار الآخرة:

«حاشا المُبدِىءَ الخالقَ لهم على تلك الأشكالِ والعُلُوم، أن يَرضى لهم في الوجود بتلك الأيام اليسيرة، المَشُوبةِ بأنواع الغُصَص، وهو المالك، وبتلك اللَّمْحَةِ التي عاشوها في الدنيا، وقد مُزِجَتْ بالعَلاَقِم، لا واللَّهِ: لا رَضِيَ لهم إلا بضِيافةٍ تَجمَعُهم على مائدةٍ تَلِيقُ بكَرَمِهِ سبحانه: نَعِيمٌ بلا ثُبُور، وبَقَاءٌ بلا مَوْت، واجتماعٌ بلا فُرْقَة، ولَذَّاتٌ بغيرِ نَغْصَة».

انتهى ملخصاً من «المنتظَم» لابن الجوزي[١]، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب[٢]، وقد صَدَقَ فيما قال، في جَنْبِ الكريمِ المتعال.

فرضوانُ الله تعالى على تلك الأجساد التي بنَتْ لنا هذه الأمجاد، وأشادَتْ بدمها ونُورِ عيونها وشُعلةِ عقولها: ما خضَعَ لفضله وتفوُّقِه كلُّ عدوّ وصديق.

وبارك الله في شبابنا المتعلم، وجعل فيه من يَخْلُفُ أولئك العلماء: علماً وعملاً وسِيرةً، ونشراً للعلم وتأليفاً فيه، وذَوَباناً في تحصيله، ومكّنَ لهم نَصْرَ كلمة الحق في الأرض، لتَقَرَّ بهم العيون، وتستنيرَ بهم العقول، وتستروحَ بهم القلوبُ والأرواح، وبذلك فليفرحِ المؤمنون.

والحمدُ لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

يقول جامعُه الفقير إلى الله تعالى عبد الفتاح بن محمد أبو غُدَّة: فرغتُ من خدمة هذا الكتاب في طبعته الثانية يوم الاثنين ٢١ من رمضان المبارك سنة ١٣٩٤ في مدينة بيروت. وأرجو ممّن يَنتَفِعُ به أن يذكرني بصالحِ دعواته، واللَّهُ المسؤولُ أن يغفر لي وله ولسائر المسلمين، ويَجعلَني وإيّاه من الذين يَستمعون القولَ فيَتَّبعون أحسَنَهُ، وهو أرحم الراحمين.

---

(١) ٩: ٢١٥.

(٢) ١: ١٦٥.

وفَرَغتُ من خدمتِهِ للطبعةِ الثالثة في يوم الأربعاء ١٦ من ذي القَعْدَة سنة ١٣٩٨ في مدينة لَنْدَن، والحمدُ لله رب العالمين على فضلِهِ وعونِه، ثم توقَّفتُ عن تقديمِهِ إلى المطبعة، بُغيَةَ مُراجعةِ بعضِ المواضع فيه، فَبقِيَ حَبِيسَ الانتظارِ أكثَرَ من عَشْرِ سنين! حتى تيسَّرَ لي ذلك بفضلِ اللَّهِ، في مدينة فانكوفر في كَنَدا، في ١ من صفر سنة ١٤٠٩، والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصالحات.

* * *

المحتوى الإجمالي للموضوعات

المحتوى(١)

وكنتُ عزمتُ على صُنع محتوى للتحريفات والتصحيفات التي وقعَتْ في بعض الكتب، ونبَّهتُ إليها في هذا الكتاب، ثم عدلتُ عن ذلك، نظراً لاتساع الكتاب وكبره.

(١) ملاحظة: حرف (ت) يشير إلى أن ما قبله واردٌ في التعليق.

١ ـــ الآيـات القرآنيـة

على ترتيب ورودها في الكتاب

***

٢ ــ الأحاديث النبوية

على ترتيب ورودها في الكتاب

***

٣ ـ الأشعار

مرتبةً على رعاية القافية(١)

إنَّ الملوكَ لَيحكُمون على الوَرَى وعلى الملوكِ لَتحكمُ العلماءُ ٣٧٥

لأحمد بن عمر المُزَجَّد الزَّبِيدي اليمني:

قلت للفقر أين أنت مقيم؟ قال لي في عمائم الفقهاءِ
إنَّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليَّ قَطعُ الإخاءِ ١٥٥

يومٌ بِحُزْوَى ويومٌ بالعَقِيق ويَوْ مُ بالعُذَيبِ ويومٌ بالخُلَيْصَاءِ ٨٥

لأبي الحَسَن الفاليِّ أبيات منها:

لما تَبدَّلَت المَجَالِسُ أَوْجُهاً غيرَ الذين عَهِدتُ من عُلَمائِها
ورأيتُها محفوفةً بسَوى الأُلَى كانوا وُلاة صُدورِها وفِنائِها ٢٦٥

إذا صَحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هَيِّنٌ وكلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ ٢٣١

لأبي محمد بن حزم الظاهري:

مـن لم يَـرَ الـعـلمَ أغـلَى مـن كـل شيءٍ يُـصـابُ
فـلـيس يُـفْـلِـحُ حـتى يُحْـثَـى عـلـيـه الـترابُ ٢٢٧، ٣٠٥

وكان بنو عَمِّي يقولون: مَرْحباً فلما رأوني مُعْسِراً مات مَرْحَبُ! ١٥٦

---

(١) لَمَّا كانت الأشعارُ الواردةُ في هذا الكتاب: (الصفحات)، من الأشعار الأدبيةِ والحِكميَّةِ، والأبياتِ المفردةِ المنتخبةِ المختارة، ذاتِ المعاني السامية، والأفكار الراقيةِ العالية: اختَرْتُ إثباتَ البيتِ بكامِلِهِ في هذا المحتوى، ولم أقتصر على الشطر الأخير منه كما يُفعَلُ في بعض الكتب، وإذا كان للبيت صِنْوٌ أو صِنْوانِ ذُكِرَا معه أثبتُّ الاثنين أو الثلاثةِ جميعاً، إكمالاً للمعنى المستشهَدِ له، وقد جاء في بعض المواضع قِطَعٌ من الشعر تزيدُ على ثلاثة أبيات، فمِثلُ هذه المقطوعات أكتفي بذكر البيتين الأوَّلين منها، وأشيرُ إلى أن لهما بقيةً ذُكِرَتْ معهما هنا، فأقول: لفلان أو لبعضهم أبياتٌ منها:

ويُلحَظُ أن هذه الطريقة فيها تكثيرُ صفحاتِ الكتاب، ولكنها مفيدة ميسِّرةٌ لمن أراد الرجوعَ أو الحفظَ للبيت الشاهد، فإنَّ بعض تلك الأبيات يقع موقع قصيدةٍ، أو كتابٍ، أو درسٍ من دروس الحياة، لما تضمَّنَهُ من المعاني الجِسَامِ والحِكَمِ البليغةِ الغالية، فيُغتَفَرُ لأجلِ هذا زيادةُ بعضِ الصفحات للكتاب.

وكنت أرى أن قد تناهى بيَ الهوى إلى غاية ما بعدَها ليَ مذهبُ
فلما تلاقينا وعايَنْتُ حُسْنَها تيقنتُ أني إنما كنتُ ألعَبُ ٣٦٨
ومن تكن العَلْيَاءُ هِمَّةَ نفسِهِ فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحَبَّبُ ٢٢٦
والعلمُ أغْلَى ما يباعُ ويُوهَبُ ٣٧٣

لمحمد بن مظفَّر النَّحْوي:
على قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تأتي خُطوبُه ويُعرَفُ عند الصبرِ فيما يُصيبُهُ
ومَنْ قَلَّ فيما يَتَّقِيه اصطبارُهُ فقد قلَّ فيما يَرتجيه نصِيبُهُ ٢١٢

لأبي إسحاق الغَزِّي:
حَمَلْنا من الأيام ما لا نُطيقُهُ كما حَمَل العظمُ الكَسِيرُ العَصَائبا ١٥٩

لابن فارس:
وصاحب لي أتاني يَستشيرُ وقد أراد في جَنَبات الأرض مُضْطَرَبا
قلتُ: اطَّلِبْ أيَّ شيء شئتَ واسْعَ وردْ منه المَوَارِدَ إلَّا العلمَ والأدبا ١٥٧

فسار مَسِيرَ الشمسِ في كل موطنٍ وهَبَّ هُبوبَ الريح في الشرقِ والغربِ ٣٢٣
لولا عجائبُ صُنعِ اللهِ ما نَبَتَتْ تلك الفضائلُ في لحمٍ ولا عَصَبِ ٦٠، ٧٣ت
٣٨٥

لسعد الدين التفتازاني:
إذا خاض في بحر التفكر خاطري على دُرَّةٍ من مُعْضِلاتِ المَطالبِ
حَقَرتُ ملوكَ الأرض في نَيْل ما حَوَوْا ونِلْتُ المُنَى بالكُتْبِ لا بالكتائبِ ٣٥٨

أآخِرُ شيءٍ أنتِ في كل هَجْعَةٍ وأوَّلُ شيءٍ أنتِ عندَ هُبُوبـي ٣٧٣

وفقدُ الكتابِ كَفقدِ الصوابِ فيا هَوْلَ من قد أضاعَ الكُتُبْ ٢٦٣

ماتوا فأحياهُمُ إحياءُ لَيْلِهِمُ ومَنْ سِوَاهُمْ أناسٌ بالكَرَى ماتُوا ٣٨٤

لابن فارس:
إذا كان يؤذيكَ حَرُّ المَصِيفِ ويُبْسُ الخريف وبَرْدُ الشِّتَا
ويُلهيكَ حُسْنُ زمان الربيعِ فأخذُك للعلمِ قل لي: متى؟! ٣٦٩
يموتُ قومٌ فيحيـي العلمُ ذِكْرَهُمُ والجهلُ يُلحِقُ أمواتاً بأمواتِ ٣٧٢

للشريف الرَّضيّ:
ولكل جسمٍ في النُّحولِ بَلِيَّةٌ وبَلاءُ جِسْمِي مِن تَفاوُتِ هِمَّتي ١٤٣

للحافظ السِّلَفِي:
أنـا مـن أهـل الحـديـثِ وهُـمْ خـيرُ فِئَـهْ
جُـزْتُ تـسـعـين وأرجـو أن أجـوزنَّ المِئَـهْ ٩٤

لابن فارس:
وقالوا كيف حالُك؟ قلتُ خيرٌ تَقضَّى حاجةٌ وتفوتُ حَاجُ
إذا ازدحمت هُمومُ الصَّدْرِ قلنا عسى يوماً يكونُ لها انفراجُ
نديمي هِرَّتي وأنيسُ نفسي دَفاتِرُ لي ومعشوقي السِّراجُ ٢٥٧

لابْن رُشَيْد السَّبْتِي:
فغرِّبْ ولا تَحْفِلْ بفُرقةِ مَوْطِنٍ تَفُزْ بالمُنَى في كلِّ ما شئتَ من حَاجِ
فلولا اغترابُ المِسْكِ ما حَلَّ مَفْرِقاً ولولا اغترابُ الدُّرِّ ما حَلَّ في التَّاجِ ٤٩

لأبـي إسحاق الغَزِّي:
لا تَعجَبنَّ لمن أغناه عن أدب جَهْلٌ فإنَّ العَمَى يُغني عن السُّرُجِ
أخفاك مكْثُك في أرضٍ نشأتَ بها وليس يُعرَفُ قَدْرُ الدُّرِّ في اللُّجَجِ ٤٨
إذا تضايَقَ أمْرٌ فانتظِرْ فَرَجاً فأضْيَقُ الأمرِ أدناه إلى الفَرَجِ ٣٧٠

لبديع الزمان الهَمَذَاني:
كَنَفِي بَعِيري إنْ ظَعَنْتُ ومَفْرَشي كُمِّي، وجُنْحُ اللَّيلِ مَطْرَحُ هَوْدَجي ٣٦٢

لكُثَيِّر عَزَّة:
رَمَتْني بسهمٍ رِيْشُهُ الكُحلُ لم يُصِب ظواهرَ جسمي وهو في القلبِ جَارِحُ ١٨٢ ت

لجرير:
ثِقي بالله ليس له شريكٌ ومِن عندِ الخليفةِ بالنَّجَاحِ ١٨٤
وما هي إلَّا جَوْعةٌ قد سَدَدتُها وكلُّ طعامٍ بين جنبـيَّ واحِدُ ١٥١
وحدَّثْتني يا سَعْدُ عنها فزِدتَني جُنوناً فزِدْني من حديثك يا سَعْدُ
هَوَاهَا هَوىً لم يَعرف القلبُ غيرَهُ فليس له قَبْلٌ وليس له بَعْدُ ٣٨٨

لأبـي العلاء المَعَرِّي:
الصَّبْرُ يُوجَدُ إن باءٌ له كُسِرَتْ لكنه بسُكونِ الباءِ مَفْقودُ ١٣٠ ت، ١٥٥

للوزير المهلَّبـي:

ولو أني استزدتُك فَوْقَ ما بـي من البَلْوَى لأعوزَك المَزِيدُ
ولو عُرِضَتْ على المَوْتَى حَيَاةٌ بعَيْشٍ مِثلِ عَيْشي لم يُرِيدوا ١٥٨، ٢٠٢

لشيخنا القاضي أحمد بَنَّاني الرِّباطي أبياتٌ منها:

إذا رُمتَ الجنانَ وساكنيها وإمتاعَ العُيُونِ بما يُفيدُ
فكُتْبُك جَنَّةُ الفِرْدَوسِ فيها ثِمارُ الخلدِ تَجني ما تُريدُ ٣٢٣ ت

نفسي فِداؤك مِن مَيْتٍ ومن بَدَنٍ ما أطيَبَ الذكرَ والأخلاقَ والجَسَدَا ٩٨

يا رُبَّ سَارٍ باتَ ماتَوَسَّدا إلَّا ذِراعَ العَنْسِ أوكَفَّ اليَدَا ٣٦٢

جَزَى اللَّهُ المسيرَ إليه خَيْراً وإن تَرَكَ المَطَايَا كالمَزَادِ ٩٥

وقد يَقصرُ القُلُّ الفَتَى دُونَ هَمِّهِ وقد كان لولا القُلُّ طَلَّاعَ أَنْجُدِ ١٥٧

لا تَعْرِضَنَّ لذكرِنا مَعَ ذِكْرِهم ليس الصحيحُ إذا مَشَى كالمُقْعَدِ ٣٧٩ ت

لشيخنا مصطفى صبري أو زاهد الكوثري أبيات منها:

صام شيخُ الهندِ الحديثةِ غَنْـدِي صَوْمَةَ المستميتِ والمتحدِّي
وأَرَاني على شَفَا المَوْتِ أُدْعَى شيخَ ٱلاسلامِ بَلْهَ سِنْدٍ وهِنْدِ ٢٢٧

أولئك الناسُ إن عُدُّوا وإن ذُكِرُوا ومَنْ سِوَاهم فلَغْوٌ غيرُ مَعْدُودِ ٢٠٤

ولبعض الراحلين من المغرب للمشرق يمدح أبا العلاء الهمذاني أبياتٌ منها:

سَعى إليـك عـلى قُـرْبٍ ومِن بُعُـدٍ للحشر من كان ذا رغبةٍ في العِلْمِ والسَّنَدِ
حتى أنـاخ بمَغْنـاكَ الكـريمِ وقَـدْ كَـلَّتْ ركـائبُـهُ في الـغَيْـطِ والسَّـنَـدِ ٣٢٤

خَلَقَ اللَّهُ للحروبِ رِجالاً ورِجالاً لِقَصْعَةٍ وثَرِيدِ ٣٦٩

لأبـي العلاء المعري:

هذا جناه أبـي عَلَيَّ وما جَنَيْتُ على أَحَدْ ٢٨٦

فما هِيَ إلَّا سَاعةٌ ثم تَنقضي ويَحمَدُ غِبَّ السَّيرِ مَنْ هُوَ سَائرُ ٣٧٠

للقاضي علي بن عبد العزيز الجُرْجَاني:

وقالوا توصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى وما عَلِمُوا أنَّ الخضوعَ هو الفقرُ
وبيني وبين المالِ شيئانِ حَرَّما عليَّ الغِنَى: نفسي الأبيةُ والدَّهْرُ ١٥٤

إيهِ أحاديثَ نَعْمانٍ وسَاكِنِه إنَّ الحديثَ عن الأحباب أَسْمَارُ ٣٨٨

إذا تغلغل فِكْرُ المرءِ في طَرَفٍ   من علمِهِ غَرِقَتْ فيه خَوَاطِرُهُ   ١٢٦ ت

للإمام الشافعي أبيات منها:

أَمطِري لُؤْلُؤاً سَماءَ سَرَنْدِيْبَ   وفِيْضي آبارَ تُكْرُورَ تِبْرا
أنا إن عِشتُ لستُ أعدَمُ قُوتاً   وإذا مِتُّ لَستُ أعدَمُ قبرا   ١٥٤

صابَرَ الصَّبْرَ فاستغاثَ به الصَّبْرُ   فقال الصَّبُورُ يا صَبْرُ صَبْرا   ١٥٥

دَبَبْتُ للمجد والساعون قد بَلَغُوا   جُهدَ النفوسِ وأَلْقَوْا دُوْنَهُ الأُزُرَا
وكابَدُوا المجدَ حتى مَلَّ أكثرُهم   وعانَقَ المجدَ مَنْ أوفَى ومَنْ صَبَرَا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تَلْعَقَ الصَّبِرا   ١٣٠

لأبي العلاء المَعَرِّي:

والمالكيُّ ابنُ نَصْرٍ زارَ في سَفَرٍ   بِلَادَنا فحَمِدْنا النَّأْيَ والسَّفَرا
إذا تفقَّهَ أحيا مالِكاً جَدَلاً   ويَنْشُرُ الملِكَ الضِّلِّيلَ إن شَعَرا   ٢٠٨

ودَخلْتُ فيها جاهِلاً مُتَواضِعاً   وخَرَجتُ منها جاهِلًا مغرورا   ٣٧٦ ت

لأبي العَتَاهِيَة:

إذا أبقَتِ الدُّنْيَا على المَرْءِ دِينَهُ   فما فاتَهُ منها فليس بضَائِرِ   ٢٣٤

ولم يَتَّفِق حتى مَضَى لِسبيلِهِ   وكم حَسَراتٍ في بُطونِ المَقَابِرِ   ٧٤، ٢٦٦

للأعشى ميمون:

شتَّانَ ما يَوْمِي على كُوْرِها   ويومُ حَيَّانَ أخي جابِرِ   ٣٩٣

للعَرْجي:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا   ليوم كريهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ   ١٧٢
شُغِلنا بكسب العلم عن مكسَبِ الغِنَى   كما شُغِلُوا عن مكسبِ العلم بالوَفْرِ
وصار لهم حَظٌّ من الجهلِ والغِنَى   وصار لنا حظٌّ من العلمِ والفَقْرِ   ١٦١

لياقوت الحَمَوي أبياتٌ منها:

وقفتُ وقوفَ الشكِّ ثم استَمَرَّ لي   يقيني بأنَّ الموتَ خيرٌ من الفَقْرِ
فوَدَّعْتُ مِنْ أهلي وبالقلبِ ما بِهِ   وسِرْتُ عن الأوطانِ في طلب اليُسْرِ   ١٥٨

لأبي العَتَاهِيَة:

ألم تَرَ أن الفقرَ يُرجَى له الغِنَى   وأن الغِنَى يُخشَى عليه من الفَقْرِ!   ١٦١

لأحمد سحنون الجزائري أبيات منها:

أبا غدةٍ قد زُرتنا بعدَ مُدَّةٍ ذكرناك فيها بالجميل من الذكرِ
على صفحاتٍ فَذَّةٍ قد كتبتَها تُبَيِّنُ أنَّ العلمَ يدركُ بالصبرِ ١٥

لابن جرير الطَّبَري:

خُلُقانِ لا أرضَى طريقَهما بَطَرُ الغِنَى ومَذَلةُ الفقرِ
فإذا غنِمتَ فلا تكن بَطِراً وإذا افتقرتَ فتِهْ على الدهرِ ٢٤٤

فإنْ كنتِ قد أَقْصَدتِني إذ رَمَيْتِني بسَهْمَيْكِ فالرامي يَصيدُ ولا يَدري ١٨٢ ت

أهتَزُّ عند تمنّي وَصْلِها طَرَباً ورُبَّ أُمنيةٍ أحْلَى من الظَّفَرِ ٩٥

جمالَ ذي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهم بعدَ المماتِ جَمَالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ ٣٧٢

لمحمودٍ الوَرَّاق:

يا عائبَ الفقرِ أما تَنْزَجِرْ عَيْبُ الغِنَى أكبرُ لو تَعْتَبِرْ
مِن شَرَفِ الفقرِ ومِن فَضْلِهِ على الغِنَى لو صَحَّ منك النَّظَرْ
أنك تَعصي اللَّهَ تبغي الغِنَى ولسْتَ تعصي اللَّهَ كي تَفْتَقِرْ ١٦١

حَمَلتُ إليك عَرُوسَ الثناءِ على هَوْدَجٍ مالَهُ مِن بَعِيرْ
على هَوْدَجٍ من قراطيسِ مِصرٍ يَلِينُ على الطَّيِّ لِينَ الحريرْ ٣٢٩ ت

للقاضي علي بن عبد العزيز الجُرْجَاني:

ما تطعَّمتُ لَذَّةَ العيشِ حتى صِرتُ للبيتِ والكتابِ جَلِيسَا
ليس شيءٌ أعزَّ من العلم فما أبتغي سِوَاهُ أَنِيسَا
إنما الذُّلُّ في مُخالَطَةِ النَّا سِ فدَعْهُم وعِشْ عزيزاً رئيسَا ٢٥٦

لأبـي الحَسَن الفَالـي:

تصدَّرَ للتدريس كلُّ مُهَوَّسٍ بليدٍ تَسمَّى بالفقيهِ المُدَرِّسِ
فحُقَّ لأهل العلم أن يَتمثَّلوا ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كل مجلسِ
«لقد هُزِلَتْ حتى بَدَا مِن هُزَالِها كُلَاها وحتى سَامها كلُّ مُفْلِسِ» ٢٦٥

الجُوعُ يُدْفَعُ بالرغيفِ اليابسِ فعلامَ أُكثِرُ حسرتي ووَسَاوِسي
والموتُ أنصفَ حين ساوَى حُكمَهُ بين الخليفةِ والفقيرِ البائِسِ ١٥٣

للحُطَيْئَةِ:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيتِها واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسي ٣٦٩

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صَدِيقُهُ وأَوْمَتْ إليه بالعُيوبِ الأصابعُ ١٥٦

للفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المَجامِعُ ١٣٣ ت، ٣٥٥

للأعشى ميمون:

تقولُ بنتي وقد قرَّبتُ مُرْتَحَلاً يا رَبِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصَابَ والوَجَعَا

عليكِ مِثلُ الذي صَلَّيتِ فاغتَمِضي نَوْماً فإنَّ لِجَنْبِ المرءِ مُضْطَجَعَا ١٨٣

لأبي الحسن الحدَّاد المَهْدِويّ أبيات منها:

قالت وأبدَتْ صَفْحَةً كالشَّمْسِ مِن تحتِ القِنَاعْ

بِعتَ الدفاترَ وهْيَ آ خِرُ ما يُباعُ من المتاعْ ٢٦٧

للقاضي عبد الوهاب بن علي المالكي أبيات منها:

سَلَامٌ على بغدادَ في كلِّ مَوْطِنٍ وحُقَّ لها مني سلامٌ مُضَاعَفُ

فواللّهِ ما فارَقْتُها عن قِلًى لها وإنِّي بشَطَّيْ جانِبَيْهَا لَعَارِفُ ٢٠٨

ليس مِن شِدَّةٍ تُصيبُك إلَّا سَوْفَ تَمضي وسَوْفَ تُكشَفُ كَشْفَا

لا يَضِقْ ذَرْعُك الرَّحيبُ فإنَّ النَّا رَ يَعْلُو لَهيبُها ثم تَطفَا

قد رأينا من كان أَشْفَى على الهُلْـ ـكِ فوافَتْ نَجاتُهُ حينَ أَشْفَى ٢٠٩

لأبي القاسم بن عساكر أبيات منها:

وأنَا الذي سافرتُ في طَلَب الهُدَى سَفَرَيْنِ بَيْنَ فَدَافِدٍ وتَنَائِفِ

وأنا الذي طَوَّفْتُ غيرَ مَدِينةٍ مِن أصبهانَ إلى حُدُودِ الطَّائِفِ ٣٤٧ ت

لأبي إسحاق الغَزِّي:

قالوا: تركتَ الشعرَ قلتُ ضَرورَةً بابُ البَوَاعِثِ والدَّواعِي مُغْلَقُ

خَلَت الديارُ فلا كَرِيمٌ يُرتَجَى منه النَّوالُ ولا مَلِيحٌ يُعْشَقُ

ومِن العجائبِ أنه لا يُشْتَرَى ويُخَانُ فيه مَعَ الكَسَادِ ويُسْرَقُ! ١٥٩ ت

لسفيان الثوري:

سَيَكفِيكَ عما أُغْلِقَ البابُ دُونَهُ　　وضنَّ به الأقوامُ مِلْحٌ وجَرْدَقُ
وتَشْرَبُ من مَاءٍ فُرَاتٍ وتَغْتَدِي　　تُعَارِضُ أَصْحَابَ الثَّرِيدِ المُلَبَّقِ
تَجَشَّى إذا مَا هُمْ تَجَشَّوْا كأنَّما　　ظَلِلتَ بأنواعِ الخَبِيصِ تَفَتَّقُ　　١٦٤

لأبي عبد الله الفقيه المَرَاغي:

إذا رأيتَ شَبَابَ الحيِّ قد نَشَأوا　　لا يَنْقُلُون قِلَالَ الحِبْرِ والوَرَقَا
ولا تَراهم لَدَى الأشياخِ في حِلَقٍ　　يَعُونَ من صالحِ الأخبارِ ما اتَّسَقَا
فَذَرْهُمُ عنك واعلَمْ أنَّهُمْ هَمَجٌ　　قَدْ بَدَّلوا بعُلُوِّ الهِمَّةِ الحُمُقَا　　١٣٩

لأبي محمد الجيلي الفقيه:

ولمَّا بَرَزْنا لِتَوْدِيعهمْ　　بَكَوْا لُؤْلُؤاً وبكَيْنا عَقِيقا
أدَارُوا علينا كُؤُوسَ الفِرَاقِ　　وهَيْهَاتَ مِن سُكْرِهَا أَنْ نُفِيقَا
تَوَلَّوْا فَأَتْبَعْتُهم أدْمُعِي　　فَصاحُوا الغَرِيقَ وصِحْتُ الحَرِيقَا　　٨٧ ت

تَتَقاذَفُ الأهوالُ بـي فكأنَّني　　وُلِّيتُ أمْرَ مِسَاحَةِ الآفَاقِ　　٢١٢

للزمخشري محمود بن عمر أبيات منها:

سَهَري لتنقيحِ العلومِ ألَذُّ لي　　مِنْ وَصْلِ غانِيَةٍ وطِيبِ عِنَاقِ
وتمايُلِي طَرَباً لِحَلِّ عَويصَةٍ　　أَشْهَى وأَحْلَى من مُدامَةِ سَاقِ　　١٣٩

للقاضي عبد الوهاب المالكي:

بَغْدَادُ دارٌ لأهلِ المالِ طَيِّبَةٌ　　وللمَفَاليس دارُ الضَّنْكِ والضِّيْقِ
ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أَمْشي في أزِقَّتِها　　كأنني مُصحفٌ في بَيْتِ زِنْديقِ　　٢٠٨

لابن جرير الطبري:

إذا أَعْسَرْتُ لم يَعلم رفيقي　　وأستغنِي فيَستغني صَدِيقي
حيائي حافِظ لي ماءَ وجهي　　ورِفْقِي في مُطالبتي رَفِيقي
ولو أني سَمَحتُ ببذلِ وجهي　　لكنتُ إلى الغِنَى سهلَ الطريقِ　　٢٤٤

جَزَى اللَّهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ　　وإنْ كانت تُغَصِّصُني بريقِي
وما مَدْحي لها شكراً ولكنْ　　عَرَفتُ بها عَدُوِّي مِن صديقي　　١٥٥

للوزير المُهَلَّبي أبياتٌ منها:

رَقَّ الزَّمَانُ لِفَاقَتِي　　ورَثَى لِطولِ تحرُّقي

فأنالَني ما أرتجيـــهِ وحادَ عمَّا أتَّقِي ٢٠٢

لابن الدهان المَوْصِلي أبياتٌ منها:

وذاتِ شَجْوٍ أسالَ البَيْنُ عَبْرَتَها كانَتْ تُؤمِّلُ بالتفنيدِ إمساكي
لَجَّتْ فلما رأتْني لا أُصِيخُ لها بَكَتْ فأقْرَحَ قلبـي جَفْنُها الباكي ٢١٤

أحاديثُ لو صِيْغَتْ لألْهَتْ بحُسْنِها عن الوَشْيِ أو شُمَّتْ لأغْنَتْ عن المِسْكِ ١٧٦ ت

ولا تَمُدَّنَّ للعَلْيَاءِ منك يداً حتى تَقُولَ لك العَلْيَاءُ هاتِ يَدَكْ ١٥٤

لمحمد بن إدريس البَلَنْسي:

مَثَلُ الرِّزقِ الذي تطلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الذي يَمْشي مَعكْ
أنتَ لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعَاً وإذا وَلَّيتَ عنه تَبِعكْ ١٧٨

لأبـي الطيِّب المتنبـي:

وقد أطالَ ثَنَائي طُولُ لاَبِسِهِ إنَّ الثناءَ على التِّنْبالِ تِنْبالُ ٢٩٧

للوزير يحيى بن هُبَيْرَة:

إذا قَلَّ مَالُ المرءِ قلَّ صَديقُهُ وقُبِّحَ منه كُلُّ ما كان يَجْمُلُ ١٥٦

لأبـي إسحاق الشِّيرَازي:

سألتُ الناسَ عن خِلٍ وفيٍّ فقالوا: ما إلى هذا سَبِيلُ!
تَمسَّكْ إن ظَفِرتَ بذَيْلِ حُرٍّ فإنَّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ! ٢٤٨

للهُذَلي:

وإنَّ سِيَادَةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لَهَا صَعْداءُ مَطْلَعُها طَوِيلُ ٣٦٩

تِلكَ المَكارمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبنٍ شِيْبَا بمَاءٍ فعَادَا بَعْدُ أبوَالَا! ١٠١ ت

فقُلْ لِمُرَجِّي مَعَالي الأمورِ بغَيْرِ اجتهادٍ: رَجَوْتَ المُحالا ٣٦١

لأبـي بكر بن السُّنِّي:

رَضِيتُ من الدنيا بِقُوْتٍ يُقيمُني فلا أَبتغِي مِن بَعْدِه أبداً فَضْلا
ولستُ أُرومُ القُوتَ إلَّا لأنَّهُ يُعِينُ على عِلْمٍ أَرُدُّ به جَهْلا
فما هذه الدنيا بطِيْب نَعِيمِها لأَيْسَرِ ما في العِلْمِ من نُكْتةٍ عِدْلا ٣٥٨

تَسأَلُني أُمُّ الوَلِيدِ جَمَلاَ يَمْشِي رُوَيْداً ويَجِيءُ أَوَّلاَ ١٩٧ ت

لبشار بن بُرْد:

قد تخلَّلتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ولِذَا سُمِّيَ الخليلُ خَلِيلا
فإذا ما نَطقْتُ كنتَ حَدِيثِي وإذا ما سَكَتُّ كنتَ الغَلِيلاَ ٢٤٨ ت

وله أيضاً قولُه:

عَمِيتُ جَنِينَـاً والـذكـاءُ من العَمَى فَجئتُ عجيبَ الـظنِّ للعِلم مـوئِـلا ٢٠٠ ت

للخليل بن أحمد الفَرَاهِيـدي أبياتٌ منها:

أبلِغْ سُلَيْمانَ أنِّي عنه في سَعَةٍ وفي غِنًى غيرَ أني لسْتُ ذا مالِ
شُحًّاً بنفسي، أنِّي لا أَرَى أَحَداً يَموتُ هُزْلاً ولا يَبْقَى علَى حالِ ١٦٦

لأبـي النصر الزَّوْزَني:

ولا أقبَلُ الدنيا جميعاً بذِلَّةٍ ولا أشْتَري عِزَّ المَراتبِ بالذُّلِّ
وأعشَقُ كحْلاءَ المَدامِعِ خِلْقَةً لِئلَّا تُرَى في عَيْنِها مِنَّةُ الكُحْلِ ٣٦٨

لابن هشام النحوي:

ومن يصطبر للعِلْمِ يظْفَرْ بنَيْلِهِ ومن يَخطُبِ الحسنَاءَ يَصْبِرِ على البَذْلِ
ومن لم يذلَّ النَّفْسَ في طلبِ العُلا يَسِيراً يَعِشْ دَهْراً طويلاً أخا ذُلِّ ١٥٣

لأبـي الطيب الطبري:

قَوْمٌ إذا غَسَلُوا ثيابَ جَمَالهم لَبِسُوا البُيُوت إلى فَراغِ الغاسِلِ ٢٤٩

للزمخشري محمود بن عمر أبيات منها:

خليليَّ هل تُجدِي عَلَيَّ فضائلي إذا أنا لم أُرفَعْ على كلِّ جاهِلِ
ومن لي بحقِّي بعدَما وَفَّرَتْ على أرَاذِلها الدنيا حقوقَ الأماثِلِ ١٥٩

للزمخشري محمود بن عمر أبيات منها:

أشكو الزمانَ ولا أرى لِيَ مُشْكِياً ممن يَرَى شَعَثِي ورِقَّةَ حالي
يا حسرتا مَنْ لي بصفقةِ رابحٍ في متجر والفضلُ رأسُ المالِ ١٦٠

للقاضي الرشيد بن الزبير الغَسَّاني المصري:

ولو لم يَزِدْ إحسانُهُمْ وجَمِيلُهمْ على البرِّ من أهلي حَسِبتُهمُ أهلي ٣٦٠ ت

لأبي الطيِّب المتنبي:

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ ١٤١

لابن فارس:

سَقَى هَمَذانَ الغَيْثُ لَسْتُ بقائلٍ سوى ذا، وفي الأحْشاءِ نارٌ تَضَرَّمُ
ومالِيَ لا أُصْفِي الدُّعاءَ لبلدةٍ أفَـدْتُ بها نِسيانَ ما كنتُ أعلَمُ!
نَسِيتُ الذي أحسنْتُهُ غيرَ أنني مَدِينٌ وما في جَوْفِ بَيْتِيَ دِرْهَمُ! ١٥٧، ٢٠٣
مَجَالِسُهم مِثْلُ الرياضِ أنيقةٌ لقد طابَ منها الرِّيحُ واللَّونُ والطَّعْمُ ١٢٤

للحارث بن خالد المخزومي أو للعَرْجي:

أسُلَيْمُ، إنَّ مُصَابَكم رَجُلاً أهْدَى السَّلامَ تحيةً: ظُلْمُ!
أقْصَدْتِهِ وأرادَ سِلْمَكُمُ فلْيَهْنِهِ إذْ جاءكِ السِّلْمُ ١٨٢ ت

للبُحْتُري:

وبَدْرٍ أضاءَ الأرضَ شرْقاً ومَغْرِباً ومَوضِعُ رَحْلي منه أسْوَدُ مُظلِمُ ١٥٩

ماتُوا وغُيِّب في التُّرابِ شُخُوصُهُمْ فالنَّشْرُ مِسْكٌ والعِظامُ رَمِيمُ ٣٩٣

لابن نُبَاتة المِصري:

هَنَاءٌ مَحَا ذاك العَزَاءَ المُقَدَّمَا فما عَبَسَ المحزونُ حتى تَبَسَّمَا ٣٨٨

لابن دقيق العيد أبيات منها:

ولِلَّهِ قومٌ كلَّما جئتُ زائراً وَجَدْتُ نُفُوساً كلُّها مُلِئَتْ حِلْما
إذا اجتمعوا جاؤوا بكلِّ طَرِيفةٍ ويَزْدَادُ بعضُ القوم من بعضهم عِلْما ٣٨٢

لعلي بن عبد العزيز الجُرْجاني قصيدةٌ عصماءُ منها:

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنَّما رأوْا رَجُلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أحْجَمَا
أرى النَّاس مَنْ داناهُمُ هَانَ عِندَهم ومَنْ أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْس أُكرِما ٣٥٢

فأنْعِمْ به في البُعْد زادَ مُسَافِرٍ وأحْسِنْ به في القُرْبِ تُحفَةَ قادِمِ ٦

لابن عبد الدائم المقدسي أبيات منها:

عَجَزْتُ عن حَمْلِ قِرْطاسٍ وعن قَلَمِ مِن بَعْدِ إلْفِيَ بالقِرطاسِ والقَلَمِ
كتبتُ ألْفاً وألْفاً بِن مُجلَّدةٍ فيها عُلومُ الوَرَى من غيرِ ما ألَمِ ٩٩

لأبـي الطيِّب المتنبـي:

وما كلُّ هَاوٍ للجَمِيل بفاعِلٍ وما كلُّ فعَّالٍ لَهُ بمُتَمِّمِ ٣٠٤

فَصَاحةُ سَحبانٍ وخَطُّ ابنِ مقْلةٍ وحكمْةُ لُقْمانٍ وعِفَّةُ مَرْيَمِ

إذا اجتَمَعت في المَرءِ والمرءُ مُفْلِسٌ ونُودِيْ عليه لا يُباعُ بَدِرهمِ ١٥٦

أبـي الإسلامُ لا أبَ لي سِوَاهُ إذا افتخروا بقَيْسٍ أو تميمِ ٣٦١

لأبـي العباس بن سُرَيج:

لَصيقُ فُؤادِي منذُ عِشرينَ حَجَّةً وصَيْقَلُ ذِهْني والمُفرِّجُ عن هَمِّي

عَزِيزٌ على مِثْلي إعارَةُ مِثلِهِ لِمَا فيه من عِلْمٍ لطيفٍ ومن نَظْمِ

جَمُوعٌ لأصنافِ العلومِ بأسْرِها فأَخْلِقْ به أن لا يُفارِقَه كُمِّي ٢٤٢ ت

للأعشى ميمون:

تقولُ ابْنَتِي حينَ جَدَّ الرَّحيلُ أرَانا سَواءً ومَنْ قَدْ يَتِمْ!

أبَانَا فلاَ رِمْتَ مِن عِندِنا فإنَّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

أُرَانا إذا أَضْمَرتْكَ البِلاَ دُ نُجْفَى وتُقطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ ١٨٣

لأبـي بكر محمد الزُّبَيْدِي الإشبيلي:

الفقرُ في أوطاننا غُربةٌ والمالُ في الغُربةِ أوطانُ

والأرضُ شيءٌ كلُّها واحِدٌ والنَّاسُ إخوانٌ وجيرانُ ١٥٧

لابن صَارَة الأندلسي:

أما الوِراقَةُ فهي أَيْكَةُ حِرفةٍ أوراقُها وثِمارُها الحِرمانُ

شَبَّهتُ صَاحِبَها بحالةِ إبْرَةٍ تَكْسُو العُراةَ وجِسْمُها عُرْيانُ ٢١١

لأبـي المظفر الأَبِيْوَرِدي:

تنكَّرَ لِي دَهْري ولم يَدْرِ أنني أَعِزُّ وأَحْداثُ الزَّمانِ تَهُونُ

فباتَ يُريني الدَّهْرُ كيفَ اعتداؤه وبتُّ أُريهِ الصَّبْرَ كيف يكونُ ١٥٥،٣٥٤ت

إذا ما عَلاَ المرءُ رَامَ العُلَى ويَقنَعُ بالدُّونِ من كان دُوْنَا ١٤٠

لبعض شعراء العرب أبيات منها:

نَزَلْنا على قَيْسِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ لها نَسَبٌ في الصالحين هِجانِ

فقالَتْ وأَرْخَتْ جانبَ السِّتْر بيننا لأيَّةِ أرْضٍ أمْ مَنِ الرَّجُلانِ ٣٦١ ت

ومُشَتَّتِ العَزَماتِ لا يأوي إلى سَكَنٍ ولا أهْلٍ ولا جيرانِ
أَلِفَ النَّوى حتى كأنَّ رَحِيلَهُ للبَيْنِ رِحلَتُهُ إلى الأوطانِ ٧٣ ت

للحافظ ابن حَجَر:
لا يُزْعِجَنَّكَ يا سِرَاجَ الدِّين إنْ لَعِبَتْ بكُتْبك ألْسُنُ النِّيرانِ
للَّهِ قد قرَّبتَها فتُقبِّلَتْ والنَّارُ مُسْرِعةٌ إلى القُرْبانِ ٢٧٣

لابن عساكر أبيات منها:
لا قَدَّسَ الله نَيْسَابورَ مِن بَلَدٍ ما فيه من صاحبٍ يُسْلي ولا سَكَنِ
لولا الجَحِيمُ الذي في القَلْبِ من حُرَقٍ لفُرْقَةِ الأَهْلِ والأحبابِ والوَطَنِ ٣٤٧ ت

لأبـي مروان الطُّبْني:
إني إذا احْتَوَشَتْني ألفُ مَحْبَرَةٍ يكتُبْنَ حَدَّثَني طَوْراً وأخبَرني
نادت بحَضْرَتيَ الأقلامُ مُعْلِنَةً: «هَذِي المَفاخِرُ لا قعْبَانِ من لَبَنِ» ١٠١ ت
بالشامِ أهلي وبغدادُ الهوى وأنا بالرَّقْمَتَيْنِ وبالفُسْطَاطِ خُلَّاني ٣٦٧

للخليل بن أحمد الفراهيدي:
إنَّ الذي شَقَّ فَمي ضامِنٌ للرزْقِ حتى يَتوفَّاني
حَرَمْتَني خيراً قليلاً فما زادَكَ في مالِكَ حِرماني ١٦٦

لأبـي الحَسَن الفَالِي أبيات منها:
أَنِسْتُ بها عشرين حَوْلاً وبِعتُها لقد طالَ وَجْدِي بعدَها وحَنيني
وما كان ظَني أنني سأَبِيعُها ولو خَلَّدَتْني في السُّجون دُيوني ٢٦٤

لمحمد بن إبراهيم ابن الوزير أبيات منها:
لك الحمدُ لم تشغَلْ بفقْرٍ يَشقُّ بـي ولا بِغِنًى يُطغِي فؤادِي ويُلهِيني
وفرَّغتَني للعلمِ والحَمْدِ والثَّنا وأَصلَحتَ لي قلبـي وما زِلتَ تَهدِيني ١٦٢

للقاضي الرشيد بن الزُّبَيْر الغَسَّاني المصري:
إنْ كان عندكَ يا زمانُ بقيَّةٌ مما تُهِينُ به الكرامَ فهاتِهَا ٣٦٠ ت
إن الفقيه هو الفقير وإنما راءُ الفقير تجمَّعت أطرافُها ١٥٦
قَدْ قَضى اللَّهُ أن أموتَ غرِيباً في بلادٍ أُسَاقُ كُرْهاً إليها
في فؤادي مُخَبَّآتُ مَعَانٍ نَزَلَتْ آيَةُ الحِجابِ عليها! ٢١٤

لعبد الله الصُّوْفي:

ألا قُلْ للوزير فَدَتْهُ نَفْسي مَقَالَةَ مُذْكِرٍ ما قد نَسِيْهِ
أتذكُرُ إذ تقولُ لضَنْكِ عَيْشٍ ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشترِيهِ؟! ٢٠١

للوزير المُهلَّبـي أبياتٌ منها:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشتريْهِ فهذا العَيْشُ ما لاخَيْرَ فيهِ
ألاَ مَوْتٌ لذيذُ الطَّعْمِ يأتي يُخلِّصُني من العَيْشِ الكرِيهِ ١٥٨، ٢٠١

لزهير بن أبـي سُلْمَى:

سَعَى بعدَهم قومٌ لكي يُدْرِكوهُمُ فلم يَفعلوا ولم يُلاَمُوا ولم يألُوا ٢٩٢

إذا سَمَتْ عَيْنٌ من تهوَاهُ عن ذهبٍ فالتِّبْرُ والتُّرْبُ في الدنيا لديك سَوَا ١٨٧

لابن نصر المالكي أبيات منها:

متى يَصلُ العِطاشُ إلى ارتِواءٍ إذا استقَت البحارُ من الرَّكَايَا
ومَنْ يَثْني الأصاغِرَ عن مُرادٍ وقدْ جَلَسَ الأكابرُ في الزَّوَايا ٢٠٨

يقيم الرجالُ المُوْسِرُون بأرضِهم وتَرْمِي النَّوَى بالمُقْتِرين المَرَامِيَا ١٦٣

***

٤ ـ الكتب ومؤلفوها

أ

ب

ت

ح

خ

د

ذ

ر

ش

ص

ض

ط

ف

م

ن

هـ

و

ي

*
**

٥ ـ الأعـلام

(١) ترجمتُ لبعض الأعلام بإيجاز، وأشرتُ إلى (من ترجمتُ له منهم) بوضع حَرْف م بعد رقم الصفحة التي جاءت فيها الترجمة. وحَرْفُ ت يشيرُ إلى ورود ما قبلَهُ في التعليق.

ورُوعِيَ في ترتيب الأسماء لفظُ (ابن) بعد الاسم الأول، فاسم (إبراهيم بن مصطفى صبري) يأتي قبل (إبراهيم المَرُّوذي)، و(محمد بن يوسف القاضي) يأتي قبل (محمد محمد حُسَين). وبعضُ المذكورين قد أكرِّرُ ذكرَهُ في موضعين أو ثلاثة، باسمه أو كنيته أو لقبه، أو نسبته كالطبري والجَوَاليقي، ليصل إليه المراجع بما يتبادرُ إلى ذهنه.

أبـو

أ

ذ

ر

ش

ن

***

٦ ـ المصادر والمراجع

١ ـ آداب الشافعي لابن أبي حاتم. السعادة ١٣٧٢. وصورتها مكتبة التراث الإسلامي بحلب دون تاريخ!
٢ ـ الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي. مطبعة المنار ١٣٤٨.
٣ ـ ابن حزم لأبي زهرة. دار الثقافة العربية، دون تاريخ.
٤ ـ الإبهاج في شرح المنهاج للتقي السبكي. طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١.
٥ ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي. الهاشمية بدمشق ١٣٥٨.
٦ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة للكنوي. حلب ١٣٨٤ والقاهرة ١٤٠٤.
٧ ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم. دار الآفاق بيروت ١٤٠٠.
٨ ـ أخبار القضاة لوكيع. الاستقامة ١٣٩٩.
٩ ـ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من «معجم السَّفَر» للسِّلَفي. استخرجها الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٦٣.
١٠ ـ اختصار النابلسي لطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى. مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠.
١١ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي. مصطفى البابي الحلبي ١٣٣٩.
١٢ ـ الأدب المفرد للبخاري. السلفية الطبعة الثانية ١٣٧٩.
١٣ ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمَقَّري. القاهرة ١٣٦٢.
١٤ ـ أساس البلاغة للزمخشري. مطبعة أورفاند ١٣٧٢.
١٥ ـ الأشباه والنظائر لابن نجيم. دار الكتب العلمية بيروت، مصورة عن طبعة مصطفى البابي الحلبي.
١٦ ـ إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس، لمحمد الطيب الفاسي. طبع وزارة الأوقاف بالمغرب ١٤٠٣.
١٧ ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ. الولايات المتحدة ١٩٣٠.
١٨ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي. الطبعة الثالثة بيروت ١٣٨٩.
١٩ ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة. الهاشمية بدمشق ١٣٧٩.
٢٠ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم. السعادة ١٣٧٤.

٢١ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لمحمد راغب الطباخ. المطبعة العلمية بحلب ١٣٤٥.
٢٢ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذَمَّ أهل التَّوْرِيخ للسخاوي. الترقي بدمشق ١٣٤٩.
٢٣ ـ الأغاني لأبـي الفرج الأصبهاني. طبع دار الكتب المصرية ١٣٨٣ وما بعدها.
٢٤ ـ الاغتباط بمعرفة من رُمِيَ بالاختلاط لسبط ابن العجمي. العلمية بحلب ١٣٥٠.
٢٥ ـ إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح لابن رُشَيْد. الدار التونسية دون تاريخ.
٢٦ ـ الإكمال لابن مَاكُوْلَا. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَّن بالهند ١٣٨١.
٢٧ ـ الإلماع للقاضي عياض. دار التراث ١٣٨٩.
٢٨ ـ الأمالي لأبـي علي القالي. دار الكتاب العربـي دون تاريخ مصورة عن طبعة القاهرة.
٢٩ ـ أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني. طبعة ليدن ١٩٥٢، وعنها طبعة بيروت ١٤٠١.
٣٠ ـ أمراء المؤمنين في الحديث لعبد الفتاح أبو غدة مع رسالة الحافظ المنذري. بيروت ١٤١١.
٣١ ـ إنباه الرواة للقِفطي. دار الكتب المصرية ١٣٧٤.
٣٢ ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر. المعاهد ١٣٥٠.
٣٣ ـ الأنساب للسمعاني. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند، ١٣٨٢.
٣٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير. السعادة ١٣٥١.
٣٥ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. مطبعة عيسى البابـي الحلبـي ١٣٨٤.
٣٦ ـ بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للكوثري. السعادة ١٣٥٥.
٣٧ ـ البناية بشرح الهداية للعيني. نولكشور بالهند ١٢٩٣.
٣٨ ـ البوابة السوداء لأحمد رائف. دار اللواء ـ عمان ١٣٩٤.
٣٩ ـ تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي. الخيرية ١٣٠٦.
٤٠ ـ تاريخ ابن جرير الطبري. دار سُويدان بيروت، مصورة عن طبعة دار المعارف ١٣٨٧.
٤١ ـ تاريخ الإسلام للذهبـي (القسم المخطوط منه).
٤٢ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. السعادة ١٣٤٩.
٤٣ ـ تاريخ التراث العربـي لفؤاد سزكين، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٤٠٣.
٤٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي. المنيرية ١٣٥١.
٤٥ ـ تبيين كذب المفتري لابن عساكر. مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧.
٤٦ ـ تحسين القبيح وتقبيح الحسن للثعالبـي. طبع وزارة الأوقاف العراقية بغداد ١٤٠١.
٤٧ ـ تدريب الراوي شرح تقريب النواوي للسيوطي. المكتبة العلمية ١٣٧٩.
٤٨ ـ تذكرة الحفاظ للذهبـي. الطبعة الثالثة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٣٧٥.
٤٩ ـ تذكرة السامع والمتكلم بآداب العالم والمتعلم لابن جماعة. طبع حيدر آباد الدكن بالهند سنة

١٣٥٤، وصور عنها ببيروت دون تاريخ.
٥٠ ـ ترتيب ثقات العجلي للسبكي. مكتبة الدار بالمدينة المنورة ١٤٠٥.
٥١ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، بيروت ١٣٨٧ والمطبعة الملكية بالرباط بالمغرب الأقصى ١٣٨٤ وما بعدها.
٥٢ ـ التصوير عند العرب لتيمور باشا. لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٢.
٥٣ ـ تعليم المتعلم طريق التعلم للزَّرْنُوجي. المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠١.
٥٤ ـ تفسير ابن كثير. مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٦ ودار الأندلس ببيروت ١٣٨٥.
٥٥ ـ تفسير ابن جرير. طبعة دار المعارف بتحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر ١٣٧٤.
٥٦ ـ تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي. حيدر آباد ١٣٧١.
٥٧ ـ تقدمة أبي عبد الرحمن بن عقيل ضمن عنوان: «الشروح والتعليقات على كتب الأحكام لعبد الحق الإشبيلي» ١٤٠٣.
٥٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووي. المنيرية دون تاريخ.
٥٩ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر. دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن ١٣٢٥.
٦٠ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمِزِّي. (مخطوط).
٦١ ـ تهذيب اللغة للأزهري. دار القومية العربية للطباعة ١٣٨٤ وما بعدها.
٦٢ ـ توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار للصنعاني. السعادة ١٣٦٦.
٦٣ ـ ثمار القلوب للثعالبي. دار نهضة مصر ١٣٨٤.
٦٤ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب. تحقيق محمود طحان، الرياض ١٤٠٣.
٦٥ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. دار الكتب المصرية ١٣٥٤.
٦٦ ـ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٧١.
٦٧ ـ الجمع بين رجال الصحيحين لابن طاهر المقدسي. طبع حيدر آباد بالهند ١٣٢٣ وصُوِّر عنها ببيروت ١٤٠٥.
٦٨ ـ الجمهرة لابن دريد. دار صادر ببيروت طبعة مصورة عن طبعة حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٤.
٦٩ ـ جواب الحافظ المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل بتعليق عبد الفتاح أبو غدة. طبع بيروت ١٤١١.
٧٠ ـ الجواهر المضية للحافظ القرشي. حيدر آباد ١٣٣٢، ومطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٩٨ بتحقيق عبد الفتاح الحلو.
٧١ ـ حاشية الباجوري على السنوسية في علم التوحيد. مطبعة البابي الحلبي ١٣٣٥.

٧٢ ـ حسن التقاضي في سيرة الإمام أبـي يوسف القاضي للكوثري. مطبعة الأنوار ١٣٦٨.
٧٣ ـ حضارة العرب لغوستاف لوبون. الطبعة الثانية ١٣٦٧ بمطبعة عيسى البابي الحلبـي.
٧٤ ـ الحِكَم العطائية لابن عطاء الله الإسكندري. بشرح «إيقاظ الهِمَم» لابن عجيبة. المطبعة الجمالية ١٣٣١.
٧٥ ـ حلية الأولياء لأبـي نعيم. دار الكتاب العربـي ١٤٠٠، مصورة من طبعة القاهرة.
٧٦ ـ الحوادث الجامعة لعبد الرزاق الفُوَطي. السعادة ١٣٦٧.
٧٧ ـ الحيوان للجاحظ. مطبعة مصطفى البابي الحلبـي الطبعة الثانية ١٣٨٥.
٧٨ ـ الخصائص لابن جِنِّيْ. دار الهُدَى بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
٧٩ ـ خلاصة الخزرجي في أسماء الرجال. الطبعة الثالثة بيروت ١٣٩٩.
٨٠ ـ الدر المختار للحَصْكَفي، بولاق ١٢٧٢.
٨١ ـ دليل المسافر لأحمد الحسيني. بولاق ١٣١٩.
٨٢ ـ الديباج المُذْهَب لابن فرحون المالكي. مطبعة المعاهد ١٣٥١.
٨٣ ـ ديوان البحتري. دار المعارف ١٩٦٣.
٨٤ ـ ديوان بشار بن بُرْد. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩.
٨٥ ـ ذكر أخبار أصبهان لأبـي نعيم. طبع ليدن سنة ١٩٣١.
٨٦ ـ ذيل الجواهر المضية لعلي القاري. طبع حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢.
٨٧ ـ ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي. السنّة المحمدية ١٣٨٢.
٨٨ ـ ذيول تذكرة الحفاظ للحسيني وابن فهد والسيوطي. مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧.
٨٩ ـ رحلة الخِياري لإبراهيم بن عبد الرحمن الخِياري المدني. دار الرشيد للنشر بغداد. ١٩٧٩.
٩٠ ـ الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي. مطابع المجد ١٣٨٩ وطبعة بيروت ١٣٩٥.
٩١ ـ رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين. بولاق ١٢٧٢.
٩٢ ـ الرسالة التدمرية لابن تيمية. طبعة جامعة الإمام بالرياض ١٣٩٦.
٩٣ ـ رسالة المسترشدين للحارث المحاسبـي. بيروت الثانية ١٣٩١، والثالثة ١٣٩٤.
٩٤ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر. المطبعة الأميرية ١٩٥٧.
٩٥ ـ روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لمحمد الأماسي. بولاق ١٢٨٠.
٩٦ ـ رياض النفوس لأبـي بكر المالكي. دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠٣.
٩٧ ـ زاد المعاد لابن القيم. السنَّة المحمدية ١٣٧٠.
٩٨ ـ الزهد لعبد الله بن المبارك. مجلس إحياء المعارف بمالكيون بالهند ١٣٨٥.
٩٩ ـ سَرْحُ العيون لابن نُبَاتة. مطبعة المدني ١٣٨٣.

١٠٠ ـ سنن ابن ماجَهْ بخدمة محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢.
١٠١ ـ سنن أبي داود. الطبعة الثانية بتحقيق محيي الدين عبد الحميد طبعة مصطفى محمد ١٣٦٩.
١٠٢ ـ سنن الدارمي. الطباعة الفنية ١٣٨٦.
١٠٣ ـ السنوسية بشرح الباجوري. الاستقامة ١٣٥٢.
١٠٤ ـ سِيَر أعلام النبلاء للذهبي. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١.
١٠٥ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لابن مخلوف. المكتبة السلفية ومطبعتها ١٣٤٩.
١٠٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي. مكتبة القدسي ١٣٥٠.
١٠٧ ـ شرح الإحياء للزَّبِيدي. الميمنية ١٣١١.
١٠٨ ـ شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث. فاس ١٣٥٤، ومصر ١٣٥٥.
١٠٩ ـ شرح شرح النخبة لعلي القاري. مطبعة إخوت باصطنبول ١٣٢٧.
١١٠ ـ شرح صحيح مسلم للنووي. المصرية ١٣٤٧.
١١١ ـ شرح العقيدة الطحاوية للأذرعي. طبعة كلية الشريعة بالرياض ١٣٩٦.
١١٢ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف للعسكري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٣.
١١٣ ـ شفاء الغليل للخفاجي. المطبعة المنيرية ١٣٧١.
١١٤ ـ شمس العلوم لنَشْوَان الحِمْيري. طبعة عالم الكتب بالرياض تصوير عن الطبعة المصرية.
١١٥ ـ صبح الأعشى للقَلْقَشَنْدِي. طبع دار الكتب المصرية ١٣٣١.
١١٦ ـ الصحاح في اللغة للجوهري بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار. دار الكتاب ١٣٧٦.
١١٧ ـ صحيح البخاري المطبوع معه «فتح الباري» الآتي ذكره.
١١٨ ـ صحيح مسلم المطبوع معه شرح النووي المتقدم ذكره.
١١٩ ـ صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان. دمشق المكتب الإسلامي ١٣٨٠.
١٢٠ ـ صفحة مشرقة من تاريخ السماع عند المحدثين لعبد الفتاح أبو غدة. طبع دار القلم بيروت ١٤١٢.
١٢١ ـ صفوة الصفوة لابن الجوزي. دار الوعي بحلب ١٣٨٩.
١٢٢ ـ صُوَر مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي لميخائيل عوّاد منشورات الثقافة والإعلام ببغداد ١٩٨١.
١٢٣ ـ صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط لابن الصلاح. دار الغرب الإسلامي ١٤٠٤.
١٢٤ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي. دار الفكر بدمشق ١٣٨٠. ودار الكتب الحديثة بمصر دون تاريخ.
١٢٥ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي. مكتبة القدسي ١٣٥٥.

١٢٦ ــ الطالع السعيد للأُدْفُوِي. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
١٢٧ ــ طبقات الحفاظ للسيوطي. مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٣.
١٢٨ ــ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي. مطبعة السنَّة المحمدية دون تاريخ.
١٢٩ ــ طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي. الحسينية ١٣٢٤، والبابي الحلبي المحققة ١٣٨٢.
١٣٠ ــ طبقات الشافعية للأسنوي. طبع وزارة الأوقاف العراقية ١٣٩١.
١٣١ ــ طبقات علماء إفريقية لأبي العرب القيرواني. الدار التونسية ١٩٦٨.
١٣٢ ــ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي. دار الرائد العربي بيروت ١٤٠١.
١٣٣ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد. دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦.
١٣٤ ــ طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار. الدار التونسية تونس ١٣٩٣.
١٣٥ ــ ظهر الإسلام لأحمد أمين. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠.
١٣٦ ــ العِبَر في خبر من غبر للحافظ الذهبي. مطبعة الحكومة بالكويت ١٣٨٦.
١٣٧ ــ العسجد المسبوك لإسماعيل الرَّسُولي. دار التراث الإسلامي ودار البيان بغداد ١٣٩٥.
١٣٨ ــ العِلَلُ ومعرفةُ الرجال لأحمد بن حنبل. طبعة جامعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢، وطبعة المكتبة الإسلامية باصطنبول ١٤٠٦.
١٣٩ ــ العلماء العزاب لعبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٢.
١٤٠ ــ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢، مصورة عن طبعة القاهرة ١٣٥٢.
١٤١ ــ غرائب الاغتراب للآلوسي. مطبعة الشابندر بغداد ١٣١٧.
١٤٢ ــ غُرَر الخصائص الواضحة للوَطْوَاط. المطبعة الشرفية ١٢٩٩.
١٤٣ ــ غريب الحديث لابن قتيبة. مطبعة العاني ببغداد ١٣٩٧.
١٤٤ ــ غريب الحديث لأبي عُبَيد. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٨٤.
١٤٥ ــ الفائق في غريب الحديث للزمخشري. مطبعة عيسى البابي الحلبي دون تاريخ.
١٤٦ ــ فتح باب العناية لعلي القاري. حلب مطبعة الأصيل ١٣٨٧ الجزء الأول.
١٤٧ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر. بولاق ١٣٠٠ والسلفية ١٣٨٠.
١٤٨ ــ فتح الباقي للقاضي زكريا. طبعة فاس ١٣٥٤.
١٤٩ ــ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي. لكنو بالهند ١٣٠٣.
١٥٠ ــ الفرج بعد الشدة للمُحسِّن التنوخي. دار صادر بيروت ١٣٩٨.

١٥١ ـ الفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادي. دار المعرفة بيروت، مصورة عن طبعة القاهرة.
١٥٢ ـ الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل لابن حزم . الأدبية ١٣١٧.
١٥٣ ـ فضائل أبـي حنيفة وأصحابه لابن أبـي العَوَّام (مخطوط).
١٥٤ ـ فضل الاعتزال لعبد الجبار المعتزلي. الدار التونسية ١٣٩٣.
١٥٥ ـ فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب الحنبلي. طبع إدارة الطباعة المنيرية دون تاريخ.
١٥٦ ـ الفقيه والمتفقه للخطيب. مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٩.
١٥٧ ـ الفَلَاكَةُ والمفلوكون للدَّلَجي. مطبعة الشعب ١٣٢٢.
١٥٨ ـ الفنون لأبـي الوفاء بن عقيل. المكتبة الشرقية ببيروت ١٩٨٦.
١٥٩ ـ الفهرست لابن النديم تحقيق رضا تجدُّد. طِهران دون تاريخ.
١٦٠ ـ فهرس الفهارس والأثبات لعبد الحي الكتاني. فاس ١٣٤٦.
١٦١ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية للَّكْنَوِي. السعادة ١٣٢٤.
١٦٢ ـ فوات الوَفَيات لابن شاكر الكتبـي. دار صادر بيروت ١٩٧٤.
١٦٣ ـ فيض القدير للمُنَاوي. مصطفى محمد ١٣٥٦.
١٦٤ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي. الحسينية المصرية ١٣٣٠.
١٦٥ ـ قضاة قرطبة للخُشَني. طبعة عزت العطار ١٣٧٢.
١٦٦ ـ القناعة لأبي بكر الدِّيْنَوَرِي. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي بالكويت دون تاريخ، ومكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩.
١٦٧ ـ قيمة الزمن عند العلماء لعبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الخامسة بيروت ١٤١٠.
١٦٨ ـ الكامل لابن الأثير. دار الكتاب العربـي ١٤٠٣.
١٦٩ ـ الكتاب لسيبويه. عالم الكتب ببيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٣.
١٧٠ ـ كتاب العلم لأبـي خَيْثَمة النسائي. المطبعة العمومية بدمشق ١٣٨٥.
١٧١ ـ الكشاف للزمخشري. مطبعة مصطفى البابـي الحلبـي ١٣٩٢.
١٧٢ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجِّي خليفة. طبع إصطنبول ١٣٦٠.
١٧٣ ـ الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٥٧.
١٧٤ ـ كنوز الأجداد لمحمد كُرْدعلي. الترقي بدمشق ١٣٧٠.
١٧٥ ـ لُباب الألباب لأسامة بن منقذ. مطبعة مصطفى البابـي الحلبـي ١٣٥٤ وصورت عنها.
١٧٦ ـ لسان العرب لابن منظور. بولاق ١٣٠٠. وطبعة صادر ببيروت دون تاريخ.
١٧٧ ـ لسان الميزان لابن حجر. دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد بالهند ١٣٢٩.

١٧٨ ــ اللغة والنحو لعباس حسن. بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٠، والمكتبة السلفية بالقاهرة ١٤٠٧.

١٧٩ ــ لَفْتَةُ الكَبِد لابن الجوزي. المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٢.

١٨٠ ــ اللُّقَط في حكايات الصالحين لابن الجوزي. (مخطوط).

١٨١ ــ لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث لعبد الفتاح أبو غدة بيروت ١٤٠٤.

١٨٢ ــ مجلة الفيصل التي تصدر في الرياض.

١٨٣ ــ مجلة اللغة العربية التي تصدرها كلية اللغة العربية بجامعة الإمام.

١٨٤ ــ مجلة الوعي الإسلامي التي تصدر في الكويت.

١٨٥ ــ مجمع الأمثال للميداني. المطبعة الخيرية ١٣١٠، ومطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٢٨.

١٨٦ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي. مكتبة القدسي ١٣٥٢.

١٨٧ ــ المجموع شرح المهذب للنووي. مطبعة التضامن الأخوي ١٣٤٤.

١٨٨ ــ محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني. طبع بيروت دون تاريخ ولا اسم مطبعة.

١٨٩ ــ المحدِّث الفاصِل للرامَهُرْمُزِي. دار الفكر بيروت ١٣٩١.

١٩٠ ــ المخصَّص لابن سِيْدَه. دار الآفاق الجديدة بيروت دون تاريخ، مصوراً عن طبعة بولاق.

١٩١ ــ مَدَارج السالكين لابن القيم. مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥.

١٩٢ ــ مراصد الاطلاع لعبد المؤمن. مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٣.

١٩٣ ــ المَرْقَبَةُ العُلْيا المعنون بتاريخ قضاة الأندلس للنّباهي. دار الكتاب المصري ١٩٤٨.

١٩٤ ــ مروج الذهب للمسعودي. طبع باريس ١٩١٤.

١٩٥ ــ المُزْهِر في علوم اللغة للإمام السيوطي. عيسى البابي الحلبي دون تاريخ.

١٩٦ ــ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل لعبد الفتاح أبو غدة. دار القلم ببيروت ١٣٩١.

١٩٧ ــ المستدرك للحاكم. حيدر آباد الدكن ١٣٣٤.

١٩٨ ــ المستصفَى من علم الأصول للغزالي. بولاق ١٣٢٢.

١٩٩ ــ المسند للإمام أحمد بن حنبل. المطبعة الميمنية ١٣١٣.

٢٠٠ ــ المضنون به على غير أهله للزنجاني. مطبعة السعادة ١٩١٣. شرحه العُبَيدي من علماء القرن الثامن للهجرة.

٢٠١ ــ معالم الإيمان لأبي زيد الدباغ ١٣٨٨.

٢٠٢ ــ معاهد التنصيص للعباسي. طبعة مصطفى محمد ١٣٦٧.

٢٠٣ ــ معجم الأدباء لياقوت الحَمَوي. دار المأمون ١٣٥٥.

٢٠٤ ـ معجم الألفاظ الفارسية لأدِّي شِير. مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٠.
٢٠٥ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي. السعادة ١٣٢٣ وغيرها من طبعاته.
٢٠٦ ـ معجم السَّفَر للسِّلَفِي. نشر وزارة الثقافة والفنون العراقية ببغداد ١٣٩٨.
٢٠٧ ـ معجم لاروس لخليل الجرّ. المطبعة البولسية في جونية لبنان ١٩٧٢.
٢٠٨ ـ معجم المصطلحات الحضارية لعبد الله الجُبُوري. بآخر طبقات الشافعية للأسنوي طبع وزارة الأوقاف العراقية ١٣٩١.
٢٠٩ ـ المعجم الذهبي لمحمد ألتُونجي. دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠.
٢١٠ ـ المعجم الوسيط في اللغة العربية لجماعة من العلماء. دار المعارف ١٣٩٢.
٢١١ ـ معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري. دار الكتب المصرية ١٣٥٦.
٢١٢ ـ معرفة أنواع عِلْم الحديث لابن الصلاح. المطبعة العلمية بحلب ١٣٥٧.
٢١٣ ـ معرفة القُرَّاء الكبار للذهبي. دار التأليف ١٣٨٧، ومؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤.
٢١٤ ـ المعرفة والتاريخ ليعقوب الفَسَوِي. مطبعة الإرشاد بغداد ١٣٩٤.
٢١٥ ـ المعيد في أدب المفيد والمستفيد لعبد الباسط بن موسى العَلْمَوِي. دمشق المكتبة العربية ١٣٤٩.
٢١٦ ـ المُغْرِب للمُطَرِّزي. مكتبة أسامة بن زيد بحلب ١٣٩٩.
٢١٧ ـ المغني لابن هشام. طبعة القاهرة والمصورة عنها ببيروت دون تاريخ.
٢١٨ ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم. مكتبة الأزهر الطبعة الثانية ١٣٥٨.
٢١٩ ـ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨١.
٢٢٠ ـ المقاصد الحسنة للسخاوي. دار الأدب العربي ١٣٧٥.
٢٢١ ـ مقاييس اللغة لابن فارس. مطبعة قُم بإيران تصوير عن طبعة عيسى البابي الحلبي.
٢٢٢ ـ مقدمة ابن خلدون. بولاق ١٢٧٤.
٢٢٣ ـ المكافأة لابن الداية. مطبعة الاستقامة ١٣٥٩.
٢٢٤ ـ الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي لصلاح حسين العبيدي. وزارة الثقافة العراقية ١٩٨٠.
٢٢٥ ـ من أخلاق العلماء للقاضي محمد سليمان. السلفية ١٣٥٣.
٢٢٦ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ١٣٩٠.
٢٢٧ ـ مناقب أبي حنيفة للموفَّق الخُوَارزمي. بيروت ١٤٠١.
٢٢٨ ـ مناقب أبي حنيفة للكَرْدَرِيّ. بيروت ١٤٠١.

٢٢٩ ـ مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي. السعادة ١٣٤٩. والمحققة ١٣٩٩.
٢٣٠ ـ مناقب الشافعي للبيهقي. دار النصر للطباعة ١٣٩١.
٢٣١ ـ المنتظَمُ لابن الجوزي. حيدر آباد الدكن ١٣٥٧.
٢٣٢ ـ المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعُليمي. المدني ١٣٨٣.
٢٣٣ ـ المُنْيَة والأمَل لابن المرتضَى. دار المعارف النظامية بحيدر آباد سنة ١٣١٦. وعنها تصوير صادر بيروت.
٢٣٤ ـ موضح أوهام الجَمْع والتفريق للخطيب البغدادي. حيدر آباد ١٣٧٨.
٢٣٥ ـ الموطأ للإمام مالك. عيسى الحلبي دون تاريخ.
٢٣٦ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي. عيسى الحلبي ١٣٨٢.
٢٣٧ ـ النجوم الزاهرة لابن تَغْرِي بَرْدِي. دار الكتب المصرية ١٣٤٨.
٢٣٨ ـ النحو الوافي لعباس حسن. دار المعارف الطبعة السابعة ١٩٨١.
٢٣٩ ـ نزهة الألباء للأنباري. طبعة دار نهضة مصر ١٣٨٦.
٢٤٠ ـ نِشْوار المحاضرة للمُحسِّن التنوخي. دار صادر بيروت ١٣٩١.
٢٤١ ـ نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (مخطوط).
٢٤٢ ـ نفح الطيب للمَقَّري. تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ١٣٨٨.
٢٤٣ ـ نَكْت الهِمْيَان في نُكَت العميان للصفدي. طبعة أحمد زكي باشا ١٩١٠.
٢٤٤ ـ نوابغ الكَلِم للزمخشري. المطبعة الكلية ١٣٣٢.
٢٤٥ ـ النوادر لأبي علي القالي. طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤.
٢٤٦ ـ النور السافر للعيدروس. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣.
٢٤٧ ـ النهاية لابن الأثير. مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣.
٢٤٨ ـ نيل الابتهاج للتُنْبُكْتِي. السعادة ١٣٣٠.
٢٤٩ ـ هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي. وكالة المعارف بإصطنبول ١٩٥١.
٢٥٠ ـ هَدْيُ الساري في مقدمة فتح الباري لابن حجر. المنيرية ١٣٤٧.
٢٥١ ـ الوافي بالوفَيَات للصلاح الصَّفَدِي. طبعة فرانز في تركيا ١٣٨١.
٢٥٢ ـ وفيات الأعيان لابن خَلِّكان. الميمنية ١٣١٠، ودار الثقافة بيروت، بتحقيق إحسان عباس.

٧ ــ الموضوعات(١)

---

(١) حرف (ت) يشير إلى أن ما قبله وارد في التعليق.

الجانب الثاني

في أخبارهم في هجر النوم والراحة والدَّعَة وسائر اللذاذات

الجانب السادس
في أخبارهم في فقد الكتب أو المُصابِ بها أو بيعِها والخروجِ عنها أو نحوِ ذلك عند المُلِمَّات أو تحصيلِها ببيع الملبوسات

خبران جامعان لجُلِّ ما تقدم من الجوانب
يتلوهما ثلاثةُ أخبار جامعات

***

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب
المحققات والمؤلفات للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة رحمه الله تعالى وغفر له :

١ ــ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي، صدرت الطبعة الثامنة .
٢ ــ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، في علوم الحديث للكنوي، الطبعة السادسة .
٣ ــ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام اللكنوي أيضاً، الطبعة الثالثة .
٤ ــ رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي، الطبعة الثامنة مزيدة من التحقيق والتعليق والمقابلة بالنُّسخ الخطية، طبعت ببيروت ١٤١٥، وصدرت الطبعة الحادية عشرة مصحَّحة ومنقَّحة ومدقَّقة .
٥ ــ التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري، الطبعة السادسة .
٦ ــ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للفقيه المالكي الإمام شهاب الدين أبي العباس القَرَافي، تصدر الطبعة الثالثة منقحة ومصححة .
٧ ــ فتحُ بابِ العِنَايةِ بشرح كتابِ النُّقَايةِ في الفقه الحنفي للإمام علي القاري الجزء الأول : كتاب الطهارة، صدرت الطبعة الثانية .
٨ ــ المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام ابن قيم الجوزية، صدرت الطبعة السادسة .
٩ ــ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً، الطبعة السادسة .
١٠ ــ فقه أهل العراق وحديثهم للإمام المحقق محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، وقد صدرت الطبعة الثالثة مضافة إلى مقدمة نصب الراية، الطبعة المحققة .
١١ ــ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث وناقد، وقد أدرجت هذه الرسالة ضمن حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث، وصدرت طبعتها المستقلة الثانية .
١٢ ــ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخزرجي، خيرُ كتب الرجال المختصرة، بتقدمة واسعة وترجمةٍ لمحشِّيه للأستاذ أبو غدة، الطبعة الخامسة .
١٣ ــ صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة، نفدت الطبعة السابعة وصدرت الطبعة الثامنة .
١٤ ــ قواعد في علوم الحديث للعلامة ظَفَر أحمد العثماني التهانوي، الطبعة الثامنة .
١٥ ــ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات، بقلم الأستاذ أبو غدة أيضاً، الطبعة الثانية، وهي رَدٌّ على أباطيل وافتراءات ناصر الألباني وصاحبه سابقاً زهير الشاويش ومؤازِرِيهما .
١٦ ــ قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي، الطبعة السابعة .
١٧ ــ المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الطبعة السابعة.
١٨ ــ ذكرُ من يُعتمَدُ قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي، الطبعة السابعة .

١٩ ــ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج للأستاذ أبو غدة، الطبعة الرابعة، مزيدة من التحقيق والتعليق والتراجم والفوائد العلمية عن سابق الطبعات، ببيروت ١٤١٥ . وصدرت الطبعة السادسة مصححة ومنقحة في بيروت ١٤٢٩ .
٢٠ ــ قيمة الزمن عند العلماء، بقلم الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٣٠ .
٢١ ــ قصيدة «عُنوانُ الحِكَم» لأبي الفتح البُسْتي، بتعليق الأستاذ أبو غدة أيضاً، الطبعة الرابعة.
٢٢ ــ الموقظة في علم مصطلح الحديث، للحافظ الذهبي، صدرت الطبعة الثامنة منقَّحة.
٢٣ ــ لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، صدرت الطبعة الرابعة موشاة ومحشاة ومزيدة جدًّا عن الطبعة الثالثة.
٢٤ ــ تراجمُ سِتَّةٍ من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، بقلم الأستاذ أبو غدة.
٢٥ ــ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للحافظ ابن عبد البر، يصدر لأول مرة في طبعة محققة مقابلاً على ثلاث نسخ خطية. صدرت الطبعة الثانية.
٢٦ ــ سنن النسائي، اعتنى به ورقَّمه وصَنَع فهارسه الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة.
٢٧ ــ الترقيم وعلاماته في اللغة العربية لأحمد زكي باشا، الطبعة الثانية مزيدة من التعليق، ١٤١٥ .
٢٨ ــ سِبَاحة الفِكْر في الجهر بالذكر للإمامِ اللكنوي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة.
٢٩ ــ قفو الأثر في صفو علوم الأثر لابن الحنبلي، الحنفي الحلبي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.
٣٠ ــ بُلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب للحافظ المرتضى الزبيدي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.
٣١ ــ جواب الحافظ عبد العظيم المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.
٣٢ ــ أُمراءُ المؤمنين في الحديث، رسالة لطيفة فيها مباحث هامة، تأليف الأستاذ أبو غدة. الطبعة الثانية.
٣٣ ــ تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار صلَّى الله عليه وسلَّم للإمام اللكنوي. ومعها:
٣٤ ــ نخبة الأنظار على تحفة الأخيار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً.
٣٥ ــ التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للإمام المحقق الشيخ طاهر الجزائري، صدرت الطبعة الرابعة.
٣٦ ــ توجيه النظر إلى أصول الأثر للإمام طاهر الجزائري أيضاً حققه الأستاذ أبو غدة.
٣٧ ــ صفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة.
٣٨ ــ الإسناد من الدين. رسالة تُبيِّن فضل الإسناد وأهميته والعلوم التي يتعين فيها، له أيضاً.
٣٩ ــ السنة النبوية وبيانُ مدلولها الشرعي، والتعريف بحال سنن الدارقطني للأستاذ أبو غدة أيضاً.
٤٠ ــ تحقيقُ اسمَيْ الصحيحين واسمِ جامع الترمذي للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة أيضاً.
٤١ ــ منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلم ما يقع وما لم يقع، له أيضاً.
٤٢ ــ من أدب الإسلام، رسالة توجيهية سلوكية تتصل بحياة المسلم أوثق اتصال له أيضاً. صدرت الطبعة الأولى من القطع المعتاد، وصدرت الطبعة السابعة من القطع الصغير.
٤٣ ــ ظَفَر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجُرجاني للكنوي من أوسع كتب المصطلح. ومعه:
٤٤ ــ أخطاء الدكتور تقي الدين النَّدْوي في تحقيق كتاب ظَفَر الأماني للكنوي، للأستاذ أبو غدة.

٤٥ ــ تصحيح الكتب وصُنعُ الفهارس المُعْجَمة وسبقُ المسلمين الإفرنجَ فيها للعلامة أحمد شاكر.

٤٦ ــ تحفة النُّسَّاك في فضل السواك للعلامة الفقيه عبد الغني الغُنَيمي الميداني الدمشقي.

٤٧ ــ كشف الالتباس عما أورده الإمام البخاري على بعض الناس للعلامة الغُنَيمي أيضاً.

٤٨ ــ رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة الإسلامية التي يُنشَّأُ عليها الصغار. بعناية الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، صدرت الطبعة الخامسة منقحة.

٤٩ ــ التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز للعلامة المحدث الفقيه محمد زاهد الكوثري.

٥٠ ــ كتاب الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي. الطبعة الثانية.

٥١ ــ الحث على التجارة والصناعة والعمل للإمام أبي بكر أحمد بن محمد الخلّال الحنبلي.

٥٢ ــ رسالة الحلالُ والحرامُ وبعضُ قواعدهما في المعاملات المالية للشيخ ابن تيمية. الطبعة الثانية.

٥٣ ــ رسالة الأُلفة بين المسلمين من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. ومعها:

٥٤ ــ رسالة الإمامة للإمام ابن حزم في جواز الاقتداء بالمخالف في الفروع. صدرت الطبعة الثانية مصحَّحة ومنقحة.

٥٥ ــ رسالة الإمام أبي داود السجستاني لأهل مكة في وصف كتابه السنن.

٥٦ ــ رسالة الحافظ الإمام أبي بكر الحازمي في شروط كتب الأئمة الخمسة.

٥٧ ــ رسالة الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في شروط كتب الأئمة الستة. وهذه الرسائل مطبوعة باسم: ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث. الطبعة الثانية.

٥٨ ــ الرسول المعلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة. صدرت الطبعة الرابعة مصححة ومنقحة.

٥٩ ــ نماذج من رسائلِ الأئمة السلف وأدبهم العلمي وأخبارِهم في أدب الخلاف، له أيضاً. صدرت الطبعة الثانية مصححة ومنقحة.

٦٠ ــ مكانة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الحديث. كتابٌ نفيس للغاية فريدٌ في بابه، تأليف العلامة المحدث الناقد الفقيه الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني، صدرت الطبعة الخامسة.

٦١ ــ الإمامُ ابن ماجه وكتابُه السنن. أولُ كتابٍ جامع في موضوعه للعلامة النعماني أيضاً.

٦٢ ــ التحفة المرغوبة في أفضلية الدعاء بعد المكتوبة للعلامة المحدِّث الفقيه محمد هاشم التَّتَّوِي السِّندي. صدرت الطبعة الثانية منقحة.

٦٣ ــ المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلامة المحدِّث الفقيه أحمد بن محمد بن الصديق الغُمَاري الحَسَني المغربي. صدرت الطبعة الثانية منقحة.

٦٤ ــ سنية رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة للعلامة المحدِّث الفقيه السيد محمد الأهدل اليمني. صدرت الطبعة الثانية منقحة.

٦٥ ــ خطبة الحاجة ليست سنة في مستهل الكتب والمؤلفات كما يقول الشيخ الألباني، رسالة مبتكرة محرَّرة بقلم الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة، الطبعة الثانية.

٦٦ ــ مقدمة التمهيد، لابن عبد البرّ. بعناية الشيخ أبو غدة.

٦٧ ـ رسالة في وصل البلاغات الأربعة في الموطأ، لابن الصلاح.
٦٨ ـ ما لا يسع المحدث جهله، للميَّانشي. بعناية الشيخ أبو غدة.
٦٩ ـ التسوية بين حدثنا وأخبرنا، للطحاوي. بعناية الشيخ أبو غدة.
٧٠ ـ رسالة في جواز حذف قال في أثناء الإسناد، لابن بَنِّيس الفاسي.
٧١ ـ لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة محقَّقة ومفهرسة، بعناية الشيخ أبو غدة.

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً مما أتمه الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة رحمه الله تحقيقاً وتعليقاً بعناية ابنه سلمان:

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام اللكنوي، الطبعة التاسعة مزيدة ومنقحة.
٢ ـ مبادىء علم الحديث، للعلامة المحدث الفقيه شبِّير أحمد العثماني.

تُطلَبُ كتب الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة من المكتبات التالية:

السعودية ـ الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، مكتبة العُبَيْكان، مكتبة الرشد، المكتبة التدمرية، دار أطلس، مكتبات المؤيد، مكتبة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتبة الكوثر. **مكة المكرمة**: المكتبة الإمدادية، المكتبة المكية، المكتبة الفيصلية، مكتبة الأسدي. **المدينة المنورة**: مكتبة العلوم والحكم، مكتبة الزمان. **جُدَّة**: دار الأندلس الخضراء، مكتبة المؤيد، مكتبة الشنقيطي. **الطائف**: مكتبة الصِّدِّيق. **أَبْها**: مكتبة الجَنُوب. **الإحساء**: مكتبة التعاون الثقافي، مكتبة المؤيد. **الخُبر**: مكتبة المجتمع. **الدمام**: مكتبة المتنبي، دار ابن الجوزي. **الثقبة**: دار الهجرة. **عنيزة**: مكتبة الذهبي. **بريدة**: مكتبة أصداء المجتمع. **الكويت ـ الكويت**: مكتبة المنار الإسلامية، مكتبة ابن كثير. **الإمارات العربية المتحدة ـ دبي**: دار القلم. **أبو ظبي**: مكتبة الجامعة. **الأردن ـ عمان**: دار النفائس، دار الرازي. **مصر ـ القاهرة**: دار السلام، دار الغنَّاء. **المغرب ـ الرباط**: دار الأمان. **الدار البيضاء**: دار العلم. **العراق ـ بغداد**: دار إحياء التراث العربي. **لبنان ـ بيروت**: دار البشائر الإسلامية.
وغيرها من المكتبات.